أحمد بن محمد الشامي



الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

رياح التغيير

في اليمن

الإهداء:

إلى تلاميذ مدرسة الأيتام

في الماضي والحاضر والمستقبل

أهدي

ذكريات «يتيم من صنعاء»

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه، محمد بن عبدالله، وعلى آله الطاهرين وأصحابه الهداه.

و بعد فسأروي في هذه الصفحات قصة حياتي أو ما أتذكّره منها وسألتزم الوضوح والصراحة جهدي، ولن أتعمّد، أو أتكلّف التأنّق البياني لا لفظاً ولا تعبيرا، ولن أحفل بما يتوهمه الناس عظيما وخطيرا من الأحداث والأشياء أكثر مما أحفل بما يرونه أو يظنّونه تافها حقيرا؟

قصة يتيم:

سأروي قصة حياتي بسذاجة الوضوح و براءته؛ وهي قصة عادية تحكي قصّة معظم البشر.. وما كان لي أن أهتم بتدو ينها ـــ إلاّ إذا كان من المفروض على كلّ إنسان أن يهتم بتدو ين قصّة حياته؛ ولولا أن الكثير من الأصدقاء قد طالبوني بتدو ينها لما فعلت إذ أن النّاس قد لا يجدون فيها شيئاً مما يعتبرونه عظيما خطيرا. وإذا راقهم شيء فلأنّها تحكي بسذاجة قصة الكثير منهم ولا سيما أولئك الذين فقدوا آباءهم صغارا، وحاولوا أن يعملوا شيئاً كبارا، وعاشوا النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري في اليمن ولم يهتموا بتدو ينها لأن أحداً لم يكلّفهم بذلك، ولا طلب منهم أحدٌ تسجيلها ورواية أحداثها فارتاحوا وأراحوا.

سوف أروي قصة حياتي، وأتحدث عنها بوضوح وصراحة، وأذكر كلّ ما يعن لي، أو يخطر ببالي من عظيم وكبير، وصغير وحقير، منذ نشأتي الأولى؛ الّتي هي أحب أدوار حياتي إلى نفسي، و يلذّ لي و يطيب كثيراً استعراضها وتذكّرها.. حين كنتُ أتصرّف بحرّيةٍ من الخوف والطمع والتعصّب.. وحتى طرّ شاربي.. أيام الطموح والقوّة والأمل، حين كنتُ أتصرّف أيضاً باندفاع لا يخاف، وإيمان لا يخور، وأحلام فيها من التهوّر والثقة أكثر مما فيها من الرصانة والحكمة، وفيها من العقيدة والاخلاص أكثر مما فيها من الطمع والسياسة والحِيَل.!

أول المطالبين:

وتبدأ مطالبة أصدقائي لي بتدو ين ونشر ذكرياتي منذ زرتُ «القاهرة» لأوّل مرّة سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م عندما قال لي الدكتور أحمد فخري ونحن نتحدث عن اليمن: «من واجبكَ يا أحمد أن تدوّن وتنشر ذكرياتك»! وشرّقتُ وغرّبت بين أمواج الزّمن؛ وما تحدّثتُ إلى عالم أو أديب عن اليمن.. إلاّ كان ختام الحديث «اكتب ذكرياتك».. حتّى أرحتُ نفسي، وأسعدت آخرين، حين قدّمتُ استقالتي من منصب وزارة خارجية الملكيين إثر انسحاب الجيش المصري من اليمن سنة

١٣٨٩ هـ/١٩٦٩م ونزحت إلى بيروت مع أمّي وأختي وزوجتي وأولادي، وتوحّدْتُ، أقرأ، وأكتب، وأفكر، .. واقترح عليّ، وعلى زميلي الأستاذ أحمد محمد نعمان الذي كان قد خرج من سجن «القاهرة» مع زملائه إثر الهزيمة العربية المحزنة التي يسمّيها البعض ترفّقاً نكسة؛ أن نُسجّل ذكرياتنا شفوياً في «شرْط» «كاسيت» يحتفظ كلٌّ بما سجّله لنفسه، و يزيد فيها ما عنّ له، أو ما جدّ من الأحداث إستعداداً لنشرها إن أراد وقدر، بعد عشرين عاما .. ووافقتُ كما وافق الأستاذ نعمان— وسجّلتُ ثماني عشرة ساعة، وسجّل الأستاذ أكثر ببضع ساعات؛ بقدر ما فضّله الله عليّ؛ عُمُراً، وتجارب ولم يُطّلِع أحدٌ منا الآخر على ما سجّله وأملاه، وإن كان قد تنسّمه واستوحاه.

بداية التسجيل وعضوية المجلس الجمهوري:

وكانت الطريقة؛ أن يسألني أحد الحاضرين .. وأنا أجيب على سؤاله؛ دونما تحفظ، أو تعمل، أو ترتيب سابق، أو معرفة بالسؤال الذي سيسألني به، ودون أن أرجع إلى وثيقة، أو مرجع مكتوب إلاّ نادرا.

وحين فرغتُ كان الملك فيصل بن عبدالعزيز، والرئيس جمال عبدالناصر، قد اتفقا على حلّ مشكلة اليمن تحت شعار «المصالحة الوطنيّة»؛ و«لا غالب ولا مغلوب»، ووافق مَنْ وافق .. وخالف من خالف، وكنت من الطائعين لصوت السلام .. وعدت على رأس وفد إلى «صنعاء»؛ مسرح صباي، بعد غياب تسع سنوات وانتُخبتُ —أو عُيّنتُ— من قِبلِ مجلس الشورى عضواً في «المجلس الجمهوري»؛ و يرأسه القاضي عبدالرحمن الإرياني، وأعضاؤه —سواي— الشيخ محمد علي عثمان، والفريق حسن العمري، والأستاذ أحمد نعمان؛ وقد حكم اليمن —صوريّاً— هذا المجلس «الخماسي» عاماً؛ ثم تحوّل إلى «ثلاثي»؛ وعُيّنتُ سفيراً لليمن في لندن ١٩٧١م/١٣٩١هـ لمدة عام؛ انتقلتُ بعده سفيراً في «باريس» حتى قامت حركة التصحيح بقيادة المقدم ابراهيم الحمدي وأُقيلَ القاضي عبدالرحمن الإرياني وأعضاء مجلسه، وأُبعِدَ إلى «دمشق»، وطلبتُ الإحالة على المعاش كي أتفرّغَ للدرس والكتابة، وأقمت مع أهلي في بيروت، حتى حاول من أراد أن ينقلني برصاصة إلى الآخرة دونَ سَببٍ أعلمه؛ وأراد الله لي فسحة من العُمر إلى أجل مُسمّى ..، وانتقلتُ إلى «بريطانيا» للعلاج في شهر جمادي/ مايو سنة ١٩٧٥م/١٣٩٥هـ وتتابعت الأحداث بما لم يكن في الحسبان «ليقضي الله أمراً كان مفعولا».

فصول رياح التغيير:

ولمّا ناشدني من أجلّه أن أتحدّث عن رياح التغيير في اليمن، وأن أروي ذكرياتي؛ عدتُ أصغي إلى ما سجّلته قبل عشر سنوات وأستوعبه ناقداً .. فوجدتني قد صنعتُ شيئا، وحاولت الصراحة جهد ما أستطيع إلاّ أن ثمة ما يفتقر إلى التنقيح البياني والتصحيح اللغوي وشرح ما أجلته يومئذٍ لاعتبارات إنسانية أو سياسية كانت قائمة. وذكر ما نسيته أو تناسيته؛ وإصلاح ما يوحي بالتّباهي والتفاخر، وحذف المبالغات وجمل التحامل، وإضافة ما جدّ من «الماجريات» أو ما لم أتذكّره حينذاك؛ فقرّرت

أن أجعل ما سجّلته حينئذٍ محْوراً أدور حوله ، وأصلاً أعتمد عليه ، وقسّمتُ ما سجّلته ثم كُتبته ، وما أضفته إليه ، إلى أربعة فصول : الأول ؛ يهتم بنشأتي الأولى داخل اليمن منذ خُلقتُ سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م أو على الأصحّ منذ سقّطت «الضّالع» سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م تحت الحماية البريطانية ، ونزحنا منها إلى «صنعاء» حتى عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م حين هبّتْ ثورة الدستور وفشلتْ وسقطت «صنعاء» في أيدي القبائل الثائرة وانتصر الإمام أحمد حميد الدين ، وساقوني مع القافلة الدستورية إلى سجن نافع في «حجّة» وهي فترة عشرين عاماً اعتبرها الغرّة الشادخة في حياتي بما في شبابها من طموح وآمال ، و يُتم ومعاناة ، وجدّ ومغامرات ، ودراسة وأسفار ، وحبّ وصداقات ، وكره وخصومات ، وهزل ومجون ، وكفاح وصرامة ، وسأذكر المؤثرات في حياتي ، وقصة حزب الأحرار ، في عدن ، وعودتي مع الموشكي وأسبابها ، وثورة الدستور سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م وأسباب فشلها ، ميثاقها ، ومآسي سجونها ، ومصارع رجالها ، والفصل الثاني سيتحدّث عن إقامتي الجبريّة في الحديدة وقصّة ولاية العهد للإمام محمد «البدر» ، وانقلاب سيف الإسلام عبدالله والمقدّم أحمد الثلايا وما جرى لي وما عملته أو عرفته ، وما مارسته من أحداث أدبيّة وسياسية واجتماعية حتى سافرت إلى القاهرة في وفد اقتصادي سنة ١٩٥٥م/١٣٧٤هـ وهي فترة سبع سنوات كلها عرق وأرق وعمل وأمل . وأمّا الفصل الثالث فإنّه سيتحدث عن انتقالي إلى مصر والتحاقي بالسلك الديبلوماسي واجتماعي بالورتلاني وقيام الاتحاد الفدرالي وانتقالي إلى لندن ثم هبوب الثورة وإعلان الجمهورية وظروف التدخلات والحرب التي دارت ومؤتمرات «عمران» و«حمر» و«اركويت» و«حرض» و«جدة» و«الخرطوم» و«بيروت» حتى عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م إثر انسحاب القوات المصرية وانتصار النظام الجمهوري وقيام المصالحة الوطنية وعودتي إلى صنعاء. ومحاولات التلفيق والترقيع؛ وكيف تحوّل المجلس «الخماسي» «ثلاثيا» !

والفصل الرابع والأخير سيروي «ماجريات» حياتي منذ خروجي من اليمن كسفير للجمهورية العربية اليمنية بلندن سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م وإلى ما شاء الله ذاكراً حياتي في «باريس» كسفير، ثم اقامتي في بيروت ومحاولة الاعتداء عليّ ، ونزوحي إلى بريطانيا حيث اخترت الاستشفاء والإقامة في «بروملي» إحدى مدن مقاطعة «كنت» ، ومتحدّثاً عما أعلمه ، أو ما عرفته أثناء هذه الفترة وحتى عامنا سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ؛ مستعرضا أيضا مواقفي الإنسانية ، والعاطفية ، والأدبية ؛ العظيم منها والصغير، والحقير والكبير، ملتزماً ما أشرت إليه وذكرته من الوضوح والصراحة والصدق والواقعية ، دونما تعمّل أو تكلّف أو مباهاة أو مفاخرة ، ودونما اختلاق أو تستّر أو غمط ، أو إدعاء ، أو استنكاف عن ذكر الأخطاء ، وتسقّط المبرّرات وتكلّفها ، والتهرب عن الاعتراف بالقصور أو التقصير، وإلقاء تبعات الفشل أو الخطأ على كواهل الآخرين!

لماذا أقدمت:

لقد ترددت باديء ذي بدء في الاستجابة إلى نشر قصة حياتي ودخلت في حوار طويل مع نفسي؛ فقد قُدّر لي أن أعيش حياة صاخبةً في عالمي الأدب والسياسة ، وكان لي فيهما الأنصار والخصوم

والمعارضون والمنافسون، والكثير منهم لا يزالون ــ ولله الحمد ــ على قيد الحياة، ولكلّ أهلٌ وشيعه وتلاميذ. وسيتلقى كلّ واحدٍ منهم ما سأقوله بمزاجه وهواه وقناعته الخاصة المنفعلة بأحداث وعوامل الماضي البعيد منه والقريب.. وهي شتّى؛ رضى وسخطا، ونفوراً وولاءً، وكراهية ووداً.

فكّرتُ في كل ذلك، وكدت أن أضرب صفحاً عن تلبية الرغبة الكريمة، وأن أعتذر، وأرجيء النشر إلى ما شاء الله، غير أن زيارتي لوطني «اليمن» في شهر رمضان الكريم سنة ١٤٠٣هـ/يوليو ١٩٨٣م قد غيّرت موقفي؛ فما شاهدتُه ولمستُه من تحوّلات اجتماعية وسياسية وثقافية وعمرانية سرعان ما بدّد تخوّفاتي وتحسّباتي وتردُّدي، وما إن رجعت إلى لندن حتى نشرت سلسلة مقالات في جريدة الشرق الأوسط تحت عنوان «أنا عائد من يمن الازدهار والرخاء».. وكأنني اكتب الفصول الأخيرة من قصة حياتي، أو أجعل خاتمة «كتاب حياتي» مقدمة له، كما يعمل بعض كتّاب القصص والروايات حين يعمدون إلى المشهد الأخير فيجعلونه الأول إمعاناً في الاغراب الفنّي، والابداع القصصي.

وكان لمقالاتي صداها المختلف على وفي كل المستويات، وتلقّى معظم أبناء اليمن ما كتبته بالارتياح والقبول، وتواردت عليَّ التوصيات والرسائل تناشدني الاستمرار في الكتابة؛ وكان أشدّها وقعا في نفسي وتأثيراً عليّ تلك التي تصدر عن طلبة وطالبات جامعة «صنعاء» والمعاهد العلمية والفنية، بل والخرّيجين من الجامعات العربية والأجنبية والذين يتشوّقون و يتطلعون إلى معرفة كيف كانت بلادهم تعيش قبل الجامعة، والمصنع، والطريق، والمستشفى، و«المتيل» والكهرباء ومجلس الشعب، والقوّات المسلحة، والمصارف النقدية، وغير ذلك من مظاهر الحياة.

فقرّرت أن ألبّي الطلب والرغبة الكريمة وليس ذلك فحسب، بل ورغبة «الواجب الوطني»؛ علما بأنني أعرف أنّني سأعرّضُ نفسي راضياً مختاراً لنقد واعتراض بل وسخط أولئك الذين لا يقدسون حرية الرأي والتسامح والعفو، وتناسي الماضي من الذحول.

لقد كنت ثائراً ومعارضاً، ثم صرت موظفاً حكومياً، وتطوّرت دستوريّاً ثوريّاً، واعتقلت وتعذبت وتعرّضت للمنون مرارا، ثم اطلقت وأصبحت وزيراً وشخصاً بارزاً في حكومة الملكيّين، ثم ناديت بالمصالحة الوطنية وانتُخِبت عضواً في «المجلس الجمهوري» وبعدها سفيراً للجمهورية في «لندن» و«باريس» حتى طلبت «التقاعد» راضيا مختارا، وأقسم أنّي أخلصتُ كلّ الإخلاص لكل دور مثلته وأرادته الأقدار لي؛ لم أغش ولم أخادع، ولم ألعب على حَبْلَين قط؛ وذلك هو رصيدي الذي أعتز به، وذلك هو ما يشجّعني على نشر ذكرياتي وأنا واثق بأنني سأتحدث مخلصاً؛ لا أخادع، ولا أماري، متسامحاً متناسياً للضغائن والآلام والتفاهات.

فمراد النفوس أحقر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

لقد تغيّر كلّ شيء في «اليمن» إلى الأحسن منذ فارقتها سنة ١٩٧١م/١٣٩٠هـ وجمهوريّتها الفتيّة، لها دستورها الدائم، وميثاقها الوطني، ومجلسها الشعبي المنتخب، ورئاستها «قوية» و«أمينة» لا تتأثر ولا تنفعل بأهواء الطّائفية المتعصّبة، أو العنصريّة الضّيقة، نسأل الله لها التوفيق

لترعى بعنايةٍ وحزم سَيْر حركة الرخاء والازدهار حتى تتوطّد دعائم دولة الأخلاق والشورى والعدالة الاجتماعية تحت راية القرآن.

وأناشد من قد لا يعجبه رأيٌ أو قولٌ أن يستبصر وأن يراجعني أو يردّ عليّ برفق العالم، ورصانة المنصف، ومن وجد خطأً تاريخيا أو أدبياً، فعليه أن يلفت نظري إليه مؤيداً ما يقوله بالبرهان، وسأكون له شاكراً وأعود إلى الصواب الذي سيرشدني إليه، وما يجده من قول أو رأيٍ أنسبه إلى شخص ما سواء كان من الأحياء أو الأموات فلا يحمّلني وزره فلست مسؤولاً عن آراء غيري إلا إذا تبنّيتُها وأيّدتها، وإذا أثنيتُ على شخص لا يحبّه فليعذرني لأنه ربما قد أحسن إليّ، وإذا لم أطْرِ أو أمدح شخصاً يحبّه فلا يكلّفني ما لا أُطيق.! وإذا لم أكن قاسياً أو عنيفاً على من نعرف جميعاً سوءَ ما عملوا فليُسامحني أيضاً فقد بَرَدت حَميّا الحماس، وأصبحتُ لا أرى في التّنديد و بلهجةٍ شديدة ولا سيما بمنْ قد توفّاه الله، أو ابتعد عن مسرح الأحداث كثيرفائدة.. بل لا أستسيغه، واستغفر الله من نفثةٍ جمح بها القلم في غفلة من غفلات الهوى، أو زلّةٍ ندّ بها اللسان حقاً أو غرورا.

وليعلم الجميع أن اليمن اليوم هي يمن الجامعات، والمصانع، والجيش القوي، والشوري والميثاق، والتعاونيات، وأبناؤها يتطلعون إلى المزيد من العدل والخير والازدهار والمساواة في ظلال الحقّ، ولا مجال لعصبية أو هوى أو عنصرية أو طائفية!

وفي الرأي تضطغن العقول — وليس تضطغن الصدور



ثورة اليمن .. وأباطيل البيضاني

متسلل يصبح زعيماً:

و بينما أنا أكتب هذه المقدمة واعدّ قصة حياتي للنشر إذ بصديق كريم يبعث لي بكتاب ضخم اسمه «أزمة الأمة العربية وثورة اليمن» تأليف الدكتورعبدالرحمن البيضاني؛ وما إن تصفّحته حتى أخذ بي الذهول كلّ مأخذ لكثرة ما ورد فيه من الأباطيل عن اليمن وتاريخها وثورتها؛ أباطيل لا يستطيع تأليفها غير رجل معروف بماضيه المثقل بالأكاذيب والذنوب مثل عبدالرحمن البيضاني؛ وكنت أظنّ أنه قد خرج من حياة اليمن وقبع في زاوية مّا مفضّلاً الصمت والابتعاد عن الأضواء توبةً أوندماً أو حياءً..!

وكنت –علم الله– قد اقتنعت ورضيت له بذلك إذ أن اليمن وأبناءها في حاجة إلى تناسي آلام الماضي وجراحاته البعيد منها والقريب، ولا سيما وقد استطاع رجالها المخلصون حلّ كل مشاكلهم وخلافاتهم وانضووا تحت لواء المودة والتسامح والأخوة والوحدة بطريقة فذّة نالوا بها إعجاب العالم في عصر مفعم بالمشاكل والخلافات والصراعات على كل المستويات.

وقلت لنفسي: لماذا إذن يحاول هذا المهرّج الازعاج من جديد؟ واتصلت بالكثير من رجالات اليمن ومن جملتهم القاضي عبدالرحمن الإرياني والأستاذ أحمد محمد نعمان ممن تعرض لهم «البيضاني» في كتابه فوجدتهم لا يعطون بالاً لتلك الأكاذيب والأباطيل، ولا يقيمون لها وزنا تاريخياً أو أدبيا.. وحاولت إقناع نفسي بذلك فلم أستطع؛ لا لأنّي شديد الغيرة على تاريخ اليمن أكثر من الزملاء الكرام.. ولكن لأني على يقين بأن الكذب ما لم يدحض قد يصادف من يتأثر به و يصغي إليه، وما حدث من «البيضاني» نفسه يثبت صدق ما أقول؛ فقد تسلّل بمكرٍ ودهاء إلى صفوف أحرار اليمن ودعاة الإصلاح من أبنائها قبيل قيام «ثورة» ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ بأشهر وأعلن انضمامه إليهم؛ واستطاع لا أن يكون واحداً منهم أو زعيما من زعمائهم بل أن يستولي على مقاليد الحكم وأزمّة السلطة، و يتصرف بمقدّرات اليمن ذلك التصرف الأهوج الذي سبب من الكوارث وإراقة الدماء وهيجان الفتن ما لم يُتَدارك إلاّ بطرده وإبعاده بل وتجريده من جنسيته اليمنية. ولذلك فمن المحتّم التنديد بأكاذيبه إذ أنّه يستعدّ بها للتسلّل إلى صفوف اليمنيين من جديد.

تحذيرات الزبيري من البيضاني:

وأذكر أن الزعيم المناضل الشاعر محمد محمود الزبيري –رحمه الله– كان وهو لا يزال بمصر وقبيل قيام الثورة قد حذّر الأحرار وزعماء اليمن من دسائس «عبدالرحمن البيضاني» وألاعيبه ومن سوء مغبة

ما ينو يه ولكن أحداً لم يصغ إلى تحذيرات « الز بيري » فكان ما كان .

ومن تحذيرات « الز بيري » رسالة طو يلة أطلعني عليها العام الماضي بصنعاء مدير جامعتها الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح وهي بخط الز بيري المعروف ومؤرخة يوم ١٩٦٢/٦/٢٠ — أي قبل قيام الثورة في ٢٦ سبتمبر بثلا ثة أشهر فقط وفيها يقول الز بيري :

« جاء عبدالرحمن البيضاني الذي عرفناه دائما من الأذناب الأذلآء أوّل ما عرفته بعد عام ١٩٤٨ وسمعت عنه وأنا في باكستان وهو يعقد المؤتمرات الصحفية لحساب الإمام ، و يبرر ذبح الأحرار، و يرميهم بالخيانة ، ونحن الأحرار في الداخل والخارج نكابد الأهوال والآلام وظل كذلك ذنباً مخادعاً عشر سنوات تقريباً . . جاء هذا الرجل من المانيا فجأة وقد أصبح من الأحرار الكبار ومن الأ بطال وصار يتحدّث عن بطولا ته المزعومة الخيالية ، وكانت الفكرة الوحيدة التي ينادي بها هي ثورة « القحطانية » ضد « الهاشمية » لأنه يعرف أن لها أنصاراً متحمسين يمكن أن يخدعهم ، وقد خامرني الشك في موقفه لأني أعرفه مهرّجاً ومخادعاً ولا يمكن الثقة به » إلى أن يقول :

« إن الناس يعرفون عنّي أنني جواد وطيّب القلب ، وعرضة للانخداع والحقيقة أنني أشد الناس حذرا ، وقد رفضت التعاون مع البيضاني إلا في المجاملات والأعمال العامة ، وأخيراً رأيت الجميع وقد وافقوا على رأيي وقرروا عدم التعاون مع هذا الرجل الخطير، وقررنا بالاجماع إبعاده عن جماعتنا ، وحاول مراراً أن يقنعنا فكررنا الرفض وأصررنا عليه والقصة بيننا و بينه طو يلة جداً» [انظر الوثيقة بخط الز بيري] .

ورغم ذلك فقد عاود البيضاني الكرّة ولم ييأس حتى تمكّن من التسلّل إلى صفوف اليمنيين ولذلك يقول الز بيري :

« واتفق الجميع بعد إلغاء الاتحاد الفيدرالي ، وانبعاث الأمل في عون الجمهورية اتفقنا جميعاً على التخلص من البيضاني نهائياً ؛ ولكن البيضاني بمظاهر الفخفخة الفارغة والأ بهة ، و بقدرته على التظاهر والخداع استطاع أن يخدع بعض المسؤولين الكبار في الجمهورية العربية وهم لا يعرفون عن قضية اليمن شيئا ثم أعلن ثورة القحطانية ضد الهاشمية ليخدع الشعب ويخدعكم أنتم و يتصل بكم منفردا ثم يخدع المسؤولين في القاهرة و يوهمهم أنه أصبح قائد الحركة وأن الرجال المهمين يتصلون به وحده و يثقون به ولا يثقون بنا ؛ وهكذا سلسلة من الخداع والحيل والمناورة حتى أصبح ماسكاً بأزمّة القضية مطلعاً على أخطر الأسرار والأسماء وصار هو المرجع الأ ول والأخير؛ فهل يجوز أن يتحوّل جهاد كل الأحرار منذ أكثر من عشرين عاماً نهباً مباحاً لهذا الذنب الإمامي العريق » ؟

هذا هو تحذير الز بيري من البيضاني قبل أن ينشب أظافره في السلطة ولو أنّ الأحرار صغوا إلى ذلك التحذير لما استطاع أن يصنع باليمن ورجالها ما صنع ، و يسبّب الفجائع والكوارث و يبعد و يعزل و ينهب و يقتل ، و يهرّب الأموال و يسفك الدماء .

إن الذين لا يبالون بالبيضاني وكتابه لا يبالون بتاريخ اليمن ؛ وقد تبيّن أنه بالخداع والحيل

والمناورة «والفخفخة الفارغة والأبهة والقدرة على التظاهر والخداع» كما يقول الزبيري قد «استطاع أن يخدع بعض المسؤولين الكبار في القاهرة و يوهمهم أنه قائد الحركة» وقد تبيّن أنه استطاع أن يعمل الكثير؛ ومؤامرات التربص بالعرب والمسلمين تُعِدُّ لأمثاله المناخات المناسبة؛ وما حملاته التشكيكية على زعماء العرب واليمن في كتابه الجديد إلا من ضمن مخطّط ذلك الاعداد!.

ولا أحب أن يتكرّر ما حدث إذا لم ينتبه اليمنيّون إلى أضاليل وأباطيل البيضاني وأمثاله ضد تاريخ اليمن وحركاتها الإصلاحية وكأن الزبيري كان ينظر بمنظار الغيب حين قال في الصفحة الرابعة من رسالته عن البيضاني ما يلي: «هل يجوز أن يصير مثل هذا الشخص قائداً مؤتمناً على الرقاب والدماء، والتخطيط وتراث الأحرار، ورصيد الأحرار، وشرف الأحرار بينما نكون نحن مبعدين عن ذلك مكتوماً عنا كل شيء بينما يتحول جاسوس الإمام إلى قائد للحركة الثورية»؟

فكرة القحطانية:

«لقد أصبح البيضاني هو الزعيم الأوحد حتى إن بعض الرسائل التي ترسلونها أو يرسلها أيّ واحد من اليمن إلينا بواسطة بعض الموظفين المصريين لا تسلم إلينا بل تسلّم إلى الزعيم البيضاني الأوحد».

«إن البيضاني أغراكم بفكرة «القحطانية» وأنتم لا تتصوّرون ما وراءها! إن الأحرار سيدفعون ثمنها غالياً فإن البيضاني لا يقصد بها إلا تمزيق القوّة الوطنية في اليمن الأعلى ثم يعتمد بعد ذلك على إثارة العصبية بين الشافعية والزيدية، و باعتباره من القسم الشافعي ولأنه لا يملك رصيداً في الحركة الوطنية فسيكتّل حوله قوّة شافعية يعتمد عليها للقضاء على كبار الأحرار من اليمن الأعلى بصورة خاصة لأن أكثرية الأحرار البارزين من هناك ومن السهل عليه الخلاص من نعمان و بذلك يصبح هو الزعيم الأوحد بحق».

ما أشبه الليلة بالبارحة؛ فلقد نفذ «البيضاني» خطته أو محاولته ولكن الله خيّب آماله بفضل يقظة رجالات اليمن في الشمال والجنوب ولكن ها هو الآن يحاول كيداً جديداً وما تظاهره بالثناء على بعض زعماء ومشايخ اليمن في كتابه وتحامله على بعضهم إلاّ نوع من الخداع والحيلة والمناورة والتمهيد لشرّ يراد كما قال الزبيري.



لست من صانعي الثورة
فلماذا أرد على أباطيل البيضاني ؟

نعم : ها قد اجتازت «الجمهورية العربية اليمنية» العام الثاني والعشرين من عمرها؛ تتدرّج في فتوّة تدرّج الشباب ، وتتوهج في قوّة توهج النور، وتتبرّج تبرّج الربيع رخاءً، وازدهاراً ، وأملا .

ولقد تحدّث عنها وكتب الكثير من اليمنيّين وغيرهم ، و بشتّى اللغات ، ومختلف الأهواء والميول ، ووجهات النظر، وقرأت جلّ ذلك إن لم يكن كلّه؛ وأشهد الله والنّاس اني لم أقرأ فيما قرأت أشد سخفاً، وأكثر كذبا من كتاب «أزمة الأمة العربيّة وثورة اليمن» الذي ألفه في مطلع عامنا هذا ١٤٠٤هـ/ يناير ١٩٨٤ الدكتور عبدالرحمن البيضاني وفي تسعمائة وثلاثين صفحة؛ ذلك بأن الدكتور لم يكتف بما اقترفت يداه.. فيغيّب وجهه صامتا نادماً ، ولم يحاول أن يعتذر مما جناه على اليمن واليمنين قبيل الثورة و بعد قيامها ، وما سبّبه من انتكاسات ، وأضرار، وفتن ، لولاها ما حدث ما حدث من صراع وتمزّق ، ولا تورّط الجيش المصري ولا انهزم في كارثة ١٩٦٧م/١٣٨٦هـ ، ولا أهرق ما أهرق من دماء وأموال .. بل أقبَل مُضحراً مباهياً مفاخراً؛ يفتري الكذب ، ويختلق الدعاوى ، و يزوّر الوثائق ، و يُنطق الأموات بما لم يقولوه ، غير هيّاب ودونما خجل؛ جاعلاً من نفسه بطلا ثوريّا ، ومصلحاً اجتماعيا ، وقائداً وطنيّا ، وكأن الناس لا يعقلون ولا يفقهون ، أو كأنهم قد نسوا ما سبّبه عبدالرحمن البيضاني للأمة العربيّة من كوارث ومحن ، ولليمن من و يل وثبور.

هل نسي البيضاني ما فعل بمصر واليمن :

تسعمائة وثلاثين صفحة كلّها هراء وأباطيل لم أستطع عندما فرغت من قراءتها إلا أن أردّد القول المأثور: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» ؛ وهو ما ظللت أردّده مع نهاية كل فصل مستغرباً محوّقلا .

ولقد كان في وسع يُمناي أن تسلمه إلى يسراي فإلى رف المهملات؛ ولعل ذلك ما كان يليق بي أن أفعل ، أو ما كان ينتظره الكثير من أبناء اليمن .. إذ ربّما كنتُ آخر من يخطر في بال الدكتور البيضاني أني سأتعرّض للرّد عليه ، أو أزيّف ما ورد في كتابه من افتراءات ودعاوى وأباطيل .. ولا سيما وقد تحاشى التعرّض لذكر مواقفي ، وتحامل وتطاول على زملائي الذين اختلفت معهم يوماً ما وتناولهم بالنقد والتجريح والغمز واللمز، وربّما كنت آخر من يحق له انكار أباطيل البيضاني عن «ثورة اليمن» فلست من صانعيها ، ولا من رجالها .. بل قد وقفتُ منها ومن التدخل العسكري المصري موقف المعارض؛ وربما كان من الخيرلي والأجدر بي أن انتظر ما سيقوله من لا يزالون أحياءً من أبطال ورجال ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ الذين تحامل عليهم وسفّه أراءهم ، وشكّك في مواقفهم الثورية والوطنية وفي مقدمتهم ضباط الثورة وعلماؤها وأدباؤها ووزراؤها ومشايخها!.

لعل ذلك ما كان ينتظره و يتوقّعه الدكتور البيضاني ، بل وما يخاله و يظنّه الكثير؛ غير أنّي وقد رأيته يزوّر التاريخ ، و يزيّف الأحداث ، ويحرّف الحقائق ، و يظلم الكثير من زملائي وأصدقائي ، بل ومن خصومي ، ممّن رافقتهم ، أو اختلفت معهم في الرأي والوسائل .. لم أطق الصمت ولا استطعته ، وأقنعتُ نفسي بأنّني ولست من رجال الثورة ولا من صانعيها ، ولا ممّن تعرّض البيضاني لذكرهم بالسوء ، وشوّه مواقفهم وافترى عليهم الأ باطيل .. أجدر الناس بالدفاع عن أهداف الثورة وإنصاف رجالها ؛ من مات منهم ومن لا يزال على قيد الحياة .. لأن في ذلك دفاعاً عن اليمن وتاريخها ، وعن الحقيقة التي حاول البيضاني طمسها أو تشو يهها ، وما عرفت نفسي إلاّ لها طالبا .. وعنها محاميا .

قصيدتي في البيضاني سنة ١٩٦٢م:

ثم إنّي أدرى النّاس بعُجَرِ البيضاني و بجَرِه ، وأضاليله وأباطيله ، منذ كان ملحقاً بمفوضية اليمن في القاهرة .. فمساعداً لوزيرها المفوض السيد على المؤيّد لا همّ له إلاّ اضرار الموظفين والطلبة والوشاية بهم ، وإثارة الفتنة و بث الدسائس بين الوزراء والأمراء ، إلى أن اختاره السيد حسن بن على بن ابراهيم قائماً بأعماله في ألمانيا فاشتغل بالتهريب والاتجار المشبوه ، وحتّى انتدب عضواً معي في لجنة الإصلاح النقدي سنة ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ والتي كان يرأسها القاضي محمد الحجري وسبّب لها بدسائسه وتضليلا ته الفشل الذريع .. وإلى أن وقفت في وجهه عندما لجأ إلى القاهرة ، وانضّم إلى صفوف المعارضة في نهاية سنة ١٩٦١م و بدأ ينشر مقالا ته في « روز اليوسف » و يذيعها من « صوت العرب » مثيرا للنعرات العنصرية ، والأهواء الطائفية ، مهاجماً من سمّاهم « الهاشميين » من أولاد « علي » رضي الله عنه محرّضا على قتلّهم ، وإبادتهم فقلت قصيدتي التي نشرتها في بداية عام ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ في ديواني « علالة المغترب » ومنها :

فَتنحّ ياخدنَ الجهالة والخنا ... واطرق فمثلك رمُحه لا يُشرعُ !
واترك مجالات العُلى لرجالها ... ماضيك معروفٌ و يومك أبشعُ
هلاّ ذكرت وأنتَ في زمن الصّبا ... تحنو جبينك للإمام ، وتركعُ ؛
والبؤس يرقصُ في جبينك رغبةً ، ... والجوع ذلٌ في الجفون وأدمع
وأتيت أهل الخير تزعم نسبةً ... وتقول : جدّي «حميرٌ» أو«تُبّعُ»
وظللت تلثم أرجلاً وأناملاً ... دهراً وأنت لكلّ شرّ منبع !
فتكفّلوا بك ، واصطفتْكَ جماعةٌ ... هذا يجود ، وآخر يتبرّع
ماذا دهاك ؛فعدت تشتم « سادةً » ... جادوا عليك بما لهم ، وتبرّعوا
فارجعْ بطرفك حاسراً؛«عدنان»قد ... جلّتْ و«قحطان» أعزّ وأمنع
أخوَانِ في العلياء ما افترقا ، وما ... خابا ، وما خافا ، ولن يتمزّعوا
« صِنوْان » أصلٌ في العروبة واحدٌ ... والدين يكفل ، والمبادىء تجمع
فاقضم ضميرك دودةً ،واعكفْ على ... مال جمعتَ وأنت عبدٌ طيّع

في « بون » أمثلةٌ تضجّ وتلك أوراق « البنوك » إلى العدالة تضرع

والشعب في اليمن السعيدة شامخٌ عمّا يشين؛ و بالمعالي مولع،

وكأنما كنت استشف المستقبل القريب وأنّ قوماً قد يغترّون بمكره وأضاليله، وهوما حدث في بداية الثورة فقلت:

قد يستجيبُ إلى ضلالك سذّجٌ حيناً؛ وقد يستسلم المتسرّع!

أما الأشاوس من «قريش» و«حمْير» هيهات لن يتغيّروا أويخدعوا

ولسان حال الشعب يصرخ جهرةً في وجه من يُملي له، أو يطمع

«زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً فابشرْ بطول سلامةٍ يامربع»!

دفاع عن تاريخ اليمن

ولذلك فمن واجبي الوطني والتاريخي الدفاع عن اليمن وتاريخها، والوقوف في وجه البيضاني من جديد والتحذير من أضاليله وأباطيله ومكره ودسائسه ومكائده وافتراءاته. وهوما سأحاوله في مواضعه من هذه الفصول. لقد كتب الكثير عن ثورة اليمن ورجالها ومكاسبها وأخطائها وحربها وسلامها و بشتى اللغات كما ذكرت آنفا، وتنازع أمجادها بعض صانعيها، وتجادل وتحاور بعض رجالها، و وقفتُ من كلّ ذلك موقف المتفرج المحايد، وقد لا أستطيع أن أكتم ميلي أو انحيازي إلى زيد أو عمرو؛ ولكنني لا أضيقَ بأحد، ولا أستكثر عليه ما يدّعيه من فضل؛ فمن حقّ «جزيلان» و«الشجني» و«الأشول» و«صبره» و«المؤيّد» و«المتوكل» أن يكتبوا ما يشاؤون عن «ثورتهم» مثلما هو من حق «الإرياني» و«نعمان» و«الوزير» و«الفسيّل» و«المقالح» و«البردّوني» و«المروني» و«الجاوي» و«سلطان عمر» و«الشهاري» و«العمري» و«السلاّل» أن يقولوا ما يريدون وأن يدّعوا ما يشاؤون، وأن يفاخروا مثل سائر زملائهم ممّن لم أذكر اسماءهم بمواقفهم و يتباهوا بها، وأن يتنصّلوا عن الأخطاء، أو يعتذروا عنها، أو يبرّروها، لأنهم قد اجتهدوا وأدّوا ما يستطيعونه.. أما هذا البيضاني الذي تسلل إلى صفوف اليمنيين في آخر مرحلة من مراحل مسيرتهم الشاقة، وكاد بحماقاته ومؤامراته وتعليمات أسياده من أعداء العروبة والإسلام أن يوقع اليمن في مأساة الصراع الطائفي والعنصري لولا لطف الله، وحصافة وفطنة أبناء اليمن الذين وقفوا بكل صرامة في وجهه قبل أن يستفحل شرّه فطردوه؛ وخيراً فعلوا.. وبذلك انتصرت دعوة السلام والوئام وتوطّدت دعائم النظام الجمهوري ودان له و به كلّ أبناء اليمن شمالاً وجنوباً. فعليه أن يخ ـأ ويخرس و يقعد ملوماً مدحورا.



احذروا البيضاني أيها العرب

حقاً إنّه لمن المنكر بعد أن دخل اليمنيون في حظيرة الوئام والاخاء والسلام أفواجا ؛ تحت راية الميثاق الوطني والتعاون على البر والتقوى ، وحكم الشورى والدستور والقيادة القويّة الأمينة .. أن ينعب « البيضاني » بصوت الحقد من جديد لينكأ الجراح ، و يثير الفتنة ، و يفتري الأ باطيل .

ولا شك إنه لم يقدم على ما أقدم إلاّ مدفوعاً من قبل نفس القوى الشريرة التي حركته سابقاً ، وعن تخطيط مدبر يراد به الكيد لا لليمن وحدها بل للأمة العربيّة جمعاء ، وإنّني إذ أتصدّى لتفنيد أباطيله ؛ احذّر أولئك المواطنين الأخيار الذين تقرّب إليهم بما يشبه الإطراء ، فما هو إلا السم في العسل ، وظاهره فيه الرحمة و باطنه من قبله العذاب ، و بينهم أصدقاء نعتز بمودتهم ، ونعرف اخلاصهم لله والدين والوطن .

لقد نجح « البيضاني » بادىء بدء و باسم مصر وثقل تأييد عبدالناصر وحسن نوايا اليمنيين أنْ يفرض نفسه نائبا لرئيس الجمهورية ، ونائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة ورئيساً لوزرائها و وزيراً لخارجيتها واقتصادها ، و بذر بذور الشقاق والفرقة والتنازع في صفوف الأحرار والثوّار وغيّر وحوّل و بدّل ونفى وعزل ما شاء له طموحه وهواه ، وأمر بسحل وقتل العلماء الأ برياء والكثير من القادة الّذين توافدوا إلى صنعاء من كل صوب مؤيدين للثورة والجمهورية ؛ فوضع بذلك « ألغام » الفتنة والنعرات العنصرية والطائفية ؛ فشرّد من شرد خوفاً ، وفكر من فكر في المعارضة ، وخفَت صوتُ الحكمة والعقل والأخوة والمحبة في ألسنة «الز بيري» و« الإرياني» و«نعمان» و«صبره» و«عثمان» وأمثالهم ، وعلَتْ أصوات الحقد والبغضاء والتفرقة والحرب والعدوان في تصريحات « البيضاني » باسم الثورة ، وإبادة الماضي ، وكلّ من له صلة به ، والقضاء ، على الرجعيّة في كل مكان !.

وعانت اليمن من جرّاء ذلك ما عانت ؛ وانفضح أمر البيضاني فطرد بل ونزعت جنسيته اليمنية ونسيه النّاس وارتفعت راية السلام في اليمن ، وما إن بدأ الجميع ينعمون بخيرات الأمن والاستقرار ، و يتمتعون بنعم المساواة والعدل و يتطلعون بآمالهم إلى الوحدة الكبرى حتى يفاجئهم « البيضاني » بفحيح صوته المنكر من جديد !.

فهل ذلك صدفة واعتباط « بيضاني » ؟ أم تخطيط لأمر يُراد ؟

ليست صدفة بل مكر عتيق :

إن المسوح التي برز بها البيضاني ، في كتابه الجديد من تظاهر بالتقوى والدين واقتباس آيات الكتاب العزيز في مطلع كل فصل من فصوله ، وتزو يره للوثائق التي تثبت عراقته في الوطنية ، والدعوة

إلى الإصلاح، وتحقيره وتشويهه لتاريخ اليمن، وتحميله تبعات أخطائه وجرائمه على كواهل غيره من رجال الثورة، وتسفيهه لآراء المخلصين من أبنائها ودعاة الإصلاح فيها، وأفكار التفرقة السُّلالية، وشعارات الطائفية والعنصرية والنعرات القبلية التي بثّها بين سطور كتابه غامزاً لامزا مهيّجاً للأحقاد، ومذكراً بالمآسي، كل ذلك يدلّ على أن أمراً منكراً يُراد به ومنه الفتنة والشر، يواكبُ و يرافق صوت «البيضاني» في كتابه الجديد عن «ثورة اليمن».

ألا فليحذره العرب والمسلمون في كلّ مكان.



أصلفٌ أم جنون؟ أم هو شرٌ يُراد؟

ومما يدل على ذلك أنه قد شطب وشجب كل مكاسب الثورة واعتبر كلّ ما حدث من تغييرات سبّبت «المصالحة الوطنية» ورفعت راية السلام، وقوّت أواصر المودّة والقربى بين الشمال والجنوب، وحسّنت علاقة الجمهورية بجارتها الشقيقة المملكة العربية السعودية وسائر البلدان العربية والإسلامية في ظل قيادة رشيدة تقدس الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى، شعارها الدستور والمساواة والشورى والوحدة الوطنية.. اعتبر أن كل ذلك قد حدث في غياب شرعيّته «البيضانية»! فهو لا يزال «نائب مجلس قيادة الثورة اليمنية» كما أثبت ذلك في الصفحة الأولى من كتابه، موهماً القرّاء أنّه يتحدّث من مركز رسمّي أبّدتْهُ فيه «ثورة اليمن» وإرادة شعبها، مدعياً أن المنصب هذا تاريخي يبقى على مرّ الزمن وأن «جمهوريته البيضانية» لا تزال هي النظام الشعبي المختار ولم يكتف بوضع هذا اللّقب «نائب رئيس مجلس قيادة الثورة اليمنية» على غلاف كتابه دون أن يضيف سابقاً؛ بل صرح بذلك وناقشه فقال في ص (٥٩٠): «وتحت ضغط «السادات» وافقتُ على توجيه استقالتي إلى «السلاّل» وحصرت الاستقالة من منصب «نائب رئيس الجمهورية» وحده؛ لأن موقفي التاريخي «كنائب مجلس قيادة الثورة اليمنية» لا علاقة له بمنصب «نائب رئيس الجمهورية»؛ لأن المناصب التنفيذية تتغير من حين لآخر؛ أما المواقع التاريخيّة فإنها تبقى على وجه الزمن»!

هكذا.. هكذا!

صفّقوا أو فاضحكوا أو فابكوا!

سمّوه صلفاً أو جنوناً أو ما شئتم!

لقد ذهب «عبدالناصر» و«السادات» ومجلس قيادة الثورة في مصر.

وذهب «السلال» ومن بعده «المجلس الجمهوري» الذي كنتُ أحد أعضائه وبرئاسة «الإرياني» وقام «الحمدي» ثم «الغشمي» ولحقا بربهما، وانتخبت الأمة اليمنية بالإجماع رئيسا مؤمنا قويّا أمينا هو العقيد علي عبدالله صالح، وطاحت العنعنات السُّلالية، والنعرات الطائفية والعنصرية والقبلية، وتأسّست دولة «الميثاق» كل ذلك كان.. لكن «البيضاني» لا يعترف به؛ فلا يزال يعتبر نفسه في مركز تاريخي لا يمكن أن يتغيّر! إنه «نائب رئيس مجلس قيادة الثورة اليمنية» الدائم الباقي الخالد على وجه الزمن!

قولوا: إنه صلف أو جنون، وسمّوه ما شئتم.. لكني سأزعم وأدعي أنه يشير إلى مكر يُراد، وفتنة تحاك؛ وإن ربّك لبالمرصاد.

البيضاني وتاريخ اليمن

لقد رسم «البيضاني» لليمن صورة شوهاء، وأبرز تاريخها في أبشع هيكل يتخيّله الجاهل الحاقد، وضرب بها المثل السيء لأ تفه أمةٍ على وجه الأ رض خمولاً وجهلا وفسادا وجبلّة وعيشا؛ وكأنها كانت عبر العصور — وقبل أن يفكر «البيضاني» في انقاذها، و يبدأ — حسب تعبيره — «البحث عن جذور المأساة، وعن الطريق الأمثل للإصلاح» لم تكن قد مرّت مثل سائر الأقطار العربية والإسلامية بأدوار تاريخية مختلفة من ازدهار وتخلّف، ونهضة وجمود، وسعادة وشقاء، وحكمتها دولٌ شتى، ودول متعدّدة يوجد بين حكّامها الصالحون والطالحون كسائر الدول والحكام في مصر والعراق والشام ونجد والحجاز منذ فجر الإسلام وحتى انهيار الخلافة العثمانية.

فهو يقول بعد أن أبرز نفسه في صفات الرسول المنقذ، والزعيم الأ وحد، والمصلح الفذّ «مهندس الثورة وصانعها»: «أسرف بعض المعلّقين في عتابي — ولا نعلم أحداً قد عاتبه — لاختياري طريق الثورة الشاق وكأنّني كان في وسعي أن أدعو إلى اختيار الطريق الأسهل! وهؤلاء العاتبون معذورون لأنهم لا يعرفون أنّني أمضيت أكثر من عشرة أعوام حاولت فيها كغيري إصلاح اليمن من خلال نفس النظام الإمامي ولمّا فشلت لجأت إلى علم التاريخ فدلّني على جذور العقبات التي تحول دون تطوّر اليمن نحو الأفضل.. تلك العقبات التي لم يكن لها في تاريخ الشعوب مثيل أو شبيه وهي تغوص بجذورها الشرسة إلى أعماق ألف ومائة عام من عمر اليمن».

كان يتاجر في المحرّمات:

هكذا يقول بكل صلافة أنه أمضى أكثر من عشرة أعوام يحاول فيها إصلاح اليمن وهو يعلم أننا نعلم انّه ما برز كموظف عادي في البعثات الديبلوماسية والوفود السياسية اليمنيّة إلاّ من سنة ١٩٥٤م-١٩٧٣م وانه لم ينضم إلى حركة الأحرار في القاهرة إلا سنة ١٩٦١م وقبلها كان موظّفا يتاجر في المحرّمات، و يهرّب في الحقائب الديبلوماسية المجوهرات والمخدّرات مما سبّب عزله من «بون» و«السودان».

ثم بعد أن سخر بكل دعاة الإصلاح أكّد بأن اليمن ظلّت خلال ألف عام ومائة عام — وقبل أن يقيض الله لها عبدالرحمن البيضاني — فريسةً للجهل والأمراض والشقاء «أحياؤها يحاولون الحياة كالديدان، و يعيشون في بيوت كأنها مقابر يحيون فيها أمواتا، ينتظرون ساعة الحشر لا يشعرون بلذة الوجود» ثم يقول:

«لم يكن هناك مفر من اختيار الطريق الصعب فناديتُ بالثورة الجذرية بين أنياب المأساة اليمنية

ومخالب الأزمة العربية » !

ولا يهمّني دعواه العريضة بأنّه مهندس الثورة ، وزعيم الإصلاح الأوحد فالجميع يعرفون بطلانها ، ولكن ابرازه لليمن في صورة بشعة شوهاء وزعمه بأنها كانت قبل « البيضاني » بلا تاريخ هو ما أودّ التنديد به وإبطاله .

تحقير البيضاني لليمن :

فاليمن خلال الألف ومائة عام التي ذكرها قد حُكِمَتْ من قبل عشرات الدول والإمارات ومنها « بنو زياد » و« آل الهادي » و« الحواليون » و« بنو نجاح » و« الصليحيون » و« الأيوبيون » و« بنو رسول » و« الطاهريون » إلى « بني زريع » وآل مهدي » و« المماليك » و« العثمانيون » و« آل شرف الدين » و« آل القاسم » وازدهرت الحياة فيها و بلغت أوج نضارتها عمرانا وحضارة وفنا وقوّة ، وكانت في بعض الفترات مصدر إشعاع علمي وأدبي وسياسي لسائر الأقطار العربيّة والإسلامية ، بل ومركزاً من مراكز المعرفة والثقافة ، ومدارسها المشهورة في « زبيد » و« تعز » و« صنعاء » و« ذمار » و« صعدة » و« كوكبان » و« عدن » و« حضرموت » معروفة مشهورة ، وملوكها وأئمتها وزعماؤها تملأ أخبارهم بطون الدفاتر وحسبك أن منهم « الهادي » و« الصليحي » و« السيّدة » و« المظفّر » و« الأشرف » و« شرف الدين » و« القاسم » و« المتوكل اسماعيل » كما اشتهر من بين حكّامها وملوكها وأئمتها الطغاة والعتاة والظلمة ؛ شأنهم شأن سائر الحكام في كلّ الأقطار ؛ ونبغ في اليمن الفحول من العلماء والفلاسفة والفقهاء والشعراء والأدباء وفي مقدمتهم « الهمداني » و« نشوان » و« أبن هتيمل » و« الهبل » و« ابن حمزة » و« ابن المرتضى » و« الوزير » و« المقبلي » و« الأمير » و« الشوكاني » ؛ ولقد قال الدكتور أحمد محمود صبحي عن أحدهم ما يلي :

« لست شغوفا بمقارنة مذاهب في أزمنة متباينة لعلمي باختلاف الظروف والبيئات ؛ ولكنّي دون تكلّف أقول : « لقد قدّم يحيى بن حمزة (٦٥٦ - ٧٤٩هـ) منهجاً للتحليل أكثر ثراء مما قدّم سقراط الذي وقفت به ظروف مجتمعه عند مجالي العرف واللغة ليس غير ؛ كما قدّم — أي يحيى — نسقاً للتحليل أكثر موضوعية من أصحاب التحليل المعاصرين » كتاب « الزيدية » ص : ٤٠٦ .

وإذن .. فلماذا التحقير لليمن وتاريخها العلمي والأدبي ؟ ولماذا القول بأن اليمن لم تحكم طوال ألف عام ومائة عام وحتى جاء البيضاني « نائب رئيس مجلس قيادة الثورة اليمنية » الخالد على وجه الزمن ! إلاّ من قبل فئة واحدة ؟ وإنكار الأدوار التاريخية التي قام بها الصليحيون والرسوليون وغيرهم وآثارهم شاهدة ماثلة للعيان » ؟

ولا أدري لماذا تعمّد الكذب حين قال : « وخلال ألف عام ومائة عام لانكاد نعثر على إمام واحد مات على فراشه موتاً طبيعياً » ؟ لماذا هذا الزعم ؟ وماذا يقصد من ورائه ؟ وهو زعم لا يصدر إلاّ عن جاهل لايعرف تاريخ اليمن ، ولو راجع كتاب العلاّمة الشماحي « اليمن الأرض والإنسان » ، لوجد أن أئمة اليمن — وعددهم ثلاثة وسبعون — لم يمت منهم قتلا غير ثمانية والباقون ماتوا على الفراش ولكنه الجهل والتهويش .

غباوة التملص من الجرائم والمؤامرات

السلاّل يدين البيضاني:

ولقد حاول البيضاني ـــ ولكن بغباوة قد تنطلي على من لم يعرفه ـــ التملّص من التهمة الصارخة التي وجهتها إليه وألصقتها به الجمهورية العربية اليمنية على لسان رئيسها السابق المشير عبدالله السلاّل وفي كتاب رسمي وجهه بخط يده إلى الرئيس جمال عبدالناصر يقول فيه :

سيادة الأخ الرئيس جمال عبدالناصر

تحية أخوية صادقة .

تلقيت من المخابرات العربية بصنعاء معلومات خطيرة ، ما كنت أتصورها ، وهي أن البيضاني يتصل بالرصاص أمير البيضاء و يدفعه للاتصال بالسلطات الأجنبية ويحفزه على الانفصال ، ويمنيه بأنه سيكون كسائر سلاطين الجنوب ، حتى قام الرصاص بإرسال كمية من أسلحة الجمهورية الخفيفة والثقيلة إلى بيته بمسورة . وقد كنت سمعت من قبل أن البيضاني يتصل ببعض الوزراء ويحاول خلق المشاكل و يثير نعرة الانفصالية ، ولكني لم أصدق حتى تلقيت قرارا من المخابرات العربية بصنعاء ، وهذا إشعار لسيادتكم لتكونوا على علم و بينة من عمل هذا الحاقد ولو على حساب وطنه وتقبلوا أصدق حبي وتقديري .

١٣٨٢/١١/١٢ (الموافق ١٦ إبريل ١٩٦٣)

أخوكم

عبدالله السلاّل

رئيس الجمهورية اليمنية

و وجه الغباوة في تملّصه انّه لم يُشِر إلى أن وثيقة التهمة قد نشرتها لجنة من « تنظيم الضباط الأحرار » الذين فجّروا ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ في كتابهم « أسرار و وثائق الثورة اليمنية » ص ٢٦٢ و بخط المشير السلاّل ، وحاول في دفاعه أن يجعل السبب هو خوف السلال على مركزه لأن البيضاني « يقف وراء قرار الرئيس عبدالناصر على انسحاب القدر الأكبر من القوّات المصرية من اليمن ، وان « العناصر الشيوعية » قد غضبت أيضاً لأنها حسب تعبير البيضاني « كانت شديدة الحرص على استكمال مخطط إشعال النار في الجزيرة العربيّة » .

كأن « البيضاني » لم يكن هو السبب الرئيسي وعن طريق « السادات » والمخابرات المصرية في توريط مصر العسكري في اليمن ، وكأنه لم يكن هو نفسه داعية الحرب وإشعال النار في الجزيرة العربية

تنفيذاً لمخطط يقصد به إضعاف مصر التي تملك يومئذٍ أقوى جيش عربي.

ونسي أنه قد أثبت في كتابه اتصاله المريب بسلطات الاستعمار في عدن قبل استقلال الجنوب وأنه كان يرسل « السلاح » على طائرة من القاهرة إلى عدن كأن ذلك لم يكن عن سابق علم بينه و بين تلك السلطات أو أنها كانت من الغباء والغفلة بحيث لا تخشى استعمال ذلك السلاح ضدها في الجنوب من قبل الجبهات الشعبية؛ ولم يبرّر موقف تغاضيها عنه وسماحها له بإرسال تلك الأسلحة إلى «تعز» و« البيضاء» وما هو الثمن الذي كان يدفعه مقابل ذلك؛ بل انه و بغباوة أيضاً قد حاول أن يبرّر رحلته المنكرة إلى عدن بعد أن كشف المشير السلال أمره.. بأنها كانت رحلة اقتصادية؛ ونسي أننا نعلم انه قد حاول إغراء شريف بيحان بالزعامة إذا أقنع الانكليز بمساعدته على الثورة في « البيضاء» وتأسيس « جمهورية شافعية» موهماً له أن زعماء الشوافع في « تعز» و« اب» و« الحديدة» قد فوّضوه بحث الأمر معه ومع سائر وزراء وسلاطين الجنوب ووالي «عدن» وهو ما سخر منه الشريف حسين الهبيلي و بقية الوزراء بل وحتى الوالي نفسه السير كندي ترفسكس قال له ساخراً: إننا الآن نتأهب للانسحاب من « الجنوب» فكيف تظن اننا نستطيع أن نتورّط في شمال اليمن؛ ونسي ــ أو تناسى ــ ، نشرته صحف «عدن» يومها وكيف طرد من عدن خاسئاً حسيراً وهو ما سنوضحه في مكانه من فصول هذه الذكريات.

الموقف العدائي ضد السعودية وموقفها الثابت:

وكان أكثر غباوة لما توهّم أن الناس سينسون موقفه العدائي الصارخ من جارة اليمن « المملكة العربية السعودية» حين جاهر من أوّل يوم بأنه سيصدّر الثورة إليها واعتدى على المصرف السعودي واستولى على ودائعه المالية وأمر القائم بالأعمال السعودي الشيخ اسماعيل المعنى وسائر موظفي السفارة بمغادرة اليمن، وعارض اقتراح الأستاذ محمد محمود الزبيري بإرسال وفد كبير إلى المملكة لشرح الموقف وكسب ودّها وصداقتها. وماذا تراه كان ينتظر من المملكة العربية السعودية وهو يهدّد و يتوعّد بتصدير الثورة إليها واحتلال أراضيها؛ وحين يسمع القائمون بالأمر فيها أن أوّل دبّابة مصرية استوردها البيضاني إلى الحديدة كان اسمها « الرياض» ؟

أليس ذلك فعل من يريد إشعال النار في الجزيرة العربية وتوريط مصر تنفيذاً لخطةٍ جهنّمية تضمر الشر والكيد للعرب والمسلمين ؟.

أليس في ذلك جناية لا تغتفر على الثورة والجمهورية الوليدة ؟

أما كانت اليمن في غنى عن كل ذلك ؟

موقف المملكة العربية السعودية:

إننا نعلم أن موقف المملكة العربية السعودية المبدئي والذي لم يتغيّر طوال بقاء القوّات المصرية في اليمن كان موقف الدفاع عن أراضيها واستقلالها وأن سياستها قامت على ترك الحرية للشعب اليمني ليقرر مصيره بنفسه ويختار دون أيّ تدخل أو ضغط خارجي نوع الحكم الذي يريده وطريقته التي تناسبه

وهو ما ظل يعلنه جلالة الملك فيصل وسائر المسؤولين ، ومن أوضح الشواهد على ذلك أنها لم تطلب من المنشقين الجمهوريين الذين عارضوا التدخل المصري وفي مقدمتهم « الزبيري » وسائر أعضاء « حزب الله » ومشايخ حاشد و بكيل وأكابر المثقفين والوزراء أن يكونوا « ملكيين » بل وعَدَتْ وعملت على مساعدة كل اليمنيين على التخلّص من التدخل الخارجي وعلى « المصالحة الوطنية » دونما قيد أو شرط سعودي غير الصداقة والتعاون في ظل مكارم الأخلاق وتحت راية القرآن والأخوة الإسلامية وذلك ما تشهد به وثائق مؤتمرات « أركويت » و« الطائف » و« حرض » و« الخرطوم » وما سنبينه في مكانه إن شاء الله .

وأمّا افتراءات البيضاني ضد « الثورة » ورجالها وضد أحرارها وزعمائها ، فإذا كان البعض لا يبالي بها ، فلا شكّ أن آخرين سيفنّدونها وحسبي أن أدافع عن كرامة تاريخ اليمن وأن أنصف مواقف الشرفاء .

الجمهورية يمنية ؛ لا مصرية يا بيضاني :

وأما تحقير « البيضاني » لليمن وجهود أحرارها وحركاتهم الإصلاحية وزعمه أنه لولا « مصر » لما كانت في اليمن « ثورة » ولا تكوّنت « الجمهورية » ، فظاهر البطلان ؛ فقد هبّت الثورة وأُعلِنَت « الجمهورية » وليس في اليمن جندي مصري ؛ وثبتت الجمهورية وساد السلام لما رحل آخر جندي مصري ، وقد ظلت اليمن في حالة حرب وقلق واستنفار طوال بقاء الجيش المصري في ربوعها مما يؤكد أنّ ذلك الوجود كان أقوى أسباب استمرار الحرب ؛ ومن أصدق ما قرأت في هذا الشأن ما كتبه الصديق القاضي عبدالسلام صبره في تقديمه لكتاب « أسرار و وثائق الثورة اليمنية » ص ١٣ ، قال :

« وإذا كانت ثورة سبتمبر قد استفادت وإلى أبعد مدى من امكانات مصر العسكرية ومن علاقاتها الدولية ، ووجدت فيها سنداً قويّاً ؛ فإنّها بالمقابل قد دفعت الثمن غاليا بسبب هذا الارتباط ؛ فقد استقطبت بالاضافة إلى أعدائها أعداء مصر وما كان أكثرهم في ذلك الحين ، كما تحمّلت اليمن وزر تردّي العلاقات بين مصر و بعض الأقطار العربية و برز الصراع في الساحة اليمنية لفترة من الفترات وكأنه صراع من أجل النظام في مصر أوّلا ، ومن أجل النظام الجديد في اليمن ثانياً وهذا هو سر الخلاف الذي ظهر بعد عام واحد من قيام الثورة ، وتطاول واستشرى حتى أصبح في عام ١٩٦٦م وكأنّه صراع بين الثورة في مصر والثورة في اليمن » .

الشعب اليمني هو الذي طالب بطرد ونفي البيضاني

إنّها حادثة فريدة في بابها ولا نظير لها ليس في تاريخ اليمن والعالم العربي فقط بل وفي تاريخ البشرية فيما أعلم !

فقد تعوّد النّاس في كل زمان ومكان أن ينقلب قوم على آخرين ، أو تنافس أسرة أسرة أخرى وتنازعها السلطة ، أو يتغلّب حزب على حزب فيضايق المنتصر المغلوب ؛ وقد ينفيه أو يبعده عن وطنه ؛ وقد يشرُدُ المهزوم أو يتغرّب ؛ وقد يصدر قرارٌ رسمي بذلك الإبعاد والتغرّب ، ثم قد تتغيّر الحال فينتصر

المهزوم أو يتصالح مع خصمه فيعود إلى وطنه معزّزاً مكرّما . وكل ذلك قد قرأناه في كتب التاريخ بل وشاهدناه وجربناه في عصرنا هذا وفي تاريخ اليمن الحديث وشواهده كثيرة معروفة للجميع .

أمّا حادثة نفي البيضاني وتجريده من جنسيته اليمنيّة وإصدار قرار دائم ثابت بنفيه من الاحترام والحقوق الوطنية فلم يصدر عن السلطة اليمنية فقط بل وأيّد الشعب بكل فئاته ذلك القرار وناشد الحكومة بعدم التراجع عنه وهو ما لم يحصل ــ فيما أعلم ــ لأحد قبل البيضاني ولا أخاله يحدث لأحدٍ بعده إذ لا أظن شخصاً ما سيستطيع أن يمارس من الجُنَح ما مارسه ذلك « الدكتور المزيّف » .

قرارات مؤتمر عمران :

أما كيف كانت تلك الحادثة الفريدة فقد حصلتْ في المؤتمر الشعبي الكبير الذي عقد في « عمران » في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢ سبتمبر سنة ١٩٦٣م ولمّا تكمل الجمهورية العربيّة اليمنية عامها الأول .

وقد جمع هذا المؤتمر كافة فئات الشعب اليمني من ضباط وعلماء وتجار ومشايخ وضم شتى الأحزاب والطوائف ورؤساء حاشد و بكيل ، وزعماء الشوافع والزيود ووجهاء كل أنحاء اليمن وترأسّه الأستاذ محمد محمود الزبيري بقصد المصالحة بين فئات اليمن المتنازعة ، وإنهاء الحرب التي أثارتها بين اليمنيين التدخلات الخارجية وكان أكبر أبواقها عبدالرحمن البيضاني .

طرد البيضاني ومؤتمر عمران :

ولقد اتخذ مؤتمر عمران عدّة توصيات وأقسم كلّ الذين حضروه وهم بضعة آلاف على أن يكونوا « إخوة متعاونين محافظين على وحدة الوطن يحاربون كل أنواع الانقسام والتمييز ، يحتكمون إلى شريعة الله ، وإلى المؤتمر الشعبي فيما شجر بينهم ، وأن يجعلوا الدين الإسلامي أساساً لحياتهم الخاصة والعامة ومصدراً للتقنين والتشريع ، ومعياراً للسلوك الفردي والجماعي ، ونوراً في طريقهم التقدمي الصّاعد ، وأن يلتفّوا حول جمهوريتهم حتى آخر قطرة من دمائهم ، وأن يكونوا متضامنين في سبيل تنفيذ قرارات المؤتمر» .

وقد أصدر المؤتمر سبعة وعشرين قراراً نشرتها الصحف اليمنية ، وفي كتاب ثورة اليمن ، ونكسة الثورة وكتاب الحركة الوطنية في اليمن للأستاذ أحمد جابر ولخّصها الأستاذ عبدالرحمن العمراني في كتابه « الزبيري أديب اليمن » ولا يهمّنا من تلك القرارات اليوم في تذكّراتنا و بعد أن ساد السلام وتحققت أهداف ذلك المؤتمر إلاّ التذكير بما ورد فيها عن عبدالرحمن البيضاني لكي يعلم أن الشعوب لا تنسى ، وأن إدانته من قبل الأمة .

وقد اتخذ المؤتمرون بخصوص « البيضاني » قرارين هما التاسع والثالث عشر ونصهما كما يلي :

٩ــ «يراقب المؤتمر في قلق بالغ ماتذيعه محطة «عدن» الاستعمارية (لم يكن الجنوب قد نال استقلاله بعد) وتروّجه عن الدعوة الانفصالية المذهبية التي يروّج لها المدعو عبدالرحمن

البيضاني، وعن الدس الوضيع بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة و يناشدون كل محطات الإذاعة بالقاهرة وكل وسائل الإعلام فيها أن تردّ على هذه الدعوة المسمومة وتدين المدعو عبدالرحمن البيضاني بما يستحق حتى تطمئن خواطر أبناء الشعب».

١٣ـ «يؤيد مؤتمر عمران قرار الحكومة الذي اتخذته ضدّ الدعيّ عبدالرحمن البيضاني من سحب الجنسيّة اليمنية ومنعه من دخول أرض الجمهورية العربيّة اليمنية، كما يقرّ المؤتمر إدانته وكل من يتعاون معه بأيّ شكل من الأشكال بالخيانة العظمى للشعب اليمني».

إدانة البيضاني لا مثيل لها:

هذا هو حكم الشعب اليمني بكل فئاته وطبقاته؛ وهي إدانة فريدة من نوعها في تاريخ البشريّة، وعلى كل يمنيّ أن يتذكرها جيّدا، ولا يغتر بمكر ذلك الدكتور المزيف الذي لا يزال يدّعي أنه نائب مجلس قيادة الثورة اليمنية الخالد بأمر الشعب؛ لأن أي «تعاون معه و بأيّ شكل من الأشكال» إنما هو خيانة للشعب اليمني حسب القرار الثالث عشر من قرارات مؤتمر «عمران» وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

إنصاف الزبيري للنعمان

ولن أكشف جديداً إذا أشرت إلى أن الأستاذ الزبيري كان قد حذّر المسؤولين في «مصر» من مغبّة التورّط أو التدخل عسكرياً في شؤون اليمن وتمنّى في مقدّمة أحد دواو ينه الشعريّة أن يوفّق الله المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة إلى تجنّب القيام بأي عمل نيابةً عن الشعب اليمني؛ كما طلب من أحرار اليمن في الداخل؛ وفي نفس الرّسالة التاريخية عن البيضاني، أن يحتجّوا لدى المسؤولين المصريين «على وضعهم مصير القضيّة في يد رجل دخيل على القضية، وإهمال أمثال سنان (أبولحوم) ومحسن (العيني) وأمثالهما من المخلصين الصادقين، وتمكين النكرات المنكرات في مصير القضية».

إلى أن قال في رسالته تلك:

«ولما تبيّن لي أن الأمور كلّها أصبحت في يد البيضاني وأنه يقوم بنشاط عجيب اندهشت جداً وتألمت لأن معنى ذلك هو إلغاء كل ثقةٍ بنا جميعا، وإهدار لكرامتنا؛ بل ان المعنى قد يكون أخطر من ذلك كلّه وهو الضيق بالأحرار البارزين وتدعيم الشخصيّات التافهة النكرة ولن يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه سيتطوّر إلى حد أن نتعرّض في المستقبل للاضطهاد جميعاً وهذا نذير خطير لنا إذا لم نثبت وجودنا منذ الآن».

ولما تحدّث عن زميله الأستاذ نعمان قال:

«و بقيت مسألة أخرى لعلّها في نفوسكم وهي ما تسمعونه من شكوى ضد الأستاذ نعمان وقد يقال لكم اننا وإياه جبهة ممتزجة، والحقيقة أن الأستاذ نعمان هذه الأ يام لم يعد له نشاط في القضيّة أصلاً وأنه مشغول بشؤون الطلبة وكلية بلقيس، وليس بيني و بينه غير الصداقة الشخصيّة والحفاظ على تراث الحركة في الماضي ولكنّا فيما عدا ذلك كل منا أصبح في وادٍ مختلف.. وقد أصبح هذا الواقع مفهوماً

بيتنا ، وكلّ منا راض بموقفه ؛ ومع ذلك فالبيضاني لا يساوي قلامة ظفر نعمان من حيث مكانته وتاريخه وأهميته ؛ فالعجب كل العجب ممن ينكرون التعاون مع نعمان و يتعاونون مع البيضاني » .

(انظر الصفحة السابعة من رسالة الزبيري بخط يده المعروف) .

اعتذار وتبرير:

لقد كاد الزبيري أن يلمح ما سيحدث ببصيرته النافذة وحذّر وأنذر دون جدوى ؛ وأن الأخطاء التي حدثت في أيام الثورة الأولى قد سببت و باعتراف ضباط الثورة وزعمائها السياسيين الكثير من المتاعب وكانت التصرفات والتصريحات العدوانية والحاقدة والعنصرية من قبل البيضاني إلى جانب التدخل العسكري المصري قد كلّفت اليمن وثورتها الكثير من المتاعب ، وجعلت كل أعداء مصر وخصومها وهم حينذاك كثير ــ كما قال الأستاذ عبدالسلام صبرة ــ ينظرون إلى الثورة بعين العداوة ؛ ولولا ظهور « البيضاني » وتصريحاته العنصرية ، والطائفية والعدوانية والتهديد بأنه سيصدّر الثورة إلى كل أصقاع الجزيرة العربية ويحررها من الرجعيّة ، لما حدث كل ما حدث من فتن وكوارث ؛ ولا سيما وقد هبّت الثورة في « صنعاء » ولا يوجد في اليمن جندي مصري واحد وأيدتها كل ألوية اليمن في « تعز » و« اب » و« الحديدة » و« صعدة » و« حجة » قبل أن يهبط البيضاني بمشاريعه واقتراحاته وهوجه وأحقاده ومؤامراته وكان في الامكان ــ لولاه ــ تجنّب الكثير مما كان .

ثم هاهو الآن يأتي فيثير الأشجان والأحزان ، و يعيد سيرة تلك المآسي ، لا بقصد الاعتراف بأنها كانت أخطاءه بل بتحميل تبعاتها من هم عنها براء وإظهار نفسه في ثياب البطل والمصلح الاجتماعي .

لقد ازددت بعد قراءتي لكتاب البيضاني تقديراً لمسؤولية الواجب الوطني الذي يتحمله أبناء جيلي نحو تاريخ اليمن قديما وحديثا ، وأيقنت أنّ من أوجب ما يلزم القيام به هو شرح وإيضاح القضية اليمنية ومراحلها وعدالة مطالبها التي أعلنتها الثورة يوم ميلادها ؛ وقبل أن يتدخّل البيضاني ومن وراءه فيغيّر و يبدّل ويحوّل و يعزل و يقتل و يسلب و ينهب و يسبب ما كان من مآس داخلية وخارجية حتى وفق الله أبناء اليمن فتغلّبوا بفطرهم السليمة على حلّ مشاكلهم ، وتبديد اختلافاتهم و بطرقهم الخاصة ووسائلهم التي لا تشذّ عن الإيمان والحكمة ورقّة الأفئدة منذ قالت جَدّتُهم بلقيس لقومها : « ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون » وإلى أن أعلن الشعب على لسان قائده الرئيس علي عبدالله صالح الميثاق الوطني ميثاق الحق والحرية والمساواة و« العدل والإحسان » .

إنّني اعتذر إلى « المنهجيّين » من كثرة « الاستطرادات » في هذه المقدمة ؛ وانفعالي بما قرأته في كتاب « البيضاني » من أباطيل وافتراءات يشفع لي ؛ ولا شك أنّ في حوزة الدكتور عبدالعزيز المقالح الكثير من الوثائق عن « البيضاني » وكذلك في « بير » الزميل الأستاذ أحمد محمد نعمان رفيق « الزبيري » ؛ وإن نشر كل ذلك سيساعد طلاّب المعرفة ويخدم تاريخ اليمن .

وإذا كان القلم قد شطح أو اشتط وتجاوز نهج الوقار الذي كنت قد ألزمت نفسي باتباعه عندما شرعت في كتابة هذه المقدمة وقبل الاطّلاع على كتاب « البيضاني » فذلك لأنه قد شطح واشتط في

أباطيله ودعاو يه ؛ وكان لابد من ردعه وزجره بما يألفه من أسلوب انتصافاً لليمن ورجالها وتاريخها .

وفيما عدا ذلك سوف لن أحيد عمّا التزمت به إن شاء الله .

خاتمة

لقد قال لي بعض الأصدقاء : سجّل كلّ شيء ، وانشر مالايحرجك أمام الأحياء ، وابق مالا يمكنك نشره أمانة للتاريخ ؛ فقلت له : لن أكتب مااستحيي من نشره أويحرجني أمام الأحياء الذين سيصبحون أمواتاً وألقاهم يوم المعاد ! [يوم تجدُ كلّ نفسٍ ما عَمِلَت من خيرٍ مُحْضَرا وما عَمِلَتْ من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها و بينَهُ أمداً بعيدا و يُحَذِّركمُ الله نفسَهُ والله رؤوفٌ بالعباد] . ولماذا اسجّل وأكتب ما أخجل من نشره أو أخشى أن يعاتبني عليه الأخيار.. في الدنيا أويوم المعاد؟ وليس هناك شيء أشعر بأن عليّ أن أخفيه مما يستحق النشر في كتاب حياتي! نعم لقد حاولت في صراعاتي السياسية والأدبيّة التغلّب والفوز والظفر قدر جهدي وطاقتي؛ وذلك ما يحاوله كلُّ مصارع طموح ، وشأن النّاس في كل زمان ومكان ، ولقد ظفرتُ وانهزمتُ وسعدتُ وشقيت ، وأصبتُ وأخطأت ، وأحسنت وأسأت ، في كلّ تلك الصراعات ، ولن أمجّد نفسي ، ولن ألوم الآخرين ! وحسبي أن أقول إنّي كنتُ أحاول الفوز والنجاح عندما كنت أخطيء أو أعمل سوءاً ،وإني كنت أندم وأتوب واستغفر، وذلك هوشأن الموفّقين من رجال الدنيا ؛ ولن أتواضع فأقول : إني لم أكن واحداً منهم في بلادي ؛ في اليمن ! فقد قدّر لي أن ألعب عدّة أدوار على مسرحها وأرضيتُ قوماً ، وأغضبتُ آخرين .. أسأل الله العفو والإحسان ، والهداية إلى الصراط المستقيم ،

عضو المجلس الجمهوري سابقاً
احمد بن محمد الشامي

١٩ رمضان ١٤٠٤ هـ
١٩ يونيو ١٩٨٤ م

الفصل الأول

النشأة الأولى

النشأة الأولى

١ـ الطفولة والكتّاب :

كما أعرفُ من خطّ والدي رحمه الله ـــ وقد كتب ذلك في حامية من حوامي مصحفِه الخاص ـــ فقد ولدتُ في أحد أيام الأربعاء من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٢ هـ ولعلّه الخامس والعشرون من ذلك الشهر الذي يوافق اليوم الثاني من شهر يناير سنة ١٩٢٤ ـــ أو في الأربعاء الذي قبله؛ لا أذكر الآن .. لأن مصحف والدي رحمه الله نُهِبَ ضِمن الكتب التي نهبتها القبائل حين استباحت «صنعاء» إثر فشل ثورة الدستور يوم السبت ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٤٨ م

مكان الولادة:

وقد ولدت في مدينة «الضالع» التي هي اليوم إحدى «محافظات» جمهورية جنوب اليمن . وكان والدي السيد محمد بن محمد بن أحمد الشامي رحمه الله «عاملا» عليها من قِبَلِ الإمام يحيى بن محمد بن حميد الدين رحمه الله قبل أن تنشب الحرب بين بريطانيا واليمن على الحدود اليمنيّة الشمالية سنة ١٣٤٦ هـ/١٩٢٨ م والتي أسفرت عن دخول الضّالع وما صاقبها تحت الحماية البريطانية.

و«العامل» في اليمن يحيل نفسَ المعنى الذي كان يُعرف و يُستَعْمَلُ أيام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، والخلفاء الراشدين، ومن بعدهم وهو يعني «الوالي»، أو «المحافظ» بالاصطلاح المعاصر.

وكان والدي قد استولى على «الضالع» وما صاقبها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حوالي سنة ١٩١٩ م أو سنة ١٩٢٠ م/ ١٣٣٨ هـ؛ فقد كانت هذه المنطقة كسائر المناطق الجنوبية (ماعدا مستعمرة عدن حينذاك) تحت سيطرة الحكم العثماني، فلما تمزّقت الامبراطورية العثمانية كان من مشاريع الإمام يحيى توحيد اليمن كلّها؛ فأرسل والدي بحامية يمنيّة كقائد لهذه المنطقة وفيها ولدت ونشأت حتى بلغتُ الخامسة.

حرب الطائرات:

وفي مطلع سنة ١٣٤٧ هـ/١٩٢٨ م وخوفاً من قنابل الطائرات البريطانية نزحنا من الضالع إلى «صنعاء» ومعي والدتي السيّدة أمة الله بنت أحمد الشّامي، وأخي عبدالوهاب، والواقع أن هذه الحرب التي يسمّيها اليمنيّون حرب الطائرات؛ وأسبابها ونتائجها، وانهزام والدي، وخسران الضالع «مسقط رأسي»، ودخولها تحت الحماية البريطانية بمؤامرة بين سلطانها و«الوالي الانكليزي» في عدن،

والملابسات التي صاحبت كلّ ذلك، ثم وفاة والدي حزيناً كئيباً في نفس العام.. قد كان له أثر كبير في حياتي؛ وطبّعها بطابع سياسيّ وأدبيّ مُعيّن؛ ولا تزال أقاصيص والدتي عن خلافات والدي مع أمير اللّواء الذي كانت «الضّالع» إحدى مناطقه ونواحيه وعن التباين بينهما في الأفكار وأساليب وطرق العيش ومُعاملة الناس، ترنّ في أذني حتى اليوم، ولا يمكن أن أنساها. وهي تزعم أنّه لو تُرِك لوالدي فرصةُ العمل بالطريقة التي كان يفضّلها و يراها لما انهزم، ولا دخلت «الضالع» تحت الحماية البريطانية؛ وتقول — وربّما كانت تعزّي نفسها وتُلهّي طفليْها وتواسيهما تحت جناح اليتم وفي حضن ثكلها — إنّ والدي كان يرى أنّ أسلوب معاملة الأهالي في «الجنوب»؛ — و«الضالع» من أهمّ مناطقه — يجب أن يكون التحبّب واللّين والحوار والإحسان، بينما كان الوالي في المنطقة.. يحبّذ — و يزّين للإمام — سياسة القوّة، والتشدّد وعدم الاقتناع بما في اليد، بل وفتح المشاكل على الانكليز في بقيّة المناطق.. مما أدّى إلى نشوب الحرب؛ ثم لم يُعِدُّوا لها، ولم يصمدوا، ووافقوا على الصُّلح، والهدنة، وكان والدي — الذي كان يرى السياسة السلميّة أفضل لليمن حتى تستعد وتتقوّى — يُفَضّل الصّمود بعد أن نشبتِ الحرب وشبّ أوارها، و يطالب بامداده بالسلاح والرجال والمال، فلا يحظّى إلاّ بالمماطلة؛ إلى آخر تلك الأقاصيص التي سجّلتُ بعضها في «إلياذة من صنعاء».

وفاة الأب بمكة:

ونزحنا إلى صنعاء، ولحق بنا الوالد المنهزم الجريح.. وكان بينه و بين الإمام يحيى رحمه الله مواقف عتاب وخصام، وحمّله تبعة الهزيمة، وفي شهر الحجّة من نفس العام سنة ١٣٤٧ هـ/١٩٢٩م ذهب إلى مكّة حاجّا، وهناك لحق بالرفيق الأعلى؛ وكنتُ في منتصف العام السادس، وأخيَ لمّا يتجاوز الثالثة، وجنينٌ يتطلّع إلى النور في جوف الأم الرؤوم.

تعاليم الأم:

وشحّتْ ضروعُ الحياة، وأظلّنا جناحُ اليتم، واستبسلت الأمّ في مصارعة النوائب والأحداث وكانت قصّة؛ كلها عرقٌ ودموع.

واهتمت الوالدة بتهذيبنا، وتعليمنا، والمحافظة على معنو يّاتنا كأولاد «عامل الضّالع»؛ وهكذا كان ينادينا الناس: نساءً ورجالا. وكانت تُلَقّنُنا الاعتماد على النّفس، والاعتزاز بالأب الفارس الشجاع، المجاهد، الذي كان كريماً، يحبّ المساكين، ويخاف الله، ولا يحكم إلاّ بالعدل، و يتحلّى بمكارم الأخلاق.. والذي مات كهلاً ولمّا يتجاوز الأربعين.! وكانت تقصّ علينا كلّ ما حدث لوالدي؛ من حروب ونوادر، وخلافات بينه و بيْن الإمام، وكان لكلّ ذلك آثاره في نفسيّة الطفل اليتيم.

في الكتّاب:

وحوالي سنة ١٣٤٩ هـ/١٩٣١م — وقد بلغت السابعة — أدخلتني الوالدة الكتّاب، وكانت الدراسة آنذاك لا تزال «أهليّة»؛ فلا توجد مدارس حكوميّة ولا معاهد رسمية، ولا وزارة، أو إدارة للتربية

والتعليم أو للمعارف ــ اللهم إلا مدرسة الأيتام التي كانت تحت إشراف إدارة خاصّة من قبل الإمام ــ وكان الكتّابُ الذي يُسمّى في صنعاء حينذاك « المكتب أو المِعلامَة » في حارة « الفليحي » . وهو يحتلّ بيتاً كبيرا مهجورا يتكوّن من ثلاثة ــ أو أربعة ــ طوابق ؛ في الطابق الثاني منه مكتبُ كبيرِ المعلّمين السيّد محمد المؤيّدي رحمه الله ، ويحتلّ الطابق الأول الأستاذ محمد بن علي النعماني ، و يساعده الأستاذ محمد حمزة ؛ و بهذا الطابق الابتدائي التحقتُ ، وإليه انضممتُ ، وكان الأستاذ يومئذ يُدعى « سَيِّدَنا » ، وتقتصر الدراسة الابتدائية على تعليم القرآن ابتداءً من جزء « عمّ يتسَاءلَون » و يَفْتَتِحُونَه بسورة « الفاتحة » ، لأهميتها في إقامة الصّلوات المكتوبة ؛ وأسلوب التعليم هو التّلفيظ ، والتّلقين ، والتجويد لحروف الهجاء ، والسّور القصار ؛ يقعد « المعلم » على دكةٍ مرتفعة مفروشة ؛ و يقعد التلاميذ على الأرض .. وقد يتبرّع أهل التلاميذ المؤسرين فيفرشون أرض « المِعلامَة » بالحُصُرِ أو البُسط البالية ، وقد يُبَلِّطُ بعضُها « بالصُّرف »(نوع من الخشب) .

أما الكتاتيب التي في « الحارات » ، والأحياء المتواضعة ؛ فإن تلامذتها يجلسون على التراب أو البلاط العاري . وقد تعوّدوه في بيئةِ بيوتهم وشوارعهم .

حقّ الخميس :

ولم يكن المعلّم ــ أو سَيِّدَنا ــ يُعطي أيّ مرتب من قِبَلِ الحكومة ، أو من أيّ هيئة رسمية ؛ بل كان يتلقّى من أهالي التلاميذ ما يسمّونه : « حقّ الخميس » ؛ وهو جُعْلٌ يُعطِيه الأبُ أو الأم للتلميذ ــ كلّ صباح خميس ــ ليُسلّمه إلى أستاذه ، وكان جِدَّ متواضع ؛ و يتراوح ما بين « البقشَة » و« الأربع بُقَش » على قدر طاقة أهل التلميذ ؛ كلّ وجهده وكرمه ، وقدر ثروته ، واهتمامه بتعليم ابنه ؛ وكان كل إنسان في ذلك الزّمان يحفظ هذا البيت :

إن المـعـلّـم والطّـبـيـب كـلاهـما ... لا يَـنـصـحَـان إذا هما لـمْ يُكْـرَمـا

وقد يُحضِر ــ بعض أبناء الأثرياء ــ معهم شيئاً من « الكَعْكِ » أو « الزبيب واللّوز » و يهدونها للمعلّم ، و بعضهم قد يُحضر معه بعد الظهر شيئا من « القات » هديةً للمعلّم ، « ليخزّن » به بعد الظهر ، ولكن ذلك نادراً وفي المناسبات .. وربّما أن بعض الآباء من التجار والأثرياء ، والموظفين الكبار قد كانوا يواسون الأستاذ بين الفترة والأخرى ؛ أما أنا فقد كان « جُعْل خميسي » أو « حق الخميس » ــ كما كنّا نسمّيه ــ « بقشتين »(١) ، وفي كل يوم عيد « ريالا » فضّيا ، وصرة فيها زبيب ولوزٌ وجوز ؛ كما أن التعليم الابتدائي كان للبنين والبنات على السواء و يقعدون في مكان واحد ــ وإن كان لكلّ

---

(١) « البقشة » : وحدة نقدية من الريال الفضي « مارياتريزا » الذي كان يسمّى أيضاً « عِمادي » نسبة إلى « الإمام يحيى » لأن كل « يحيى » في اليمن يلقبّونه بالعِماد ، و يُصْرَفُ الريال حينذاك إلى أربعين « بقشة » ، وكانت قيمة « الريال الفضي » الشرائية مرتفعة جداً نظراً لرخص المواد الغذائية والسّلع الضرورية في السوق اليمنيّة ، فالبقشة جزء من أربعين وأظن أن قيمة الريال الشرائية كانت تساوي حوالي ثلاثين دولاراً بل أكثر.. وكانت وسائل العيش بدائية ومحدودة ولمّا يعرف الناس بعد الكهرباء والغاز والبترول والمأكولات والمشروبات التي غزتنا مع الحضارة الأوروبية ، ولذلك كان للبقشة قيمتها الشرائية النافعة ، وتصلح جُعْلاً من تلميذ فقير.

جنس جانب ـ إذ أن فرض تعليم القرآن وأذكار الصلاة، ومبادىء الإسلام، ومعرفة أركانه واجب على كل مسلم ومسلمة، وأذكر أن بعض البنات كن أفضل فطنةً وذكاءً واستيعابا من بعض التلاميذ الذكور، ومنهنّ من كنّ يُكَلَّفْن بتحفيظ وتلقين الدروس لمن لم يفهمها منهم، وقد حصل لي ذلك عدّة مرات، وما إن مَرَنْتُ حتى كنتُ القّن حروف الهجاء وسُوَر جزء «عم يتساءلون» بعض الفتيات بتكليف من المعلّم.. وكنت أجد شيئا من السعادة المغمورة بالحياء والخجل؛ ولا سيما إذا كانت «الزميلة» ذكيّة جيلة ومعظم فتيات «صنعاء» حسناوات، وقد لا أعدو الحق والواقع إذا قلت إني لم أرمنهن شوهاء قط.

وقد مكثت في «مكتب الفليحي» عامين وترقّيت إلى الصف الثاني، وأرضيت أمّي والوالد عبدالرحمن والمعلّم الأمين، وكنت قد بدأت أتذوّق وأفهم بعض ما أتعلمه، وأشرحه لأمي، وقد حصلت ثلث القرآن أو نصفه ثم انتقلت إلى «مكتب قاسم العمري» في قبة المهدي.

وعندما عدتُ إلى «مكتب الفليحي» أكرمني الله بمعلّم أديب هو الأستاذ محمد بن علي النعماني الذي لا يزال على قيد الحياة أطال الله عمره فزيّن لي الأدب وحبّب إليّ معالي الأمور.

التطور الدراسي ومدرسة الإصلاح:

في تلك الأثناء حصلتْ تطوّرات؛ فقد تبرّع بعض أثرياء «الحارة» واشتروا من الوقف أرضيّةً تُقابل «مسجد الفليحي»، وبنوا عليها بالحجر الأبيض مدرسةً ذات فصلين، وساحةً صغيرة ونقلوا إليها التلاميذ من تلك الدار العتيقة المهشّمة الأبواب والنوافذ، والتي لا تدخل أماكنها الشمس إلا وهي تدلف للمغيب. وما لبث المعلّم الأوّل السيّد محمد المؤيدي أن انتقل إلى جوار ربه وحلّ محلّه الأستاذ النعماني، ورأس الصف الثاني الأستاذ محمد حمزة، ولازمت الأستاذ النعماني، وأولاني رعايةً خاصة.

التطور الدراسي:

ثم حصل تطوّر آخر فقد اشتدت وكثرت مطالبة النّاس للحكومة بأن تنشىء مدارس ابتدائية وثانوية، فبنوا أوّل مدرسة ابتدائية في منطقة «شرارة»؛ حيّ «بير العزب»، وسموّها مدرسة «الإصلاح» وحشروا إليها كلّ التلاميذ الذين يدرسون في الكتاتيب والمعاليم كمدرسة «الفليحي»، و«الزُّمر» و«بير العزب» وغيرها، ولم يبقوا فيها إلاّ الأطفال الصغار ما بين السادسة والتاسعة يُهَيأون فيها للالتحاق بمدرسة الإصلاح، أو مدرسّة الإرشاد التي بنوها في الزُّمر بعد سنوات من فتح مدرسة الإصلاح والتي أظنّ أن تاريخ افتتاحها سنة: ١٣٥١هـ/١٩٣٣م، وعيّنوا فيها الأساتذة والمعلمين أنفسهم كالأستاذ غالب الحرازي والأستاذ محمد النعماني والأستاذ محمد حمزة والأستاذ قاسم العمري وغيرهم، وكنتُ ضمن من انتقل إلى مدرسة «الإصلاح» مع استاذي محمد النعماني، وأصبح للمعلّمين مرتبات شهريّة من الدّولة، وتكوّنت للتعليم إدارة كان يرأسها القاضي أحمد الآنسي وكان عالماً وجيهاً، يُتقن اللّغة التركية؛ إذ قد تخرج من المعاهد العثمانية، أيّام كانت اليمن ولاية عثمانية،

ثم سرعان ما تحوّلت الإدارة إلى وزارة رأسها سيف الإسلام عبدالله ابن الإمام يحيى وسمّوه «وزير المعارف» ووضعوا للتعليم مناهج، وأضافوا إلى دروس القرآن والحساب، والنحووالفقه دروس علم الصحة، والجغرافيا، والتاريخ والهندسة، ونحوها، واستوردت الحكومة كتبها الابتدائية من مصر والشام والعراق ولبنان.

وأتوا بمعلّمين من الخارج لتدريس تلك الكتب، واستقدموا علماء وأساتذة وسموهم مستشارين لوزارة المعارف ومعظمهم من «الشام».. ولا أزال أذكر أحدهم وهوسوريّ الجنسية واسمه السيّد عبده نافع؛ وكان خطيباً مصقعاً، وهماماً نشيطاً، وقد أثر تأثيراً كبيراً في سير الحركة الدراسية، وتنظيم المدارس، والدروس وأوقاتها، وساعات الدوام، والفراغ، والراحة، واشتراك المعلّم في عدة فصول، وتعيّن عضواً في لجنة تأليف الكُتب المدرسيّة الابتدائية اليمنية، الذي كان من أعضائها الأستاذ الأديب محمد حيدرة؛ وهو يمني الأصل من لواء تعز، ولكنه كان قد هاجر إلى الهند وأوربا واشتغل بالتدريس في «عدن» و«تعز» و«الحجرية» قبل أن تستقدمه وزارة المعارف إلى صنعاء، وهو مع الأستاذ «نافع» و بعض المسؤولين في وزارة المعارف من علماء اليمن وأدبائها كالعلامة السيد يحيى النهاري، والعلامة السيد على المؤيد، المؤلّفون الأوائل للكتب الدراسية الأولى في المدارس الابتدائية اليمنية، و«حيدرة» و«نافع» كانوامن واضعي الأناشيد اليمنية للتلاميذ في صنعاء؛ وكنت أنا ضمن الأوائل من المترنمين بتلك الأناشيد؛ ولم تكن من قبل معروفة؛ ثم تسابق الشعراء اليمنيون في وضعها وتأليفها في شتى المواضيع الوطنية، والدينية، والوزير، والإمام والحماسة..الخ

و بقيت في مدرسة الإصلاح عامين وكنت أقرأ على أستاذي النعماني دروساً خاصة غير الدروس الرسمية اليومية التي يدرسها سائر التلاميذ في صفّي ـــ وكان الرابع ابتدائياً ـــ وهذه الدروس كلّفني بقراءتها ودرسها الوالد عبدالرحمن الشامي، وهي دروس تقليديّة يُعِدّون بها التلميذ ليكون فقيهاً وعالماً مبرزاً، ومسؤولا في الدولة، فقد ألزموني بحفظ القرآن عن ظهرقلب؛ كلّ يوم ثمن جزء، وسبعة أسطر من «متن الأزهار، في فقه الأئمة الأطهار» و بضعة أبيات من «مُلحة الإعراب» في النحو، وكان الأستاذ النعماني هو المسؤول عن هذه الدروس أمام أهلي؛ وقد أرهقتني، وقاسيت منها الأمرّين؛ لاسيما ولم يكن في صفّي من يقرؤها؛ فقد كان معظم من في صفّي من أولاد التجار وأصحاب الحِرف والأعمال، الذين لا يُعِدُّون أولادهم لدراسة الفقه والبلاغة، والبيان وعلوم العربيّة وأصول الدين في مراحلهم الدراسية القادمة لأنّهم لايلتحقون بحلقات المساجد، أوبالمدرسة العلمية إلاّ نادرا.

مدرسة الأيتام:

وحدث تطورٌ آخر؛ فقد قرّرت إدارة المعارف أن تنقل بعض المعلّمين من مدرسة «الإصلاح» إلى مدرسة «الأيتام»؛ وهي؛ معهدٌ أسّسَ في العهد العثماني وعندما انقرض، وانسحب الأتراك إثر الحرب العالمية الأولى، واستتب الأمر للإمام يحيى أبقى المدرسة كما هي؛ وكانت تضمّ من يفقد أبويه، أو أحدهما من الأطفال المعوزين، ولا مصادر رزق لهم، ولا يستطيعون الدخول في المدارس الخاصة، أو العيش في بيوتهم؛ وهي أشبه بما نسمّيه الآن «مدارس داخليّة» غير أنّ الدراسة وتكاليف



أقدم صورة للمؤلف قبل أن يطرّ شاربه سنة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م

العيش فيها على حساب الدولة. وكانت مكونة من طابقين؛ الأرضي لأماكن الدراسة، وكانت ستة أو سبعة فصول، والطابق الثاني للإدارة وعنابر النّوم؛ ولها مخرّجات فيها المطبخ، ومساكن الخدم، ودورات المياه والمراحيض. أمّا الصلوات فكان يؤدّيها التلاميذ في أوقاتها في مسجد قبة «البكيرية» الذي تجاوره المدرسة، وكانت «المعاليم» أو «الهِجَر» أو «المدارس» لا تبنى ولا تشاد في اليمن إلاّ مجاورة للمساجد.

وكان لتلاميذ مدرسة الأيتام إلى جانب الإعاشة، والرِّعاية الصحية، والنوم، ونفقات الدراسة، ملابسهم الخاصة، ذات اللّون الأصفر؛ تُصرف لكلّ واحدٍ بدلتان في العام. وكان فيها قسم خارجي يلتحق به الأيتام الذين لا تزال أمهاتهم على قيد الحياة، و يرغبن في أن يعيش أولادهنّ معهن فهم يدرسون و يأكلون نهاراً في المدرسة، و بعد صلاة العصر يذهبون إلى أمهاتهم للمبيت لديهنّ، والبعض لا يخرج لزيارتهن إلاّ يوم الخميس ولا يعود إلا صباح السبت، وكان مخصص كلّ تلميذٍ يومياً ـــ غير الادام المتواضع؛ من لحم وخضروات ـــ أربع قطع من الخبز يسمونه «الكِدم»؛ جمع «كدِمَة» وعجينتُه مكوّنة من عدّة أنواعِ من الحبوب كالذّرة والفول والشعير والحنطة، ولم يكن مظهر «الكدمة» وشكلها لطيفاً ناعما، ولكنّ طعمها كان لذيذاً ولاسيما مع مسحوق «الصّعتر» و«الملح» و«البسباس»!

غيب القرآن وحفظ المتون:

وطلبوا من أستاذي محمد النعماني الانتقال إلى مدرسة الأيتام ضمن المعلّمين المنقولين إليها. وقرّر أهلي ـــ وكانت أمّي كلّ أهلي ـــ بل ورغبتُ نفسي أن أنتقل أيضاً، وأن أترك مدرسة الإصلاح، والتحق بـ«مكتب الأيتام» ووافق عميد الأسرة المشرف على سير حياتي الوالد عبدالرحمن الشامي فليس هناك بين أساتذة «صنعاء» أفضل ـــ في نظره ـــ من محمد النعماني، ويجب أن أكمل عنده «غيب القرآن» و«متن الأزهار» و بعد «مُلحة الإعراب» «ألفية ابن مالك» و«الفرايض» و«غاية السّول في علم الأصول» إلى آخر المتون التي ستخولّني الانضمام إلى حلقات الدرس والتحصيل في «جامع الفليحي» أو صفوف «المدرسة العلمية» هكذا قال الوالد الكريم؛ وكان يتوسّم فيّ النجابة و يقول: «إن شاء الله ستكون مثل جدّك العالم الشاعر هاشم بن يحيى الشامي؛ صاحب المؤلّفات والرسائل الكثيرة في شتّى الفنون» ثم يقول مبتسماً في حنان ولطف وإكرام: «وإذا نجحت في الدراسة فسأزوّجك بابنتي أمة الله إن شاء الله».. ولم تكن إجراءات الالتحاق بمدرسة الأيتام صعبة أو معقّدة فقد كنت نفسي «يتيما»، وفيها لأمثالي قبول خاص يصحّ به انتمائي إليها إنتماءً كاملاً، فيما عدا المخصّصات؛ فلا حقّ لي بصرف «الكدِم» ولا في الملابس الموسميّة؛ أداوم فيها الصّباح حتى الظهر، ثم أذهب إلى البيت لوجبة الغداء ظهراً، وأعود لحضور دروس بعد الظهر كما كنت أعمل في «مكتب الإصلاح».

الأيتام صانعو الثورات في اليمن:

وكانت الدراسة في مدرسة الأيتام أكثر نظاماً، وأرقى تعليماً، وفيها عرفتُ عدداً من الأساتذة المشهورين كالعلامة الخطيب السيّد علي عقبات، والعلامة الفقيه عبدالله كُباس، والأستاذ الخطاط

المحاسب محمد تقي، وغيرهم وكان خرّيجوها يرشّحون لبعض الوظائف الإدارية، أوضباطاً في الجيش، أويُرسَلون في بعثات إلى خارج اليمن، وجُلّ من شاركوا في الحركات الثورية في اليمن كانوا من خرّيجي مدرسة الأيتام وقد تحدّث عن هذا الموضوع الأستاذ محمد بن أحمد نعمان في كتيّبه «الأطراف المعنيّة في اليمن» ولكنّه أغرق وغالى في تصوراته؛ ومن خرّيجي مدرسة الأيتام «الحورش والعنسي والمروني والسلاّل» وزملاؤهم من رجال ثورة الدستور، وحركة «الثلايا» والأمير عبدالله، ثم معظم ضباط ووزراء ثورة سنة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٢م ولكلّ ذلك حديث ذو شجون.

عبدالرحمن الشامي:

نعم: من بُعدٍ قريب؛ كانت ترعاني وتوجّهني عناية رجل عظيم لايمكن أن أنساه وهوأحد خمسة أو ستة أشخاص أثروا في حياتي الأدبية والسياسية، وسلوكي الاجتماعي، وأعني به السيد عبدالرحمن بن حسين الشامي (ولد سنة ١٢٩٠ هـ وتوفي سنة ١٣٨١ هـ/١٨٧٤ــ ١٩٦٢م) وقد أشرت إلى برّه وحنانه وتشجيعه لي وأنه والد زميلي السيد محمد بن عبدالرحمن الشامي، خاتِم القرآن قبلي، وشقيق زوجتي أمة الله بنت عبدالرحمن الشامي، وذكرتُ أنّه كلّفني بقراءة المتون وحفظها عن ظهر قلب، وانّه كان يريد إعدادي إعداداً علميّاً بالأسلوب الذي يعرفه وتلقّاه عن علماء الإسلام المجتهدين؛ وكيف كان يمنّيني بأنّه سيزوّجني بابنته أمة الله، وكان يضرب لي الأمثال التاريخية، و يذكر لي أسماء نجباء اليمن؛ كالأمير، والشوكاني، والوزير، وجدي هاشم بن يحيى الشامي، ويحثّني على اتقان الخطّ، و يطلب منّي نسخ بعض المخطوطات الأدبية والعلمية، و يدفع لي مقابل ذلك أجراً، ووعوداً كريمة بأنّه قد أصبح شبه متأكد بأن «الشرط» أو «السر» الذي بيني و بينه سيتّم.. و يُردف: ولكن ثابرعلى الدراسة، وحتى بعد أن جاوزت الرابعة عشرة، كان يحثّني أيضا؛ مُراسلة، وشفوياً، قائلاً: «السرّالذي بيني و بينك لن يتم إلاّ إذا نسخت بخط جميل الكتاب الفلاني، وقرأت وأتقنت المتون» وكان يعني بالسرّوالشّرط زواجي بابنته أمة الله، شريكة حياتي الآن، والتي في سبيل زواجي بها قرأت الكثير، واستظهرت الكثير، وكتبت الكثير، من «المتون» و«الأشعار» و«المخطوطات»!

ولقد كان من عادة الأسر الكبيرة ــوأعني المشهورة بالعلم والأدب وليس بالثراء أو المناصب الحكومية ــ أن يُلزِموا أولادهم باستظهار المتون، وحفظها عن ظهرقلب، مردّدين على مسامع الأطفال المثل السائر، «الحَفظ في الصِغَر كالنّقش في الحجر»؛ وما إن بلغت العاشرة وجوّدت القرآن الكريم ــكما ذكرت سابقاًــ حتى كُلِفتُ باستظهار «متن الأزهار» في فقه الأئمة الأطهار، و«ملحة الإعراب» ثم «ألفية بن مالك» ومتن «ابن الحاجب» في الإعراب والنحو والصرف، و«مفتاح الفايض في علم الفرائض» و«غاية السول في علم الأصول»؛ «سلسلة متتابعة الحلقات»! هذا إلى جانب دروس المدرسة ــواستظهار القرآن الكريم.. وقد حفظت بسهولة «مُلحة الإعراب» لأنها سلسة، ونظمها لطيف، وشرعت في قراءة الألفية لابن مالك برغبةٍ ورضى، ربّما لأن مزاجي الذي يحبّ التفعيلات والأنغام قد استأنس إلى تلك المنظومات، وربما لأن الشعروالنظم بأوزانه وقوافيه يسهل حفظهُ على الراغب والطالب أكثر من المتون والنصوص المنثورة والكلام المرسل، ولكن «متن



السيد العلامة عبدالرحمن بن حسين الشامي و بجانبه ابنه السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي .

الأزهار» و«غاية السّول» قد ارهقاني وأتعباني وقاسيت منهما الأمرّين.

طلب الرحمة:

لا جرم؛ أنّ أيّ طفلٍ — ما بين العاشرة والرابعة عشرة— يُراد لهُ، أو يُطلّب منه، أن يَشحْن فكره الصّغير الغضّ بمسائل التشريعات، والأحكام الفقهية، من بيع وشراء، وزواج وطلاق، وحيض ونفاس، والمقاصد والأبحاث الأصوليّة من تصوّرات وتصديقات، ونقائض وقياسات، وحقيقة ومجاز، والمحظور، والمكروه والمباح، والسنة والاجماع، والخاص والعام والاستثناء، والناسخ والمنسوخ، والاجتهاد والتعادل، التي تحار إزاءها أفكار الفلاسفة؛ إلى قواعد النحو والصرف واختلافات البصريين والكوفيّين.. إلخ سوف يُرهقُ وإنّما ارهاق، و يتضنّى.. وأيّما ضنى! ولذلك فقد ذهبت إلى «أمي» شاكيا أوّلاً: أطلب الرحمة، قلت لها: لقد تعبتُ ولا أستطيع أن أتحمّل كل هذا، وخيّرتُها بين أن أستظهر «القرآن» أو «أتغيّب» «متن الأزهار».. فطلبت منّي الذهاب إلى «سيّدنا» عبدالرحمن الشامي.. وكان غائباً— و ينوب عنه عادة إذا غاب ابنه الأكبر العلامة أحمد بن عبدالرحمن الشامي؛ وكان تقيّاً صارماً، وتوسلتُ إليه، واحتجيّتُ، و بكيت فلم يجد توسلي شيئاً.. بل لقد استغرب كسلي وتخاذلي وعجزي؛ واستغلق فكري، وكلّت حافظتي، وأعمل المعلّم عصاه يجلد بها باطن كفي أحياناً، وتارة يشنق رجليّ «بالفلقة»، و يضرب باطنهما ضربا كان يوجعني كثيراً، فتمرّدت وكان لابد من ذلك فكانت الهجرة الأولى.. التي قبل أن أتحدّث عنها لابد أن أشير إلى أن البعض ربما استغرب اهتمامي بأمور تخصّني؛ وقد يراها تافهة لا تستحق الحديث أو عادية لا ينفرد ولا يتميّز بها إنسان عن إنسان، و ينتظر مني أن أهتم أكثر بمواقفي السياسية والوطنية، وكراسي الحكم والمناصب، التي قعدت عليها أو توليتها.

المواقف الوطنية والسياسية والتباهي بها:

ولكن ماذا ينتظر التاريخ من مثلي أن يقول فيما يسمّيه الساسة المتنافسون مواقف وطنيّة أو سياسية، و يتحدّث عنها البعض متباهيّا فخورا؟ إن معظمها في نظري لا يرتاح إلى تذكّره. بله المباهاة به الموفقون عندما يكتبون سيرهم صادقين مع أنفسهم والتاريخ؛ وقد قرأنا الكثير عن أولئك الذين شوى الندم ضمائرهم وهم على فراش الموت عندما استعرضوا بعض تلك المواقف.

إن الكثير من هذه المواقف الوطنيّة أو السياسية —وعند جميع البشر وعبر العصور— تنافس وتجالد على السلطة والجاه والحكم والثروة، وصراع وتنازع على البقاء؛ وكثيرا ما صفّقت الجماهير للعالب المظفّر، وهو الباطل المنتصر، وحثتِ التراب في وجه المغلوب المنهزم وهو الحق الصّريع.

إن أكثر الذين يشيدون بمواقفهم الوطنية —المشرفة— كما يقولون، و يتحدّثون عن جولا تهم وصولا تهم السياسية التي ظهروا بها على أعدائهم وخصُومهم ومنافسيهم إنما يعملون ذلك وهم لايزالون يأملون في اكتساب مجد جديد؛ فيكونون وزراء وسفراء ورؤساء وزعماء،! وهم إنما يعملون ذلك حين يتنافسون على كراسي البرلمانات، أو الجمعيات الوطنية، أو النقابات أو الأحزاب، لينالوا النصيب

الأ وفر من أصوات التأييد! وأنا إنّما أتحدّث عن نفسي بعد أن نلت ما صبوت إليه من الجاه والمناصب وتركتها وزهدت عنها فلماذا اتباهى بمواقفي الوطنية والسياسية أو أزعم أنني كنتُ أكثر مكراً وأبرع حيلة من اندادي؟

سأكتب عن طفولتي، وسأتحدّث عن شبابي ما ساء منه وسرّ واستعرض أسراب «التفاهات» و«الصغائر» التي قليلاً ما يستعرضها الناس الكبار وأصحاب المواقف الوطنية والنسياسية.

ولقد سبق لي أن تحدّثت كثيرا عن تلك المواقف، وفاخرت و باهيت بها شعراً ونثرا.. ولكن كشاب طموح، وسياسي محترف، ووزير مسؤول، وحزبيّ متعصّب لفئتِهِ التي اعتمدت عليه.. أما الآن فأنا أريد أن أتحدث عن أشيائي وأموري الخاصة جليلها والحقير، وأن أكون صادقاً مع نفسي ومع من اتحدّث إليه؛ لأنني لا أنافس ولا أصارع ولا أجادل، وإنما اتحدّث لأنه يطيب و يلذّ لي الحديث.. وعندما أكتب أو أتحدث عن المواقف السياسية لن أباهي، ولن أفاخر لأنني «شاهد» اكتب وأتحدّث للتاريخ، ولقد قرأت منذ أيام قصّة رواها المؤرخ الكبير ابن جرير الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» جـ٥ ص ٢٣٤، تأثرت بها اعتباراً وهذا نصّها: «حدثني موسى بن يعقوب عن عمّه قال لما بلغ «عمرو بن العاص» قتل عثمان رضي الله عنه قال: أنا أبوعبدالله؛ قتلته وأنا بوادي السباع؛ من يلي هذا الأمر بعده؟ إن يَلِهِ طلحة فهو فتى العرب سَيباً، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلا سيستنطق الحقّ، وهو اكره من يليه إليّ؛ قال فبلغه أن علياً قد بو يع له فاشتدّ عليه، وتربّص أيّاما ينظر ما يصنع الناس، فبلغه مسير طلحة والز بير وعائشة، وقال: أستأني وأنظر مايصنعون، فأتاه الخبر أن طلحة والز بير قد قتلا فارتجّ عليه أمره، فقال له قائل: إن معاو ية بالشام لا يريد يبايع لعليّ فلوقارنت معاو ية، فكان معاو ية أحب إليه من علي بن أبي طالب، وقيل له: إن معاو ية يعظّم شأن قتل عثمان بن عفان ويحرّض على الطلب بدمه فقال عمرو: ادعوا لي محمداً وعبدالله (ولديه) فدُعِيا له؛ فقال: قد كان ما بلغكما من قتل عثمان رضي الله عنه و بيعة الناس لعليّ وما يحصد معاو ية من مخالفة عليّ، وقال: ما تريان؟ أما عليّ فلا خير عنده، وهو رجلٌ يُدِلّ بسابقته، وهوغير مشركيّ في شيء من أمره فقال عبدالله بن عمرو: توفي النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو عنك راض، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وهوعنك راض، وتوفي عمر رضي الله عنه وهوعنك راض؛ أرى أن تكفّ يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه؛ وقال محمدَ بن عمرو: أنت ناب مُن أنياب العرب فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوتٌ ولا ذكر، قال عمرو: أما أنت ياعبدالله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي، وأسلم في ديني، وأما أنت يامحمد فأمرتني بالذي هو أنبه لي في دنياي وأشرّ لي في آخرتي ثم خرج عمرو بن العاص ومعه ابناه حتى قدم على معاو ية» أ.هـ.

ترى ما الذي تذكّره السياسي الداهية عمرو بن العاص وهو على فراش الموت؟ ولوقدر له أن يكتب مذكراته ماذا كان سيقول؟

أما أنا فلا أجرؤ أن أدّعي أنّ مواقفي الوطنيّة وجولا تي السياسية كانت كلّها خالصة لوجه الحق، أو منزهة عن الأخطاء؛ وقد خاصمتُ و وقفت بها، وجادلتُ عنها، قوما آخرين لهم مشاعرهم وأفكارهم

الخاصة ؟ وهل يجوز عقلاً وانسانية أن أقول إني كنت في صراعاتي السياسية وحدي مع الحقّ، وإن كلّ اندادي كانوا مع الباطل، كما كنت أدّعي أثناء تلك المواقف في «صنعاء» و«عدن» و«جدة» و«حرض» و«القاهرة» و«لبنان» و«لندن» و«نيو يورك» وغيرها ؟

مع الصدق والإنصاف :

على الأقل —إذا كنت راضياً عن مواقفي— وإذا كنتُ مع الحق فيها، فالأفضل أن اترك الحديث عنها لغيري ممن سيكتبون و يتحدّثون.

نعم: لقد شاركت في الدّعوة إلى الإصلاح والتغيير إلى الأفضل وكنتُ من أعضاء ومؤسسي عدّة أحزاب وجمعيّات وسجنت وعذبت من جراء ذلك.. ثم كنت سفيراً ووزيراً وعضو مجلس رئاسة، وحضرت المؤتمرات ورأست بعضها، وناقشت وحاورت؛ ورفضت وقبلت، وانتصرت وانهزمت، ولابد أن اتحدّث عن ذلك كلّه.. ولكن حديث الصدق والإنصاف أو ما اعتقده صدقاً وانصافاً، ولن أتجنّى ولن أغمط أحداً فضله بل وسأتحاشي جهدي الإشارة إلى أخطاء من نافستهم أو خاصمتهم سياسيّاً، أو تبرير الأخطاء، والغلطات التي أجبرتني الظروف على مقارفتها، وسأعترف بزلاّتي، ولن أجرّم بريئاً، ولن اسفّه رأي أحد، بل سأروي ما حدث كما عاينتُه وشاهدته وأترك الحكم له أوعليه للتاريخ.

لاألوم وأشكر:

وسأتحدث عن مشاعري من حزن وفرح، وسعادة وشقاء، وحبّ و بغضاء، وكيف صادقت وخاصمت، ولكن لا متباهيا ولا فخورا، ولا متحاملاً ولا شامتا، ولا معتذراً ولا ممتنا، وقد أمدح وأشكر وأمجّد، ولكنّي لن أذم ولن أفند ولن أنتقد، سأذكر من صافيت ومن عاديت ومن سالمني ومن حاربني ومن اكرمني ومن آذاني؛ ولكن دونما لوم أو تقريع لمن آذاني أو خاصمني فقد حاولت مؤاذاته ومخاصمته جهدي؛ وأمّا أولئك الذين أكرموني أو أحسنوا إليّ فسأزيدهم شكرانا؛ سأذكر الأحداث كما وقعت دون أن أحكم على ما رأيته في وقته قبيحاً بل سأترك الحكم للقارىء، ولكني لن استطيع أن أكتم تقديري أو اعجابي، بما رأيته حسنا.، ولا أزال أراه حسنا. وسأتجنب جهد طاقتي الحديث عن المواقف الوطنية والجولات السياسية لأنها بوثائقها وصورها من أملاك التاريخ، وقد أستطيع أن أؤرخ وأنقد غيري، أو أدافع عنه ولا يحسن أن أؤرخ لأعمالي الوطنية ومواقفي السياسية ممجدا حسناتها، مدافعا عن اخطائها؛ أما أن أجحدها وأهاجمها فذلك من المحال؛ ولكن غيري قد يفعل، وأنا أفضل أن أكثر الحديث عمّا يخصّني و يتعلّق بحياتي الاجتماعية، من الطفولة ولهوها ومرحها.، عن اليتم ومشاعره، عن الزواج والحب، عن أمي وأخي، وأصدقائي، وأساتذتي، من الشعراء والعلماء والكتاب، عن الحيوانات والكتب، والهوايات التي كنت احبّها وأفضّلها على غيرها لأني الوحيد الذي استطيع أن أتحدث عن كل ذلك؛ شأني شأن الآخرين في كل زمان ومكان وأما «حزب الأحرار» وكيف تكوّن في «عدن» مثلا —فكثيرٌ جدا من قد تحدّث عنه، وكثير جدا أولئك الذين سيتحدّثون؛ سواء كانوا منصفين أو متحاملين، يستقون معلوماتهم من مصادر صافية، أو يغترفونها من الخيالات والأهواء

والمفاهيم التي أرادوها، أو أريد لهم اعتناقها.. وكذلك الشأن بالنسبة لثورة الدستور وما قام بعدها من حركات أو ثورات؛ عارضتها، أو أيدتها، قد تحدث عنها الكثير، وسيتحدّث عنها الكثير، وأما مشاعري الخاصة وما يتعلّق بي نفسي فلن يستطيع أن يصوره أو يذكره أو يتحدّث عنه سواي.

ما لن يتحدث عنه غيري:

من الذي سيتحدّث عن مشاعري حين قدم الوافد الجديد صباح يوم من أيام جمادى الآخرة سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م لمّا وضعت أمي أخي الثالث وكيف فرحنا بحدوثه فرحاً شديداً ــ غيري أنا ــ؟ وقد اصرّت الأم الثكلى على أن تُسميه «محمداً» وحين قيل لها سيكون «مثلثا» يعني محمد بن محمد ابن محمد؛ قالت: «ولو» كأنما كانت تودّ أن يظل هذا الاسم؛ اسم زوجها: «محمد الشامي» حيا يتحرك في البيت، ويجري على كل لسان.

أخي وكيف عرضناه للبيع:

وقد ولد في صحة جيدة، كبير الرأس جميل التقاطيع وشبهته حين رأيته بوالدي، وقلت لأمي فقالت: نعم: له جبينه وعيناه، ولن أنسى إدراكي لغيرة أخي عبدالوهاب من هذا الوافد الجديد، ولعله قد خاف أن يحتلّ مكانه من الحضن الحنون، والضرع السخيّ، وقد حدثت حوادث مضحكة تتعلّق بأخينا «محمد» فقد كانت «الوالدة» تمنحنا كلّ يوم «بُقشةً» أو نصف «بقشة» كمصروف جيب، وذات يوم عجزت الأم عن دفع المبلغ الذي كنا نشتري به إما «مصاميص» حلوى أو «محلبيّة» أو «برعي» أو «غسوس»، أو أي شيء آخر مما يحبّه الأطفال؛ فتآمرت مع أخي على أن نقصد عمّتنا «صفية» ابنة سيف الإسلام أحمد بن قاسم، وزوجة شقيق والدي العمّ حسن بن محمد الشامي، ونعرض عليها أن تشتري مِنّا أخانا «محمداً» «ببقشة» أو «بقشتين»! قال أخي: ومن سيتكلّم؟ قلت: عمّتي صفية تحبك كثيرا فأنت الذي ستتكلّم.. وكنت وكان أخي غير مقتنعين بالفكرة، وقد استسخفناها! لكن الحاجة إلى «الغسوس» و«الحلوى» كانت المبرّر والدافع؛ وذهبنا إلى بيت «العم» الذي لم يكن يفصل بينه و بين بيتنا غير شارع واحد؛ واستقبلتنا العمة «صفية» كعادتها هاشّة باشّة، ونظر أخي إليّ نظرة ذات خجل، ونظرتُ إليه نظرة ذات تشجيع، فقال بلهجته الصنعانية اللطيفة: «جينا نبيع منكم أخي «محمد» فهو يشاغل الوالدة، و يؤذي كلّ من في البيت»! وابتسمت العمة، بل ضحكت وقالت: و بكم ستبيعونه؟ قال أخي: بـ«بقشة» واذهبوا خذوه من البيت! وضحكت ضحكة عالية مملوءة بالحنان والإشفاق؛ وكانت من سيّدات مجالس النساء في صنعاء، لطفاً وجمالاً وحيويّة، ولا تزال تعيش بكامل قواها وهي في العقد التاسع أطال الله عمرها ــ واستلمنا «البقشة» وذهبنا إلى دكان «الأب يحيى الدودي»، واشترينا الحلوى وحين رجعنا إلى البيت إذا بأخينا «محمد» المثلّث لا يزال موجودا.

و بعد أسابيع كانت خزانة الأم خاوية؛ فاتفقت مع أخي على أن نعيد العمليّة على أن نخفّض الثمن هذه المرّة تشجيعاً للعمة «صفية».. وذهبنا إليها فقالت: أهلاً وسهلاً، وكأنما قد قرأت في

وجوهنا غرض هذه الزيارة المبكرة فأردفت: أوتريدون أن تبيعوا أخاكم الصغير المؤذي؟ قلنا: نعم. قالت: بكم؟ قال أخي: بنصف بقشة، فضحكت ضحكة عميقة وقالت: مسكين ارخصتموه! ومع الأسف ليس معي إلاّ «بقشة» خذوها لبيعة اليوم والغد، وخرجنا مسرورين منتصرين.

وساد صنعاء وباء أصاب الأطفال واختار الله الموت لتلك النفس الطاهرة، وكأنه جلّت حكمته قد علم أن مثل هذه الحياة لا تستحق أمثاله وأنّ ما سيجري لي ولأخي من أحداث وصراع وتغرّب فيه الكفاية لاثنين من أسرة واحدة؛ فمات وعمره عام وأذكر أن شخصيّات بارزة من الجيران والأقارب وفي مقدمتهم السيد محمد بن محمد زبارة وابنه السيد أحمد والقاضي أحمد الجرافي والسيد عبدالله بن حسين الشامي والسيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي والقاضي حسين المغربي والقاضي محمد الخالدي وآخرون قد حضروا لتشييع جثمانه إلى مقبرة الأطفال في حارة «الطبري» وحَزنت الأم الثكلى حزنا لا أنساه.

حب الكلاب:

كما أحب أيضاً أن أتحدث عن شغفي بالكلاب، وأنني كنت قد ربيّتُ كلباً خاصاً، شعره أشقر مختلط بالسواد الخفيف وسميته «فوزي» ولن أنسى أن أذكر بأني قد نفذّت ما كان يقال بأنّ من أراد أن يكون كلبه قويا ذكيّا حاد الطبع، فليقطع من طرف إحدى أذنيه قطعة صغيرة ويُطعمه إياها على حليب، وقد عملت ذلك و«فوزي» لا يزال في شهره الأول، وكنت أدلف إلى «الثامنة»، ولقد عاش معي طويلاً وكان يصحبني فجر كل يوم من باب البيت إلى مسجد «الفليحي»، وينتظر حتي يعيدني ومعي أخي إلى البيت ولا يفارق عتبة الباب، ونما قوياً ذكيا شجاعا، وعندما سافرت إلى تعز وغادرتها إلى «عدن» مهاجراً، وغبت عن «صنعاء» عاماً ونصف عام كان أخي يتعهّده ــ وإن كان يُحب القطط ويفضلها على الكلاب ــ وأثناء غيابي عن صنعاء كانت الشيخوخة قد أدركته وأصابه العمى، ولما عدت ممتطيا بغلة ــ إذ لم تكن طرق السيارات بين تعز وصنعاء قد شُقّت، ما كدت أصل حارة «الجوافة» وهي قريبة من «حارتنا القزالي» حتى سمعت عواءه، وكأنه قد أحسّ بمقدمي، وشم رائحتي قبل أن أراه فأراد أن يرحّب بي، وأن يبشر أمي بمقدمي، وما كدت أترجّل وأدلف إليه وأحاذيه، حتى تمسّح بي وبصبص بذنبه، وهو يصوّت بأنين أشبه بالكلام.. كأنه يريد أن يحكي لي كل ما جرى له بعد غيابي، وكأنه يريد أن يسألني عن حالي، ويستفسر عما جرى لي، وما أسباب غيبتي الطويلة التي لم يتعوّدها! وهل قد تغيّر شكلي كما تغيّر شكله؟ وهل لا أزال أبصر أم قد أصابني العمى كما أصابه؟ ولقد حدثته وقلت له إنني بخير وانني أراه، وأظنه قد فهم كل ما قلت له؛ إذ قد تمسّح بي ثانية، وناجاني بصوت أو بعواء فيه نغمة حزينة، ممزوجة ببهجة باكية، وأنين فيه رضى واطمئنان، ولقد مات في ذلك العام ١٣٦٤هـ/١٩٤٥، وبالطبع كنت أحاذر وأنا صغير أن يعرف أعمامي وأساتذتي أني أداعب «فوزي» بيدي، لأنه «نجس ذات»؛ ولكني أيضا كنت أطهر يدي إذا لمسته، والمسلم عادة يغسل يديه للصلاة كل يوم خمس مرات. ولقد حزنت عليه ورثيته بأبيات شعر نسيتها.. فهذا الحديث عن كلبي فوزي أقرب إلى نفسي، وأحبّ إليّ من التحدث عن المواقف الوطنية، والتباهي بها، والتحدّث عن الحيل والجولات السياسية والتبجّح بذكرها! كما أني كنت أحب

«الحمام» الزاجل حبّا جمّا، وربيّت أعداداً كثيرة منها، وقاسيت من جرّاء انشغالي بها لوم الأهل والأساتذة والمشرفين على دراستي فقد كانوا يقولون: إنها تشغلني عن قراءة دروسي ومذاكرتها.

وكان أفضل الألعاب عندي «الركض» و يسمّيه أطفال «صنعاء» .. «الليسوه» وكرة اليد، ورياضتي المفضّلة كانت الجري، وتسلق جبل «نقم» المطل على صنعاء، وكنت أحبّ سائر الألعاب، وأفضلها على الدراسة، وحفظ المتون.. والحديث طال أو قصر عن كلّ ذلك يهمني وحدي.. ولن يستطيع أن يتحدّث عنه، وعن أهلي، وأقاربي، وأترابي، وألعابي، وعن الحياة التي عشتها وظروفها الجميلة والتعسة، والمُيسرّة، والمحزنة سواي؛ و يسرّني بل و يسعدني أن أذكرها وأن أتحدّث عنها؛ الجليل منها والحقير، والتافه والخطير، أما مواقفي الوطنيّة والسياسية، فما كان منها شريفاً مفيداً فسيذكره الناس والمؤرخون، وما لم يكن كذلك فسيذكرونه أيضاً.. وما أظن العقلاء يحمدون من مواقفهم إلاّ ما أثمر خيرا للآخرين، والتباهي والتفاخر بذلك ليس من أخلاق من يرجون التوفيق وحسن الختام، وكلّ من يكتب للتاريخ عليه أن يتذكّر بأنّه سيموت، وأن للتاريخ أقلاماً وألسنة أخرى، وأن يتذكّر قول شوقي:

واخدع الأحياء ما شئت فلن ... تجد التاريخ في المنخدعين

بل هناك ما هو أقرب إلى التقوى؛ وخليق بمن يحبّ أن يتحدّث للتاريخ أن يتأكد وأن يعرف، أن الخطأ من طبيعة البشر، ولكن الإصرار عليه أبشع أنواعه، وان الله يحب التوّابين، و يغفر للمستغفرين، الذين يقولون:

[ربّنا لا تؤاخذنا إن نَسِينا أو أخطأنا ربّنا ولا تَحْمِل عَلينا إصراً كما حَمَلْتَهُ على الذين من قَبْلِنا ربّنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين].

٢- الهجرة الأولى:

شطح بنا الحديث وتشعّب و بينما كان القارىء يتطلّع إلى معرفة قصة الفرار من عصا «المعلم» و«فلقته»، والتمرّد على «المتون» والدروس الصعبة التي كان يفرضها عليّ أهلي، و يريدونني أن أكون فقيهاً ولغو يّاً وعالماً ولما أتجاوز الثالثة عشرة من سني الحياة! إذا بي أتحدّث و بإسهاب ربما كان مملاً عن المواقف السياسيّة والوطنية وتفاهة التفاخر والتباهي بها. ثم يُجَرجرني القول إلى ذكريات صباي «فيلذ لي و يطيب استعراضها وها أنا أكاد أزيغ عنها فأخبط العشواء من جديد، وأنا أعرف الناس وأدراهم بعيوبي، ومنها مالا يعرفه غيري إلاّ غفّار الذنوب؛ وأمّا عيب «الاستطراد» فالناس جميعا يعرفونه و ينكره الكثير عليّ و يلومونني أشد اللوم والانكار.. ولكن هذا هو أنا و«أي هكذا خلقت» «ودع عنك نهبا صيح في حجراته».. ولنتحدث عن «الهجرة» ولماذا سميتها «الأولى».

لقد ألفت التنقل والارتحال وظروفهما؛ حيث سافرت مع أمي جنينا في أحشائها، ورضيعاً في حجرها عدّة مرّات من «الضالع» إلى «المسقاة» بوادي «بنا».. ثم هاجرت معها من «الضالع» إلى «صنعاء» أثناء حرب «الطائرات» كما ذكرت آنفا؛ وتنقلاتي ما بين «صنعاء» و«جحانة» أيّام

الصّبا لاتحصى؛ فنشأت محباً للأسفار صبورا على مشقاتها، أهوى التنقل من مكان إلى مكان وأعشق الاغتراب؛ وارتاح لرؤية الوجوه أو الجبال أو البيوت أو الحيوانات الغريبة، وأكره الركود والجمود والديمومة المملة.. حتى لقد كنت إذا طال مكثي في «صنعاء» أهاجر من غرفة إلى أخرى في منزلي؛ وأغير جهد طاقتي ترتيب أثاثها، وأفرض على نفسي الإحساس بالاغتراب، واقنعها بأني قد سافرت إلى بلد ثان.

وكان كل ذلك سهلا وميسورا بل وهيّنا؛ ويجري تحت سمع و بصر أمّي، و بإذنها ومساعدتها أحيانا.. أمّا اليوم وقد تمردت على «المتون»، وسئمت «الفلقة» وعصا المعلّم، فقد قرّرت «الفرار»، أو «الهجرة» إلى بعيد حيث لا «فلقة» ولا «متن أزهار»، وانفردتُ باتخاذ هذا القرار، دون استشارة أحد، ودون أن آخذ إذنا من إنسان.. وأحسستُ كأنّ من حقي الطبيعي أن اقرّر مصيري بنفسي، وأن اتخذ القرار الذي يناسبني، رغم أني لا أزال أتسلّق العقبة الثالثة عشرة من عقبات حياتي.

التآمر على الفرار:

وكان لابدّ أن افضي بمكنون سرّي إلى أخي عبدالوهاب؛ لأنه كان الإنسان الوحيد الذي لم أتعود على فراقه؛ في حلّ أو ترحال.

وكنّا في منتصف شهر رمضان الكريم يومذاك.. من عام لا أستطيع تحديد تاريخه اليوم، حين استدعيتُ أخي عبدالوهاب وقلت له:

ــ لقد قرّرت الفرار.

ــ قال: ولماذا؟

ــ قلتُ: هكذا!

ــ قال: ستهرب من «متن الأ زهار» و«فلقة» سيدنا «النعماني».

ــ قلت: نعم.

ــ قال: وإلى أين؟

ــ قلت: إلى «عدن».

ــ قال منبهراً: إلى «عدن»؟ وكيف الوصول إلى «عدن»؟

وكان لايزال في «التاسعة».

قلت بلهجة الواثق: لا تقلق عليّ يا أخي؛ سأسافر مع قوافل التجار التي تقصد «عدن»؛ وهناك سأشتغل، وأفتح لي «دكّانا»، وأكون «تاجرا»، مثل أولاد «غمضان» و«عسلان» و«الثور» و«السّنيدار» ــ كبار البيوت التجارية في صنعاء حينذاك ــ أريد أن أكون تاجرا.. ولا أحب أن أكون عالماً.. و بعد أن يفتح الله عليّ، سأكتب إليك كي تفرّغ «الدواو ين»، وتهيء «السّماسر» للبضائع التي سأرسلها مع القوافل، وستكون وكيلي في «صنعاء».؛ لقد مللت القراءة، وكرهت «المتون»، وأريد أن أكون «تاجرا»!

قال أخي: وأنا كرهت القراءة مثلك، وأحبّ أن أكون «تاجرا»، وأريد أن «أهرب» معك!

قلت: لكن ذلك غير ممكن؛ إذ لا تزال صغيرا.. ولا تقوى على قطع المسافات الشاسعة. وأفضل لك البقاء مع أمّي.

قال: بل سأستطيع قطع الفيافي والقفار، وتسلّق الجبال، وسأسابق الأرانب وأصطادها..و..و..

كنا نتحدّث في «حَوش» البيت، وسبحنا في عوالم شتى من الخيالات والأحلام.

وقرّرنا الذهاب إلى الزميل أحمد ابن القاضي محمّد المغربي؛ وكان يكبرني سناً بحوالي عام، وأفضينا إليه بمكنون سرنا فقال: وأنا أيضاً قد كرهت القراءة ولا أريد أن أكون قاضياً، مثل أبي؛ أريد أن أكون تاجراً مثل ابن «المحفدي» أو «عمرو» أو «دلال»، واتفقنا على تنفيذ الفكرة صباح اليوم التالي.

نكوص الزميل:

وكنت أستلم ثمن مصاريف اليوم للبيت من لحم وخضار وفواكه، وأتولى شراءها فقلت لأخي ستكفينا ــ مع أنّها ربع ريال ــ مصاريف للسفر، وكنا لا ندري شيئا عن الحياة وتكاليفها، والزّمن ونوائبه، وفي صباح اليوم التالي ذهبت مع أخي؛ إلى زميلنا «أحمد المغربي» فوجدناه يتأبّط «متن الأزهار» وقال: قد غيّرت رأيي، وخوّفنا مغبّة الاقدام على مثل هذا العمل؛ ورغم ألمي فقد رجوتُه أن لا يخبر أحداً عن فرارنا ووجهتنا، وأخذت بيد أخي واتجهنا صوب «باب اليمن» مُيَممين «الجنوب»..

وقلت لأخي: لايجوز أن يفهم أحدٌ أنّنا هاربون، وسنلقى أناساً في الطريق لوعرفوا أسماءنا لفهموا أننا هاربون، ولذلك سنغيّر أسماءنا وسيكون اسمي «عبدالله» وأنت اسمك «محمد»، ولسنا أولاد «الشامي» بل أولاد «الخباني»، وإذا سألنا أحد أين سنذهب، فلنقل إلى «ذمار» لزيارة أمّنا، واخترعنا قصّة ظريفة ساذجة تناسب المقام!

الأم زينب في حزين:

وحين وصلنا إلى قرية «حزيز» وكان الجوع والعطش قد أخذا منّا كلّ مأخذ ــ كما يقولون ــ عرّجنا على «سمسرة» [نُزُلٌ أرضي يستريح فيه المسافرون] فواجهتنا امرأة صبيحة الوجه، باسمة الثغر، تفيض ملامحها بالرقة والحنان، وقرأت في ملامحها معاني «الأمومة» التي فررنا من روضة عطفها، وكأن أخي قد اجتاحته نفسُ المشاعر؛ فأطرق كل مُنا بطرفه إلى الأرض خاشعا، ومرّت لحظة قصيرة خاطفة، لكنني سمعتُ لها في أعماقي حديثاً طويلاً طويلا.. وكأن صاحبة «النّزل» قد تفرّستْ، وقرأت في وجوهنا، أننا لَسْنا من المسافرين العاديين، اللذين ألفَت تعريجهم على مثل «نزلها» المتواضع، ولذلك فقد هشّت وبشّت، ورحّبت وسهّلت وتركت سائر النزلاء، وأقبلت علينا؛ تُربت على كتف أخي قائلة:

من أين أقبلتما؟

ــ قلت: من «صنعاء».

ـــ قالت: وإلى أين ستذهبان؟

ـــ قلت: إلى «ذمار».

ـــ قالت: لماذا؟

ـــ قلت: لزيارة أمي التي ـــ وكنتُ قد حَبَكْتُ القِصّة مع أخي ـــ طلّقها أبي، وتزوّج بأخرى، وتُعامِلنا معاملة قاسية.. إلى آخر ما سمعناه من أفواه العجائز والنساء حين يسترسلنَ في أقاصيصهن، و«حَزّاو يهنّ» الممتعة المخيفة، عن «الخالات» و«الضرائر»، ومعاملتهنّ التي لا لطف فيها ولا رحمة ولا حنان لأولاد أزواجهن من نساء أخريات.. وكان أخي يؤيّد كلماتي وعباراتي بنظراته وحركات رأسه.. ورقّت المرأة الطيّبة، ورثت لحالِنا، وسرعان ما أحضرت لنا ماءً بارداً عَذباً عَبَبْنا منه حتّى ارتوَيْنا، ثم خبزاً مرشوشاً بالسمن والمرق «فتوت» و«حلبة» مع «ملُوجَة شعير» قطعتين صغيرتين طيّبتين من لحم الضأن، وحين أردنا أن نحاسبها، ورأت كنزَنا الثمين «عشر بُقَش» ضحكت.. وقالت: اليوم أنتم ضيوفي، وإن شاء الله ترون أمّكم في خير وعافية، وقولا لها: ادعي لأُمّنا «زينب» صاحبة سمسرة «حزين».

وواصلنا السّير حتى أشرفنا على الهضبات في سفوح «وعلان» التي تبعد عن «صنعاء» ست ساعات مشياً جاداً على الأقدام، وكان أخي قد أرهقه المشي بقدميه الحافيتين الصغيرتين؛ وكأنّه قد أصيب بضربة شمس فقد رأيته يرتعش، وأسنانه تصطكّ، واقتربت منه ودثّرته بلحافي؛ وقلت ماذا بك ياأخي؟ قال بصوت يرتجفُ: أريد أمي! كنتُ أظنُّ «عدن» قريبة من «صنعاء»! وارتجّت آفاق فكري، واضطرب قلبي حين سمعته ينطق بلفظة «أمّي» فدنوت منه أربّت على كتفيه، وأنا أقول: اطمئن: اطمئن، واهدأ وسنعود غداً؛ وانتحينا جانباً للراحة.. ورأيت قدميه الصغيرتين قد تورّمتا؛ فتألمتُ في أعماقي، ولكنّي تجلّدت، وضحكت أطمئنه، وأشجعه، وأؤكد له، بأنّنا سنعود غدا.. وكانت الشمس تنحدر نحو مغربها، تودّع وَحشة الصّمت الذي يزحف مع الليل من آفاق الشرق رويداً رويداً؛ وعندما أردنا متابعة السّير؛ إذا بقافلة من الجمال تحمل صناديق «العِنب» أقبلت من «صنعاء» أو من «السرّ» أو من «حجانة» لا أدري.. لكنها متّجهة ببضاعتها نحو «الجنوب» وقد تكون وجهتها «تعز» أو «إب» أو ربّما «عدن» فلم تكن السيّارات قد انتشرت في «اليمن» ولا طُرق لها.. وكانت الجمال هي وسيلة النقل؛ أو أهمّ وسائلها.. واقتربت مِنّا، وأَنِسنّا بها، وسايرناها، وكان يصحبها أربعة رجال؛ وكأنّ رئيس القافلة قد أشفق على أخي حين رآه يرتجف و يتجنّب جهده الشوك والأحجار التي تملأ الطريق! وسألني ما اسمك؟ قلت: عبدالله الخُباني، قال: ومن هذا؟ مشيراً إلى أخي عبدالوهاب: قلت: أخي. قال مااسمه؟ قلت: محمد. فناداه: يامحمد ـــ وفتح الميم الثانية وخفّفها وأمالَها ـــ بلهجةٍ بعض قبائل «المشرق» قد أنتَ لاغِبْ؟ قال أخي: نعم.. قال: تعال.. وأركَبَهُ على ظهر جمله الأسود بين صناديق العِنَب، وما هي إلاّ ساعة حتى وصلنا بعد غروب الشمس إلى «وعلان»، ونزلنا مع قافلة الجمال وأصحابها في إحدى «السماسر» التي تنزل فيها القوافل، و بعد أن أناخوا جمالَهم، ووضعوا عنها أثقالها، ذهبنا مع رئيس القافلة لأداء صَلاتي المغرب

والعِشاء في مسجد بجوار « السّمسرة » ، وعدنا معه .. وقد خيّم الظلام ، وكان معي مصباح ذو ثلاثة أحجار كهربائية [وكان يسمّيه أهل صنعاء « اتريك يد »] .. ثم تحسَّسنا مكاناً ملائماً في إحدى مراتب السَّمسرة ؛ ولم ينس ذلك الرجل الطيّب أن يتكرّم علينا بـ« قفوعَة » ذرة غليظة ؛ مع عنقود من العنب الأسود التهمناهما بلذّة لا تُنسى ، واستسلمنا للظلام ، وأحلام العودة ، والنوم المتقطّع ، وفراشنا الحصير ، ووسائدنا الحجارة وأنا ما بين الفينة والأخرى أتحسس أخي ، وأهمس في أذنه لا تقلق سنعود غداً .. غداً مثل هذه الساعة ونحن في بيتنا .

الجمّال الطيب :

وكان الجمّالون مضطجعين على مراتب من الطّوب والحجر بجانب جمالهم وأثقالها ، ولا شك أنّهم قد عنوا بسقيها وإطعامها ؛ وكنت أسترق السمع ، وأصغي لأحاديثهم خوفا من أن يكونوا قد عرفوا قضيّتنا ؛ وشكّوا في قصّتنا المفتعلة ، وأظنّهم قد تحدّثوا عن هذين المهاجرين الصّغيرين ؛ إلاّ أني لم اعِ شيئاً مما يقولون ؛ اللّهم إلاّ جملة خِلتُ أنّي سمعتها ؛ وهي قول الرجل الطّيب : « سنعمل فيهم أجراً حتى نوصّلهم ذمار عند أمهم » وقد اطمأنّ قلبي لتلك العبارة التي قالها ذلك الجمّال الصالح وعرفت أنهم قد صدّقوا حكايتنا الملفقة .

الحلم الزائف :

وعند أن توسّط « القمر ــ وكان « بدرا » ــ السماء الصافية ، تسربت أشعته الباهتة من شقوق سقف « السمسرة » وانسكبت على مرتبيتنا ؛ وقلت لنفسي مُعلّلا : هاهي أشعة القمر التي ألفنا تسرّبها إلينا ، وانسكابها علينا في مثل هذا الوقت من كلّ شهرومن خلال العقود الزجاجية في بيتنا ، وأحسست بأخي يتململ فقلت له هامساً : إنّنا في البيت ولم نهرب ، وها هي أشعّتنا « القمرية » تغمرنا كما تعمل في بيتنا ؛ قال : وأين السّاعةُ و« تكتكَاتُها » ؟ وكانت الجمال تَستَجِرّ فيُحدث المضغ أصواتا وخشخشة أشبه بتكتكات ساعتنا ــ فقلت : ألا تسمعها ؟ قال : آه .. وأين الوسادة ؟ وأين الفرش واليرقان ؟

وتحسست ما فوقي وما تحتي ؛ فلم أجد غير الحجارة ، والحصير ولحافاً رقيقاً تدثّرت به مع أخي ، ولمستُ الواقع المرير ، وتلاشى الحلم الغرير . وضحكتُ ، وضحك أخي وتمتمت في إذنه : لا تقلق .. فسنعود غدا .

ظرف العسل :

وعندما سمعنا أذان الفجر هَبَبْنا مع « الجمّالين » « واتجهنا صوب المسجد لكنا لم ندخله ؛ بل تسلّلنا ، وانحدرنا صوب وادي « وعلان » ؛ وكانت النسيم الشمالية الباردة تلفح وجوهنا .. لكن حرارة الشوق إلى البيت ، ولقاء الوالدة ، قد أورَت مشاعرنا ، وولدت فينا طاقات حرارية تكافح لسعات البرد ، واجتزنا تلك الأكمات مُهرولين نشطين تحدونا آمال العودة وأنغام الحنين إلى البيت والأم الرؤوم .

ووجدنا في بطن الوادي «ظرفاً» مستطيلاً من العَسَل الأ بيض المصفّى المجمّد كأنه سقط من إحدى قوافل اللّيل؛ و بعد حديث ساذج دار بيني و بين أخي فيما إذا كان صاحبه سيفتقده ، و يعود باحثاً عنه ، أو أن الثعابين أو الحشرات السامة قد رضعت منه ، وهل يجوز لنا التقاطه أم لا ، قرّرت أن آخذه ، و وضعته في اللّحاف ، وحملته على كتفي وقلت: رزق ساقّه الله إلينا . وضحك أخي .

إنها صدفة .. كلّما تذكرتها آمنت أن بعض الصّدف أغرب من الخيال .

ووصلنا «حزيز » ودخلنا نفس «السمسرة» وقابلنا الأم «زينب» فقالت بلهجة استغراب: وماذا عن والدتكم ؟ فبادر أخي قاطعاً كل حوار وكلام : قد لَقِيتْنا إلى «وعلان» وأمرتنا أن نعود إلى والدي ، فضحكت؛ وكأنّها قد أدركت كل شيء؛ وأنّنا نَدِمنا على فِعلّتنا ، وقرّرنا العودة؛ فلم تشأ أن تُحرجّنا ، وأعطتنا ماءً بارداً ، وقليلاً من الحلبة وخبز الشعير؛ وأخذت ثمنه خمساً من البُقش؛ قائلة : مع السلامة ياأولاد ، وسلّموا على أمكم في «صنعاء» وقولوا لها : تِدْعي لي .. وتأكدتُ بهذا القول : أن تلك المرأة الذكية الصالحة قد أدركت كُنه حكايتنا .

حمار اللئيم :

ثم واصلنا السير، وما إن جاوزنا «حزيز » بحوالي ميل؛ حتى ضربتنا سياط الشمس الحارة، وأضنانا اللّغب، وارهقنا الإعياء ، ولم يعد أخي يقوى على المشي وقد تمزقت تورّمات قدمَيه ، وأدركنا بعض السيّارة ، ولهم «حمارٌ» لا أحد عليه ، فطلبتُ من صاحبه أن يؤجرّه لنا إلى صنعاء ، فطلب نصف ريال «عشرين بقشة» فقلت له ليس معي غير ثمن ريال «خمس بُقش» وترضّعت لديه مستدِراً رحمته ولكنّه كان جشعاً قاسي القلب؛ فقد أخذ الثمن ، وأركب أخي على حماره بضعة أميال ، ثم أمره بالترّجل ، ومضى لسبيله ؛ وخلّفنا نمشي مُتسكعين ، وأحيانا نحبو في حالة يُرثَى لها ؛ وطلب منّي أخي التخلّص من ظرف العسل رحمة بي ، ولكنّني أبيت وظللنا نزحف حتى وصلنا إلى «القبر الأ بيض» خارج «صنعاء» فأوينا إلى فَيْئه الغربي، وولّينا وجوهنا شطر جبل «نقم»؛ وأردت أن أداعب أخي؛ فقلت له : هناك أرنبةٌ بيضاء؛ قُم فتصيّدها لنا؛ مذكرًا له بما قال عندما أصرّ على الفِرارمعي؛ بأنّه سيجتاز الفيافي و يسابق و يصطاد الأ رانب — فَقَهْقَه قهقهة طويلة عميقة ، وشاركته تلك القهقهة التي كانت تصّاعدُ من أجوافنا الخاوية وكأنّها تنتحب ، وسمعنا أصوات المؤذّنين من «صوامع» جوامع «صنعاء» تدعو الناس إلى «صلاة العصر» ؛ فقلت لأخي : آن أن نتسلل إلى البيت ما دام الناس في المساجد ، حتى لايرانا أحد ، واجتزنا «باب اليمن» خائفين : نترقّب ؛ كأن أهْل صنعاء جميعاً قد عرفوا هروبنا وأنكروه ، ولا نريد أن نرى نظرة استغراب ، أو نسمع كلمة إنكار أو شماتة !

فرحة الأم :

وكم كانت فجيعتنا حين وصلنا البيت؛ فوجدنا الباب مغلقاً ، وخيط «المجر» منزوعا ، وذلك يعني أن لا أحد في الدار، فقلت لأخي : أخشى أن الوالدة قد لحقت بنا ؛ فقال : دعنا نذهب إلى الباب الخلفي لنرى هل الدّجاج في «الحوي» ؟ وتخاوصنا من ثقب الباب فصاح بنا «الديك» فعرفنا أن أمّي

لا يمكن أن تغادر البيت قبلَ أن تُرتّب أمرَ الدجاج إلاّ لوقت قصير؛ وكانت أمنا قد باتت ولا شك في ليلة ليلاء، وظلّت طوال اليوم التالي تفتش عنا عند الأقارب؛ و بعث ابن عمنا المسؤول عنّا؛ الأخ احمد بن عبدالرحمن الشامي برقيات إلى المراكز المحدقة بصنعاء، يطلب من عُمّالها البحث عنّا في «سماسر» المسافرين، بعد أن كشف «سرنا» الزميل أحمد المغربي، وقال للوالدة إنّنا اتجهنا جنوباً نحو «عدن»؛ وما لبثنا بضع دقائق حتى رأينا الوالدة؛ وكُنّا رابضين كالقِطط على عتبة الباب، وكان لقاءً حاراً امتزجت فيه القُبل، بالدموع، والضحكات. وقال أخي: جئناكم بهدّية.. وأشارإلى «ظرف العسل» فابتسمت قائلة: «أكرمكم الله»! وأخذتنا إلى «المكان الصغير» الدافىء وقربت لنا «اللبن» و«اللّحوح»، و«المحلبيّة» فالتهمنا كل شيء بنهم ولذة ثم سَبحنا في نوم عميق.

وعندما استيقظت وجدتُ أرجلنا مضمّدة مدهونة، ووجوهنا وأيدنيا نظيفةً ناعمة، وقد نزَعتْ عنّا الثياب المهلهلة الغبراء، و بدّلتها بأخرى نظيفة؛ عملتْ كل ذلك برفق وحنان ونحن في سبات لذيذ.

وماذا حدث بعد ذلك؟

الاقامة الجبرية:

كانت هذه المغامرة الصبيانية هي «الهجرة الأولى»؛ بعد هجرتنا من «الضالع» إلى «صنعاء»؛ وقد سميتها «الأولى» لأنها صدرت بقرار من قِبلي، وقد سبّبت لي متاعب شتّى، ولام الرجال من الأقارب «والدتي»، وقالوا: إنّها لا تُربّينا تربية «الرجال»، وفُرضَت عليّ الإقامة الجبريّة في بيت سيدي عبدالرحمن الشامي بحارة «الخرّاز» لا أخرج منه إلاّ إلى المدرسة، أو إلى المسجد وزيارة الوالدة، والأخ «العم» أحمد عبدالرحمن رحمه الله يشرف على دراستي و«يسمع» ما حَفظته من المتون، و يبيّن لي ويحدّد دروسها؛ والمكسب الوحيد الذي ظفرت به من ذلك التمرّد، أومن تلك «الهجرة» أنهم أعفوني من استظهار «القرآن الكريم» لأنّي خايرتُهم بينه وبين «متن الأزهار» ففضّلوا أن استظهر «المتن»! وحين أكمله، أعود إلى استكمال استظهار القرآن وكنت قد استظهرت عشرة أجزاء.

ومرّت الأيام والليالي رتيبة، وعرف المشرفون على سلوكي أن تربية «الأم» ليست كما توهموا بل هي أفضل مما يظنّون، وخيرٌمما يقدرون فسمحوا لي بالعودة إلى بيتنا بمناسبة عيد «عرفة» أي بعض مضي حوالي ثلاثة أشهر أمضيتها في «الخرّاز» تعرّفت أثناءها على عددٍ جديد من الأصدقاء، واستأنفت الحياة مع أمي وأخي رتيبة شيّقة ملونة.

فانوس الفجر:

وقد استفدتُ من مكوثي في بيت الوالد عبدالرحمن الشامي توثّق الصلة الروحيّة بيني و بينه؛ ولقد كان آنذاك مقيماً في «السرّ» حيث يُشرف على دراسة أولاد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين؛ الأمراء: العبّاس، ويحيى، والمحسن ورفيقهم وابن اختهم الأخ محمد بن عبدالرحمن الشامي، وزملاء انتقوهم من المدرسة العلميّة وأساتذة منهم الأخ زيد بن علي الموشكي والأخ الصفي أحمد محبوب، ولكنه كان يأتي إلى «صنعاء» زائرا.. فكان يوليني عطفاً خاصا، و يغمرني بعنايةٍ لا يوليها أحداً من أولاده وأحفاده؛

وكان يكلّفني بتحضير «فانوس الفجر» ؛ أشعله وأحمله أمامه ، أنير به الطريق إلى المسجد حيث نصلّي الفجر جماعة ، و يعود هو إلى البيت وأظل أذاكر دروسي حتى طلوع الشمس ؛ وكنت إذا تكاسلتُ ، أو تراخيت عن النهوض من الفراش عند سماع « التسبيحة الثالثة » يدوّي صوته باسمي منادياً ؛ و بذلك إلِفتُ النهوض « سحرا » وكانت عادة لازبة .. فمهما سهرتُ أو تأخروقتُ ذهابي إلى الفراش .. لابدّ أن أجد نفسي صاحياً في تلك الساعة وكأنّي أسمع صوت الوالد عبدالرحمن وتسابيحه وحوقلاته ..، وقد أفادتني هذه العادة المباركة ، وما زال « السحر » و« قرآن الفجر » أخصب أوقاتي وأفضل ساعاتي: للكتابة ، والدرس والتأمل .

ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أمكث خلالها في بيت « الخزّاز » فقد سبق أن عشت فيه أربعة أشهر مع أخي عبدالوهاب والأخ محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الشامي حين سافرت « الوالدة » لزيارة جدّتي السيدة فاطمة الذيفاني إلى « المِسقاة » ؛ وكان الوالد عبدالرحمن يختصني بما ذكرته آنفاً ؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

٣ ـ العمامة والزواج ومسجد الفليحي

اقتحمت عامي الخامس عشر ولبستُ العمامة في عيد الأضحى سنة ١٣٥٦ هـ/١٩٣٨م وكانت عادة أمثالي إذا لبسوا العمائم أن يلتحقوا إمّا بالمدرسة العلّمية ، أو بحلقات المساجد التي كانت عامرةً بالعلم والمتعلّمين ؛ و يُدرّس فيها أنواع العلوم العربيّة والإسلاميّة من نحو وصرف ومعان و بيان وتفسير وحديث وفقه ، وأصول دين ؛ وفضّلت الالتحاق بالجامع ، وكان جامع « الفليحي » من أشهر جوامع العلم لكثرة « منازله » المعدّة للمهاجرين من طلبة العلم ولامتياز العلماء الذين كانوا يسكنون في حارة الفليحي ، أو في الحارات المجاورة لها وهم يؤدّون فروض الصلاة و يدرسون أو يدّرسون في مسجد « الفليحي » ، وكان في مقدمتهم حينذاك القاضي يحيى بن محمد الإرياني وأولاده ، والسيد قاسم ابن حسين العِزّي ، وابنه محمد ، والقاضي حسين المغربي والسيد عبدالخالق الأمير ، والقاضي عبدالله الجرافي ، والسيد أحمد بن عبدالوهاب الوريث ، والسيد أحمد بن محمد زبارة والفخري عبدالله حُميد ، والعزي محمد البهلولي والسيد محمد بن محمد المنصور ، والسيد اسماعيل صلاح الدين والقاضي أحمد الجنداري والسيد عبدالكريم الأمير وغيرهم ممن كنت أرتاح إلى التفرّج عليهم ، والإصغاء إلى صواتهم وأنا صغير السنّ ، وأحلم بالساعة التي ألبس فيها « العمامة » و يُسمحُ لي بمشاركتهم في الدراسة والنقاش ، وعليه فقد رفضت الالتحاق بالمدرسة العلميّة الرسميّة ، وفضّلت التحاقي بمسجد الفليحي لأحقّق أحلامي و بدأت بقراءة « الآجرومية » و« قطر ابن هشام » في « النحو » ، و بدراسة كتب الفقه ، وأصول الفقه ، والمعاني والبديع ، وسائر الكتب التقليدية التي تفرض على كلّ طلبة العلم بالتدرّج في ذلك الزمان .

السفر إلى تعز:

وفي أثناء ذلك ، وفي منتصف سنة ١٣٥٨ هـ أواخر سنة ١٩٣٩م اصطحبني شقيقُ والدي العمّ

حسن بن محمد الشامي إلى «تعز» عن طريق «وعلان» فـ«معبر» ، فـ«ذمار» فـ«يريم» ثم «إب» فـ«تعز» على ظهور البغال والحمير، وهناك تعرفت بالأمير سيف الإسلام أحمد «ولي العهد» وأكبر أنجال الإمام ، وكان قد أخذ مركز إمارة لواء «تعز» من السيد الأمير علي بن عبدالله الوزير. وقد فاجأنا وليّ العهد حين قابلناه بعد أن هشّ لنا و بشّ ، ورحّبَ وسهّل ، وسأل عمّي عن الصحة وأخبار صنعاء بقوله : لقد وصلتنا برقية من الوالد عبدالرحمن الشامي يستعجل فيها عودة الولد أحمد بن محمد الشامي إلى «صنعاء» كي لا تفوته الدراسة ، ووافق عمّي الذي سافر إلى مقرّ عمله في «المفاليس» و بقيت في «مقام ولي العهد» الذي أكرمني وأمر بعودتي على سيارة عن طريق «المخا» و«الحديدة» ثم «آنس» فـ«معبر» و«صنعاء» .

الحديدة وعبدالله الوزير:

وقد تفتّقتْ آفاق ذهني بهذه الرحلة ، وعرفت العديد من زعماء وأدباء اليمن ، واطّلعت على الكثير من أزياء ولهجات وعادات وتقاليد اليمن ، وعرفت البحر لأوّل مرة؛ فدهشت واندهلتُ وسبحت سبحاً طويلاً بأفكاري وخيالاتي ، وأعجبت بشخصيّة «ولي العهد أحمد» وحيويّته ، وكرمه وهَيْبته ، واهتمامه بي ، واكرامه لي ، وقوله وهو يودّعني : «اهتم بالدراسة لتكون مثل جدّك عامل شهارة أو مثل جدّك سيّدي هاشم بن يحيى» ؛ ولقد ذكّرني بما يقوله سيّدي عبدالرحمن ، كما أنّي زرت في الحديدة أميرها وكان لايزال السيد عبدالله بن أحمد الوزير الذي رحّب بي وأكرمني ، ولم ينس وأنا أودّعه أن يقول لي : «اهتم بالدراسة والتحصيل جعلك الله من العلماء العاملين» .. وكلّ ذلك قد حفّزني؛ و بعقلّية جديدة متفتحة ، متطلّعة فاستأنفتُ الدراسة ضمن حلقات مسجد الفليحي؛ فكنت أدرس على السيد أحمد بن محمد زبارة شرح بن عقيل على ألفيّة ابن مالك ، وكافل لقمان ، ثم كافل الطبري وشرح الأزهار في الفقه وأصوله ، وقرأت على السيد عبدالكريم بن ابراهيم الأمير «الجوهر المكنون» و«شروح التلخيص» في المعاني والبيان والبديع ، وعلى الفخري حميد «قواعد الإعراب» وجزءاً من «مغني اللّبيب» وتوثقت عُرى الصداقة بيني و بين الشاعر العالم عبدالكريم الأمير، وكانت ميوله الأدبيّة تطغى على سائر مواهبه؛ وكان طُلعَة شغوفاً بجمع الدواوين الشعرية وقراءة كتب الأدب ، والمجلاّت الثقافية ، القديم منها والحديث ، و يصرف معظم دخله ودخل أبيه في شراء الكتب يطلب جلبها من مكّة المكرّمة ، مع الحجّاج والتهمت مكتبته بشغف ونهم و بتوجيه لبقٍ منه ، وازددت للأدب حبّاً ، وهمتُ بالشعر في كل وادٍ ساحر، ومارستُ نظم قوافيه في تلك السنّ المبكّرة ، وفي محاولات مثيرة .

عودة البعثة من بغداد:

أثناء ذلك عاد من بغداد الخرّيجون من عسكريين ومدنيين أمثال أحمد المروني، ومحيي الدين العنسي ، وأحمد الحورش ، وزيد عنان ، وحمود الجايفي ، كما عاد من القاهرة محمد محمود الزبيري ، وكانوا يحملون معهم أفكاراً ، و يلهجون بأحاديث ، ويمارسون عادات تبرُز بعضها جديدة على المجتمع الصنعاني؛ علماً ، وأدباً ، وأسلوب حياة ، وتفتّحت أذهان الشبابِ ، وطلبة المدارس بأحاديثهم من

الصّحف والمجلاّت، ووسائل المواصلات، وفنون التقدم العمراني، ومظاهر الحضارة في بغداد والقاهرة، واختلطتُ بهم فتفاعلت أفكاري بألوان شتّى؛ وقرأتُ مع أستاذي عبدالكريم الأمير إلى جانب الكامل للمبرّد، والأغاني لأبي الفرج، والبيان والتبيين للجاحظ؛ «النثر الفني» لزكي مبارك، وسائر كتبه، و«فجر الإسلام» لأحمد أمين وبقية مؤلّفاته، وقرأت «طه حسين» و«العقاد» وأضرابهم، وتجاوزت إلى مصطفى صادق الرافعي ثم إلى كتب وتفسير رشيد رضا والأستاذ الإمام محمد عبده، وتشاء الأقدار أن يُصاب الوالد عبدالرحمن الشامي بوجعٍ مبرّحٍ في «عينيه»؛ وهو الذي لا تُسلم يده الكتاب، إلاّ إذا قام للصلاة، أو اشتغل بحديث، أو ذهبَ لينَام. فطلب إليَّ، وإلى القاضي محمد الحجري أن نلازمه بضع ساعات صباح كل يوم لنُملي عليه ما يحبّ أن يسمعه، وما كان قد تعوّد قراءته ومطالعته من كتب الأدب والتاريخ والحديث، ولقد قرأت وسمعت في مجلسه خلال تلك الفترة التي استمرّت حوالي عام عشرات الكتب فأمليتُ عليه، وسمعت من إملاء القاضي محمد الحجري ــ وكان عالماً، واسع الاطّلاع، حفّاظةً، لطيف المعشر، حاضر البديهة، حسن الصوت ــ صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد، وقرأنا كلَّ أجزاء حلية الأولياء لأبي نعيم، والمحلّى لابن حزم، والعلم الشامخ للمقبلي، والعواصم والقواصم للوزير وأجزاء من مخطوط «سير النبلاء» للذهبي، وأملى علينا القاضي الحجري سيرة ابن هشام، و«معجم البلدان لياقوت» وأثناء قراءته كان «الحجري» والوالد عبدالرحمن يلاحظان أخطاء «ياقوت» ونُسَّاخ مُعجمه وناشريه بالنسبة للأماكن والأسماء والبلدان والحوادث اليمنيّة، وكان الحجري يصوغها في تعليقات على هامش الكتاب وأحيانا، كأنّه حين نفترق يعودُ إلى مراجعه، وأوراقه ومحفوظاته، إذا كان يفاجئنا اليوم التالي بتفاصيل محرّرة عن تلك الأخطاء «الياقوتية»، مع نوادر وأخبار وأشعار ممتعة؛ ولمّا كثُرت تلك الهوامش والتعليقات اليمنية؛ قال السيد عبدالرحمن للقاضي محمد الحجري: إنّ كلّ هذا يصلح أن يكون كتابا مستقلاً؛ فلماذا لا تؤلّف «معجم اليمن»؟ واستجاب العلامة الحجري للنداء.. وألّف كتابه القيم النفيس «معجم اليمن» في مجلّدين ضخمين.. ولا يزال مدفوناً بين آثار ذلك العبقري ولا يدري إلا الله لماذا؟ ومركزالدراسات في وسعه نشره ضمن ما ينشره! وهو أكثر أهميّة من كلّ ما قد نشره حتى الآن. ولكن، ولكن..

مكتبة جامع صنعاء:

وقرأنا «صفة جزيرة العرب» للهمداني، وصحّح الحجري مطبوعتها الأولى على «مخطوطة السيّد عبدالرحمن» وزاد عليها تعليقات وتصويبات، وعشرات من كتب ورسائل علماء اليمن في المجموعات التي تحفل بها مكتبة الإمام يحيى، وكان الحجري قيّما عليها ومكلّفا بفهرستها ــ كما صنع بمكتبة الجامع الكبير؛ فإنه هو الذي وضع وألّف فهرست مكتبة الجامع؛ وكان يتخلّل تلك القراءة الكثير من النوادر والأخبار والأقاصيص وشؤون الدولة، وكثيراً ما كان ينضمّ إلينا زمرة من علماء وأدباء، ووجهاء اليمن الذين يتوافدون لزيارة الوالد عبدالرحمن ــ ولاسيما صباح الخميس والجمعة؛ وكان وقت القراءة والإملاء يبدأ بعد شروق الشمس، ويستمرّ حتى الضّحى، حوالي ثلاث ساعات ثم

يذهب القاضي الحجري لعمله كرئيس للمحاسبة العامّة، إلا يوم الجمعه فإنه بعد الدرس يستصحبني إلى بيت السيّد محمد بشير التاجر السوري الأصل، حيث يلعب الحجري معه أو مع أحد ضيوفه «الشطرنج» على كؤوس الشاي اللّذيذ، ونكات النصر والهزيمة، تتطاير مع الضحكات، والهمزات، والنغمات المرحة، وكانا معاً فرسي رهان، و بطلي ميدان، ومنهما تعلمت «الشطرنج»، وفي ذلك المجلس تعرفت على بعض أعضاء البعثة العسكريّة العراقية، كالعقيد صفوت اسماعيل والرئيس عبدالقادر الناظمي وكان شاعراً، خطيباً، والرئيس جمال جميل، وكانوا يحضرون للعب «الشطرنج» كما تعرّفت على أمهر من عرفت في لعبة «الشطرنج» حينذاك السيد عيسى بن الإمام محمد بن عقيل الحضرمي، وقد كان لكل ذلك أثره الفعّال في حياتي.

قصة الزواج:

آه لقد طال حديث «العمامة» وما يترتّب عليها؛ عندما بلغُت الثامنة عشرة من عمري ورأى الوالد عبدالرحمن أنّي قد حققت بعض ما كان يطلبه منّي قرّر ــ فيما أظن ــ أنه قد حان موعد وفائه بوعده ــ وقد عرفت ذلك أولاً من أستاذي القاضي محمد الحجري ــ إذ ما غادرنا درس إحدى «الجُمع»، واستصحبني إلى «مجلس الشطرنج» حتى فاتحني بقوله: عمّك عبدالرحمن يحبك كثيرا، وكأنّه يريد أن يزوّجك بابنته أمة الله؛ مثلما زوّج والدك من قبل بابنتيهِ، ولكنه لا يعرف رغبتك، والبنت لا تزال صغيرة السنّ، وقد لفتُّ نظره إلى رقةِ حالِك، وأنك فقير؛ وهي بنت عبدالرحمن الشامي، وأمّها بنت الإمام ولكنّه قال: هذا لا يهمّ؛ أهمّ شيء رغبة الولد أحمد. فما رأيك؟

وقد ارتبكتُ أولاً، وتألّمت بادىء بدء من «الحجري» وإثارته موضوع فقري، ورقّة حالي؛ خشية أن يكون ذلك سبباً من أسباب عرقلة هذا القِران الذي انتظره بفارغ الصبر أكثر من عشر سنوات، وتغيبّتُ من أجله «المتون» وضُربتُ لتقصيري في حفظها أشد الضرب، ونسخت الكتب، وحفظت الأشعار، و بدأت أنظمها.. ولكنّي وقبل أن أجيب عرفت أن الحجري لم يقل إلاّ الحقيقة المرّة فأنا يتيم؛ لم يخلّف له أبوه إلاّ السكن، والأمّ الصالحة، والسّمعة الحسنة والكتب. فتشجعت وقلت: أما الرغبة فموجودة؛ و بالنسبة لصغر السنّ سأصبر عليها، وأما الفقر والغنى فبيد الله الخير، وتلوت دون شعور «ولسوف يُعطيك ربك فترضى؛ ألم يَجدِك يتيماً فآوى، وَوَجدَك ضالا فهدى، ووَجَدَك عائلا فأغنى» ووقف الحجري مبتسماً وهويقول: أحسنت ياولدي، وأنا أعرف جدّك عامل «شهارة» تولّى معظم اليمن، ووصل إلينا إلى «خُبان» فاتحاً، أيام «الأتراك» وكان زاهداً، ومات ولم يخلّف لأولاده حتى مسكنا، ومع هذا فتح الله عليهم، ولقد قلت لعمّك عبدالرحمن إنّه لن يجد لابنتيه أفضل منك، وغمر قلبي حديثه بالاطمئنان والرضى، وذهبنا إلى مجلس الشطرنج، ولكن.. لم يكن بالي مشغولاً «بالدسوت» ولم اتبيّن مواقع «الرخ» و«الفيل» من «مرابط» «الأفراس» أو مراكز «العساكر»، ولم أصغ إلى تمتمات السيد محمد بشير وهويردّد بلهجته «الحلَبية»: «فهمت أيش لون» ولا ترنّمات القاضي الحجري بلغته «الخبانية» الساخرة حين يردّد الأغنية المشهورة.

ياتالُقة ماطِري؛ يالي على خاطري
يالي ظِلالك برود؛
أبرد من « العنبرود » ومن ورود الخدود

لقد كنت مستغرق البال والخاطر بالعرس الذي آن أوانه ، وماذا سيقوله لي الوالد عبدالرحمن ؟ وهل ستوافق أمّ الفتاة وأنا رقيق الحال كما قال القاضي ؟ وماذا عليّ أن أصنع ؟ حتى أحصّل « المهر» و« الشرط » وتكاليف « العرس » بله « الحلي » و« الكسوة » و« الأ ثاث » ؟ ولمّا ودّعنا السيد بشير والشطرنج ولم أتميز من الذي غلب؛ رجعت أدراجي مع الحجري إلى سوق « القات » بباب « السبحة » وودّعني باسما وهو يقول :

إن ربّاً كفاكَ بالأمس ما كان سيكفيك في غدٍ ما يكونُ

إلى اللقاء بعد صلاة الجمعة في مجلس عمّك عبدالرحمن قالها بلهجته الخبانية .

رحم الله محمد الحجري لقد كان بحر علم ومروءة وكان فيلسوفاً حكيما . وقد كان حزني عليه شديداً حين استشهد حرقا في حادثة طائرة وهو في طريقه إلى « موسكو» وله في كتاب ذكرياتي حديث مثير.

موقف أمي و بنت الإمام يحيى:

ذهبت إلى « أمي » ووصفت لها ما دار فاستبشرت وقالت : الحمد لله ، قلت : وماذا نصنع ؟ وماذا سيكون رأي بنت الإمام ؟ قالت : لا تقلق يا بنّي ؛ أمّا بنت الإمام ــ أعني اختي أمُ هاني ــ فإنها لا تقلّ فضلاً ؛ ومحبّة لك عن الوالد عبدالرحمن وهي تقول لي دائما ــ وكلما التقينا ــ إنّ أمة الله إن شاء الله لأحمد ــ وتقول لابنتها : هذه امُّ خطيبك أحمد فسلّمي عليها ؛ وأما الحلي فعندي ثلا ثة عقود « كهرب » أصيل ، وعندي « اللّبة الفضيّة » و« عقد المرجان » وسأبيع بقيِة مالي في المِسقاة ، وسنستعير أثاثاً للعرس من بيت عمّك محمد زبارة ؛ وسنرتب الأمور كما يرام إن شاء الله ؛ فإذا ما سألك عمّك عبدالرحمن فأجب بالموافقة ؛ وشجّعني هذا الكلام الذي يزخر تفاؤلاً واطمئناناً وثقة ؛ وذهبت إلى « المدكى » .

وكان القاضي الحجري قد سبقني ؛ وأسارير الوالد عبدالرحمن تطفح بالبشر ، والمكان يغصّ بالأدباء والعلماء والأعيان ، و بعد صلاة العصر عندما ينصرف الوالد عبدالرحمن إلى مكانه الخاص ، و يترك ضيوفه وزوّاره مع ابنه أحمد بن عبدالرحمن استدعاني قائلا : قد كلّمني القاضي الحجري بموافقتك وكنتُ عارفاً لذلك من قبل حسب الشرط الذي بيني و بينك ، وسيكون العرس يوم عيد عرفة إن شاء الله ــ وكنّا لا نزال في أواخر شوّال ــ ثم أخرج صرة ــ أو كيسا ــ فيه دراهم ــ وقال : قد كنتُ كتبتُ لخال البنت المولى سيف الإسلام أحمد بن الإمام إلى تعز فحوّل لك مساعدة بأربعمئة ريال أخذنا منها مئتين ، لنشتري للحريوة كسوة العرس ، وهذه مئتا ريال ؛ تكاليف العرس .. وسلّم على الوالدة ، وقل لها « تدعي » لسيف الإسلام .. وأخذت الصرّة ، أو الكيس ولم أكمل « جلسة المتكى » ؛ بل هرولت نحو بيتنا في « القُزّالي » ولا أدري كيف اجتزت الطريق من « بستان الخير» نَبْر العزب حيث كان يقيم

الوالد عبدالرحمن للاستشفاء من وجع عينيه في قصر سيف الإسلام «أحمد» ولي العهد الذي ساعدني بكل تكاليف زواجي ــ إلى بيتنا حيث ألقيت الدراهم بين يدي أمي وأنا أقول: لسنا في حاجة إلى بيع «المال» فشرقت عيناها بالدمع وابتسمت وهي تقول: الله يحفظك ياسيف الإسلام.

وأنا أقول: آمين وأنشد لسان الحال: ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا.

وتيسّرت كل الأمور أفضل وأحسن مما كنت أتصور وتمّ القران بالسيدة أمة الله بنت عبدالرحمن الشامي، وكنت في الثامنة عشرة وهي لما تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، وأقيمت حفلة العرس التقليديّة في البيتين، وهنأني أستاذي الشاعر عبدالكريم الأمير بقصيدة أنشدها بصوته المطرب الحنون أستاذي محمد بن علي النعماني ومطلعها:

بـالـرّفـا والـبـنين خير قـران ... كـان في يـومـه لـنـا عـيـدان
عـيـد نـحـر، وعـيـد عـرس أرانـا ... سعـده كـيـف يـلـتـقـي الـقـمـران

يشير إلى أنّ ليلة الزفاف كانت يوم عيد عرفة سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤٢م

ومن أبيات القصيدة:

هـو يومٌ مبـارك الـيـمـن أضحى ... غـرّة في جـبـين هـذا الـزّمـان
أفـرغ الله كـلّـمـا ادخر الدّهر ... مـن الحـسـن فـيـه والإحسان
وأفـاض الهـنـا بـلـيـلـته الغرّا ... فـكـانـت للـسـعد كـالـعنـوان
لـيـلـة قـد حسبـتُـها خـلِـقـت من ... أعين الـغـيـد، أو خدود الحسان
يختـفـي الـفـجر خاجلاً من سناها ... و يـراهـا بمـقـلـة الـولهـان
تـم فـيـهـا الـسـرور، وانـتـظـم الأنس؛ فـجـاءت على اقـتـراح الأمـانـي
قـد تجـلـت عـنـايـة الله فـيـهـا ... لهـلال بـنـي بـشـمـس الأوان
جمـع الله بين شـمـس و بـدر ... لايـضـاهـي سناهما النيـران
في كـريـم الـنـجـار، والحسب العدّ ... وطـيـب الأصـول يـلـتـقـيـان
شـرف يـنـطـح الـثـرّيـا ومجدٌ ... خـالـد الذكـر، شامخ الأركـان
يـاسـلـيـل الـكـرام هـنـئـت شمساً ... لـك زفّـت في خير وقـت وآن
وهنيئاً لك السرور، ولا زلت شهابا للمجد والعرفان

لايرى العريسُ العروسَ قبل ليلة الزفاف:

و بالرغم من أنّ حبّها كان قد نما في قلبي مع السنين، ومع مواعيد والدها وشروطه، و بالرغم من أنها قد عرفت بأنها قد أصبحت مخطوبة لي ــ فقد كانت تتحاشى رؤيتي، وتهرب عندما تحسّ بوجودي في مكان ما ــ وربّما كان تصرّفها ذلك ناتجاً عن معرفتها تلك ــ وعندما حان موعد الزواج كانت صورتّها غير واضحة في خيالي، ولم أكن أعلم عن طباعها شيئا! ولم أكن وحيدَ جيلي فقد كان معظم الناس يتزوّجون وهم لايعرفون عن من سيصبحن أو يُمسين شريكات لحياتهم شيئا؛ عدا وصفات

الأمهات أو الأخوات أو «الخاطبات» ولم تكن هي أيضاً الفريدة التي تزوّجت وهي صغيرة السنّ.. فقد كان ذلك مألوفا؛ ولم يعرف النّاس بعدُ مشاكل الزوّاج المبكر، أو فارق واختلاف السن، و يكاد المثل المشهور: «بنت ثمان وعليّ الضّمان» يدور على كل لسان، وكانت حالات الطلاق نادرة وقليلة، ولا يحدث إلا لأسباب خَلقِيّة، أو مرضيّة، أو خُلُقيّة.



طريقة الأعراس في اليمن

العرس في «صنعاء»:

كان يقيمُ كلٌ من أهل العروس والعريس حفلة في بيته ــ وأنا اتحدث عن عادات سكان صنعاء فقط ــ يحضرها أهاليهم وأقاربهم وأصدقاؤهم وجيرانهم، يجتمعون بعد الظهر يخزّنون «القات» و يشربون الماء البارد، و يدخّنون التنباك، و يستمعون إلى الأناشيد، و يتبادلون النكات والنوادر والأخبار، و بعد صلاة العصر يذهب العريس ونسمّيه في «صنعاء» «الحَرِيْو» مع شخصين من ضيوفه لزيارة بيت «العروس» التي يسمونها «الحَرِيْوه» و يقضّى معهم بقية النهار مع ضيوفهم، و يتناول وجبة العشاء وضيوفه معهم؛ وكثيرا ما تُجرى مراسيم عقد الزواج بحضور الولي والشهود في هذا الوقت، ولم يكن هناك تسجيلات حكومية، أو وثائق رسمية، أو صكوك شرعيّة أو رسومات مفروضة؛ يُصافح الوليُّ العريس و يقول: زوجتك وأنكحتك ابنتي أو أختي فلانة على كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وبمهر قدره كذا.. أو وبمهر مثلها، أو و بالمهر المتراضى عليه فيقول الفتى: قبلتُ، ويحمدون الله و يشكرونه و يؤمّن الشهود والحاضرون، و ينثرون «النثار» من «زبيب» و«لوز» فيتناهبه الموجودون. و بعد ذلك يعود «الحريو» إلى بيته ــ وكان ضيوفه قد تناولوا وجبة العشاء ــ فيذهب معهم إلى أحد حمّامات صنعاء التركية.. التي كان قد «استخلاها» أي استأجرها في تلك اللّيلة خاصة له ولجميع ضيوفه ــ وعند العودة ما يكادون يقتربون من الدّار حتى تتعالى أصوات الزغاريد من بيته، ومن دور الجيران، و يتجمّع الحشم والمساعدون يحملون الفوانيس الغازية، والثريات وأصوات «الطماشات» والرصاص تُلَعْلِعُ مختلطة بالزّغاريد، وروائح الشّموع تمتزج بروائح بخور الندّ والعود والعنبر، و«الحريو» مجلّل بشالٍ لا يُرى منه إلا إحدى عينيه، و بجانبه «النشّاد» يرتل بصوته المرتفع مقاطع «الزفة الصنعانية» المشهورة والجميع يردّدون معه و بعده بعض مقاطعها حتى يوصلونه إلى «الديوان» حيث يمضون بقية السهرة يمضغون القات، و يدخّنون، و يستمعون الأناشيد ــ وكان الذي زفّني والذي يُنشِدنا في تلك الحفلة كما قلت أستاذي محمد بن علي النعماني ــ؛ فإذا دنا السحر، وكاد اللّيل أن يتلاشى، أقبل أهل الفتاة بحَريوتهم؛ وقد جاؤا بصاحبتي على عربة فاخرة ــ و يسلّمونها لنساء العريس وضيوفهنّ ونشّادتهنّ اللّاتي بزفّة قصيرة يوصلنها إلى المكان المعّد للعروسين؛ ثم يزفّ الرجال «الحرِيو» ومعهم أهل «الحريوة» الزّفة الأخيرة إلى ذلك المكان ــ وفي هذه الزّفة تحصل المداعبة من زملاء العريس بالقبص والقرص، وهو واقفٌ لا يستطيع حراكاً ولا يطيق احتجاجا ــ وكنت خوفاً من ذلك قد رتبتُ مع أخي وزميلي محمد الفسيّل خطة الدفاع عنّي، فأبليا بلاء حسناً حتى دخلت إلى

الغرفة السعيدة بين الصلوات والدعوات والزغاريد، وكانت والدتي وأختي الكبرى هناك لبعض الوقت.

واطمأنت نفسي حين رأيت فتاة أحلامي لأوّل وهلة، وشعرت كأنّي قد عشت مع خيالها زمنا طويلا.. ومر أسبوع أو عشرة أيام ونحن في وئام. ثم.. ثم و ياللأسى لقد حصل ما لم يكن في الحسبان، واكتسحتني الآلام، لما وجدتها تنفر منّي، وتضيق حين أدخل المنزل، واحترت وانطويت على سرّي زمنا ثم قرّرت الفرار من صنعاء فغيّرت رياح قرار الفرار مجرى حياتي!

٤ - الفرار من صنعاء:

نعم لاحظتها تتغيّر يوماً بعد يوم، وتلاشت بسماتها، وعلت قسمات وجهها الكآبة، ونفرت عن مخالطة النّاس، وإذا جلست معي فهي مطرقة مقطّبة، وإذا حدثتها لا تجيب إلا جوابا مقتضبا؛ ثم تضاعفت كآبتها و بدأت تناشد أمّي أن نسمح لها بالذهاب عند امّها أو بيت والدها في «الخرّاز» وحاولت والدتي واخواتي بل ووالدتها ترضيتها بكلّ وسيلة فلم تزدد إلاّ وحشة ونفوراً، وحاولت تسليتها، والتحبّب إليها فلم تقابلني إلا بالبكاء وأشعرتني أنها لا تحبّني، ولا تريد العيش معي، وأخيراً ذهبت مع أمي لزيارة بيت أهلها، ورفضت العودة، وكانت تنتحب انتحاباً موجعاً؛ إذا أرادوا لها أن تعود؛ وتألّمت وحزنت؛ ولكني كنت أكتم آلامي حتى عن أمّي، ولا أفضي ببعض ما يعتلج في صدري إلاّ إلى قلمي، وأنشأت عدّة أبيات وجدانية؛ وكان نفورها، وابتعادها، وشعوري بأنها تكرهني — مع انّي أحبّها— قد أثار فيّ شتّى المشاعر الكئيبة، وجعلني أنظر إلى الحياة بمنظار أسود، ولم أعد استسيغ القراءة والدراسة، وسئمت مجالسة النّاس و بقيت على هذه الحالة المضطربة ثمانية أشهر حتى ملّ، و يئس أهلُها وأهلي من صلاحها رغم المحاولات الكثيرة، واستدعاني أبوها الوالد عبدالرحمن ذات يوم —وكأنّه قد لاحظ ما أعانيه، وأنّني قد ضقت ذرعاً بحالي— وقال لي بصوت حزين: «يظهر أن لافائدة. ولا نصيب لك في هذه الفتاة فقد أعلنت أنها تفضّل الموت على العيش معك وعلينا أن نزوّجك بأخرى: أجمل منها، وأفضل إن شاء الله، ويحسن أن تطلّقها».. وتماسكت وتجلّدت وقلتُ: إن كان ذلك أمراً صارماً منكم فسأفعل، وإن كان الأمر إليّ فلي رأي آخر» قال: وما هو؟ قلت: سأصبر عاماً أو عامين.. فتبلّجت أسارير وجهه وقد كان تماثل للشفاء من وجع عينيه وقال: أصلحك الله يا بني و بارك فيك وهذا هو الرأي الصواب.

السفر إلى المسقاة:

وكنّا في أواخر شعبان سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م والحرب العالميّة مخيّمة على الدنيا، وكانت والدتي فطنة، تعرف عنادي، وتعرف أنني في كرب عظيم، وفي ضيق شديد؛ وأنني انما أتجلّد، وأنفر من بحث موضوعي مع أيّ إنسان كبراً، أو تظاهراً بالآمبالاة؛ وفي قلبي مافيه من الحزن والهم؛ فاقترحت عليّ مرافقتها إلى «وادي بنا» لأنها تريد أن تزور والدتها في «المسقاة» وفرحت بهذا الاقتراح؛ فقد سئمتُ النظر إلى وجوه الناس ومعاشرتهم والتحدّث إلى كل من يعرف مشكلتي، وأحببت الهروب من صنعاء؛

وأن أذهب بعيدا إلى حيث لا يعرف أحدٌ من قصتي خبرا، ولا يعلم شيئاً.. وكأنّ والدتي كانت قد أدركت ذلك ورأت في ابتعادي عن «صنعاء» الخير لي، ولمستقبل تعليمي، وحياتي الاجتماعية؛ وكانت تعرّضُ وتلمّح؛ أنّ هناك في «المسقاة» من بنات «الشامي» من هُنّ أجمل وألطف من هذه التي ستقرع سنّ الندم! وأنها تريد أن تزوّجني بإحدى بنات خالي، أو بسيّدة جميلة من «المسقاة» وكنت أتلقى تلك التلميحات بمزيج من المشاعر يختلط فيها بقايا الحبّ العتيق بتلّهف من الرغبة المريرة في إيلام هذه التي أحببتها فكرهتني، وأريدها ولا تريدني؛ فأغالط أمّي، وأغالط نفسي وأقول: لا.. لا.. إنّها لا تهمّني، ولا أبالي بها، وسأصبر عامين أو ثلاثة أعوام.. وربما قد أراد الله لي الخير بذلك حتى أتفرّغ للعلم والدراسة.. إلى آخر ذلك الكلام الذي تهذي به لساني؛ وكل مشاعري، بل وربّما خلجات صوتي، وقسمات وجهي تنكره أشدّ الانكار، وتكذّب تكلّفه وتصابره المتهافت.

وهاجرت من «صنعاء» «الهجرة الثانية» بهمومي وأتعابي وكآبتي وكبريائي الجريحة، ووساوسي الهائمة؛ مع رُكاَب؛ على سيّارة تحمل بضاعة لأحد التجار إلى «ذمار» ونزلتُ مع والدتي في فندق متواضع وكان الناس حتى ذلك الوقت يسمّون الفنادق «مقاهي» جمع «مِقْهَاية» وعندما ذهبت للصلاة في المسجد الجامع لقيت عاملها «المحافظ» وكان السيد العلامة الزّاهد الورع علي بن سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين فعرفني وحيّاني، وسلمت عليه فقال: من أين؟ ومتى الوصول؟ وإلى أين؟ ومن معك؟ قلت: من صنعاء وصلت اليوم على السيارة وسأسافر غداً مع والدتي إلى «المسقاة» لزيارة الجدّة وأولاد الخال. قال: وأين الوالدة؟ قلت في «المِقهَاية». قال: ياسبحان الله! ألم تعلم أن لكم في ذمار أهلا؟ ولا أحسبك إلاّ مثل ابني، وأمر أحد مرافقيه أن يذهب معي لنقل الوالدة وأشيائنا إلى داره ــ دار الحكومة ــ وكانت والدتي تعرف زوجته، و بيننا و بينهم قرابة نسب، وكانت قد اقترحت عليّ أن نقصدهم لأنّهم سيعتبون علينا لوعرفوا أننا مررنا من ذمار ولم نعرّج عليهم.. ولكني رفضت؛ ربما لأني كنت لا أحب أن أرى أحداً من الأقارب؛ فيفتح معي موضوع زواجي وفشلي فيه؛ وكان السيّد علي عالماً أديباً، و بعد تناول الغداء جاء الموظفون الكبار للمقيل في ديوان العامل، وجاء زمرة من علماء وأدباء «ذمار» وهي مركز علم وأدب، بل تُسمى كرسي «الزيدية» وفيها آل «الوريث» و«آل الديلمي» و«آل الخضر»، ومنها «زيد الموشكي» ودارت مذاكرات أدبيّة وعلمية، ونسيتُ مشكلتي الخاصة أثناء الحوار والنقاش مع هؤلاء الذين لا يعرفون عن مشكلتي لا نقيراً ولا قطميراً؛ وطرب أدباء ذمار، ولا سيما الشباب لأحاديثي عن الرافعي وطه حسين والزيّات، وما قال أحمد أمين في «فجر الإسلام»! وما قال زكي مبارك في «النثر الفني» إلى مشاركة في الفقه والنحو والمنطق والحديث والتاريخ، وخيّم الليل و بعد الصلاة تناولت العشاء مع ذلك السيد الورع وإذا به يسألني: وهل حفظت «الأزهار»؟ قلت: نعم. قال: وهل تزوجت؟ فنكأ الجرح.. ولكني سررت في أعماقي إذ معناه أنّه لم يعلم بعد بمأساتي.. وكان ذلك ولا شك سذاجة من مثلي.. كأنّ الناس ــ وليس في صنعاء فقط ــ بل وفي «ذمار» يهمّهم أمرزواجي.. فقلت: نعم.. فقال بمن؟ قلت بابنة الوالد عبدالرحمن. قال: ما شاء الله؛ بنت بنت الإمام وأخت محمد؛ ثم قال: جعل الله في ذلك الخير ورزقكم الذريّة الصالحة.. وقضينا سهرة ممتعة حدّثني فيها عن أبي وجدّي وزمالة أبيه سيف الإسلام

أحمد لجدّي أيام جهاد الأتراك حتى ذهب كلٌ إلى فراش النوم بعد أن رتّب لنا أمر سفرنا في اليوم التالي إلى «يريم» على بغلتين ومع رفيق، ونمت لأوّل ليلة ومنذ حوالي ثمانية أشهر نوماً هادئاً وبعد صلاة الفجر غادرنا «ذمار» إلى «يريم» وأمّي تحدثني في الطريق عن أسماء تلك القرى عن اليمين والشمال وفي الأقاصي البعيدة لقد كانت تعرف الكثير. وما أشرفنا على مدخل «يريم» وقت الظهر حتى رأينا شخصاً يلوّح لنا بيده ثم هرول نحونا وسلّم، وقال: هل أنت ابن «الشامي»؟ قلت: نعم. قال: أهلا وسهلا أنا رسول «العامل» سيّدي عبدالقدوس الوزير، وصله تلغراف من عامل «ذمار» بوقتِ وصولكم وهو ينتظركم في «الحكومة»، واتجهنا صوب دار العامل، وهو شقيق أمير لواء الحديدة السابق السيد عبدالله بن أحمد الوزير الذي سبق ذكره، والسيّد عبدالقدوس متزوّج بابنة الإمام يحيى السيّدة أمة الرحمن وهي أخت زوجة السيد عبدالرحمن الشامي؛ فهي خالة زوجتي الناشز، وصديقة والدتي وقلت في نفسي: إنا لله! ها قد وجدنا من سيذكّرني بمشاكلي التي فررت وهربتُ منها ..! ودَخلت أمّي محلّ النساء ورحب بي السيد عبدالقدوس وكان لطيفاً بشوشاً، ذا وجاهة وهيبة، وقال: الله المستعان ياولد أحمد! كيف لم تبرقوا لنا بوصولكم؟ ولولا الأخ عامل ذمار رعاه الله لما علمنا بوصولكم. فخجلتُ ولكنّي قلت: ولم يكن من المتصوّر أن أمرّ من «يريم» ولا آتي للسلام عليكم .. وفي المقيل جاء الموظّفون؛ ولكن الأحاديث لم تكن زاخرة بالعلم والأدب والنقاش والحوار كأحاديث مجلس «ذمار» فلم يكن في «يريم» أو في مجلس «العامل» من العلماء غيره وكاتبه الفاضل السيّد «الكاظمي» وعندما ذهب الناس وصلّينا المغرب والعشاء ولم يبق مع العامل سواي، قال لي قبل أن يذهب إلى بيته الخاص: قد رتّبنا سفركم غداً إلى «المسقاة» وأمرنا لكم «بقارشتين» قلت له: شكراً لكم! قال: وبالمناسبة فقد كلّمتني بنت الإمام عن مشكلتك مع زوجتك، والجميع يشكرون صبرك، وأناتك، ومثل هذا يحدث، وقد حصل لي نفس ما حصل لك، ومع الزّمن صارت الأمور على خير ما يرام؛ فتبسّمت شاكراً وودّعته لأن سفرنا سيكون بعد الفجر وقبل الشروق، وحاولت أن أنام فلم استطع بسهولة؛ وأخرجت من جعبتي كتاب «أوراق الورد» للرافعي وظللت أقرأ حتى غلبني النّعاس.

وغادرنا «يريم» قبل شروق الشمس: متجهين صوب «المسقاة»، واجتزنا الجانب الأعلى من «قاع الحقل» ورأيتُ قرية بيوتها ناصعة، وكأن أمي لاحظت إعجابي بها؛ فقالت: هذه «عراس»؛ و يقولون إن سكّانها «مكارمة» مثل أهل «حراز» وترجّلتُ، وقلت للرفيق: أحبّ أن أمشي وأتحدّث معَ الوالدة فخذ الحمارة، وتقدمنا في الطريق، ومسكت بركاب بغلة أمي وحدّثتها بما قال لي «عامل يريم»، وما كان بينه و بين «بنت الإمام» وأنه عانى منها بعض التعب، ومرّ بنفس التجربة التي أمرُّ بها. وهل تعلم شيئا عما جرى له؟ قالت: نعم؛ كانت «أمة الرحمن» بنت الإمام مثل «أمة الله»؛ قد نفرت من زوجها عبدالقدّوس إثر زواجهما؛ ولكنه صبر عليها حتى ولدت له عبدالكريم ومحمداً.. قلت: وكيف هي الآن؟ قالت: كما يرام وهي معه في «يريم»؛ وقد تحدثتُ أمس معها عنك وعن «أمة الله» بنت اختها وقالت: قولوا لأحمد يصبر. قلتُ: وهل أحبّت زوجها؟ أم أَلِفَتْهُ وصبرت لأجل أولادها؟ قالت ضاحكة: حبّ؟ ما هو الحبّ؟ ومن يدريه؟ الحب لا يعلمه إلاّ الله عالم الأسرار وما في

القلوب؛ المهم الرضى والاطمئنان والعيش في سعادة؛ وهي الآن معه كذلك. قلت: أوليس الرضى والاطمئنان والعيش في سعادة هو الحبّ؟ قالت: لا تزال صغيراً يابنيّ؛ وهناك «مجانين» وأنت لا يلزمك أن تصبر: تزوّج وكن مثل أبيك؛ ما مات إلاّ وقد تزوج أكثر من سبع، وكان لايزال في الأربعين، وأوّل زوجاته أم أخواتك كان جدّها الإمام المنصور أبو الإمام يحيى، وأبوها الوالد عبدالرحمن؛ ولم يمنعه ذلك من الزواج، ولا حسب لذلك حساباً.. وتزوج امرأة أو اثنتين قبلي؛ حين امتنعت عن مرافقته إلى مقر عمله، وقهر التي قهرته، و بعد أن توفيّت الجديدة تزوّج بي؛ كن مثل أبيك وتزوّج، واقهرها مثلما قهرتك، وفي «المسقاة» بنات جميلات وسأختار لك أحسنهن جمالا وكمالا.. وارتجف قلبي وهي تحدثني عن أبي وزوجاته وما تخبّئه لي من مشاريع، وكان الحديث شيّقاً ومثيرا، وأردت أن أعرف المزيد عن أبي «المزواج» والذي مات «مقهورا» في «مكة» بعد أن «قهر» زوجاته فقلت: وهل «قهركم» أبي لما تزوّج؟ فضحكت وقالت: لم أكن الأولى.. لقد كنتُ «القاهرة» الثالثة أو الرابعة [الشك من قِبلي].. وعندما تركته في «الضالع» لزيارة أمي في «المسقاة» وأنا بِك حاملٌ.. رغم معارضته تزوّج بشابة لطيفة من بنات «الضالع»؛ اسمها «دُنيا» واسم أبيها «عبادي حسن»؛ ألا تذكرها؟ قلت: بلى.. ولقد احسستُ بشيء من الغيظ والألم. فلّما تزوج بأخرى لم أتألم بل انقهرت «دنيا» الجديدة، وهذه هي العادة فتزوّج، ولا تصبر، وكن مثل أبيك. قلتُ: وهل أُطلق أمة الله؟ قالت: أعوذ بالله؛ أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وأمة الله فتاة صالحة، وأبوها خير الآباء، وأمّها سيّدة النساء، وهم أهلنا، ويحبّونك كثيرا.. وكنا قد بدأنا نتسلق العقبات وبدأت الشمس تضربنا بسياطها فناديت الرفيق فترجّل وامتطيت «الحمارة» وحثَينا السير.. وما أشرفنا على وادي «بَناَ» وأمواهه التي تعكس أشعة الشمس، وقُراه المنثورة.. في التلال والسفوح حتى رأيت والدتي تنتعش أسارير وجهها وكأنها تقول وهي تسمّي لي كل تلك الجبال والشعاب والقرى: هنا مسرح صباي، هنا مرتع شبابي، هنا حيث ولدت ودرجتُ وأحببتُ وتزوجت هُنا، هنا؛ ثم قالت: ساعدني على النزول قلت: ولماذا؟ قالت: تلك هي المسقاة وطريق «القُراش» [الخيل والبغال والحمير].. طويل وأنا في شوق إلى «البيت» وسأقطع إليه العارضة مشياً؛ أُبَشِّر الأهل بوصولك مع الرفيق وسيأتي إليك أولاد خالك مستقبلين وقفزت كاللّبوة؛ في صحة ونشاط قائلةً: إلى اللقاء في «المسقاة»؛ ورحبت «المسقاة» الطيبة الهواء، الصافية السماء النقيّة الماء، الخلاّبة المناظر، الكريمة الأهل، بأحد أبنائها الذي غاب عنها طويلا في «صنعاء»؛ وكنّا في أواخر شعبان لم يبق منه إلاّ يوم أو ليلتان وأطلّ رمضان وأمضيته مع الأصدقاء والاخوان في سهرات أدبيّة وضيافات كريمة، وجولات أثناء النهار ما بين «السدّة» و«نيمان» و«بيت الأشول» و«حفزان» و«النادرة» وجبل «الحُبالى» وأرادت الوالدة أن تعيد عليّ حديث الزواج» وكنتُ قد فكرت في ذلك طويلا، ولم يبق ثابتا وواقرا في قرارة نفسي مما سمعت إلاّ وصيّة عامل يريم، وقول أمي: «أمة الله فتاة صالحة وأبوها خير الآباء» وصوت ينادي من الأعماق: لا لا لا تقهرها.. وقلت لأمي: سأصبر يا أمّاه؛ فقالت: حسناً ولا أحب إلا سعادتك.

إلى «تعز» مقام «ولي العهد» والعلماء والشعراء:

قضيّت في المِسقاة خمسة عشر يوماً تذكّرت أثناءها ولي العهد سيف الإسلام أحمد ومقامه الذي يغصّ بالعلماء والأدباء والشعراء؛ وقلتُ لأميّ: أريد زيارة «تعز» حيث سيف الإسلام وسأنظم فيه قصيدة، ولابدّ أن يجيزني، فحبّذت الفكرة، و باعت قطعة أرض بستين ريالاً اعطتني أربعين ريالا؛ واستأجرت «قارشة» إلى «المخادر» حيث وجدت الصديق الشاعر أحمد المعلمي، وأمضيت معه سهرة أدبية، ومن «المخادر» استأجرت «بغلة أو حمارا» ــ لا أذكر ــ إلى «إبّ»، ثم «حمارا» إلى «السيّاني»، ورابعاً منها إلى «تعز» وكانت يومئذ كعبة القصّاد من رجالات اليمن، و«السيف أحمد» يتطلّع إلى «العرش» بعيني صقر، وهمة غشمشم؛ وفي «تعز» تفتحت آفاق فكري بمخالطتي ومجالستي لأساطين الفكر من أبناء اليمن الذين يتوافدون على مقام «ولي العهد»، و يعملون تحت إدارته؛ وتعرفت على العالم الشاعر الراو ية القاضي أحمد الحضراني والسادة والقضاة والمشايخ عباس ابن علي اسحاق، وناصر الدرّة، وعبدالله اليدومي، وحسين الحلالي، ومحمد الذاري، وزيد الموشكي، وحسين الو يسي، وأحمد محمد نعمان، وعبدالجليل باشا المتوكل، وأخيه عامل تعز محمد بن أحمد باشا وولديه أحمد ويحيى، وأحمد منصور، ويحيى منصور، ونعمان القدسي، ومحمد الوريث، ومحمد شيبان، وأحمد السّالمي وأضرابهم، وما منهمُ إلاّ أديب وشاعر، وعالم وسياسي، وتحفّز طموحي، ولابد أن أعترف بأن ما أولاني به الأمير وليّ العهد أحمد (الإمام فيما بعد) من إكرام وتشجيع قد زادني همّة ومثابرة على الاستزادة من العلم والمعرفة وقرض الشعر؛ وكان الحبّ والألم قد شو يا عواطفي بلهب الشوق والحنين فغنيت مقاطعه بنغمة كانت جديدة على شعراء ذلك المناخ، واستيقظت هواجس التبرّم والنقد، والحرب العالمية ما تزال مخيمة على الدنيا، ودبابات وجيوش «هتلر» قد اكتسحت أور با.

٥ ـ المؤثرات في حياتي:

لقد كثرت مطالبة الناس لي بأن أتحدّث عن المؤثرات في حياتي السياسيّة والأدبيّة، ودوافع مواقفي «الوطنيّة» كما يحب أن يسمّيها الأصدقاء، أو من يُحسن الظن بي، أو «الرجعية» كما يحلو لبعض من اختلفتُ معهم رأياً وتفكيرا وأسلوب حياة أن يدعوها؛ وهي مطالبة وجيهة ولا يمكن إهمالها أو تجاهلها، مِن قِبَل من يريد أن يتحدّث عن ذكرياته، أو من يُطلب إليه أن يكتب تاريخ حياته السياسيّة أو الأدبيّة؛ وقد خاصم وسالم، وانتصر وانهزم، وأخطأ وأصاب، واحتفى الناس بكتبه، وأحرقها وصادرها بعضهم، ودخل السجون وجلس على كراسي المناصب السامية؛ فالأسباب والدوافع لها فعاليتها الايجابيّة في تلو ين الأحداث ولا يصحُ تجاهلها؛ ولكلّ سلوك يتخلّق به الإنسان مؤثّرٌ ما، من وراثةٍ أو تقليد، أو تثقيف.

بيئة الحنان والتسامح:

والمؤثرات الأولى في اتجاهاتي ومواقفي الأدبية والسياسية والأخلاقية والتي دفعتني إلى سلوك هذاالصراط الذي لا أزال أمضي فيه كثيرة، ولا تزال تتوالد وتتوافد فيتوسع الصّراط أو يضيق، ولكن

أهمّها بالنسبة لنشأتي الأولى ما يلي :

١ــ جوّ الحنان والحب، والتسامح، في البيئة التي ولدتُ فيها بمدينة «الضالع» أوّل أرض مسّ جسمي ترابُها، فقد كان أبي ــوهو زيديّ المذهبــ يحكم مقاطعة سكّانها يتبعون المذهب الشافعي؛ وكانوا يتمتّعون بعطفه، و يتمتع باحترامهم، وقد لمست ذلك منذ الطفولة؛ ولا يمكن أن أنسى أوّل ملاحظة مذهبيّة في حياتي وأنا في الخامسة فقد كان أبي حين يؤدّي الصلاة «يُسَرْبِلُ»، أو يُرسِلُ يَدْيه، سواء كان إماماً أو مأموما، وكنت أرى البعض من أبناء «الضالع» يضمّون أكفّهم إلى صدورهم إذا أدّوا صلواتهم ومنهم الشاب «عبده» المكلّف برعايتي، والحاج «سعيد» السقّا، وخالتي [ضرة والدتي] السيّدة «دُنيا» ابنة الحاج «عبادي حسن»، وأمّا أمي، وجدّتي وخالي، وعمّي حسن وسائر الموظفين والجنود فكانوا يُرْسلون أيديهم و«يُسَربِلون» مثل والدي.. وكان والدي يحرص على أن أكون حاضراً حين تُقَامُ الصلوات.. وسألت والدي لماذا يرسل يدَيه و«عبده» وخالتي «دنيا» يضمانهما إلى صدريهما؟ فقال. نحن «الزيود» «نُسَربِلُ» و«الشوافع» يضمّون؛ وضحك كأنّه أُعجب بهذه الملاحظة المبكرة.. وحان موعد الصلاة وقام والدي لأدائها وقمت بجانبه أقلّد حركاته، وأتمتم بكلمات لا أفهمها، ولا أتقنها في الركوع والسجود ولا أتقن منها إلاّ «الله أكبر»، وضممت كفيَّ إلى صدري.. وحين فرغ والدي من أداء الصلاة سألني برفق ومبتسما: لماذا تضم كفَّيك وأنت «زيدي»؟ قلتُ: وما هو «عبده»؟ قال: «شافعي» قلت: أنا «شافعي» مثل «عبده» وخالتي «دنيا»! فضحك الوالد ضحكة عالية ودعالي بالصّلاح، ولم يحاول لا من قريب، ولا من بعيد، أن يصرفني عن تلك العادة التي ظلَلتُ ألازمها حتى أرجعني عنها بشكل غير لطيف أحد أساتذة صنعاء.. بعد موت والدي؟ فلم أشعر طوال حياتي بتعصّب مذهبيّ بالنسبة للحركات والأشكال والأذكار التي تعدّدت فيها الروايات واختلفت فيها أقوال الفقهاء وأئمة المذاهب الإسلامية.

خصومات والدي السياسية:

٢ــ حكايات والدتي عن خصام والدي مع الأمير يحيى بن محمد عباس المتوكل، والإمام يحيى بن محمد حميد الدين وما كان يتناقله النّاس حول قصّة هزيمته في «الضالع» واتهام الإمام له بأنّه تآمر مع سلطان «الضالع» ووالي «عدن»..! وكيف احتال الوالد عبدالرحمن الشامي مع الوالد محمد زبارة بالتعاون مع سيف الإسلام أحمد ابن الإمام، وأخيه «البدر الشهيد» سيف الإسلام محمد ــوكاناــ صديقين حميمين لوالدي على اخراجه من «صنعاء» مقرّ الإمام باسم الحجّ كي لا يعود إليها؛ بل إلى «الحديدة» حيث أميرها سيف الإسلام محمد، ولكنّه انتقل إلى جوار ربه في «مكة» كما ذكرتُ سابقاً.

وكل تلك الحكايات والأقاصيص والأخبار، قد جعلتني أتربّى دون شعور بمودة أو حُبّ نحو «الإمام يحيى»؛ ولذلك فعلى قرّاء مذكّراتي، أو كتبي ألاّ يعتمدوا على ما أقوله، أو أرويه، من

خبر قد يشتمّون منه نيلاً من حق الإمام يحيى أو تحاملاً عليه ، بل عليهم أن يراجعوا مصادر أخرى ، وأن يتحرّوا الحقائق في كلّ ما أقوله عنه ، إذ قد لا يخلو من تأثر بعواطفي الشخصيّة المنفعلة بتلك الحكايات والأقاصيص وكفى بهذا الاعتراف دليلا على اخلاصي للحقيقة والتاريخ ، وفي نفس الوقت اعترف بأن حكايات العطف والتأييد لوالدي ، ثم لنا كأيتام بعد وفاته ، قد ولّدت فيّ شعوراً بالودّ والمحبة لكلّ من سيف الإسلام أحمد «الإمام أحمد فيما بعد» وأخيه سيف الإسلام محمد الذي مات غريقا بالحديدة سنة ١٩٣٣م/١٣٥١ هـ ورثاه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدة رائعة مطلعها :

مضى الدهر بابن إمام اليمن ... وأودى بزين شباب الزّمن

و باتت بصنعاء تبكي السيوف عليه ، وتبكي القنا في عدن

وأعولَ نجدٌ وضجّ الحِجَازُ ... ومال الحسينُ فعزّى الحسن

ولو أنّ ميتا مشى للعزاء ... مشى في مآتمه ذو يزن

وكان شاعراً مجيداً ، وذا ثقافة واسعة ، وجواداً كريماً ، وهو جالب المطبعة إلى اليمن ، والذي أنفق على طبع كتب الشوكاني وغيره بإشراف المؤرخ محمد زبارة؛ وإثر وفاة والدي أجرى لنا مخصصاً شهرياً من ماله الخاص ، وكان يتعهدنا في المناسبات وعندما توفي بكت أمّي عليه و بكينا معها ؛ ومما لا أنساه أن أخاه السيف أحمد [الإمام فيما بعد] أمر إلى وكيل أخيه بصنعاء أن يستمر في صرف كل المخصصات التي كان يصرفها على حسابه الشخصي ونحن من جملة من استفاد بتلك اللفتة المشكورة .

خطب علي عقبات :

٣ـ خطب السيد علي عقبات؛ وهو أديبٌ كبير، وخطيب مصقع ، وحفّاظة للأشعار والأخبار، وهاجر إلى مصر، ودرس بالأزهر، وحين رجع اليمن كان يخطب في مساجد صنعاء مرشداً، وواعظاً ومحاضراً ، وكان يتطرّف في تشيعه ، ولا يقتصر على تخطئة أو لوم الذين حاربوا علياً يوم الجمل وصفّين أو خرجوا عليه وأبادهم «يوم النهروان» بل و يزعم أن الذين لم يبايعوا علياً (رضي الله عنه) إثر وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وهم جمهور الصحابة (رضي الله عنهم) قد خالفوا النص ! وقد كاد أن يثير فتنة لولا أنّ الإمام يحيى بن محمد حميدالدين قد زجره بالسجن ، ومنعه من إثارة تلك المواضيع التي كادت أن تشعل نار الفتنة بين الناس ، ولم يُخرجه من المعتقل إلاّ بعد أن تعهّد بأن لا يجهر بها . ومن جهة أخرى تعدلت أفكاري بقراءاتي للأمّهات ، وكتب التاريخ ، مع الوالد عبدالرحمن الشامي ، والقاضي محمد الحجري .

لكن السيد علي عقبات كان ـ بخطبه ومحاضراته ، وفصاحته و بلاغته ، وطول نَفَسِه قد سحر لبّي ، ودفعني إلى العكوف على قراءة «نهج البلاغة» وكتب «الزمخشري» و«ديوان المتنبي» وهؤلاء هم «ثالوث» علي عقبات الذين يكثر من الاقتباس عنهم والاستشهاد بهم ، و بآثارهم وكلامهم ، في خطبه ومحاضراته ، وكل ذلك قد أفادني ، وظللتُ ودونما تطرفٍ متمسكا بمبادىء

«الزيدية» في الأصول؛ من القول بالعدل والتوحيد، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على الظالمين، والمنزلة بين المنزلتين، ومعظم خصوماتي الأدبيّة شعراً ونثراً يدفعها و يغذيّها، و يسيّرها هذا التيار «الزيدي» الذي لا يضيق بالجدل ولا بالحوار؛ ولقد صدق الدكتور أحمد محمود صبحي حين قال في كتابه «الزيدية»: «لا أكاد أجد مذهبا أكثر سماحة، وأعدل قصدا تجاه الخصوم من الزيدية، بل إن منهج معظم مفكريهم في العرض لَفَريد؛ إذ تعرضُ مختلف الآراء على السواء في نزاهة وموضوعيّة ثم يُرجّح المفكر ما يراه؛ لا شطط ولا إسفاف، ولا ارتداء زيّ كهنوت، وإصدار أحكام التكفير على المخالفين» ص: ٧٢٩.

خطب محمد أبو طالب:

٤ــ خُطب السيّد محمد قاسم أبوطالب الذي ظلّ حوالي سبع سنوات يرتقي منابر الجامع الكبير بصنعاء، أو جامع «الروضة» أو «حنظل» و بحضور الإمام يحيى، وأنجاله، ووزرائه، وأحكّام وقضاة وأمراء الدولة، يقوم إثر صلاة الجمعة فيتحدّث عن الظلم والظّالمين، و يقرّع القضاة والمرتشين، والمحتكرين والمستأثرين، ناقداً مُندداً بصراحة كانت تثير الإعجاب.

وتظل خطبه وتعريضاته وتقريعاته، وانتقاداته اللاذعة، أحاديث المجالس والمدارس والأسواق، حتى تأتي «الجمعة» فيتساءل الناس أين سيخطب «أبوطالب»! وفي أيّ جامع! لكي يستمعوا إلى ما سيقوله في الإمام والأمراء والقضاة والحكام، والتجار والأغنياء، وكنت واحداً من أولئك المنفعلين بكلامه؛ بل لقد كنت أجالسه وأحاوره، وأستفسره عن مغازيه، ومقاصده و بعض تلميحاته، وإشاراته، فيشرحها؛ و يقول لي بما يصله من تهديدات أو نصح، من قِبَل الإمام وغيره، وإن وليّ العهد «أحمد» هو وحده الذي يشجّعه، ويحوّل له بالمساعدات المالية! وظلّ كذلك حتى أصدر الإمام يحيى أمراً جازماً بمنعه من الخطابة؛ وإذا لم يمتثل الأمر فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه، وإثر ذلك وُزّعت في «صنعاء» منشورات تندّد بالحكومة، وخطب محمد محمود الزبيري خطبته المشهورة: «يا رسول الله» في مسجد الجامع الكبير بصنعاء.. و بحضور الإمام؛ وكان بجانب «الزبيري» محمد أبوطالب في وقفة تحدّ واضح.

مجلس محمد، زباره:

٥ــ ومن وحي «جلسات المتاكي» ولا سيما في ديوان الوالد السيّد المؤرخ محمد بن محمد زبارة، وقد كان يطالب بإنشاء المعاهد العلمية، ونشر كتب التراث، وتأسيس مجلس شورى، والأخذ بيد من حديد على المرتشين والمحتكرين و يُسمّي بعضهم، وكان يحضر ديوانه للمقيل القاضي يحيى الإرياني رئيس الاستئناف وأولاده العلماء الشعراء، والسيد أحمد عبدالله الكبسي، والسيد أحمد المطاع، والسيد أحمد عبدالوهاب الوريث وأضرابهم ينتقدون الأوضاع، و يناقشون أمور الدولة، وكنت أحضر بعض هذه المجالس مستمعاً فانفعل بما يقولون وأفكر فيه، وأتأثر به، وأنقله إلى زملائي في الدراسة والشارع؛ والواقع أن مجلس السيد محمد بن محمد زبارة كان مدرسة سياسية ولا سيما لطلبة ومشايخ العلم في صنعاء ما بين سنة ١٣٥٢ هـ و١٣٦٢ هـ وفي هذه السنّ المبكرة ما

بين العاشرة والعشرين و بحكم التصاقي بآل زبارة نسباً وصهراً، ودراسةً وتجاوراً، فقد كنت أحضر معظم تلك المجالس وانفعل بما يدور فيها من نقاش، ولّعله من الضروري أن أبين طبيعة تلك الأحاديث ودوافعها السياسية والثقافية والدينية:

مراسلات أحمد زبارة مع الإمام يحيى:

وقد أهداني أستاذي مفتي الجمهورية العربية اليمنيّة السيد أحمد بن محمد زبارة صوراً للرسائل التي دارت بينه و بين الإمام يحيى حميد الدين في سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م مكتوبة بخط والده المؤرخ السيد محمد بن محمد زبارة و بعضها بخط الإمام يحيى نفسه وهي تمثّل ما كان يدور في مجلس محمد زبارة من أحاديث حول الأوضاع يومئذ ومطالبة المستنيرين والعلماء للحكومة بالإصلاح، يقول السيد محمد زبارة في مذكراته:

وفي يوم الأحد ٢١ شعبان سنة ١٣٥٤هـ أوصل إليّ أحد عساكر الإمام يحيى حفظه الله خطابا مغلقا معنونا باسمي ففتحته وإذا فيه بخط الإمام نفسه موجهاً الخطاب إلى ابني حفظه الله ما نصّه:

الولد أحمد بن محمد زبارة حماه الله

وصل الكتاب والنصيحة؛ وقلتم إن كلّ المؤمنين ينقمون علينا؛ وما علمنا المؤمنين إلاّ يثنون علينا غاية الثناء، و يشكرون النعمة التي لم يعرف آباؤهم مثلها ويحمدون الله لاقامة الشريعة، ودفع الطآغوت، وعزّ المؤمنين، وذل الظالمين، وارتفاع المنكرات، وكل الرعية يحمدون الله على ما هم فيه، ولا نعلم من ينقم على الإمام غيركم.. ولا من يشعر غيركم! فأوضحوا لنا من هم المؤمنون الناقمون علينا؟ وليصلوا إلينا ولهم الفضل والمنة! ونصيحتكم يخشى على الإسلام أن يتنصرا.

ما ندري من يريد التنصر من المسلمين؟ وممّن الفرار؟ هل من اليُسر إلى العُسر؟ ومن الأمان إلى الخيفة؟ ومن الشريعة إلى الكفر؟ ومن الجنة إلى النار؟

والسلام ٢١ شعبان ٥٤ر.

يقول الوالد المؤرخ السيد محمد زبارة. فهالني هذا المحرّر بخط الإمام و عرضته على الولد أحمد [المفتي حاليا] واستفسرته هل كتب إلى الإمام شيئا؟ فأجاب أنه أرسل نصيحة دينية إلى الإمام قبل يومين رأى بوجوب نصح الإمام بها، وليست كما يوهم هذا المحرّر، فبالغت في الإغلاظ عليه، كيف يكتب ما يسمّيه نصيحة للإمام و يرسلها قبل استشارتي وشدّدت عليه في عرض صورة ما كتبه لتدارك ما عساه قد أخطأ بكتابته فعرض عليَّ ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم: اليمن يفور من طرفه إلى طرفه؛ فالرعوى يصيح انّه مظلوم، وان المأخوذ عليه نصف ما يحصل له باسم الزكاة، إلى ما يؤخذ منه باسم عسكر أو أجرة شريعة، أو رشوة للكتاب وغير ذلك من ظلم الأمراء. والعسكري يصيح انه مظلوم لقلة معاشه جداً واستعباده وقهره من الأمراء، وعدم النظر في مصالحه، ولا التفات إلى تعليم الرعوي والعسكري آداب

الدين وإرشادهما، وتقوية إيمانهما بالآخرة و بالخالق، سبحانه، و بحقارة الدنيا متاع الغرور، حتى إنهم أصبحوا يشكون في الخالق سبحانه وتعالى والجنة والنّار، لما يرون من تهوّر القادة، وعدم خوفهم، والمسؤول عن ذهاب إيمانهم هم القادة! والأمراء الكبار يصيحون انهم مكرهون على الظلم، وانهم لا يريدونه، وانهم والحكّام والكتاب ليس معهم معاشات تكفيهم فهم مضطرون إلى الأخذ.

والأمراء الصغار يصيحون انه لا معاش يكفيهم وانهم مضطرون إلى الأخذ لهم وللكتّاب، وللمحاسبة لئلاّ يغيّروا عليهم حالتهم.

وأولادكم يصيحيون انهم غير راضين بهذه الحالة لأنهم في شقاء وقد فسد بعضهم عقوبة لكم لأنك لا تحبّون الخير لأولاد الناس!

والمهاجرون والعلماء والفقراء والأرامل والأيتام يصيحون انهم محرومون من حقوقهم وان بعضهم تؤخذ منه زكاة وهو مصرف لها فترد إلى الأغنياء، أو تكتنز، أو تكون في عمارة دور وكسب أموال ومواتر وعجائب بمليونات.

والنشأة الناهضة يصيحون انه لم يلتفت إليهم فيرقونْ.

والذوات كلهم لا أخص أحدا غير راضين هذه الحالة و ينقمون أشياء، و يصرّحون بذلك في المواقف و يتناجون بينهم مع أن ديننا واحد ومذهبنا واحد و وطننا واحد والغرض واحد.

وقطعاً ان هؤلاء الذوات لا يريدون لإمامهم ودينهم و وطنهم إلا كل خير فإذا كان الغرض إقامة الشريعة وإرشاد الناس، والسلوك بهم طريق الجنة فيجب استدعاء مؤمني هؤلاء الذوات مثل سيّدي عبدالرحمن بن حسين الشامي وسيّدي أحمد بن عبدالله الكبسي والصفي أحمد الجرافي.. الخ واستشارتهم وتشكيل مجلس شورى منهم ومن غيرهم من عموم اليمن وما رأوه كان امضاؤه؛ فأنتم بشر يخطىء و يصيب.

اتهموا أنفسكم قال الله سبحانه في وصف المؤمنين: [وأمرهم شورى بينهم]، وقال تعالى [ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر] وأنتم أيضاً تصرّحون بظلم الأمراء، وأخذ الكتّاب للرشوة مثل قولكم لبعضهم «قد جرّيتها» و«فلان يده خضراء»! ولا تعاقبوهم، وقد قرب الرحيل إلى ديار الآخرة؛ فعمركم قد ناهز السبعين عاما، فيجب أن تكتسبوا الأجر لتقدموا على خالقكم راضيا عنكم، وتخلّدوا لكم الذكر الحسن والترحّم؛ ما هذه الخاتمة؟! بينما كان «العرشي» يخطب في سنة ١٣٢٣ هـ: «ألا لا يقولنّ قائل لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيّا لقاتلنا بين يديه؛ فهذا ابنه، وهذه رايته، وهذا دينه، إذ أصبح الخطباء ينكرون علينا، وكذلك الشعراء؛ وإن لم يبلغكم فثمّ قصائد كثيرة بليغة القيت في المساجد وغيرها ستمكث في التاريخ، وفيها كلام حق ومعقول لا محيص عنه، وحاشيتكم لا يبلغونكم خوفا منكم كما يقال؛ وفي الجرائد إنكار كثير، وجميع الأمة تنكر بعد ما كان الناس يحسبونكم مثل الهادي والقاسم عليهما السلام الذين ساروا تلك السيرة الحسنة، وعبدوا الله تعالى في هذه الدنيا الفانية، متاع الغرور تلك العبادة وأرشدوا أهلهم وأراحوا

رعيتهم وخرجوا من الدنيا كما ستخرجون منها قطعا وقد كسبوا لهم الأجر الجزيل والثناء الحسن.

فيا أمير المؤمنين لا تغرنّكم الحياة الدنيا والاستبداد الذي لم يعهد مثله، والبقاء على هذه الحالة يوجب استيلاء النصارى ــ والعياذ بالله ــ على بلادنا؛ لأن ثم أناس أغتام من الأمراء وكثير من الرعية يحبّون تحوّل الحالة لشدّة ما هم فيه ولو إلى النصارى، والنصارى قد عرفوا هذا وسيأتون لنا أوّل الأمر بالرفق والعطاء ثم يسوموننا سوء العذاب وأنتم المسؤلون أمام الله وخلقه والتاريخ؛ فلكم الحكم المطلق والاستبداد العظيم وليس لأحد قدرة على دفع أي شيء، فحوّلوا الحالة، وكِلوا أمر المسلمين إلى نفوسهم ليدافعوا عن نفوسهم، واجعلوا على «بيت المال» أمناء لئلا يضيع بعدكم وخير الهدى هدي محمد والحجّة قائمة عليكم وحدكم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، في غرّة رجب سنة ١٣٥٤ هـ كتبه أحمد بن محمد زبارة.

وقد أجاب السيد أحمد زبارة على جواب الإمام المذكور برسالة قال فيها:

الله يحفظ أمير المؤمنين آمين. السلام عليكم ورحمته و بركاته: وصل الجواب الكريم وما كنت مؤملاً له استحقاراً لنفسي؛ والذي يهم المؤمن و يهمّكم في الحقيقة رفع ما يعتقده فيما يتعلق بحكومته و يصلحها لا الوشاية بأحد والسلام عليكم ورحمة الله، في ٢١ شعبان ١٣٥٤ هـ

وما كتبت في واد والجواب في واد آخر.

فأجاب عليه الإمام يحيى بخطه وفي نفس الورقة بما يلي:

عافاكم الله ليست وشاية إذا وصلتم إلينا مع المؤمنين النّاقمين لنعرف هل ينقمون فتح المدارس، ونشر المكاتب؟ أم عموم الشريعة؟ أم الأخذ على أيدي أهل الطّاغوت؟ أم منع المنكرات وتأمين العباد والبلاد؟ أم الاستعداد لحماية الدين والمسلمين وسهرنا وتعبنا لذلكم والناس راقدون؟ وأما مجرّد الكلام والشعر فلا يفيد والسلام.

وقد أجاب زبارة بخطاب طويل طالب الإمام فيه بتأسيس مجلس للشورى يتكون من عموم صالحي أبناء اليمن لكل بلد ممثل على ألاّ يقلّوا عن ثلاثين ومن أهل الحل والعقد واستنكر المعاهدة التي أبرمها الإمام مع الطليان وكان ذلك إثر استعمار الطليان للحبشة والاشاعات أن خطوة موسوليني الثانية هي احتلال اليمن؛ وتملّص من وصوله إلى الإمام وتاريخ الرسالة ٢٤ شعبان ١٣٥٤ هـ وقد أجاب عليه الإمام يحيى بخطه بقوله: الولد أحمد بن محمد زبارة حماه الله: ما علمنا انه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء ومن بعدهم مجلس شورى ونحن نستشير أولي العقول المجربين لا مثل من يقول إن ما في معاهدة الطليان فائدة من المغفلّين الذين لا يعرفون ما في الكون، فلولا معاهدة الطليان بعد الله انّه حدث مع الإدريسي ومن بعده كل محذور لعدم الأسلحة فظهر لك الجهل والخطأ والغفول وابن اللّبون.. الخ وأما الشعر العظيم فقد عرفناكم، وما سلم الله ولا رسوله ولا علي بن أبي طالب والسلام.

وقد استمر الأخذ والردّ بين الإمام وأحمد زبارة في عدّة رسائل حول شتى المواضيع حتى

منتصف شهر رمضان سنة ١٣٥٤ هـ حيث أرسل إليه الإمام رسالة طويلة يدافع فيها عن سياسته وطريقة حكمه و يقول له في آخرها «وإذا بلغ إلينا بعد هذا عنك أدنى كلام في مثل ذلك فلا تلم إلاّ نفسك يا أحمد والسلام» . وسأثبت جميع الرسائل بخط الإمام أو بخط المؤرخ زبارة في قسم الوثائق وإنما أوردت البعض وأشرت إليها الآن لتبيين البيئة و بعض المؤثرات التي انفعلت بها وأنا في تلك السن المبكرة وكان لها أثرها في مواقفي الوطنية والسياسية .

صورة لإحدى خطابات الإمام يحيى حميد الدين
إلى العلامة أحمد بن محمد زبارة في رمضان ١٣٥٤هـ

الولد الصفي أحمد بن محمد بن محمد زبارة سلمه الله والسلام عليكم ،

والله يجعلنا ممن شملتهم الرحمة ، وعمتهم المغفرة في هذا الشهر الكريم . يا صفي ؛ نحن نعرف أنك توافق أباك في غمط النعمة ، وجحد الحسنات التي لا نظير لها ، وإنكار المصالح التي لم يُعرف لها مثيل ، وتمحّل الانتقادات العاطلة والحمل على غير السلامة ، وكل هذا مخالف

للحقيقة والديانة، وإلاّ فالمؤمن يحتمل للمؤمنين إلى كذا احتمالات لحمله على السلامة فيما يبعد الاحتمال في بعضه، وإنما تركناك وأبقينا الجراية لما نؤمل أنك ستكون من أوعية العلم ولما عسى أن يرشدك العلم إلى معرفة الحقائق فلا تحملنا على غفلة والسلام عليكم.

٢٢/شهر رمضان/١٣٥٥هـ

إن لم يكن الحق في اليمن فأين ذا سيكون ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمّت فأعمَت والسلام. أ. هـ

تتمة المؤثرات:

٦- من قراءاتي لأشعار حافظ ابراهيم ومعروف الرصافي، ومقالات جريدة الشورى والفتح التي كانت تتحدّث عن اليمن وأجدها في ديوان المؤرخ محمد زبارة.

٧- من مطالعاتي للكتب التي ورّدها العائدون من بغداد والقاهرة مثل «طبائع الاستبداد»، و«أم القرى» و«الثورة الفرنسية» و«العروة الوثقى» و«مدحت باشا».

٨- من تأثري بما شاهدته في رحلتي إلى «تعز» أثناء مجاعة سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٣م من بؤس وشقاء، وسيل اللاجئين الحفاة العراة الذين تدفّقوا على صنعاء إثر الزلازل التي دمّرت مدن وقرى الشمال في منطقة «صعدة» و«شهارة» ووباء «التيفود» الذي حصد الناس هنالك وفي منطقة «حجة» و«حجور» و«الشرفين»؛ وأبو طالب يزمجر بخطبه، ويقرّع المسؤولين لعدم عنايتهم بالمنكوبين واللاجئين، ومجلس السيد زبارة يضجّ بالنقد اللاذع، والاحتجاج الصارخ، والاعتراض والتبرّم.

من كل ذلك - ومما لا أتذكره الآن - تكونّت لديّ فكرة المعارضة، وبدأت أنقل تلك الآراء التي أسمعها أو أقرؤها، أو استوحيها مما سمعتُ وقرأتُ إلى زملائي الشباب في المدرسة والمسجد والشارع ومجالس القات، واتصل بآل زبارة، والمطاع، و«أبو طالب» و«المروني» و«الحورش» و«الفسيل» و«العنسي» و«الزّبيري» وغيرهم.

منشور الخالدي وما قاله يحيى الإرياني:

وانفجر الموقف في اليوم العاشر من شهر ذي الحجّة سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤٢م - فجر ليلة زفافي كما ذكرت آنفا - حين استيقظ أبناء صنعاء على همسات «منشورات» خطيّة وزعّها أثناء الليل «مجهولون» على أبواب العلماء والوجهاء والمساجد والمعاهد، وفيها انتقادات مريرة وشديدة اللّهجة لتصرفات الإمام يحيى وحكومته، بل ومناشدة للشعب أن يثور.

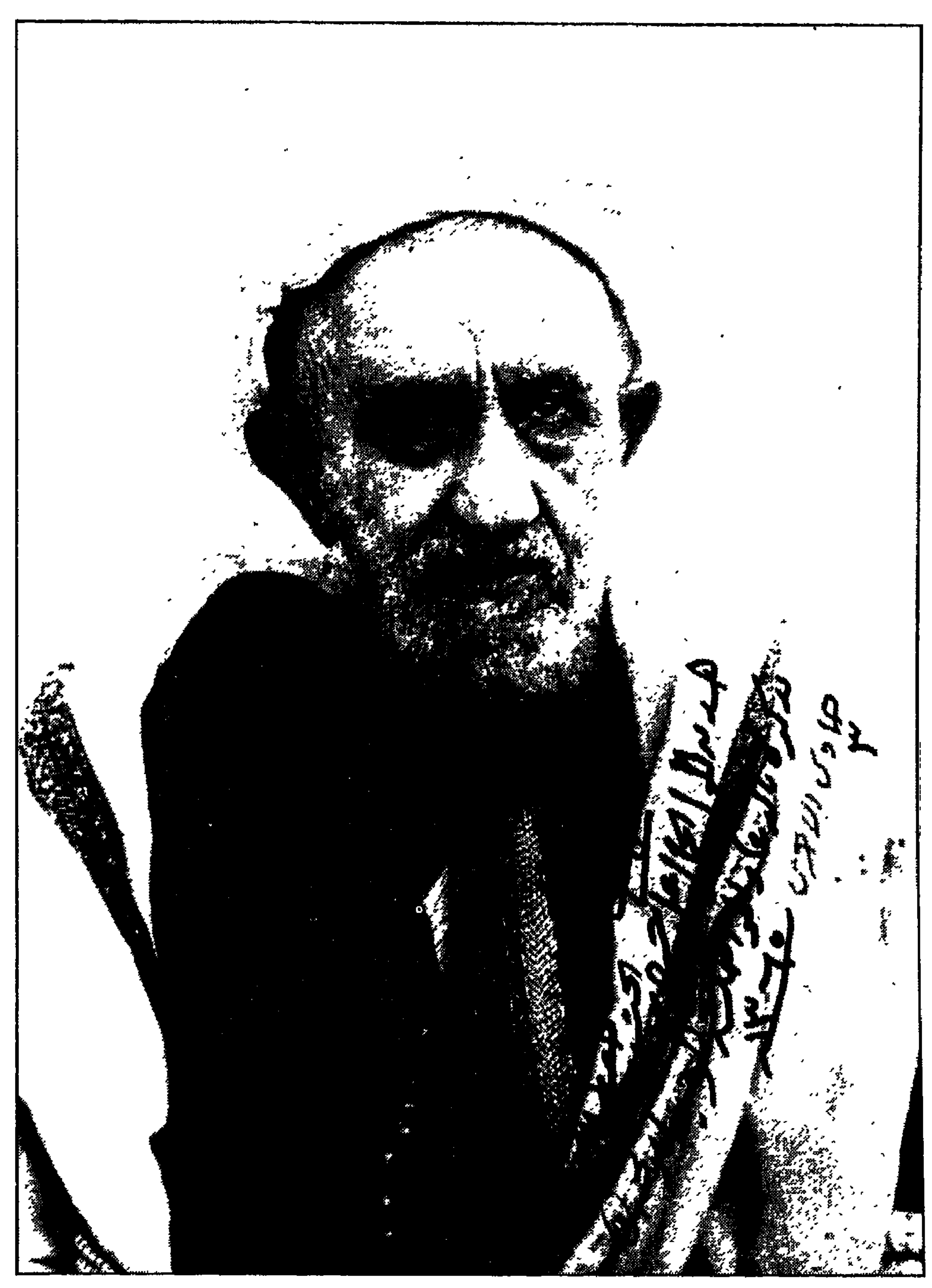
وكنت في طريقي - صباح ذلك العيد إلى السيد عبدالرحمن الشامي في بير العزب للتسليم عليه وبصحبة السيد محمد زبارة والقاضي يحيى الإرياني - وكنا قد قرأنا المنشور - وحين حاذينا «دار الشكر» - قصر الإمام - قال القاضي يحيى هامساً: «يقولون: إذا استطاعت الأمة أن تقول استطاعت أن تفعل».. وفي اليوم التالي أُلقي القبضُ على جاري القاضي محمد الخالدي بتُهمة انّه كاتب المنشور

وموزّعه، وزُجّ به في سجن «القلعة»، وكنت قد بدأت أكتبُ قصائد وطنية؛ أجاري بها حافظ ابراهيم، والرصافي وانتقد بها الظلم والاستبداد، فخِفتُ حين رأيت الجند يفتّشون بيت جاري الخالدي؛ فأحرقت تلك المجموعة الشعرية التي سميتها «أنات ودموع».

نفي وسجن الأدباء والنزوح إلى تعز:

وسرت موجة الاعتقالات، وحشروا إلى سجن «غمدان» و«الرادع» كلاً من «محيى الدين العنسي» و«أحمد الحورش» و«أحمد المروني» و«عبدالله السلاّل» و«أحمد محبوب» و«أحمد المطاع» ونُفي إلى سجن «الأهنوم» كل من «محمد محمود الزبيري» و«محمد قاسم أبوطالب» كما ساقوا «محمد الخالدي» إلى قلعة «وَشحَة»، وساد الرعب، وزاد التبرّم، وشعرتُ مع بعض الزملاء بأن دورنا وشيك، وأن الواجب الوطني يحتّم علينا أن نعمل شيئا وكنتُ في حالة نفسيّة ذكرتها في فصل «العمامة والزواج»؛ ورحلتُ إلى «المسقاة»، ثم إلى «تعز» وازددت من اختلاطي بالشعراء والأدباء والمفكّرين هناك توتّرا وتبرما، وضيقاً بالأوضاع، ثم عدت إلى «صنعاء» بعد بضعة أشهر، آملا أن يحصل الوئام بيني وبين زوجتي، فلم يحصل شيء، ولفّتني الخيبة في لجة موحشة من اليأس؛ فهربت من «صنعاء»، وهاجرت إلى «تعز» وازداد نشاطي الأدبي والشعري، وتعرّفت على الشاعر ابراهيم الحضراني، وخرج الشاعر محمد محمود الزبيري من السجن بعد أن اكتسب عطف الإمام يحيى وإشفاقه، بضراعاته الشعرية الرائعة، وبعد أن اشترك في الشفاعة له سيف الإسلام أحمد «ولي العهد» وانضّم الزبيري إلى مقام «السيف أحمد» وكوّنا جوقة شعرّية، كان من أفرادها إلى جانبي مع الحضراني محمد محمود الزبيري، وأحمد عبدالله السّالمي، ومحمد نعمان القدسي، وعبدالله عبدالوهاب نعمان، ويحيى منصور، وزيد الموشكي، وآخرون، وكان لتلك «الجوقة» بما ابدعته من ألحان آثارها في مسيرة مواكب الأدب اليمني حينذاك؛ ثم جدّت أمور وحدثت مشاكل سبّبت نزوحي إلى «عدن» مع زيد الموشكي، وشاركنا الأستاذ أحمد نعمان، والأستاذ محمد الزبيري، اللذين سبقانا بالفرار إلى «عدن» بحوالي أسبوع.. في تأسيس «حزب الأحرار» وقد كان النزوح إلى «عدن» في مطلع شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣هـ/ مايو سنة ١٩٤٤م

آه: ها أنا أُجَرْجَرُ ودون شعور ولا قصد، إلى التحدّث والكلام عما كنتُ لا أريد أن أتحدّث عنه؛ «المواقف الوطنية والسياسيّة» ولا شك أنّ عليّ أن اتحدّث عنها ولاسيما وقد امترست فيها الأقلام والألسن، ولكنني حريص أن أوكّد بأنّي الآن لا أخطىء، ولا استصوب موقفاً ما من تلك المواقف، ولا أفنّد ولا أؤيد جانبا معيّنا، أو شخصاً ما، من المسؤولين عن تلك الأحداث، ولا أورد ما أورد، أو أصف ما أصف، مُتباهياً، ولا مفاخراً، ولا ناقداً ولا شامتاً، ولا مخطئاً ولا مُصوّبا، ولا مسروراً، ولا نادماً، ولا متحاملاً على قوم، ولا راضيا عن آخرين، ولا معتزّا بما عملتُه، ولا آسفاً على مالم أعمله، فكل ذلك ليس من حقّي؛ وأنا إنّما أتحدث عما جري لي، وعما شاهدته، وعمّا سمعته، والحكم على تلك الأحداث وهل كانت خيراً أو شراء خطأ أو صواباً ــ ولا سيما وقد جدّت أمور وحصلت أحداث،



رئيس محكمة «الاستئناف» عام ١٣٦٠ هـ السيد العلامة زيد بن علي الديلمي وهو الذي رأس اللحنة التي حققت في برناح «جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اثر اعتقال الأستاذ محمد محمود الزبيري ورفيقه السيد محمد أبوطالب الخطيب.

وطرأت تطوّرات، اضطربت فيها الموازين والمقاييس، وتغيّرت بها المفاهيم والقيم.. لم يَعُدْ من حقي ـــلوحدي ـــ أو من حق غيري ـــ مستبدا ـــ فيحكم أو يجزم بما كان صوابا وخيرا، وما كان خطأً وشرّا. فالصّواب والخطأ في مثل هذه الأمور ممّا يسمونه مواقف سياسية، ومكاسب وطنية، ليس مقصوراً على فئة معينة، وإنما هو موزّع على كثير من الفرقاء والأنداد وعند الله تجتمع الخصوم.

نعم؛ لي الحقّ ـــ كلّ الحقّ ـــ أن أدّعي، أو أزعم؛ أنّني كنت أحبّ فلانا وأؤيده، وأعتزّ بانضوائي تحت لوائه، أو وقوفي بجانبه.. كما أنّ لي الحق ـــ كل الحق ـــ أن أزعم، أو أدّعي، بأني كنتُ أكره فلاناً، ولا أطمئنّ إليه، ولا أرضى عن أعماله، وأنّني عارضتهُ، وخاصمته، ونازعته، لي الحقّ أن أقول، وأن أزعم وأن أدّعي كلّ ذلك. ولكن ليس من حقّي ـــ لوحدي ـــ أن أزعم، أو أقول، أو أدّعي بأنني ـــ لوحدي ـــ كنت المصيب، وأنّ من لم يعمل عملي كان مخطئاً، وآثماً في نظر التاريخ.. ولا سيما في هذه الأمور التي نسمّيها مواقف سياسية ووطنيّة ممّا لا شأن له بأصول الدين وواجباته، ولا علاقة له بالأحكام الثابتة بنصوص قطعيّة.. لأن معظم ما يمارسه الناس، ويتعاطونه، ويتعصبون له، مما يسمونه؛ مكاسب وطنية، ومواقف سياسية، وفي هذا الزمان الذي نعيشه في الشرق منذ ستّين عاما لا صلة له بما أنزل الله، ولا بما لايجوز فيه خلاف؛ بل مسائل اجتهادية، وآراء دنيوية، وتنازع على البقاء والسّلطة.. الأقرب إلى الخير والصواب منه.. ما كان أقرب للتقوى! وحين أقول هذا وأكرّره فلَيس لأني أعتز أو أفاخرُ بمن وقفتُ معه، ولا لأني أندم لخروجي على من خرجتُ عليه؛ لأنّني كنتُ ـــ وما زلت ـــ أتحرّى الصّواب جهدي، ولم أقم بأيّ عمل إلاّ وأنا مقتنع بأني أعمل صوابا! ولذلك أنعم الله عليّ بالاطمئنان والرضى، وما تكشّف لي مع الأيام خَطَأهُ، أو أنني قد جانفت الصواب حين قارفته؛ فلا أستنكف، ولا أتردّد أن أعترف به، وأقول: اللّهم إنك تعلم وتشهد أنّي عملتُ هذا وأنا اعتقده صوابا يرضيك؛ فاغفر زلّتي إنك أنت الغفور الرحيم، فيترشّف ضميري ندى الاطمئنان؛ وراحة الرضوان.

لا أريد أن أتباهى أو أفاخر بأني من رجال ثورة الدستور سنة ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ وأني كاتب ميثاقها، وأنّي كنت أول صوت أعلنها، وآخر صوت دافع عنها، ولا بأني جُرْجِرتُ إلى السجون من أجلها وتعرضت للمنون مرارا.. فلئن كان ذلك خيراً وصواباً فسيقوله المؤرخون، ولئن كان شراً وخطأً فسيتحدث عنه المؤرخون أيضا.. وقد تختلف أحكامهم وتتناقض تقديراتهم، باختلاف أمزجتهم، وثقافاتهم وأهوائهم.. ولكنّني أريد أن أؤكد بأنّني أتحمّل مسؤولية كل موقف من تلك المواقف، وأني قد وقفتها راضياً مختارا؛ وأن أقول أيضاً بأنّي قد فعلتُ ما فعلت، أو قلت ما قلت وأنا مقتنع بأنه الحق والخير والصواب لنفسي وقومي وبلادي، بل ولو عدتُ إلى نفس الزمان وبنفس الموازين والمقاييس والعقلية التي كنت أزن وأقيس وأعقل بها الأمور والأحداث والمبادىء لما عملت إلاّ نفس العمل. أمّا أن أتباهى وأفاخر بذلك فلا يحق لي، ولا يليق بمثلي، ولا فائدة منه لا لنفسي ولا لبلادي، وقد أصبح ما كان ملكا للتاريخ.

وكل المواقف الوطنية، والسياسية أحداث يختلط فيها الحق بالباطل والخطأ بالصواب، والتاريخ

وحده ـــ وعندما يأتي المؤرّخون الأكثر تجرّدا ـــ هو الذي يستطيع الحكم عليها أو لها ، وستكون بين أيدي المؤرخين والنقاد بوثائقها وصورها .

ثم إنّ هناك ما يدركه العقلاء ؛ وهو أن معظم تلك المواقف والأحداث التي ينتصر فيها المرء أو ينهزم ، يصاحب فيها الألمُ والأسى البهجة والسرور ، ويمتزج فيها كبتُ القَهْر بنشوة النصر ، إذ لا فوز لجانب إلاّ بخسران جانب آخر ، ولا سرور بنجاح فرد أو قوم إلا بترّح فشل فردٍ آخر ، أو جماعة آخرين ؛ ومن الغرور والحماقة في نظري ـــ والمرء يكتب للتاريخ أن يتباهى بانتصاره على خصمه ، أو فوزه ضدّ منافسه ؛ أو أن يختلق الأعذار ليبرّر فشله أو هزيمته ، أو يتخلّص من مسؤولية أخطائه أو غلطاته أو تقصيره ويحمّل تبعة كل ذلك سواه ، أو أن يفاخر بحيله السياسية ، وتلاعبه ومهارته ، ولكل ذلك سببٌ وثيق بالمكر والخداع مما تأباه القيم السامية والمثل العليا ، وتنكره مكارم الأخلاق ، ولذلك قال الإمام علي عليه السلام « ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى النّاس » .

٦ - كتابة التاريخ وحظ اليمن منه :

تُعد اليمن في طليعة الأقطار العربية التي اهتمت بتسجيل أنباء وأحداث تاريخها في الجاهلية والإسلام ؛ بل لن أبالغ إذا قلت إن أمةً من الأمم لم تحتفظ بتاريخها مثل اليمن ؛ نقشا على الأحجار والصخور ، أو كتابة على الجلود والأوراق ؛ وإذا كان قد فقد منه ، أو ضاع الكثير ، وذهب ضحية الفتن ، وكوارث الزمن ، فمالا يزال منه مطموراً ، أو مغمورا ، ومهملاً أو مقبورا كثيرٌ جليل .

وما من حادثةٍ وقعت ، أو واقعة حدثت ، ولا من كارثة حلّت ، أو مصيبة نزلت ، أو نعمة عمّت ، أو نقمة طمّت ، إلاّ وقد نحتها إزميل ، أو سجّلها يراع .

وما من زعيم لَهُمْ ، أو ملك أو رئيس ، سواء كان ظلوماً غشوماً أو عادلاً كريما إلا سجّل اليمنيون آثاره وكتبوا أخباره ، ولا من عالم أو حكيم أو فقيه أو شاعر إلاّ وله ترجمة ، وحديث في كتبهم ودفاترهم .

وكلّ ذلك معلومٌ معروف وما كان لي أن أتعرّض لذكره وأنا أسرد فصول حياتي ، وأروي بعض ذكرياتي ، لأنّي كما قلتُ مراراً ، واكدت تكراراً ، لم أقصد بها أن أكون مؤرّخا ؛ بل واصفاً أو شاهدا .

غير أن استطرادي في نهاية الفصل السابق لذكر التاريخ ؛ وأن على « المؤرخ » ألاّ يتباهى بانتصار أو فوز ، وألاّ يشمت باندحار أو فشل ، وأن من يكتب ذكرياته ، أو يؤرخ لأحداث حياته ، عليه ألاّ « يختلق الأعذار ليُبَرّر فشله أو هزيمته ، أو يتخلّص من مسؤولية أخطائه أو تقصيره ، ويحمّل تبعة كل ذلك سواه » .. قد صادف عند المراجعة والتحضير نبأ انعقاد « ندوة تاريخية » ، أقامها مركز الدراسات والبحوث اليمنية يوم السبت ١٩/٥/١٩٨٤م ـــ ١٩/٨/١٤٠٤هـ ، ثم ما قرأته بعد ذلك لبعض أدباء اليمن عن هذه « الندوة » وعما يتوقعونه منها ، وعن آرائهم فيما كتبه بعض المؤرخين والكتاب عن اليمن وتاريخها المعاصر ، وما وقع فيه البعض من أخطاء ، وتعمّده البعض من تحريف وادعاءات ، أو

تزو ير وأكاذيب ، وكأنّ التصحيح هو الهدف والغاية من انعقاد تلك الندوة ؛ إذ قد جاء في ملحق جريدة الثورة الخميس ١٩٨٤/٥/١٧م ما يلي :

ندوة تاريخ الثورة اليمنية :

«يقيم مركز الدراسات والبحوث اليمنيّة ندوة حول تاريخ الثورة اليمنية يفتتحها الأخ رئيس الجمهورية القائد العام للقوات المسلحة ، الأمين العام للمؤتمر الشعبي العام ، وذلك في يوم السبت المقبل الموافق ١٩٨٤/٥/١٩م .

وذلك ضمن اهتمامات المركز لتصحيح مسار تاريخ الثورة اليمنية المستند على مجمل الوقائع الصحيحة لمرحلة الثورة اليمنية ، في محاولة لِتجنيب هذا التاريخ المجيد ما يعتوره من الأخطاء اللاّمقصودة ، والحشو ، والادّعاءات ، التي سمعناها ، وقرأناها على امتداد تاريخ الثورة السبتمبرية حتى الآن» . والإعلان عن هذه « الندوة التاريخية » في جريدة « الثورة » التي هي شبه رسميّة ، و يقال إن ما ينشر فيها يمثّل وجهة نظر الدولة ، والقول بأن المطلوب من « كلّ من أسهم وشارك في الثورة بقليل أو كثير» ؛ أن يقول شيئا يُرسي به معالم رحلتها لتجنيبها بعض الحذلقات والادعاءات» وان ذلك «يُعدّ خطوة صحيّة على طريق التصو يب وتقديم تاريخ الثورة ناصعاً نقيّاً لأجيالنا القادمة» .. يعني الاعتراف بأن اخطاء غير مقصودة ، وأنّ حشواً وكلاماً لا فائدة منه ودعاوى باطلة ، وحذلقات تافهة قد اعتورت ذلك التاريخ «سمعناها وقرأناها» خلال العشرين عاماً المنصرمة عمر الثورة السبتمبرية المجيدة حتى الآن.

وقد تعمد هذا الإعلان إغفال أسماء الذين مارسوا الأخطاء .. «غير المقصودة» ، أو « الحشو، والادعاءات ، والحذلقات» عندما كتبوا عن الثورة أو أرّخوا لأحداثها ، وتركتْ ذلك للأدباء والعلماء والمؤرخين ، الذين سيتحدثون في « الندوة التاريخية » ،

ولم أقرأ حتى الآن شيئاً مما قاله المشاركون في الندوة ، يحدّد أولئك الذين لم يلتزموا الصدق والحصافة والأمانة التاريخية ، ممن كتَبَ عن الثورة ، أو غيرها من أحداث التاريخ اليمني القديم منه والحديث ، وقد صدرت عدّة كتب في هذا الموضوع وذلك بالرغم من أنّ الكثيرمن كتاب وأدباء اليمن يقرّون ما أقرته جريدة الثورة من أن التاريخ اليمني قد اعتورته الأخطاء ، والحشو والادعاءات والحذلقات بل وما هو أدهى وأنكى من ذلك؛!

رأي الأديب عبدالكريم الخميسي:

وفي جريدة الثورة ليوم السبت ١٩٨٤/٥/١٩م كتب الكاتب الأديب عبدالكريم الخميسي ما يلي :

« كتابة التاريخ مهمة ليست سهلة ، وتحليل الثورات والحركات الوطنية ثم الحكم لها أو عليها مسؤولية تحتاج إلى قدر كاف من التجرّد والأمانة والصدق .. وقد تعرضت حركتنا الوطنية ــ مؤخراً ــ للكثير من الانتهاكات المغرضة ؛ وأصبحت ثورتنا السبتمبرية الخالدة نهباً لكل حاطب ليل ..!! الأمر الذي دفع نخبّة من المثقفين الوطنيين الأ وفياء إلى التحرك السريع لإعادة الاعتبار لتاريخ الثورة اليمنية

وتنظيفه من «طراطيش» بعض الأقلام الأنانية السوداء!»

«وها هو الأخ الرئيس القائد الأمين العام يفتتح اليوم الندوة التاريخية الهامة، في مركز الدراسات والبحوث اليمنية كخطوة إيجابية في سبيل صياغة علمية موثقة لتاريخ حركتنا الوطنية الرائدة.. تحت شعار الصدق مع النفس ومع الآخرين.. فمرحباً بهذه الندوة القيّمة.. ولنتخذ من التاريخ حافزاً لنا لا عبئا علينا»!

فالشاعر الكاتب «الخميسي» قد أقرّ ما أعلنته جريدة الثورة وزاد عليه أن الحركة الوطنيّة قد تعرّضت للكثير من «الانتهاكات المغرضة» وأصبحت الثورة «نهبا لكلّ حاطب ليل»! وأن على المثقفين الأوفياء التحرّك السريع «لاعادة الاعتبار لتاريخ الثورة اليمنية وتنظيفه من «طراطيش» بعض الأقلام».

ولكنه أيضاً لم يضرب مثلاً ولم يذكر اسماً ولم يحدّد كتابا.

رأي المرأة اليمنية:

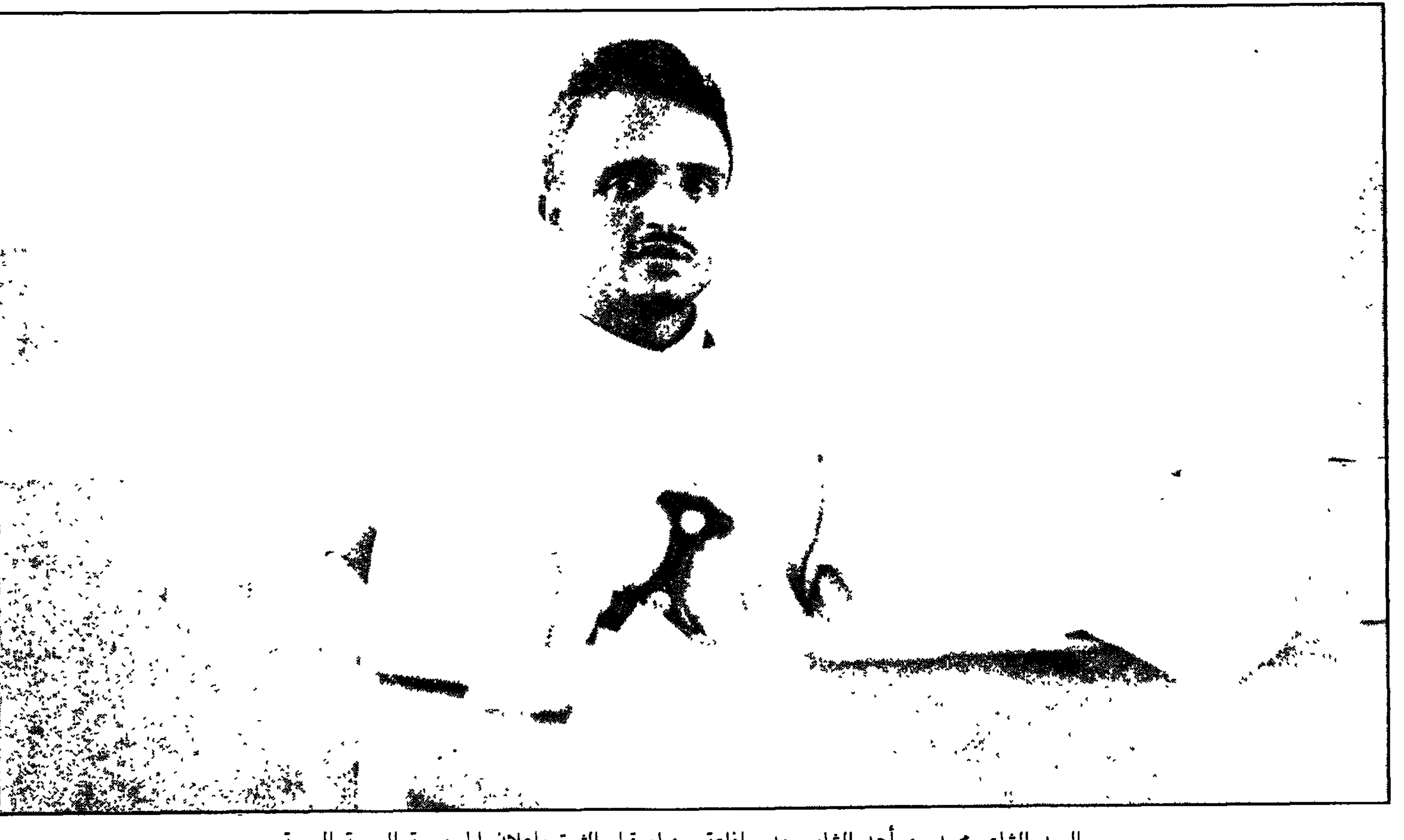
وكانت الكاتبة الأريبة السيدة بلقيس الحضراني قد كتبت في نفس عدد السبت ١٩/٥/١٩٨٤ مقالاً بعنوان «تداعيات من وحي تاريخ نضالنا اليمني» جاء فيه:

«وحرصاً على «صون» هذا التراث الوطني والحفاظ عليه، ولكي لا تطاله أيدي العبث، أو التفسيرات والتحليلات القسرية، آمل أن يسارع الجميع؛ أباء وإخوة ممّن كان لهم شرف المساهمة في صنع مسار «التاريخ الوطني»، ألاّ يبخلوا على الوطن، ولا على الأجيال القادمة سواء بالذكريات أو الوثائق أو بالاجابات المكتوبة.. كما آمل أن يخرج الذين اختاروا الصمت من عزلتهم؛ فالصمت عدوّ الحقيقة والشعوب.. إننا نحمّل آباءنا واخواننا مسؤولية توثيق هذا التراث الوطني ونحمّلهم أمانة صدق الكلمة وتوخّي الموضوعية؛ وهم خير من حمل الأمانة».

و بلقيس الحضراني التي تمثل المرأة اليمنية المثقفة بهذا النداء أو الاستصراخ قد أقرّت اعلان جريدة الثورة من أن التاريخ اليمني قد اعتورته الأخطاء والحشو والحذلقات والدعاوى، وما أشار إليه «الخميسي» من «الانتهاكات المغرضة» و«طراطيش بعض الأقلام» وزادت في صرامة «الأمّ المصلحة» التنديد بما سمته «العبث؛ أو التفسيرات والتحليلات القسرية».. ثم مناشدة «الآباء والإخوة» بأن يخرجوا من «عزلة الصمت» «عدوة الحقيقة والشعوب» وقد شعرت أنها تعني أباها ابراهيم، وعبدالرحمن الإرياني، وأحمد نعمان، وهذا العاجز، الذي يقول لها: لبيّك لبيّك يا بلقيس وهذا جهد المقلّ.

رأي الشاعر المروني:

ثم يبرز الشاعر الأديب زميلي في السجن والجلد الأستاذ أحمد المروني فيكتب مقالاً نشرته جريدة «الثورة» صباح الاثنين ٢١/٥/١٩٨٤م — ٢١ شعبان ١٤٠٤ هـ عنوانه «عندما يُكتَبُ التاريخ بدم الشهداء.. يستحيل تزييفه» جاء فيه ما يلي:



السيد الشاعر محمد بن أحمد الشامي مدير إذاعة صنعاء قبل الثورة وإعلان الجمهورية العربية اليمنية.

« وهنا لابد من وقفة أمام ما قد نشر من دراسات وملاحظات حول « تاريخ الحركات الوطنية في اليمن » مقدّرين لمن حاولوا بحسن نية أن يقدموا للناس صورة مما حدث في اليمن منذ مطلع القرن العشرين إلى ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ؛ ومتمنين لمن لا زالوا يكتبون، و يستلهمون الوقائع الصحيحة، ويجمعون شذرات الشواهد من هنا وهناك؛ أجل متمنين لهم التوفيق؛ ونناشدهم التروّي والاستقصاء وعدم المجازفة في الاستنتاجات المبتسرة التي لا تقوم على يقين، أولا تستند إلى دليل » !

« كما نقول للذين في نفوسهم شيء على من سبقوهم بالفضل، ونالوا شرف الاستشهاد: « رو يدكم فأنتم اليوم تكتبون من وحي حساسية عمياء، وأغراض شخصية تافهة؛ وغدا سيُكتَبُ عنكم بمالا تحبّون، وستتعرّضون للنقد والتفنيد، لأنكم سننتم سنة سيئة في تناولكم لمن لقوا الله، ولم ترعوا فيهم ذمةً ولا حرمة، وصرتم تأكلون لحومهم ميتة وتنهشون سيرتهم بلا مراقبة ولا مراعاة، وكما يدين الفتي يدان » ! وهذا حسن ظنّ مفرط؛ كأنه يخاطب قوماً لايعلمون ما يفعلون!.

ثم عرّض بكاتب لم يذكر اسمه، ولا أشار إلى كتابه أو مقالته التي جعل فيها « من الإمام يحيى بطلاً وطنياً » و« من الأحرار عملاء للاستعمار» قائلا: « إن من يفعل ذلك لا اعتقد أنّ في قلبه ذرة من مروءة، ولا في عقله لمحة من رصانة، ولا في قلمه نفثة من صدق » .. ولا أدري من يقصد؛ وليته أبان! ثم عرّض بآخر، أو بآخرين فقال:

« وإنّ من يحاول أن يقسّم الشعب اليمني إلى طوائف وفرق وهو يعلم بأنه شعب متكامل الشخصيّة، ضارب في تلاحمه وتجانسه وانصهاره في أعماق التاريخ؛ فهو شعب عربي أصيل زاده الإسلام قوة وتقى » ؛ وسكت ولم يقل له شيئاً كأنّه كان يريد أن يقول له ما قاله لصاحبه؛ ولم يصرّح باسم أحد منهما ثم استطرد قائلا: واحسبه هذه المرة يعني الدكتور البيضاني:

« وكذلك نريد أن نقول لمن يحاول أن يظهر بمظهر المناضل، والوطنّي المخلص، وهويلفق في كتاباته كلاماً تافها، و يصوّر نفسه شيئاً عظيما، وهو يسيء إلى القيم، و يؤذي الشهداء في الملكوت الأعلى بسخافاته وافتراءاته كما يثير اشمئزاز الأحياء بهرائه ومفترياته؛ نريد أن نقول لمثل هذا:
« ما هكذا تورد ياسعد الإبل » فالناس الذين تتحدّث عنهم لهم عقول واعية، ولهم ثقافة متوازنة، وهم أحياء يستطيعون أن يفنّدوا المزاعم و يكذّبون الافتراءات، والشواهد معهم كثيرة، والجماهير التي تعرفهم واقفة بصفّهم؛ وكلمةُ الحقّ هي العليا » .

والصديق السيد أحمد حسين المروني قد ضاق بما ضاق به الكاتب « الخميسي » والأديبة « بلقيس » وعرّض « بالمجازفة في الاستنتاجات المبتسرة التي لا تقوم على يقين، ولا تستند إلى دليل » والتي لاشك أنه قد لاحظها في كتابات من كتبوا عن « الحركات الوطنية في اليمن » ، وناشد من لا يزالون يكتبون، ويجمعون شذرات الشواهد بالتروي والاستقصاء . وقد قلت: إني أظن أنه عنى بالمقطع الأخير من مقاله الدكتور المزيّف عبدالرحمن البيضاني لأن السيد المروني كان ضمن من لفّق عنهم الأكاذيب

والافتراءات والغمز واللمز أمثال الأساتذة احمد نعمان، وعبدالرحمن الإرياني، وأحمد جابر وحسن مكي وغيرهم. ولا أدري لماذا لم يكن صريحاً! ولا فنّد خزعبلات وأكاذيب البيضاني «بالشواهد» التي هدّده بها!

رأي الدكتور المقالح:

ثم يأتي مدير مركز الدراسات والبحوث اليمنيّة الذي نظّم «الندوة التاريخية» وأشرف على ادارتها الأستاذ الشاعر الدكتور عبدالعزيز المقالح مدير جامعة صنعاء فيقرّ كل ما قاله من أشرنا إلى آرائهم، في تعليق نشرته جريدة «الميثاق» يوم الثلاثاء ٢٢ شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٢ مايو ١٩٨٤م قائلاً:

«ومن يتمكن من زيارة مركز الدراسات و يتابع الندوة المفتوحة وما يدار فيها من أحاديث عن الثورة، وما يراه من إقبال للمواطنين في تقديم ما يحتفظون به من وثائق، يدرك مدى وعي الشعب وحرصه الكبير على حماية تاريخ الثورة من العبث والتزييف والتحريف الذي بدأ يظهر منذ فترة في بعض الكتابات غير المسؤولة وغير الأمينة».

«ومن الواضح أن أي تشويه لبعض الوقائع والأحداث التي مرّت ببلادنا طوال سنوات هذا القرن؛ سواء كان مقصودا أو غير مقصود، لا يسيء إلى ما مضى من تاريخنا وحسب، وإنما يسيء إلى تأريخنا الراهن، وإلى تاريخنا في المستقبل».

«وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن أهم خصائص الأمم الحية تتجلّى في اهتمامها بتاريخها وبتمحيص الحقائق، وما أصدق قول الشاعر:

مَثَلُ القوم نسوا تاريخَهمْ   كلقيط عيّ في الناس أنتسابا»

وبقدر ما في هذا الكلام من الصدق والموضوعية، فيه من الإهمال، وما يثير الحيرة، إذ أنه كان سيكون أكثر فائدة ونفعا لو أن الدكتور حدّد، وميّز، وعيّن، وسمّى «الكتابات غير المسؤولة وغير الامينة»! وأين بدأ يظهر «العبث والتزييف والتحريف»؟ وما هي الكتب التي شوّهت فيها «الوقائع والأحداث» طوال سنوات هذا القرن؟ لأن بين أيدينا منها الكثير والاجمال يُربك طالب المعرفة، وتعمّ بلواه ودعواه!

ولم يكتف الدكتور المقالح بهذه الإشارة العابرة بل كتب مقالاً مطوّلاً في جريدة الثورة الثلاثاء ١٩٨٤/٥/٢٢ تحت عنوان: «من التوثيق الشفوي إلى كتابة التاريخ».. وهذا نصه:

«لا يوجد شعب في الدنيا بأسرها ناله من الظلم والقهر في الماضي البعيد والقريب ما نال شعبنا، ولا يوجد في الدنيا شعب تعرض تاريخه للتزييف والتحريف كما حدث لتاريخ شعبنا، ولكنه بدلا من الشكوى والوقوف على اطلال الماضي للبكاء على ما حدث ينبغي البدء في تصحيح ما حدث والوقوف من جديد في محاولة جادة ومخلصة وأمينة لتجميع المصادر الأولية والشهادات الشخصية عن المرحلة التي عاشها الأحياء من الآباء والأشقاء الذين شاركوا في أحداثها أو اقتربوا من هذه الأحداث».

«ولا ريب أن الاختلاف الموضوعي حول بعض الوقائع وأحيانا حول بعض الأشخاص قضية عامة

وربما وصلت إلى مستوى المشكلة العامة التي تعاني منها كل الشعوب لكن ما حدث في هذا الشعب كان مختلفا ولا يمكن مقارنته بما حدث في أي قطر من الأقطار أو أي شعب من الشعوب، لقد اختفت اليمن، اختفى شعبها طوال نصف قرن،

وحاولت قوى عابثة ومظلمة النفوس أن تنسب كل انتصار حققه الشعب ابتداء من مقاومة الدخلاء والطامعين في القرن الماضي لصالحها ولمجدها الشخصي الأمر الذي فتح أبواب التزييف والادعاء واسعا وربط قضية التاريخ في بلادنا بالأوهام والأساطير والجن والعفاريت.. ومالم تبدأ حركة المراجعة والتصحيح التاريخي من الآن فإن المتاهة سوف تتسع واختلاط الأوراق سيزيد من أمر التعتيم.

وقد يظن البعض أن ما يجري الآن في مركز الدراسات والبحوث اليمني هوتدوين للتاريخ أو إعادة لكتابته، وهو ظن خاطىء لأن المركز لا يملك الحق في كتابة التاريخ وما يقوم به الآن ليس إلا عملية توثيق وجمع معلومات عن وقائع تاريخية بعينها، وسوف توضع هذه الوثائق والمعلومات تحت أنظار المؤرخين والباحثين، وسوف تخضع لتحليلاتهم وتقييماتهم الموضوعية التفصيلية إن كانوا ممن يوثق بهم وبضمائرهم.

ومن المعلوم أن كل عمل تاريخي تسبقه دائما عملية توثيق، وقد شرع مركز الدراسات والبحوث اليمني منذ بداية تأسيسه باجراء عملية مسح وتوثيق لأهم الأحداث الوطنية في بلادنا، وفي كل مرة يحاول أن يضيف جديدا إلى المادة الوثائقية سواء من خلال الأحياء الذين عاصروا الأحداث وشاركوا فيها أو من خلال الوثائق المكتوبة، وقد أكدت التجارب المتتابعة أن الوثيقة الحية الممثلة في الإنسان المعاصر للأحداث نفسه، هي في حالة الأمانة والتجرد من الذاتية والانحياز أهم الوثائق وأصدقها، وذلك ليس لغرابة الظروف التي مرت باليمن طوال النصف الأول من هذا القرن وحسب وإنما لاختفاء وسائل التدوين وتسجيل وقائع الأحداث كالصحافة اليومية مثلا، فضلا عن قلة عدد المتعلمين والقادرين على التدوين وانصراف بعض الكفاءات إلى أعمال التدريس أو القضاء، وانخراط بعضها الآخر في تيارات التمرد على الحاكمين مما عرض هذه الكفاءات للزج في السجون أو الضياع في المنافي. وأخشى ما نخشاه أنه بمرور الزمن تفقد الأحداث حيويتها وتفاصيلها في أذهان المعايشين، فالأيام تصيب الكثير من الأحداث بالضمور ولا يبقى منها إلا أبرز تفاصيلها، وفي أحيان كثيرة تكون التفاصيل الصغيرة في مجملها أكثر أهمية ودلالة في تحديد الوقائع واستقراء خفاياها.

لقد استمع مركز الدراسات في السنوات القليلة الماضية إلى كثير من الشهادات الشخصية التي تشكل بداية حركة التوثيق الشفوي لوقائع الثورة اليمنية، وما يحدث الآن ليس سوى استمرار وتواصل مع تلك البدايات تضيف إليها وتغنيها بالتفاصيل وبإلقاء أضواء جديدة على بعض الوقائع القديمة.. ولن يكتفي المركز بالتوثيق الشفوي وإنما ستقوم لجنة الاستبيان بتوزيع استمارات الأسئلة على المشاركين في المناقشات وسوف يرسل إلى الغائبين عن المشاركة للإجابة عليها وسوف تنشر بعد جمعها كما هي وسوف يقتصر التصحيح على الأخطاء اللغوية دون مساس بأية وجهة نظر».

«وتجدر الإشارة إلى أن عملية التوثيق العامة لا تخلو من تناقضات وتعارضات ولكنها رغم كل هذه التعارضات والتناقضات لا تجمع على شيء كما تجمع على سوء النظام الذي كان قائما في اليمن قبل قيام الثورة وفي التأكيد على الإجماع الشعبي في البحث عن نظام بديل يخرج بالبلاد والناس من حالة الجمود والقهر والتخلف، وقد كان النظام الجمهوري هو ذلك النظام البديل، النظام الذي انتظرته الأجيال وذهبت على طريقه عشرات الآلاف من الأ بطال والشهداء».

و بهذا البيان الرصين والذي يشرح منهاج «الندوة التاريخية» وإلى جانب ما اقتبسته من مقالات الأستاذين «المروني» و«الخميسي» والسيدة بلقيس الحضراني أكون قد استعرضت آراء من يمثلون الرأي العام الثقافي في اليمن عما كتب حول «تاريخ الحركات الوطنية اليمنية»؛ بل وعن «الوقائع والأحداث طوال سنوات هذا القرن» كما يقول الدكتور المقالح؛ وكلّها تجمع على أن في الكثير مما كتب «الأخطاء، والحشو، والادعاءات، والحذلقات، والانتهاكات المغرضة» و«طراطيش الأقلام الأنانية السوداء، والعبث، والتفسيرات والتحليلات القسريّة، والمجازفة في الاستنتاجات المبتسرة، وأكل اللحوم الميتة، بل والمزاعم والافتراءات، والتزييف والتحريف، والأ وهام والأساطير» وكل هذه الألفاظ قد وردت في مقالات من سبق ذكر اسمائهم. ولا اعتراض لي على شيء منها، ولا أرغب في أن أضيف إليها ما لو تكلفته لا ستطعته؛ غير أني أقول بأن تاريخ اليمن لم يكن وحده هو الذي ابتلي بما تعرّض له من تزييف وتحريف وافتراءات وأكاذيب وتزو ير في الماضي والحاضر، وخــلال الثلا ثين عاماً المنصرمة شاهدنا من التقلّبات، وقرأنا من العبر ما فيه مزدجر، ورأينا كيف تحوّل القديسون إلى شياطين، وكيف أصبح من كان بالأمس على كرسي السلطة يمجّد و يعظّم، و يقال له «المؤمن» و«الصالح» و«الملهم» و«الأ وحد» طريداً، أو شريداً، أو ملعونا أو مسحولا [سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا].

نقد الدّراية وخطورة التعميم:

وأودّ أن أذكّر بمالا يعزب عن بال عالم، وهو أن التزو ير قد يشمل الكثير مما نسمّيه مستندات و وثائق ولا سيما ما كان منها كتابة أو تصو يراً.. وأعرف أديبا كبيرا توفّاه الله كان يتقن تقليد الخطوط والتوقيعات بدقةٍ وابداع لا يخامر المطلع معهما أدنى شك في أن ما كتبه هو خط من يزعم أنّه خطّه من الأحياء أو الأموات! ولولا أنه كان ذا مروءة وعزّة نفس لفعل الأعاجيب؛ ولقد أطلعني مرّة على ورقة مكتوب فيها «إلى علي عبدالملك سلم لفلان (وذكر اسماً) ألف ريال» ومهره في أعلاه بتوقيع الإمام أحمد وسألني خط من هذا؟ قلت خط الإمام أحمد وتوقيعه.. فأخذ أمامي ورقة وكتب بنفس الخط: «إلى الشيخ الجمالي علي محمد الجبلي سلموا للولد «فلان» مبلغ عشرين ألف ريال وعليه القيام بكذا وكذا (وكلّفه بأمر خطير) وأفيدوا وختم الأمر بالسلام وأرخه.. واندهشت فقد كان الخط والتوقيع هما خط وتوقيع الإمام أحمد الذي أعرفه ولا يمكن أن يجحده أحد. و بعد أن أعملت الرأي قلت للصديق «الشاطر» لكن من يعرف الإمام أحمد ومن عاشره يجزم بأنه لا يقدم على إصدار مثل هذا الأمر كتابةً أوّلاً؛ وثانياً لم يكن من عادة الإمام أحمد أن يخاطب علي محمد الجبلي بلقب الشيخ الجمالي علي

الجبلي؛ بل بقوله: المحب علي الجبلي أو إلى الجبلي، وحاولت أن ازّيف الوثيقة المفتعلة والتي كتبها الصديق الشاطر رحمه الله أمامي بالعقل والدراية وهذا ما أود أن أنبه أو أذكّر مدير مركز الدراسات والمسؤولين فيه عن التوثيق به؛ وأمّا التصو يرفهم يعلمون جيلَه ولا يعجز من يزوّر الشيكات والعملات الورقية والجوازات الدولية عن تزو ير وثيقة تاريخية أومستند مكتوب، كما صنع الدكتور المزيف في جل ما سمّاه وثائق ومستندات في كتابه «أزمة الأمة العربية وثورة اليمن» وأعني «عبدالرحمن البيضاني» كما سبق أن أشرت في المقدّمة وكما سنوضحه في مكانه.. وإذن فما أصدق قول الدكتور المقالح في مقاله عن «التوثيق» «وقد أكدت التجارب المتتابعة أن الوثيقة الحيّة الممثلة في الإنسان المعاصر للحدث نفسه هي في حالة الأمانة والتجرّد من الذاتية والانحياز أهم الوثائق وأصدقها».

ومع ذلك فلابد من نقد «الدراية»

فقد عزّت الأمانة إن لم تكن قد رفعت.

وأما التجرّد من الذاتية والانحياز فأعزّ من بيض الأنوق، وأندر من الغراب الأعْصَم، والكبريت الأحمر، ومخّ البعوض.

وإلى جانب نقد «الدراية» أذكّر أيضاً بخطورة الاجمال والتعميم عندما ننقد فكرة، أو رأياً، أو أسلوباً، أو انحرافاً دون أن نسمّي ونحدّد ونعيّن صراحة اسم المخطيء أو المضلّل أو المنحرف لأن التعميم يربك طالب المعرفة، و يأخذ البريء بالمذنب، ويخلط الصواب والحقّ بالخطأ والباطل، ولذلك جهرت باسم البيضاني في المقدّمة وسأغتنم الفرصة فأستطرد ذكر بعض ما ورد في كتابه من دعاوى وأباطيل وأكاذيب عن ثورة اليمن ورجالها قبل أن استرسل في سرد ذكرياتي ولا أبالي إذا غضب عليّ الصديق الأديب عبدالودود سيف، أو لم يرض عن أسلوبي الكتابي بعض «المنهجيين».

فأيّ هكذا خُلِقتُ؛ ولكلّ شرعتُه ومنهاجه.

٧ - البيضاني وأكاذيبه على الأمة العربيّة وثورة اليمن:

والأكاذيب التاريخية لا تستطيع الصمود ولا تثبت أمام التحقيق والتدقيق؛ فكم حاول خصوم الإسلام تشو يه صورته، وكم تقوّلوا على رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام وعلى خلفائه الراشدين الأقاو يل؛ ولكن تشو يهاتهم وأقاو يلهم كانت تذهب سدى وكان يقيّض الله من يدحض شبهاتها، ولو ذهبتُ أضرب الأمثال لأطلت مكرّراً ما قد أسهب في شرحه وتبيينه من هو أكثر مني علما وأكبر قدراً، وأنصع بيانا؛ ولكن وأنا اتحدّث عن التباهي والتفاخر بالمواقف السياسية أو الوطنية واختلاط الحق بالباطل والخطأ بالصواب وافنّد أولئك الذين يختلقون الأعذار الواهية لتبرير فشلهم أو يحاولون التخلّص من أخطائهم ويحمّلون غيرهم تبعاتّها؛ وكنت قد كتبت ذلك قبل صدور كتاب الدكتور المزيف عبدالرحمن البيضاني: «أزمة الأمة العربيّة وثورة اليمن» فلما قرأته تأكدت من صدق ما أشرت إليه و وجدت المثل الحيّ لأجرأ مفترعلى تاريخ اليمن قديما وحديثاً فرأيت من واجبي تبيين بعض

تلك المفتريات ولا سيما عمّا مضى وفات، أو ضدّ من قد مات، أمّا من تناولهم من الأحياء فهم أقدر مني وأجدر على الردّ عليه.

دعاوى الدكتور المزيّف:

ولقد ذكرت في مقدّمة هذه الذكريات دوافع اهتمامي بكتاب هذا الدكتور المزيّف البيضاني، وأشرت إلى المثل السيء الحيّ الذي ضرب به بافتراءاته على تاريخ اليمن وزعمائها وأبطال حركاتها الإصلاحية؛ ودعاواه الجوفاء بأنه كان بطل ثورة سنة ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ ومؤسس جمهوريّتها، وداعية السلام فيها، وأنه الذي أوقف عمليّات القتل، وناشد بانسحاب القوات المصرية، وأنه كان يريد إنشاء علاقة ودّ واخاء بين اليمن والمملكة العربية السعودية، وأنّه.. مما صدّقه - أو تظاهر بتصديقه بعض الصحفيين المصريين؛ أو قد ينخدع به بعض السذّج أو من لا يعرفون اليمن؛ لأن كل يمني عارف بالأحداث، أو كان ممّن عاصرها ومارسها يعلم و يعرف علـم اليقين، ومعرفة من لا يخامره الشك، ان عكس ما رواه وادعاه وزعمه الدكتور البيضاني هو الذي حدث وكان. فانّه لم يندس في صفوف الدّاعين إلى الإصلاح إلاّ قبيل الثورة ببضعة أشهر بعد أن عزله الإمام وطرده من اليمن،وقصّة بطولته ونجاته من القتل الذي كان الإمام أحمد يدّبرها له محض افتراء،فلو كان الإمام أحمد يريد قتله لفعل ذلك علناً، ولما دبّر خطة اغتياله ولن يكون أصعب ولا أعزّ عليه من أخويه العباس وعبدالله والعشرات من رجالات اليمن؛ بل سيكون أسهل وأحقر من ذبابة.

والبيضاني لم يندس في صفوف دعاة حركة الإصلاح والذين خططوا للثورة إلاّ بقصد إفسادها وتوريط الجيش المصري فيما يريده له أعداء العروبة والإسلام، وهو الذي أثار النعرات العنصرية كالقحطانية، والعدنانية، والتعصبات المذهبية والطائفية من «شافعية» و«زيدية» وهو الذي دعا إلى قتل «الهاشميين» وشجّع عليه، بل وعيّن بعض أسمائهم من قبل قيام الثورة في مقالاته التي كانت تنشرها «روز اليوسف» و يذيعها راديو «صوت العرب» بأوامر المخابرات المصرية، وقد نفّذ معظم تلك المجازر دون رضا أو موافقة رجال الثورة وسببت خوف وانزعاج البعض فشردوا وعارضوا.

وكان قد تنبه إلى ذلك الأستاذ محمد محمود الزبيري وحذر منه في رسالته التاريخية التي نقلنا فقرات منها في المقدّمة.

والبيضاني هو الذي عرقل أي اتصال صداقة وودٍ مع جارة اليمن الشقيقة المملكة العربية السعودية.

وكما قلت إني لن أهتم بتفنيد أو تبيين افتراءاته على الحاضر وعلى الأحياء أكثر مما سأهتم بما مضى وفات، أو ما كذب به على من مات وفي المقدمة يبرز الصديق والزميل الشاعر الشهيد محمد محمود الزبيري لأنه كان أوّل من عرف هوية البيضاني وحذر زملاءه الأحرار من دجله وخداعه ومؤامراته.

ولقد حاول «الدكتور البيضاني» أن يمسّ الشخصية المحبوبة المحترمة «الزبيري» و يصفه بعكس ما عرف به من فضائل ولكنه لم يوفّق وكأن الله سبحانه قد أراد كشف خداعه للناس فجعله

ـــدون شعورـــ يناقض نفسه بنفسه .

اتهام «الزبيري» والأحرار بالجبن :

يقول «البيضاني» في كتابه ص ٤٣٦ ما يلي :

«لم يكن عدد القوات المصرية التي وصلت إلى اليمن حتى يوم الأحد ٢١ اكتوبر ١٩٦٢ قد تجاوز ألفي رجل بعد أن كانوا تسعمائة يوم الثلاثاء ٩ اكتوبر ١٩٦٢ وأخذ القلق يسيطر على عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وعدد من الوزراء حتى اقترح المقدم عبدالله جزيلان أن يسافر إلى مصر و يزور الدول العربية يشرح لها أهداف الثورة اليمنية و يطلب تأييدها ومساعدتها للثورة .

وما أن أبدى جزيلان اقتراحه حتى استحسنه وزير العدل القاضي عبدالرحمن الإرياني، وأيده وزير المعارف القاضي محمد محمود الزبيري، وتحمس له وزير الإعلام السيد أحمد حسين المروني، وأبدوا رغبتهم في السفر مع جزيلان لهذا الغرض الوطني .

كان من الواضح عند السلال وعندي أنهم يهربون من صنعاء عندما بدأت الأخبار المزعجة تصل من ساحات القتال، فتذكرت قصة الزبيري عندما ذهب إلى الرياض إثر انقلاب سنة ١٩٤٨ لإقناع الملك عبدالعزيز آل سعود، وترك الإنقلاب يواجه مصيره في صنعاء حتى فشل وتم القبض على زعمائه وإعدام بعضهم وسجن الآخرين، و بذلك هرب الزبيري برأسه وسافر من الرياض إلى باكستان حتى لجأ إلى القاهرة. تذكرت أيضا قصة الأستاذ نعمان عندما ترك إنقلاب سنة ١٩٥٥ يواجه مصيره في تعز وذهب إلى الحديدة لإقناع البدر ثم سافر إلى السعودية مع سقوط الانقلاب وإعدام زعمائه وعاد إلى الإمام أحمد الذي وصفه بأنه عينه اليسرى بعد أن وصف ابنه البدر بأنه عينه اليمنى .

لم يكن في وسع السلال أو في مقدوري أن نمنعهم من الهروب من اليمن لأننا لو رفضنا سفرهم وأبقيناهم معنا ضد إرادتهم فإن مشاعر القلق والخوف التي تسيطر على سلوكهم يمكن أن تؤدي إلى انتشار عدوى القلق والخوف بين غيرهم من أبناء صنعاء و بين رجال الحرس الوطني الذين يقومون بحراستنا، مما قد يزين لهم أن يقطعوا رأسينا تقربا إلى المستقبل المجهول الذي هرب منه أبطال الثورة».

فهو يحاول بمكر ودهاء أن يثبّت في ذهن القارىء الخالي البال أن الزبيري يتحمّل حظاً من مسؤولية فشل ما سمّاه انقلاب ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ لأنّه إنما ذهب إلى الرياض لينجو بنفسه «و يهرب برأسه» وترك الانقلاب يواجه مصيره في صنعاء «حتى فشل وتم القبض على زعمائه .. الخ» .

ولم يشعر البيضاني أنه بهذه الكذبة الصلعاء قد ناقض ما سبق أن اعترف به من أن الزبيري كان قد اقترح أن يسافر على رأس وفد إلى الرياض لاكتساب مودّة وصداقة المملكة ولا شك أنه كان ينوي أن يشرح للمسؤولين فيها أن الشعب اليمني وزعماء الثورة لا يثقون بالبيضاني، وأنه مفروض عليهم فخاف البيضاني وعرقل الرحلة التي قد تؤدي إلى تفاهم بين الجمهورية الفتية والمملكة العربية الشقيقة يقول البيضاني في ص: ٣٨٤ ما يلي :

« قال وزير الخارجية الأستاذ محسن العيني إنه على وشك السفر إلى نيو يورك للدفاع عن الثورة

والجمهورية أمام هيئة الأمم فوافقته على رأيه .

واقترح وزير المعارف القاضي محمد محمود الزبيري أن يسافر على رأس وفد إلى الرياض لإقناع الحكومة السعودية بالاعتراف بالجمهورية اليمنية ، فرويت للمجلس كيف أرسلت القائم بالأعمال السعودي برسالة إلى جلالة الملك سعود ولم تستجب الحكومة السعودية لمبادرتنا اليمنية ولذلك لم تعد هنالك جدوى من سفر الزبيري إلى الرياض فضلا عن تمتع الزبيري بعلاقات جيدة مع الكثيرين من القبائل اليمنية ، الأمر الذي يحسن معه أن يبقى في اليمن كي يستثمر هذه العلاقات في صالح الثورة » .

وهو بهاتين الروايتين قد قصد الدس ضد الزبيري وزملائه وقد نسي ـــ ودون شعور منه ـــ أنه قد سبق أن زعم قبل عشر صفحات فقط أمرين خطيرين مستغلاً اسم الزبيري ؛ فادعى ـــ أولا ـــ أنه أول من فكر في صداقة المملكة وإرسال وفد صداقة إليها ؛ وـــ ثانيا ـــ أن الزبيري لم يهرب إلى السعودية لينجو بنفسه ؛ أو « ليهرب برأسه » بل زعم أن المملكة هي التي احتجزته مع وفده حتى فشل الانقلاب . وكل ذلك كيدٌ منه ومكر ولكنه لا يدري أنّه يناقض نفسه ؛ يقول الدكتور المزيف في ص : ٣٧٦ ـــ ما يلي :

« عقدت اجتماعا لمجلس الوزراء وعرضت عليه تصوراتي الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تضع الأهداف التي أعلنتها الثورة موضع التنفيذ .

ربما كانت آذان الوزراء غير صاغية أو غير مستعدة للاستماع إلى أبعاد المعركة الحضارية حيث كانت مستغرقة في تأمل أبعاد المعركة العسكرية .

لعلهم كانوا على حق ، فقد كنت أعرض عليهم صورة جميلة لصرح حضاري بينما كانت الأرض التي سوف يقام عليها ذلك الصرح الحضاري تهتز من تحت مقاعدهم » .

« أو لعلني كنت مسرفا في الثقة عندما كنت أتحدث عن المستقبل الأفضل بينما طلقات الرصاص من حول صنعاء كانت تصل إلى آذان الوزراء وكأنني كنت أعزف أنشودة المستقبل على ألحانها ، مما جعلني أعيد ترتيب أولويات العمل فبدأت على الفور بالعمل على رفع الروح المعنوية بكل الوسائل الإعلامية ، مع الإسراع بإيضاح موقفنا السياسي والاقتصادي لدى المملكة العربية السعودية بعد أن أذاعت موقفها المؤيد للإمام الحسن ملكا على اليمن واستمرت إذاعتها في الهجوم على الثورة اليمنية حتى أسرعت الجماهير اليمنية الغاضبة إلى احتلال السفارة السعودية في صنعاء ، فقمت بنفسي بإخلائها من الجماهير واصطحبت معي القائم بالأعمال السعودي الشيخ اسماعيل المعنّى إلى مكتبي برئاسة الجمهورية وأكدت له أننا لا نريد أن نرد على الهجوم الإذاعي بمثله ، أملا في اقناع الحكومة السعودية بصداقتنا وحسن عواطفنا ، وأضفت أن قيادة الثورة تنوي إرسال وفد يمني على مستوى القمة إلى الرياض لتوقيع أية اتفاقية تراها الحكومة السعودية مطمئنة لها ، وأننا لا نرحب بانتقال الخلاف العربي إلى أرض اليمن ، بل يمكن أن نكون حمامة السلام في ذلك الخلاف ، وأن الذي يجعلنا نتردد في الإسراع بإرسال هذا الوفد هو تجربة انقلاب اليمن سنة ١٩٤٨ حين ذهب إلى السعودية القاضي محمد محمود الزبيري في

مهمة مماثلة فاحتجزته الحكومة السعودية حتى فشل الانقلاب».

«ثم رجوت القائم بالأعمال السعودي أن يتوجه إلى الرياض ليبلغ هذه الرسالة إلى جلالة الملك سعود، وقلت له إننا سوف نستدل على نجاح مهمته عندما تتوقف إذاعة السعودية عن مهاجمة الحكومة اليمنية، وعندئذ يتحرك الوفد اليمني إلى الرياض برئاستي، أما إذا استمر الهجوم الإذاعي الذي كان يدعو الشعب اليمني إلى قطع رؤوسنا فإننا سوف نضطر بكل أسف إلى مواجهة الموقف بمثله».

سلسلة من التناقضات والكذبات:

ولأن البيضاني لا يشعر أنه إنما كان يخادع نفسه و يفتري الكذب وتلك جبّلة المنافقين فها هو عندما أراد الخداع من جديد برز في هذا التناقض المزري؛ فلم يكتف بأنه قد كان يريد أن يرأس وفد صداقة إلى المملكة وأنه ما أرسل «الشيخ اسماعيل المعنى» إلا لذلك الغرض وأنه فقط يريد أن يعلم أن الوفد لن يحجز كما حجز وفد الزبيري سنة ١٩٤٨؛ ولأنه يدري أو لايدري أنه يغش و يكذب فقد استعمل نفس الحجّة مبررا لعرقلة اقتراح «الزبيري» في أن تبعث الجمهورية وفداً إلى المملكة؛ وليس ذلك فحسب بل إنه حين أراد الإمعان في التنديد باحرار اليمن ورجالاتها و يزعم أنّهم جبناء هرّابون قال: إنه تذكر قصة هروب الزبيري وهروب النعمان.

وإذن فقد كان يكذب على اسماعيل المعنى ويخادعه إذا صح أنه قد قال له ذلك الكلام.. كما كذب على مجلس الوزراء وخادعه وعرقل اقتراح الزبيري في ارسال وفد الصداقة والود والاخاء إلى المملكة وكل ذلك في الأسبوع الأوّل لقيام الثورة، ثم اخترع الأكذوبة الكبرى وهي أن «الزبيري» قد هرب وترك ثورة الدستور تواجه مصير الفشل.

سلسلة أكاذيب متناقضة لايستطيع التشدّق بها إلاّ من سفه نفسه.

موقف المملكة العربية السعودية من انقلاب ١٩٤٨(١):

ولا يسعني خدمة لتاريخ اليمن ودفاعاً عن الصدق والحق إلاّ أن اندّد بالافتراءات التي تقوّل بها ضد المملكة العربية السعودية الشقيقة فأنا أعلم أنها لم تهاجم الثورة اليمنية كما زعم البيضاني؛ ولم تكن الجماهير الغاضبة هي التي احتلّت السفارة السعودية بصنعاء؛ بل إن البيضاني هو الذي دبّر ذلك الهجوم عليها مؤمّلا بسخافته أن ذلك سيفقد رجال المملكة أعصابهم فتهاجم اليمن إذاعتها، أو تتصرف تصرفاً مماثلا؛ وتتيح فرصة لتنفيذ المخطط الشرّير الذي كان البيضاني ومن وراءه من أعداء العروبة والإسلام قد زيّنه للسادات والمخابرات المصرّية لمهاجمة المملكة؛ ولم يكتف بهذا الافتراء؛ بل وزعم في كتابه أنه كان يريد أن يرسل وفداً إلى السعودية على مستوى عال يكون هو رئيسه وأنه لا يحول بينه و بين ذلك إلا ما أسماه «تجربة انقلاب اليمن سنة ١٩٤٨» لأن المملكة احتجزت محمد محمود الزبيري حين ذهب في مهمة مماثلة حتى فشل الانقلاب! وكل ذلك كذب و باطل وتبريرات متآمرين فالزبيري لم

---

(١) التفاصيل في فصل ذكرياتي عن تلك الحركة إن شاء الله.

يحتجز إذ أنه لم يغادر صنعاء في وفد يرأسه السيد عبدالله بن علي الوزير وعضوية الأستاذ الفضيل الورتلاني والأستاذ الزبيري إلى جدة إلاّ في آخر طائرة تستطيع الاقلاع من «صنعاء» المحاصرة بعشرات الآلاف من القبل التي تحدق بها والتي تؤيد الإمام أحمد وتنادي بثارات الإمام يحيى وأولاده ورئيس وزرائه عبدالله العمري، وكانت كل قبائل بني حشيش و بني الحارث وهمدان والحيمتين و بني مطر، وآنس، و بني بهلول وسنحان والحدا وخولان، وقبائل حاشد والأهنوم وجبل عيال يزيد وحجور والشرفين قد أحاطت بالعاصمة صنعاء إحاطة السوار بالمعصم تريد نهبها والقضاء على من فيها؛ وكان وفد من الجامعة العربية قد وصل من القاهرة يرأسه عزام باشا إلى الملك عبدالعزيز آل سعود، وكان الإمام أحمد قد أناب من يمثله لديه كلاً من السيد حسن ابراهيم والسيد علي المؤيد وأراد الإمام عبدالله الوزير وحكومة ثورته الدستورية بصنعاء أن تحكّم الجامعة العربيّة ودولها في الأمر، لكي يجنّبوا اليمن الفتنة و يُسلموا صنعاء من النهب والدمار فكان ترتيب إرسال الوفد المذكور وكان تحكيم الجامعة العربية هو الفرصة أو الحلم الأخير لنجاة صنعاء ومن فيها لكن الإمام أحمد كان قد أحكم قبضته وعرف أنها فرصة تغلّبه على خصومه فزحفت قبائله كالجراد المنتشر واحتلوا صنعاء وألقى القبض على إمام الدستور وأعضاء حكومته وكانت المأساة التي سنشرحها في مكانها وأنا لا ألقي الكلام على عواهنه ولا أختلق ما لم أر وأشاهد وما هو مدون في محاضر جلسات الجامعة العربية وما تنطق به البرقيات من الإمام عبدالله الوزير والإمام أحمد إلى الملك عبدالعزيز وإلى أمين عام الجامعة العربية عزام باشا، وما تنطق به أيضاً مذكّرات الوفد الدستوري إلى الملك وإلى الجامعة أيضاً.

و بعد أن احتلت القبائل «صنعاء» و بذلك سقطت حكومة الدستور ووقع إمامه الوزير في الأسر وانتصر أحمد كان ينتظر من السعودية أن تسلمّ إليه الورتلاني والزبيري والوزير وقد طالب بذلك لكن الملك عبدالعزيز آل سعود أبى أن يسلمهم إلى خصمهم المنتصر بل خيّرهم أن يسافروا إلى حيث يريدون وحسب رغبتهم يسر لهم السفر إلى عدن على إحدى طائراته الخاصة وفي «عدن» كان مقر حزب «الجمعية اليمنية الكبرى» التي كان يرأسها الأستاذ الزبيري وزميلاه أحمد نعمان والأمير ابراهيم اللذان كانا أيضاً قد وقعا في قبضة الإمام أحمد حميدالدين مثل سائر الأحرار.

وأخلاق آل سعود على مدى العصور هي أخلاق العربيّ الأصيل التي ترعى الجوار، وتأخذ بيد العاثر، وتعين على كوارث الزّمن وكذلك كانوا وما يزالون واسأل عن أقاصيص «رشيد عالي الكيلاني» و«أمين الحسيني» و«شكري القوتلي» والكثير من زعماء الشام والعراق ومصر واليمن وحتى اليوم ولقد كان البيضاني نفسه أحد من لاذ بالسعودية عندما تأزمت أموره فلم يجد إلاّ خيرا؛ وطمع في أن يزايد ويخادع فقيل له: لا .. فتاه على وجهه يخبط في عشواء الأ باطيل.

ثم أليس البيضاني و باعترافه هو الذي عارض اقتراح الزبيري بإرسال وفد صداقة وإخاء إلى المملكة؛ وقد أحبط ذلك المسعى لأنه كان يعدّ خطة اعتداء على المملكة العربية السعودية؛ وما كان هجومه على السفارة ونهب محتو ياتها؛ ثم اعتداؤه على المصرف السعودي واستيلاؤه على ما فيه من أموال وودائع إلا مقدّمة لما كان ينوي مع أسياده تنفيذه؛ ولكن حكمة رجال المملكة وعلى رأسهم الملك فيصل

خيّب الله بها آمال البيضاني ورد كيده في نحره.

والبيضاني نفسه يعلم أن المملكة ومن أول يوم قد التزمت الحياد وصرح الملك فيصل في اكتوبر ١٩٦٢م جمادى ١٣٨٢هـ وكان يومئذ وزيراً لخارجية المملكة و يرأس وفدها لدى هيئة الأمم فقال في تصريحه: نحن ضد أي تدخل خارجي في شؤون اليمن وعلى اليمنيين وحدهم أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم ويختاروا نظام الحكم الذي يرتضونه»، وحتى اذاعتها لم تكن تردّد ــ باديء بدء ــ أخبار القتال التي يذيعها الملكيّون وتردّدها وكالات الأنباء عن مراسليها، تجنّبا لأيّ اثارة لمصر والرئيس عبدالناصر وأملا في أن تسحب مصر قوّاتها ويختار الشعب اليمني حكامه وأسلوب واسم الحكم الذي يشاء دون أي تدخل أو ضغط خارجي عسكرياً كان أوماديا. وذلك هو الذي حدث وكان، بعد ذهاب البيضاني وانسحاب الجيش المصري وتوقف المساعدات السعودية و بعد مؤتمر المصالحة الوطنية بين أبناء اليمن إذ قد اختار الشعب اليمني جمهوريّة ثورته، وساد السلام؛ سلام الحق والحرية والمساواة والمحبة، وتوثقت روابط الصداقة والأخوة بين الجمهورية العربية اليمنية والمملكة العربية السعودية.

شهادة الرئيس جمال عبدالناصر:

في إحدى جلسات قمّة القاهرة التي عقدت لبحث مشكلة الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية في سبتمبر ١٩٧٠م الموافق ٢٧ رجب ١٣٩٠هـ وكنتُ أحد أعضاء الوفد الذي يرأسه القاضي عبدالرحمن الإرياني ولما غاب لحضور احتفالات ذكرى الثورة في اليمن أنابني في رئاسة الوفد؛ ولن أنسى تلك الليلة الصاخبة التي اقتصرت على رؤساء الوفود ومساعديهم لقد تعرّض السيد الرئيس جمال عبدالناصر للقضية اليمنية ومما قاله وهو يوجّه الخطاب إليّ إنه لم يكن صاحب فكرة التدخل العسكري في اليمن وإن السيد أنور السادات ــ الذي كان حاضرا ــ قد أخبره بأن الثوّار في صنعاء يفتقرون إلى حوالي مائة ضابط للتدريب على استعمال الأسلحة الحديثة والمساعدة على حفظ الأمن! قال: ثم حميت المائة بألف والألف بعشرة آلاف حتى تفاقم الأمر ولم تنشب الحرب بيننا و بين اسرائيل إلا ومعظم الجيش المصري في جبال اليمن، بل وأحسن وأقوى أسلحتنا البرية والجوية؛ ولقد توفي رحمه الله في اليوم التالي لتلك الشهادة التي تدين البيضاني ومن خدع الرئيس عبدالناصر ومجلس قيادة ثورته، وورّطه فتدخّل عسكريّاً في اليمن

البيضاني يردّ على البيضاني:

إن أحد عشر سطراً وردت في صفحة ٨١٦ من كتاب البيضاني تحول كلّ ما ورد فيه إلى حبر أسود، على أوراق بيضاء، لا معنى لها ولا هدف إلاّ التهويش والتضليل والخداع، وهي من فلتات اللسان التي يخذل بها الله المنافقين ليفضحهم أمام عباده المؤمنين، وأظن يراعه قد جرى بها وهو مخدّر بطمع استرضاء من بأيديهم السلطة، ولم يفقه بأنه سيدين نفسه و يكذّب كلّ ما زعمه وادعاه على المملكة العربية السعودية بأنها حاربت ثورة اليمن وجمهوريتها من أجل ما سماه الرجعية والملكية والتأخر. وأظن أيضا بأن هوسه وجنون تهوّره وطمعه بأن يثبت لنفسه بأنه حقاً كان «يحلم في استعادة المجد

اليمني» ولو بأن يضع اسمه بجانب اسمين يمنيين هما «البدر» و«السلال» ذلك الطمع والهوس والجنون قد أعماه فاندفع يُسجّل بقلمه خزي الافتراء و يثبت أن كل ما قاله وزعمه في كتابه عن المملكة السعودية كان محض خداع و يصدّق قول الله سبحانه في كتابه العزيزعن أمثاله في كل زمان ومكان:

[يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعُون إلاّ أنفسهم وما يشعرون]

يقول الدكتور المزيف: ص ٨١٦.

«و بعد أن كان عشرات الألوف من الجنود المصريين يحار بون وحدهم في اليمن أصبح الآن في اليمن عشرات الألوف من المصريين المهندسين والمدرسين والأطباء وغيرهم من الخبراء، يعملون مع الشعب اليمني في بناء حضارته. و بعد أن كانت مصر قد تورطت في محاولة استخدام اليمن للانقضاض على السعودية أصبحت الدولتان تتعاونان على النهوض بالجمهورية اليمنية».

«وهذا ما يثبت تاريخيا أن الصراع المصري السعودي في اليمن لم يكن صراعا على عمامة البدر التي تخفي جثة النظام الإمامي، ولا قبعة السلال التي تعلن شكل النظام الجمهوري، ولا أحلام البيضاني في استعادة المجد اليمني والعربي. بل كان جوهر الصراع متمثلا في قلق السعودية من الأطماع السوفيتية، التي تسللت إلى اليمن في شرايين بعض العناصر المصرية التي انفردت بحكم اليمن. وعندما زال هذا القلق تعاونت مصر والسعودية على الارتقاء بمستوى الحياة في اليمن».

وإذن: أهو الجنون؟ أم الخبال؟

فما دام «البيضاني» يعلم أن «مصر تورطت في محاولة استخدام اليمن للانقضاض على السعودية؛ وأن الصراع أو دفاع السعودية عن بلادها؛ وفيها الحرمان الشريفان لم يكن من أجل «عمامة» أو «قبعة» أو «أحلام بيضانية» وإنما كان قلقاً من «الأطماع السوفيتية» التي تسلّلت إلى اليمن في شرايين بعض العناصر «حسب التعبير البيضاني» إذا كان يعلم كل ذلك فلماذا لم يبيّن من هم الذين ورّطوا مصر؟ ومن هم أولئك العناصر؟ ولماذا لم يعط المملكة عندما تسلّل إلى السلطة في اليمن حق القلق والخوف من أطماع تلك العناصر وما وراءها من القوى التي تكيد لبلادها وللحرمين الشريفين؟ ولماذا في أكثر من ثمانمائة صفحة قبل هذه الفقرة في أحد عشر سطراً ظل يكذب و يتهجم و يفتري على المملكة العربية السعودية؟ ولماذا هاجم سفارتها ونهب المصرف، وأخرج اسماعيل المعنى منذراً بالحرب الشعواء، وتبجح بتلك التصريحات التي لا تزال مسجّلة بصوته؟ ولماذا كذب ــ كما اعترف كتابه ــ على السادات والرئيس عبدالناصر أن السعودية والأردن تريدان غزو اليمن بجيش قوامه أكثر من ثمانية آلاف جندي؟ لماذا ورّط الجيش المصري وسبّب له؛ ولكل دول الجامعة العربية الهزيمة المنكرة؟ لماذا صنع البيضاني كل ذلك إذا كان حقاً يعلم أن «جوهر الصراع إنما كان يتمثّل في قلق السعودية من الأطماع السوفيتية» ولا يهمها عمامة فلان أو قبعة فلان أو أحلام «البيضاني»؟ وإنما يهمها حماية الحرمين الشريفين؟»

لماذا لماذا؟

أجنون أم خبال؟

أم أن هناك شراً يراد وراء كل حرف تنبس به شفتا البيضاني، وتحت كل كلمة يرقمها يراعه.

أيها المسلمون:

احذروا هذا «الدكتور المزيف» عبدالرحمن البيضاني وتذكروا قول الله سبحانه: [يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بِطَانة من دونِكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عَنِتّم قد بدَت البغضاء مِن أفواهِهم وما تُخفي صُدُورُهم أكبر قد بيّنا لكمُ الآيات إن كنتمُ تعقلون]١١٨ ـ آل عمران.

إن هذا الرجل «عبدالرحمن البيضاني» بالقول والعمل و بالتجربة أحد أولئك الذين [إذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا عَضّوا عليكُم الأنامل من الغيظ] ومن أولئك الذين [إنْ تمسَسْكم حسنة تسؤهم وإن تُصبكم سيّئة يفرحوا بها] فاحذروه وقولوا له ولعِصابته [موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصّدور] واعلموا أنكم إذا عملتم ستفلحون وتنتصرون عليهم [وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدُهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط].

الدكتور المزّيف وكيف صوّره محمد الفِسّيل:

يقولون إن الكلام يجرجر الكلام، وإن الشيء بالشيء يذكر ولقد يظن البعض أني أتحامل على عبدالرحمن البيضاني الذي لم يُبق صفة من صفات العلم والبراعة والدهاء والبلاغة والسياسة والكياسة إلاّ و وصف بها نفسه ولبس مسوحها أو سرابيلها؛ وإنني عندما قلت عنه «الدكتور المزيّف» لم أبالغ أو أغرق في القول؛ والله يعلم أني أقصد وأعني ما أقول ولا أبالغ ولا أعتدي لأني أعرف كيف تحصّل على لقب «الدكتوراة» و بلغة لا يُتقنها؛ فإنّه عندما كان قائما بأعمال مفوضية اليمن في ألمانيا قبل الثورة قد استطاع بالرّشا والهدايا والمتاجرة أن يتحصّل على «دكتوراة شرف» ثم طوّرها بنفس الوسائل إلى «علميّة» واستعمل حيلاً لا يهتدي إليها، ولا يفكّر فيها إلاّ من خوت ضمائرهم من احترام العلم أو كرامة الإنسانية، ولن أسمح لقلمي أن يلغ في حمأة قذاراته.. و يكفي أن أقول إنه «دكتور مزيّف» ومن يريد التدقيق فليرجع إلى «الملّفات» ولوظل «دكتوراً مزيفاً» قابعاً في بيته يقضم ضميره لربما جرّه الندم إلى «التوبة» التي بابها لا يغلق أمام كل آيب نادم؛ ولكنه أبى إلاّ أن يبدأ التضليل والخداع و يتجنى على اليمن وعلى تاريخها و يريد لها الشر من جديد فكان لابد أن يقال له: قف مكانك أيها المغرور.

وليرحم الله الزميل الصديق الشاعر محمد بن حسن الوريث فقد زرته عندما وصل للعلاج من السرطان الذي قضى عليه بعد الثورة اليمنية ١٣٨٢ هـ/١٩٦٢م بشهر أو شهرين إلى لندن؛ وكان البيضاني قد عاث ولاث واستولى على أكبر مراكز الجمهورية وأنا في أوج معارضة التدخل العسكري المصري وحين سألته عن صديقي وزميلي الأستاذ محمد الفسيّل الذي كان أول صوت أعلن الثورة من صنعاء كيف حاله؟ وأين هو؟ وما هي أفكاره؟

قال الوريث: لقد كان «الفسيّل» من صنّاع الثورة. قلت: أعرف ولكن كيف حاله وأين هو الآن؟

قال ــضاحكاًــ: لقد نفاه البيضاني إلى القاهرة مثلما أبعد الأستاذ محسن العيني إلى نيو يورك وأبعد فلانا وقتل فلانا! قلت: وورط الجيش المصري وسبّب للعرب هذا البلاء، قال: نعم «والواجي أخسّ» قلت: وماذا يقول صديقي محمد الفسيل؟ فضحك وقال: لقد قال مالا يستطيع أن يتصوّره أحد، ولا أن يقوله سوى محمد الفسيل، قلت: وماذا قال؟ قال: سألته عن الحال فأجاب ــأي الفسيلــ لقد كانت الثورة مثل «بنت الصحن» المحمرّة عليها العسل المصفّى أعدت لذّة للآكلين فجاء البيضاني فسلح عليها! أو قال فجاء المصريون فركزوا عليها «البيضاني» كالجعسري الغليظ!! فضحكنا طويلاً وكان معنا الدكتور محمد عبدالملك المتوكل، وسأجد الآن الفرصة سانحة بعد هذا الاستطراد لأتحدث عن صديق العمر محمد بن عبدالله الفسيّل.

٨ ـ محمد الفسيّل أول صديق عرفته،

في مسرح حياتي شخصيات كثيرة لعبتُ معها أدواراً شتّى؛ منها اللطيف الممتع، ومنها العنيف المرهق.. واختلف تأثري بها ــأو تأثرها بيــ باختلاف الأدوار والطباع، وفترات المعاشرة؛ طولاً وقصرا، ونفوراً، وانسجاماً، وخيراً وشرا.

فهناك ــمثلاــ من أثر فيّ تأثيراً لا يُمحى، وسلكتُ منفعلا بتعاليمه طريقاً ما كنت سأسلكها لولا معرفتي به كأستاذي السيّد الفضيل الورتلاّني رحمه الله. وهناك من كانت علاقة الصداقة والزمالة بيني و بينه أقوى من روابط الأخوة، والبنوّة والمودّة في القربى، مثل تلميذي السيد ابراهيم بن علي الوزير وظلّت محبّتي له، واتصالاته بي نبراس هدى تبدّد أنواره كلّ أغباش الحياة الدنيا.

وهناك من لا أستطيع نسيانهم ممن لعبت معهم أدواراً أدبيّة، أو سياسية، وانفعل سلوك كلّ منا بسلوك الآخر أمثال: حسين بن محمد الكبسي وزيد بن علي الموشكى، وعبدالكريم بن ابراهيم الأمير، ومحمد بن علي النعماني، وابراهيم بن أحمد الحضراني، وأحمد بن عبدالرحمن المعلّمي والدكتور أحمد فخري، ومحمد عبدالله الفسيل.. ولا أراني في حاجة إلى ذكر «أمّي» و«زوجتي» وأخي «عبدالوهاب» والوالد «عبدالرحمن الشامي» فهؤلاء الأربعة هم أركان «ديوان حياتي».

ولأنني أتحدث الآن عن مرحلة الصّبا والشباب فسأجعل حديث اليوم عن رفيق صباي، وأول صديق عرفته: محمد عبدالله الفسيل، الذي لا أذكر كيف ولا متى ابتدأت معرفتي به لقدمها وعمقها.. وكلما رجعت بالذاكرة إلى نقطة انطلاق في مسيرة أيامي ــبعد نزوحنا من «الضالع» وجدته بجانبي في حارة «القزالي» بصنعاء، وأنا في حوالي «السادسة» وهو في نفس السنّ، وله أخ يصغره بثلاث سنوات اسمه «أحمد» ولي أخ في نفس سنه اسمه «عبدالوهاب» وكلّ منا فقد أباه، وله أمّ ترعاه، وكان يسكن في بيت صغير لايبعد عن بيتنا إلاّ نحو عشرين ذراعاً وأظنّ أن أوّل لقاء تم بيننا سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م

كان أقرب أبناء «الحارة» منزلة إلى نفسي، فلا «العزّي مقبل»، ولا «أحمد المغربي»، ولا «عبدالوهاب سام» ولا «ابن الغيثي» أو«الحليلي» يمكن أن يحتلّوا مكانته في قلبي، وقل مثل ذلك في «ابن رجب» و«ابن الخاوي» و«ابن الجنداري» و«ابن السّنفي» و«ابن النعماني» وسائر أولاد حارة القزالي وحارة «الفليحي» وأنا من أولاد «الحارتين».

وتشاء ظروفه الاجتماعية.. أن يلتحق مع أخيه بمدرسة «الأيتام» تلاميذ «داخليّين» لا يخرجان لزيارة امهما إلاّ نهار «الخميس» ليقضيا «الجمعة» معها ثم يعودان صباح السبت إلى «المدرسة».. وكثيرا ما كنت أجري آخر نهار كلّ «خميس» إلى حارة «الميدان» مخترقا صرحة «الفليحي» فـ«مُطَير» فسوق «عقيل» فصرحة «صلاح الدين».. وانتظر له في باب مدرسة الأيتام عند بوابها الكريم «العم صالح الأعرج» حتى يحين موعد خروجه منها مع أخيه؛ وأساعدهما على حمل «الكِدَم» حتى نصل إلى امّه السيّدة الفاضلة «مريم الفسيل» التي ترحّب بنا جميعا، ولا تبخل علينا بقهوة «القِشر» نرطب بها «كدمة» أو «كدمتين» وأحيانا نأتدم تلك اللّقيمات بالملح والبِسبَاس، وفي الغالب ما كنا نصل إليها إلا وقد هيأت لولديها وجبة طعام كنتُ أسعد وألتذّ بها معهم قبل أن ننطلق للّعِب والركض.

ولعلّ بيت «محمد الفسيل» كان أحبّ بيوت الجيران إلى قلبي، وهولا يزيد على دورين، في كل دور مكان واحد إلى «مدّخ» و«بئر» في الدور الأسفل ثم «حمّام» و«مطبخ» في الدور الذي يؤدّى إلى «سطح» صغير.

و بحكم صداقتي وأخي لمحمد الفسيّل وأخيه؛ كانت أمه «مريم» أكثر النساء تردّدا على «بيتنا» وأكثرهن جلوساً مع «أمي» وكثيراً ما كان يمضي معي أوقاتاً في بيتنا نلعبُ أو نأكل أو «نتحازى» وكانت «أمي» جِدّ سعيدة بهذه الزّمالة الطاهرة المثالية السلوك.

وكنتُ؛ كما ذكرت في مكان آخر ـ أدرس في مدارس أخرى غير مدرسة الأيتام؛ حتى التحقتُ بها وأنا في حوالي الثانية عشرة.. لأسباب سبق أن شرحتها، وانسلكت في نفس الصفّ، الذي يدرس فيه «الفسيّل» ومن زملائنا «علي الجنّاتي»، و«علي العمراني» و«محمد تلها» وكنت دائما «الأوّل» في «صفي» يتلوني حيناً «علي العمراني» «شاوش» الصف وأكبرنا سنّا و«محمد الفسيل» حينا آخر؛ ومرّة قفز «محمد» إلى المرتبة الأولى في الامتحان الخاص لكنني استرجعت «المنزلة» عند الامتحان «العمومي».

وأدركني البلوغ ـ أو أدركته ـ، ولبست العمامة «المقولَبة» حسب التقاليد المقيّدة لأمثالي، وانتقلتُ إلى مسجد «الفليحي» لأدرس النحووالفقهوالمعاني والبيان، وانتقل «الفسيّل» إلى المدرسة «المتوسطة» ليدرس دروساً أخرى، أقرب إلى متطلبّات الحياة العصريّة، وكان أساتذتي أمثال «أحمد محمد زبارة» و«عبدالكريم الأمير» و«عبدالله حميد» وكان أساتذته في «المتوسطة» أمثال «أحمد الحورش» و«زيد عنان» و«أحمد البرّاق» وظلّت الصداقة والمودّة فوق مستوى المدارس والتقاليد؛

فكنت أحدّثه بما أتعلّم، وكان يحدثني بما يتعلّم، وعرّفته بأساتذتي، وعرّفني بأساتذته بل وعملنا على أن يتعارف الأساتذة أنفسهم، وتساقطت أسوار الوحشة والتكلف، وإذا به يرافقني إلى بيت أستاذي عبدالكريم ويحضر مداكيه.. وإذا بي أرافقه إلى بيت أستاذه «أحمد الحورش» العائد من العراق بصناديق مشحونة بالكتب الحديثة ومن ضمنها «الثورة الفرنسية» و«حياة نابليون» و«أم القرى» و«طبائع الاستبداد» و«العروة الوثقى» ومجلّدات من مجلة «الرسالة» للزيات، و«الثقافة» لأحمد أمين، وكتب «الرافعي» و«العقاد» و«زكي مبارك» و«أحمد أمين» و«طه حسين» وأضرابهم وعبّنا من تلك الينابيع ما شاءت لنا أشواقنا وطموحاتنا.

الرابطة الرباعية:

ولأن محمداً من أسرة فِقْهٍ وعلم فقد لبس العمامة، وانتقل إلى المدرسة العلمية؛ لكن علاقته بالحورش ظلت علاقة التلميذ بالأستاذ وكانت لنا جلسات خاصة لا تقتصر أحاديثها عن الدراسة والأدب والشعر والتاريخ بل ونتوغّل إلى ما يُسمّى بالسياسة ونحن ندري ولا ندري فنقول لماذا؟ وكيف؟ وليت ولعل.. بل ويجب أن نعمل ونفعل.. وكان دليلنا الصديق الأديب العائد من العراق أيضا شاعر الجيش السيد أحمد بن حسين المروني.. وأشركنا الأكفاء من زملاء محمد بالمدرسة العلمية كالسيد عبدالرحمن أبوطالب والأستاذ حسين المقبلي، وأجبرتني الظروف على الزّواج ولما أتجاوز الثامنة عشرة، واضطررت إلى السفر إلى تعز كما ذكرت سابقا.. وعدت إلى «صنعاء»، وقد عرفت «الموشكي» و«الذاري» و«نعمان» و«الزبيري» و«المعلّمي» و«السّالمي» و«يحيى منصور» و«الإرياني» و«الحضراني الكبير» و«الحضراني الصغير» وحدثتُ محمداً عنهم، وكونّا رابطة رباعيّة رائعة من «أحمد المروني، وأخي عبدالوهاب الشامي الذي كان قد تعمّم وأصبح يقول الشعر و يوقعه على وتر جديد، ونغمة بديعة، ومحمد الفسيل؛ وكنت لهم رابعا؛ وكانت نواة هيئة «البريد الأدبي» بين مدن اليمن «الحديدة» و«تعز» و«صنعاء» و«ذمار».

نقرأ تولوستوي ونؤدّي الفرائض:

و ياما أحيلاها من «سهرات» و«مداكي» كُنّا نمضيها، إمّا في «منظر» أحمد المروني، أو في بيتي؛ نقرأ للرافعي والزيات وجبران ولسائر أدباء العرب وشعرائهم قدامى ومحدثين، ولا تخلو أحاديثنا من نقد للأوضاع التي نعيشها، وتحيط بنا، غير أن قلوبنا كانت عامرة بالإيمان بالله، ولا نقصّر في أداء الفرائض، ولا نذكر أو نفكر في المعاصي، لقد كنا نقرأ «تولوستوي» و«طاغور» و«نيتشة» و«كانت» و«روسّو» ونذرف الدموع مع «هوجو» على «البؤساء» ومع «جوركي» على «الأم» ونناجي «القبّرة» مع «شلي»؛ ونقرأ «ماركس» و«هيجل» و«سبنسر»، ولكننا في نفس الوقت نقرأ «القرآن» وتفسير «الزمخشري»، و«نهج البلاغة» و«جمال الدين» و«محمد عبده»، ونتمنى أن تأخذ الأمة العربيّة بأسباب العزّة والعلم والمعرفة، وأن يكون أبناؤها على هدى، وفهم، يتحلّون بالأخلاق الكريمة، و يؤمنون بالفداء، من أجل الدين والوطن ويجهرون بالحق، و يأمرون بالمعروف،

و يدحضون دعاوى المضلّلين والمشعوذين والدجالين، و يدعون للوحدة والتآلف، ويجدّدون مظاهر حياتهم؛ فيقتبسون من الغرب خيراته وفضائله؛ من عمران، ونظام، وصناعة، ودساتير اصلاحيّة، في مختلف شؤون الحياة.. وذلك ما كان يدعو إليه زعماء الإصلاح في مصر والشام والعراق، وكنّا نفكّر فيه ونحياه سلوكاً وعقلا وإنّني حين أنظر اليوم –إلى البلاد العربية– واليمن منها وقد امتلأت بالمثقفين، تغمرني البهجة، ولكنّي حين أجلس إلى البعض منهم فأجده يعرف لغة البلاد التي تعلّم فيها، ولكنّه لا يتقن آدابها! وأجد لديه التماس وعلم التلميذ بالمادة التي تخصّص فيها.. وحتى ولو كانت درجته في تلك المادة جيدة فإنه لا يجيد سواها.. ونُسِخَت العبارة المألوفة عن الأديب أنه «الذي يأخذ من كل فنّ بطرف»، وكأن الحياة مجرّد اتقان «حرفة» تدرّ على صاحبها قوت يومه أو عامه؛ سياسي فقط، دكتور فقط، مهندس فقط، و.. و.. وعسكري.. فقط.

الأستاذ الحورش:

عرّفني محمد الفسيّل باستاذه «أحمد الحورش» وذهبتُ معه لزيارته في بيته في حارة «عقيل».. وكم كانت روعتي وأنا أدلف من ذلك الباب الذي لا يجوز أن نسمّيه باباً إلاّ من «باب» «المجاز»! لأنه فعلا مجاز يفضي إلى بضعة «درجات»، ثم إلى غرفة الأستاذ.. ولو كان يدلف من ذلك الباب إلى تلك «الدرجات» وتلك الغرفة أحد المثقفين في زماننا هذا ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م ممن ألف المتع والترف.. لتأفّف.. ووقف برهة يزوّد رئته بما يسمّيه هواء نقياً! ثم لما صبر على البقاء مع الأستاذ أحمد حسن الحورش وهو غارق بين كتبه وأوراقه أكثر من بضع دقائق ثم يولّي هاربا.. ولكنّني تلميذ «صنعاء» سنة ١٣٦١ هـ/١٩٤٣م أحسست وأنا أدلف إلى ذلك الدهليز المظلم، وارتقي تلك الدرجات المتواضعة، وأدخل على الأستاذ بين كتبه وأوراقه كأنني أدلف إلى «محراب مقدّس» وأسلّم على ملك كريم.

أطالع القرآن:

وانبهرت لمّا رأيت الكتب منثورة على الأرض وفوق الوسائد؛ وعلى جوانب المكان «تهذيب الأغاني» «البيان والتبيين» «العقدالفريد» «العقد الاجتماعي»، «حياة نابليون».. الخ الخ وسلّمنا، وابتسم مسلّما، ومرحّبا، وكان في يده «القرآن» و بجانبه «مختار الصحاح» للرّازي، ونظراته الحادة تتسرّب من تحت نظارته «السماو ية» إلى قلبي.. و بعد «سين» و«جيم» قال: لقد وصلتم وأنا «أطالع» القرآن.

«أطالع».. «القرآن»! رنّت هذه الجملة رنيناً غريباً في أذني.. وقلتُ مستغربا: «تطالعون» القرآن؟ تعنون: «تدرسون» أو «تتلون» ضحك.. وقال: نعم «أدرسه» و«أتلو» آياته الكريمة.. ولكن لا «دريس» المشعوذين و«المستسلمين».. ولهذا فضّلت كلمة «مطالعة» على لفظة «دريس» التي أصبحت في أيامنا تدلّ على «المذرمة» بالآيات على القبور، وفي زوايا «المساجد» وموائد الأثرياء

مقابل دريهمات معدودات»(١).

ثم قال: إنني «أطالع» في القرآن كلّ يوم بضع صفحات، وأحيانا لا أقرأ إلاّ آية أو آيتين متأملاً مسترشدا مستفسرا، فأستفيد ديناً ولغة وتاريخاً وأدبا.. في حديث شيّق طو يل فتح أمامي آفاقاً واسعة.. وعرفت أنّه إنّما أراد أن يوقظ أعصابي بلفظة «المطالعة» التي ألفنا استعمالها حين نمعن النظر في قراءة كتاب جليل، أو بحث نفيس، أو ديوان شعر، أو قصّة رائعة في الوقت الذي ـ وإن كنا نضفي على القرآن الاجلال والتكريم ـ لكنا لا نتلوه إلاّ بقصد التعبّد، واستمطار البركات والرحمات، وقد أدرك الأستاذ ما أراد، واستفاد التلميذ المتطلّع إلى العرفان.

مع الفسيل في تعز:

وتكرّرت رحلاتي إلى «تعز» وشوقته إلى السفر معي وإذا بنا معاً بجانب أحمد محمد نعمان، ومحمد محمود الزبيري، وأحمد الحضراني وابنه ابراهيم وزيد الموشكي ومحمد الوريث والكثير من شعراء وعلماء وأدباء وظرفاء وأعيان اليمن الذين كانوا يفدون إلى مقام ولي العهد أحمد من جميع أنحاء اليمن.

وتنمو مداركنا، وتصلنا من «عدن» عن طريق السيد حسين بن علي الو يسي والسيد أحمد بن محمد باشا دواو ين علي محمود طه: «الملاّح التائه» و«ليالي الملاّح» و«زهر وخمر» و«أغنية الرياح الأربع» ودواو ين أخرى لشعراء الشام والعراق و«المهجر» وتعلو أصواتنا، وترتفع أصابعنا، وتضج اجتماعاتنا، وتزخر بالمطرب الممتع من شعر، والساخر اللاّذع من نقد، والمقلق المستغرب من فلسفة، و يبرز اسم «أفلاطون» واسم شيخه «سقراط» إلى جانب «الغزالي» و«علي بن أبي طالب» ونتحدّث عن «شكسبير» و«دانتي» و«فولتير» وكأننا نتحدث عن «المتنبي» و«المعرّي» و«الجاحظ»، ونقارن بين أدب وأدب، وفكر وفكر، ونحاول أن نرجّح ونصطفي، وننقد، ونختار.

الفسيل ومحسن غنيمة:

و يعترض المتزمتون، و يتمرد المتطرّفون، ويحاول بعضنا التلّطف والدفع بالتي هي أحسن؛ و يقف محمد الفسيل صارماً واضحاً غير هيّاب، و بطريقة قد تثير العناد، وتبعث الحزازات، أكثر مما تُبصّر، وترشد، وتفتّح الأذهان وكان حظّه من كتب الثقافة الحديثة أكثر من حظه من العلوم العربيّة والإسلامية في كتب الحديث والتاريخ والمعاني والبيان والفقه والتفسير.

ونشب بينه و بين القاضي الفقيه محسن غنيمة الجدل والنقاش الحاد عدّة مرات.. وكان هذا الفقيه الظريف من أحلاس المقام الأحمدي، وله المام، ومعرفة بالنوادر اليمنيّة، ويحب المزاح والمجون؛ يمضي

---

(١) لفظة «دريس» تدلّ في «صنعاء» على التلاوة التي يجتمع لأدائها الفقهاء، أو أهل الميت، أو جماعة من الناس ليقرؤا سورة «يس» أو غيرها في مسجد أو ديوان، أو على قبر من القبور، وتدل أيضاً على «الورد» اليومي الذي يلازمه من يريد في الغدوّ والرواح وفي الآصال، والأسحار والابكار؛ وكانت أجرة «جزء الدريس» تلك الأ يام بقصد الثواب ودفع الضر، وجلب النفع بنيّة المعطي «ربع ريال» وقد يغلو الثمن و يرخص بحسب ظروف القارىء والمستأجر، وذلك ما هدف الأستاذ إلى إثارته؛ وقصة «كم يِلْعَنْ كَمْ يَدْرِسْ» مشهورة في «صنعاء» باللهجة الدارجة.

معظم نهاره يمضغ القات وليله في السهر والسمر؛ وإذا خرج من دار الضيافه حيث كان يقيم محمد الفسيل وابراهيم الحضراني، ومحمد محمود الزبيري، وعلي حمود الجايفي وسائر الوافدين إلى تعز- فإلى مدينة «تعز» راكبا حماره القصير يوزّع الضحكات على من يعرفهم من الأمراء والموظفين، أو إلى سفرة «المقام» لتناول الطعام، أو إلى المقايل و«المداكي» هنا وهناك؛ لقد كان ظريفاً ومهرّجا وخفيف الظّل و يثير الضحك بصوته وحركاته وصورته ونوادره؛ وكان من العادة في ذلك الزّمان أن يقرأ الناس بعد وجبة الطعام سورة «يس» والصلاة الابراهيمية، و بصوت مرتفع، ولاسيما بعد فطور رمضان وخاصّة إذا كان الحاج ناصر المحويتي، أو الفقيه محسن غنيمة حاضرين. ولا يستطيع من لا يرغب في ذلك إلاّ أن يسايرهما وإلاّ تعرّض للغمز واللّمز منهما؛ وتمرّد على هذه العادة محمد الفسيّل فكان يغادر الديوان وقت «الدريس» وإذا قعد ظلّ صامتاً.. ولما اعترض عليه الفقيه محسن؛ قال «الفسيل»: إنني أقرأ ما أريد من قرآن أو دعاء أو صلوات سرّا.. وتلك هي السنّة ونحن لا ننادي أصمّ- كما قال الرسول، و بقدر ما اقنعه بالرّد فقد أحفظه عليه.. كما أحفظ غيره.. وظلّوا كلّما ذكروا الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلوا عليه بصوت مرتفع، وهم ينظرون إلى الفسيل شزرا وكأن الصلاة على الرسول تؤذيه وكأنهم يغيظونه موهمين الحاضرين أنه يكره الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم)! وسرت هذه الإشاعة وتناقلها الناس في «تعز» وكم كنت أضحك مع الحضراني و بعض الزملاء حين تأتي مناسبة لترديد الصلاة الابراهيمية -وما أكثرها في اليمن- فترتفع أصوات الجميع بها.. إلا محمد الفسيّل؛ فإنه يظلّ بشفتيه واجماً كالصنم، والعيون والحواجب تتحادث عنه وتتغامز عليه.

ولا يمكن أن أنسى ذلك الموقف المضحك عندما كان محمد الفسيل يتحدّث إلى بعض أهل المقام والفقيه محسن غنيمة حاضر يصغي، و يتربّص ليتصيد عليه بعض العباراَت التي يدخل بها معه في نقاش ديني- فقال الفسيل: «ولقد كان محمد بن عبدالله فقيرا» فقال «غنيمة»: أتقصد يا فسيّل أن الرسول حبيب الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلّم) كان «حِرافا»؟ والحِراف بلغة «صنعاء» هو الفقير الصعلوك المفتقر إلى الصدقة والمساعدة- فقال «الفسيل»: «نعم كان حِرافا» قال «غُنيمة»: وقد عقد حواجبه، وشمّر عن ساعده: «أتعني يا «فسيل» أن محمد بن عبدالله سيّد المرسلين كان «أبوهادي»؟ وأبو هادي معناها المُملق المعوز- قال: الفسيل: نعم كان «أبوهادي»! ووضع «غنيمة راحة يده اليسرى على ساعده الأيمن محركاً له إلى فوق وهو يقول: تقصد كان «سيدنا أحسن»- وهي كناية عن الحِراف الصعلوك المملق الفقير- قال الفسيل: نعم ياغنيمة كان «سيدنا أحسن» فصاح غنيمة كالمجنون: اشهدوا يامسلمين: الفسيل يقول إن رسول الله «سيدنا أحسن» ثم قام هائجا مائجا.. ووجم من وجم.. وضحك من ضحك وظلّ الفسيل هادئا كالصخرة الصمّاء..

وتناقل الناس الحديث واستنكر من لم يعرف أصل الحديث.. وحاولت أن ألطّف الجو وأن أقول لمن يسألني: إنه لم يقصد إلاّ أن يمجّد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإنه كان يتيماً لا حول له ولا سلطان كما قال الله سبحانه [ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى] ولكن كل ذلك لم يجد حتى لقد حاول البعض بحكم دفاعي عن الفسيل، والصداقة الأكيدة بيني

و بينه أن يقول : وأحمد الشامي أيضاً .. إنه يقول نفس القول و يفكر نفس التفكير، حتى لقد قال لي مرة القاضي العالم الشاعر الراو ية : إن « الفسيّل » لا يصلح أن يكون لك قرينا . في حديث لغوي لطيف . .

وكانت لنا ندوات أدبيّة جميلة في « دار الضيافة » أوفي « المعبأ » أوفي «عصيفرة» ولا تزال ذكرى جمال وجلال تلك الليلة المقمرة؛ وأنا وابراهيم الحضراني ومحمد الفسيل نصعد من «عصيفرة ــ إلى « العرضي » ونحن ننشد :

وعلى ضـوء الـقـمـر نـتـمـشّـى في أمـان
لانـبـالي بـالـقـدر وتـصـاريـف الـزمـان

عالقة بذهني ، ولعب القدر لعبته الرهيبة ، وتصرّف الزّمان كما يريد الله لا كما نهوى .. وإذا بي أهاجر إلى «عدن» مع الاخوان « زيد الموشكي» و« أحمد نعمان » و« محمد محمود الزبيري » ولم أنبّه ، ولم استشر « الفسيّل » كي يعود إلى أمّه إلى « صنعاء » أو يهاجر معنا ! فيؤخذ الجار بجرم الجار.

وها قد آن الآوان لأتحدث عن « حزب الأحرار» .

٩ـ حزب الأحرار في عدن ،

كيف نشأ حزب الأحرار اليمنيين ؟ ولماذا في «عدن» ؟

سؤال؛ ربما كنا أقرب إلى المنطق أو أكثر صواباً لو كان تساؤلنا : لماذا هاجر القاضي محمد محمود الزبيري «شاعر اليمن» والشيخ أحمد محمد نعمان « خطيب اليمن » إلى «عدن» ثم تبعهما ــ خلال أسبوع ــ السيد زيد بن علي الموشكي «حاكم مقام تعز» وزميله الشاعر الناشيء أحمد محمد الشامي وكوّن أربعتهم «حزب الأحرار» سنة ١٣٦٣ هـ/١٩٤٤م؟

وهل كان ذلك عن ترتيب سابق اتفق عليه الأربعة ؟

وهل كانت لهم أهداف سياسية قبل أن يهاجروا؟

وهل سبقهم أحد إلى هناك ؟

ولماذا اختاروا مدينة «عدن» عاصمة الحماية والاستعمار البريطاني في الجنوب حينئذ؟

وربّما يحق لنا أن نتساءل أيضاً :

هل كانت دوافع الهجرة ــ أو الفرار ــ سياسية بما فيها من طموحات ومنافسات و برامج كفاح ، ومطالب شعبية الخ ؟

أم كانت دينية : طائفة مظلومة تريد الانتصاف من طائفة ظالمة ؟

أم كانت مذهبيّة ؛ أصحاب رأي يجادلون أصحاب رأي آخر؟

وأخيرا ـــ وليس آخرا ـــ هل كان هناك أي أثر أو تأثير، أو علاقة سبب أو مسبّب لما سمعنا بعد نشأة ذلك الحزب من نعرات ودعوات باسم «الشافعيّة» و«الزيدية» و«عدنان» و«قحطان» و«اليمن الأعلى» و«اليمن الأسفل» و«اللغلغي» و«القبيلي» و«السيّد» و«القاضي» و«الشيخ» و«الرّعوي» ثم «اليمن الشمالي» و«اليمن الجنوبي».

وأنا لا أؤرّخ للقضيّة اليمنيّة فاستقصي ذكر كل أحداثها وتطوّرها والتزم بالجواب على كل الأسئلة الواردة بدقّة علمية ومنهج «أكاديمي»، لأني إنما أرصد بعض «رياح التغيير» واسجل «ذكريات» شاب شاعر عن فترة هزّتها رياح التغيير الزمني وقدّر له أن يعيشها، وليس ذلك فحسب بل وأن يكون من عناصر تلك الرياح، وأن يكون سبباً من أسباب نشأة الظروف التي دفعت بالزبيري ونعمان والموشكي وذلك الشاب الشاعر إلى «عدن» وتأسيس «حزب الأحرار».

و بناء عليه فلا ينتظر القارىء الجواب التاريخي العلمي الذي لا يُنْقَضُ أو لا يخالفه أحد؛ فما سأدلي به وأسجله إنما هو شهادة شخص مختار لا يتحدث إلا بما شاهده أو علمه أو أحسّ به أو ما كان يظنه و يعتقده ولا يعني بحال من الأحوال أن غيره سواء من زملائه الأربعة ـــ وأكبرهم سناً الأستاذ أحمد نعمان لا يزال على قيد الحياة نسأل الله له الصحة وطول العمر ـــ أو من غيرهم ممن سيذكر بعض اسمائهم وكانوا شهود تلك الفترة ـــ قد رأوا غير ما رأى، أو لم يشاهدوا ما شاهد، أو اعتقدوا أو ظنوا غير ما اعتقد أو ظن! أو فسّروه وأوّلوه بتفسيرات وتأويلات مغايرة أو مباينة؛ فأنظار الناس وأحكامهم تختلف وتتباين ولا سيما في فترات «التغيير».. وما برح الناس مختلفين [إلاّ من رحم ربك، ولذلك خلقهم]. وما عليّ إلا التزام الصدق فيما سأرويه وأن أسلك النهج الذي فرضته على نفسي في المقدمة ومنذ وافقت على تسجيل ونشر هذه «الذكريات» ولأني كثير الاستطراد فقد لا تأتي الجوابات المرتقبة على نسق الأسئلة، وتتناثر هناك وهنالك، وقد تعرض أسئلة أخرى أكثر أهمية وأجدى نفعاً لو وجدت الجواب الشافي.

أهم أسباب النزوح إلى «عدن»:

عندما وصل أستاذي العلاّمة السيد أحمد بن محمد زبارة (مفتي الجمهورية العربيّة اليمنيّة حاليا) إلى تعز عام ١٣٦١ هـ/١٩٤٣م وزوّجه الإمام أحمد بابنته «أم الحسن» وكلّفه بتدريس ابنه «البدر» علوم العربيّة والفقه والتفسير والحديث إلى جانب أساتذته الآخرين السيد عبدالله بن عبدالكريم والقاضي محمد الخياري وكان مكان الدراسة مسجد دار المجاهد؛ كنت أحضر تلك الدروس كما كان يحضرها السيد أحمد بن محمد باشا وأخواه يحيى ومحمد ومطهر الوجيه وأحمد بن عباس اسحق ومحمد الخطيب وقاسم بن علي المتوكل وابراهيم الحضراني وآخرون وكنت كما ذكرت في فصل سابق قد شغفت بحب كتب الأدب فكنت أزيّن للبدر وسائر الزملاء قراءة «الكتب العصرية» كما كانوا يسمونها وهم يعنون كتب «الرافعي» و«العقاد» و«طه حسين» كما كنت أحبّب إليهم دواوين شعراء مصر والشام والعراق وفي نفس الوقت كان الأستاذ أحمد محمد نعمان يعطي «الأمير البدر» دروساً في الأدب

والبلاغة والحساب والجغرافيا. وكان الفسيل في صراع ثقافي مع «غنيمة» كما ذكرت؛ وكان لكلّ ذلك ولرابطة الصّداقة التي نشأت فيما بيني و بين الأمير البدر ولحضوري تلك الدروس أو بعضها، والمجالس العلمية والأدبية معه ومع أساتذته وزملائه الأثر السياسي الكبير في حياتي بل وفي حياة الزبيري والموشكي ونعمان إذ أن الحوار والنقاش الذي كان يدور خلال تلك المجالس قد كان من أكبر أسباب نزوحنا إلى «عدن» وتكوين «حزب الأحرار» ومعارضة حكومة الإمام يحيى والمطالبة بالإصلاح.

أمّا لماذا وكيف كان ذلك؟

فقد كنتُ ذات يوم في مجلس «البدر» بحضور أساتذته و بعض الزملاء الذين ذكرت بعض أسمائهم وكانوا يقرأون بحثاً من أبحاث «غاية السول في علم الأصول» للحسين ابن الإمام القاسم، وكنتُ منتحياً زاوِيةً أقرأ في ديوان «المتنبي»؛ فتحرّش بي أحد الاخوان وقال: لماذا لا تشاركنا فوائد البحث؟ قلت: أنا مشغول بالمتنبي. قال: «الغايةُ» أكثر فائدة ونفعاً لك..! قلت: ما أنا فيه الآن أفضل عندي. قال: أتفضّل «المتنبي» على «الحسين بن القاسم»؟ قلت محتدا: ديوان «المتنبي» عندي؛ في هذه السّاعة أفضل من «غاية» الحسين بن القاسم؛ قال معانداً: المتنبي أفضل من الحسين ابن القاسم؟ قلت: افهم من كلامي ما تهوى! وكادت أن تحدث مشادة كلامية لولا أن الأستاذ غيّر مجرى الحديث.

هذه واحدة.. وحدث مرة أخرى وكنا نقرأ إحدى المسائل في علم الأصول التي تتحدّث عمّا فوق الفوق وهل للفضاء نهاية ـــ أن قال الزميل الشاعر ابراهيم الحضراني: إذا طار جسمٌ ما إلى السماء وارتقى بقدرة الله السماوات السبع فهل سيصل إلى سقف ليس وراءه شيء، وإذا كان في يده عصا هل يستطيع أن يدق بها ذلك السقف؟ وكان أسلوب تساؤله مضحكاً.. فلم نستطع إلاّ أن نضحك..!

وتحدّثنا ـــ مرة ثالثة ـــ عن قوله تعالى [وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضها السّموات والأرض» فسألت الأستاذ، وأينَ هي هذه الجنة؟ وهل قد خُلِقَتْ؟ وأينَ ستكونُ وعرضها كعرض السماوات والأرض؟ لابدّ أن لا تكون فيهما! ويجب عقلاً أن تكون في عالم آخر.. وضحك بعض الحاضرين.

وقد نقل كلَّ ذلك أحدُ الزملاء، أو المستمعين من المرافقين، إلى «الأمير سيف الإسلام أحمد ولي العهد» وربّما نقلّه مشوّها محرّفاً قائلا: إن أحمد الشامي وابراهيم الحضراني ومحمد الفسيّل ينكرون الجنة والنار..ونحن لم ننكرهما إنما تساءلت أين هما؟ والسؤال قديم وله عدّة أجوبة مقنعة. وقال النّاقل: إن الحضراني ينكر وجود السماوات السبع.. وهو لم يفعل وإنّما تساءل بما قد تساءل به قبله العلماء عمّا فوق الفوق، والفضاء اللانهائي..! وقال: إن أحمد الشامي يفضّل «المتنبي» على «الحسين بن القاسم» والكتب العصرية على كتب أصول الدين! وأنا لم أقل ذلك؛ وإنّما قلت إني أفضل في تلك الساعة قراءة ديوان المتنبي على قراءة كتاب «غاية السول» ثم أضاف الناقل تفضيل «محمد الفسيل» لأسرار التلاوة والدعاء وشوّهه مدّعيا أنه ينكر الصلاة على النبي وتلاوة «يس» وأنّ الحضراني والشامي

يؤيّدان هذه الفكرة.

غضبة ولي العهد:

وفي اليوم التّالي وكنّا في شهر جمادى الأ ولى أو الآخرة سنة ١٣٦٣ هـ/مايو ١٩٤٤م خرج الأمير ولي العهد أحمد للمقابلة العامة في باب قصره بالعرضي (وتسمّى المواجهة) وهوغاضب يزمجر، و يتأسف على الدين والإسلام وتراث السلف، و يقول:ما كنت أدري أننا نربّي الملحدين وفي يده السيف يهزّه وهو يصرخ: لن أسمح لهذه الأفكار العصرية بالانتشار في اليمن، وسألقى الله وقد خضّبت سيفي بدمائهم. وكان بين الحاضرين إلى جانب العلماء والأدباء والقضاة السيد زيد الموشكي والأستاذ أحمد نعمان والأستاذ محمد الزبيري.. وكانوا لا يعرفون ما يجري في مجالسنا الدراسية، ولا بقصة الوشاية، وتشو يه النقل إلى الأمير الذي ألقى كلامه مجملاً، ولم يسمّ شخصاً بعينه من هؤلاء العصريّين الذين يبثّون الإلحاد و يشككون الناس في عقائدهم؛ وحاول السيّد زيد بجرأته وصراحته أن يناقش الأمير.. لكنه قال له:أنت تعرف يازيد أن حدّ المرتدين القتل، وأنا مسؤول أمام الله عن الإسلام والمسلمين فقال له زيد: تيقنوا أولاً مما نُقِل إليكم ثم استتيبوهم قبل أن تقتلوهم في كُلام لا أذكره الآن إذ لم أكن حاضراً.. وهرول ابراهيم الحضراني ــ الذي يعرف ما كان يدور في مجالس «البدر» الدراسيّة ــ من «العرضي» إليّ في المدينة وقصّ عليَّ ما جرى وهو يقول: إنه يقصدنا.. لقد وشوا بنا.. ولقد شوّهوا نقاشاتنا.. ولقد قال ولي العهد انه سيضرب رؤوسنا بسيفه، و بنفسه متقرّبا إلى الله بدمائنا و..و.. وظنّ الزبيري.. ونعمان.. أنهما المقصودان، أو من المقصودين فدبّرا فرارهما إلى عدن ذلك الأسبوع؛ ور بّما انّهما كانا ينو يان الفرار فزادهما ما سمعاه عزماً وتصميماً.. أما أنا فلم أفكّر حينها إلا بالعودة إلى «صنعاء»، وانفعلتُ وذهبتُ إلى أستاذي وأستاذ البدر السيد أحمد بن محمد زبارة؛ فشجّعني على كتابة خطاب إلى وليّ العهد أقول فيه: لقد صدّقتم من لم يخبرْكم بالواقع؛ إمّا لأنه مغرض أو جاهل. وإذا أردتم الحقيقة فاسألوا السيد أحمد زبارة. ثم قلت: أرجو أن تسمحوا لي بمغادرة تعز إلى «صنعاء» حيث أعيش مطمئنا على ديني! بل لقد أضفت بنُصح من السيد زبارة قولي: وكيف تحكمون عليّ بالردّة والكفر! بوشاية حسود أو جاهل، وأنا حتى الآن لم أخرج عن حدود.. «المذهب الزيدي» أصولاً وفروعا ؟؟ وهل يجوز لكم ذلك؟ ووعدني الأستاذ بالتأييد لدى الأمير.

و بعد فرار الزبيري ونعمان؛ عرف وليّ العهد الحقيقة، وفهم أنّه قد أخطأ بتسرّعه، فاستدعاني إليه ــ و بعد «سين» و«جيم» و«ملاطفة» وكان سيف الإسلام أحمد ذكيا، مهيباً، عالماً، شجاعاً، بهيَّ المنظر، لطيف المعشر لا يختلف في ذلك أصدقاؤه وأعداؤه ــ قال لي: ياولد أحمد كن رجلاً.. ولا تصدّق الأوهام، وأنت ممّن أعدّهم للمستقبل. وسلم إلى يدي «ورقة» فيها حوالة بمائة ريال.. وهي بالنسبة إليّ في ذلك الوقت تساوي خمسين ألف ريال تُعطى لرجلٍ معوز؛ أو «جِراف» حسب تعبير «محسن غنيمة» في ذلك الزمان.

الفرار مع الموشكي إلى عدن:

وذهبتُ قبيل المغرب لزيارة الأخ زيد الموشكي؛ فعندما رآني اضطرب، وظهرت عليه ملامح القلق

فسألته ماذا هناك ؟ قال سأقرّ الليلة إلى «عدن» وأنا أعدّ نفسي ؛ قلت: فورا ؟ ولماذا لا تنتظر إلى الغد مثل هذا الوقت وسأرافقك ؛ قال: ولكن قد اتفقت مع من سيواجهني خلف الحوبان ليعطيني «القارشة» والدليل حتى أتجاوز الحدود ، وأنا انتظر وصوله الآن لنتفق على نقطة الالتقاء ؛ قلت: وهذا من حسن الحظ فعندما يأتي سنتفق معه على تغيير الموعد إلى الغد ؛ وليحضّر معه «قارشتين» ؛ وذلك أيضا أفضل لأنّ غداً موعد وصول بريد صنعاء والأمير في الغالب لا يتأخّر عن «المواجهة» وسوف يفتقدك إذا لم تحضر المجلس وفي إمكاني طوال الصباح أن أعدّ نفسي ، وأُخرج أشيائي وأوراقي من «المقام» وأحرّر «بريداً» إلى أخي بصنعاء مطمئناً له وللوالدة ، وأكون عندك بعد المغرب إن شاء الله فراقت له الفكرة وقال: فإلى اللقاء غداً ، واحذر أن يعرف أو يلاحظ أحد أنك تريد الفرار .

مساعدة محمود المنتصر:

ورجعتُ إلى حيث أقيم في «دار الناصر» بتعز ، وكان القانون يقضي أن لا يخرج شيءٌ ـــ مهما كان ـــ من «دار الناصر» وهو مقر «ولي العهد» إلاّ بإذنٍ خطّي موقّع من قبله ؛ فكنت أرتدي ثياباً متعدّدة وأخبّيء تحتها الكتب ، وأذهب إلى بيت الدكتور الإيطالي «توفلون» الذي كان يقيم معه مساعده ولسانه المترجم عنه السيد الأديب محمود المنتصر اللّيبي الأصل وكان لي صديقاً حيماً ، وكان قد أخبرني انه عرف فرار الزبيري ونعمان وساعدهما ؛ فأفضيت إليه بالسرّ وقبل أن أودع لديه ما أريد حتى يسلمه إلى السيد حسين الويسي الذي كان غائباً في «يَفْرس» وأقيم معه في غرفة واحدة .. وعدتُ إلى «دار الناصر» بثوب واحد ، وارتديتُ عليه بعض الثياب ، وحشرتُ كتابا هنا وكتاباً هناك تحت الأكمام وفي الجيوب ، وكرّرت نفس العملية عدّة مرات بطريقة ساذجة مفضوحة لمن يلاحظ ما يعمله الآخرون حتى هرّبتُ كل أشيائي وثيابي وكتبي ، وأوراقي ، وأظنّ جرأتي ، وجنون شبابي ، ولأني أعمل عملاً غير معقول قد ساعد على نجاحي ؛ وما أصدق القول: «من شدة الظهور الخفاء» !

نصف الطريق إلى القاهرة:

وعندما ذهبتُ إلى «زيد الموشكي» لم أكن أفكّر أو أنوي اللحاق بالزبيري ونعمان بل كنت أفكر بالعودة إلى «صنعاء» .. ولكنني كنت أنفر من فكرة العودة إلى «صنعاء» بسبب أزمتي مع زوجتي ، وكانت تراودني رغبة الذهاب إلى «مصر» للدراسة في معاهدها .. فعندما أخبرني «زيد» انّه ينوي النزوح إلى «عدن» وثبَ الشعور الخفيّ في أعماقي: «الهجرة في سبيل العلم» إلى «أرض الكنانة» حيث «الأزهر» و«جامعة فؤاد» كما كانت تُسمى و«دار العلوم» و بلاد «شوقي» و«محمد عبده» و«الرافعي» .. فصمّمت على مرافقته: وصاح صوتٌ لا يسمعه أحدٌ سواي: لتكن «عدن» نصف الطريق إلى «القاهرة» .. فهذه هي الأسباب الحقيقية الأولى ، والدوافع التي جعلتنا ـــ أو جعلتني على الأقل ـــ أهاجر إلى «عدن» وهناك تطوّرت الأحداث فأسّسنا «حزب الأحرار» ، وأعلنّا المعارضة التي تطالب بالإصلاح !

لم يكن لي غرض سياسي !

لا أريد أن يُفهم من هذا انّه لم يكن هناك أيّ دافع سياسي ، أو هدف وطنّي ، وراء الفرار أو الهجرة

إلى عدن من قِبل الآخرين من زملائي.

لا.. لا أريد أن يفهم القارىء أو السامع هذا.. ولكنّي أريد أن يفهم ــ أولاً ــ أنّني إنما اتحدّث عن نفسي، وكل ما أقول عن الآخرين إنما يصوّر ما أعتقده وأراه، ولا يهمني إذا كانوا قد قالوا أو زعموا شيئاً آخر يناقض ما أقوله الآن وأنا اتحدّث للتاريخ ولا أرجو من حديثي جلب منفعةٍ، ولا دفع ضرر، لا لنفسي ولا عنها، ولا للآخرين ولا عنهم.. وثانيا ــ إذا كان هناك دوافع سياسيّة، أو ما يسمونه أهدافاً وطنيّة فأنا ــ كما ذكرت سابقا ــ لا أحب أن أذكرها؛ إذ قد كثر اللّغط، وعَظمت الدعاوى، وازداد التباهي من قبل الكثير من زملائي النجباء، واخواني الأحرار، وأنصارهم وأشياعهم رغم اختلاف نِحَلِهم ومبادئهم، عن تلك الدوافع السياسيّة والأهداف الوطنية. وكثر النقاش والجدال والتنابز بين المؤيّدين، والمنكرين، والمتنافسين. وزخرت الصحف والمجلات والمنشورات والكتب بكل ذلك خلال العشرين عاماً المنصرمة (١٣٨٢ــ ١٤٠٢هـ/١٩٦٢ــ ١٩٨٢ وقرأتُ وسمعتُ جلّ ما كتبوه وما قالوه.. وأنا لا أريد أن أكون شاهداً فأؤيّد فلانا أو أصدقه، أو أجحد علاّناً، أو اكذّبه.. حاشا، وكلاّ لا أريد تأييد أحد، ولا تزييف كلام إنسان! ولكنني أستطيع أن أقول ــ علم الله ــ ان الكثير مما قرأته أو سمعته لا أعرفه ولا أعلمه، ولا سمعت به من قبلُ، ولا عرفته.. ولا رأيته، ولا فكّرت فيه، ولا أذكر أن أحداً حدثني عنه.! ولست أزعم أن معرفتي أو علمي أو سماعي لشيء ضروري لا ثباته إذا كان، أو لِنَفْيِه إذا لم يكن..! كما أنّي لا أنكر، ولا استغرب ذلك اللّغط والتباهي والجدال عن الأهداف السياسية والوطنية التي كانت وراء هجرتنا إلى عدن وتأسيس «حزب الأحرار» فيها.. وقد كنت رابع أربعة من مؤسّسيه، ولا عمّا يتحدّثون به و يكتبونه و يفاخرون به و يؤرخون له، و يتجادلون حوله، من نضال، ومساهمة فعّالة؛ في سبيل ثورة الدستور و«الميثاق الوطني المقدس» ــ وقد كان لي فيها رأيٌ وقولٌ وعمل، ولا عن السجون؛ ومن تهالك وتخاذل، ومن ثبت وصبر.. لأن الحديث عن كل ذلك قد كثُر، وسمعت دعاوي، و بطولات، وتضحيات، وملاحم، وترتيبات، لم اسمعها ولا علمتُ بها، ولا حدثني عنها أحد عندما كنت مع زملائي في «عدن» وعندما تكوّن حزب الأحرار أو في «صنعاء» لمّا هبّت ثورة الدستور، أو في سجون «الرّادع» و«غمدان» و«نافع» و«القاهرة» بحجة طوال خمس سنوات وقد كانوا ينتخبونني لندواتهم ومجلا تهم، وتجمعاتهم الأدبيّة والفكرية مقرّراً أو رئيسا ولا أقول هذا تباهيا بل لأنّه الواقع؛ ولقد كثر الحديث عن ذلك والتباهي والتفاخر والجدل حتى صار ثقيلا على سمعي، أنفر من سماعه.. بَلهْ إعادته، وتكراره، والمجادلة حوله.. ولا أريد أيضا بل لا أستطيع أن أنكر مالا أدري.. فكيف أشهد بما لا أعرف؟!.. بل ولا أحبّ أن أفاخر أو أتباهى بما صنعت، أو أعتذر مما فعلتُ أو أدافع عنه؛ فإن كان ما عملته للخير والحق فعند الله أجره إن كان صوابا، وإن كان خطأً فأسأله تعالى العفو والغفران.

أهداف الأحرار، وأسماء المرشحين للإمامة:

أمّا إذا تساءلنا وأردنا أن نفهم هل كان هناك أهداف سياسيّة، أو وطنيّة يلهج بها بعض اليمنيين و يناشدون الحكومة والإمام يحيى لتحقيقها؟ وهل قامت الثورة بزعامة الإمام عبدالله الوزير لأنّ الإمام

يحيى لم يُصْغِ إلى تلك المناشدة . . ؟ فأقول :

لقد كانت الفترة التي يعيشها المجتمع اليمني قُبيل وإبّان نشوب الحرب العالمية الثانية فترة قلق ، وتطلع ، وتفتّح ، وتخوّف مما عسى أن يحدث بعد وفاة الإمام يحيى وكان في عقده الثامن وإلى جانب سيف الإسلام أحمد وسيف الإسلام الحسين من أولاد الإمام ، كان هناك شخصيات يمنيّة أخرى يتحدّث الناس عنهم انهم يصلحون للإمامة ، ومنهم من يطمع في السلطة ، أو لا يرضون بأن تؤول إلى سيف الإسلام أحمد ؛ وفي مقدمتهم عبدالله بن أحمد الوزير وعلي بن عبدالله الوزير ، وعلي بن حمود شرف الدين ، وكان التفكير في ذلك ، والتحدّث عنه يثير البلبلة في الأوساط العلمية والأدبيّة . . وكان هناك زمرة من العلماء ، والأدباء يحبّون الخير لأنفسهم و بلادهم ، وعلى اطّلاع ثقافي واسع لا يرضون عن النظام السائد ، والذّي لا يخضع للشورى ، وقد تسرّب الفساد إلى بعض دوائره من رشوة ومحسوبيّة وجور ، و يريدون تغييره بإصلاح الأجهزة الإدارية ، وتأسيس مجلس شورى ، والأخذ بأسباب المدنيّة السائدة في الأقطار العربيّة الأخرى ؛ بفتح المدارس والمعاهد العلمية ، والصناعية والزراعية ، وإنشاء المستشفيات ، وتعبيد الطرقات ، وتشييد السدود ، وإصلاح نظام النقد ، وتوزيع المسؤوليات على إدارات و وزارات . . الخ وكانوا يتحدّثون بذلك ويجهرون به في مجالسهم ، ومنهم محمد بن محمد زبارة ، ومحمد الحجري ، وحسن الدعيس ، وعلي الإرياني ، وعلي الشماحي ، وأحمد المطاع ، وعبدالله العزب ، وأحمد عبدالوهاب الوريث ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك عندما تحدثت عن الروافد ، أو الينابيع التي استقيت منها ، وانفعلت أو تأثّرت بتيّاراتها ، ووصفت أيضاً تأثري وغيري من شباب تلك الفترة بما كانت تكتبه وتنشره المجلات المصرية ، وما كنّا نقرؤه من كتب دينية وعلمية وأدبيّة وتاريخية وسياسية ، وذكرت مجلس السيد محمد زبارة ورسائل ابنه أحمد (المفتي) وخطب أبوطالب ، وكيف تتابعت الأحداث وتطوّرت الأمور حتى وزّعت « المنشورات » التي تندّد بالسلطة وتنتقد الإمام يحيى وكُتّابه سنة ١٣٦١ هـ/١٩٤٢م وطمّت موجة الاعتقالات صنعاء ، وازداد التبرّم وشعرتُ ـ كما شعر غيري من الزملاء والشباب ـ بأن دورنا وشيك . . ولكن ماذا عسانا أن نصنع ؟ غير الشكوى وإنشاء القصائد والمقالات نتبادلها في دائرتنا المحدودة ، أو السعي عند ذوي المقامات للإفراج عن المسجونين ، وعودة المنفيين والتبرّع لعوائلهم ، ومواساتهم المادية إلى السجون . ولعلّ من المفيد أن أذكر بأن الأمر باطلاق الأستاذين أحمد حسن الحورش ، ومحيي الدين العنسي ، من قبل الإمام يحيى قد صدر مُوقّعا بخطّه على بطاقة قدمها السيد عبدالكريم الأمير يستعطف بها الإمام لهما ، وقد قدمتها بنفسي إليه . . وكان نصّ الأمر كما يلي :

« يطلق العنسي والحورش وليتقيا الله » .

مقام ولي العهد بتعز:

واضطربت أحوالي فكريًا ، ونفسيًا ؛ ولم أجد بدًا من النزوح إلى « تعز » كما ذكرت آنفا عندما تعرّفت على « الأمير البدر » وهناك في مقام « ولي العهد » التقيت بالموشكي ، والويسي ، والحضراني . . وقد كان مقام « ولي العهد » قبلة للقصّاد من سائر أصقاع اليمن ، وكان متنفسا للأدباء والعلماء . .



الإمام أحمد في أول صورة له عندما كان «وليا للعهد» سنة ١٣٦٣ — ١٩٤٤م

وعاد أثناء ذلك الأستاذ أحمد محمد نعمان من مصر وسُرَّ «ولي العهد» بمقدمه، وخلب الألباب بخطاباته ومحاضراته عن مصر وما فيها من خير وشر؛ وثابر في مراجعة ولي العهد وحثه على الشّفاعة لدن والده الإمام لكي يطلق سراح الأستاذ محمد محمود الزبيري من سجن «الأهنوم»؛ مُوعِداً إيّاه؛ بأنّه سيكون ومعه سائر شباب اليمن من أنصاره المخلصين، وتضافرت الجهود؛ مع قصائد الزّبيري، وتشفّعاته الرائعة التي كان يبعثها من السجن إلى الإمام يحيى فأمر الإمام بإطلاق سراحه مع زميله «أبوطالب»، وكنت قد عدتُ إلى «صنعاء» آملا في صلاح ذات بيني و بين زوجتي، فلم أفز؛ بل زاد طين البغضاء بلّة، أو على الأصحّ زادت نارها اضطراماً، والتقيتُ بالطليقين مهنئا؛ وفي عيد رمضان وقف «الزبيري» ينشد قصيدته المشهورة في مجلس الإمام يحيى والتي مطلعها:

مـن نـور هـذا المحيّا يشرق العـيـد ... و يـعـبـق المجدُ والعلياء والجود

ثم برحنا معاً إلى «تعز» وألقى قصيدته المشهورة عندما قابله «ولي العهد» وكنتُ ضمن الحاضرين ومطلعها:

إلـيـك؛ وإلاّ يـاتـرى أيـن نـذهـبُ؟ ... فـلـم يـبـق إلاّ أنت في الأ رض كوكب

و يتابع أغاريده، بنغمة تسبي الألباب، ويحتشد معظم أدباء اليمن في «تعز» و يقوم للشعر فيها سوق وأين منه سوقُ عكاظ؟ وحين أنشد الزبيري قصيدته القافية يوم عيد عرفة سنة ١٣٦١هـ / ١٩٤٣م في ميدان الجيش أمام وليّ العهد ومطلعها:

العـيـد مـن بـسـمـات ثـغـرك يـشـرقُ ... والـدهـر حـول جـلال عـرشـك يـطـرق

والتي منها قوله يعرّض بمن ينافسه على العرش:

الـعـرش عـرشك لا سواك، ولـن ترى ... نـدّا إلى آفـاق عـرشـك يـرمـقُ
وإذا امـتـرى قـومٌ بـه قـلـنـا لـهـم ... هـذي الـسّـمـا فـثبوا إلـيـهـا وارتـقـوا
أنـت الـذي خـلـقـتـك آمـال الـورى ... مَـلِـكـاً؛ وآمـال الـورى قـد تخـلـقُ
فـنـشـأت في أجـفـانـهـا وقـلـوبـهـا ... تخشى عـلـيـك مـن الـنـسـيـم وتـشـفـقُ
تـأوي بـصـدر حـنـانـهـا لـم تـقـتـعـد ... في «عَـابدين» ولا احتواك «خورنَقُ»
أفـهـل تـراهـا بـعـد هـذا كـلّـه ... تـرضى سـواك لـعـرشـهـا يـتـسلّـق؟
أم هـل تـرى أمـاًوقـد كـبـر ابـنـهـا ... وغـدا يـصـبّ لهـا الـنـعـيـم و يـغـدق؟
تـأبـى بـنـوّتـه، وتـذهـب تـدّعـي ... ولـداً سـواه تـضـيـق مـنـهُ وتـرهـق؟
هـذا لـعـمـركـم المحـال، ولـن تـرى ... شـعـبـاً على خـيـط المحـال يُـعـلّـقُ
قـد تخـفـق الأفـراد في أمـنـيّـة ... أمّـا الـشـعـوب فـلـن تـراهـا تخـفـق

إلى آخرها وهي حوالي مائة بيت؛ أعجب بها «ولي العهد» ولقّبه بشاعر اليمن؛ و بعد ظهر ذلك اليوم ألقى الأستاذ أحمد نعمان كلمةً طو يلة رائعة في مجلس الأمير.. فلّقبه بخطيب الشعب، ! وتقوم محاورة بين الأدباء؛ أيّهما أفضل وأجمل «الشعر» أم «النثر»؟ وتتوثّقُ الروابط الأدبيّة بين شعراء «تعز» و«صنعاء» و«ذمار» وغيرها من مدن اليمن، وتحدُث المجاعة الكبرى في اليمن إثر القحط

والجفاف لمدة عامين، ولا يؤدّي المسؤولون واجباتهم أثناء ذلك نحو المواطنين؛ وتَسري بينهم أمراض الجوع فيتساقطون دون مُغيث أو إسعاف أو علاج و يزداد تذمّر العلماء والأدباء، و يكبر صوت النقد، وحدث ما سبق شرحه من تهديد «ولي العهد» للأدباء و«العصريين» وأنّه سيلقى الله مخضّباً سيفه بدمائهم، فيفرّ «الزبيري» و«نعمان» إلى «عدن»، خلال أسبوع اتبعهما مع السيد زيد الموشكي بالطريقة التي رو يتها.

قصة فراري مع الموشكي إلى «عدن»
وتأسيس «حزب الأحرار»:

بعد أن نقلتُ أشيائي من مقام «دار الناصر» إلى مكان الأستاذ محمود المنتصر؛ ذهبتُ قبيل المغرب إلى بيت السيّد زيد الموشكي في «الجحملية» فوجدته ينتظرني ومعه رفيق اسمه «عبدالله»؛ فودّع أولاده وزوجته الفاضلة، وكنا قد اتفقنا على أن نتنكّر في ثياب «العسكر» أو «الفلاّحين» وأن نتخلّص من «العمائم» و«الشالات» وقمصان «العلماء» والموظّفين، والقضاة. ولكن زيداً قال: لقد نَصَحَت زوجتي أن لا نفعل ذلك؛ قلت:ولماذا؟ قال: لقد قالت: إنها تخشى أن يُلقى علينا القبض، وإذا حدث ذلك ولا سمح الله فسيشمت بنا «ولي العهد» وأصحابه، وأكرم لنا أن نظلّ في ثيابنا المعروفة، وقد نستطيع أن ندّعي أننا إنما نريد الذهاب إلى «خدير» أو «الرّاهدة»، وأردف ولقد نصحتنا بأن لا نقاوم لو اكتشف أمرنا بل نستسلم، إذ أنّنا لو قاومنا أحد عساكر «ولي العهد» أو «جرحناه» فإن رفقاءه سيقتلوننا، وهم ليسوا لنا بأعداء ولا يعرفوننا! مذكِرةً بالمثل اليمني القديم «عاد فوق النّاس ناس» و بعد أن صلّينا المغرب والعشاء جمعاً؛ اتجهنا صوب «الحوبان»، وكنا في يوم ثالث أو رابع شهر جمادى الأولى أو الآخرة (لا أذكر الآن) سنة ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م لكنّ هلال الشهر الجديد كان في سبيل انحداره.. وكنا مع الدليل نمشي على أمل بأننا إذا وصلنا إلى مكان ما، بعد «الحوبان» سنجد «القراش» و«الدليل» بواسطة أحد المشايخ من أصدقاء «نعمان»! وما إن التقمت لجّة الليل الهلال الوليد حتى اطبقت الظلمة، فأشعل «الرفيق» «عبدالله» الفانوس، واجتزنا «الحوبان»، والرفيق بفانوسه أمامنا، وارتقينا أكمةً، وكنا قد أمضينا حوالي ساعتين، فوقفنا عند صخرة، وقال «عبدالله» هذا هو المكان، وصخرة الملتقى ــ فتذكرت قصيدة الشاعر علي محمود طه ــ فانتظروني هنا، وسأذهب إلى الشيخ «فلان» وأعود مع «الدليل» و«الحمارين» إن شاء الله، وذهب إلى قرية «المنزل» و بعد حوالي نصف ساعةٍ قضيناها في صمت مطبق مظلم؛ كلٌّ يناجي وساوسه والنجوم بما لا يدريه الآخر، إذا بعبدالله يعود ومعه شخص آخر يُظهر نور الفانوس الخافت على ملامح وجهه علامات الاستياء، وألوان الذعر والقلق والاضطراب، وقال: «أنا متأسف فلن أستطيع أن أفي بالوعد فأزوّدكم بالمركوب، فقد انتشرت أخبار هروب نعمان والزبيري، وعرف البعض أنّنا ساعدناهم، وهناك رقباء وجواسيس للدولة ونحن نخشى على أنفسنا من الضرر» قال زيد:وأين الدليل؟ قال: كذلك لا نستطيع ودبّروا حالكم.. ثم تركنا وغاص في الظلام.. وسقط في أيدينا.. وسأل زيدٌ عبدالله: هل تعرف الطريق إلى الحدود؟ قال: لا، وأنا مسؤول عن إيصالكم إلى «المنزل» ثم أعود إلى «تعز» هذه الليلة، وكنّا قد



المؤلف وعن يساره السيد زيد الموشكي في «عدن» عام ١٩٤٣م

قطعنا مسافة ساعتين نجري بين الأحراش في ظلام الليل، وفي طريق وعرة .. وقلتُ لعلّه يحسن بنا أن نعود ــ وكان التعب قد أخذ مني، والخوف قد تغشاني ــ فقال زيد: لا .. بل الأفضل وقد عزمنا أن نتوكل على الله، انّ الله يحب المتوكّلين؛ ويجب أن نواصل السير.. وكأن هذه الإرادة القوية، والتصميم المثابر والثقة بالله قد شجعت أو اعجبت رفيقنا «عبدالله» فقال: وأنا معكم بالفانوس حتّى الصباح ..! ومضينا نخبط العشواء، ونستهدي النجوم نحو الجنوب بين الأحراش والأدغال لمدّة سبع ساعات حتى ظنّنا أننا قد وصلنا إلى الحدود أو صاقبناها .. وأخذ التعب منا كل مأخذ، وقرُب الفجر، فقال زيد: بدلاً من أن نمضي بقية الليل نخبط العشواء ولا ندري أي منهج، ولا أين نسلك، فلنسترح قليلاً حتى مطلع الفجر، وما هي إلاّ سويعة حتى شعشع ضوء الفجر، وإذا نحن نسمع أصواتا قريبة منا .. وتطلعنا إلى الأكمة فإذا بشخص قال له زيد: صباح الخير فأجاب بلهجة غير لهجتنا الصنعانية: صبّحكم الله بالخيرات.. فسأله: من أين أنت؟ قال: من قرية كذا كأنّه قال «الشراقي» قرية بقرب مدينة «خدير» التي فيها مركز الحكومة .. والتي لا تبعد عن تعز إلا حوالي أربع ساعات مشياً على الأقدام ــ وقصدنا مسجد القرية فأدينا صلاة الفجر وآوينا إلى «عُشّةٍ» صنع لنا صاحبها قهوة، واشترى لنا قليلاً من التمر أفطرنا به ثم سلكنا الجادّة الواضحة المملوءة بالمسافرين ــ ونحن كما قلتُ بألبستنا المدنيّة وزيد يرتدي «شالا» سماويا، وعليّ شال «وردي» ــ وكان اللّون «الوردي» ولا يزال أحسن الألوان عندي وأفضلها ــ وتجنّبنا دخول مدينة «خدير» حيث «العامل» و«الحاكم» و«بيت السلك» وطلبنا من صاحبنا الهمام «عبدالله» أن يذهب إليها و يستأجر لنا «حمارا» أو «حمارين» ونحن سننتظر له في جانبٍ من قارعة الطريق و بينما نحن كذلك إذا بنا نسمع حركة سيارة قادمة من جهة «الرّاهدة» فانبطحنا وتواريّنا بصخرة كانت بجانبنا خشية أن يرانا من على السيارة و بحمد الله مرّت بسلام وعرفنا من فيها وكان أحد خدمة ولي العهد والدكتور الايطالي «توفلون» الذي أودعتُ عند مساعده المترجم السيد محمود المنتصر أشيائي، قادمين من «عدن» في طريقهم إلى «تعز» .. وتأخّر «عبدالله» حوالي ساعة فساورتني الشكوك فقلتُ: لعل الفتى قد باعنا .. وربما قد ذهب إلى «العامل» أو «القاضي» أو «مدير السلك» وأخبرهم عنّا؛ طمعاً بما لديه من فلوس ــ وكانت ثلاثين ريالا ــ وهي كنز ثمين لشخص مثله في تلك الأيام ــ لكن ظنّي السيء قد خاب، فقد رأينا الرجل يهرول من أكمة «خدير» ومعه صبيّ وحمار، تناوبنا امتطاءه حتى وصلنا وادي «ورّزان» حيث النهر الغزير الذي تضيع أمواهه، وتذهب سدى، أو ينتفع بها قوم آخرون. وتعلمت درساً أن حسن الظن بالسذّج هو الحزم.

ونزلنا للراحة وراء أكمة تحت شجرة عتيقة ضخمة، وأمر زيد عبدالله و«الصبي» صاحب الحمار بأن يظلاّ بأعلا الأكمة، يراقبان الطريق وكانَ رأي «زيد» أن ننام هناك بضع ساعات .. وحتى بعد العصر لكي لا نجتاز «الراهدة» نهاراً.. وهي جمرك حيّوي، وكل من فيها من موظفين وعساكر يعرفوننا، ولأنها آخر مدينة في «الحدود» المصطنعة بين اليمن المستقلة و«المحميات» حينذاك؛ فأخبار من يصل إليها تصل برقياً إلى «ولي العهد» تباعاً حتى لقد كانوا يسمونها «أُذن سيف الإسلام».

قلت له: لكن الوقت أهمّ من الظلام، وأخشى أن يُكتشَف أمرنا بتعز، فيأمر «ولي العهد» بالبحث عنا قبل أن يخيّم الظلام ونتجاوز الحدود وسيجدوننا حتى ولو كان قد خيّم الظلام، فنحن نسلك الجادّة الواضحة، وإذا مضينا الآن وتجنّبنا دخول الرّاهدة فقد نستطيع مجاوزة الحدود.. قال زيد: كلا.. وكان ـــ رحمه الله ـــ عنيداً، وإذا صمّم على أمر فمن الصعب أن يتراجع عنه.. ثم أردف: إنني تاعب يا أخي، وأريد أن أنام.. واستلقى وقبل أن يخامره النعاس تبادلنا بعض النكات وتذكّرنا قصيدة الزبيري في مدح «ولي العهد» والتي يقول فيها.

أنت أكرمتنا، وأنت كنزتَ الحـــ   بّ فينا كنز البخيل الدراهم

وقلت مداعباً: أما لسان حالنا فينشد:

أنت شردتنا فصرنا حفاة   لا بغالٌ، لا كسوةٌ، لا دراهم

فضحك.. وسرعان ما سبح في نوم عميق، ووقفت أحرسه ـــ مثلما سيقف يحرسني عندما مرضت في «عدن» وقد سجّلت هذين الموقفين الشاعرين في قصيدتي التي بكيتُه بها عندما استشهد بحجة سنة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م

القلق على الوقت:

وكنتُ شديد القلق على الوقت، وبعد حوالي ساعتين، تلبدّت السماء بالغيوم، فحجبت عنّا الشمس، وكانت الساعة لم تتجاوز الثالثة بعد الظهر «التاسعة بالتوقيت العربي»، و«زيد» لا يزال غارقا في السبات العميق، فأخذت ساعته من جيبه بلطف وقدّمتها ساعتين؛ ثم أيقظتهُ بصوت منفعل بالفزع والقلق وأنا أقول: يازيد.. ياأخ زيد.. لقد تأخرنا.. وأزف الوقت، ولم يبق إلى غروب الشمس إلاّ ساعة فانهض مسرعاً.. فهب وهويقول: الحمدلله لقد شبعتُ نوماً فهل نمتَ؟ قلت: قليلا.. قال يحسن من الآن أن نعيد الرفيق، ولسنا بحاجة إلى الحمار أيضاً فسنجتاز حقول وادي الراهدة وعندما نتجاوزها نعود إلى الجادة عسى أن نجد سيارة في طريقها إلى «عدن» وأعطينا «عبدالله» خمسة عشر ريالاً، ورجع بفانوسه، وسلمنا للصبي ريالين على أن يمتطي الحمار عبدالله حتى يصل «خديراً»، وما إن حاذينا «الراهدة» في بطن الوادي حتى تقشعت الغيوم وإذا بأشعة الشمس المشرقة ساطعة وضّاءة ونظر زيد إلى الساعة فوجدها قد جاوزت الثانية عشرة «السادسة» وقت الغروب فنظر إليّ باسماً وقال: إن هي إلاّ حيلتك! قلت: ستحمدها إن شاء الله وكأن القدر الرحيم كان يحبك قِصّة، إذا ما كدنا نتجاوز الرّاهدة، ونعود إلى طريق السيّارات حتى رأيناها.. سيارة كبيرة تتبختر مثقلةً هابطة بحمولتها من جمرك «الراهدة، وكناطوال الطريق نذكر الله، ونتمتم بالآية الكريمة: [وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» والتي يقال: إنّ من أراد أن لا يراه عدوّه، أو من لا يحب أن يراه أحد فليقرأها عدّة مرات؛ وانتصبنا في طريق السيارة ملوّحين لسائقها، فوقف، ومن حسن الحظ أنّه لا يعرف أحداً منا، وكأنّه توهّم أننا تحاشينا دخول جمرك «الرّاهدة» لأنّنا نُهرب شيئاً نريد الاتجار به! عرفنا ذلك لأننا حين سألناه إركابنا إلى «لَحْج» اشتطّ في مبلغ الأُجرة وطلب على كل واحدٍ عشرين ريالاً بينما الأجرة المعلومة تتراوح ما بين خمسة إلى عشرة ريالات.. فلم نساوم؛ وقلت لنفسي فليعتقد

أننا مهرّبان وليس هاربين! وكنت لمحتُ بين ركّاب « السيارة » رجلاً أعرفه، وهو تاجر من تعز من آل جازم. « الحروي » وقد لمحه السيّد زيد، وكان من أصدقائه فتفاهما بالنظرات الخفيّة، وطلب « السائق » الأجرة؛ فقال زيد. لا.. حتى نتجاوز « الخشبة » فزاده ذلك يقينا أنّنا « مهرّبان »، وأنه سيقبض الأجرة كاملة.!

وامتطينا « السيارة » بين « الحمولة » وكانت قطنا، وقاتاً وحبوباً، وفواكه، وأشرقت الشمس من تحت السحب وهي تدلف نحو الغرب وقلت لزيد: الحمد لله؛ لولا الحيلة، وتقديمي للسّاعة لفاتتْنا السيارة..! لكأنما كنا على ميعاد؛ قال: ربّنا رحيم حكيم، وسأل أحد الركاب: كم الساعة؟ قال: الخامسة: « الحادية عشرة »، والباقي إلى المغرب ساعة قال زيد وهو يرمقني: ساعتي تمشي على عجل، ثم ضبطهَا.. وضبطتُ ساعتي أيضا.

وكان التعب قد أخذ منا كلّ مأخذ؛ بعد ذلك الخبط العشوائي لمدّة عشر ساعات في ظلام الليل و بين الأحراش، ولذلك فلم نُبَل بخشونة المركب، وتحركت السيارة والصديق « الحروي » ينظر إلينا صامتا، وكنت أقرأ في عيون بعض « الركاب » من التجار، والفلاحين، والعمال معاني الاستغراب؛ وهم ينظرون إلى « ثيابنا » و« شالاتنا » و« عمائمنا » وكأنهم يتساءلون كيف كنّا نمشي راجلين، ومظهرنا يدلّ على أننا من الأثرياء، أو الحكّام، أو القضاة؟ ولماذا إذا ما كنّا من رجال الدولة لم تأمر لنا بسيّارات خاصّة كما تعمل مع سائر مندوبيها إلى عدن؟ ولماذا وهُم قادرون ــ كما تدلّ صورهم وملابسهم يُعنتون أنفسهم هذا العنت، و يبخلون عليها باستئجار بغال أو حمير على الأقل؟ ثم لماذا ليس معهم حقائب؟ إلى آخر تلك الأسئلة التي كنت أتخيلها؛ بل أسمعها صارخة في نظرات رفقائنا الركّاب! وكنتُ أردّد في أعماقي الآية: [وجَعَلنا من بين أيديهم سداً ومن خَلْفِهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ». وما إن اجتزنا أرض الشيخ « ابراهيم حاميم » التي كانت تكوّن منطقة الحدود، وكان من أصدقاء وليّ العهد المخلصين، وتجاوزنا « الخشبة »؛ بعد أن وقفت السيارة عندها بعض الوقت أبرز أثناءه سوّاقها، أوراقه الرسميّة من قبل « الجمرك »، والتي تشهد له بأنّه قد سلّم كل « العوائد » ومعها رخصة المرور حتى وثب « الحروي » إلى السيّد « زيد » مسلّماً ومحيّيا، وهو يقول: نحن الآن في أرض « المحميات » الانكليزية.. ولا خوف عليكم! لقد تجاوزنا حدود اليمن!! وتأثّرت لهذه الكلمات.. وانفعل السيد زيد انفعالا شديدا؛ فصاح بالسوّاق: توقّف! ثم وثب إلى الأرض وسجد وهو يقول: اللّهم أشهد؛ أسجد لك شاكراً لأني خرجت من وطني سالما.. وما تعوّد الناس أن يسجدوا لك شاكرين إلاّ عائدين إلى أوطانهم آمنين! أسجدُ لك.. لأني تمكنتُ من مغادرة بيتي، ومفارقة أهلي وأولادي. اللّهم أشهد [ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين]، أما أنا فقد ظللتُ قابعاً في مكاني منفعلاً بمشاعر لا توصف بالكلام.. وكنت أتسلّق العقبة الحادية والعشرين من سني الحياة.. والشمس قد توارت؛ وأحسست كأن الشفق يبكي بكاء « الوداع » فبكيتُ معه، وقلت متمتماً إلى اللقاء يا أماه.. وأيقنت أن امّي ستسمع هذا الصوت وكنت مجهداً، خائفاً، قلقاً، فشعرت بالاسترخاء والاطمئنان فنمتُ ولا أدري ماذا دار بين السيد زيد الموشكي و« الحروي » و« السوّاق » وسائر « الركاب » بعد أن

عرفوا أننا لسنا «مهرِّبين» تجارا.. بل «هاربين» خارجين على «الدولة»؛ كما هرب، وخرج «الزبيري» و«نعمان».. وما استيقظتُ إلاّ ونحن في «جمرك» «لحج»؛ وزيد يقول: قم يا أخ أحمد: لقد سلمتُ للسواق «حبة ذهب» عنك وأخرى عنّي، ووافق على أن يوصّلنا إلى «الشيخ عثمان».

قلت: وأين سننزل هناك؟

قال: لا أدري أين يقيم نعمان والزبيري هناك ولهذا فقد قلت للسوّاق يوصلّنا إلى المكان الذي يقيم فيه «نائب ولي العهد القاضي حسين الحلالي» إذا كان يعرف أين يقيم.. ومن حسن الحظ أنّه يعرف بأنه نازل في بيت «الشيخ المكاوي» في «الشيخ عثمان» ومنه سنعرف أين يقيم الاخوان.

واتجهنا نحو «الحلالي» وكان قد نزح إلى «عدن» للمعالجة، والاستشفاء ونزل «بالشيخ عثمان» في إحدى بيوت التاجر المشهور «المكاوي» وكان نائب ولي العهد «القاضي حسين الحلالي» ممّن يشجّعون المنادين بالإصلاح.

القاضي حسين الحلالي:

وكانت صلتي به ــ كما كانت صلة زيدــ وثيقة، وكان يودُّني كثيراً، ومن أكبر أصدقاء الوالد عبدالرحمن الشامي. ولن أنسى حين غادرنا «السيارة» ودخلنا قصر «المكّاوي» الضخم الفخم ــ أو هكذا خيّل لي حينذاكــ وكانت الساعة التاسعة صباحاً كيف هشّ لنا و بش بوجهه الباسم الصّبوح، وهو يضحك تلك الضحكة الساحرة الجذّابة و يقول: «وأنتم لحقتم الشياطين.. يا شياطين» يعني تبعنا الزبيري ونعمان.. فقال زيد ضاحكاً : وغدا سيهرب «ولي العهد» نفسه إذا لم تتحسّن الأوضاع، وننصح لك بأن لا تعود! وضحكنا.. ورحّب بنا وسهّل وأمر بالمشروبات الباردة، وما لذ وطاب من المأكولات، وكانت ملابسنا قد اتسخت وتهلهلت، وليس لنا بدلات غيرها.. إذ لم نستصحب إلاّ ما على جلودنا، فأمر لنا بثياب، وملابس جديدة، واغتسلنا وصلّينا الظهر بعد قيلولة مريحة، وكان الحرّ شديدا لكن «المراوح» الكهربائية ــ التي عرفتها لأول مرّة كانت تُرشرشنا بنفحات من النسيم، كنتُ أجدُ لها لذّة لم أعرفها من قبل في مدننا الحارة «كالحديدة» و«المخا».. و بعد أن تناولنا طعام الغدا مع «الحلالي» والتاجر الكبير «المكاوي» جيء بالقات «الصّبري» والماء المثلّج، فخزّنا؟ وتحدثنا شتى الأحاديث ووصفنا له مجلس «ولي العهد» العاصف، وغضبته على «العصريين»، إذ أنه لّم يكن موجوداً، فقد كان منذ حوالي شهر في «عدن» للعلاج.. و يعتقد البعض أن «الحلالي» لو كان بجانب «ولي العهد» وهو نائبه ومستشاره، وأكبر أعوانهــ لما حصل ما حصل: لما يُعرف به من الرّصانة، والحكمة، وحسن الرأيــ وكلّما سألناه: وأين الاخوان؟ وأين الزبيري ونعمان؟ وأين ينزلان؟ أجاب سيأتيان.. سيأتيان!

يظهر أنه كان ذا غرض خاص في تأخيرنا عنهم، وعدم إشعارهم بوصولنا، مع أنهم يقيمون في نفس مدينة «الشيخ عثمان»، و يعرف عنوانهم، ومن السهل عليه استدعاؤهم.. وقد انكشف لي

ذلك الغرض حين أقبل الليل، فما إن انتهينا من صلا تي المغرب والعشاء، وتناولنا العَشاء، والشاي، وسمرنا ساعة أو ساعتين، حتى قال: انتم ياسيّدي زيد ستنامون في الغرفة «المبرّدة»، وأنا سأطلع مع السيد أحمد «السطوح»؛ وكان الطقس حاراً ملبّداً بالرطوبة، وقد كنا في آواخر «مايو» أو أوائل «يونيو» حين يموت النسيم العليل.. والتفتَ إليّ متسائلاً ذلك النوع من التساؤل الذي يشعرك صاحبه بأنّه يريد أن يُفضي إليك بحديثٍ خاص: هل تحب النوم في السطوح؟ قلت: نعم. قال: وأنا كذلك.. وكانت السماء صافية ونجومها ساطعة كسائر سماوات ونجوم تهامة وأزيز الطائرات الحربيّة يهزّ الآفاق، وأضواء المصابيح الكهربائية تمزق أديم الظلام وقد بهرني كل ذلك وأنا ابن صنعاء اليمن التي لم تسمع بعد أزيز الطائرات لا المدنية ولا الحربيّة ولم تكتحل عيون أهلها بأضواء المصابيح الكهربائية.

محاولة الحلالي اقناعي بالعودة:

كان «الحلالي» في حوالي «الستين»، وهو من عائلة كريمة، وله منزلة كبيرة لدى ولي العهد والناس، وكان دمث الأخلاق، لطيف المعشر، سمحاً كريماً.. وكان يودّني و يشجّع طموحي حتى انه قد وضع بيني و بينه «شيفرة» عندما غادرت «تعز» إلى «صنعاء»؛ معتمداً علي بموافاته بما يهمّ من الأمور وما يجدّ من الأحداث مع أني كنتُ لمّا أتجاوز العشرين! وقد لامه على تلك الثقة بعض التافهين!

و بعد حديث سبق أن تحدثنا بمثله عندما كنّا نخزّن «القات» قال: سيّد أحمد.. لماذا تهرب؟ وأنت تعرف قرابتك من بيت حميد الدين، وأنّ ولي العهد يودّك و يقدرك؛ وأنا أعرف هذا أو متأكدٌ منه؛ وكثيرا ما قال لي: «هذا الولد أحمد الشامي من رجال المستقبل» وتذكّرت ما قال لي «ولي العهد» حين استدعاني إليه في «عُصَيْفرةِ» قبل فراري بيومين، ولم أكن قد ذكرت ذلك للحلالي.. فاستحيتُ وتلعثمتُ وحاولتُ المغالطةَ؛ وقلت: لكنّ الأوضاع سيّئة كما تعرفون. قال: لا..لا.. هذا بحث آخر.. يهمّني أمرك وأنا أعدّك مثل ابني، وسأضمن لك «الأمان»، وكل ما تطلبه، ثم تذكّر أنّك لست كالآخرين ممن لهم مشاكل مثل «نعمان» و«الزبيري»، وأنك لا تزال شابا ولن تستطيع تحمّل المتاعب، وأمّك المسكينة التي ربتك، وتعبت عليك، وترمّلت من أجلك كيف سيكون حالها بعدك؟ وما كادت تبدأ تنال خيرك، وتؤمّل في أن تسعدها حتى تراك بعيداً عنها عاصياً للدولة؟ وأخوك الشاب قد يمسّه الضرر؛ فالسلطة لا ترحم.. وقد يؤخذ الجار بجرم الجار؟ ففكّر يا سيّد أحمد؛ وهذه نصيحة والد لم يكلفني بها إلا ضميري ومحبتي لك، ومعرفتي باخلاصك و براءتك، وان ليس لك غرض غير الإصلاح، ولكنك لا تزال شابا، وفي الإمكان إذا عدت معي غداً أو بعده أن أضمن لك بأن يبعثك «ولي العهد» على نفقته الخاصة إلى «مصر» لتدرس بها وتستفيد و ينتفع بك الوطن.. وأمّا هنا فستتعب فالنّاس ليس كما تتصوّرهم: ومعظمهم أصحاب مصالح و يتحرّكون و ينفعلون بمشاكلهم الخاصة، وستعلّمك الأيام هذا، وتُطلعك عليه.. وهؤلاء الانكليز كذّابون، يهمّهم أن ينتصروا في هذه الحرب على «هتلر»، وقد يساعدونكم. وقد لا يساعدون؛ حسب مصالحهم، ومواقفهم السياسية مع «الإمام» وإذا سمحوا لكم بالنشاط اليوم والموقف سيء بينهم و بين «الإمام» فسيسلّمونكم إليه إذا تحسّن الموقف، والخلاصة لم يترك وسيلة من وسائل التأثير العاطفي إلاّ توسَّل بها لاقناعي بالعودة، ولا

أهمل سبيلاً أو أسلوباً؛ من سُبل التوجيه والنصح، وأساليب السياسة والضغط إلا وسلكها لكي يصرفني عن البقاء في عدن.. حتى خجلت ولم أجد منفذا للتخلّص إلاّ أن أظهر له تأثري بما قال ــ ولقد أثر فيّ بعضُه ــ وأن أقول، «دعوني أفكّر حتى الصباح» فقال: «والصباح رباح» وذهب كلٌ إلى فراشه.

ولم أنم نوماً هادئاً؛ فضجيج السيّارات في الشارع، وأزيز الطائرات في الجوّ، وصدى حديث الحلالي ــ وخاصة تصويره لحالة أمّي وأخي عبدالوهاب وتعريضه بأمكانيّة إرسالي إلى مصر للدراسة وهي أمنية جميلة أحلم بها منذ أمد بعيد.. كل ذلك قد حال بيني وبين النوم الهادىء الهنيّ، على الفراش الوثير داخل «ناموسية» التاجر الكبير.

إلى الحكيمي:

وصلّينا الفجر وبينما نحن نتناول طعام «الفطور» إذ بمرافق القاضي الحلالي يقول: الأستاذ نعمان والقاضي محمد الزبيري وصلا وهما في مكان الانتظار. فقال الحلالي: فليشرّفا.. وأقبلا وقمنا؛ نتعانق ونتصافح ونضحك كأنّما كنّا على موعد، وننفّذ خطّة مدبّرة. وهكذا ظن الحلالي؛ لأنه قال: أمرٌ أبرم بليل، وخطة محبوكة! وضحك معنا.. ولم يكونا قد عرفا مجيئنا، وإنّما وصلا لزيارة «النائب الحلالي».

وتلاشت أصداء أحاديث «الحلالي» عندما رأيت الصديقين؛ وبعد قليل تركناه، ومضينا إلى مقرّهما.. وكانا قد نزلا ضيفين على الشيخ عبدالله علي الحكيمي رئيس الزاوية العلوّية، وزعيم الجالية اليمنية في بريطانيا، وكان قد وصل إلى عدن لزيارة أهله، وله بالشيخ عثمان بيت وزاوية وأتباع لطريقته الصوفية العلوية، وكان رجلا فاضلاً كريما، يحب الخير، ويدعو إلى الإصلاح، وأسلم على يده جماعة من البريطانيّين وقد رحّب بنا أجمل ترحيب وهيّأ لنا سريرين بجانب أسرّة سكان الزاوية ولم نبت إلاّ ليلة واحدة عند الشيخ إذ قد أستأجر لنا بيتاً صغيراً بجوار داره ليكون مقرّاً خاصاً بنا: فيه غرفة أرضيّة تنفذ إلى ساحة صغيرة فيها مطبخ وحمام وفيها مصعد خشبي إلى السطح وفي الغرفة ثلاثة أسرّة، ومشاجب لتعليق الثياب وفي السطح سقيفة فيها أربعة أسرّة إذ لا يمكن النوم في الغرفة لشدة الحر، ولا ينام جل السكان إلاّ في «السطوح».

قصيدة خرجنا من السجن:

وكنت قد تزودت بسبعة دنانير ذهبيّة، وكان في حوزة «زيد» عشرة دنانير صرف منها دينارين لسوّاق السيارة التي أوصلتنا إلي الشيخ عثمان. وقد أخرجها زيد من جيبه وقال خذها مع ما تملك، وسلم الجميع إلى الأستاذ نعمان وقل له: هذا كلّ ما نملك الآن. وقال الأستاذ عندما سلمتها إليه: شكرا شكرا يجب أن نوحّد المالية أعندكم المزيد من هذه.. «الجنيهات»؟ قلت: هذا كل ما نملك الآن.. فضحك وقال: المال عصب الحياة، وسيفتح الله علينا وعليكم إن شاء وهو الرزّاق العليم.. وكان زيد مستلقياً على سريره الخشبي في المدخل الذي سمّيناه غرفة؛ ولا نوافد له ولا متنفّس إلاّ الباب

المؤدي إلى قارعة الطريق ، والعرق يتصبّب من جبينه ، والزبيري على سريره بجانبه يتفصّد جبينه عرقاً و يُسوّد قصيدته المشهورة التي مطلعها :

خرجنا من السجن شمّ الأنوف ... كما تخرج الأُسد من غابها
نمرّ على شفرات السيوف ... ونأتي المنيّة من بابها
ستعلم أمتنا أننا ... ركبنا الخطوب حناناً بها
فإن نحن فُزنا فيا طالما ... تذلّ الصعابُ لطلاّبها
وإن نلقَ حتفاً فيا حبذا المنايا .. تجيء لخطّابها

أول حوار عن بخل نعمان :

وأمّا الأستاذ نعمان فكان على سريره الخشبي تحت سقف من القصب يستظل به من حرارة الشمس في السطح يحرّر رسائل .. وقد اخبرت زيداً بما قال نعمان ؛ فتبادل النظرات مع الزبيري ، وكان كلٌ منهما يكن للآخر الحب الخالص ، والإجلال والتقدير ، وضحك زيد وقال : وأيّة ماليةٍ يريد أويقصد ؟ قال الزبيري : أنا أعرف الأستاذ أنه شحيح حتى على نفسه وأولاده ، وهو يحب المال حبّا جما ، لكنه طيّب السريرة ولي معه أقاصيص ونوادر مضحكة عندما كنا في مصر .. قال الموشكي : وهل يخطر في باله أننا سنخفي عنه شيئاً وقد خرجنا للجهاد ؟ قال الزبيري : إنه يهزل يا أخ زيد .. ودخل علينا رسول الشيخ عبدالله الحكيمي يسأل عن الأستاذ نعمان قلت له : في السّطح .. فطلع إليه وعاد معهُ والأستاذ يقول : هيّا بنا ، هيّا بنا لقد طلبنا الشيخ وارتدى كلٌ جُبّته وعِمّته وشاله وذهبنا إليه ، وقطعنا ذلك الحديث الكئيب عن « المالية » و« الذهب » و بُخل الأستاذ .. وتبدّدت هواجسُ شعرّية ساذجة كانت تداعب خيالي وتتواثب في آفاق فكري ، بتفاعيلها وصورها وقوافيها ، وأنا استعد لنظم أول قصيدة قلتها في عدن والتي مطلعها :

غريب يجوب القفر والليل سادرُ ... ولا هاديا .. إلا النجوم الزواهرُ
وفي قلبه مِمّا يكن معارك ... نوازع تطغى بالأسى وخواطر

وذهبنا إلى الشيخ عبدالله فقال : سنذهب معاً إلى «عدن» وسنتغدى و«نُقَيّل» في نادي « الأغابرة » ونزور بعض الشخصيّات البارزة لتتعرفوا بها كالشيخ خير الدين علم الدين رئيس جالية البهرة ــ الاسماعيلية ــ والأستاذ أحمد سعيد الأصنج ، والأستاذ محمد علي لقمان محرّر وصاحب «فتاة الجزيرة» والأستاذ محمد سالم البيحاني وغيرهم .. وركبنا السيّارات وقصدنا «عدن» وقد اندهشت حين رأيتُ كثرة السيارات الذاهبة والآيبة من عدن وإليها ، وما إن اقتربنا من المدينة ورأيت المصابيح الكهربائية المبثوثة في الطرقات ، والشوارع والمحلاّت التجارية حتى انبهرت فليس في «صنعاء» ولا «تعز» شيء من ذلك ، واحتفى واحتفل اليمنيون بنا ، وتبودلت الخطابات وزرنا كل تلك الشخصيات البارزة وتحدثنا عن اليمن ، وأحداثها وأننا قد خرجنا لنناشد الإمام وحكومته بالإصلاح ، ورفع الظلم عن الرعيّة ، والنهضة بالبلاد ورفع مستوى الحياة فيها إلخ .. الخ .. وقد كان يوماً مشهوداً كما يقولون وقد سهوت أن أذكر في مطلع الحديث أن الشيخ مطيع دمّاج كان قد فرّ إلى «عدن» مع أستاذه وصديقه

عقيل عثمان قبل أن يفرّ الزبيري ونعمان بحوالي شهر و بدآ ينشران في جريدة «فتاة الجزيرة» بيانات ومقالات تندّد بالإمام وحكومته وتصف ما يعانيه الفلاحون والرعايا من جور وظلم الحكام والعمال والعساكر والخرّاصين، وكانا أيضاً معنا في الاجتماعات المشار إليها. وعدنا في المساء إلى الشيخ عثمان وقد انذهلتُ وأعجبت بما شاهدته من مظاهر العمران والمدنية في كل من «عدن» و«المعلا» و«التواهي» مقر نادي «الأغابرة» على أن نعود في اليوم التالي «للغداء» في النادي «الذّبحاني» بدعوة من رئيسه وأعضائه و«ذبحان» هي بلدة الأستاذ أحمد نعمان، وكان أبناء كل ناحية يكوّنون لهم نادياً خاصاً بهم فناد للأغابرة، وناد «للشراجبة» وآخر «للذباحنة» وهكذا.. أما أبناء «رادع» وسائر المهاجرين الذين ينتمون إلى القسم الذي يسمّونه «اليمن الأعلى» فهم أقليّات لا نوادي لهم إلا «المقاهي» العامة وهم شديدو الإخلاص والولاء للإمام.

بعثة الاغتيال:

وما إن وصلنا إلى زاوية الشيخ الحكيمي حتى وجدنا «مُخْبِرَه» ينتظره بفارغ الصبر ـ كما يقولون ـ و بصوت فيه الكثير من القلق قال له: لقد بلغ أن «ولي العهد» بعث بالشيخ «فلان» ومعه ثلاثة أشخاص مسلّحين لاغتيال الأستاذ نعمان وزملائه، وقد رآهم أصحابنا يتجوّلون في «الشيخ عثمان»، و يسألون عن المكان الذي يبيتون فيه: وقال الشيخ عبدالله بصوت المؤمن الوقور: [إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كلّ خوانٍ كفور] ، و بعد أن أدّينا الصلاة؛ وشاركنا الشيخ وأتباع الزّاوية في قراءة الأذكار التي يؤدّونها في الأصائل والأبكار؛ والتي لا أدري ماذا كان سيكون موقف صديقي محمد الفسيل وأستاذه أحمد الحورش منها لو كانا معنا ؟! تناولنا طعام العَشاء فقال «الشيخ»: سوف آمر بتشديد الحراسة على «محلكم» احتياطاً، والواقع أني لم أكن مطمئناً على استقراركم ببلدة «الشيخ عثمان» لأنها أوّلا مفتوحة لكلّ من هبَّ ودبّ ولا يُمنَع فيها حمل السلاح، وثانياً بعيدة عن مراكز الحياة والعمل والصحافة، والنوادي وسائر من سيلزمكم الاتصال بهم بحكم دعوتكم، وما تزمعون القيام به، وثالثاً فالبيت الذي تقيمون فيه مؤقتاً لا يليق بكم مظهره، وكلّ الشخصيّات التي زرتموها، وستزورونها في المستقبل لابد أن تردّ لكم الزيارة، ولذلك فقد تكلّمت اليوم مع زعماء الجالية اليمنيّة.. أن يفتشوا عن مقرّ في «عدن» نفسها يليقُ بكم و يؤثثونه التأثيث المناسب، ولاسيما غرفة الاستقبال التي نرغب أن تكون واسعة إن شاء الله، وودّعناه شاكرين.

وفي سطح ذلك البيت المظلم الموحش المغروس بين الرمل جلسنا نتبادل النكات، والذكريات، ونفكّر فيما عسى أن نعمل وقد انتعشت آمالنا بما رأيناه من إقبال «اليمنيين» علينا، وترحيب زعماء «عدن» بنا؛ وكان «الهلال» قد أمسى نصف «بدر» وأشعته التي كنت أحسها باردة، تساقط علينا.. وإذا بصوت «مُخْبِر» الشيخ ينادي: أن نفتح الباب؛ فهبطتُ مسرعاً، وانضمّ إلينا قائلا بصوت مرتعب ـ و يظهر أنه جبان الطبع، كثير الأوهام، قائلاً: قد شدّدت الحراسة عليكم في كل المداخل التي تؤدي إلى مكانكم.. ولكن عليكم أيضاً بالحذر فإن هؤلاء «الزيود» خطرون ولا يؤتمنون»! وقهقه الأستاذ ضاحكاً وقال: الاخوان كلّهم «زيود» ولا يوجد بينهم «شافعي» سواي!

وضحكنا وقال له « زيد » شدّد الحراسة على الشيخ عبدالله أيضاً فإن « الزيدي » خطرٌ لا يؤتمن ! فقهقه « المُخبر » وتوارى .. واستسلمنا للنوم ، أو للوساوس الصّامتة ، وكان الهلال الكبير، أو البدر الصغير، قد غاب ، وتألقت النجوم تسبح في لجّة الغسق ، وفجأة سمعنا صدى وقوع جسمٍ ثقيل على سرير الأستاذ نعمان الذي استيقظ وهب مذعوراً يقول : « ماهذا؟ » وهبّ كل منا فزعاً ، ونحن لا نشك في أن أحد المبعوثين لاغتيال نعمان وأصحابه قد هجم على الأستاذ، ولما عرفنا أنّه الإناء الذي كان منصوباً على حافّة الجدار قد سقط ووقع صدفة انفجرنا ضاحكين على أنفسنا وقلت ما أصدق المتنبي كأنّه يتحدث عنّا الآن حين قال : ·

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم   إذا رأى غير شيء ظـنـه رجـلا

ثم تبادلنا النكات والنّوادر، وكان كلّ منهم قد فارق شريكة حياة جميلةً يحبُّها وتحبه ، فاندفعوا يتحدّثون عن الحبّ والشوق والحنين ، وكنت وحدي ـــ بالرغم من أني أصغرهم سنّاً وأعرمهم شباباً ـــ لا أشعر بما يشعرون؛ إذ قد فشل حبّي ، وأردت مشاركتهم في الحديث فقلتُ : ما هذا الحب الذي تصفون ؟ إن الحبّ الصادق إنما هو حُبّ « الأم » ؛ قال الزبيري : ذلك حب من نوع آخر يا أحمد؛ غيرما نتحدّث عنه ، ونتشاكى لوعته ، قد يكون حبّ الأم أكثر قداسة وطهراً .. أما هذا فيلسع المشاعر، و يشوي الضلوع .. وكان حوار طويل أنهاه الأستاذ بقوله : كفى كفى .. ياإخوان .. لقد أثرتم الأحزان وهيجتم الأشجان ؛ دعونا نَنَمْ .

الحمّى ومستشفى عفاره

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى «عدن» وزرنا الكثير من التجار اليمنيين والأدباء والعلماء وتناولنا « الغداء » وقيّلنا في « النادي الذبحاني » « بالتّواهي » ، وأثناء « المقيل » شعرت بفتور ثم غمرة تتغشّاني ، وتشنّج يقضم حلقومي ، ورجفة تسري في أعصابي ، وحاولت أن أتناول الكأس لأشرب فلم أستطع ولاحظ ذلك من بجانبي فقال لي:ما بك ؟ وجسَّ يدي ، ثم صاح : يا أستاذ السّد مريض ، السيد محموم ، ونقلوني إلى ذلك البيت في « الشيخ عثمان » وأمضيتُ ليلةً ليلاء ، لا علاج ، ولا إسعاف ، ولا دكتور، غير الماء والثلج ، وعند الصباح فقدت الوعي ، ولم أنتبه إلاّ وأنا في مكان آخر. و بجانبي غلام لا أعرفه لهجته لهجة أبناء « الحجريّة » كأنّ الأستاذ قد كلّفه برعايتي ، فسألته : أين أنا ؟ قال : في مكان تابع لمستشفى « عفارة » ، وقد رآك الدكتور وعمل لك حقنة ـــ وأظنها هي التي أيقظتني ـــ وما هي إلا لحظات حتى جاء الاخوان ورآني « زيد » فشرقت عيناه بالدمع ؛ وقال : لا تخفْ سيشفيك الله .. وقد طلبنا من الدكتور « عفارة » نقلك من هذا المكان إلى المستشفى ؛ وهو يبحث لك الآن عن غرفة أو سرير فيه عند المَرضين ، ولكنّي سأظل بجانبك حتى تنتقل إلى مكان داخل « المستشفى » إنّ المرضى كثير، ومعظمهم وصلوا من اليمن .. واكتسحتني حرارة الحمى من جديد ، وشعرت بالغثيان فاستفرغت ، وأصابني الإسهال ، وظلّ زيدٌ بجانبي يومين وثلاثة ليال لا تكاد تغمض له عين ، ولم يكن المكان مريحاً وليس فيه أيّة وسيلة من وسائل الصحّة والطبّ والرعاية بالمريض . وأقبل في اليوم الثالث أو الرابع الدكتور أحمد عفارة وأنا في حالة متعبة جداً وقال لزيد قد وجدنا له سريراً بين المرضى في إحدى عنابر المستشفى ، ونقلوني إليه ، وكان بسريره النحاسي ونظافة فراشه وخدمات ممّرضيه أحسن وأكثر راحة

من ذلك «المَخزَن»، وإن كان المَمرض شرس الطبع، قاسي القلب، وقاسيت مالا يوصف من المرض والقهر.. و بعد بضعة أيّام رأيتُ شخصاً فتذكّرت أني أعرفه وقد أقبل عليَّ وهويقول: أهلاً أهلا؛ سيّد أحمد، ألا تعرفني؟ أنا نجيب عزّ الدين، التقينا في بيتكم بصنعاء، مراراً، عندما رافقت الوفد البريطاني مساعداً ومترجما وسألني عن صحة الوالد عبدالرحمن الشامي وفلان وفلان وقال: لم يعلم المستر «سَيْجر» ــ الضابط السياسي الانكليزي ــ أنك مريض إلاّ اليوم، وقد انتدبني إليك للتحيّة، ونقلك فوراً إلى المستشفى العسكري، وسيارة الإسعاف تنتظرك في الباب، وسأكون رفيقك حتى تصل، لا تخف.. وقد أنِستُ وارتحت لكلامه.. وفي المستشفى العسكري وضعوني في غرفة خاصة فيها كلّ وسائل العناية الصحيّة والطبّ والرعاية التي يتلقّاها مرضاه من الأثرياء وأبناء بريطانيا العظمى، وكان يقع في إحدى المرتفعات المطلة على عدن..و.. وتتضاعف رحمة الله بي فأجد أحد زملاء الطفولة في «صنعاء» ومن حارة «العلمي» ابن هادي سالم وكان يعمل في المستشفى رئيساً للممرضين العرب فحيّاني مرحّباً وحدثني بلهجة صباي «الصنعانية» اللطيفة الساحرة النغم، وقال قد قرأت اسمك في جريدة فتاة الجزيرة، وانك من «الأحرار» الذين خرجوا على «مولانا الإمام» والحمد لله على السلامة وكان يهتمُّ بي، ويحضّر لي المأكولات الصنعانية التي تصنعها زوجته في بيته.. وما إن خيّم الظلام حتى أقبل الصديق ابن «هادي سالم» ببسمته اللطيفة، ولهجته المرحة ورعايته الكريمة، وسحب سريري إلى الشرفة استروح النسيم البارد وأرى المدينة غارقة في لجة من الأنوار، وأسمع حفيف الأمواج يصطفق بها البحر الهادر من بعيد وعلى نغماتها تتراقص أنوار السُّفن الرابضة في حضن الشاطىء المسحور!. وأمضيتُ في المستشفى عشرة أيام وحين تماثلت للشفاء غادرته أوّلاً إلى بيت القاضي علي الغزالي الذي لم يترك جهداً في سبيل إسعادي ورعاية «نقاهتي» إلاّ بذله، وقد عرف بريطانيا وأمريكا و يتكلم الانكليزية بطلاقة، وهو من لواء «اب» و يظهر أنّه كان لا يستلطف الأستاذ نعمان، فقد حاول أن يزرع بذور الشك في قلبي عن أهدافه، لكن مودّتي للأستاذ وثقتي به كانت فوق مستوى محاولة «الغزّالي» الكريم المرح الذي سيكون لي معه قصة طريفة قد أرو يها في مكانها، عندما حاولت إنقاذه من السجن، و بعد اسبوع انتقلت إلى مقر الاخوان الجديد بالتواهي وكان قد أمِرَ أمرُهم، و بدأت الرسائل ترد عليهم من الداخل والخارج، مع التبرّعات والتأييدات ــ باسم الأستاذ أحمد نعمان ــ وقرّرنا أن نؤسّس حزباً سياسياً، واستأجر الأستاذ له مقراً بجانب «نادي الأغابرة» و وضعنا له برنامجا طبعته لنا مطبعة جريدة «فتاة الجزيرة»، وسميناه: «برنامج حزب الأحرار اليمني»، وافتتحناه بحفلة حضرها الكثير من اليمنيين تجاراً وعمالاً، وأدباء، و بعض الشخصيات البارزة في عدن، وألقى الز بيري قصيدته اليمية المشهورة التي مطلعها:

سجّل مكانك في التاريخ ياقلم ... فها هنا تُبعث الأجيال والأمم
هنا القلوب الأ بيّات التي اتحدت ... هنا الحنان هنا القربى، هنا الرحم
هنا الشريعة من مشكاتها لمعت ... هنا العدالة والأخلاق والشيم

وخطب الأستاذ نعمان وأقسم أعضاء الحزب ومن يريد الانضمام إليه علناً يمين الإخلاص،

وانتُخب الأستاذ أحمد نعمان رئيساً للحزب والسيد زيد الموشكي نائباً والأستاذ الزبيري مديراً، وأنا سكرتيرا عاما، والحاج عبدالله عثمان أميناً للصندوق، وكان يوما مشهودا.. وكان أوّل نشاط مارسناه أن حرّرنا رسالة إلى الإمام يحيى نناشده فيها أن يرفع عن المواطنين ظلم ولاتِه وعُمّاله وحُكّامه وخاصة في اللوائين «تعز» و«اب»، واصفين له ما يجري من حيف وجور وسوء معاملة وكانت لهجتها عاطفيّة مثيرة ولا أزال أذكر أنها من إنشاء الأستاذ نعمان وقد افتتحها بما معناه: اننا لا نطالب بمدارس ولا معاهد، ولا جامعات، ولا طرقات ولا شركات فقط نطلب منك أوّلا وقبل كل شيء أن تأمر أولادك بإعلان الهدنة بين العسكري والرّعوي.. الخ وقد كتبتُها بخطّي ووقّعناها الأربعة. كما حررنا رسائل تصف الأحوال والأوضاع التي سميناها خطيرة في اليمن إلى ملوك العرب: فاروق، وعبدالعزيز، وفيصل بن غازي، وعبدالله بن الحسين، وإلى بعض زعماء العرب كأمين الجامعة العربيّة عبدالرحمن عزام ومصطفى النحاس، وغيرهم وكل تلك الرسائل كنّا نوقّعها الأربعة، وصورها بخطّي موجودة في حوزة الأستاذ أحمد محمد نعمان وقد رجوتهُ أن ينقل لي صوراً منها؛ وإذا سمح فسأثبتها في ملحق خاص كفصل من هذه المذكرات.

ميزانية الحزب ونشاطه ونجوم المشاكل:

ولو سأل سائل: هل كان يعرف أحد ـــ غير الأستاذ نعمان ـــ من أين تأتي التبرّعات والمساعدات؟ وما هي أوجه النشاط التي قام بها الحزب في الداخل والخارج؟

ومن أين كانت موارد إعاشتنا الشخصية؟

وهل أجاب علينا الإمام يحيى؟ فأقول:

كنا نعرف أن التبرّعات أو المساعدات تأتي من المهاجرين اليمنيين في «الحبشة» و«بريطانيا» و«السودان» و«فرنسا» لكنّي والسيد زيد الموشكي لم نكن نعرف، اسماءهم، ولا كميّة ما يتفضّلون به، وقد أخبرنا «الزبيري» أنه لايعرف أيضاً.. أمّا الحاج عبدالله عثمان أمين الصندوق ـــ وهو من بلدة الأستاذ نعمان ـــ فلا شك أنه كان يعرف بل ومن النّاس الذين دلّوا الأستاذ على أسماء المتبرعين وعناوينهم في «المهاجر»، وكان قد نصحنا بعض الأصدقاء بأن ننظّم الحزب سياسيّا وإداريّاً ومالياً، بقوانين ولوائح، لكن الأستاذ كان يعارض و يقول يكفي البرنامج السياسي في هذه المرحلة ودعوا الباقي عليّ! وعلى كلّ فلم نختلف بادىء بدء لكن ما إن بدأنا نشاطنا السياسي بإرسال المنشورات إلى الداخل والتي تعلن قيام حزب الأحرار وأهدافه، وتحرّض الناس على الانضمام إليه، ومناشدة الحكومة بما نُناشدها به، وما إن لحق بنا إلى عدن بعض الشخصيّات اليمنيّة كالشيخ عبدالله حسن ابو راس والشيخ محمد ناجي القوسي ورفيقه الشيخ الشاعر الأمّي محمد صالح جُميزة والنقيب محمد أبو فارعه والشيخ محمد عبدالوهاب نعمان، وعبدالله عبدالوهاب وأمين أحمد نعمان، وآخرين حتى تغيّر الوضع نوعاً ما، و بدأت المشاكل تنجم، والخلافات تثور وتتطوّر؛ وكان الأستاذ قد تحصّل على بيت خاص به في «عدن» في حارة «البُهرة» بجوار سكن الشيخ خير الدين علم الدين رئيس جالية الاسماعيلية زاعماً

أنّه اعاره إياه، وأمر بإلغاء السكن الذي كنا نقيم فيه وأن ينتقل ثلا ثتنا ــ أنا والموشكي والزبيري ــ إلى مقر «حزب الأحرار» لنتخذ منه سكناً أيضاً؛ توفيراً لمالية الحزب ــ كما قال الأستاذ ضاحكا ــ! وما لبثنا بضعة أيام حتى قال الأستاذ الزبيري انه لا يستطيع العيش في مقر الحزب لأن الضّجة، وكثرة الوافدين تمنعه من مزاولة أي نشاط أدبي أو شعري وتحول بينه و بين التفكير والعمل، وأنه لا يستطيع أن يكتب، أو ينظم شعرا إلاّ إذا كان منعزلاً عما حوله، فدبّر له الرئيس الأستاذ نعمان سكناً خاصاً و بقيتُ مع زيد في «ديوان الحزب» ننام ونأكل ونزاول نشاطنا الأدبي، والسياسي والاجتماعي وتوافد من ذكرتُهم من الهار بين علينا، والمخصصات الشهريّة التي قرّرها وقدّرها الأستاذ نعمان لا تتحمّل غير القيام بالأود الضروري للأكل والشرب فقط إذ قد كان مخصص كلّ واحد منا الأربعة ــ زعماء الحزب ــ في اليوم «روبية ونصف» أي خمسة وأربعين روبية شهرياً ــ وحين اقترحنا على الأستاذ أن يقرر شيئا لهؤلاء المشايخ الوافدين، والذين يسكنون معنا في مقرّ الحزب، رفض! وقال: الميزانية لا تسمح أوّلاً؛ وثانياً هؤلاء مشايخ أثرياء ولهم ممتلكات في اليمن؛ فليبيعوها إن أرادوا البقاء في «عدن»، وإلاّ؛ فما عليهم إلاّ أن يعودوا من حيث جاءوا، فالقضية في هذا الدّور ليست في حاجة إليهم! إنها لا تحتاج إلاّ إلى ذوي الألسنة والأقلام.. إنني لن أنفق إلاّ على رجال الفكر.. أعني على أربعتنا فقط! ثم ضحك وهو يقول: المسؤولية وأمانتها المقدسة تحتم عليّ هذا.! وخلط هزلاً بجد كعادته و بطريقته الساحرة حين يريد أن لا يصل إلى نتيجة مع من يتحدث إليه في موضوع ما.

جُميزة وتشوقه إلى اليمن:

وحاول «زيد» أن يقنعه بأهميّة هؤلاء المشايخ الذين لحقوا بنا عند الإمام، وأنّه يهتم بهم أكثر مما يهتّم بذوي الألسنة والأقلام ورجال الفكر؛ لأن قبائلهم وأتباعهم إذا خرجوا على الدولة، أو تمرّدوا عليها إنهارت؛ وهي لا تتسلط وتحكم إلاّ بهم؛ في «حاشد» أو «برط» و«الحدا» أوغيرها. فلم يزدد الأستاذ إلاّ ثباتاً على رأيه؛ وعدتُ مع زيد إلى «التوّاهي» متضايقين، ولا ندري ماذا نعمل ولا ماذا نقول؛ وكانت أسعد أيّامنا، حين يتفضّل «عبده الدحان» أو قايد الأغبري، أو «عبدالله عثمان»، باحضار بعض المأكولات من بيوتهم ليتناولوا وجبة الغداء، أو العشاء معنا في مقر «الحزب».. وقد انتقل مطيع دماج عند أحد أصحابه بعد بضعة أيام، وكذلك عمل محمد ناجي القوسي ومحمد عبدالوهاب نعمان، واستأجر عبدالله أبو راس «عشة» في سطح بناية «نادي الإصلاح العربي» و بقيتُ وزيد ومحمد جُميزة في مقر الحزب، لا نأكل أحيانا إلاّ خبزاً وماءً أو «روتي ومرق حوتي» حسب تعبير ذلك الشيخ الزّيدي المؤمن الأمي الوفيّ الشاعر محمد صالح جميزة القائل من قصيدة له قبليّة مطلعها:

يـقـول أبـو «فـتّـةْ» الليـلة طلـع فـكـره ... مـن هـاجـسـه ذي هـجـس حرّك الأشجان

ومنها يتضجّر من مقامه و يتشوق إلى بلاده:

ما قولي، اجلس من «النادي» إلى «البهره» ... والـبـحـر تحـتـي، ومن فوقي جبل شمسان

وإلاّ بـلادي تِـسَـعـنـي حيـث لي خـبـره ... وأعـمـد مع الذّيب ذي ساكن في الشعبان
وكـم لـو يـنـا يمين الـحَـيـد واليَـسـره، ... وكـم غـزيـنـا وخـافـت منّنـا الـبـدوان
وأنـا على الـعـهـد، مـا منـي بـدت قـصـره ... قـدلي مهـاجـرمـن أول يـوم في «شـعبان»
مـع رجـال الـيـمـن ذي قـد لهـم شـهـره ... «دمّاج» والشيخ «عبدالله» و«بن نعمان»
هم و«الزّبيري» وسيدي «زيد» في الخبره ... وسيـدي «أحمـد» جـزاهم مغفرة وإحسان

إلى آخرها :

جواب الإمام يحيى وموقف زيد الموشكي :

وتتابعت الاجتماعات، تُعقَدُ في الحزب بعد ظهر كل أحد؛ يوم إجازة الموظفين والعمال، ولم يمض على رسالتنا إلى الإمام يحيى إلاّ خمسة عشر يوما أو نحوها حتى عاد جوابه؛ وهو بين أوراق الأستاذ نعمان! ولكنّي أذكر انه كما يلي :

الولد العلامة زيد بن علي الموشكي والقاضي الأديب محمد محمود الزبيري ومن إليهما السلام عليكم ورحمة الله وصل خطابكم وأكثر ما فيه إن لم يكن كلّه مجانف للحقيقة؛ ونحن لا نرضى بما يخالف شريعة الله سبحانه والأولى أن يكون وصولكم أو أحدكم إلينا للمراجعة : وله عهد الله وميثاقه أن لا يمسه سوء أو مكروه (وإلى هنا بخط كاتب الإمام القاضي العلامة الشاعر عبدالكريم مطهّر) ثم أضاف الإمام بخطه ما يلي : «وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها».

وما إن قرأ السيد زيد الكتاب حتى قال : «أنصف الرجل، وهذه فرصة يجب علينا أن نغتنمها؛ فهيًا بنا ياأستاذ أحمد؛ نذهب معاً إلى صنعاء، ونحاور الإمام ونجادله، ونكشف له مالا يدريه، إن كان «لايدريه»! قال نعمان: أما أنا فلا.. ولن أقع في الفخّ مرّة أخرى! قال زيد: ماذا عنك ياقاضي محمد؟ قال الزبيري. هذا خيالٌ يازيد، كيف تفكّر في مثل هذا.. وطال الحوار والجدل، وكنت طبعاً مع نعمان والزبيري ضد فكرة زيد التي ربّما كانت صوابا.! ولكنّي أردت أن أقطع الجدال خشية أن يتطور إلى خلاف فقلت : أنا مستعد للذهاب معك يازيد.. وضحكت فنظر إليَّ باسماً وقال: أنت؟ أنتَ لو ذهبت إلى صنعاء لألقت القبض عليكَ أمّك التي تحبها أكثر مما نحب زوجاتنا! وضحك الجميع قلت: إنك على خطأ يازيد حين تظن أن الإمام جادٌ في فتح باب الحوار معك.. قال: وما يدريك؟ قلت: تأمّل ما كتب بخط يده الذي تعرفه، وختم به الخطاب انه يقول : «وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها»، وأنت أعرف مني بالمعنى فكأنه يقول : ذلك ليس من شأنكم، ولا دخل لكم فيه، وإن كان فيه منقصة فلن يلحقكم عارها، وهو وحده الذي يتحمل المسؤولية في كلام طويل اقتنع به زيد.. ولا سيما ونحن الثلاثة ضد فكرة الاستجابة للدعوة، وقال الزبيري اعطوني الجواب وسأتولّى الرّد عليه وذهب إلى عشّه المنعزل في مكان ما؛ وكتب رسالة طويلة ناقش فيها قول الإمام في جوابه : «ونحن لا نرضى بما يخالف شريعة الله سبحانه» في بيان قويّ يقول فيه متسائلاً :

هل من شريعة الله سبحانه كذا؟ هل من شريعة الله سبحانه كيت؟ ذاكراً كل ما كان يجري، أو ندّعي أنّه يجري في اليمن وقد كتبتُه بخطي، ولم نكتف هذه المرة بتوقيعاتنا الأربعة، بل وقّعه معنا أكثر

من مائة شخص من تجار ومشايخ اليمن والهاربين و بعثناه إلى صنعاء بواسطة وكيل الحكومة اليمنية بعدن الذي تلقينا جواب الإمام عن طريقه .

موجة الاعتقالات وتخريب البيوت:

ولأن الردّ كان عنيفاً، و بُثّت معه منشورات في صنعاء، وإب وتعز، وقبضت السلطة أيضا على رسول يحمل خطابات من بعض أبناء اليمن وعلمائها وأدبائها إلى نعمان والزبيري، وضمنها رسالة جوابيّة من أخي عبدالوهاب.. فقد طمّت موجةٌ رهيبة من الاعتقالات، وممن اعتقِلوا أحمد العنسي ومحمد السياغي وأخوه، وسعيد الدمشقي، ومحمد عبدالواسع، وعبدالوهاب نعمان، وأخي عبدالوهاب الشامي، وعبدالرحمن الإرياني، وحسن الدعيس، وأحمد المعلّمي ومحمد الأكوع واسماعيل أخوه ومحمد حسّان وعباس باشا وجازم الحروي وأحمد الباشا وغيرهم كثيرون وسيق بعضهم إلى معتقل «حجّة» وهدموا بيت نعمان في «تعز» و بيت «الموشكي» في ذمار..

تحسن حالتي المادية ونشاطي الأدبي:

قمت بنشاط أدبي واجتماعي كبير فكنت أحضر كل جلسات «مخيم أبي الطيّب» في مكتب جريدة «فتاة الجزيرة» الذي يعقد كل اسبوع مرّة وتلقى فيه المحاضرات و يتناقش ــ الأدباء والشعراء والمثقفون في شؤون الأدب والسياسة والتاريخ والفنّ فتعرّفت على معظم شعراء وأدباء عدن الشباب الذين كانوا يحضرون ذلك المخيّم، كما كنت أحضر معظم الدروس الدينيّة التي كان يلقيها الأستاذ «البصير» خريج الأزهر محمد سالم البيحاني، ولا يفوتني أن أزور الشيخ خير الدين علم الدين زعيم الاسماعيلية بعدن، وتعرفت على الشيخ بازرعه رئيس الجمعية الخيرية وعلى الأستاذ باحميش، مدير مدرسة «بازرعه»، وقد مهّد لي ذلك التعارف والنشاط الاجتماعي معرفة وكسب صداقة الكثير، وفتح لي بعض أبواب الرزق إذ قد طلب مني الدكتور عاشور طبيب الأسنان أن أعطي أولاده دروساً خاصة في النحو والبلاغة وعلوم الدين أربع حصص في الأسبوع مقابل أربعين «روبية» في الشهر، وعرفت مسلماً هنديا يعمل في القنصلية الهنديّة وكانت عربيتُه ضعيفة لكنه كان متديّنا، قويّ الإيمان، وكذلك زوجته فرغِب في أن أحضر إلى بيتهم ثلاث مرات في الأسبوع بعد صلاة العشاء ليجوّد القرآن الكريم عندي وقد اشترطت أن أقوم بهذا الواجب المقدس دون أيّ مقابل، فقبل لكنه كان يصرّ ما بين الفترة والأخرى على أن يمنحني ما يسمّيه هدّية أخوية وذهبت إلى الشيخ على باحميش وطلبت منه أن يسعى في التحاقي بمدرسة بازرعة الخيريّة مدرساً، فقدّمني إلى الشيخ بازرعة فقبلني بمرتب قدره مائة روبية؛ و بذلك فقد أصبح دخلي الشهري أكثر مما قدّره لي رئيس حزب الأحرار زميلي الأستاذ أحمد نعمان بأربعة أضعاف؛ وقد كنت مسرورا عندما جاء رسول الأستاذ إلى مقر الحزب ليسلّم لي وللسيّد زيد الموشكي المخصّص الشهري، فأخذته و وضعته في مغلّف مع بطاقة كتبت فيها.. «لقد أغناني الله بفضله، عن مالية الحزب وأرى أن تصرفوها على من لا مخصص له من الاخوان» وجاء الأستاذ فرحاً مستبشراً يضحك و يقول: «هكذا هكذا وإلاّ فلا لا»، من أين أغناك الله ؟ قلت قد التحقتُ استاذا في مدرسة بازرعه الخيريّة بمرتّب شهري؛ قدره مائة روبية وعشرون روبية أجرة المواصلات ما بين التواهي وعدن.

فقال: مبروك. وهلاّ سعيت لنا ليقبلونا مدرّسين؟ وضحك السيّد زيد وقال: أخرجنا نجاهد أم خرجنا نعلّم الصبيان؟ والتحق «النعمان» و«الزبيري» بهيئة المعلمين وأما «الموشكي» فلم يستسغ ذلك.

خلافات في وجهات النظر:

لا أذكر أننا اختلفنا في المبادىء والأهداف، إذ قد كانت مطالبنا محدودة؛ فلم نكن مثلا نخطّط لانقلاب أو تغيير نظام الحكم؛ كنا نطالب بأن تكون الزكاة أمانة، وأن يُلغى «التنفيذ» و«الخطاط» ونظام «الرهائن» وأن تشاد المدارس والمستشفيات والطرقات، وتُرسل البعثات العلمية إلى البلدان العربيّة.. الخ لكن أساليب التفكير في تحقيق ذلك كانت تتضارب أحياناً، ومع الزّمن برزتْ بعض الاختلافات، ومما يجدر أن أذكره هنا أن الوالي البريطاني أو «المعتمد» ــ لا أذكر الآن ــ أقام حفلة تكريم لسيّدة بريطانية خدمت فترة طويلة في الحقل الصحّي، وكانت رئيسة قسم التمريض في المستشفى العسكري، واشتهرت بالجد والمثابرة، والخير، فمنحتها الحكومة وسام شرف، وكنت أعرفها شخصياً؛ عندما بقيت للعلاج في المستشفى، ولكني لا أذكر اسمها الآن وقد تزوجت بالضابط السياسي المستر «سيجر»، وقد كنت مع الاخوان، نعمان، والموشكي، والزبيري، من جملة المدعوين لحضور هذه الحفلة؛ ولا أنسى ما قاله الأستاذ محمد علي لقمان عندما رآنا لأنه ابتسم وقال: «إن هذا نصر كبير لكم؛ أن تدعوا إلى حفلة رسميّة.. إنه اعتراف رسمي بحركتكم السياسيّة» وقد اغتبطنا كثيرا؛ وما كادت الحفلة أن تنتهي حتى قام الأستاذ أحمد نعمان ووقف يستأذن «الوالي» أو «المعتمد» في إلقاء كلمة. فأذن له؛ فارتجل الأستاذ؛ وهو الخطيب المصقع ــ بالعربيّة طبعا ــ وجل الحاضرين من الانكليز يتكلمونها باتقان يفهمون به خطبة الأستاذ ــ وقد أثنى على الخدمات الصحيّة والتعليميّة التي تؤدّيها حكومة عدن والتي لا تقتصر على أبناء وسكان المستعمرة بل و يستفيد منها أبناء اليمن، وعرّض بما يعانونه من جهل وفقر ومرض ثم قال ما معناه: لو أن حكومة الإمام في اليمن تشعر بالواجب الإنساني، وتقدر أعمال الخير والبر والرحمة لبعثت بأشرف وسام لهذه السيّدة التي واست الكثير من أبناء اليمن وغمرتهم بحنانها واهتمامها ولكن.. ولكن.. إلى آخر ما قال وقد صفق الجميع لخطبة الأستاذ واستبشرت السيدة البريطانية إيّما استبشار.

استنكار الأصنج:

وفي اليوم التالي زرت الأستاذ أحمد سعيد الأصنج الذي كان ــ كما أشرت سابقا ــ مُعتقلاً أو على الأصح يقيم إقامة جبرية في بيته، ولا يُسمح له بمغادرة «عدن» «كريتر» والحرب العالمية لا تزال قائمة، والأستاذ الأصنج كان يرأس حزب الإصلاح، و ينادي بالاستقلال وجلاء بريطانيا و يدعو إلى الوحدة، وعلى صلة بزعماء المسلمين والعرب؛ في مصر والسودان والهند والشام، وله رسائل ومؤلفات.. وكان يكتب تلك الأيام كتاباً اسمه «الشمس في رائعة النهار» وقد كلّفني بكتابته مقابل أجر معلوم ــ وهذه من مصادر الرّزق التي لم أذكرها سابقا ــ فعندما زرته لأسلّم إليه ما قد جهّزته من كراريس كتابه، قال لي: هل حضرت حفلة التكريم؟ قلت: نعم. قال: وكيف كانت خطبة الأستاذ لقد بلغتني؟ قلت: كانت رائعة، وأرضت الجميع، وأعجبوا بها.. قال: مع الأسف الشديد ومع احترامي

لأخي نعمان فقد آلمتني خطبته قلت: ولماذا؟ والأستاذ نعمان لم يقل منكرا؛ لقد شكر إحسان امرأة فاضلة انكليزية، وأشاد بأعمالها الإنسانية وقد كنت نفسي أحد من نالهم إحسانها عندما كنت نزيل مستشفى عدن العسكري.

قال الأستاذ أحمد الأصنج؛ ربما يعي الأخ الأستاذ نعمان ما أقصد و يفهمه أفضل منك؛ فلا تزال شاباً؛ فابلغه سلامي وملاحظتي؛ وسوف أتحدث معه عندما أراه ثم قال: ياسيّد أحمد: إنكم مقدمون على خوض تيارات مضطربة الأمواج من أجل محاربة الجهل والفقر والمرض والظلم في بلادكم، وكل ما أحذّرك واخوانك منه هو التورّط في ما يشير من قريب أو بعيد إلى تحبيذ الوجود الاستعماري البريطاني في «عدن» إن الاستعمار حيثما كان إنما هو قوّة «صليبية» تعمل بكلّ وسيلة لإبادة الإسلام وشعائره ولغته العربية لغة القرآن الذي بدونه لم يكن «العرب» ولن يكون المسلمون شيئاً مذكوراً. ثم قال: أنا أقدّر مشاعركم وما تعانون، ولو كنا أحرارا لساعدناكم بما يجب وبما نستطيع.. ولكن الانكليز هنا مثل اخوانهم الفرنسيين والطليان والروس والأمريكان يكرهون الإسلام ويخشونه ويحاربون لغة القرآن وعلومه.

تنصر أحمد عفاره في عدن:

ثم قال: أتدري أن أحمد عفاره الدكتور صاحب المستشفى التبشيري في الشيخ عثمان تنصّر، وأعلن خروجه عن دين الإسلام رسميّا.. قلتُ: لا أدري هذا ولماذا عمل ذلك؟ قال: من أجل أن يسمحوا له بدراسة الطب و يعطوه منحةً جامعية؛ وقد عملوا، وهو الآن دكتور بلدة الشيخ عثمان يعمل مع الطبيب «بيتري» و«شلّته» التبشيرية لتنصير أبناء اليمن، أو، لزعزعة عقائدهم، وجرجرتهم إلى الإلحاد بعلومهم وآدابهم، في كلام طويل تذكرت به ما قرأته في «العروة الوثقى»، وكتب الأستاذ الإمام محمد عبده، والشيخ رشيد رضا والأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وقد تأثرت بذلك، ووافقته على وجهة نظره وقال لي: بلّغ الأستاذ تحياتي وقل له: يحذر المزالق، والوقوع في المحاذير، وقولوا ما شئتم عن بلادكم وحكومتكم، وانصحوا، وأمروا بالمعروف، ولكن دون تمجيد للمستعمرين وحضارتهم ومدنيتهم و برامجهم التعليميّة، التي يريدون بها محو الإسلام في الهند، والشام، ومصر، والعراق، والمغرب، وفلسطين، واليمن، كما فعلوا في تركيا وغيرها من بلاد المسلمين.

منقذ بطل الريف:

وقد أطلق سراح الأصنج عندما لاحت علائم النصر للحلفاء، ومما يجب أن أشيد به وأذكره؛ أنه هو الذي كان سببا في انقاذ الأمير عبدالكريم بطل الريف من براثن النفي والسجن، فقد صادف أنّ مرّ على باخرة فرنساوية من عدن في طريقه من منفاه القديم في إحدى جزر المحيط الهندي إلى منفاه الجديد في «فرنسا» وكان معه أخوه وأولادهم وعوائلهم، فعرف الأستاذ أحمد سعيد الأصنج ذلك وكتب، برقيات إلى كلّ من محمد على الطاهر، وعبدالرحمن عزام ومحمد الخضر حسين، ومصطفى النحاس يخبرهم فيها بأن الباخرة التي تقلّ بطل الريف وسائر عائلته، ستمر من قناة السويس وترسو في الميناء

في اليوم « الفلاني » ، وأن يعملوا جهدهم لانقاذه.. وقد رتّبَ شيخ الجامع الأزهر، وحسن البنا وعزام والطّاهر والنحاس باشا خطّة محكمة لتهريب بطل الريف مع أهله ، والتجأ بقصر الملك فاروق فأجاره ، في قصة مشهورة؛ ولقد قال لي الأستاذ محمد علي الطاهر قبل وفاته ببضعة أشهر سنة ١٩٧٥م/١٣٩٤هـ: أتدري من الذي أنقذ بطل الريف من حبس الفرنساويين؟ قلت: لا . قال: إنّه الأستاذ أحمد سعيد الأصنج؛ وروى القصة:

مساومة الانكليز؛ وتمزق الحزب:

قد يعجب القارىء ــ أو السامع ــ لهذه الاستطرادات؛ و يتساءل وما علاقتها بالسؤال حول الاختلاف في وجهات النظر؛ وهل حصل فيما بين مؤسّسي «حزب الأحرار اليمني» سنة ١٩٤٤م/١٣٦٣هـ؟ والواقع أن لها علاقة واضحة إذ لولا تباين أساليب التفكير في طريقة ممارسة الأهداف وتنفيذها عملياً لما تمزّق الحزب واختلف مؤسّسوه وعاد من عاد منهم إلى اليمن و بقي من بقي حتى تأسّست الجمعية اليمنيّة الكبرى برئاسة محمد محمود الزبيري، وأيدها سيف الحقّ ابراهيم ابن الإمام يحيى. وقد كان لاختلافنا حول الطريقة التي نتعامل بها مع حكومة «عدن» الانكليزية ، وما هي السياسة التي نسلكها معهم ، وفي أي حدود، وإلى أيّ مدى؟ من أسباب ذلك التمزّق بل هو السبب الذي فجّر كلّ المشاكل المالية والإدارية والتنظيميّة التي كانت نائمة فوق الغام الصبر!

لقد وصل إلى «عدن» القاضي محمد بن عبدالله الشامي وهو من رجال دولة الإمام يحيى، وتولى عدّة مناصب كبيرة، ورافق سيف الإسلام الحسين إلى لندن، وكان يرأس الوفد اليمني في النزاعات بين اليمن وحكومة عدن على الحدود، و يقود أيضاً الحملات العسكرية في المناوشات الحربيّة. وصل إلى «عدن» والحرب العالمية لا تزال قائمة.. وانتشرت إشاعات منها أنه وصل مندوباً من قبل الإمام يطلب من حكومة «عدن» تسليمنا أو إعادتنا إلى اليمن أو عدم السماح لنا بالبقاء فيها. ومنها أن الانكليز يريدون التفاوض مع الإمام حول النشاط «المِحوَري» في البحر الأحمر، والمحافظة على باب المندب ومركزه العسكري و يرغبون في أن يتحالف معهم ضد «المحور»، وإشاعة أخرى أن الانكليز عندما طلبوا ذلك، وأبدوا رغبتهم فيه، أثار الإمام بواسطة مندوبه «القاضي الشامي» موضوع نشاطنا السياسي ضدّه فوعَدته الحكومة الانكليزية بتجميد نشاطنا، وإيقاف تحرّكاتنا إذا وافق على ما يطلبونه منه! كلّ ذلك سمعناه، وكنّا لانزال نعقد اجتماعاتنا الدورية في الحزب، ونطبع المنشورات ونوزّعها في «عدن»، وداخل «اليمن» ونكتب المقالات في الصحف، ونلقي الخطب والمحاضرات في المساجد والنوادي.

حظر قيامنا بأي نشاط سياسي:

وفجأة اتصل بنا الأستاذ محمد على لقمان محرر «فتاة الجزيرة» وأخبرنا أن «الوالي» اتصل به شخصياً، وأخبره أن يكف عن الكتابة حول اليمن، وأن يمتنع من نشر أية مقالةٍ، لأي فرد منا الأربعة: أحمد نعمان. زيد الموشكي. محمد الزبيري.. وأحمد الشامي، أو حتى ذكر أسمائهم في جريدته وأنّه إذا

خالف ذلك فستغلق صحيفتُه .. وفي مساء ذلك اليوم طلب « الوالي » بواسطة الأستاذ نجيب عزّ الدين وصول وفد من قبلنا لمقابلته .. وقد كان نعمان يريد الذهاب منفرداً باعتباره الرئيس ، لكن زيداً أصر على الذهاب معه فقال نعمان: و« الزبيري» يأتي ، قال زيد: وهو كذلك ، ولم يتخلّف غير « السكرتير» ! وقد روى لي زيد الموشكي ما دار بينهم و بين الوالي المشهور بعجرفته وقسوته قال : عندما دخلنا عليه ، حيّانا واقفاً ودونما مقدّمات ، أو سؤال عن الصحّة والجوّ ، قال : باسم حكومة صاحب الجلالة أحذّركم من القيام بأيّ نشاط ضد الإمام يحيى ، أو ضدّ حكومته ، و بقاؤكم في «عدن» من الآن فصاعدا سيكون مشروطاً بعدم القيام بأيّ عمل أو نشاط سياسي ، ولمّا أراد الأستاذ نعمان مناقشته قال الوالي: لا فائدة من الكلام ؛ هذا قرار حكومي عليكم الامتثال له وتنفيذه . يقول السيد زيد الموشكي انه كان قد رأى في صالة الانتظار ومداخلها صوراً وإعلانات على الحوائط تندّد بالدكتاتوريّة النازية والفاشية ، وتشيد بالحريّة والديمقراطية ، وأن الحلفاء إنما يحاربون من أجل إقرارهما وتوطيد دعائمهما في العالم ، قال زيد: فقلت للوالي . فلماذا إذاً تدّعون أنكم تنشدون الحريّة والعدالة والديمقراطية للعالم وها أنتم تمنعوننا من أن نطلبها وننشدها لأنفسنا في اليمن ؟ فقال الوالي —مودّعا— هذا قرارنا ومع السلامة ، وطلب الأستاذ أهم أعضاء الحزب وأخبرهم بما قال الوالي وأن جلسات الحزب الأسبوعية ستُلغى ، وأنه قد حُرِّم علينا نحن الأربعة القيام بأيّ نشاط سياسي ، ومُنع محمد علي لقمان حتى من ذكر أسمائنا في جريدته .

شهامة عبده الدحان :

وهنا وقف الحاج عبده الدّحان —وكان يملك مطعماً في التوّاهي وقال : وهل « حزب الأحرار» حزبكم أنتم الأربعة فقط ؟ إنه حزب اليمن كلّها وسيظل الحزب قائماً دونكم ، وستُعقد جلساته الأسبوعيّة في أوقاتها ، وسنقول ما نريد وننشر ما نريد ، وليأت الانكليز و يطردوننا جميعاً من عدن إن استطاعوا . وصفّق الجميع لذلك الحماس وقد أشار إليه السيد زيد الموشكي في إحدى قصائده ؛ يمدح اخلاص « الدحّان» وصراحته ، وحدة مزاجه بقوله :

ودحّان ناقِشةُ عن أصلهِ ... فإنَّ به نزعة من عمر

وكان عبده الدحان اعجوبة في ذكائه وسلامة فطرته ، وإخلاصه لما يعتقده و يدين به ، وعلى يقين كامل من عدالة قضية اليمن إلى كرم ولطف وحدّة مزاح وله في كل ذلك مواقف معروفة مشكورة وهو والد الشاعر الأديب صالح الدحان ولم يكن يجاري « الدحّان » و يباريه في عطفه على الأحرار إلاّ زميله الكريم قايد الأغبري تغشاهما الله بواسع رحمته . وقد أكّد ما أمر به الوالي ، وما قاله للاخوان ، الإشاعة المذكورة عن المساومة بين حكومة عدن و بين مندوب الإمام حول اليمن ، ونشاطنا السياسي ومعارضتنا والمطالبة بتسليمنا ، ولم أر« زيداً» كئيباً حزينا كما رأيتُه تلك اللّيلة ، وعندما ذهب كل إلى سبيله قال لي : هل يمكن أن يفرّط الإمام في « باب المندب» من أجل إسكاتنا ؟ قلت:لا أظن .. ولكن لماذا لا نذهب إلى القاضي محمد الشامي ونسأله ونحن نعرف دينه وتصلّبه وإخلاصه لاستقلال اليمن ، وحرصه عليه وهو أيضا صديقنا ؟ قال : هذا هو الرأي ، وابق الأمر مكتوماً بيني و بينك وسأذهب إلى « الشامي»

منفرداً؛ قلت خذ معك «نعمان» على الأقل؛ قال: لا.. لقد بدأت الشكوك تساورني؛ لا في «وطنيته» بل في شجاعته وحكمته، قلت: فليذهب معك «الزبيري» قال: إنه لا يستطيع أن يكتم شيئا عن «نعمان» وهؤلاء سكان «عدن» و«تعز» و«اب» قد مرنوا على مُصانعة الأجانب من أيام «الأحباش» و«الأيوبيّين» و«المماليك» و«الأتراك» وليسوا مثل أبناء جبال «حاشد» و«بكيل» أنا أعرفُ منك بطبائعهم وتاريخهم، وفي الصباح استأجر سيارة وذهب إلى «الشيخ عثمان» حيث كان يقيم مندوب الإمام القاضي محمد الشامي وذهبت لتدريس الصبيان، وعندما عدت في المساء وجدت «زيداً» يكتب.. ولما رآني تبلّجت أسارير وجهه وقال لا خوف ولا قلق لقد طمأنني «الشامي» وقال: نعم إنهم طلبوا ايقاف نشاطنا السيّاسي، وان الانكليز يريدون التعاون مع حكومة الإمامِ في تحصين المواقع البحرية المطلّة على البحر الأحمر ولا سيما منطقة «باب المندب» ولكن الإمام متشدّد في هذه النقطة ولايمكن أن تتغير سياسته؛ مهما كان. ولكن ربّما أنّ الانكليز يريدون أن يضغطوا على الإمام بنا. قلتُ؛ وماذا أجبت عليه؟ قال: قلت له: لن يكون الإمام أكثر حرصاً على استقلال اليمن منّا ولن نكون عنصر ضغط عليه.!

فتى الفليحي:

ومضت فترة شهرين أو ثلاثة كتبتُ خلالها ما كتبتُ في فتاة الجزيرة عن «التعليم في اليمن» ولكن بتوقيع مستعار كما طلب الأستاذ محمد علي لقمان، لأنّه محظور عليه أن ينشر شيئا باسمي الصّريح، وقد حرصتُ على أن يكون توقيعي المستعار: «فتى الفليحي»؛ والفليحي اسم الحارة التي نشأت بها في «صنعاء»، ودرست في «مسجدها» كما سبق، وكان ذلك حرصاً منّي على أن يعرف من في اليمن؛ مواطنين وحكاماً؛ بأنّي صاحب المقال، وقد صار ذلك لقبي فيما بعد.

وفشلت المحادثات بين حكومة عدن ومندوب الإمام يحيى القاضي محمد الشامي، وهنا وقع الخلاف بيننا «زيدٌ» يتّخذ موقفاً أؤيّده، و«نعمان» يؤيّده «الزبيري» يتخذ موقفاً آخر؛ وكان هذا الخلاف هو سبب تمزّق «حزب الأحرار» كما ذكرت.. فما كان للاختلافات حول الشؤون الإدارية، والمالية والتنظيمية لِتَبلغَ بنا إلى حدّ يُقْضَى فيه على تجمّعنا السياسي، وأنا أودّ أن أذكر هذا السبب بأمانة. لا مُتباهيا. ولا مفاخراً بموقفي مع زيد، ولا مفنّداً، أو مستنكرا موقف نعمان مع الزبيري، ولا مشكّكا في اخلاص وحسن نية أحد، ولا محبّذاً ولا ناقدا. فقد اصبحت على يقين أن الاخوان الثلاثة كانوا جميعاً يحبّون وطنهم، و يقدسون مبادىء الإصلاح، ولكن اختلاف تقديراتهم وثقافاتهم، وأمزجتهم و بيئاتهم، قد أجبرت كل واحد منهم على سلوك سبيل معين، واتّباع خطة مستقلة واقتفاء شتّى الطرق؛ والهدف الشريف واحد! نعم.. بعث إلينا الأستاذ بإشارة تطلب منا الاجتماع في بيته بعدن، فذهبتُ مع زيد ووجدنا «الزبيري» و«عبده الدّحان» و«الأغبري» و«عثمان» وآخرين قد سبقونا إليه. وقال الأستاذ أحمد: بشرى. قال زيد: خيراً.. قال نعمان: طلبني صباح اليوم الوالي واعتذر لي عن موقفه معنا، وقسوته علينا، وقال: اننا نستطيع من الآن فصاعدا أن نزاول نشاطنا السياسي في عدن، وداخل اليمن، وقد اتصل بصاحب «فتاة الجزيرة» وأنا موجود وقال:

لا حظر من اليوم على نعمان والزبيري والموشكي والشامي، فانشر لهم في جريدتك ما تريد. وهذه بحمد الله بشرى عظيمة، وفاتحة خير، فقد جَمَد كل شيء في اليمن بسكوتنا، ولا سيما بعد موجة الاعتقالات التي لم تجد من ينتقدها و يفنّدها، وظن النّاس أنه قد قُضي على حركة حزب الأحرار.

وساد الوجوم لحظةً و بدّد صمته السيد زيد الموشكي متسائلاً:

ولماذا يقف الوالي هذا الموقف؟ وماذا يريد؟

ـــ قال الأستاذ أحمد: لأنه عرف انه كان مخطئاً في حقّنا.

ـــ قال زيد: وأين القاضي محمد عبدالله الشامي مندوب الإمام؟

ـــ قال نعمان: لايزال في الشيخ عثمان.

ـــ قال زيد: وكيف انتهت المحادثة بينه و بين الوالي عن نشاطنا، و باب المندب؟

ـــ قال نعمان: لا أدري؟

ـــ قال زيد: أظن أن المفاوضة فشلتْ، وأنه ما تغيّر موقف الوالي الشديد العنيد وأصبح ليّنا ودّيا، إلاّ بتصلّب الإمام يحيى ازاء المساومات الانكليزية. وأنا أرى أن لا نقوم الآن بأيّ نشاط سياسي ضد حكومة اليمن، وأرى أن العمل ضدها الآن حرام شرعا، بل وإجرام؛ لأنه سيكون بتوجيه من المستعمرينَ الانكليز!

ـــ قال نعمان: بلا غفول يا سيّد زيد؛ لا يجوز أن تضيّع هذه الفرصة، ونحن نعمل بوحي من ضمائرنا، وطبقاً لأهدافنا التي رسمناها بأنفسنا، ولم نكن عملاء للانكليز، ولن يسيّرونا، وإذا أرادوا استغلالنا فلن نتورط معهم، ونحن أكثر حرصاً وحصافة، وأكبر من أن يغشّونا، وعلينا أن نُساير الظروف ونجعلها في صالحنا لكي ننقذ الوطن مما يعاني و يكابد.

قال زيد: لا.. لا.. ياأستاذ؛ ـــ وكان قد ظهرت عليه ملامح الغضب وهو حادّ الطبع سريع الانفعال ـــ وأردف: انّ من يعمل الآن ضد الإمام فهو عميل للانكليز، وسيخرج على شريعة الإسلام؛ كيف يكون هذا؟ وكيف نرضى به؟ يوقفنا الوالي الانكليزي حين يريد، و يحّركنا حين يريد! كيف ترضى بهذا يا أستاذ نعمان وأنت رئيس حزب الأحرار، وأنت من مشايخ اليمن وعلمائها وأدبائها؟ ربّما أنهم يريدون أن يضغطوا بنا على الحكومة اليمنية لتتنازل لهم عما يطلبون! هل يجوز أن نكون سبباً من أسباب ضياع الوطن؟ لا. لا.. سنكون مسؤولين أمام الله والتاريخ، ولن يكون الإمام أشرف منا أو أحرص على استقلال اليمن.

وحاول الأستاذ تلطيف الجو بلباقته، وسحر بيانه، ولكن دون جدوى، ونظر زيد إليّ وإلى الزبيري، وقال: مالكما صامتان تكلّما.. وكان قد اعجبني كلام زيد؛ ربّما لأني أدري بتشكّكه، وذهابه إلى القاضي محمد الشامي واطمئنانه الذي حدثني به، و وعده الذي قطعه لمندوب الإمام بأنه لن يكون أحرص منه على استقلال اليمن وربّما لأن مزاجي كان ينسجم مع مزاجه، و بيئتي الثقافية

أقرب إلى بيئته فقلت: أنا مع الأخ زيد، وكلّ ما قاله هوعين الصواب، ويجب أن لا نقوم ــ وعلى الأقل لفترة من الزمن ــ بأيّ نشاط ضد حكومة اليمن.

ــ قال زيد: وما رأيك يا شاعر اليمن؟

فابتسم «الزبيري» وقال: الموضوع شائك، وعلينا أن نتريّث ولا نقطع بأمر الآن، والملابسات تقتضي الأناة، ومن الحكمة، والسياسة، أن لانتخاصم مع الانكليز؛ ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن نخضع لمطالبهم، أونكون مسيّرين بأوامرهم، أوغيرفاهمين لدسائسهم، وقد أضر تجميدنا بالقضية.

ــ قال زيد: تكلّم بصراحة ياقاضي محمد. قال «الزبيري» وكان كما ظهر من تجهّم وجهه شديد الحرص على وحدة الحزب: لا يجوز أن نقطع الآن برأي قد يفرّقنا؛ وعلينا أن.. وقاطع كلامه الأستاذ نعمان بلطف ولباقة وقال: على كلّ؛ علينا أن نجمع الاخوان كلّهم، و بحضور الشيخ عبدالله علي الحكمي، وندرس الموضوع معاً، ونتخذ قرارا نلتزم به أجمعين إن شاء الله.

وافترقنا على أن نلتقي في مجلس عام آخر يحدّده الأستاذ، وفي الطريق؛ وأذكر أننا اجتزناها راجلين؛ لأنّنا عندما وصلنا إلى الساحة التي تقف فيها سيارات النقل بين «عدن» و«التواهي» قال زيد: ليس لديّ «فلوس» فهل لديك ما يكفي لاركابنا معاً؟ وكنت لا أجد فلساً واحداً؛ فضحكتُ وقلت: كنت معتمداً عليك ونحن في آخر الشهر ولمّا استلم «المرتب»! قال: كان في وسع أحد الاخوان أن يتبرّع بتوصيلنا؛ ــ وكان الوقت بعد العشاء ــ فقلت:أو كان في وسع الأستاذ أن يعزم علينا للمبيت لديه؛! قال يظهر أنهم قد استثقلوني لشدّتي، وأنهم يريدون أن يتحدّثوا أحاديث خاصة. هيّا بنا نمشي.. إنّها رياضة، والجوّ لطيف و بارد، والطريق مضاءه بالأنوار، قلتُ:هيّا بنا وكانت المسافة طويلة تستغرق حوالي ساعة ونصف بالخطوات المتلاحقة المسرعة.

قال زيد وهويهرول: إنني متشائم، إنني غيرمرتاح لما نحن فيه.. إنّ الفشل ينتظرنا لا محالة. ولقد كنت أحدّث نفسي بذلك وقبل أن نقع في هذه المشكلة التي سنضيّع معها غيرتّنا الدينيّة والوطنية ما لم نكن حصفاء.

قلت: لو أخذتَ برأيي وذهب معك «نعمان» أو «الزبيري» إلى «الشامي» ــ مندوب الإمام ــ لكان رأيهما الآن مثل رأيك، لأنهما كانا سيقولان له ما قلتَ؛ بأن الإمام لن يكون أشدّ حرصاً على استقلال اليمن منهما.. قال: ربّما.. ولكن هناك دين ومبدأ.. قلت: نعم. ولكن هناك أيضا سياسة وعلم.. قال: معلوم.. ولكن لعنة الله على علم بلا دين، وعلى سياسة بلا مبدأ. وكنّا قد وصلنا إلى «البغدة»؛ وطريقها تقطع صخور الجبل المشرف على الطريق التي تؤدّي إلى «المعلاّ» منتصف الطريق إلى مقر «الحزب» بالتّواهي فاجتزناها صامتين، والسيّارات الكبيرة والصغيرة ذاهبة آيبة.
وقال زيد وقد أشرفنا على «المعلا»: دعنا نسترح قليلاً فلجأنا إلى رصيف قعدنا عليه؛ وقال:وأنت قلت: كيت وكيت! وذكر أشياء تافهة نُقِلَتْ إليه عني. فأقسمت له أنّي ما نطقت أو تفوّهتُ بما بلغه، وأنّه محض افتراء.. وقلتُ: الآن عرفتُ لماذا كنتَ شبه حانق عليّ، ولا تعاملني كما كنت قبل حوالي

شهرين ، لقد صدّقت هذه الوشايات التافهة ولو صارحتني — كعادتك — لما انحرفت عني ! قال : والله إني كنتُ متألماً ؛ قلت : ولماذا لم تستفسر مني لكي تتبيّن ؟ قال : على كل أنا على يقين من أنّ الناقل قد أراد إفساد ما بيننا ، والحمد لله الذي قدّر لنا هذا اللقاء لنتفاهم .. و واصلنا السير حتى وصلنا .. وفي «المقر» قال لي : يجب أن يكون موقفنا صارماً وليس بالنسبة للانكليز وسياستنا معهم فهذا واجب ديني مقدس ولكن بالنسبة للحزب وتنظيمه يجب أن يغيّر «نعمان» نهجه وسلوكه وطريقته . إننا نحارب «الاستبداد» و«الفوضى» و«الظلم» و«الجهل» فكيف نستطيع أن نقوم بواجباتنا دون دستور يكفل «الشورى» و«النظام» و«العدالة» و«الحرية» وُ«المساواة» وتقدير الكفاءات؟ كيف سننقذ اليمن .. من استبداد الإمام باستبداد أحمد نعمان؟ وهو وحده القابض على كل شيء المتصّرف المطّلع الآمر الناهي مثل الإمام تماماً؟ فضحكتُ وقلت : ما بقى إلاّ أن نبايعه أميراً للمؤمنين ! قال:على كلّ يجب أن يكون موقفنا صارماً.

ومضت أيامٌ ونحن نتناقش ونتجادل ونتحاور، واقترح «الزبيري» حلاً وسطاً يقضي بأن لا نقوم بأية نشاط في الصحافة العدنية ، ولا نلقي أي بيانات أو خطابات في مجالسنا ، وأن نؤجّل جلسات الحزب التي كانت تعقد أسبوعيا — أو تعقد كما كانت دون حضورنا نحن الأربعة — لفترة من الزّمن حتى نتأكد بأننا نعمل ما نعمل بدافع من أنفسنا ، و بوحي من ضمائرنا ، وليس لأنّ الوالي الانكليزي قد أمرنا ، أو أذِنَ لنا بذلك ، واطمأن الجميع إلى هذا الرأي ، وكانت الأكثريّة مع رأي زيد بالنسبّة لسياستنا مع الانكليز؛ وفي مقدمتهم الشيخ عبدالله الحكيمي ، وكذلك المشايخ مطيع دماج ، وأبوراس والقوسي ، وجُميزة ، وغيرهم ، وقد استطاع زيد التأثير عليهم لأنه كان يعتمد في نقاشه وحواره واقناعه ومنطقه على الدين والوطنية ، ضد ما يسميّه الكفر والاستعمار، و يقول : نحن خارجون على الإمام ومستعدون أن نحار به .. ولكن ليس كعملاء مسيّرين بالأجانب ، وكادت الأمور أن تعود إلى مجراها العادي لولا أن الموشكي فجّر المشاكل الإدارية وطالب بعقد جلسة عامة .. في بيت الشيخ عبدالله الحكيمي وفي تلك الجلسة تفجّر الموقف ؛ إذ قد ألقى زيد خطاباً حماسياً استعرض فيه ما قمنا به خلال العشرة الأشهر المنصرمة .. وقال إنه كان في الإمكان أبدع مما كان لو أننا نظّمنا أنفسنا ، وطهرناها من الضغائن العنصرية والطائفية ، ونفّذنا بدقة برنامج حزب الأحرار، وآمنّا بالشورى والمساواة والحرية والعدالة .. ثم اندفع وقال كلمته المشهورة : «إن الاستبداد لا يُزال ، ولا يُحاربُ بالاستبداد ، والفوضى لا تُمحى ، ولا تُعالجُ بالفوضى ، مثل النجاسة لا يمكن أن تُغسل بالنجاسة» ثم تساءل ما هو الفرق بين استبداد الإمام بشؤون الدولة في اليمن واستبداد الأستاذ أحمد نعمان رئيس حزب الأحرار بشؤون الحزب وقال : وها أنا نائب الرئيس مثلاً لا أدري ولا أعرف شيئاً عن ماليّته ، وأعضائه ، وميزانيته ، ومصادر دخله ، ومصارفه ، وأوراقه وملفاته ، وموظفيه ، وسياسته ، ولا أشيرُ ولا أُستشار .. الخ .. الخ .. وحاول «الزبيري» الدفاع عن الأستاذ لكن «زيدا» كلّمه بكلام شديد تقبّله برحابة صدر لأنه حريص على وحدة الصف و يعلم أهميّة أحمد نعمان و يعرف أكثر من غيره حسن نواياه وسلامة طويته كما كان على يقين من صدق وإخلاص لهجة الموشكي ونبل مقصده وما كان كلّ منهما إلا داعية إلى

الإصلاح والحرية، والعدالة، والدستور، وفي سبيل دعوته تلك هاجر وتشرّد وناضل واستشهد، واقترح الشيخ عبدالله الحكيمي تأسيس لجنة تضع للحزب برنامجاً جديداً، وتلاحظ أخطاء الماضي وتقترح النظام المناسب، وكان أغلبية الحاضرين قد أيدوا «زيداً» تأييدا مطلقا.

وتشكلت اللجنة وكنت مع الزبيري ومطيع دماج من أعضائها.. وظللت أزاول نشاطي الأدبي، ونشرت لي فتاة الجزيرة قصيدتي القافية في التقاء الملك عبدالعزيز آل سعود والملك فاروق ومرثاتي للزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي والتي مطلعها:

شمس مجد غابت، وغاب سناها　　　أوحشت أرضها وأبكت سماها

وقصيدتي في تقريظ ديوان «الوتر المغمور» للشاعر علي محمد لقمان ومطلعها:

العبقرية في فؤاد الشاعر　　　فاضت بينبوع الحياة الزاخر

وأقام «مخيّم أبي الطيب» مناظرة عن المرأة، وهل يكون لها كامل الحريّة في التعليم، والعمل وفي كل حقول الحياة، أم أنّ لها ميادين خاصة هي بها أليق، كما أن للرجل كذلك، وكنت أقول انها تتميز وتختص بوظائف لا يستطيعها الرجل، والرجل يختص بأعمال لا تستطيعها المرأة، وقال الأستاذ علي ناصر العنسي انهما متساويان. وكانت مناظرة طويلة، استمع إليها وناقش مواضيعها، الكثير من علماء وأدباء عدن.

ونظمتُ خلال تلك الفترة كثيرا من أشعاري الوجدانية التي نشرتها فيما بعد في ديواني «النفس الأول»

وبدأتُ أعاني بعض المضايقات من قِبل «مجهولين» فقد كنت أمضي معظم النهار في «عدن»؛ الصباح في «المدرسة» وأتغدى في أحد المطاعم ـ وأكثر الأوقات مع الزميل الأستاذ علي ناصر العنسي ـ وأعود إلى «المدرسة» حتى العصر ثم أذهب لزيارات النوادي والمكاتب والأصدقاء؛ وقبيل المغرب اطوّف في شواطىء «صيرة» الرائعة وبعد أن أتناول وجبة العشاء أعود إلى «مقرّ الحزب» وكذلك كان يعمل «زيد» الذي التحق أيضا مع الأستاذين «نعمان» و«الزبيري» بهيئة تدريس «مدرسة بازرعة» لفترة وجيزة.

وذات ليلة عندما عدنا إلى «المقر» وجدناه مظلما؛ فقد عبث أحدهم بأسلاك الكهرباء، ولم نتحصّل على «فانوس» توقد ذبالته بسليط الغاز إلا بعد جهدٍ، وأصلحت الأسلاك، وبعد بضعة أيام عاد «المجهول» فأفسدها، وفتّشنا عن «الفانوس» فوجدناه مكسوراً وهكذا وذات ليلة عدتُ وحيداً وكان زيد ضيفاً عند بعض الأصدقاء في «لحج» منذ بضعة أيام، وكنت معِدّاً نفسي للعمل في نسخ كراريس من كتاب الأستاذ أحمد سعيد الأصنج؛ فوجدتُ المكان مظلما، والفانوس الجديد محطماً وسألت الشاب المكلف بحراسة «المقر»!

من صنع هذا؟ فأجاب بعجرفة فأردت أن ألومه، فلوّح لي بهراوة كان يحملها في يده، وتفوّه بكلمات لا شك أنّ شخصاً قد لقّنه إيّاها! فقد كان بالفطرة طيّباً، لطيفا، خدوما، طوال الثمانية الأشهر التي

أمضيناها معاً.. وتلّمست سريري الخشبي أريد أن استلقي عليه لأتخلّص من ثيابي، وأصلي العشاء، وأنام فما أن قعدت عليه حتى تداعى وتساقطت قوائمه، فوقعت على الأ رض، وسمعتُ قهقهة ساخرة! فلم أتمالك.. إلاّ أن قلت بصوت خافت: اللهم أشهد! اللهم لا تغفر لهم فإنهم يعلمون ما يفعلون و بكيتُ من القهر!

وذهبت في اليوم التالي إلى الأستاذ وشكوت عليه فغضب وجاء إلى «المقر» وغيّر الحارس، وهدّد وتوعّد، وتوقفت المضايقات ولكنني كنت قد تعلّمت درساً محزنا.. وثمّة توافه من هذا القبيل كنت قد حكيت بعضها ـعندما عدتـ لصديقي محمد القسيّل وزميلي ابراهيم الحضراني وقد اشرت إليها في مكان آخر من هذه المذكرات.

وأنا حين أتذكّرها الآن؛ اثبتها لأنها حصلت، وتصوّر نوعاً من الصغائر التي يقترفها بعض من أعذرهم اليوم على اقترافها وأثبتها أيضا لأني أريد أن أقول: اللهم اغفر لقومي فقد كانوا مظلومين ومشردين.



موقف "النعمان" الصريح وتمزق حزب الأحرار

لم تعمل اللجنة شيئاً؛ ولقد كان الأستاذ أحمد نعمان صريحاً صادقاً مع نفسه ومعنا؛ فطلب حضوري مع زيد الموشكي إليه، ووجدنا الزبيري لديه؛ وقال: لانريد أن نكذب على أنفسنا ولا على النّاس، والذي وصّلني إلى «عدن» هو الخوف الذي فرّبدوافعه كليم الله «موسى»: «ففررتُ منكمْ لمّا خفتكم»، وفي اليمن «رعيّة» مظلومون؛ ولا سيما في «اليمن الأسفل» وهم لا يطمعون في سلطة، ولا في تغيير نظام الحكم، ولا يجيزون عصيان الإمام أو الخروج عليه، كلّ ما يطلبونه هو الشفقة والرحمة والعدل أو كما قلنا للإمام: «إعلان الهدنة بين العسكري والرعوي»، وان تكون الزكاة أمانة؛ و بعض هؤلاء الرعية قد تشرّدوا، و يشتغلون في أرصفة «عدن» و«الحبشة»، والسودان، وأوربا وغيرها ليُقيتُوا أنفسهَم، ومن وراءهم في اليمن من النساء والأطفال، وقد وثقوا بي؛ وهم يتبرّعون بما يقتطعونه من أجورهم؛ أملاً منهم في أنّني معكم سنستطيع أن نوصل تظّلماتهم إلى سمع الإمام، فينالهم العدل. وهم خائفون، ولا يريدون أن يعرف أحدٌ أنهم يدفعون أموالاً لمن قد كوّنوا حزباً ضد الدولــة خشية أن يمسّ ذو يهم الضرروالأذى، وأنا احتفظ بأموالهم أمانةً لديّ واستأذنتهم في أن أصرف منها ما يقوم بأودنا نحن الأربعة، وما فاض أنوي أن نشتري به «مطبعة» إن شاء الله! هذه هي الحقيقة ولا أريد نقاشاً ولا جدالاً؛ لا حول لوائح، ولا برامج، ولا دستور، فإن كنتم واثقين بي؛ كما يثق هؤلاء المتبرعون فسأستمر في رئاسة الحزب على هذا النهج الذي تحرسه الثقة، وترعاه المحبة والمودّة، وإلا فسأستقيل، وأعيد الأمانة إلى أهلها، وأنتم أحرارفي أن تكوّنوا لكم حزبا آخر وتنظّموه كيفما تشاؤون فأنتم «المجاهدون» «الخارجون» على الإمام الظّالم أما نحن «فرعية» نطلب الرحمة والعدل! ثم لم يترك لنا فرصةً لمناقشته بل قال: هذا ما عندي، و بصدق وإخلاص أوضحته لكم، وانسحب من المجلس وقال زيد: ماهذا يا «زبيري»؟ فضحك وقال: هذا هورأيه، وقد صارحني بما لا يبقى معه فائدة للنقاش، وأنا أنصح أن نوافق على ما يقترحه الأستاذ أحمد في هذه الفترة، فالذين يتبرّعون للحزب جلّهم بل كلّهم من «الشوافع» وهم لا يثقون بأحد كما يثقون بالأستاذ، و بدونه لن نستطيع أن نعمل شيئا؛ فمن المصلحة أن نتحّمله كما هو، ونحاول تغيير أفكاره، وأفكارغيره مع الزمن قال زيد: وإذاً قد فارقت أهلي وأولادي وسبّبت في خراب بيتي، وإخراج عائلتي منه إلى الشارع، من أجل أن آكل وأشرب، وأعلّم «صبياناً» في «عدن»؛ وأجهد نفسي في تعليم «نعمان» النظام ومبادىء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ إذا كنت أستطيع ذلك فلماذا لا أقوم به في بلدي، بين أهلي وأولادي وأحاول تغيير أفكار الحكام والولاة والأمراء مع الزّمن!؟ ونهض واقفا فنهضت معه، وعندما وصلنا مقرّ الحزب سألني ما رأيك؟ فقلت:ربّما كان الشاعر الأمّي محمد جُميزة أكثر دراية وعلماً منّا حين قال:

ما قولي أجلس من «النادي» إلى «البهره» والبحر تحتي ومن فوقي جبل شمسان
والآ بلادي تسعني حيث لي خبره وأعمد مع «الذيب» ذي ساكن في الشعبان

لم نخرج ـــ أنا وأنت على الأقل ـــ لما قاله وفسّره بصدق وإخلاص وصراحة الأستاذ نعمان فقط، ولم نكن مضطرّين، وها قد مرّعام في «روتي ومرق حوتي» وتعليم «صبيان» في «عدن» المستعمرة! وليس في «صنعاء» أو «تعز» على الأقل، وقد سبّبنا بعض المآسي لمن خلّفناهم في اليمن وها نحن نُصارح بأنّ ذلك ليس في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير أو إصلاح نظام الحكم، ومع ذلك نساوَم على ديننا ووطننا، ولا ندري كيف سيكون المستقبل! قال زيد: هذا صحيح.. وما العمل؟ قلتُ العودة إلى اليمن، والعمل هناك لنشر العلم والوعي الإسلامي الحق، ونصح الحكام وتوجيههم.. إلخ. قال: كيف نعود؟ وهل سيعطينا الإمام أماناً؟ ومن نتوسط؟

قلت: سأذهب أنا اولا.. فإن لم اُصب بأذى، ورأيتُ كل شيء كما يرام، فسأنقل لولي العهد سيف الإسلام أحمد رغبتك و بقيّة الاخوان في العودة، وأصف له الواقع، وأننا رجعنا مقتنعين بأن العمل السليم متعاونين معه في الداخل هو الأفضل، وما يوجبه علينا ديننا، وتحتّمه غيرتنا الوطنية. قال: وهل ستذهب بلا أمان مكتوب؟ قلت: وهل هربنا بأمر أو استئذان؟ وماذا سينفعني الأمان المكتوب إذا كان ولي العهد لن يقتنع باخلاصي وصدق نيتي؟! وقلت له: سأذهب فوراً إلى مندوب الإمام القاضي محمد الشامي وادبّر وارتب أمر سفري. وعندما أخبرت «القاضي الشامي» فرح وقال: عظيم جدا؛ وسأكتب حالاً إلى «ولي العهد» يبعث لك الأمان والتعهد بأن لا يمسّك إلاّ الخير، والعزّ والتكريم. قلت له: لن انتظر الأمان، اكتب له برقية إنّي متوجّه بعد غد في سيارة البريد إلى «الرّاهدة» فـ«تعز» قال: والله لن ينالك أذى، ولن يمسك مكروه، ثم ابتسم تلك البسمة اللطيفة، وكان قد جاوز الستين وقال: أنا أعرف والدك وجدك؛ لقد كانا شجاعين أيضا! وقد سررت في أعماقي بهذا الاطراء الضمني ومن ذلك الحكيم الوقور.

وعدت إلى «الموشكي» فوجدته قد جمع «القوسي» و«جميزة» و«دماج» و«عثمان» و«أبو راس» وآخرين يحدثهم، و يشرح لهم ما جرى وانّني معه قد قرّرنا العودة قلت لهم: أنا عائد بعد غد إن شاء الله قالوا جميعاً: ونحن عائدون مع السيد زيد عند أن تأتينا منك الإشارة بأن كل شيء كما يرام، والأمان من ولي العهد، والتعهد لنا بالعمل في سبيل الإصلاح، وإزالة ما يشكوه «الرعية» من ظلم العمال والقضاة والعساكر، وذهبوا إلى الشيخ عثمان لاخبار الشيخ عبدالله علي الحكيمي وأنا ذهبت إلى الأستاذ نعمان؛ ووجدت لديه «الزبيري» فقلت لهما: أنا عائد بعد غد إلى «تعز» قال الزبيري: بلا جنون يا أحمد! قلت: والاخوان جميعاً سيتبعونني، عند أن يصلهم الأمان والتعهد من ولي العهد، وابتسم الأستاذ بأسى وحزن وقال: وهل ستطلب لي وللزبيري الأمان؟ قلت: إذا رغبتما في ذلك، قال الزبيري: لا.. لا.. لو كتبت لي أماناً في ريشة من جناح «جبريل» لما عدت! قلت لقد كان الأستاذ واضحاً وصريحاً وصادقاً ومنسجما مع واقعه ومذهبه، وأنا أعاهدكم الله على المودّة والإخاء والصفاء ونسيان كل ما دار بيننا من سوء تفاهم، وسأعمل جهدي من أجل مراجعة ولي العهد وغيره من

المسؤولين حتى يبرّوا بالرعيّة، و يغمروهم بالشفقة والعدل؛ وأن تكون الزكاة أمانة، وأن يعمروا المدارس والمستشفيات، ولئن أتراجع مع الأصدقاء هنالك عن الأهداف التي نريد تحقيقها للشعب اليمني، وعن طريق ولي العهد نفسه، وقد يكون في عودتنا الخير و يطلق السجناء أمثال الإرياني والسياغي والمعلّمي، والباشا وحسّان، وفلان وفلان، ونتعاون على العمل داخل اليمن وهذا هو ما يتطلبه الأستاذ نعمان ومن يتبرع للحزب عن طريقه!

ولقد بارك الشيخ عبدالله الحكيمي هذه الخطوة، وقال: إنه نفسه يريد الوصول إلى «تعز»، وفتح صفحة جديدة مع «ولي العهد» كما أيّد ذلك الأستاذ علي ناصر العنسي بل والاخوان محمد عبدالوهاب نعمان وعبدالله عبدالوهاب نعمان، وابن عمهما أمين أحمد نعمان و بعض أصحابهم من الحجرية؛ وتعز واب، وحزمتُ أوراقي وكتبي وتوكلت على الله؛ وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٦٤هـ ابريل سنة ١٩٤٥م

تنبيه:

معظم الرسائل التي بعثها حزب الأحرار إلى الإمام يحيى والملك عبدالعزيز بن سعود والملك فاروق وعبدالرحمن عزّام أمين الجامعة العربيّة ومصطفى النحّاس وغيرهم من زعماء العرب والمسلمين لها صور مكتوبة بخطي بصفتي سكرتير الحزب وهي محفوظة في خزانة الأخ الصديق الأستاذ أحمد نعمان وكذلك برنامج حزب الأحرار و بعض النشرات والخطابات السياسية وقد رجوت الزميل أن يوافيني بصور فوتوغرافية منها ولما يسعد بعد! واني اناشده بحقّ الزمالة أن يلبّي الطلب أو ينشرها هو للحقيقة والتاريخ.

١٠ـ قصة العودة:

بتّ ليلة العودة في بيت القاضي محمد الشامي، وقد أخبرني بأنه قد أرسل برقيةً إلى الأمير «ولي العهد» بأني قرّرت العودة وسأصل على سيّارة البريد؛ وقد قال: واحتياطاً وتوثقا لك؛ فقد قلت لولي العهد بأني قد أمّنتك بالنيابة عنه وضمنت لك عفوه وتكريمه، وان الآخرين ينتظرون أخبارك ليلحقوا بك إن شاء الله. و بعد صلاة فجر اليوم التالي استلم «ابن الزهـيري» سائق السيّارة بريد القاضي وركبت بجانبه، واتجهنا من «الشيخ عثمان» صوب «لحج»؛ وكان «ابن الزّهيري» من «سوّاقي» سيارات الأمير ولي العهد «الخصوصية» وكنت على معرفة وثيقة به، بل بيني و بينه صداقة.. وعندما غادرنا «لحج» قال لي: «عودتكم هي أحسن بيني و بينكم، ولا سيما إذا كان مولانا وليّ العهد قد كتب لكم أمانا»، وأردف: «هل يمكن أن تقولوا لي ماذا قال مولانا في الأمان؟ وهل هو لكم وحدكم أم لكم وللاخوان جميعاً؟ ــ كان يخاطبني بصيغة الجمع تأدّباً وهكذا كانت لغةُ التخاطب عند أبناء صنعاء في ذلك الزمانــ قلتُ له: لم أطلب من وليّ العهد أمانا! فنظر إليّ مستغرباً وقال: لماذا! قلت ضاحكاً: «توكّلاً على الله و وثوقاً بكلام القاضي محمد الشامي» قال ضاحكاً:ما أظن..! وأنتم تعرفون المثل: «كتاب الله والجِلبة» فتذكّرت الحديث الشريف: «اعقلها وتوكّل»! وقلت: لن يكون إلاّ

الخير إن شاء الله . قال : معلوم .. ولكن إذا كنتم ستغيّرون رأيكم فهُنا .. ونحن لا نزال في حماية «الانكليز» أما إذا دخلنا حدود اليمن فلن تستطيعوا إلا التوكل على الله ! فشعرت بشيء من الخوف، وهمس في أعماقي صوت الندم وكأنه يقول : لقد تسرّعت يا أحمق ؛ ماذا كان يضيرك لو تريّثت وانتظرت «الأمان» كما نصح الموشكي وأشار القاضي الشامي ثم «نعمان» والآن «السواق» الذكي «ابن الزهيري» ؟

ولفّنا الوجوم، والسيارة تنهب الأرض في طريق «لحج» المعّبدة، و بعد حوالي ساعة، نظر إلى «الزهيري» وقال : «لانزال في المحمّيات «الانكليزية» ! و بعد ساعة سندخل حدود «الإمام» .. ومدّ صوته بلفظة «الإمام» وسمعتُ نبرات حروفها تجلجل .. وكأنها صلصلة القيود والسلاسل ! وشعرت كأنه يقول : هذا ما ينتظرك ! وهل قد نسيت ما قد عملت طوال عام مع «الموشكي» و«الزبيري» و«نعمان» والآن تعود إلى «أحمد الجنّي» دون أمان» ؟!

وكأن ذلك الصديق الطيّب قد قرأ ما دار بخلدي فقال ــ ودونما تعظيم أو تكبيرــ أنت حُر؛ إذا كنت تريد أن تغيّر رأيك وتعود لأجل أن تطلب الأمان من مولانا ؛ أما بعد ساعة فسنكون في حدود الإمام أنت أخبر بنفسك إذا كنت لا تحمل أمانا من «مولانا» ! وخرجت حروف «مولانا» من بين شفتيه طويلة رهيبة وكأنها تنبعث من أعماق سجن قديم ! فقلت : [ومن يتوكل على الله فهو حسبه] !

ومضينا والصمت يلفّنا، و بدأت معالم الطريق تتغير، وتكثر فيها الحفر والأحجار والحواجز الترابية، فقال السائق : اقتر بنا من «الخشبة» ورأيت المكان الذي سجد زيد الموشكي فيه يشكر الله لأنه نجا من وطنه، وقال ما قال ؛ وأطرقت خاشعا ؛ أسجد لله في أعماقي بلا حركة ولا كلام ورأيت في محراب ضميري «أمّي» ولا أذكر كيف اجتزنا «الخشبة»، وكانت الشمس مشرقة، والجوّ مضمخا بالنسيم العليل، وانتعشتُ برائحة الوطن الأم، ولكنه انتعاش لا فرح فيه ولا مرح بل فيه الكثير من القلق والخوف، وكأنّ ذلك الصديق الطيب «السوّاق النبيل» الذي أراد أن يحذرني قد أراد أن يطمئنني و يشجعني فقال : حقيقةً [إن الله يحب المتوكلين] لا تقلقوا ولا تخافوا والله ما يُصيبكم ؛ لا سوء ولا مكروه وأنا أعرف «ولي العهد»، ولي أعمل معه سوّاقاً سبع سنوات انّه بطل شهم، وقد سمعته يوماً يتحدّث عنكم مع القاضي حسين الحلالي، وهو راكب معه في السيارة وقال :«أما الولد أحمد الشامي فلا يزال شابا وقد غشه الآخرون» .

ولا يمكن وأنا أتذكّر ذلك الموقف الإنساني الرائع للسوّاق الصديق، «ابن الزهيري» إلاّ أن اكرّم فيه الطهر والإخلاص والرحمة؛ عندما أبدى لي مخاوفه، وحاول أن يُعَرقِل عودتي حتى اتثبّت لنفسي بأمان؛ غير مبال بأن ذلك لو بلغ «ولي العهد» لما تركه دون عقاب ! وأن أمجّد فيه اللّباقة والإنسانية والحزم أيضا حين أدرك بأنّنا في أرض «الإمام» وأن لا مجال لي لو أردت أن أغيّر رأيي في الرجوع إلى «عدن» لأنّه قد أصبح شبه مسؤول عني، وحارس عليّ، حتى يوصلني إلى بين يدي سيف الإسلام ! فأراد أيضاً أن يكون مسؤولا عن رجل مطمئن مرتاح البال، لا عن أسير مفزّع قلق مضطرب .. لقد كان

انسانا شهما كريما ؛ الصديق السواق « ابن الزهيري » يا ليت شعري ماذا يصنع الآن !؟

في الراهدة مع « صالح حراب » :

قلت لسائق السيارة؛ لا أريد أن أقابل أحداً من المسؤولين عند وصولنا « الراهدة » ولاسيما مدير الجمرك « صالح حِراب » ، فأنت تعرف محبّته للمزاح و« الزبج » ، وقد يقول ـــ ولو بدون اختياره ـــ ما يؤذي مشاعري ، وقد لا أصبر ، فنسبّب مشكلة . قل له : انك مأمور بأن أبقى في السيارة حتى تسلّمني إلى « ولي العهد » .. قال : طيّب . ابقوا داخل السيارة ، وسأدبّر وانجز كلّ المعاملات الرسمية ! وما كدنا ندخل « الجمرك » حتى تعالى صوت « صالح الحراب » مع قهقهته المشهورة في اليمن وهو يقول : أين سيّدي أحمد الشامي ؟ أهلا وسهلا .. وأقبل نحو السيارة قائلاً : وصلتني أمس منتصف الليل برقية من مولانا ولي العهد يتحرّوني في الترحيب بكم ، وتسهيل سفركم إلى المقام الشريف وحيّاني باشاً ، مرحبا ، وتصافحنا ؛ وحاولت أن أعتذر عن النزول ، وأني أفضّل مواصلة السير إلى « المقام الشريف » فأصّر مُقسماً بأنّنا لن نغادر « الراهدة » إلاّ بعد تناول وجبة « الغداء » التي قد أعدّها ضيافة لي ، وقد دعا إليها كلّ الموظفين في « الجمرك » قلتُ : إذاً فعلينا أن نشعر « مولانا » بوصولي ؛ وكتبتُ برقية هذا نصّها : « مولانا وليّ العهد أيّدكم الله : وصلت الراهدة : ولدكم : أحمد بن محمد الشامي . وفي أقلّ من نصف ساعة عاد الجواب ونصّه : من أحمد ابن أمير المؤمنين إلى الولد صفي الدين أحمد بن محمد بن محمد الشامي حفظه الله : أهلا وسهلاً ومرحبا .

و بالحديث مع صالح حراب تبدّدت الوحشة التي كانت في نفسي عنه ؛ ومن أسبابها ؛ أنه كان من أقرب المقرّبين إلى الأمير علي بن عبدالله الوزير لمّا كان أميرا على لواء « تعز » فلمّا نُحّي عن الإمارة ، وتولاّها .. ولي العهد سيف الإسلام أحمد لم يثبت حراب مع الأمير علي الوزير .

ذلك ما كان يتحدث به الناس وذلك ما كان قد بلغني ، وأمضينا فترة الغداء في سرد نوادر اشتهر بإجادة حبكها ، وسردها الشيخ صالح حراب . وفي طريقنا إلى « تعز » أطلعتُ « الزهيري » على جواب « ولي العهد » فتبلّجت أساريره وقال : « قد قلتُ لكم لا تقلقوا » .

وحوالي « العصر » وصلنا « حِوض الأشراف » حيث كانت دار النائب « القاضي » حسين الحلالي فقال « الزهيري » سأُدخِل بريد « النايب » إلى ديوانه . قلت:وسأزوره أيضاً ، وإذا كان سيذهب لمقابلة مولانا فسأرافقه للاستئناس ، واستقبلني « الحلالي » مرحّبا وقال : هل قد ذهبتم إلى « العرضي » قلت : لا . قال : إنهم ينتظرونكم في المقام ، وقد أمر مولانا ولي العهد أن تنزلوا في الغرفة التي فيها السيدأحمد ابن يحيى المجوة (الكبسي) وربما تقابلونهم في المساء أوغداً إن شاء الله واطمئنوا ؛ فكلُّ شيء كما يرام .

وكنت أعرف السيد النبيل أحمد بن يحيى المجوة ، فهو رفيق الصبا والشباب بصنعاء ، وكان ظريفاً مهذباً كريما ، وسررت سروراً بالغاً أني سأجد صديقاً مثله بجانبي ، في مثل هذا الظرف الحرج . واتجهت نحو « المقام الشريف » وقابلني كلّ من فيه وعلى مختلف المستويات بالفرح والترحيب ، وجاء العلماء والشعراء والأدباء وفي مقدمتهم حسين الويسي ، ومحمد الذاري ، ومحمد الوريث ، وأحمد

الحضراني، وابنه ابراهيم، ومحمد الفسيل، والطبيب حسن الخميسي، وعبدالله بن يحيى الديلمي، وأحمد الجبري، وتبددت وساوس المخاوف، وتحدثت مع الأخ أحمد المجوة عن قصة فرار سيف الإسلام اسماعيل من صنعاء، وإلقاء القبض عليه وهو معه في «قعطبة» قبل أن يتمكن من مغادرة «الحدود» وكيف كان ولي العهد معهم لطيفاً كريماً، وضمن لأخيه الأمير، رضى أبيهما الإمام يحيى، وفي صباح اليوم التالي قابلت الأمير سيف الإسلام «البدر» صديقي ونجل «ولي العهد» ومعه أستاذي السيد أحمد ابن محمد زبارة، وأساتذته الذين سبق أن ذكرتهم كالسيد عبدالله عبدالكريم، والقاضي محمد الخياري وزملاء دراسته كالاخوان قاسم المتوكل، ومحمد الخطيب، ومطهّر الوجيه، وأحمد بن عباس اسحق، وجاء عامل تعز محمد بن أحمد باشا وأخوه عبدالجليل وأولادهم والكثير من الأمراء والعلماء وشخصيّات اليمن البارزة، وكان الجميع ينتظرون خروج «مولانا» من قصره للمواجهة، ولا شك أنهم يتطلّعون لمعرفة ما سيدور بيني و بينه في أول لقاء، وبماذا سيقابلني؟ وماذا سأقول عن أصحابي الذين خلفتهم في «عدن».

مع ولي العهد أحمد:

وخرج «ولي العهد» و بعد أن استقرّ في مجلسه، وأذن للناس بالدخول عليه استدعاني وكانت المقابلة الأولى مع ولي «العهد أحمد»

كما قلت؛ كان مجلس الأمير غاصا بمن ذكرت من الشخصيات البارزة؛ وحين دخلت إلى المجلس رحّب وسهل وابتسم، وهو ذو الوجه الصّبوح المشرق، والشخصيّة المهيبة، والبسمة الساحرة، والطلعة البهيّة، التي كثيراً ما تفنّن في وصفها شاعر اليمن محمد بن محمود الزبيري مثل قوله:

أشرقت يوم العيد أروع طلعة	منه، وأكبر في النفوس وأعبقُ
وكأنما الفردوس صاغت نورَها	ملكاً ندين بملكه، ونصدّق
تبدو لنا فتهيم فيك عيونُنا	وذكاء في آفاقها لا ترمقُ
والشمس تخلق يوم عيدٍ واحدٍ	وعلى جبينك ألف عيد يُخلقُ
نور تأجّج لو رآه عالمٌ	ثان لظنّ الأرض منه تُحرَقُ
وكأنما صوّرت من أبصارنا	فتكاد تُختطَفُ بالجفون وتُسرَقُ
وترى العيون تسيغ نورك لهفةً	وتضمّ محجرها عليك وتطبقُ
وتكاد تبلعك النواظر خلسة	وتشدُّ أهداباً عليك وتغلق
عجلت بها نظراتها، فتفتّحت	حيرى ونورك زاخرٌ يتدفّق
وكأنها صادٍ يقبّل كوثرا	فتهيج لوعتها عليه و يشرق
عبّت وما رويت! وأنىّ يرتوي	من طلعة الفردوس طرف شيّق؟

وقد حرصت على سرد هذه الأبيات للزبيري وإثباتها ـــ ولا علاقة لها بالموضوع ـــ لأنها تصوّر شخصيّة سيف الإسلام أحمد ابن الامام يحيى قبل أن يتولّى الإمامة وكيف تعمل جاذبيتها في الجماهير ما

يفعله سحر أية شخصيّة جذّابة في سائر الأمم وفي كل زمان ومكان! وكم تحدّث عن ذلك الشعراء والكتاب! ولا يستطيع أحد أن ينكر على «الزبيري» قولها، ولا عليّ إثباتها .. إذ ليس فيها اطراء، ولا مدح، ولا تمجيد، ولا تطبيل .. بل هي تصوير شعري لصفات ذاتية، لا علاقة لها بحق أو باطل، ولا بخير أو شر، ولا بعدل أو ظلم، ولا بخل أو كرم، ولا نظام حكم جمهوري أو ملكي، ولا رجعيّة ولا تقدّمية! إنّها تكاد أن تكون نوعاً من شعر الغزل أو النسيب، أو الوصف لمنظر من المناظر الرائعة. وأنا أدعي أنّ إثباتي لها لا يعد استطراداً خارجاً عن الموضوع كما قد يدّعي بعض المنهجيّين والمتحذلقين. لأن القارىء بها سيستطيع أن يتصوّر موقفي أنا العائد من «عدن» بعد أن أعلنت الخروج على هذه الشخصيّة وعلى نظام حكم أبيه أمير المؤمنين بل وحررتُ الرسائل ضدها، وكتبت المقالات، وحبّرت الأشعار.. وها أنا أعود إليها و بلا «أمان» مكتوب!

وكان لابد أن اثبت هذه الأبيات «الزبيرية»، الشاعرة الصادقة.. لا لأبرّر موقفي في المجلس إذا ضعُف أو استخذى.. لأن ذلك لم يكن.. وليس لأني كنت شجاعاً غير هيّاب ولا وجل، فقد كان القلق والخجل يأخذني من جميع أقطاري ولكن لأن صاحب تلك الشخصية قد كان في غاية من التواضع والرقة والحياء! وأشعرني بطريقة لا أجد لها وصفاً.. بأنه هو الذي عليه أن يعتذر!

وكان لابد أن أثبتها لأنّ ما أورده «الزبيري» في وصف شخصية [illegible]، الإسلام أحمد.. هو ما رأيتُه في تلك اللحظة، ولو عبّرت عن مشاعري ــ وكانت لي مقدرة شاعر اليمن ــ لما انقصت مما قاله حرفا.

و بعد أن رحّب وسهّل وابتسم وحاولت أن أقبل كفّه فامتنع أن استبد بها، و«ناصفني» كما يقول أبناء اليمن.. و بعد أن أخذتُ مجلسي بين رجاله وكتّابه، وسألني عن الصحّة والجوّ والأحوال في «عدن» قال: وأين أصحابك؟

ــ قلت: يبلغونكم السلام وهم ينتظرون «الإذن والأمان».

ــ قال: ولماذا لم تطلب أنتَ «الإذن»، ولا انتظرت «الأمان»؟

ــ قلت: استحييتُ أن أطلب «إذناً» بالعودة وأنا لم أطلب «إذناً» بالفرار.. فضحك.. وقال: و«الأمان»؟ ألم تَخش أن يمسّك أذى أو ينالك مكروه؟

ــ قلت: ما أعرفه من سماحة مولاي وكرمه أجّل من أن اشترط له عهداً مكتوبا!

ــ قال: لقد رجعت من «عدن» بعقل كبير.

ــ قلت: بل بعفو كبير.

ــ قال: وهذا هو العقل.

وكان النّاس كأن على رؤوسهم الطير.

ثم عبَّ عبابُ الحديث عن «عدن» وشؤونها الاجتماعيّة والأدبيّة، ولم يحاول من قريب أو بعيد

أن يثير أيّ سؤال عن «حزب الأحرار»، وقبل أن ينفض المجلس قال لي: تراجع مع الولد حسين الويسي والقاضي حسين الحلالي، وحرروا «الأمان» الذي يُطمئنُ أصحابك، والأوامر اللاّزمة بتسهيل سفر من يرغب منهم إلينا؛ وها أنا أقولها للجميع عفا الله عمّا سلف. وليبلغ الشاهد الغائب..

ولم يمض أسبوع حتى وصل السيد زيد الموشكي ومطيع دماج وعبدالله علي الحكيمي وأبوراس والقوسي وجميزة ولم يتخلّف غير «الزبيري» و«نعمان» وقد صحبهم أيضاً مندوب الامام القاضي محمد عبدالله الشامي ووكيل الحكومة اليمنيّة التجاري عبدالقادر مهيوب العطّار وبعض زعماء وتجار لحج وعدن.

ورحب بهم ولي العهد أجمل ترحيب؛ وفي حفل كبير القيتُ قصيدتي المشهورة في ديواني «النفس الأول» تحت عنوان «اعتراف» وهي:

خلّه يخلب النّهى ببيانه ... ويناجي آماله بلسانه
دعه يبك أحلامه بدموع ... عُصرت من شعوره وحنانه
ويغني كما يشاء، ويسقي ... ثمرات الأوهام من ألحانه
يرسل الصوت مظلما كمنت فيـ ... ـه وفي لفظه هموم جنانه
كالشعور الجريح، كالأمل الخائـ ... ـب، كالطّير ضلّ عن أفنانه

دعه دعه فإنه الشاعر الصـ ... ادق في شعره وفي إيمانه
عرف النّاس والحياة وجلاّ ... ها بأنوار فكره وبيانه
ما رأى غير أوجه كالحات ... وقلوب كاللّيل في طغيانه
تبعثُ الشر من دخائلها؛ كالصخـ ... ـر يرفضّ من لظى بركانه

أنا كالعابد الذي هجر الكو ... ن وأمدى ولجّ في نسيانه
أثخنت قلبه الجراح فتيّا ... وغرور الشباب في عنفوانه
كم صروف قاسيتها. كم ظروف ... كنتُ فيها كالميت في أكفانه
كالذي يغسل الظلام عن الأر ... ض بدمع يسيل من أجفانه
أو كمن يعلن الكفاح؛ ولا يمـ ... ـلك من قوّة سوى إعلانه[1]
أحرقت روحي الهموم، وما شكـ ... ـواي إلاّ بقيّة من دخانه
كيف أنشي قصائدي؟ كيف أشدو ... غرق الطير في شجى ألحانه!
شاقه روضه فعاد إليه ... وارتقى ذاهلاً على أفنانه
أيغني؟ أم يذرف الدمع؟ أم ما ... ذا..؟ لقد ظلّ حائراً في مكانه
المعاني التي جفته زمانا ... أقبلت ملء قلبه ولسانه

(١) من الطرائف التي تستحق التسجيل، أن رئيس ورراء السودان ووزير خارجيتها سابقاً قال لي عندما قرأ البيتين: «كالدي أو كمن»: لو كنت الإمام أحمد لسجنتك؛ لأنك لم ترجع إليه مخلصاً مقتنعاً، ولكن لأنك ضعيف لا تملك قوة»، فقلت له: الحمد لله الذي لم يخلق الإمام أحمد سودانياً... المؤلف.

والمغاني التي جفاها زماناً عادها .. نادماً على هجرانه
كيف يرضى بالهجر والبُعد صبٌّ كيف ينبو الهمام عن أوطانه ؟
كيف لا يستقرّ في غابه الليـ ـث ، وفي غابه فخامة شانه !

ليت بعض الأنام يعرف ما نعـ ـرفُ ؛ أو يهتدي إلى عرفانه
قد عرفنا ما كان يخفى علينا ودرسنا الكتابَ من عنوانه
وعرفنا بأنك الأمل المرجوّ في عدله ، وفي إحسانه
وعلمنا بأنك الحاكم الذائد عن قطره ، وعن سكانه
نظرة منك تهتك المضمر المخـ ـفيّ في خاطر الفتى وجنانِه ؟
ليس من يأخذ الكلام عن النـ ـاس كمن يستمدّ من وجدانه

إلى آخرها وكان يوماً مشهوداً .

١١- في الطريق إلى صنعاء

بعد كلّ هذه المشاكل التي عانيتها ، والأحداث التي خضتها ، لم أعد أفكّر كثيرا في زوجتي ، وما إن مرّ عليّ اسبوع في تعز حتى تلقيت رسالة من أخيها السيد محمد بن عبدالرحمن الشامي يقول فيها : « لقد كانت الكريمة تنتظر منك خطابا » « أو أن تشعرها برقياً بوصولك » ! ولم أصدّق بادىء بدء ؛ إذ أنّ جذوة الهوى كانت قد خمدت تحت ما تراكم عليها من ثلوج اليأس ؛ واليأس أحيانا بلسمٌ يشفي جراح الفشل ؛ والمثل الصنعاني يقول : « اليأس من الحاجة قضاة حاجة » وهو قولٌ حكيم له أشباه ونظائر كثيرة مشهورة ، وقد تعوّدت أن ألجأ إلى هذا العلاج كثيراً ، وفي أشدّ الأزمات فوجدته ناجعاً ناجحاً مريحاً ، وأنقذني مما يقع فيه البعض من الإلحاح والتمحّك واللّدد ، و بقدر ما كانت أتعابي وآلامي وأحزاني تُقلق حياتي صحيّا ونفسيّاً وفكرياً ــ عندما كنت أحاول التفاهم مع زوجتي كما وصفتُ سابقاً ــ شعرت بالراحة والاطمئنان عندما يئست منها ــ وكنت قد بدأت أحدث نفسي بأنّي عندما أقابل « أمي » في « صنعاء » سأقترح عليها السفر لزيارة جدّتي إلى « المسقاة » ، وأفتح معها ذلك الموضوع الذي طالما زيّنته لي ، وكنت أرفض الخوض فيه وهو « الزواج » من إحدى فتيات « وادي بنا » الجميلات ، وأطلب منها أن تصطحبني معها إلى هناك ، وأن تنتقي لي وتختار « عروسا » لا لكي أقهر بها « أمة الله » كما كان يفعل والدي مع زوجاته ! إذ لم أعد أحبها ، وقد نسيتها حقا ، و يئستُ منها صدقاً .. بل لأني أريد أن يكون لي شريكة حياة في طريقها الشاق الموحش ! كنت أحدّث نفسي بمثل هذا الحديث حين ورد خطاب السيد محمد عبدالرحمن الشامي يخبرني بأن أخته زوجتي كانت تترقّب مني كتابا ! وتذكّرتُ معاملتها لي القاسية ، ونفورها الشديد مني طوال أكثر من عامين ، فاستبعدتُ أن تكون قد اقترحت على أخيها أن يكتب إليّ بما كتب ؛ أو أنها قد غيّرت رأيها ، أو ندمَت على ما صدر منها .. ولكن ؛ يظهر أنّني كنت أغالط نفسي ، وأن حبّها القديم الذي نشأ مع أحلام الصبا والدراسة

والطموح، لم يمت بعد ولذلك فقد أجبتُ عليه معتذراً عن تأخير الكتابة إليها بأنني كنت ــ ولا أزال ــ أظن أنّ ذلك يؤذيها! وقلت له: ومع ذلك فبلّغها تحياتي، وقلت في نفسي إذا كانت حقّا قد غيّرت رأيها فستكتب لي بخط يدها كتابا مستقلاً؛ لا مجرد «توصية» بواسطة أخيها؛ ولم يأت بريد «صنعاء» التالي إلاّ وهو يحمل رسالة بخطها الذي أعرفه، تهنئني بسلامة الوصول، وتسألني متى سأزورهم إلى صنعاء، وتطمئنني على صحة الوالدة.. الخ؛ وسررت سروراً جمّاً واستيقظ الحبّ من جديد، واستأذنتُ وليّ العهد، فأذن بذهابي إلى «صنعاء» على أن لا أتأخر طويلاً، وأكرمني إكراماً بالغاً، وكتب معي خطاباً إلى أخيه سيف الإسلام الحسين بأن يعمل جهده لدى والدهم الإمام يحيى كي يرضى عنّي، و يغفر زلة سفري إلى عدن، وقال له: إنه قد تأكد أن نيّتي لم تكن المعارضة، أو الخروج عن طاعة الإمام، وإنما كنتُ أريد الذهاب إلى مصر للدراسة، وأن يساعدني على الوصول إلى مقام الإمام للتسليم عليه.. الخ. وأمر لي «بقارشة» وكانت بغلة بيضاء فارهة عليها سرجٌ تركيّ أنيق، وأمر أن تبقى صحبتي في صنعاء حتى أعود، وأن يكون معها أحد الجنود المرخّصين من «فوج النمّونة» بكامل سلاحه، وكم كانت دهشتي حين جاء الرفيق بالبغلة فجر اليوم التالي؛ وإذا به أحد زملائي في «مكتب الأيتام» السيّد عبدالخالق السراجي! وقال وهو يأخذ «الخرج» ليضعه على البغلة: الحمدلله على رؤيتك يا أخ أحمد، بعد عمر طويل، وأنا رفيقك إلى صنعاء، ومن حسن الحظ اني سأكون المسؤول عن «بغلة بيت المال» حتى تعود معك إلى «تعز»، وقد عاملت كلّ الأوراق الرسميّة في الشعبة، من أجل المصاريف لها من «النقلية»، ومصاريف بقائي معكم حتى نرجع معاً إن شاء الله، وكان يتحدّث بسرعة و يُلقي الجمل متتابعة دون أن يترك لي فرصة للحديث؛ حتى اطمأنّ إلى أنّه قد أوضح لي كل شيء!

ــ فقلت له: أهلا عبدالخالق وماذا جرى؟

ــ قال: مسخني الله «عسكرياً»، وضحك ضحكة ساخرة!

ــ قلت ضاحكاً: ولماذا؟

ــ قال: هكذا إرادة الله؛ أنت ومحمد الفسيل علماء وشعراء، وأنا عسكري بسبعة ريالات؛ ولكن «الحجّة» هي عندي، والذنب ذنبي؛ لأني تمردت على العلم والدراسة، وخالفت أوامر الوالدة، ولعبتُ كثيراً حتى التحقت بـ«فوج النّمونة» والقصّة طويلة، وسنتكلم في الطريق.

وفرغ المساعدون من حزم أمتعتي، وسلمتُ إلى «شاوش المقام» «الفكّ» ــ الرخصة الخطّية ــ بخروجي وما معي من الباب وانطلقنا ــ مع غبش الفجر ــ نحو «الحوبان»؛ وكان السيد عبدالخالق قصير القامة، و بندقيّته «الموزر» المعلّقة على كاهله تطاول «صمادته» الصفراء، و يرتدي بدلة جندي «النمونة» التي هي أفضل من ملابس جنود الجيش «النظامي» و«الدفاعي» و يتميّز بالحذاء الجلدي القوي، الذي أهدت الحكومة العراقية كميّة منه للجيش اليمني عندما اقترح رئيس البعثة العسكرية العراقية تأسيس فوج نموذجي للجيش اليمني الحديث، يكون أفراده من الشباب الذين

يعرفون القراءة والكتابة؛ وهو الفوج الذي التحق به زميلي السيد عبدالخالق وسمّوه «فوج النمونة» وأظن ذلك كان حوالي سنة ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م أو قبله بعام..!

وأشرقت الشمس علينا ونحن بوادي «الحوبان» ثم اجتزنا «الجند» بعد أن استرحنا بقرب جامعه قليلا؛ ثم واصلنا السير، وعبدالخالق يجري بنشاط أمام البغلة تارة، وأخرى يتأخرعنها، وحينا يمسك بالرّكاب، وما كدنا نتجاوز الوادي، ونصعد إلى قرية «السيّاني»؛ حتى تلازقت قنازعُ السّحب. وتواكبت وازدحمت، فحجبت عنا نور الشمس؛ ثم بدأت تتصاكك، وترعد وتبرق وقال عبدالخالق: لو تأخرنا في السوق واسترحنا ساعة حتى يذهب وقت المطر لكان أفضل وما كِدتُ أجيبُ حتّى هطل المطر غزيرا، ورأيناه ينصب على شناخيب الجبال كأفواه القرب، و ينحدر في شلاّلات هادرة إلى المسايل، وجرّ عبدالخالق «بغلة بيت المال» ـــ التي كتب فيها سندا لمدير النقلية ـــ إلى ظل «تالوقة» عتيقة، نستظل بغصونها الوارفة، ونتّقي أسواط المطر، وكان عبدالخالق يغطي وجه البغلة بظهره، ويحنو عليها بصدره، و يرفع رأسه إليّ أحيانا وهو يقول: ستنجلي ستنجلي! وأردت أن أساعده وأخفّف عنه عبء البندقية، فقلت: ناولني «البندق»، فقال: لا..لا.. قلت: أنا راكب وأنت راجل، ومشغول بمسك زمام البغلة، قال: الجندي لا يسلّم سلاحه لأحد أثناء السفر! قلت: أنا رفيقك.. قال: ولو.. هكذا علّمنا الرئيس جمال العراقي! وضحك!

ونظرت إليه منحنيا على رأس «بغلة بيت المال» فحدّثت نفسي حديثاً طو يلاً خاطفاً صامتا ـــ إن صح هذا التعبير ـــ لقد تساءلتُ: لماذا لايكون السيد عبدالخالق السراحي هو راكب البغلة، وأنا الجندي حامل البندقية الذي يُمسك بزمامها؟ لماذا ونحن من مدينة واحدة، ووطن واحد، وكلّ منا فقد أباه صغيراً، وتزاملنا في صف واحد بمدرسة الأ يتام؟ لماذا لماذا ونحن نُعزي إلى الإمام الهادي الذي ينتسب إلى الإمام عليّ عليه السلام.. وما هو الفرق بيني و بينه؟ هل هو الحظ أم الصدفة أم العمل؟ وسمعتُ صوتاً خافتاً لا أدري مصدره يقول: إنّه العِلم.. إنه العلم! قلتُ: وهل أعلم شيئاً؟! وخفّ المطر رو يداً رو يداً، وتقشعت السحب، وأشرقت الشمس من جديد، وواصلنا إلى «السيّاني»، حيث أشعل صاحب النُزل وصاحبته النار. نجفّف على حرارتها ثيابنا المبللة، واعتنينا بوضع أثقال البغلة، وتجفيفها أيضاً، وما هي إلاّ ساعة خرجنا أثناءها إلى المسجد وأدّينا الصلا تين قصراً، وعدنا لتناول وجبة لذيذة؛ «السبيّة» و«السمن والعسل» أوّلا، ثم دجاجة مطبوخة بطريقة زادها الجوع طعما خاصاً، وتناولنا «القات» إلى ما بعد صلاة العشاء، وتعشّينا خبزاً على دجاج أيضا.

كانت أحاديثي مع عبدالخالق ساذجة بريئة كأننا لا نزال تلميذين في مكتب الأ يتام، وسألته: وأين تقيم الآن؟ قال: في بيتنا القديم بحارة «صلاح الدين»، حيث الوالدة وأختي وزوجها؛ وقد غبتُ عنهم سنة وأر بعة أشهر.. ثم أخبرني أنّه لم يواصل دراسته في مكتب الأ يتام ثم ينتقل إلى المدرسة العلمية ليقرأ علوم الآباء والأجداد ـــ حسب تعبيره ـــ وهو ما كانت أمّه تريد أن يفعل؛ ولا استمر في مدرسة الأ يتام حتى يتخرّج منها كاتباً أو موظفاً، بل هرب منها إلى «الحديدة» وحاول أن يكون «سوّاقاً لسيّارة» لكنّه لم يوفّق وأمضى فترة حمّالا، وقال إنه قد عبث ببعض مخلّفات والده الذي كان

يشتغل مدير مال في إحدى النواحي، وتوفي ولما تجاوز السادسة.. ثم قال: وقد أنقذني الله بتكوين «فوج النمونة» الذي التحقتُ به لأني تعلّمت القراءة والكتابة معك في «مكتب الأيتام» وأنا الآن أواسي الوالدة والكريمة بما استطيع من المرتّب الحقير، وزوج أختي رجلٌ طيب وله دكان في سوق «الملح» وفجأة سألني سؤالاً خطيراً، ما كنت أظن أنّ مثلّه يسألُ مثله!

ــ قال: لماذا رجعتم من «عدن»؟

ــ قلت: اشتقت للوالدة، وجو «صنعاء»!

ــ قال: أنا أفهم أن الغربة عذاب.. ولكن لو تأخرّتم قليلا؛ حتى ولو نصف عام لكان أفضل

ــ قلت: ولماذا؟

ــ قال: قد كان خبرُ فرارِكم إلى عدن، بدأ يصل إلينا، وإلى الناس.

ــ قلت مستغرباً: وكيف؟

ــ قال: يا أخ أحمد سأكلّمك بصراحة؛ الدولة بدأت تخاف منكم، وتحسب لكم ألف حساب، فقرّرت أن تحسن معاملتها مع الرعيّة، وكان ولي العهد قد وعد بزيادة مرتبات الجيش، وسيكون مرتّب الجندي مثلي عشرة ريالات، فلو تأخّرتم حتى يتم ذلك سنستفيد، ثم ضحك وهو يقول: كلّ واحد في الدنيا لا تهمه إلا مصلحة نفسه أوّلا!

ــ قلت: وكيف أحوال الجيش إدارة، وإعاشة، ونظاماً؟

ــ قال: أقول لك بصراحة الأخ لأخيه؛ ولو أنت عالم وأنا جاهل؛ أحوال الجيش سيئة جداً، وكل الموظّفين فيه ــ صغيراً وكبيراً ــ سَرَق، كلّ واحد ينهب من تحته، و يرشي من فوقه،! وصدّقني أنّي ما ظفرت بالرخصة للسفر معك؛ مع أن الدّور دوري، والجهة ــ صنعاء ــ جهتى، إلاّ بعد أن أرشيت كاتب «البلك» ومدير «الشعبة» بمرتب شهر! وقِس على ذلك.

و بعد تناول العشاء وكان التعب قد أخذ منا كلّ مأخذ أعدّ كلٌّ «كيس نومه»، ولم ينس عبدالخالق أن يذهب إلى «بغلة بيت المال» لتفقُّدها، وعلّق على رقبتها مخلاة «حَسِيك الشعير» وهو يتمتم بصوت ملؤه الغبطة والسعادة:

يــا رحمــتــاه للـعــاشــق المســافــر «جِبلة» و«إب» والثالث «المخادر»

إلى «اب» حيث فندق «غالية»!

ونهضنا قبيل الفجر، ولن أقول وحزمنا أمتعتنا وصَلّينا واتجهنا في غبَش الصباح نحو «اب»؛ فذلك معلوم، وسيكون دأبنا حتى نصل «صنعاء» بعد أسبوع، وكأنّي بالسامع، أو القارىء، وقد ضاق ذرعاً بهذه التفاصيل التافهة، والتي تزخر بها كتب الرحلات، و بلغة أنصع بيانا وأجمل تعبيراً، وهو يريد مني أن التزم بلغة «المذكرات»، ومنهج كتابها، وأن أتحدث عن الإمام يحيى، والإمام أحمد، والإمام

عبدالله الوزير، وعن الأحرار وثورات: ٤٨، ٥٥، ٦٢ـ وما دار أثناء فتراتها المتعاقبة من جدال وصراع، ومواقف وطنية، وملاحم ومآس. نعم كأنّي بالقارىء وقد ضاق بالكتاب ذرعا واسلمته يُمناه إلى يُسراه.. إلى الرفّ المهجور.! ولكن.. لن يمنعني هذا التصوّر من أن أواصل تسجيل ما أتذكره عن زميلي الجندي السيد عبدالخالق فإني لا أتكلّف كتابة هذه الذكريات وإنما أتحدّث بها إلى نفسي، وأناجي بها أشباح ماض لايزال قريباً إلى نفسي، وإن قد بات بعيداً، وذكريات ذلك الرفيق الطيب تصّاعدُ حولي، وتحوم، ساحرة مُعطّرة، مثيرة رائعة.. أكاد أن أراها وأسمعها واتنسّمها، و يسعدني و يطيب لي و يلذّ، أن أتحدّث عنها كثيراً، وأن أمكث معها طو يلا.. إنها عندي ألذّ وأشهى، وأجمل وألطف من الحديث عن الأئمة والملوك وأبطال الوطنيّة والمواقف السياسية!

نعم.. غادرنا «السياني» بين الوديان الخضراء الجميلة من واد إلى عقبة، ومن عقبة إلى واد.. حتى اجتزنا نهر «جِبلَة»؛ وهي ببيوتها الشاهقة، ومناراتها الناصعة، رابضة على شمال المتجه إلى «اب» كالغادة الجميلة تغري الرائح والغادي، وتستدعيه لزيارتها.. وكان «عبدالخالق» يهرول ببندقيته أمام «بغلة بيت المال»؛ وكأنّه يتحسّس لها و يتقرّى، الطريق السهلة اللّينة خشية أن تصاب بالحفاء! لأنّه هو المسؤول عنها أمام الشعبة العسكرية وليس راكبها! والتفت يقول: هذه «جبلة» التي قالوا إن الكلب لا يدخلها إلاّ وقد تطهّر، وغسل يديه ورجليه؛ إذ لابد أن يجتاز نهرها.! قلت: إنها تبدو جميلة؛ قال: ولكن أهلّها؛ وخاصة سادتها وقضاتها، لا يحبون الغرباء. قلتُ: كأهل «صنعاء»، قال: بل أشد وأكثر تزمّتا.. وأشفقت عليه، وأردت أن يأخذ حظه من الراحة، فناديته وأنا أترجّل قائلا: أريد أن أمشي، فاركب وضع بندقيتك بين يديك، وسأهرول أمامك حتى نصل «إب»؛ قال: لا.. لا.. لا يصحّ أن أركب وأنت تمشي! قلت: ولماذا؟ قال سيضحك الناس علينا؛ وسيقولون: كيف «جندي النمّونة»، يركبُ «بغلة بيت المال»، والآمر السيد يمشي أمامه، أو بجانبه، أو وراءه؟ إذا كنتَ قد تعبتَ من الركوب فامش؛ وسأسوق البغلة وراءك؛ قلت: ياعبدالخالق إننا إخوان وزملاء، قال: أنا أعرف؛ ولكن أنت مسؤول حكومي، وأنا عسكري؛ ولو كنتُ شخصاً آخر غير ابن السراجي الذي عرفته في مكتب الأ يتام ما قلت هذا الكلام؟ قلت: بلاش فلسفة واركب؛ قال: وما هي الفَسْلَفَة؟ (وقدّم حرف السين على اللام) فضحكت وضحك.. وسأل ثانياً: ما هي الفَسْلَفة؟ فقلت: الفلسفة؛ قال بعضُهم: إنها الحكمةُ واستقراء الحقائق؛ قال: تفضل واركب و بلاش «هدار وداو يه»! فامتطيتها وهو يساعدني و يقول: لو صدّقتُ أمي، وقرأت علوم الآباء والأجداد أني تبعتكم إلى «عدن»، و بقيت مع «الزبيري» و«نعمان» إلى أن يوفّر الإمام مرتبات «الجيش»! وضحكنا..!

وأغذّينا السّير صامتين، وقلتُ لنفسي: إنه عالم وهو لا يدري؛ إنه كتاب تجارب لا تتكلّم؛ وهل يدري كتاب العلم أنه كتاب [illegible]؟ وكانت أشعة الشمس تتموج على الجبال والوديان؛ والقرى والقلاع المتناثرة هنا وهناك تتلألأ تحتها، وزرقة السماء المزركشة بقنازيع السّحب، وخضرة الأعشاب والأشجار والأ ثمار تزيد الأفق والأ رض وأنفسنا بهاء وإشراقا.

ووصلنا «اب» وتذكّرت ـــوأنا نديم الذكريات ـــ اللّيلة التي أمضيتها فيها حين اصطحبني عمّي حسن الشامي إلى تعز قبل ست سنوات ـــ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ـــ وقد نزلنا في «نزل» تملكه امرأة وسيمة لطيفة، لها بنت اسمها «غالية» كانت لا تزال في حوالي «العاشرة»؛ وكانت خفيفة الدم، لطيفة المعشر، سريعة الحركة، بهيّة الطلعة، بيضاء، لها عينان ساحرتان وأنف أقنى، وهذا «النزل» يحتل مكانا خارج سور المدينة و يطل على حديقة الحمام.. فاشتقتُ لرؤية ذلك «النزل» ومن فيه.! وسمعتُ سؤالاً ينبعث من أعماقي: «ترى كيف أصبحت (غالية)، وقد شبّ شبابها»؟ فقلت لعبدالخالق: سننزل في «السمسرة» التي خارج باب المدينة.. فاستغرب وقال: ألا تذهب إلى المقام عند سيف الإسلام الحسن، أو دار الضيافة؛ وكان قد بدأ يهندم بزّته ليظهر كجندي يحافظ على رجل رسميّ يمتطي «بغلة بيت المال»، و بيده أوامر باجراء صرفها من كل المراكز الرسمية حتى تصل «صنعاء».

قلت: أحبّ أن نمضي الليلة معاً، ولا أريد أن أرى أحداً من الأصدقاء، ورجال الحكومة، فقد يعزمونني، و يؤخرونني عن «صنعاء» قال: هذا صحيح؛ ـــوهو نفسه في شوق لرؤية أمّه ـــ واتجهنا صوب بيت «غالية».

و برزت إلى صحن البيت، وإذا هي أجمل مما تخيّلتها، وقد ناهزت السابعة عشرة، وامتلأ جسمها، وتبرّجت مفاتنها، و وراءها أمها، وشاب لم أره قبل ست سنوات، فظننتُه زوجها، وكنت أعرف أن أباها قد مات، ورحّب الجميع بالضيوف، وساعدوا عبدالخالق على إراحة البغلة من أثقالها، وأدخلتني «غالية» إلى نفس المكان النظيف، ذي النوافذ الزجاجيّة المشرفة على الوادي الجميل، والذي نزلتُ فيه مع عمّي حسن ورفيقه عبدالله البوّاب قبل ست سنوات وقالت: أهلاً وسهلاً. قلت: وهل تذكرينني يا غالية؟؟ ففتّحت عينيها الساحرتين محملقة فيّ متفرّسة، ثم صاحت: أوه أوه أحمد بن سيدي حسن! وارتمت بسذاجة تعانقني وتقّبل جبيني.. وظهر عبدالخالق والشاب يحملان «الخرج» وسرج «بغلة بيت المال» فأحسست بشيء من الحرج، بدّدته «غالية» بقولها: هذا أخي عبدالله، وصاحت: يا أماه هذا أحمد ابن سيدي حسن وأقبلت مرحّبةً وهي تقول: وكيف أبوك سيدي حسن! لم نره منذ زمان؛ قلت: قد انتقل «عاملا» في «حيس»، وهو بخير وعافية، وهو ليس والدي لكن عمّي؛ أمّا والدي فقد مات وأنا في الخامسة قالت: رحم الله أباك، وحفظ لك عمك حسن لم أعرف في حياتي أكرم منه. وكان حقّا شهما كريما شجاعا.

وقلت لعبدالخالق: أودع «البندقية» عند «أم غالية»، ودعنا نذهب نتجوّل في مدينة «اب» ونصلّي ونشتري «قاتا»؛ قال: العسكريّ لا يودع سلاحه إلا عند حارس السلاح الرسمي! قلتُ: هكذا قال الرئيس جمال العراقي! قال ضاحكا: نعم. قلت: إذاً فسأذهب، وأنت ابق حارساً للأمتعة، والبندق و بغلة بيت المال!

و بعد الغداء ونحن نتناول «القات» أقبلت «غالية»، ومعها «المداعة» وقاتها وجلست بجانبي تشاركني «القصبة» ـــحبل النارجيلة ـــ، وكنتُ أجد شيئا من المتعة، حين أتوهم وأنا أضع مشربها

الفِضي المبرَّد بماء القات في فمي، انّني أحسّ حرارة نبض شفتيها الناعمتين..! وأفعمت الجوَّ بعطر شبابها وحيويّتها، وكانت عباراتها ونكاتها وقهقهاتها بغنة «اب» الموسيقيّة تسّاقط على أسماعنا كأنغام القماري.

وقامت لتجديد «التعميرة»، والموقد يتأجّج بجمره خلف الباب فقال عبدالخالق: هل قد تزوّجت يا أخ أحمد؟ قلتُ نعم.. وأنت هل قد تزوّجت؟ قال: لا.. وكيف.. والزواجة «غالية»! وسمعت «غالية» اسمها، فظّنت أنه يناديها لخدمة مّا.. فأقبلت وفي يدها «اليسرى» «البوري» وفي «اليمين» «مُلقاط» النار! قائلة: نعم! قال: لا شيء لاشيء؛ قالت: لقد ناديتني! قال: لم أفعل، قالت: سمعتُ اسمي وارتبكت.. فأوضحتُ لها ماجرى فضحِكت وقالت: وهل قد تزوّجت يا أحمد؟؟ وعادت أدراجها نحو موقد النار.. ولم أفهم مغزى سؤالها.. ونظرتُ إلى «عبدالخالق» فقوّس حاجبيّه، ولمّ كتفيه، وحرّك كفّيه مبتسماً! فقلت: إنا لله.. وعادت تتهادى «بالبوري، ودخل اثرها أخوها عبدالله يعتذر أنّه تأخر عند بعض نزلاء «السمسرة»! وقالت «غالية» وهي ترتشف مَشرب «القصبة»: وهل عندك أولاد؟ قلتُ: لا.. وانتبه عبدالخالق إلى غلطته، أو فعلته إن كان قد قصَدَها؛ فقال: قلت لك قد أصبحت الزواجة في «صنعاء» على مثلي من المحال، فالمهر من خمسين إلى مائة ريال، والشرط من مئتين إلى ثلاثمائة ريال..! قالت «غالية»: الراغب يعملُ و يدفع؛ وناولته «القصبة»، فأخذها، ووضع مشربها الفضي بين شفتيه، وتخيّلتُه يتحسّس بهما نعومة وحرارة شفتيها، وانتشى بنظراتها، و بالقات وتوقّد المشرب الفضي، ونفحات الدخان فاندفع يحدثنا عن مغامراته في «صنعاء» و«صعدة» و«الحديدة» سوّاقا وحمّالا..ثم في «تعز» بين أفراد فوج «النمونة»، وتنقلاته ما بين «صبر» و«شرعب» و«الحجرية» و«باب المندب» وكان يقلّد اللهجات، و يوالي النكات، و«غالية» تضحك، وتطرب عند أن يتعرض لوصف بنات تلك الجهات بمهارة ولباقة وظرف، وكانت براعةُ سذاجة حديثه وعفويّتها.. تتفاعل مع «غالية» وأخيها وأمّها التي انضمت إلى مجلس القات أثناء الحديث.. أكثر مما نتفاعل نحن الأدباء مع حذلقة بعض القصاص و بلغاء المتكلّمين حتى في صالات المسارح؛ ونسيت «غالية» أحمد بن سيدي حَسَنْ؛ وأعطت كلّ انتباهها للجندي عبدالخالق.. وأقبل اللّيل فقلت له: إنك ماهر بارع.. قال: أما مع البنات فأنا أحسنُ منك ومن محمد الفسيّل! والله ما بقي بيني و بينهنّ إلاّ ما حرّم الله! وقبل أن ننام ذهب ليتفقّد بغلة بيت المال وفي يده «مخلاة الشعير» وهوينشد:

«جبله» و«اب» والثالث «المخادر» يــارحـمـتــاه؛ للـعــاشـق المـســافـر

ذمار وحاكمها الشامي:

وفي اليوم التالي اجتزنا الوادي الأخضر إلى «المخادر» ولم نقف؛ فعاملها السيد محمد بن عبدالله ابن زيد «المفرح» في «صنعاء»، وكاتبه صديقي القاضي أحمد المعلمي لا يزال في سجن قاهرة «حجة». بل واصلنا السير واجتزنا وادي «السّحول» و بتنا في «النزل» ومع الفجر تسلّقنا نقيل «سمارة» ومنه هبطنا قاع «الحقل» و بتنا في «يريم» وقبل أن تشرق شمس اليوم التالي ــ كُنّا ــ في

طريقنا إلى كرسي الزيدية؛ مدينة «ذمار»؛ وما إن أشرفنا عليها، حتى رأيت الأخ الأديب محمد بن عليّ ابن حسين الشامي نجل حاكم «ذمار» ينتظرنا على فرسه، عند «ماجلها» الجنوبي، وكنتُ قد أشعرتُ والده السيّد العلامة علي بن حسين الشامي «برقيا» بأني سأصل «ذمار» في هذا اليوم.

والسيّد علي هو شقيق الوالد عبدالرحمن الشامي، وعم زوجتي وهو من كبار علماء وأدباء اليمن وحفّاظها، ويحب الشعر، ويرويه، ويجيد نظمه، وكان يشجّعني على قرضه؛ ولقد قال لي عندما عرضت عليه أوّل أبيات نظمتها، ولمّا أتجاوز الثالثة عشرة: كان جدّك محمد بن هاشم الشامي أشعر شعراء عصره فإذا ثابرت فستُذكّر به!

واتجهنا صوب بيتهم، وفرح الوالد علي بمقدمي، ورحّب وسهّل.. وقال: أحسنت بالعودة من عدن،! وقبل الغداء ذهبنا لزيارة القاضي العالم الحافظ الأديب عبدالله العيزري، وصلّينا في «الجامع» وقابلت الكثير من العلماء والشعراء، وجلّهم يسألونني عن السيد الموشكي؛ لأنّه من ذمار وأقبلوا بعد الظهر للمقيل، وغصّ مجلس «الحاكم» بالأدباء والعلماء، وبعد أن استمعنا إلى فصل من «تاج العروس» وكان الوالد علي مع أحد علماء ذمار وأدبائها المحققين يصّححان منه نسخة جديدة، على نسخة قديمة، أمضينا بضع ساعات في مذاكرات علمية ومناقشات أدبية، وطلب مني السيد علي أن اسمعه شيئا من قصائدي التي قلتها في «عدن» فأمليت قصيدتي:

غريب يجوب القفر والّليل سادر ... ولا هاديا إلاّ النجوم الزواهر

ومرثاتي للزعيم التونسي عبدالعزيز الثعالبي:

شمس مجد غابت وغاب سناها ... أوحشت أرضها وأبكت سَماها

وسأل: وهل قلت شعراً بعد العودة، فأمليت قصيدتي «اعتراف»:

خلّهِ يخلب التّهى ببيانه، ... ويناجي آماله بلسانه

فاستعاد بعض أبياتها، وردّدها بصوته الجهوريّ المهيب، وعندما فرغت من إنشادها، قال: «لقد صدقت فراستي فيك يا أحمد» وسررت بذلك، واعتبرتها شهادة من جهبذ فذٍ، وأديب ناقد، وقد ظل السيد عليّ يتتبّع أخباري الشعريّة، ويعجب بما يسمعه أو يقرأه من أشعاري، وما إن وصلني نبأ وفاته بالحديدة سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م وهو في الرابعة والستّين من عمره، وكنت لا أزال في سجن معتقل حجة حتى قلت أبكيه، وأذكر إعجابه بشعري من قصيدة طويلة:

يا مَن على البُعد لم أجهل محبّته ... شعري، إذا ما به غنّاه ناشدُهُ

أبكيك بالشعر محزوناً؛ قد انتحرت ... أوزانه، وقضت همّا قصائده

قد لذت بالدمع استسقي غمامته، ... والقلب ترجف في صدري رواعده

فلم أجد غير نيران مُسعّرة؛ ... يا ويح دمعي؛ لقد جفّت موارده

أنا الذي لم يدع لي الدّهر من أملٍ ... حيٍّ أحن إليه أو أراوده

كيف السبيل إلى تلك الدموع وفي ... طريقها الموت قد بُثت مصايده

أريد اسكب شعري في منازلها * دمعاً أذوّب فيه ما أكابده
أريد أنفض همّي في مرابعها حيث الشباب نما واهتز مائده
هناك أبكي «أبا» كانت ارادته تصارع الدهر إن ثارت شدائده
أخلاقه روضة تزهو نضارتها؛ وفكره أفق تزهو فراقده
في فتيةٍ من بني عمّي شعارهم في الروع صبر وإيمان يسانده
أوّاه لم يبق لي ممّا أمتُ به إليهم غير دمع ذاب جامده
وتمتمات قريض في مذابحه أحرقت عمري، وأنّاتي مواقده

يامن قضى نحبه؛ والدار نائية والشوق في المسى والإصباح رائده
ودعت دنياك لم تأسف لفرقتها فقد سئمت بها ممّا تُشاهده
ماذا؟ سوى دمعة في جفن مكتئب أو زفرة لتعيس شلّ ساعده
أو أنةٍ؛ ذبُلت في صوت ثاكلةٍ أو آهة ليتيم مات والده
أو بسمة صاغها الشيطان ساخرة أو نظرة من لئيم خاب قاصده
غاض الوفا؛ فقلوب الخلق مجدبة منه؛ وآثامهم فيها تطارده
ومات كل جميل من خلائقهم والخير ياو يلتا شاهت مشاهده
وأصبح المرء من دُنياه في نفقٍ الخوف رائده والجبن قائده

إلى آخرها .. وفي المساء قضيت سهرة أدبيّة لطيفة مع الأخ محمد بن علي الشامي و بعض أصدقائه الأدباء وتفرّع الحديث شجونا، وتلوّن أشكالا، وفي اليوم التالي غادرنا «ذمار» إلى «معبر» حيث أمضيت يومين عند عاملها السيد محمد بن أحمد الوزير؛ وزوجته اختي التي سعدت برؤيتها، و برؤية اختي الكبرى التي حدثتني عن زوجتي وأمّي وماذا جرى لأخي ولهم أثناء غيابي في «عدن» ثم واصلنا السير إلى «وعلان»، و بتنا ليلة قاسينا من بقها و براغيثها الأمرّين، وتذكّرت مبيتي بها مع أخي، عندما فررنا من «صنعاء» وحكيت لعبدالخالق قصّتي فأطر بته وقال: أحمد الله ان أخاك الصغير كان معك فأشفقت عليه ورجعت .. أمّا أنا فقد هر بت وحيداً إلى «الحديدة» فراراً من القراءة مثلك، لكني أغرقت وعاندتُ، واشتغلت حمالاً وسواقاً؛ ولولم ترجع يا أخ أحمد انك الآن مثلي! قلت ر بّما .. ولم أنم تلك اللّيلة شوقا إلى صنعاء وليس بيني و بينها غير بضعة فراسخ.

وأكثر ما يكون القلب شوقاً إذ دنت الديار من الديار!

إلى «صنعاء»:

ومع الفجر مضينا؛ وقلت لعبدالخالق سنعرّج في «حزيز» على سمسرة الأم «زينب»، والتي أحسنت إلينا عندما هربنا، وسنتناول الفطور لديها؛ وتذكّرت ونحن نجتاز وادي «وعلان» «ظرف» العسل، وحواري مع أخي، وعندما وصلنا «حزيز» وجدتها لا تزال كما كانت قبل ثلاثة عشر عاما! وقصدنا سمسرة الأم زينب و وجدتها لا تزال رغم تجاعيد الكهولة تحتفظ بحيو يّتها و بسمتها و بشاشها، ورحّبت بنا مستغربة وقوفنا ببغلة بيت المال والجندي المسلّح، وعِمّتي وجنبيتي وشالي

الوردي؛ عند سمسرتها المتواضعة، وفي «حزيز» سماسر أفخم وأكبر، وأليقُ بالموظفين، ورجال الدولة! فقلت لها: كيف حالك يازينب؟ قالت ضاحكة: الحمدلله.. أهلا ومرحبا وكيف عرفت اسمي؟ قلت: أنسيتني؟ فحملقت في وجهي قليلاً ثم قالت: آه.. الصّبي الذي نزل عندي مع أخيه الصغير. قلت: نعم. قالت: والله إني أفكر فيكم كثيرا؛ لأني عرفتُ عندما عدتم اليوم الثاني أنكم كنتم هاربين من أمّكم، والحمدلله على السلامة! وكيف أخوك؟ قلت: بخير، وقدّمت لنا خبزا مدهونا، وقهوة قشر، ثم شكرتها على برّها، وعطفها السابق عليّ وعلى أخي، ولم تنس أن تقول وهي تودّعنا: سلّم على أخيك محمد. قلت: اسمه الحقيقي عبدالوهاب فضحكت وقالت: على عبدالوهاب وعلى أمك وقل لها تدعي لأمك «زينب».

إنها لمن روائع الصدف أن يحدث مثل هذا الترتيب الإلهي المحكم، الموقعة أحداثه في تفاعيل موسيقية، لا نشاز فيها! ولم استطع إلا أن أخشع بكل أحاسيسي؛ وأنا اجتاز راكبا على بغلة فارهة؛ وأمامي جنديّ «التّمونة»، وهو من زملاء صباي؛ ورفقائي في مدرسة الأيتام وأقطع تلك البقاع الجدباء التي قطعتها مع أخي حبواً من شدة التعب والإعياء!.

وبدأت أشباح منارات صنعاء ودورها الشاهقة تتراقص بين أمواج الآل والسراب، وعيناي مشدودتان إليها، وكلّما اقتربنا منها ازدادت وضوحاً وفخامة، وازددت نشوةً وإعجابا؛ إنها صنعاء مسرح صباي، وملعب شبابي ولن أقول:

وما حُب الديار.. ولكن حبُ من سكن الديارا.. كلاّ بل وحبُّ الديار أيضا قد شغف قلبي، وحبُّ سمائها وجبالها وترابها، وصخورها وطيورها وحيواناتها:

بـلـدٌ شـبـابـي مـاد بين غـصـونـهـا	وطـفـولـتـي رقـصـت على همـسـاتـهـا
بلـدٌ دمـي من عـطـرهـا، ومـشـاعـري	مـن نـسـجـهـا، وحـشـاشـتي من ذاتها
بـلـدٌ؛ بـيـانـي من ثـمـار ترابـهـا،	وقـصـائـدي مـن بـعض «منتوجاتها»
مـا خـانـنـي ألـمٌ وقـد فـارقـتـهـا	ـــ كـرهـا ـــ ولا شـوق إلى نـسـمـاتـهـا
أبـدا أحـنّ إلى مخـايـل أوبـة	تـشـفـي بـهـا نـفـسي صـدى صـبـواتـهـا
وأعـلّل الـقـلـب الجـريـح بـذكـر مـا	أرو يـه عـن أشـيـائـهـا، وسـمـاتـهـا

ووقفنا في «باب اليمن» لحظةً حتى أودع «عبدالخالق» سك بندقيته عند حارس الباب؛ لأن الدخول بالسلاح النّاري إلى «صنعاء» كان ممنوعاً إلا بإذن رسميّ؛ وكان اليوم الرابع من شهر شعبان سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م وهو يوم لا أنساه.. لا لأنني عدت فيه إلى صنعاء فحسب؛ بل لذلك.. ولأني ما اجتزت «الجامع الكبير» مخترقاً «سوق البقر» إلى «قبّة طلحة» حتى واجهت أستاذي الجليل «سيدنا محمد النعماني»، فترجّلتُ أسلم عليه، ومع الترحيب والقبل قال بصوت حزين: الآن رجعنا من تشييع جنازة السيد محمد بن زيد «المفرح» وشرقت عيناه بالدمع! فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون رحم الله ذلك الأدب واللطف والكرم، قال: وكل مكارم الأخلاق، ولقد شيّعته إلى مثواه الأخير صنعاء بقضها وقضيضها.! قلت: ومن مثله بين أبنائها،؟ وكان السيد محمد بن عبدالله بن زيد فذّاً،

آخذا من كل فنّ بطرف، لم أعرف في حياتي أرق منه طبعاً ولا أشرف نفساً، ولا أحسن ذوقاً، إلى ذكاء خارق، ورأي ثاقب، وإيمان عميق، ولطف ورقّة ومرح حتى لقد لقبّوه «بالمفرح» وتوفي عن سبعة وخمسين عاما! و ودعت أستاذي إلى لقاء آخر.. وما إن وصلت إلى حارة «الجوافة» حتى سمعت صوت كلبي «فوزي» وكأنه قد اشتم رائحتي فهويرحّب بي، ويخبر أمّي بأنّ الشارد قد عاد!

واستغربتُ كيف لم يهرول «فوزي» بل ظلّ رابضاً في مكانه.؟ ولم أعرف أنه قد عمي، إلاّ بعد أن وصلت إليه، ورأيت عينيه، وسعى يتوكأ على رائحتي و يُبَصبص، و يعوي عواءً خافتا، ينتزعه من رئتيه انتزاعا، وكأنه يشكو ما جرى له في غيابي؛ وكأنّه يعتذرو يقول إن عماه هو الذي حال بينه و بين الهرولة لملاقاتي إلى صرحة «الجوافة»، كما عودني أن يفعل! وكأنه يسألني: هل أراه؟ أم قد عميتُ؟

وقلت لعبد الخالق: ضع أثقال البغلة، وسعيتُ لأرى أمّي، وكان اللقاء رائعا؛ ثم هبطتُ أساعد عبدالخالق، وسرعان ما أقبل أخي وعانقته وشعرت كأنني أضم إلى صدري جزءا من نفسي ظلّ عنّي بعيدا طويلاً، ولم نستطع إلا أن نذرف الدموع و بكى عبدالخالق، وكأنّ «فوزي» قد بكى! لو كان من الحيوانات التي تبكي!

واستأذن «عبدالخالق» في الذهاب إلى بيته فقلت: حتى نتناول «الغداء» فوافق، وفكرت في طريقةٍ لا إحراج فيها استطيع بها مكافأته وإكرامه.. فحرتُ إذ لم يكن في نظري مرافقا عاديا بل كان أخاً وزميلا؛ ولولا الحظوظ والأقدار لكان في مكاني، وربّما كنت مثله جنديا في فوج «النمونة»! واستشرت الوالدة؛ فقالت: رمضان على الأبواب، سأحضر في صُرّة شيئا من الزبيب واللوز والتمر، وضع أنت ما شئت فيها؛ وقل هذه هديتنا إلى والدتك وأختك بمناسبة رمضان فإنّ الناس يتهادون فيه.. وفرحتُ بهذا الذوق الأمومي الشريف و بعد الغداء ودعته شاكراً همته وعنايته، وحسن رفقته، وسلمت الصرّة وأنا أقول ما لقّنتني به أمي، ونظر إليَّ بغبطة، وكأنه عرف أن ليس فيها زبيب وتمر ولوز فقط، بل وما يعوض خسارته التي دفعها رشوة للشعْبة العسكرية لكي يكون مسؤولا عن «بغلة بيت المال» الذاهبة إلى «صنعاء» صحبة «ابن الشامي»!

وقال: شكراً يا أخ أحمد، وسأرتّب كل شيء للبغلة وأراك غداً إن شاء الله.

اللقاء مع أمة الله:

لم تكن موجودة في البيت فقد كانت لا تزال في بيت أبيها منذ نشوزها، وفي المساء أقبلت مع أخيها، ولم يكن أوّل لقاء مثيراً، فقد أضفى عليه التكلّف والوقاروجود شقيقها، و بادلتني حُباً بحب، وإخلاصاً باخلاص، وعوّضت أيام الشقاء والفراق والهجر ولياليها الكئيبة بأسعد ساعات الهناءة والإنسجام والسّعادة، وغمرتني بعطفها وحبها وحنانها، وعرفتُ المعاني الرائعة التي حاول صديقاي الشاعران «الموشكي» و«الزبيري» أن يحدّثاني عنها، و يُفسّراها لي، وهما يتشاكيان الهوى في «الشيخ عثمان»!

أمّا لماذا غيّرت فكرها عنّي وأصبحت تحبّني، وقد كانت تكرهني؟ فلقد سألتها بلطف وخشوع

فقالت: لمّا قيل لها إني فررتُ إلى عدن شعرت أولا بالإشفاق والخوف عليَّ؛ ثم كانت تتضايق عندما تسمع اسمي يدور على ألسنة بعض قريباتها وأقاربها؛ وجدّها هو الإمام يحيى، والأمراء أخوالها؛ وحين يلومني البعض، و يستنكر خروجي، واشتراكي في حزب الأحرار ولا سيما والرسائل التي تصل باسم الحزب إلى الإمام: وكلّها نقدٌ وتجريح للأوضاع بخطّي وتوقيعي؛ ومن الطبيعي أن ذلك لا يرضيهم، بل يفندّونه أشد التفنيد.. فكانت تتجادل مع بعضهم وتتعصّب لي، وتحاول الدفاع عني.. ولم تشعر إلا وهي تحبّني، وتتطلّع إلى عودتي، وتدعو الله في صلواتها أن يهديني سواء السبيل، وتتمنى لو أن أحداً يبلغني ندمها على ما صدر نحوي منها.. هكذا قالت لي.! وأمضيت معها فترة عامين في سعادة، وأنا اتنقّل بين «صنعاء» و«تعز» حتى هبّت ثورة الدستور سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م وكان ماكان.

١٢ـ فترة الدعوة بالحسنى:

عندما رجعتُ من عدن كنتُ قد اقتنعت وأيقنتُ؛ بأنّ الوسيلة المثلَى لاخراج اليمن من غبش الجهالة، وتخليصها من آفات الفقر والمرض والتخلّف الاجتماعي، هو الدّعوة إلى الإصلاح داخل اليمن بالموعظة الحسنة والحكمة، وأن لانحارب الحكّام بل نبصّرهم وننصحهم، وأن لا نُشعرهم بأننا نريد إزالتهم، بل بالعكس أن نشعرهم؛ بأنهم إذا أحسنوا وأصلحوا، فسنزداد لهم حبّا وتأييدا، ونبين لهم أهدافنا التي تمجّد الحق والعدل وتنادي بالرقيّ والعمران، ورفع مستوى البلاد بإنشاء المدارس والسدود والمستشفيات والطرقات.. الخ وأن تكون دعوتنا بالتي هي أحسن، وأقوالنا ليّنة؛ تحبّب إليهم ما ندعو إليه وتقنعهم به، هذا بالنسبة للسلّطة، وأما بالنسبة للمجتمع، فإنّ علينا أن نتصل بالشباب في المساجد والمعاهد والمدارس والمقايل ونحبّب إليهم المعرفة والعلم والقراءة.. وإقامة الندوات، وأن نُقنِع التجار والأثرياء بأنّ عليهم واجبات اجتماعية، وأنهم يستطيعون أن يشيدوا المدارس الخيريّة الخاصة ونضرب لهم المثل بما فعله الشيخ بازرعه في عدن.. الخ.

وكانت الأجواء مهيّئة لكل ذلك، ولقينا استجابة ــ بل إن الحكّام أنفسهم أو بعضهم ــ وفي مقدمتهم ولي العهد سيف الإسلام أحمد، و بعض اخوانه مثل وزير المعارف وأمير لواء الحديدة سيف الإسلام عبدالله والأمير الأديب الشاعر سيف الإسلام علي وغيرهم، قد أظهروا الاقتناع بضرورة تطو ير اليمن إلى الأفضل، وكان جُلّ من حولهم من العلماء والقادة والوزراء يرغبون في ذلك أيضاً، ويحبّذونه و يدركون الخطر المحدق بهم إذا لم يعملوا ذلك.

فشيّد الأمير سيف الإسلام أحمد «ولي العهد» المدرسة الأحمدية بتعز، وجلب لها أساتذة مصريين منهم الدكتور محمد موافي والأساتذة جمال عمّار، ومحمد عبدالمنعم، وعمر الروبي، وكان الأستاذ محمد موافي منتدباً في «لحج» أو «عدن»، وقد أحضر معه بضعة خرّيجين من «ثانوية عدن» للتدريس معه في «المدرسة الأحمدية» بعقد يقضي بأن يكونوا مساعدين للأساتذة لمدة عام، ثم تنتدبهم الحكومة اليمنية إلى مصر لأكمال دراستهم الجامعية على نفقتها، وعند أن يتخرّجوا يعودون للعمل في اليمن؛ كلّ في حقل اختصاصه، وكان من ضمن هؤلاء حسين الحبيشي، ومحمد أنعم غالب، والفُتيح، ومحمد عمر،

وآخرون لا أذكر أسماءهم الآن، وقد كنت تعرّفت على موافي و بعضهم في عدن وكنتُ صاحب هذا الاقتراح الذي وافق عليه ولي العهد ونفّذه، وأمر الأخ حسين الو يسي والأستاذ زكي غانم بجلب الكتب الدراسية على اختلاف أنواعها من «لحج» و«عدن» و بشراء مئات الكتب العلمية والأدبيّة والتاريخية والفقهية لمكتبة «المدرسة الأحمدية» التي ما إن فُتِحَت في حفل عام حضره ولي العهد حتى انضم إليها للدارسة الأمير محمد البدر ابن ولي العهد ورفقاؤه وأساتذته وكنت أحضر بعض دراساتهم عندما أكون بتعز، وأمضي معظم وقتي في مكتبة المدرسة للمطالعة.

البعثة اللبنانية وشعر ترسيسي:

وحدث نفس الشيء في صنعاء فقد وصلت البعثة الثقافية اللّبنانية وكان فيهم الصحافي، والصّيدلي، والدكتور الطبيب، والمهندس، والزراعي، وكان يرأس هذه البعثة الدكتور عدنان ترسيسي، ومن أعضائها الأديب الشاعر الأستاذ رشيد ستّوه الذي أوكلوا إليه تنظيم وإدارة جريدة «الايمان» والتي سأكون مراسلها في «تعز».

ولا أزال أذكر أن الدكتور عدنان ترسيسي ــ وكان فور تخرّجه من جامعة «السوربون» قد قام بنشاط أدبي استغرب به الذوق اليمني؛ إذ قد نهض خطيباً في إحدى الحفلات الأدبيّة وألقى كلمةً افتتحها بما سماه «قصيدة»؛ و بعض مقاطعها غير موزونة، ولم يألف الناس بعد هذا الذي يسمونه اليوم «قصيدة النثر» فلابد أن يظل «الشعر» «الكلام الموزون المقفى» وما عداه فهم يسمونه «نثرا» وكان مطلع قصيدة «عدنان» كما أتذكر:

برْدٌ «بصنعاء» وحرٌّ في «عدن»!
وقاتٌ و بُرّ، وعسل وسمن! أو «سمن وعسل»!
وجبال شاهقة، وسهول وأنهار، وقفارٌ و بحار!
هذه الأ وصاف أوصاف اليمن!

وتحدث عن الجيش والعلم وأنه «سيفٌ فيه دم» ومجد اليمن وإنسانها واستقلالها، وكان يختتم كل مقطع بقوله: «هذه الأ وصاف أوصاف اليمن» فتضج القاعة بالضحك والاستغراب! وقام العلامة الخطيب القاضي عبدالله الشماحي ــ وهو الشاعر المفلق ــ فسخر من قصيدة الدكتور عدنان ترسيسي، وكذلك عمل العلامة الخطيب علي عقبات وصفقّت لهما الجماهير؛ واستاءت البعثة اللبنانية طبعاً ــ ولم يكن وزير المعارف سيف الإسلام عبدالله بصنعاء بل كان خارج اليمن و يقوم بعمله اخوه سيف الإسلام الحسين الذي كان يقوم يومئذ بأعمال وزارة الخارجية أيضا.. فاستدعاني ــ وكنّا في شهر رمضان ــ وحدّثني بما قد وصل إليه من المساعي الحميدة لدن أبيه الإمام يحيى ليغمرني برضاه وعفوه؛ ثم قال: «لقد كان ردّ الفعل من قِبل «عقبات» و«الشماحي» وأدباء صنعاء مُحرجاً للدكتور عدنان ترسيسي وزملائه، ولم يكن من الذوق، وكرم الضيافة، أن يستقبل أبناء اليمن البعثة الثقافية اللّبنانية بهذا الاستقبال المشين! وكان عليك ــ وأنت حاضر ــ أن تتدارك الأمر بإلقاء كلمة تروّح على

أحاسيسهم ، وتجبر خواطرهم المجروحة ، ويحسن الآن إقامة حفلة تكريم لهم من قبل إدارة المعارف ، وقد أمرتُ بها ، واقترح عليك إنشاء قصيدة مناسبة في الموضوع ، وأن توعز إلى أصدقائك من شعراء وأدباء الشباب أن يساهموا أيضا في إنجاح هذه الحفلة» ، والتي اقيمت فعلا في يوم ٦ رمضان سنة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦م أثناء زيارتي لصنعاء للمرة الثانية ــ والقيتُ فيها قصيدتي النونية المشهورة في ديواني «النفس الأول» ومطلعها :

عصف القريض بفكرتي وجناني — وأثار سحر يراعتي ولساني

ومنها :

أبني العروبة ، والعروبة أمّةٌ — قد وحّدتها طاعة الرحمان
لا فرق بين «يمانها» وشآمها» — و«عراقها» والشمّ من «لبنان»
و«لمصر» أختٌ و«الحجاز» ؛ يضمنا — لغةٌ ، ودينٌ ، واتحاد أماني
إنا نريد بأن ننال مكانةً — عظمى تسامت فوق كل مكان
وننصّ رايتنا بأسمى موضع — يرنو إلى عليائه الثقلان
ونطير أشباحاً إلى وأج العُلى — أولا ؛ فأرواحاً إلى رضوان
فلنسع أرسالاً إلى غاياتنا — متظافرين تظافر البنيان
ولنبن للشرق الكريم حضارةً — للخير، لا للشر والعدوان
فالغربُ قد شاء الحضارة نقمةً — هجمت معاولها على العمران

وقد قلت وأنا امجّد ماضي العرب :

قومٌ أثارهم النبيّ محمدٌ ، — وأعزّهم بالحق والقرآن
ظهروا على الدنيا غزاة قادةً — بالعدل والعرفان والإيمان
فهوت عروش الظالمين وحُطمت — تيجانهم ومعاقل الأوثان
هذا هو الماضي البعيد لأمة — من نسل «عدنان» ومن «قحطان»
لم يبق منه لنا سوى الذكرى ؛ وهل — نجني من الذكرى سوى الأحزان ؟

وقلت في موضوع تكريم اليمن للبعثة الثقافية اللبنانية :

أبناء وادي «الأرز» عفوا إن كبا — قلمي ، وأحصر بالبيان لساني
فخواطري جيّاشةٌ قد سابقت — كلمي ، وبذّت بالشعور بياني
أنّى لمثلي أن يقوم بواجب — لكمُ ، وأنتم قادة العرفان!
«لبنان» ينبوع النبوغ ، وروضةُ — وكنانة الأبطال والشجعان
كم دافعوا «الافرنج» عن أوطانهم — وترفّعوا عن ذلّة وهوان
بذلوا الدماء عزيزة وتبرّعوا — للموت بالأرواح والأبدان
حتى استقلّوا ظافرين أعزّةً ، — وسرت مناقبهم بكل مكان
ستروْن في اليمن السعيدة موطناً — لكمُ ، وروضا وارفا الأفنان

«صنعاء» «زحلة» في الجمال وأهلها ... لـكـمُ غـداة الـبين كـالأخـوان
فـتـنـسّـمـوا مـن سـحـرهـا ، وتفيئوا ... في ظـلـهـا ، في عـزّة وأمـان
أنـتـم ضيوف بني أبيكم «يعرب» ... ومـنـاخـه لـكـمُ مـنـاخ ثـانـي

وخطب غيري من الأدباء ، وألقى الدكتور عدنان كلمةً ليس فيها شعر منثور، فأطرب الحاضرين ببيانه ، وعلّق على بعض أبيات قصيدتي وقد اقيمت الحفلة في «المدرسة المتوسّطة» وكان لا يزال من تلاميذها جلّ أعضاء البعثة التعليمية التي سافرت بعد بضعة أشهر للدراسة في «طرابلس» لبنان ؛ ومن جملتهم أولئك الذين اصبحوا وزراء ورؤساء وزارت في اليمن أمثال محسن العيني وأحمد بركات ، ويحيى جغمان ، وعبدالله الكرشمي ومحمد الرعدي ، ومحسن السرّي وزملائهم ؛ ممّن أصبحوا مسؤولين يتصرفون بأزمة السياسة في اليمن ؛ وكانوا جميعاً بين المحتفلين في تلك الليلة المباركة من ليالي رمضان الكريم .

ويجدر بي أن أشير إلى إحدى العبر التي لا ينتهي منها عجبي ، وما تذكّرتها إلاّ ازددت معرفة بالضعف الإنساني ، وإيمانا بالنواميس الآلهية الخالدة ، وهي تتعلّق بأولئك التلاميذ الذين حضروا حفلة التكريم وذكرت بعض اسمائهم ؛ فقد قررت الحكومة اليمنيّة إرسال بعثة للدراسة في مدرسة المقاصد الإسلامية بطرابلس لبنان وانتخبت أعضاءها من بين نجباء التلاميذ في «صنعاء» و«الحديدة» و«تعز» وكانوا أربعين تلميذاً ، وبعد حوالي عام هبّت ثورة الدستور ١٩٤٨ وفشلت ، وانتصر عليها الإمام أحمد ، وسيق رجالها إلى السجون ، وكنت ضمن من جرجروهم إلى سجن «نافع» في «حجة» وذات ليلة جاء إليّ الأخ العزّي صالح السنيدار، ودار بيني و بينه هذا الحديث الذي أنقله كما جرى :

ـــ قال : لقد ثبّت أحمد ملكه إلى الأبد .

ـــ قلت : لا ثبات ولا أبد في الدنيا !

ـــ قال : وماذا تأمل ؟ وماذا بقي ؟ لقد وقع في قبضة يده حتى من كانوا خارج اليمن ، وكلّ زعماء وعلماء ورجالات اليمن ، ومن لم يقتله فسيخلّده في السجن . وهم ثمرة جيل كامل من التوعية والعمل والكفاح .

ـــ قلت : ليس هناك خلود في الدنيا لا للملك ولا لسجين ، وإن أسرف على نفسه وعلى البلاد فسيرتفع صوت الحريّة من جديد ، وسيطالب بالإصلاح أناس آخرون ، وحسبك أن لليمن «أربعين تلميذا» في لبنان وخمسة في العراق !

ـــ قال : يا خيالاه.! وهل سننتظر حتى يتعلّم و يكبر هؤلاء الأولاد؟ وهل تدري كيف سيربّونهم ؟

ـــ قلت : العلم نورٌ! فضحك واستولد نكتةً أخرجتنا من الموضوع وذلك ما كنتُ أبغي ، فقد كان مُتعباً ، وقد جاوز الستين ، والقيود تؤوده ، ولم أكن ـــ علم الله ـــ أقل يأساً منه ، ولكنني أردت أن أرفّه عليه ، ولا أدري كيف جرى على لساني ذكر «الأربعين تلميذا» في «لبنان» وأنهم «احتياطي»

الأحرار! ولقد عادت الصورة إل ذهني عندما عدت إلى صنعاء عام المصالحة الوطنيّة سنة ١٩٧٠م/١٣٩٠هـ حين استقبلني في مطارها الأستاذ محسن العيني رئيس الوزراء؛ وجلّ وزرائه ورجال الأعمال والمال ومصالح الدولة، من أعضاء البعثة التعليميّة التي درست أولا في لبنان ثم انتقل أفرادها للدراسة العُليا في مصر وغيرها.، وكان لأفرادها من مدنيين وعسكريين، أدوار رئيسيّة في قيام ثورة ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ، وتذكّرت ما دار بيني و بين العزي صالح السنيدار من حديث ونحن في براثن القيود يائسين؛ وكيف سخر من تلك الجملة التي لم اتعمّدها، ولا فكّرت فيها من قبل، ولا أدري كيف جرت على لساني ولم تخطر لي على بالٍ إلاّ في مطار صنعاء و بعد ثلاثةٍ وعشرين عاما!

كم هو مسكين.. ذلك الذي يظن أنّه إذا أمسك السلطة بيد من حديد يستطيع أن يحتفظ بها إلى الأ بد، أو يصرف عنها غول الزّوال!

وكم هو أجدر منه بالاشفاق؛ ذلك الذي يظن أنه يستطيع أن يفرض دوام النعيم والسعادة لنفسه، ودوام البؤس والشقاء لخصومه!

[قل اللهم مالك الملك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير].

١٣- فترة البريد الأدبي:

سيلاحظ القارىء اني خلطتُ بين «رمضانين»؛ الأول عام ١٣٦٤هـ حين زرت صنعاء مع «عبدالخالق» و«بغلة بيت المال»، والثاني سنة ١٣٦٥هـ وقد كنت أثناءهَ في صنعاء أما كيف كان ذلك وكيف عدت من صنعاء إلى تعز وكيف رجعتُ إليها؛ فسأذكره بعد.. ولقد سعدت بوجودي بين أهلي وأصدقائي الذين سعدوا أيضا بوجودي بينهم واختفى بي الزملاء والأدباء وعشت أتنقل بين «مداكيها» و«مساجدها» ومحافلها وكونت مع أخي عبدالوهاب ومحمد الفسيل وأحمد المروني نواة «البريد الأدبي» في «صنعاء» وكنتُ قد جلبتُ معي من عدن بعض الكتب الحديثة ومنها كتب الدكتور أحمد أمين فجر الإسلام وضحاه، وقصّة الفلسفة اليونانية، والحديثة، وقصّة الأدب في العالم إلى مجموعة دواوين «طه» و«رامي» و«ناجي» وكل ما كان قد نشر للرافعي وطه حسين والعقّاد وغيرهم، ودعوت إلى ترك «القات» واستبداله بالشاي أو قهوة القشر، وكانت رسائل ابراهيم الحضراني الأدبيّة تردُ أسبوعياً وأقرأها على الزملاء، ثم نبعثها مع تعليقات لمن يعنّ له أن يعلّق عليها، إلى أدباء ذمار، ومنهم الأديبان الشاعران علي بن حمود الديلمي وعبدالله بن يحيى الديلمي، وإلى الحديدة، وما أجابوا به أبعثه إلى ابراهيم الحضراني إلى «تعز» حيث زيد الموشكي ويحيى منصور وغيرهم من الشعراء والأدباء، وهو بدوره يبعث إلينا ما يتلقاه، وسمّيناه «البريد الأدبي».

رفض الإمام مقابلتي:

وخلال ذلك حاولت أن أحظى بمقابلة الإمام يحيى فلم أتمكّن وكنت حريصاً على أن يعلم بأني

أدري أنه يعرف بعودتي لأ زداد اطمئنانا؛ فبعثت إليه برسالة رقيقة مع أخي عبدالوهاب أستأذنه بأن يسمح بوصولي إليه، وكان في إمكاني أن أذهب لمقابلته في مواجهته العامة، ولكني كنت أخشى أن يعاتبني، أو يهينني بكلامه أمام الناس، وقد كتب على ظهر الرسالة التي بعثتها إليه: «لانحبّ وصولك إلينا، ولاسيما بعد أن قرأنا كتابكم إلى الملك بن سعود، ولكنّا سنغضّ الطرف عنك»! وكان كلّ ما أطلبه هو أن يغضّ الطرف عني.

وحدّثني أخي بالمشادة العنيفة التي حدثت بينه و بين الإمام يحيى أثناء غيابي في عدن، والتي على إثرها أمر بسجنه في حبس «الرّادع» بصنعاء ومكث فيه حوالي شهرين، وروى لي ما قاله في تلك المناسبة من أشعار، وعبدالوهاب شاعر مجيد، وكان قد تزوج بفتاة من «المسقاة» هي ابنة خالنا علي ابن أحمد الشامي لكن الزواج كان فاشلا ــ كما كان زواجي ــ غير أن أخي لم يستطع أن يصبر فطلّقها وقد ندم كما لمست من بعض أشعاره، مثل قوله من قصيدة:

اغـراه طـول الـوصـل ... فـنسى الـبـعـاد
فـجـرّ سـوط الجـهـل ... وقـمـعَ الـوداد
فـمـن جـنـان الـبشر ... إلى جـحـيـم الـنـدم
هـجـرٌ طـويـل الـعـمر؛ ... مـن سـاعـة مـن سأم

وفي تلك الأثناء قال أبياته المشهورة:

يـقـولـون لي هـلاّ تـزوجـت غـادةً ... فإنـا نـراك الـيوم أصـبـحـت مؤسرا؟
فـقـلـت لهـم لـو كـان في وسـع طـاقتي ... هـلاك الورى أهلكتُ في الساعة الورى
وإنـي أرى مـنـع الـتـنـاسـل حـكـمـة ... فـكـيـف أنـافي أو أخـالـف مـا أرى؟

رحلة جماعية إلى تعز:

و بعد أن انقضى رمضان فكّرت في العودة إلى تعز، وكان هناك آخرون يريدون السفر إليها منهم عامل صبر السيد مطهّر بن أحمد بن قاسم حميد الدين وصهره يحيى الحيفي، وأستاذي العالم الأديب محمد بن محمد المنصور وزميلي الشاعر أحمد بن علي زبارة فاتفقنا على أن نستأجر سيارة إلى «يريم» وأردتُ أن أُخرج أخي عبدالوهاب من برجه الفلسفي، فرغبت إليه صحبتنا والسفر معنا فوافق وقلت للسيد عبدالخالق أن يسبقني بالبغلة إلى «تعز» ففرح لأنه سيمتطيها دون أيّ حرج، وفي أواخر شوال أو أوائل ذي القعدة سنة ١٣٦٤ هـ غادرنا صنعاء، وقد بتنا ليلةً في ذمار وليلتين في «يريم» التي استأجرنا منها حميراً و بغالاً إلى «المخادر» فـ«اب» حيث واجهت «عامل صبر» سيارة اقلّته إلى «تعز» وأركبني مع أخي عليها صحبته، أما السيدان محمد المنصور وأحمد زبارة فقد عرّجا لزيارة بعض الأصدقاء في مدينة «ذي سفال» ولقد كانت هذه الرحلة من أكثر الرحلات متعةً؛ ضحكا، وأدباً ونكات! وفي «يريم» نظم أخي عبدالوهاب قصيدته: «من لنضو دهره عركه»، أو شرع في نظمها؛ وكان سرورنا بالغاً وعظيما حين وجدنا القاضي عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، والقاضي أحمد المعلّمي

قد وصلا من حجّة طليقين ضمن من أمر بإطلاقهم ولي العهد، إثرعودتي مع زيد الموشكي و بقية أعضاء حزب الأحرار من عدن، وشعرت بأن تلك العودة قد أثمرت خيراً؛ وفي اليوم الخامس من ذي القعدة أنشدت وليّ العهد قصيدة نونيّة طو يلة مطلعها:

وَدّعت تلك الربوع حيرانا يفيض قلبي أسىً وأشجانا
وقفتُ في سوحها أخاطبها بالدمع لا أستطيع تبيانا

وفيها صوّرت ما كنت أشعر به من قلق واضطراب أثناء مقامي بصنعاء تخوّفاً من دسائس الكائدين ولا سيما والإمام يحيى لم يسمح لي بمقابلته فقلت:

وصاحب من عشيرتي لبق قلت حين آن مسرانا
ياصاح؛ جدّ المسير إنّ لنا شأنا، واعظم بمثله شانا
قال: وما شأننا؟ وكيف بنا إذا رحلنا؟ وأين مأوانا
وهل لنا في الوجود من وزر؟ وهل سنلقى هناك سلوانا؟
قلت: تمهّل؛ فقال: كيف؟ وهل يسلو و يرتاح مغرم بانا؟
ومن لنا والنوّى تعذبنا والشوق يذكي القلوب نيرانا؟
قلتُ: لقد روَّعتك أخيلةٌ تملأ وجه الوجود أشجانا
وأنت من لم يضق به بلدٌ ولم يسر في البلاد أسيانا
ولم يودّع من قبل أيكته مفارقا جيرةً وخلانا!
دعنا نسريا أخي إلى ملك قد عزّ بين الأنام سلطانا
هناك؛ حيث النّهي مكرّمةٌ هناك حيث القلوب تهوانا
نحيى؛ فلا عاذلٌ ينال بنا ما يبتغي إذ يقول بهتانا!
فقال: والأهل؟ قلت حسبهمُ ربٌّ يعمّ الأنام إحسانا
قال: ومن؟ قلت والمؤمل في البأساء حامي البلاد؛ مولانا
قال: إذاً فالزمان مبتسمٌ لنا، وعين الإله ترعانا

وهي طو يلة ومن المعلوم أن الصاحب الذي حاورته إنما هو أخي عبدالوهاب وأقبل عيد الأضحى سنة ١٣٦٤ هـ فأنشدتُ بميدان الجيش قصيدة طو يلة مطلعها:

هو العيد في أثوابه يتجدّد يطلّ علينا كل عام فنسعدُ

ومنها الأ بيات التي قال النقّاد إنّني قد ابتكرتُ بها معنى جديداً وهي:

وما أنا إلاّ شاعرٌ صادق الهوى بمجدك أشدو في الورى وأغرّدُ
حياتي حياة البحر آمال مهجتي كأمواجه في كل آن تجدّدُ
ولي من إبائي عاصفٌ إن تجهمت له حالةٌ يُرغى عليها و يُزبد
وأعماق قلبي تهضم الكون كلّه بما فيه غابات و بيدٌ وجلمدُ
أظلّ وفيّاً مخلصا؛ لا بشاشتي سرابٌ ولا حبيّ خداع فيفسدُ

ولم ينتبه أحد منهم إلى أني قد استمددته من إحدى فصول أوراق الورد للأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

و بانضمام «المعلّمي» إلى هيئة تحرير «البريد الأدبي» ازداد نشاطاً، ودارت معركة أدبية بين الأديبين الشاعرين علي حمود الديلمي، وزيد بن علي الموشكي حول «المتنبي» و«شوقي» وأيهما أشعر، وحين حمي وطيسُها، ارتضياني حكماً بينهما، وكتبت مقالةً طو يلة أذكر أنّ ما جاء فيها قد أرضى الطرفين.

وأصبح «البريد الأدبي» حديث المجالس في كل مدن «اليمن» وقد ابتعدنا فيه عن الخوض في أيّ موضوع يمتّ إلى «السياسة» بمعناها «السلطوي»! وفتحنا كل أبواب الأدب، والفنون، والتاريخ واللغة، والفلسفة والفقه والقصص، وكانت مواده الأسبوعية تكفي لتزو يد مجلة كبيرة مثل مجلة «الرسالة».

و يصل من مصر عن طريق «عدن» السيد العلامة الفذّ حسين بن محمد الكبسي مندوب اليمن المستمع إلى جامعة الدول العربيّة إبّان تأسيسها وحدّثني عن صدى عودتي مع زيد الموشكي وعبدالله الحكيمي و بقيّة الاخوان لدى زملائنا هناك؛ كالسيد عبدالله علي الوزير، والأساتذة محي الدين العنسي، وأحمد الحورش، ومحمد المسمري، ويحيى زبارة، وأنّهم بادىء بدء ارتبكوا، وانقسموا بين راض وساخط، و بعد نقاش دار بينهم مالوا إلى تأييد رأينا، وانّ العمل في الداخل خيرٌ ألف مرّة من التناوش من مكان بعيد، ولا سيما من «عدن»! علماً بأن الحلفاء قد انتصروا، ولا يزالون يحتلّون معظم البلدان العربيّة، ولهم قواعد عسكرية في «مصر» وغيرها، وقال له زيد: إنك أستاذي و يهمني أن أعلم رأيك الشخصي، قال: لم أكن راضيا عن بقائك مع أحمد في «عدن»؛ وقد حاولتُ عند اجتماعي بالأستاذين الزبيري ونعمان إقناعهما بأن يعودا، أو على الأقل يغادرا «عدن» إلى «مصر» أو «بغداد» وقال: لقد تباحثتُ البارحة مع سيف الإسلام أحمد «ولي العهد» وقلت له: إنّ الاخوان في مصر يريدون العودة إلى اليمن، ولاسيما بعد أن سمعوا بخطواتكم في سبيل الإصلاح؛ فقال إنه سيتصل بهم و يطمئنهم، وانّهم بعد أن يرجعوا، إذا أرادوا العودة إلى مصر لإكمال دراساتهم الجامعيّة فيسضمن لهم ذلك رسميّاً، وقد عاد الحورش والعنسي، وعبدالله بن علي الوزير فعلاً بعد ذلك.

جهود السيد حسين الكبسي:

كان السيد حسين الكبسي ــ الذي أصبح وزيراً لخارجية إمام الدستور عبدالله الوزير ثم أعدم سنة ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ قصير القامة كثّ اللحية، له عينان تشعّان بنور هادىء يوحي بالطمأنينة والحب، وكان عالماً واسع الاطلاع، متبّحراً فيما يسمّونه علوم «النقل والعقل» مجتهداً بكل ما تعنيه كلمة الاجتهاد عند الفقهاء، وكان يرافق سيف الإسلام الحسين عندما زار لندن سنة ١٩٣٨م/١٣٥٦هـ وافتتح محطة الإذاعة البريطانية (١٩٣٨/١/٣م) ثم ساح معه في عدة دول من الغرب والشرق، حتى وصل «اليابان» سنة ١٩٤٠م وتركه هناك وعاد إلى «صنعاء» ليأخذ موافقة أبيه الإمام يحيى على

اتفاقيات سياسية وصناعيّة وعمرانية واقتصادية بين اليابان واليمن، ولكن اليابان أعلنت الحرب على الحلفاء سنة ١٩٤١م/١٣٥٩هـ وسحقت الأسطول الأمريكي، واكتسحت قوّاتها الشرق فلم يتمكن الأمير الحسين ابن الإمام من العودة، وظل رفيقه حسين الكبسي في «طوكيو» دون أي صلة باليمن، وليس معه من المال غير بضع مئات من الجنيهات الاسترلينية، لا تكفي إلاّ لبضعة أسابيع لتسديد نفقاته في الفندق الضخم الذي خلّفه الأمير فيه كعضو وفد رسمي؛ وقد عاش السيد الكبسي في ذلك الفندق الضخم الفخم أكثر من عام، واستطاع بذكائه الخارق وعبقريّته الفذّة.. لا أن يُدَبّر حاله ويخرج من المأزق الذي وقع فيه راضياً من الغنيمة بالإياب بل وأن يعود إلى «صنعاء» بسيارة كبيرة مثقلة بالهدايا «الصينية» و«الهندية» والتحف الثمينة، وبمال وفير اقتني به بيته الكبير في «قبة المهدي» أما ماذا عمل وكيف حدث ذلك فقصته مثيرة؛ ولعلّي الوحيد ممّن سمعها ولا يزال حيّاً، ولعل من واجبي أن اسجّلها لظرافتها، ولأنها من أدلة عصامية ذلك العالم المصلح الشهيد.

وقد ينكر عليّ بعض القرّاء هذا الفضول والاستطراد و يقولون وما علاقة عصامية الكبسي بكتاب حياتك و بذكرياتك؛ ولكني قد تأثرت بتلك القصّة وأعجبت بها، وأنا لا أكتب تاريخاً، ولا مرجعاً علمياً، إنما أتحدّث كما أهوى، وأروى ماعنّ وطاب لي أن أرو يه.. إنني كما يقولون في «صنعاء» «محزوي»؛ أي «حكواتي» بلغة الشام أو مصر أو هما معا! ومن لم يعجبه كتابي فلن ألومه إذا ألقاه في سلة المهملات أو وضعه في رفّ النسيان.

كيف عاد الكبسي من اليابان؟:

بعد أن تركه الأمير في «طوكيو» وطار إلى «صنعاء» ليأخذ موافقة الإمام على المشاريع التي وعدت اليابان بتنفيذها في اليمن ومنها شق طرقات ما بين المدن الرئيسية: صنعاء، الحديدة، صعدة، تعز، إب، مارب، المخا ــ وإنشاء ميناء بحري في الحديدة وآخر في المخادر، وفتح ثلاثة مطارات في «صنعاء» و«الحديدة» و«تعز» وإنشاء مصانع للأسمنت والحديد والغزل والنسيج إلى غير ذلك، وكانت اليابان حينئذ في إبّان نهضتها وطموحها وتنادي بشعار «الشرق للشرقيين» واليمن دولة مستقلة، وأكثر أراضيها تحت الاستعمار أو الحماية البريطانية وتحتل مركزا استراتيجياً هاماً، والمغرب العربي كله تحت الاستعمار الفرنسي والإيطالي، ولم تخلق بعد دول البترول والخليج فلا كو يت ولا امارات عر بية ولا عمان ولا غيرها كدول مستقلة، وما إن وصل الأمير الحسين إلى «صنعاء» حتى انضمت اليابان إلى «المحور» وأعلنت الحرب على «الحلفاء»، وضر بت الأسطول الأمريكي تلك الضر بة المفاجئة القاسية وكان ما كان، ولم يكن هناك أية صلة «لاسلكية» بين اليابان و«صنعاء» وليس باليمن بنوك؛ لا محلية ولا أجنبية، ولا علاقة لها تجارياً أو ديبلوماسياً بأية دولة من دول العالم! فكيف عاش مندوب اليمن الكبسي في اليابان أكثر من عام وكيف عاد غنياً ثرياً إلى «صنعاء»؟

كيف استطاع أن يحتفظ بمظهره الرسمي في أفخم فنادق طوكيو دون أي صلة بحكومته في اليمن؟ ومن أين كان يسدّد نفقات إقامته وتحركاته وهو لا يعرف لغة أجنبية، ولم يكن لديه أي رصيد مالي؟

وكيف عاد إلى اليمن على سيارة مجتازاً الصين والهند وإيران والعراق والمملكة العربية السعودية حتى وصل صنعاء دون أن يعتلي طائرة أو يركب قارباً بحرياً .

قال لي السيد حسين : كنت أقيم في أفخم فنادق «طوكيو» انتظر عودة سيف الإسلام الحسين من صنعاء ؛ فلما أعلنت اليابان الحرب على الحلفاء وضربت الأسطول الأمريكي وزحفت جيوشها رافعة شعار « الشرق للشرقيين » أيقنت أن لا خلاص من المأزق إلاّ بتوفيق الله ، وإعمال الفكر ، وهممت أن أتخلّص أوّلا من الفندق الفخم ، وأنتقل إلى فندق رخيص ، لكني بعد مراجعة نفسيّة ومقارنة دقيقة عرفت أنه لا يليق بي كممثل لليمن أن أسكن فندقاً رخيص التكاليف ، فأمتهن نفسي أمام اليابانيين ؛ ثم من أين سآتي حتى بالتكاليف القليلة : إن القليل والكثير والرخيص والغالي ، سواء في مثل هذه الحال ، وفكّرت في أن أتصل بوزارة خارجيّة اليابان ، واعتبر نفسي لاجئاً ؛ ولكن بعد مراجعة دقيقة قدرت أن ذلك سيضرّ بي أمام خصوم اليابانيين ، وقد أحرج بلادي المستقلة المحايدة ، فصمّمت على البقاء في نفس الفندق ، وأن لا أغيّر شيئا من مظهري ونفقاتي وتحركاتي ، بل وطلبت من وزارة الخارجيّة أن تنتدب مساعداً يجيد العربيّة و يعلّمني اللّغة اليابانية بالأجرة ، حتى ينجلي الموقف ؛ وإني سأنتظر حتى يعود الأمير بعد النصر المنتظر لهم قريباً ، وقد سرّت وزارة الخارجية بطلبي وساعدوني بمرافق مثقّف يجيد العربيّة دون أيّ مقابل وعرضوا استعدادهم للقيام بأيّ خدمة أطلبها وكانوا جدّ كرماء .

التاجر عبدالستار:

وكنت أعرف تاجراً هندياً مسلماً من « بومباي » اسمه «عبدالستار» وآخر من « كراتشي » اسمه « عبداللطيف » وكانت لهما علاقات ومعاملات تصدير وتوريد ، وصلات ببعض البيوت التجارية في « عدن » وكانا قد عرفا أنّنا في مفاوضات مع الحكومة اليابانية للوصول إلى عقد اتفاقيات تقوم بموجبها اليابان بمنح مساعدات اقتصادية لليمن فتشق الطرقات وتنشىء الموانىء والمطارات ، والمصانع والمزارع .. الخ ، وكانا قد عرضا على الأمير سيف الإسلام الحسين استعدادهما للتعاون والمساهمة في انجاز المشاريع المزمع تنفيذها في اليمن الدولة المسلمة الوحيدة التي تتمتع باستقلال مطلق حينذاك حسب تعبير الصديق عبداللطيف .

عبداللطيف الهندي وصديقه البوذي:

و بعد شهرين وحين لم يبق في الوفاض لا درهم ولا دينار، ذهبتُ إلى الأخ الهندي «عبدالستار» وطلبت منه عشرة آلاف جنيه استرليني ــ أو ما يقابلها بالعملة اليابانية ــ قرضاً حتى استلم التحويل من اليمن بعد اسبوعين ؛ وطبعا كان يظن أن مثلي ، وأنا عضو وفد رسمي لا يعجز عن إيجاد وسيلة للحصول على المال من حكومته ، ولا سيما وأنا احتفظ بالمظاهر الرسمية ، حتى بالمساعد المترجم من وزارة الخارجية اليابانيّة ، والسيّارة والحارس فقال : لبيّك وسيصلك كاتبي بالمبلغ بعد العصر؛ وقبل أن ينتهي الأجل المحدّد لقضاء الدين ذهبت إلى الأخ الهندي الآخر «عبداللطيف» وقلت له : أرجو أن تقرضني خمسة عشر ألف جنيه ــ أو ما يقابلها بالعملة اليابانية لمدة ثلاثة أسابيع حتى استلم التحويل

من ملك اليمن فقال: لبيّك وأعطانيها فورا، وذهبت إلى الأخ عبدالستار وسدّدت ماله شاكراً، وعشت أصرف على نفسي من الزيادة حتى حان موعد التسديد، وكنتُ قد تعرّفت على تاجر بوذي فاضل من «كلكتا» فزرته وطلبت منه أن يقرضني عشرين ألفاً لمدّة شهر فأسعفني بها مسرورا.. وهكذا ظللتُ حوالي عام ونصف عام.. اقترض من «البوذي» لأقضي «عبدالستار» واقترض منه لأقضي «عبداللطيف»، وبالقرضة منه أقضي التاجر «البوذي»، ولسان الحال ينشد قول شاعرنا الآنسي: «وبالدَّين يقضى الدَّين»! وضحك وضحكنا؛ فقلت له: ولكن كيف كانت النهاية؟ كيف تخلصّتم من الديون وسدّدتموها لعبداللطيف وعبدالستار و«البوذي»؟ وكيف كان «الستر» و«اللطف»؟ قال السيد حسين: كنت أفكّر مهموماً؛ كيف سيكون الخلاص والديون تتراكم على ظهري، وكلما أحسست بثقلها ازددت يأساً من العودة إلى وطني، غير أن إيماني بالله، وثقتي بصدق وعده، كان يبدّد ظلمات اليأس، وأنه سبحانه سوف ييسّرني لليُسرى مصداقا لقوله تعالى [فأما من أعطى واتّقى وصدّق بالحُسنى فسنيسّره لليُسرى] وقوله: [ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا] وقوله: [سيجعل الله بعد عسر يسرا] وكنت في خلواتي وفي أعماق اللّيل أردّد قوله تعالى: [فإن مع العُسر يُسرا إنَّ مع العُسر يُسرا] فأنام مطمئنا آمنا واثقا.

وذات ليلة جاء لزيارتي الأخ الحاج «عبداللطيف» وبعد أن فرغنا من أداء صلاة العشاء، وتناولنا وجبة العَشاء، قلت له: أظنّ هذه الحرب ستطول، وأخشى أن يطول مكثي وقد سئمت من الفراغ، وأصبحت أتكلم اليابانية، وأشدو بالانكليزية، ولذلك فأحبّ أن اشتغل بالتجارة؛ فهل يمكن أن أشاركك في بعض أعمالك، وبعد الحرب ستكون شركتك التي أنا أحد أفرادها ذات حظ في اليمن؛ وكان يظن مثلما كنت أظن ومعظم سكّان الشرق أن دول المحور ستنتصر؛ أو أن ذلك كان ما يتمناه المسلمون لأن الألمان واليابان ضد الانكليز واليهود، وقد لجأ بعض زعماء العرب والمسلمين إلى ألمانيا أمثال «الخضر حسين الجزائري» والحاج «أمين الحسيني» مفتي فلسطين وغيرهم من زعماء مصر والعراق والشام وصوت «يونس بحري» يدوّي من إذاعة برلين العربيّة بقول «الزبيري»:

فيابريطانيا عودي بمخمصة إن العروبة لا شاءٌ ولا نعمُ
ظلمتم العربـ للصهيون ويحكمُ أين الدهاء؟ وأين العدل والشيم؟

فقال «عبداللطيف»: هذه فكرة حسنة وكم لديك من مال الآن؟

ــ قلت: ثمانية آلاف جنيه استرليني (وهي بقيّة ما اقترضته منه).

ــ قال: احتفظ بها وسأضع ما يساويها في صفقة من صفقاتنا التجارية باسمك.

ــ قلت: حسناً وعلى بركة الله.

وبعد بضعة أيام أقبل إليّ مستبشرا وهو يقول: ربحت الصفقة مائة في المائة؛ فماذا تأمر؟ قلت وظّف المبلغ في صفقة أخرى، وحين ذهبتُ لزيارته بعد اسبوع قال لي: لقد ربحت صفقتنا مائة وخمسين في المائة، إن حظك لعظيم يا سيّد حسين؛ ولقد سررت عندما قال: «صفقتنا» فإن ذلك يعني أنه قد

أصبح يعتبرني له شريكا؛ فقلت له: ما أنا إلاّ شريكك، والحظ حظنا معاً وعدت أحمد الله.

و بعد أن مرّ عام أو بعض العام، وقد أصبحتُ ذا مال و بدأت كفّة الحلفاء ترجح، وعلامات نصرهم تبين، وازداد الشوق إلى الأهل والوطن، و يئست من تنفيذ الا تفاقيات بيننا و بين اليابان حتى ولو خرجت من الحرب ظافرة فستكون موهونة القوى محطمة فكيف إذا انهزمت، وقرّرت أن أغتنم فرصة سيطرتها على البحر المحيط الهادي ومعظم جزره فأعربت لوزارة الخارجية اليابانية عن رغبتي في السفر إلى الصين ومنها عن طريق الهند إلى «مكة» فـ«صنعاء» برّا فوعدت بتسهيل ذلك، واخبرت صديقي «عبداللطيف» فبارك الفكرة وطلب مني أن أضم إلى مالي مبلغاً كبيراً من ماله واسلّمه إلى شريك له في الهند لأنّ الحكومة اليابانية باعتباري عضووفدٍ رسمي وأحمل جوازاً سياسياً ستسمح لي بأن أحمل معي أي مبلغ من العملة الصعبة كالاسترليني والدولار فوافقت لأننا أصبحنا شركاء و يسّرت الحكومة اليابانية نقلي مع أموالي وما اشتريته من هدايا وتحف إلى «الصين» ومنها سافرت إلى الهند فـ«إيران» فـ«الحجاز» فـ«اليمن» في رحلة استغرقت ثلا ثة أشهر لها حديث طو يل في «مذكراتي».

ثم قال: لم تخسر بلدة عربيّة في الحرب العالمية الثانية مثلما خسرت اليمن!

قلت: وكيف كان ذلك؟

قال: لو لم تنشب الحرب، أو لو لم تدخل فيها اليابان، ونُفذت المشاريع العمرانية والصناعية والزراعية والاقتصادية التي كانت قد وافقت على انجازها، ومساعدة اليمن بها لأصبحت بلادنا في خلال خمس سنوات دولة مزدهرة قو ية مع سيادتها واستقلالها ولما فررتم إلى «عدن»!

لقد كان السيد حسين الكبسي ذا فطنة ومروءة وكرم، وقد درست عليه جزءاً من سنن أبي داود، وكان يشملني ببرّه ورعايته، و بين عائلة والدتي وعائلته قرابة نسب وصهارة، إذ أنه من أسرة «الكبسي» التي تسكن في «خُبان»، وقد ولد في «تيعّان» المجاورة «للمسقاة» في شهر ربيع الأ ول سنة ١٣١١ هـ/ سبتمبر ١٨٩٤ م وهاجر إلى ذمار للدراسة على علمائها ثم رحل إلى صنعاء، ودرس في جامعها الكبير، ومدرستها العلميّة ولما هبّت ثورة سنة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م كان من رجالها البارزين، ولما فشلت سُجِن حيث سجنت في «الرادع» ثم ساقوني معه والصفي الجرافي ومحمد المطاع، وعبدالوهاب نعمان في سيارة واحدة إلى سجن «نافع» بحجّة في قصة طو يلة سأذكرها في مكانها إن شاء الله وفي يوم الجمعة ٦ رجب ١٣٦٧ هـ والموافق ١٤ مايوسنة ١٩٤٨م أعدم مع زملائه الأستاذة أحمد الحورش ومحيى الدين العنسي، ومحمد صالح المسمري، وكان يوماً كئيباً، وصفته في ديوان شعري «إلياذة من صنعاء»، ولقد نظر إليّ وهوفي قيوده بين حرّاسه في سطح السجن ينتظر الموت وكنتُ مع الشاعر ابراهيم الحضراني نستعدّ له، وابتسم ابتسامة حزينة كأنّه يرثي بها شبابنا وقال كلاما لا أذكر منه الآن إلاّ «الثمن غال والعمل عظيم» وأخبرني السيّد العالم الأديب أحمد بن مُحمّد بن علي الوزير أنه بعد أن نقلوه من سجن «نافع» إلى «سجن» «القاهرة» حيث كان آل الوزير معتقلين كان يذكرني بالخير و يدعو الله لي بالنجاة و يقول.. و يقول.

رحمه الله فقد كان يوليني حبّه ورعايته ؛ ولا أدري لماذا كان يثني عليّ في أيامه الأخيرة ؛ هل لأنه كان يحسّ بأني سأتحدث عنه وأروي قصّة عودته من اليابان التي لم يروها أحدٌ غيري . ؟

رحمة الله عليه لقد كان لي كالأب الحنون وعندما زاملته في العمل كان مثالاً للإنسان الكامل معرفةً ولطفا ، واخلاصا واتقانا ولقد كان من أفذاذ الرجال الذين عرفتهم في حياتي وما أكثر من عرفت !

مع الشعروالشعراء في «شرعب» :

ولنعد إلى ما كنّا بصدده بعد هذا الاستطراد الذي طار بنا إلى «اليابان» ثم عرّج على وادي الشهداء ! فقد عاد أخي إلى صنعاء مرافقاً للسيد حسين الكبسي على سيّارة خاصة من سيّارات «ولي العهد» أحمد ، وكان ثالثهما السيد أحمد بن محمد الوزير، وأما أنا فقد أمرتُ بالذّهاب إلى «شرعب» لتحصيل «واجبات» «القات» والزكاة، وكنت رابعاً للاخوة محمد بن محمد المنصور، وأحمد عبدالرحمن المعلمي وأحمد بن علي زبارة وكان خامسنا القاضي العالم الورع «عامل» الحجريّة حسين الجنداري كمرشد اجتماعي للمواطنين ، وكان عامل شرعب الشيخ عبدالله عثمان وحاكمها الشرعي القاضي عبدالله الإرياني ـــأو أنه كان هناك ليفصل في قضيّة أحالها ولي العهد عليهـــ كما وجدنا أمامنا الشيخ الشاعر الظريف يحيى منصور، فتحوّلت «الرّونة» إلى عاصمة ومركز للبريد الأدبي وكنت قد استصحبت معي بعض كتب الأدب منها «الشعر والشعراء» لابن قتيبة و«حديث الأربعاء» لطه حسين وبعض كتب سلسلة «اقرأ» وفي شرعب كتبتُ للبريد الأدبي عدّة مقالات عن شوقي والمتنبّي، وعن «شاعرنا أبي الشيص» وأمضيت في «شرعب» حوالي شهرين وكانت ليالينا الأدبية والشعرية من أمتع اللّيالي .. وفي أثناء غيابي في «شرعب» سافر «ولي العهد» أحمد مع أخيه الأمير سيف الإسلام يحيى ابن الإمام يحيى إلى «عدن» للعلاج الطبّي ونصّب نائبا عنه في «تعز» الأمير «البدر» ابنه .. وعدت من شرعب إلى «تعز» فوجدتُ فيها سيف الإسلام ابراهيم فتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه ، وكان قد رافقه من صنعاء أيضا القاضي الأديب الألمعي الظريف ذو الهزل والمجون عبدالله العنسي ، فأمضينا أوقاتاً كلّها مرح وضحك حتى عاد ولي العهد من «عدن» ومعه أمراء «لحج» وقد قابلهم ابنه الأمير البدر بموكب ضخم كنت أحد رجاله إلى «الرّاهدة» وبعد أن وصلنا «تعز» أنشأتُ قصيدة أرحّب فيها بمقدم «ولي العهد» وكان ذلك في ١٣٦٥/٦/٨هـــ ١٩٤٦/٥/٩م ومستهلّها :

طلعت أجلّ من نور الصباح	فأهلاً بابن سادات البطاح
وما أشرقت حتى اهتزّ شعبٌ	تسير به مع الحق الصّراح
وفاضت بالسرور قلوب قوم	تحوطك في الغدوّ وفي الرواح
رأتك طلعت فاشتعلت حماسا	كنار بين مُعترك الرياح

إلى آخرها ؛ وبعودة «ولي العهد» وأخيه «يحيى» ؛ وقد رأيا ما رأياه في «عدن» من مظاهر العمران، وشاهدا قصور سلطان «لحج» وأمرائها ، وأثرياء عدن كان أكثر تحفّزا إلى التطوير والتغيير فاستجلب مهندسين للطرق والكهرباء ، وشقّ طريق السيّارات إلى «صالة» ، وعمر دارها ومفرجها

وكنا نقضي أسماراً و«مقايل» كلها أدب وعلم، وشعر، ومعظم أدباء وشعراء ونبغاء اليمن يتوافدون على «مقام» ولي العهد من كل أنحاء اليمن.

وسافرت إلى «صنعاء» عن طريق «إب» وكنت مرافقاً هذه المرّة للقاضي عبدالرحمن الإرياني وأمضينا في «إب» يومين ثم افترقنا في نقيل «سمارة» عرج هو على مسقط رأسه، «اريان» وهبطت أنا على قاع «يريم» ومررت من «ذمار»، وقابلت أدباءها أعضاء «البريد الأدبي» وكنت أحمل معي عدد ذلك الأسبوع.

وفي صنعاء كان ما سبق أن تحدثت عنه من خطبة عدنان ترسيسي وقصيدة «هذه الأوصاف أوصاف اليمن» وإقامة الحفلة التكريمية للبعثة الثقافية اللبنانية.

١٤ ـ الأمير ابراهيم في عدن :

أمّا كيف كان فرار سيف الحق ابراهيم ابن الإمام يحيى إلى عدن؟ ولماذا خرج على نظام حكم أبيه وانضم إلى الزبيري ونعمان؟ وهل كنتُ أعلم ذلك وما هي دوافع وأسباب خروجه؟ وهل بلغت به الوطنيّة إلى أن يضحّي حتى بأسرته وخروج الحكم منها إلى عائلة «الوزير» فلا أظنّ أحدا يعرف قصة كل ذلك مثلما أعرفها.

ولا يهمني وأنا اتحدّث عن الأمير ابراهيم ابن الإمام يحيى حميد الدين ما قد أكثر الناس الكلام عنه من تضحيةٍ ووطنيّةٍ وإخلاص؛ فالحُكم في مثل هذه الأمور ليس من حقّي؛ بل وليس من حقّ الأحياء المعاصرين ولاسيما غير المحايدين ممّن يؤيّدون و يناصرون مذهباً اقتصادياً، أو وضعاً سياسيّاً معيناً أو يحاربون و يعارضون وضعاً ما، أو مذهبا ما؛ منفعلين بعواطفهم ومعتقداتهم ومبادئهم الدينيّة أو الطائفية أو الاقتصادية أو السياسيّة، ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه المذاهب وتعدّدت الملل والنِحل، وكادت قِيم الحق والفضيلة، ومكارم الأخلاق، والأصالة الإنسانية الفطرية أن تتلاشى، وتنجرف أمام سيل المادية الطاغي الجارف: والذي يهمّني ــ إذا ما تحدّثتُ عن زميل أو صديق أو شخص أعرفه ــ أن أذكر دوافع وأسباب ما قام به من عمل، أوما قاله من كلام، إذا كنتُ أعرف هذه الدوافع والأسباب؛ لا أبتدعها ابتداعا، ولا اخترعها اختراعا كما عمل أويعمل البعض؛ حين كتبوا و يكتبون عن البعض؛ فتحدّثوا أو يتحدّثون عنه؛ شاعراً، أو فيلسوفاً، أو مناضلاً، أو وطنياً أو مضحيّاً وقديساً! و يعتسفون الكلام في كل ذلك اعتسافاً! وإذا كنت لا أعرف الدوافع والأسباب لتلك الأعمال أو الأقوال، فأصف على الأقل الأجواء والظروف التي عُمِلت أو قيلت فيها.. كما يهمّني أيضا أن أذكر ما أدريه وأعلمه عن اخلاق وطباع الإنسان الذي أعرفه وأودّ أن أتحدث عنه، إذا كانت مما يُطرب الأسماع ذكرها، و يغري الطباع على التخلّق والاقتداء بها، وتُحسب من مكارم الأخلاق الأصيلة، التي بعث الله محمدا (صلى الله عليه وسلم) لاتمامها وإكمالها؛ أما إذا كانت ليست كذلك فإني أعرض عنها وأضرب صفحا.. فقد ملّ الناس وسئموا قراءة السيئات وتعداد المآسي والذنوب.

وإنّا لم نوقّ النقص حتى نُطالب بالكمال الأوّلينا

كما قال أحمد شوقي .. ثم لماذا لا نتذكر إلاّ المساوىء والذنوب؟ لماذا لا ننسى ما يسمّيه كتابنا في جرائدهم ومجلاتهم وكتبهم التي ملأوا بها البسيطة «مواقف وطنية» و«مكاسب ثورية» و«انتصارات سياسية» ونتذكّر فقط علاقاتنا الإنسانية من رحمة وحنان وعفو واحترام وودّ وتجرّد ونتواصى بالحقّ، والصبر والعمل الصالح؟!

فالأمير ابراهيم ابن الإمام يحيى كان ــفيما أعلمــ لطيف الطبع، سجح الخُلُق، رزينا؛ لا يتكلم إلاّ جواباً، ولا يضحك إلا تبسّما، وكان ــ كما يقولونــ أكرم من الريح المرسلة، يصدّق ما يقال له لأنه يكرّم الفطرة الإنسانية، و ينزّهها عن الكذب، والبُهتان ويحمل النّاس على السلامة؛ وكان حظّه من مكارم الأخلاق أكثر من الفلسفة وعلوم النحو والفقه والعروض والقوافي؛ والأمير ابراهيم لم يلجأ إلى «عدن» و يلتحق بالزّبيري ونعمان ــفي حدود علميــ مضحّيا بإمارته وأسرته كما يقولون، ولا غيرة على الوطن كما يزعمون؛ بل بدوافع أخرى، ولاسباب عليَّ أن أشرحها بصراحة؛ لأني وحدي الذي يعلمها، أو الذي يجرؤ على شرحها وإيضاحها، كما شرحتُ بصراحةٍ الدوافع والأسباب التي دفعتني وزيد الموشكي والزبيري ونعمان على الفرار إلى «عدن»؛ وهي أبعد ما تكون عن «التضحية» أو الغيرة على الوطن؛ وأنا حين أقول هذا عن الأمير ابراهيم؛ أعلم أنّه بصفاته الإنسانية التي ذكرتُ بعضها كان أكثر وطنيّة، وأكبر استعداداً للتضحية بكل غال ونفيس في سبيل بلاده، مني ومن فلان وفلان وغيرهما ممن لا يرقى الشك إلى وطنيتهم، ولا يمسّ الريبُ استعدادهم للتضحية في سبيل بلادهم .. لكن ذلك شيء وذكر الواقع وما حصل فعلا شيء آخر، ونحن يهمنا أن نعلم الدوافع والأسباب كما حدثت، أما كيف تغيّرت وتطوّرت الأحداث الناتجة عنها حتّى سُميت بأسماء تناسب ما جدّ من أمور فيستطيع الحصيف، والمؤرخ المحايد المنصف، أن يميّز بين ما هو لوجه الحقّ والخير والحرية، وما كان لغير ذلك؛ وما أصدق الحديث الشريف الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد، وهو [من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه].

والله وحده العليم بالسرائر، ولست مكلفا الآن إلا أن أقول ما أعلم وأشهد بما أدري.

وقد قلت إن عُرى الصداقة توثقت بيني و بين الأمير ابراهيم أثناء اجتماعنا في مقام أخيه «ولي العهد» في «تعز» فلمّا غادرها مع أخيه الأمير يحيى إلى «صنعاء» وتبعتُه إليها وجدناها تغلي وتهتز، وتلاميذ المدرسة العلمية والثانوية و بعض شباب صنعاء قد كثرت أحاديثهم عن «الحضارة» و«الحرية»، وضرورة تطوير الوضع السياسي والاجتماعي، وانتشرت كتب الداعين إلى الإصلاح «كالعروة الوثقى»، و«طبائع الاستبداد»، و«أم القرى» و بدأوا ينتقدون الأوضاع بجرأة لا تنفع معها أيّ تهدئة، ولا يجدي أيّ نصح بالتعقل والحكمة، وتجنّب العثرات، وكثُرت المنشورات بمختلف اللّهجات، ومن عدة جهات، وفي بعضها تهديد و وعيد، وما يدعو إلى التمرّد والثورة.

وكنت مع أخي عبدالوهاب ومحمد أحمد الشامي من جملة من يلازمون الأمير ابراهيم ولا يتغيبون عن مجلسه الذي كان يلازمه أيضاً الاخوان يحيى المطاع ، وحسين المقيلي ، ولطف التهامي وزملاؤهم في المدرسة العلمية وقد كلّفني الأمير بترتيب وتنظيم مكتبته ، وشراء ما ينقصها من كتب الأدب والتاريخ والفلسفة ؛ وكنا نقرأ أثناء جلسة «المدكى» دروساً في كتب التاريخ والأدب ، وكان يتفاعل وجدانه بما يسمع و يقرأ ، و بالأحداث الجارية ، و يشارك من ينتقدون الأوضاع ، ولا يحاول الدفاع عنها ، وكذلك كان أخوه الأديب الشاعر الأمير «علي» ؛ وإلى حدّ ما .. أخوهما الأمير اسماعيل ، وهو مع الأمراء ابراهيم ويحيى وعبدالله أشقاء ؛ وكنتُ قد انتقلت من بيتنا القديم بصنعاء العتيقة إلى حيّ «بير العزب» ، إذ قد أعارني وليّ العهد بيته الذي يُسمّى «بيت عمر» ؛ وكانت المراسلة بيني و بين «ولي العهد» لا تنقطع اسبوعياً ؛ أوافيه بأخبار صنعاء السياسية والأدبيّة ، وانصح وأوجّه ، وأبلغه نصائح وآراء آخرين من كبار رجالات اليمن ، و برزتُ في المجتمعات ، وكبر نشاطي ، وكأنّني ممثل لسيف الإسلام أحمد «ولي العهد» في «صنعاء» ؛ حتى إنه إذا صادف وسافر «البريد» من «تعز» ولم يجب عليّ معه ، اعتذر ببرقيّة ، أو أرسل بريداً خاصاً ، إذا كان لديه ما يهمّه استعجاله ، ولقد قال لي مرّة الأخ محمد ابن حسين عبدالقادر: «إنك بمظهرك تغيظ بعض رجال الدولة فكأنّك بينهم ممثلٌ لدولة «تعز» داخل دولة «صنعاء»» قال ذلك ضاحكاً مازحاً لكنه كان يعني ما يقول : !

واضطرب المجتمع الصنعاني بطموحات الشباب ، وضاق حتى الشيوخ بتصرفات بعض الأمراء والوزراء ، وشيخوخة الإمام الذي أشرف على الثمانين ؛ وكنت متحمّسا لرأيي ، وأحاول اقناع النّاس ــ ولاسيما الزملاء ــ بضرورة الالتفاف حول ولي العهد ، والعمل بهدوء وحكمة ، وكنت مخلصاً لهذا الرأي أشد الإخلاص ، ومقتنعاً به أشد الاقتناع ، ولا أرى طريقةً سواه لتخليص اليمن مما تعانيه من تخلّف ، وكان الكثير من الشباب والكهول يخالفونني ، وأتجادل معهم ، وأناقشهم وأحاورهم ، وأحاول أن أولّف حزباً يجمع ذوي الحل والعقد والعلماء والأدباء لتُجنّب البلاد ما يخشاه الجميع ويحاذر أن تقع فيه من فوضى بعد موت الإمام يحيى حين يتصارع المتنافسون على الحكم ، ومنهم الأمراء أنفسهم فيفلت الزمام على الجميع ، كما حدث عدّة مرات عبر تاريخ اليمن ، وأذكر أنني كنت كلّما بحثتُ الأمر مع القاضي العلامة الأديب المؤرخ عبدالله بن عبدالوهاب الشماحي كان يختم الحديث بعبارة «المستقبل مظلم» و«ماشاء الله كان» !

وكان الأمير ابراهيم شبه يائس من أبيه و بعض اخوانه كالحسن والحسين ، أن يتغيّروا عن نهجهم الذي يرونه صواباً ، أو أنّهم لا يعرفون كيف يتخلّصون منه إلى ما هو أفضل ، وكان لا يطمئن إلى مستقبل اليمن إذا تولّى أخوه أحمد الإمامة بعد أبيه ، والواقع أنّ جلّ أولاد الإمام ــ أو كلهم ماعدا عليّا ــ كانوا لا يحبون أحمد و يتمنّون أن يتولّى الملك غيره ! ومنهم من يرشح الحسين لفضله وعلمه ، ومنهم من يرشح عبدالله لكفاءته الإدارية وثقافته العصرية ، وتصرفهم هذه الرغبة عن معرفة الواقع وهو أن أحمد ــ الذي هو أكبرهم سنّاً ــ وكان حينذاك قد جاوز الخمسين عاما ــ هو أيضاً أكثرهم علما وشجاعة وكفاءة وأنه وحده الذي يمكن أن يحفظ الإمامة في بيت حميد الدين ، أو يساهم مساهمة فعّالة في نقلها إلى من

يختاره العلماء لو تقيّد بشروط وتعاليم المذهب الزيدي الذي ينكر وراثة الحكم، ويجعله خاضعاً للشورى بين المسلمين.

وكنت أجلّ الأمير ابراهيم وأودّه وأحاول اقناعه بأفكاري وكان يبادلني التقدير والود، بل ويحسن الظن بي و يوليني أكثر مما استحق من الاحترام والاجلال.

مرض الإمام يحيى ومؤامرة ابراهيم:

وكنا في شهر ذي الحجة سنة ١٣٦٥ هـ/ اكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٤٦م وكان الإمام يحيى في منتزه «الروضة» شمال صنعاء، وسيف الإسلام عبدالله مع أخيه يحيى ووفد يمني ضمنه السيد حسن ابراهيم والسيد علي المؤيّد والدكتور/ عدنان ترسيسي والقاضي محمد العمري وهاشم بن هاشم وآخرون في مصر، وانتشرت إشاعة أن الإمام يحيى مريض جداً، وعدت ذات يوم إلى البيت فقيل لي ان الأمير ابراهيم قد مرَّ على «عربتــه» وسأل عنّي ثم ذهب مع أخي عبدالوهاب والأخ محمد أحمد الشامي، وعندما أقبل أخي ظهراً قال إنّ الأمير ابراهيم ذهب معهما إلى «قصر السلاح»، وأخبر مديره والمسؤولين أن يكونوا يقظين؛ لأن الإمام ينازع، إن لم يكن قد مات، وأن أحد إخوانه «عليّ» أو «اسماعيل» سيصل إليهم إذا جرى أمر الله، ثم مرّوا على «عُرضِي النظام» ــ ثكنة الجيش النظامي، وعلى «عُرضِي» الجيش «الدفاعي» وكلّم امراءهم وضباطهم بنفس الكلام. وسقط في يدي عندما سمعت الخبر، وذهبتُ إلى بيت الأمير ابراهيم فوجدت ابن عامل صنعاء خارجاً من عنده وهو متغيّر الوجه وقال لي مسرعاً: خبر مُهم، والحالة خطيرة، ودخلت على الأمير وإذا لديه أمير «الجيش النظامي» السيد علي بن ابراهيم وهو يقول له: نعم؛ الإمام ينازع وما تجدّد سأخبركم لا تغادروا بيتكم، وكونوا على يقظة واستعداد. وعندما غادر المجلس أمير الجيش؛ قلتُ: ماهذا العمل وماذا تقول ولماذا؟ قال لي: الإمام فعلاً مريض وأطلب منك أن تذهب فوراً إلى أخي «علي»، وتطلع معه لاحتلال «القصر» وأنا سأذهب إلى أخي اسماعيل ليذهب إلى «العرضي» لإمساكه، وسأذهب إلى «الروضة» لألقي القبضَ على «الإمام» وعلى «أخي الحسين»، وسيكون كل شيء تحت أمرنا! قلت: وماذا سيعمل «ولي العهد» قال: لن يستطيع أن يعمل شيئاً، إذا ما مسكنا صنعاء والجيش، والسّلاح، والمالُ فيها، وسيصل أخي عبدالله وأخي يحيى، ونجمع أهل الحل والعقد ليختاروا لهم من يرتضونه إماماً من بيت حميد الدين أو غيرهم، أمّا الإمام يحيى فقد كبرت سنه وكثرت أمراضه ولم يعد قادراً على إدارة شؤون الدولة. وكان يحدثني بهذا ومعنا حارسه خالد العبد، ورفيقه الخاص السيد أحمد، وضابطان آخران؛ فقلت له: هذا هو الجنون بعينه.. ولكن تعال أوّلا نذهب إلى سيف الإسلام «علي» لنتدارس الأمر.. وعندما أخبرنا «علياً» عما كان صعق،! وقال: إذا وصل النبأ إلى أخي الحسين، وهو لدى الإمام في «الروضة» وأخبر الإمام فسيأمر بإلقاء القبض علينا؛ قلت: وعلى أخي عبدالوهاب، ومحمد بن أحمد الشامي بل وسيحّملوني المسؤولية؛ أنا العائد من «عدن» وسيقولون انني سنبب كل ما كان وانني انما عدت لكي أتآمر على الدولة.

و بينما نحن نتحدّث وكان معنا السيد محمد بن عبدالرحمن الشامي، وصل الأمير اسماعيل قلقا فزعاً وهو يقول: ماذا فعلت يا ابراهيم؟ لقد جاءني بعض قادة الجيش، وحرس قصر السلاح يعرضون استعدادهم للقيام بأيّة خدمة، وأخبروني بما قلت لهم! قال ابراهيم: ها أنتم أمام الأمر الواقع فاغتنموا الفرصة، وكونوا شجعانا، واحتلّوا العرضي والقصر والمقام، وعليّ أن أذهب إلى «الروضة»، وألقي القبض على الإمام وعلى أخي الحسين، ونستدعي رجال الحل والعقد وننقذ اليمن؛ قال اسماعيل: هذا خيال، وسنقضي على أنفسنا وعلى أصدقائنا، واعتقد أننا قد وقعنا في فخ ولا مخرج لنا منه إذا كان الخبر قد وصل إلى الإمام، أو وليّ العهد أو أخي الحسين!

قلت: الحمد لله أن لا تلفونات في اليمن، و يلزمنا المبادرة بمداركة الموقف قبل فوات الآوان، وكنت متوتّرا قلقا خائفا، بل موقناً بالهلاك لأنّ التهمة ولا شك ستُلقى على كاهلي.. قال علي: وماذا ترى؟ قلت: أرى أن يذهب الأمير اسماعيل فوراً ومعه الأخ محمد بن عبدالرحمن الشامي إلى «الروضة» ويخبروا الإمام وسيف الإسلام الحسين، بأن الأمير ابراهيم أصيب بمرض خطير يشبه الصّرع أو الجنون فهو يهذي و يهذرم، وقد فعل كذا وكذا، ومن الضروري اسعافه بالأطباء، وعلى الأمير علي، أن يكتب برقية مستعجلة إلى ولي العهد، ويخبره بنفس الخبر وسأذهب فوراً وأبعث برقية إلى «ولي العهد» وانقل إليه نفس المعنى، وهذا هو كل ما نستطيع أن نعمله الآن؛ أن نكون نحن الذين يبلّغون السلطة التي نخشاها، لكي ننقذ أنفسنا، أمّا إذا وصل إليهم الخبر عن طرق أخرى، فلا خلاص لنا، فالبدار البدار قبل فوات الآون.

تظاهر الأمير بالمرض:

قال الأمير ابراهيم: وماذا أعمل أنا؟ قلتُ: تذهب إلى بيتك وتتظاهر بالمرض، و بالصرع أحياناً.. ضحك الأمير ابراهيم وقال: يعني امثل دور «المجنون» قلنا: نعم. قال: لقد أدّيتُ واجبي، وهيأت لكم الفرصة فضيّعتموها؛ وما دام في تمثيلي دور «المجنون» نجاتكم فسأعمل: أيها الجبناء! ومضى الأمير اسماعيل مع السيد محمد بن عبدالرحمن الشامي على سيّارته نحو الروضة؛ ودار حوار قصير بين الأميرين عليّ وابراهيم تمثل فيه «علي» بقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أوّلٌ وهي المحل الثاني

ومما قاله لأخيه ابراهيم: ليست الشجاعة أن تُلقي بنفسك إلى التهلكة أو تثب من حالق، وإنّما الشجاعة الصبر والثبات، ولم يأت «المغرب» إلاّ و بيت الأمير ابراهيم يغصّ بالأطباء، والزّوار، وأمر الإمام رئيس الوزراء عبدالله العمري و وزير الخارجية راغب بك بالكشف مع الأطباء على ابنه ابراهيم؛ وأن يرفعوا إليه تقريرا؛ وأجاد الأمير إبراهيم تمثيل دور «المجنون».. وأقبل عيد الأضحى، وفي صلاته «بالمشهد» و بحضور الإمام خرّ الأمير ابراهيم مغشياً عليه كأنّه أصيب بنوبة صرع، وحُمل إلى داره، وأحضر الأطباء، وقرّروا ضرورة اسعافه إلى «اسمرة» ثم إلى «روما» للعلاج. ثم نقل على سيارة مع رفيقيه الأستاذ أحمد البراق الذي اختير على أساس أنه يتكلم اللغة الانكليزية إلى الحديدة، ومنها ــ ولا أذكر الآن هل على سفينة ــ إلى «كمران» ثم على طائرة إلى «أسمرة»؟ أم وصلت لنقله طائرة

اثيوبية ، أقلّته من الحديدة إلى «أسمرة» بأمر الامبراطور «هيلاسلاسي» ، الذي اعتنى بإرسال أحد أولاده الأمراء لاستقبال «الأمير ابراهيم بن ملك اليمن» وأنزله في قصره الخاص بأسمرة.

فهذه هي قصّة خروج الأمير ابراهيم من اليمن واسبابها ودوافعها أما ما حدث بعد وصوله «أسمرة» وكيف غيّر وجهة رحلته عن «روما» للمعالجة؛ إلى «عدن»؟ ولماذا قرّر الالتحاق بالأحرار، والانضمام إلى المعارضة بل وتزعّم حركتها ضدّ أبيه الإمام يحيى ولم يكن ذلك في حسبان أحد وهو في «صنعاء»؟ فلا أعرف تفاصيل أسبابه ، وقد حدثني الأستاذ أحمد البرّاق أنّه هو الذي زيّن للأمير ابراهيم عمل ذلك ، وصوره له في صورة عمل بطولي وطني ، ربّما أنقذ به نفسه وأسرته من غضبة الشعب ، وأنه قد اتصل بالأستاذ الزبيري والأستاذ أحمد نعمان بواسطة القنصلية البريطانية في «أسمرة» أو «أديس أبابا» وعرض عليهما رغبة الأمير في الانضمام إلى «الجمعية اليمنية الكبري» فرحّبا بذلك وغادر الأمير «أسمرة» وقصر الامبراطور مع رفيقه و«سكرتيره الخاص» أحمد البرّاق ، واستقبله الأحرار في «عدن» استقبال الأ بطال ولقبّوه «سيف الحق ابراهيم» وأعلن معارضته رسميّا وكتب للإمام والده الخطاب الوطني المشهور، وهو من إنشاء الأستاذين «الزبيري» و«نعمان» و بقية القصة إلى أن هبّت «ثورة الدستور» وفشلت ، وتوفي الأمير فجأة في معتقل حجة في شهر شعبان سنة ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨م معروفة مشهورة.

ولقد فوجئت عند سماع النبأ ، وخفت أن يظن الإمام ، أو بعض الأمراء ، أني قد تواطأت مع الأمير ابراهيم وأحمد البراق على ذلك ، فينالني الضّرر فأسرعت بالسّفر إلى مقام ولي العهد أحمد وغادرت صنعاء إلى تعز في أوائل محرم سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ولو كنتُ من المزايدين على التاريخ ، والذين يشحذون الأمجاد الوطنيّة ، لاستطعت أن أزعم بأنني الذي حرّض الأمير ابراهيم على الانضمام إلى الأحرار إلى «عدن» وزيّن له اتخاذ ذلك الموقف الوطني الشريف.

١٥ ـ فشل رحلتي إلى «عدن»

وأما كيف كانت رحلتي إلى «عدن» التي سبق أن أشرت إليها في فصل سابق؟ فبعد وصولي إلى مقام «صاحبي» «ولي العهد أحمد» لم أجد بدّاً من أن أشرح له ما حدث تفصيلاً كما شرحته الآن ، وأخبرته بالقصّة كاملة ، وقد قرّرتُ ذلك لكي أبرىء نفسي من تهمة التواطؤ على فرار «ابراهيم» إلى عدن ، أو أنّني تآمرت أو احتلت ، ولا سيما وقد بلغني أنّ هناك من يقول : ما عرّف الأمير ابراهيم بمن في عدن إلاّ أحمد الشامي ولولاه لما فكّر في الزبيري ولا نعمان! وأنا دائماً أرى أن الصراحة والصدق أنجح الوسائل للخروج من الأ زمات التي تحدث أحيانا للمتحالفين أو الأصدقاء ، وأن السّياسي الماهر لا يلجأ إلى المكر أو الاحتيال إلاّ مع خصومه وأعدائه ، والصدق والصراحة والوضوح تقضي على الأ وهام والشكوك التي تطرأ كثيرا بين الأصدقاء. ولاسيما إذا كانوا يتمتعون بذكاء وصفاء نفسي وذهني ، ويمجدّون الشهامة والإخلاص وهو ما كنت أتصوّره لدن صاحبي «ولي العهد» ، و بدلاً من أن يلومني على برقيّتي إليه التي أيّدت بها برقية أخيه سيف الإسلام علي من أنّ «ابراهيم» أصيب بما يشبه

« الجنون » وأنه يفتقر إلى العلاج والاستشفاء خارج اليمن أبدى إعجابه بحسن تصرفي ؛ ثم قال لي : هل اتفقت مع أخي « علي » على أن تعترف لي بما حدث كما وقع ؟ قلت : لا والله ؛ قال : لقد كتب لي أخي « علي » بنفس القصّة التي رو يتها ، وطلب منّي أن أسألك ، ولكني انتظرت حتى أرى ماذا ستقوله ، لأعرف مدى إخلاصك فللّه أنت

تقوّى الأحرار بانضمام سيف الحق :

وتبعني أخي عبدالوهاب الشامي إلى «تعز» وصحبته الأخ الظريف القاضي عبدالله العنسي و بعض الأدباء وعاد القاضي عبدالرحمن الإرياني من اريان إلى « تعز» وازداد نشاط البريد الأدبي، وفي «عدن» نشطت حركة الأحرار بعد أن كادت تتلاشى وذلك بفضل انضمام الأمير سيف الحق ابراهيم ؛ وصدرت صحيفة « صوت اليمن » تنقد الأوضاع ، وتهيّج المشاعر وتوسّعت دائرة انتشارها ، وكان أخي عبدالوهاب يشكو مرض « الكلى » ، فاستأذن وليّ العهد بالذهاب إلى «عدن» للاستشفاء ؛ فتردد أوّلاً خشية من أن ينضمّ إلى الأمير ابراهيم ، والجمعيّة اليمنية الكبرى ؛ وسألني ، فضمنته ، وطلبت أن يساعده فأذن وأمر وكيله « الو يسي » بأن يعالج على حسابه و بعد أن تماثل للشفاء عاد إلى تعز فوصف لي ما وصفه « الفسيل » من فوضى الجمعية وأن الأمير ابراهيم متضايق من البقاء ، ومن تصرّفات نعمان وأصحابه ، وقد سبق أن وصفت تقديري لابراهيم وأسباب نزوحه وما كان بيننا من المودّة ، وما أعرفه من سماحته وسجاحة خلقه ؛ وقد دفعني ذلك إلى التفكير في مساعدته وتخليصه مما يعانيه ؛ لأني قد مررت بالتجر بة وقاسيتها ؛ فعرضتُ الفكرة على « ولي العهد» واستعدادي للسفر إلى «عدن» وإقناع الأمير ابراهيم بالعودة على أن أضمن له العفو والتكريم وا!! ماون على الإصلاح. الخ .. فأذن مباركا ومتفائلا . وتوجهت إلى «عدن» ونزلت في دار وكالة الحكومة اليمنيّة ، حيث ينزل « الأخ حسين الو يسي » وأطلعته على مشروعي ــ ولم أكن أدري أن السيد الو يسي على صلة وثيقة بكلّ من الأستاذين «نعمان» و«الز بيري» ، وانه قد بارك انضمام « ابراهيم » إليهما سرّا ــ مع بقائه في الظاهر الوكيل الرسمي لولي عهد اليمن سيف الإسلام أحمد، وكان «الو يسي» من أعزّ أصدقائي ؛ فأبدى عدم رضاه عن محاولتي، ولكنه حين رأى إصراري غالطني وسكت، وذهبت إلى صديقي «الأمير سيف الحق ابراهيم» ، وكان ينزل مع مدير مكتبه الأستاذ أحمد البرّاق في «فندق إحسان» واستقبلني استقبالا حاراً مرحّباً مُسهّلاً ، وتحدثنا طو يلاً فشكى إليّ حالته ، معر باً ؛ أنّه غير مطمئن إلى البقاء ، متذكّرا ما كنتُ قد حدثته به عن التصرفات الي سبّبت رجوعي مع الموشكي من عدن وتمزّق حزب الأحرار.

فقلت له : إذا كنتَ ترغب في العودة فلديّ تخو يل من « ولي العهد» أن أضمن لك ما تريد، وهو سيتكفّل بكسب عفو رضا الإمام ؛ بل إذا كنت لا ترغب في العودة إلى صنعاء فبإمكانك البقاء مع عائلتك وأولادك عنده في « تعز» ؛ وهذا إذا كنت أنت نفسك ترغب في العودة، وكنتُ حقاً متضايقا ؛ إذ لا أريد أن تفهم أو يفهم الاخوان انّي جئت من أجل أن أؤثر عليك ، وما تدخُّلي إلاّ لما بلغني من أنك في حالة متعبة ، كما كنتُ أنا قبلك ، وأنك تعاني نفس المعاملة السيئة التي كنت أعانيها مع الموشكي ،

وسبّبت عودتنا قال: وكيف بالأستاذ البرّاق؟ قلتُ: سأضمن له كل ما يضمن أخوك لك. واستدعاه فإذا بالبرّاق يشكو نفس ما يشكوه ابراهيم.

مشادة مع الزبيري:

وجاء الأستاذ محمد محمود الزبيري، ورحّب بي فرحاً برؤيتي وقال: أهاربا من جديد؟ إذاً فقد أيّدنا الله بأحد العُمرين! قلت: لا ياأخي بل جئت زائراً.. وتحدثنا عن اليمن وما تعانيه، وعن ضرورة الخروج على الظلمة، والتعبّد لخدمة الوطن! فقلت له: «نحن نخدم اليمن في داخلها بما ينفعُها من توجيه المسؤولين إلى طرق الإصلاح، ومساعدة المحرومين، وعمارة الـ ـدود، والمدارس والمستشفيات وإرسال البعثات التعليمية إلى البلدان العربيّة، وجلب الأساتذة، وعدّدت له بعض ما قد حصل منذ عودتي مع زيد الموشكي قال: إنكم تحرثون في البحر، وتضربون في حديد بارد، قلت: بل أنتم الذين تسلكون طريقاً مظلماً وقد يكون مسدوداً، أو مؤدياً إلى هاوية سحيقة؛ وأنا انصح أن تغيروا الطريق، إذ أنه مالم يحصل عملٌ إيجابي داخل اليمن فستبقون هكذا إلى ما شاء الله دون أ[illegible] نتيجة واليمن لا ينفعها إلاّ من يعمل من أجلها متحمّلاً أعباء المسؤولية داخلها..! وهنا ثار «الزبيري» ثورة عارمة؛ من تلك الثورات العاطفية الخطابيّة التي تفرّد باتقانها، وبمفعولها وتأثيرها على الجماهير، والتجمّعات السياسية. ولقد كان إلى جانب موهبته الشعرية، خطيباً مصقعا. وكأنّ الأخ «الويسي» كان قد اتّصل به وأطلعه على هدف وصولي إلى «عدن» وأنه اقناع الأمير ابراهيم ورفيقه أحمد البرّاق بالعودة لأنه قد عتبَ عليّ عتباً مريرا صادقاً وقال: ما كنت أتوقّع أن يأتينا التخذيل من قبلك، وأنت الرجل الذي بدأت حياتك الوطنية باخلاص! وقد وجمتُ أمام عاصفة غضبه، حتى هدأت؛ فقلت له باسماً: وهل الوطنيّة أن أظل آمنا في «عدن».. آكل وأشرب واسبّ وأشتم؟ أم أن أكافح وأعرق وأعمل وأتعب، وأحاذر وأخاف داخل اليمن لكي أصلح الحكم، وأصحح الوضع، أو أثور عليه في حركة عمليّة مثمرة؟ وكان سؤالي مذهلاً له لأنّه لايستطيع أن يدّعي بأنّ القول خيرٌ من العمل؛ وأن الأمان في «عدن» أكرم من التعب في «صنعاء» بل لقد قال: وهل ستثور إذا لم تفلح؟! وجاء الأستاذ نعمان وفي يده كتاب «هذه هي الأغلال» للأستاذ عبدالله علي القصيمي، وبنكاته الظريفة، وبسماته الساحرة، وأحاديثه الناعمة، هدّأ الجوّ، وتحوّلت الجلسة إلى حفلة ترحيب بزميل قديم، وتلاشى السؤال الخطير..؟ وتكرّرت جلساتي مع الأمير، والأستاذ البراق وقد عرفتُ ــ فيما بعدــ أنّهم عقدوا عدّة جلسات، واتفقوا على أن يخدعوا هذا «الشامي» المخلص «لولي العهد»، وتآمروا بأن يحاولوا صدّي عن العودة إلى «تعز»، وانضمامي إليهم، وليس بإقناعي؛ بل بتدبير «مقلب» كيد، ووضع فخ حيلةٍ إذا وقعتُ فيه، فلن أجرؤ على العودة إلى صاحبي «ولي العهد»، ولا المغامرة بها، وحسبوا أنّ ذلك سيكون نصراً كبيراً للقضيّة اليمنية!

وكان «المقلب» الذي دبّروه، أو الفخّ الذي نصبوه ــ وللأسف أن صديقي الأمير ابراهيم وافقهم عليه.، وكذلك صديقي حسين الويسي، أن يطلب منّي الأمير ابراهيم تسديد فواتير «فندق إحسان» لفترة الأشهر التي أقام أثناءها فيه، وبضعة آلاف من الجنيهات يشتري بها هدايا لعائلته وأولاده وذويه، وأن يكتب الأمير «ولي العهد» تفويضاً خطياً بأنّه قد وافق على ما أتحدث به وأفاوضه عليه

وأضمنه له، وقال قائلهم: ـــوهو مالم أعرفه إلاّ بعد وقوعي في الفخ المنصوبـــ «إنها فرصة سنصطاد فيها عصفورين بحجَر واحد؛ نسدّد أوّلاً ديون الجمعيّة لفندق إحسان، ونكسب بعض المال، و ينضمّ الشامي مضطراً إلينا ثانيا، فنكسب فوزاً سياسياً عظيماً! لأنه إذا تورّط فلن يستطيع العودة إلى اليمن خوفاً من ولي العهد أحمد» وذهبتُ إلى «الخادم غالب الوجيه»، أحد الوكلاء التجاريين للحكومة اليمنية بعد أن التقيتُ بالأمير ابراهيم، وطلب مني ما ذكرت من مطالب، استشيره واستنصحه، وأخبرته بما دار بيني و بين الأمير؛ فقال لي بدهاء: أنا تحت أمرك إذا احتجت إلى المال، ولكني لا انصحك بتصديق ما يقوله ابراهيم، ولا تدفع له شيئاً قبل أن تتأكد من أنّه يرغب في العودة مع البرّاق فعلاً، لأنه واقع تحت تأثيره، وتأثير الزبيري، ولا يستطيع أن يخالفهما! وذهبت في المساء إلى ابراهيم ابن الإمام وقلت له من جديد: إن كنت فعلا تحب العودة فسأعمل ما يمكنني عمله من أجل تحقيقها، وإن كنت غير راغب وتود البقاء فذلك لا يهمّني وسأعود أدراجي؛ وأقسمت له اني انما وصلتُ إلى «عدن» بدافع الودّ والصداقة وعندما عرفتُ أنه متضايق متعب، وأن ليس لي أيّ هدف سياسي ضد الجمعية اليمنية، أو ضد الزبيري ونعمان، بل وأكدت له بالأيمان المغلّظة أنّي أنا صاحب الاقتراح، في أن أصل إلى «عدن» لانقاذه ومساعدته، إذا كان يحب العودة إلى «اليمن»، وليست فكرة «ولي العهد» ولا خطرت له على بال قبل أن احدّثه بها. فأخبرني الأمير ابراهيم بأنه يريد العودة و يرغب فيها وأنه متعب متضايق واستدعى «البرّاق» فأكّد لي ما يقوله ابراهيم متحاملاً أشد التحامل وأقساه على الأستاذ نعمان، وجاء الزبيري هاشاً باشا وكان حديثه هادئاً لطيفاً وناقشنا مواضيع كتاب القصيمي «هذه هي الأغلال»، الذي أخرجه للناس ذلك العام، أو الذي قبلّه، والفرق الشاسع بينه و بين كتابه الأول «الصّراع بين الوثنية والإسلام» حين كان «القصيمي» حنبلياً متعصّبا، ومسلماً متشدّدا!

وفكّرت طويلا؛ وغلبت عاطفة الصداقة والودّ حكمة وحصافة ونصح «الخادم غالب الوجيه» الذي عرفت فيما بعد أنه كان أيضاً مماثلاً للأستاذ أحمد نعمان، وكتبتُ لوليّ العهد بأن الأمير ابراهيم وصاحبه الأستاذ البراق يرغبان في العودة؛ ولكن تكاليف «الفندق» الذي أقاما فيه يلزم تسديدها، ولا يمكنهما أن يطالبا «نعمان» بها وهما عائدان، ثم إن الأمير يطلب أن يقرأ تفويضاً خطيّا بما أتحدّث به إليه. و بعد بضعة أيام عاد الجواب وفيه يقول بأنه سيلتزم بكل ما سألتزم به.، وأن أطلب من الويسي كلّ ما احتاج إليه وفي آخر الخطاب، حذّرني من الانخداع او الاستسلام بل قال: إذا كان أخي ابراهيم غير راغب في العودة، فهو وما يريد إلى أن يحكم الله بيننا، وحسبنا أن «بضاعتنا رُدّت إلينا» وقد فهمت أنه يعني بأن أبادر ولا أنخدع، وأنني أنا بضاعته التي سيستغني بها إذا رجعت ولو بدون ابراهيم!

وعرضت الخطاب على ابراهيم، فأظهر الاستبشار وأطلع عليه «البراق» فأعلن السرور و بسذاجة الإخلاص والصدق والفرح بأني قد قدّمت خدمة خالصة بريئة لصديقين سلمت الخطاب للأستاذ «البرّاق»، واستغرقت في حديث مع ابراهيم؛ و بعد لحظات لم أجد الأستاذ البراق، فتوهمت أنّه ذهب إلى المرحاض ولكنّه لم يعد إلاّ بعد حوالي ثلث ساعة وكان يرفض جبينه عرقاً وحين سألته أين

خطاب «ولي العهد» سلّمني إياه، وقال ذهبت لاطلع نعمان والزبيري عليه، وأبلغهما أنني مع الأمير ابراهيم سنسافر معك خلال يومين، ورغم توجّسي صدّقته، ولم أعلم انّه ذهب ليصوّره إلاّ فيما بعد، ولعلّ صورته «الفوتوغرافية» لا تزال محفوظة بين أوراق الأستاذ أحمد نعمان.

وكان من المفروض أن لا يطلع على ذلك الكتاب الخاص إلاّ الأمير ابراهيم.

وذهبت إلى الأخ حسين الويسي، وعرضت عليه خطاب ولي العهد فقال: أخشى أن في الأمر خدعة ــوكان يعلم ذلك لكنّه يبرّر موقفه مستقبلاًــ فقلتُ: كلا لقد تأكدت أن ابراهيم يحبّ العودة ويرغب فيها وكذلك البرّاق، قال: «لن اسلمك شيئاً إلاّ إذا كتبت لي أن ذلك على مسؤوليّتك وحدك؛ وأعطيتني سنداً بأنك تعتبره قرضة شخصيةً لك ودينا لبيت المال عليك» فقلت له: ولماذا كل هذه التعقيدات يا أخي؟ قال: «هذه أموال ولي العهد، وأخشى إذا كان هناك حيلة أوخدعة أن ينالني منه لوم أوضرر».

قلت: سأكتب لك ما تريد. وفي اليوم التالي، والذي يليه سدّدنا حساب «فندق احسان» وسلّمت للأمير ابراهيم ما يساوي ألف جنيه استرليني وهي في ذلك الوقت تساوي قيمتها الشرائية حوالي عشرة آلاف وحضّرت مع «الويسي» و«الوجيه» سيّارتين خاصّتين، وأخرى لنقل المتاع وغادرنا «فندق إحسان» والأمير مع «البرّاق» و«نعمان» و«الزبيري» في سيارتهم، كأنّهم إنما يودّعونه إلى بعض الطريق، وركبت أنا مع «الوجيه» في سيارة «الويسي» وقد خرجا مع الأمير كأنهما يودعانه.، واجتزنا «بُغدة» الجبل، وذكرت موقفي فيها مع السيد زيد الموشكي، وهبطنا القاع الذي تؤدي طريقه إلى «الشيخ عثمان»، والخادم غالب الوجيه يتمتم انها «خدعة»؛ انها «حيلة»! و«الأخ حسين الويسي» يقول: «قد حذّرت الأخ أحمد»، ولا أدري ماذا كان يقول الأستاذ «نعمان» للأمير «ابراهيم» لكنهم لا شك كانوا يتندّرون على هذا الساذج المخدوع الغبي..! وكنت وحدي الصّادق المصدّق، الواثق المطمئن إلى دواعي الودّ والصداقة؛ وما إن وصلنا إلى مدينة الشيخ عثمان حتى وقفت سيارة «الأمير ابراهيم»، وهبط منها مع نعمان والزبيري وظننت أنه سيودّعهما، ويركب معي في سيّارة الأمير وليّ العهد! فإذا به يقول: سأضطر إلى العودة يا أخ أحمد إلى «عدن»، لأني لست واثقاً بأخي أحمد، وأريد أماناً من «الإمام»، وكان يقول ذلك والجميع يضحكون، والسوّاقون واجمون! وتمنّيت أن تبتلعني الأرض، وشعرت بطعنة الغدر تفري كبد الاخلاص، ولكني ــكعادتي إزاء كل مصيبةــ تصبّرت بل وابتسمتُ وقلت: على كل حال أنت حر، وأنا لم أجبرك، وأنت الذي رغبت في العودة وطلبت مني الوساطة. فأدركه شيء من الخجل وقال: هذا صحيح! وأنت في الحقيقة رجل وطني غيور، وأريد بل و يودّ الاخوان التحدث إليك. وأخذ الزبيري بيدي، وأخذ نعمان بالأخرى؛ فقلتُ مازحاً: أتريدون أن تخطفوني؟ فضحك الجميع، وضحك السواقون! وركبت في سيّارة «الجمعية اليمنية الكبرى» عائدين إلى مقر «الأمير» الجديد الذي كان ينوي مغادرة «فندق إحسان» إليه ذلك الأسبوع، وكان ينتظر موافقة الأستاذ نعمان على تسديد فواتير حسابه، وكأن الله علم بأن نعمان قد استكثرها، فسخّر له هذا الفضولي المخلص، ليُسدّدها من مال «ولي العهد» الذي

يعارضونه و ينتقدونه!

وفي الطريق إلى «عدن» كان الأستاذ «نعمان» مرحاً يمزح و يردّد: «الحمدلله: بضاعتنا رُدّت إلينا»، وأدركت أنّه يعرّض بخطاب «ولي العهد أحمد»؛ وأنّي قد كنت أهبل ساذجاً حين سلمته للبرّاق، وأنه قد صوّره، وانهم سينشرونه في الصحف، وأن ولي العهد سيتألّم و يستصغرني ولاسيما وقد حذّرني، وتواثبت عناكب الشك من خبايا هواجسي، ومغاور ظنوني تنسج مصايد الدّفاع، وحبائل الصيد، وتذكرت قول الله سبحانه: «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين» وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) «تخلّقوا بأخلاق الله» وقرّرت أن أمثّل دور الماكر تخلّقا بأخلاق الله مع الماكرين! وقد دار كلّ ذلك بخلدي في لحظة فكرية خاطفة لا يحدها زمان ولا مكان دون أن أترك محادثتهم والمزاح معهم، وارتحت إلى هذا الرأي، بل وسيطر على أعصابي، و بدأ المخّ يخطط و يدبّر، وأرسل أوامره إلى قسمات وجهي فأشرقت أساريرها، وإلى لساني فانطلق بالكلام اللطيف المرح؛ وقلت: وأخيرا انتصرتم، وها أنا لا ملجأ لي منكم إلاّ إليكم؛ وقال أحمد البرّاق: انظروا إليه حين عاد إلى حقل الحرية، وصَفّ الشعب، وأخلص نفسه، للوطن كيف تبلج وأصبح الإنسان اللطيف الذي كنا نحبّه ونعزّه ونحترمه، ونعدّه في طليعة الأحرار، وتلاشت من جبينه كآبة الطغاة؛ مرحى مرحى يا أخ أحمد! وقال الزبيري: إنك يا أحمد أحد المؤسّسين لحزب الأحرار، وها قد عدت إلى مكانك اللائق بك، وقال نعمان: ــ وأظنه كان أكثرهم صدقاــ أما أنا فقد كنت ضدّ العمليّة، وقلت للاخوان لا يجوز لنا أن نحرجك أمام صاحبك «ولي العهد» ولا أن نورّطك، وكان الأمير أوّلا يؤيد رأيي ثم تغلّب علينا البرّاق والزبيري قلتُ مازحاً: كأنك بدأت تحسب حساب المرتّب الذي تدفعه لي من مالية الجمعية! وهل لا يزال روبية ونصف أم قد زاد؟ وضحك الجميع؛ وقال الأمير ابراهيم: أنا آسف لما كان، وتأكد أني سأكون لك الأخ والصديق؛ وقلت: لن أستطيع العودة إلى «تعز» الآن، قالوا جميعاً طبعاً، وقال البرّاق، ستنشر «فتاة الجزيرة» غداً القصة كاملة فقلت: وكيف بي؟ قال الزبيري: أنت واحدٌ منا، وقال الأمير: ستقيم معي، وسندبر تهريب زوجتك ابنة أختي مع زوجتي وأولادي، ونحن خلال ترتيب الخطة.

وكنت لا أخشى شيئا مثلما أخشى نشر صورة خطاب ولي العهد الذي يلتزم فيه بما سألتزمه لابراهيم، لأنّ ذلك سيحرجه أمام والده الإمام؛ فقرّرت أن أركّز كل مجهود مكري على أن أحول دون نشره ضمن «القصة» في «فتاة الجزيرة»، بل وأن أحاول استبعاد نشر القصة كليّة؛ فتظاهرت بالتخاذل والارتباك والحيرة.. وحين وصلنا إلى مقر الأمير الجديد؛ قال: لا تعاتبني، قلت: على كلّ لقد انتصرت، وها أنا معك، والله لأخي و والدتي وزوجتي، ولكن لي رجاء وهو أن لا تنشروا قصة ما حدث تفصيلا، أو بصورة تسيء إلى «ولي العهد» قال: قد تحدثنا مع رئيس تحرير «الفتاة» محمد علي لقمان، قلت: إذاً فعلى الأقل اطلبوا منه أن لا ينشر صورة خطاب «ولي العهد» الشخصي إليّ، وما دمت قد انضممت إليكم أن لا يتحدّث عن اسمي الصريح، بل عن رسول ما؛ أراد، وأراد.. الخ. فاستدعى البرّاق والزبيري، وشرحت ما أطلبه وأرجوه، فقالوا: هذا من حقك وأمر طبيعي، فلا نريد وقد انضممت إلينا أن يَعْلَق باسمك غبار شك في ذهن أحد، قلتُ: واتركوا لي فُرصة يوم أو يومين؛

وسأكتب بيانا وطنيا أعلن فيه أسباب انضمامي إلى «الجمعية الوطنية اليمنية الكبرى»، بعد أن يئست من استعداد ولي العهد واخوانه للإصلاح، وتحقيق رغبات الشعب.. الخ وذهب البرّاق والزبيري إلى دار فتاة الجزيرة فاختصروا الخبر وغيروا و بدلوا في صيغته؛ ولم يذكروني فيه بالاسم، وسحبوا صورة خطاب ولي العهد إليّ؛ واطمأن خاطري نوعاً ما، وعرفت أني قد جازيتهم مكراً بمكر، واني سأستطيع العودة دون إحراج وحتّى لو نشروه بعد عودتي إلى «تعز»، و بعد أن أشرح لصاحبي الأمر صادقاً مخلصاً و يشرح للإمام ما حدث وأن ليس فيه أيّ ضير سياسياً أو انسانيا؛ وودّعت الأمير وأصحابه على أن نلتقي في اليوم التالي، لأطلعهم على بيان انضمامي إلى الجمعية، وما هي أسبابه الوطنية والسياسية.

ليلة ليلاء:

و بتّ ليلة لن أنساها، ولم يغمض لي طرف همّا وقلقا، وحزنا، وندما، وترقباً لما سيقوله «لقمان» في صحيفته «فتاة الجزيرة» ولم استسغ لا طعاماً ولا شرابا، وقد نشرت فتاة الجزيرة معرّضة بنوع من النّاس ظنوا لبلاهتهم، أنهم سيستطيعون بالمال أن يشتروا ضمائر الأحرار، وسيتمكنون بالهدايا والحلي والتحف الذهبيّة، أن يبتاعوا ذمم المجاهدين، ومندّدة بشخص غبيّ أراد أن يعيق سير الكفاح الوطني المقدس، فعرض على سيف الحق ابراهيم العودة إلى اليمن مغرياً له بالمال والمناصب الرفيعة؛ ولم يفهم أن سيف الحق ابراهيم أسمى وأرفع من أن يطمع في جاه أو في مال، وأنه قد ضحّى بكل ذلك عندما انضم إلى الشعب وأحراره الشرفاء إلى آخره!

واعترف أنني لم اصب في حياتي بغم وكرب كما أصبت ذلك اليوم، لا من قبل ولا من بعد، وأنا الذي عرفت اليتم والفاقة، والحب وأشواقه، والسجون وأغلالها وقيودها، والخصومات السياسية بأنواعها، وهُددت بالموت مرارا، وقاسيت كل أصناف المتاعب.. اعترف أن الغم والهم والكرب الذي حلّ بي حين قرأت صحيفة «فتاة الجزيرة» لم أعرف مثله من قبل ولا من بعد وحتى يومي هذا.

ولم يخفف من كر بي، إلاّ أني توفقت ــ بالمكر ــ أن أحول دون نشر خطاب «ولي العهد أحمد» أما لو نشر، فربما متّ كمدا.. ومع ذلك فقد تجلّدت أمام «الو يسي» الذي حاول بكلّ لطف أن يسلّيني، ويخفّف من آلامي، وقلت له: انني لم أرد الاّ الخير، وحين سألني: وماذا ستفعل الآن قلت: أفكّر في البقاء في عدن.. فقال: نعم الرأي.. وأنا أحذرك من العودة الآن، ولاسيما وأنت قد صرفت على مسؤوليتك مبلغاً باهظاً سيطالبك «ولي العهد» بتسديده، وأرجو أن تعتبرني الصديق الذي تعتمد عليه في الشدائد، وسأتعاون معك كما أتعاون مع الاخوان، من أجل بلادنا المنكوبة! فتأكدت أنّه يلعب على الحبلين، فشكرته وقلت: سأفكّر.

وذهبت إلى الأمير ابراهيم وزملائه، وركبنا سيارته إلى «حقّات» حيث البحر تصخب أمواجه، وأنا أوهمهم انّي قد قرّرت البقاء ولم أكتب شيئاً إلى «ولي العهد» وانتظرت مهموماً في «عدن» حوالي اسبوع كتبت خلالها ديواني «النفس الأول» وسلمته إلى الأستاذ زكي غانم لكي يشرف على طبعه في

مصر و بذلك حفظت كل أو جل شعري في فترة الشباب لأن النسخة التي احتفظتُ بها ضاعت بين ما ضاع من كتبي وأوراقي، حين سقطت صنعاء اثر فشل ثورة الدستور عام ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ، وعندما سافرت إلى مصر سنة ١٩٥٥ وجدته لدن الأستاذ زكي، فضممت إليه ما قلته من شعر في سجن حجة، والحديدة، وطبعته الطبعة الأولى المتداولة.

وقرّرت «العودة» فذهبت إلى الأمير ابراهيم ووجدت «البراق» و«الزبيري» و«نعمان» لديه وظنوا انّي جئت أعرض بياني الوطني الذي سأعلن فيه انضمامي إلى «الجمعية اليمنية الكبرى» فقلت لهم: لقد جئت مودّعاً قال الأمير: إلى أين أنت ذاهب؟ قلت: إلى «تعز» قال: وهل أنت مجنون! اجلس وسنضمن لك البيت، وكلّ ما تطلب ولا تعرض نفسك للمكروه، فأخي شديد جبار، قلت: لن أكون غبيا بليّداً مرّتين، وأفضل هذه المرّة أن أكون مجنوناً من أن أكون غبيا بليدا، وأنا لم أعمل شيئاً ضدّ أحمد، إنما عملت ضد نفسي، وكنتُ ساذجاً مخلصاً غبياً، وأما المال الذي أعطيتك فهو مالك، لأنه من مال أخيك،! وحتى لو سألني عنه، لبعتُ دارنا في صنعاء وسلّمته له جزاء غلطتي، وليس بغال عليك وأنت صديقي الكريم! وأريد أن أقول لكم اني سأظل ذلك الصديق لكم جميعاً مُحتفظا بمبدئي، متعاونا معكم، ومع غيركم في كل ما فيه مصلحة وطننا اليمن، وإذا تضايقت يا أخي ابراهيم؛ وأردت منّي أيّ مساعدة، أو وساطة فاكتب لي. كما أني أحب أن أؤكد لكم بأني لم أتأثر بما حدث، وأرجو أن تنسوه وكأنه لم يحدث ـ وطبعاً لم أكن صادقا فيما أقول ـ وإنّما ماكراً. إذ أنّي كما قلت لم أتألم في حياتي من شيء كما تألمتُ من تلك الحادثة المؤسفة، وعرّجت على الخادم غالب الوجيه والأخ حسين الويسي مودّعا، ولم أنس أن أزور الصديق العالم البصير محمد سالم البيحاني: لقد قال لي: لقد بلغني ما كان وتألمت، وما كان ينبغي للاخوان أن يحاولوا توريطك، فليس هذا من أخلاق الأحرار الأبرار! وقد عاتبتُ صديقنا الأستاذ النعمان، فقال: إنه كان ضدّ الفكرة وأخبرني بأنك تنوي البقاء في «عدن» قلت له: شكرا لمشاعرك الكريمة، وإنما جئت مودّعاً وأنا متوجّه إلى «تعز» قال: أحسنت، والله معك و بلغ «مولانا» و«القاضي الحلالي» والاخوان السلام.

موقف أحمد الإنساني:

ومن «الراهدة» كتبت إلى ولي العهد برقيةً بوصولي فأجاب فوراً: أهلاً وسهلاً «بضاعتنا ردت إلينا».

هذه هي قصة فرار الأمير ابراهيم إلى «عدن» وتزعمّه حركة المعارضه، وأسبابها ودوافعها، وقصة رحلتي الفاشلة لمحاولة اقناعه بالعودة؛ ولم يبق إلاّ أن أشرح، أو أجيب على السؤال الذي لا شك أنه يخطر ببال القاريء، وهو: وماذا قال لك «ولي العهد» حين قابلته؟

لقد سألني عن الجوّ وعن البيحاني، وخير الدين علم الدين، وعبدالمجيد الأصنج، والخادم غالب، وحسين الويسي، وعن الحياة في عدن سياسياً وأدبياً، وهل لمست فوارق أو تغيّرات حصلت منذ غيابي عنها؟ وعن لحج وهل زرت أحداً من أمرائها؟ وعن كل ما يسأل عنه إنسانٌ إنساناً؛ إلا عن أخيه

ابراهيم، ولم يعاتبني، ولا، أنّب ولا، لامَ؛ لا بعبارة ولا بإشارة، وكأنني لم أذهب إلى «عدن» لمهمّة فشلتُ في أدائها فشلا ذريعاً مخزياً بل ذهبت متنزّها.

ولقد أكبرت فيه ذلك الخلق، وكأنّه قد عرف أني لم أتأخر في عدن اسبوعاً إلاّ غمّا وكمدا، وكأنّه بعد أن قرأ ما كتبته «فتاة الجزيرة» وهو يعرف مقدار إجلالي للكلمة، وتقديري لها، وخوفي منها، لأنّه نفسه كذلك.. كأنّه قد قال لنفسه يكفي هذا الشاب المسكين الذي أراد الخير لصديقه ما يقاسيه من أسف، وما يعانيه من ندم؛ وهي تجربة مريرة سينتفع بها إن كان ذكيا؛ ويخفّف من حسن ظنه بالناس.

أما ما حدث بعد ذلك؛ فقد بدأتُ تحت تأثير غيظي مما جرى لي، أهاجم «الزبيري» و«نعمان» عند أصدقائي، وألّفتُ رسالة عنهما ضاعت بين ما ضاع من أوراقي والحمدلله إذا لم أكن فيها مخلصاً بل متحاملا..! ولكن حصل ما قلب الأمور كلّها رأساً على عقب، وغيّر موازين القوى، ووجّه تاريخ اليمن في مدار جديد،! لقد وصل الأستاذ الفضيل الورتلاني مُهندس ثورة الدستور في اليمن!

١٦- الفضيل الورتلاني وثورة الدستور (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م)

وفي اعتقادي أن العالم المجاهد الجزائري السيد الفضيل الورتلاني هو الذي غيّر مجرى تاريخ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وأنّه حين وضع قدمه على أرض اليمن كأنّما وضعها على «زرّ» دولاب تاريخها، فدار بها دورة جديدة في اتجاه جديد؛ لأنّ ثورة الدستور سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م هي من صنع الورتلاني!

واقع اليمن حين قدمها:

نعم؛ لقد كانت هناك معارضة في «عدن» ومناشدة بالإصلاح في الداخل، وكان هناك نقد وتبرّم ومنشورات ضد الدولة، وكانت هناك طموحات، وزعامات، وتحفّزات، وكل ذلك يصلح أن يكون وقودا لثورة ما.. ولكن «المعارضة» كانت بلا تنظيم، واتجاهات زعمائها مختلفة ومتباينة، والمناشدون بالإصلاح ودعاة التغيير والتطوير لا توحّدهم رابطة، والنقد والتبرّم غير موجّهين توجيها سياسيا هادفاً بناءً.. والطموحات تتنافس فيما بينها؛ وكل متربص بالآخر، و ينتظر موت الإمام يحيى الذي جاوز الثمانين أو كاد.! والزعامات العلمية والدينية والسياسية قد خدّرها الوهن، وجمدتها الأطماع؛ والتحفّزات الوطنيّة ليس لها زعماء أكفاء ذو ومؤهلات قيادية.. فلما جاء السيد الفضيل الورتلاني، عمل ما لم يعمله أحدٌ من اليمنيين؛ فوحّد شتات «المعارضة» في الداخل والخارج، وأرشد المطالبين بالإصلاح والمناشدين بالتغيير والتطوير إلى طرق العمل، وجمعهم في رابطة وطنيّة، وقارب بينهم و بين أرباب الطموحات السياسية، والزعامات العلمية والدينية والقبلية والتحفزات الإصلاحية؛ من الناقدين والمتبرّمين، وصهر مجهوداتهم وأهدافهم، واتجاهاتهم وآمالهم وأمانيهم في بوتقة «الميثاق الوطني المقدس».



السيد الفضيل الورتلاني (١٩٠٧ — ١٩٥٨)

ولا أريد أن أناقش بعض من لم يعرفوا واقع اليمن قبل أربعين عاماً، أو أنهم متأثرون بثقافات معيّنة، إذا ما اعترضوا على هذا القول وقالوا: وماذا عن المناضلين الوطنيين، وزعماء الأحرار اليمنيين، أمثال الإمام عبدالله الوزير، والأمير علي الوزير، وسيف الحق ابراهيم، ومحمد زبارة، والشيخ عبدالوهاب نعمان، والسادة حسين الكبسي وزيد الموشكي ومحمد حسين عبدالقادر وعبدالله بن علي الوزير وأحمد المطاع وأحمد محمد نعمان ومحمد محمود الزبيري، ومحيي الدين العنسي، وحسن الدعيس، وعبدالرحمن الارياني، وأحمد الحورش ومحمد المسمري والعزي صالح السنيدار وعبدالله الشماحي والعشرات من مشايخ وأدباء وعلماء وضباط وزعماء ممن وردت أسماؤهم في قوائم «الميثاق الوطني» كوزراء، ووكلاء، ومدراء، وأعضاء في مجلس الشورى، ويزعمون أو يظنّون أنني بهذا القول قد قلّلت من قيمهم، وحقّرت من شأنهم! لا أريد أن أناقشهم وأؤكد جازماً بأن أحداً من هؤلاء اليمنيين المناضلين الأعلام — لو فرضنا أنه كان يستطيع — لم يحاول، بل ولا فكر في أن يحاول، بأن يجمّع شتات تلك القوى الوطنية، ويوحّدها في جبهة متحدة لها ميثاق وطني مقدس قبل أن يصل إلى اليمن السيّد الفضيل الورتلاني! هذه هي الحقيقة؟

وإلاّ فقولوا: من عمل ذلك أو فكّر فيه؟ وكيف؟ وأين؟ ومتى؟ ونحن نعلم أن نعمان والزبيري كانا في واد، والموشكي والكبسي في واد آخر، وعبدالله بن أحمد الوزير كان لا يقرّ ولا يوافق دعوة ابن عمه علي بن عبدالله إلى المعارضة، ولا يعرف ما سيعمله علي بن حمود شرف الدين أوغيره، ممن يرشحون أنفسهم للإمامة بعد وفاة الإمام يحيى! كما أنّ الحورش والعنسي، ويحيى زبارة. ومحيي المسمري في مصر لا يعرفون ماذا عند أحمد المطاع والعزّي صالح، والصفي محبوب، وأحمد الجرافي ومطيع دمّاج! ولا علاقة لهم جميعاً بالجيش وضبّاطه أمثال سرّي الشايع، وأحمد المروني، وعبدالله السلال، وعبدالقادر أبوطالب، وحمود الجايفي ومحمد حسن غالب، ولا يعرفون حسن العمري، والسّعيدي، والمقعش ولا شباب المدرستين العلمية والثانوية، وسائر القوى الوطنيّة، وهي تتحفّز وتريد أن تعمل، ولكنها تخبط في وديان الحيرة والتيه! وقد سبق أن أشرت إلى خلافات أعضاء حزب الأحرار؛ حتى جاء الورتلاني ذلك العملاق؛ وقال للجميع هذه هي الطريق يا أبناء اليمن؛ وقادهم في صف واحد تحت راية «الميثاق الوطني المقدس».

من الذي استطاع أن يقنع معلّم الجيش الرئيس جمال جميل العراقي بأن يؤلّف جبهة من ضباط الجيش لتؤيد إمام الدستور؛ غير الورتلاني؟

من الذي أعاد الثقة إلى قلبي الموشكي والشامي وجعلهما يتعاونان من جديد مع الزبيري ونعمان وفي إطار الميثاق الوطني المقدس؛ غير الفضيل الورتلاني؟

من الذي استطاع اقناع الأمراء والعلماء والمشايخ والتجار والضباط والأدباء بمبايعة عبدالله الوزير إماما ثوريا، دستوريا غير السيد الفضيل الورتلاني؟

وكما قلت سلفاً — انّني لست مؤرخا ولا ناقدا، ولا أريد أن أصوّب شيئاً، أو أخطىء سواه، أو أقول كان فلان مع الحق، وفلان مع الباطل، أو ياليتنا عملنا كذا، وتجنّبنا كيت، ولولم نعمل ذلك

لكان أفضل، ولو عملنا كذا لكان أحسن.. كلاّ؛ فلستُ بصدد تقييم الثورة، ورصد حسناتها أو تعديد سيئاتها، وإنما أقصّ ماجريات حياتي، ولن اتجاوز سرد الأحداث كما كانت أو كما اعتقد أنها وقعت، وكما شاهدتها.، أو عملتها اما ما كان منها صوابا أو خطأ، وحقّا أو باطلاً، خيراً أو شرا فليست هذه مهمتي؟

لولا الورتلاني ما توحّد الأحرار:

وأنا شخصياً ـ وقد رو يتُ في الفصول السابقة قصة حزب الأحرار، واختلاف مؤسّسيه وتمزّقهم، وما نشب بينهم من تباين في وجهات النظر ـ أعترف بأن السيّد الفضيل الورتلاني هو الذي غيّر مجرى حياتي؛ ولوّن سلوكي واتجاهي، واستطاع أن يجمع بيني و بين نعمان والزبيري من جديد! وليس لأنّه اقتعني بسلامة وصحة طريقتهما، بل لأنه أوجد شيئاً جديداً، ووحّد القوى الوطنية وجنّدها لتأييده، وأقنع الزبيري ونعمان، كما اقنعني وأقنع غيري بالإيمان به، في تنظيم سياسي عملي موحّد تحت راية «الميثاق»!

ولولا الورتلاني لما التقى سيف الحق ابراهيم والزبيري ونعمان، مع عبدالله الوزير وحسين الكبسي والرئيس جمال جميل العراقي، ولما ساهمتُ ولا ابراهيم الحضراني، ومحمد الوريث وأحمد محمد باشا، وحمود الجايفي، وعبدالله السلال، وزيد الموشكي، ومحمد أحمد الشامي وعبدالوهاب الشامي، وحسين المقبلي، ومحمد الفسيل بشيء في صنع وتأييد ثورة الدستور؛ بل ولا كان «الميثاق الوطني المقدس».

فالورتلاني هو مهندس ثورة سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م حقاً!

لقد استطاع بعلمه، وقوّة شخصيته.، و بلاغة منطقه، أن يكسب ثقة وتقدير جميع الفئات، بل ومحبتها الصادقة الخالصة.

لقد جسّد فيه اليمنيون ـ بما فيهم الحكّام ـ المثل الأعلى للدعوّة إلى الحق، ولم أقابل في حياتي ـ لاقبله ولا بعده ـ من هو أعرف منه بالقرآن الكريم وعلومه، وتفسير آياته واستكناه أسراره وقدرته المنطقية على الغوص في أعماقها، واستنباطه منها ما يحلّل به مشاكل الحياة، دونما تكلّف أو تقعّر، أو اغراق، وفي منطق سهل بيّن يخلب الألباب، إلى استيعاب للأمهات، ومسائل الفقه، واطلاع على تواريخ الأمم، والملل والنحل، والمذاهب السياسيّة والاقتصادية إلى حفظ للأخبار والأشعار والنوادر؟ إلى كرم طبع، وعزّة نفس وسجاحة خلق، و بشاشة وجه، وكان ضخم الجثة كبير الرأس، له أنف شامخ، وعينان ضيّقتان تنفثان نوراً مؤثراً، وصوت مجلجل، ولسان مبين، وشخصية مهيبة لا يسع من ينظر إليها إلاّ أن يجلّها ويحترمها.

رأي محمد الحجري فيه:

ولقد قال له القاضي العلامة المؤرّخ محمد أحمد الحجري، عندما رآه وقابله وتحدّث إليه وكان قد سمع خطبته المشهورة التي فسّربها في مسجد «حنظل» آيات [إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يُحبّ كلّ خوان كفور]..الخ ٣٨ـ ٣٩ـ ٤٠ـ ٤١ـ سورة الحج ـ قال له: «إنك وأنت من نسل الإمام

عليّ، والعالم المجتهد، والقويّ الأمين، لو دعوت إلى نفسك لبايعك أهل اليمن، كما بايعوا الإمام الهادي يحيى بن الحسين».

وأعترف غير مُجَمْجِم بأن أحداً لم يؤثر في حياتي السياسية والأدبية بل والاجتماعية، كما أثّر فيها أستاذي الفضيل الورتلاني؛ لقد صنعني سنة ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧م صنعا جديدا، وأوجد مني شخصا آخر لم أكن أعرفه من قبل! ولقد أعاد ثقتي بالإنسان بعد أن زعزعتها التفاهات في «تعز» و«عدن» وأبصرت فيه بل ولمست وجالستُ وحاورت المثل الحيّ للفضيلة التي كنت أقرأها في الكتب، وشاهدت الإخلاص والجهاد والشهامة والقوة والتضحية في إنسان يتحرك ويمشي و يتكلم، وقد اتخذ مني تلميذا طوال بقائه في «صنعاء» ـــ عشرة أشهر ـــ وقد زار اليمن مرّتين ـــ وكان يحضر دروسه ومحاضراته الكثير من شباب صنعاء، واختصّني بعنايته، وكان لا يطيب له وقت لست فيه معه، نكتب أو نقرأ، أو نتحدث، وأجمع على إجلاله واكرامه وتقديره كل علماء وفطاحل اليمن.

ولو استرسلت في ذكر فضائله لأطلت، ولو سردت جلّ ما أعلمه عن حياته وجهاده مع أستاذه عبدالحميد بن باديس في الجزائر، ثم أعماله في فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية ومغامراته، وكيف فرّ منها إلى مصر عن طريق ايطاليا، وتعاونه مع الأستاذ الخضر حسين والشيخ حسن البنا، وسجلت أقواله وخطبه ورسائله لحبّرت مجلداً ضخما، ولن أنسى أن أذكر بأنه زار اليمن وهو في سن الأربعين ـــ كما قال لي ـــ فولادته إذاً كانت حوالي سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٧م وانتقل إلى جوار الله غريبا مطارداً في تركيا سنة ١٩٥٧م/١٣٧٦هـ.

كيف عرفت الورتلاني:

كان أوّل من حدثني عنه الصديق الشاعر محمد محمود الزبيري بعد أن أُطلق من سجن «الأهنوم»، والتقينا في مقام ولي العهد أحمد بتعز في شهر ذي الحجة سنة ١٣٦١هـ/ ديسمبر ١٩٤٣م فقد سألته مرة: مَن أعظم شخصيّة قابلتها وأُعجبت بها في مصر؟ وكنت انتظر أن يقول حسن البنا أو المراغي، أو علي ماهر، أو العقّاد، أو أضرابهم من العلماء والزعماء والأدباء والساسة الذين تنشر اسماءهم وأخبارهم وآثارهم الصحف والمجلات. لكن الزبيري قال: أعظم شخص عرفته، واعجبتُ به، السيد الفضيل الورتلاني ـــ ولم أكن قد سمعت بهذا الاسم؛ فقلت: ومن هو هذا الورتلاني؟ قال: زعيم من الجزائر، لجأ إلى مصر فاراً من فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية، والتقيت به في القاهرة في ندوة محمد علي الطاهر والأمير شكيب أرسلان. وأطنب في وصف عبقريته وعلمه وفصاحته وقوّة شخصيّته، ولباقته واهتمامه باليمن واليمنيين بل قال لي: لا أظن أنه يوجد له نظير في العالم الإسلامي؛ علماً وكمالاً وإخلاصاً وهيبة وجلالا.

تأسيس شركة تجارية:

وعندما كنت في «عدن» حين زرتها من أجل مساعدة سيف الحقّ ابراهيم، وفشلت مهمتي، سمعتُ أن الفضيل الورتلاني سيزور اليمن منتدباً من قبل شركة الحاج محمد سالم لتأسيس شركة

تجارية يمنية ، وفهمتُ أن وراء فكرة هذه الزيارة التجارية يكمن غرض سياسي ، وحدثت «ولي العهد» بما سمعتُ فقال : نعم، وسيصل غداً مع حسين الويسي . وطلب منّي استقباله مع رفيقه الدكتور أحمد فخري وانزالهما بدار الضيافة وأن أكون لهما رفيقا طوال زيارتهما لليمن .، والدكتور فخري : هو رجل الآثار المشهور، والعالم الأديب الذي ألف في اليمن وآثارها وماضيها وحاضرها نفائس الكتب .

وأُخذت بشخصّية الورتلاني ، وأعجبت به وأنشدَت قول الشاعر:

ظلّت مناشدة الركبان تخبرني — عن أحمد بن دواد أحسن الخبر

حتى التقينا ؛ فما والله ما سمعت — أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وتحدّثت إليه بصراحة وثقة عن بلادي وما تعانيه ، وما أرجوه لها وعن خلافاتي مع نعمان والزبيري ، وانتقدت طريقتهما في معالجة أدوائنا نقداً مريراً ، وشكوتُ إليه من موقفهما مع الأمير ابراهيم وأحمد البرّاق منّي ، ومحاولتهم الاضرار بي وتوريطي ، وقد استمع باهتمام إلى كلّ أقوالي ، وأصغى إليها بوعي وتفهم ، ولكنه لم يدخل في نقاش معي عن الزبيري ونعمان صديقيه القديمين ، اللذين عن طريقهما وزملائهما المسمري ، وزبارة ، وعبدالله بن علي الوزير عرف اليمن ومشاكلها ، واحبّها وأحبهم ، وأراد أن يعمل من أجلها شيئا مذكورا . وبأسلوب المعلّم القدير والمصلح الخبير، أيّد فكرتي التي تفضل العيش والبقاء داخل اليمن لمعالجة مشاكلها ، والعمل من أجل تطويرها وتغييرها إلى الأفضل من الهروب والتناوش من مكان بعيد ، وقال : إن هذه هي فكرة اخوانكم في مصر محيى الدين العنسي وأحمد الحورش وعبدالله بن علي الوزير والآخرين وأنهم على صلة بالسيد حسين الكبسي ، الذي يعمل ويمّهد لعودتهم إلى «صنعاء» ولمستُ من أحاديثه أنه على اطلاع ومعرفة بالقضيّة اليمنية وأن من مهامّه التي وصل من أجلها نصح الإمام ، وولي العهد أحمد ، وسائر المسؤولين بضرورة تطوير اليمن المستقلة واخراجها من عزلتها ، ومساعدتها على القيام بتحمّل مسؤوليتها العربية وواجباتها الإسلاميّة .

كان أسلوبه جديدا ومؤثرا:

وكان أسلوبه في الحديث أو الحوار جديداً عليّ وعلى الشباب ، بل وعلى العلماء والشيوخ ، وكنت أتسلّق العقبة الثالثة والعشرين في جبل حياتي ، وكلّي حماس وتطلّع وتلهّف لعمل شيء نافع ، أخدم به وطني وديني ، وكأنما وجدتُ في الورتلاني الحادي والرائد والرفيق ؛ وكان ماهراً ولطيفاً ورفيقاً بي ، ولا شك أن الاخوان في «عدن» قد حدثوه عني ، وعن خلافاتهم معي ـــ بل لقد عرفت فيما بعد بأنّهم حذّروه منّي ـــ ولكنّه كان مرشدا حقاً ، خبيراً بأدواء الناس ، حكيما في معالجة أمراض النفوس واستلال سخائمها وإصلاح ذات البين ، والتأليف بين القلوب ، وتغيير الأفكار بالمنطق والتحليل والتوجيه الحكيم .

الدرس الأول لماذا؟

وإن أنس .. فلن أنسى موقفه معي ذات ليلة بعد وصوله إلى تعز بيومين ، وكان قد نزل بدار الضيافة

القديمة الرابضة في حضن جبل صبر والمطلّة على مدينة تَعز، وكانت الاضاءة لا تزال بمصابيح الغازوقال لي: افتح النافذة نتفرّج على الوادي والمدينة والجبل. وفتحتها فإذا بنا نطل بل نغوص بأعيننا في ظلام دامس..! فقال لي: لماذا يخيّم هذا الظلام و يطبق على مدينة تعز الجميلة؟ ولماذا يطلّ علينا جبل «صبر» الأخضر وكأنّه شبح الرعب والفناء؟ ونحن لا نزال في ساعات الليل الأولى؟ أما كان أفضل لو كانت مصابيح الكهرباء تتلألأ هنا وهناك؟ لماذا لا تسبح المدينة بين الأنوار بدلا من أن تغرق في الظلام؟ أما كانت تستحق ذلك مثل «لحج» و«عدن» وهما من اليمن.. وليسا بأفضل مناخاً ولا هواءً، ولا أطيب ولا أجمل ولا أخصب من «تعز»؟ ولو أنك قد زرت «لبنان» لأعجبتك في الليل أكثر مما تعجبك في النهار، ولرأيت جبلها في الليل تتناثر فيه أنوار القرى وكأنّه روضة؛ أزهارها وثمارها مصابيح الأنوار؛ وَجبل صبر أفخم وأضخم من جبل لبنان؟ لماذا لايشقّون الطرقات، و ينيرونها بالمصابيح الكهربائية كما صنعوا في دار الإمام ودار «عامل تعز»؟ لماذا لا تكون كل بيوت المدينة كذلك؟ ولماذا ليس لديكم تليفونات ولا راديوهات.. بله المدارس والمستشفيات! بله المعاهد الفنيّة والجامعات؟ قلت: هذا ما نطالب به ونسعى لإيجاده، ونأمل مساعدتنا من قِبَلك عليه بأن تنصح الإمام وولي العهد والمسؤولين لكي يقتنعوا بعمله وتنفيذه! ونظر إليّ نظرة عميقة— وعلى ضوء مصباح الغاز وانتشار «فراشات» الليل التي هربت من ظلام الليل إلى الغرفة عندما فتحت النافذة لائذة بمصباح النور— نفذت إلى أعماقي أشعتها وقال: أغلق النافذة فقد اكتأبت لرؤية الظلام! ثم أردف بصوت حازم: يا سيد أحمد.. إن هذه أشياء بدائية وأمور بديهيّة لا يغفل عنها «الحاكم»، ولا يفتقر إلى نصح أو إرشاد لكي يفعلها.. وإذا لم يعملها بطبعه كإنسان؛ فلن يجدي معه نصح أو إرشاد، وقد جئت إلى اليمن ناصحاً ومنذراً؛ ولكني كنت أظن بأني سأنصح الإمام بتأسيس مجلس شورى.، ووضع نظام للحكم، وإصلاح أجهزة الدولة، وفتح مفوضيّات وقنصليّات ديبلوماسية وتجارية في الخارج، وإرسال بعثات علمية وزراعية وصناعية إلى الجامعات في مصر وأوروبا، وتأسيس المصانع والشركات التجارية، واستثمار موارد البلاد الطبيعيّة التي ستنهض باليمن، وترفع مستواها العلمي والاقتصادي والزراعي والعمراني. ولم أكن أتوقع بأنّ نصحي وإرشادي سيكون من أجل اقناع الإمام بإنشاء طريق أوميناء، أو عمارة مستشفى أو صيدلية، أو تزويد البيوت بأنابيب المياه للشرب، والتيار الكهربائي للاضاءة، والاذن للمواطنين بقراءة الصحف، واقتناء أجهزة الراديو لأن هذه الأمور حقوق بدائية طبيعية للبشر في عالم اليوم وليس هناك لا شعبٌ ولا دولة بغيرها، بل ولا شأن ولا علاقة لرئيس الدولة بها، والذي يشرف على التخطيط لها، وتنفيذها وتطويرها، وتحسينها، المصالح والمجالس البلديّة في كل قرية ومدينة.

وهل سيعقل زملائي في «جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية» وهي تجاهد لاستقلال الجزائر وسائر المغرب العربي بأنّني وصلت اليمن وتركت أعمالي في الجبهة وأتعبت نفسي من أجل أن أقنع الإمام بأن يسمح لليمنيين بشراء أجهزة الراديو، أو بإنشاء طريق معبدة لسيارة أو فتح صيدليّة توفر للمواطنين الدواء؟

قلت: على كلّ هذا هو واقع اليمن المرير، وأبناء اليمن يأملون أن تكون زيارتك فاتحة لمستقبل مزدهر، وفي إمكانك أن تنصح بهذا وذلك، ببناء المدرسة والمستشفى و بتأسيس مجلس للشورى و وضع نظام للحكم وإصلاح جهاز الدولة، وتبنّي المشاريع العمرانية.

قابل ولي العهد واعجب كلّ بالآخر:

وهكذا ظل يفتح ذهني بمحاضراته، وقابل ولي العهد وجلس معه جلسة طويلة، وأعجب كلّ منهما بالآخر، وكان يصل إلى مقرّه بدار الضيافة لزيارته، وخطب في جامع تعز بعد صلاة الجمعة مذكرا ناصحاً وكان تأثيره لدى المسؤولين والجماهير كبيرا.

أحمد فخري والسرير الأثري، والحوار اللّغوي:

وطلب الدكتور أحمد فخري من ولي العهد الاذن بسفره إلى «صنعاء» عن طريق «إب» لأنه يريد زيارة منطقة الآثار في «ظفار» بمنطقة «يريم» وأمرني «ولي العهد» بمرافقته، واصطحبنا على السيارة السيد الفضيل الورتلاني، والسيد حسين الويسي إلى قرية «السياني» حيث يمكن للسيارة أن تصل، ومنها سنمتطي الخيل والبغال المعدّة إلى «إب» ووقفنا في مسجد معاذ بن جبل في «الجند» ساعة؛ وكان الفضيل كلّما رأى خضرة أو ماء نزل من السيارة وتحدث ولاحظت أن الدكتور فخري كان يتضايق من كثرة هذه الوقفات في الطريق، ولم نصل «السياني» إلاّ قبيل الظهر فودّعنا السيدين، وامتطينا الخيل المعدة بأوامر نائب «إب» القاضي أحمد السياغي إلى حيث وجدناه في انتظارنا مع موكب استقبال كبير يُرَوِملون و يدقون الطبول مرحّبين، وكانت الشمس في كبد السماء تضرب بسياط أشعتها الحارة ظهورنا ورؤوسنا، وكانت «العمامة» تقي رأسي ضرباتها، أما الدكتور فخري فقد لسعت رأسه الأصلع بنيرانها، وما إن وصلنا إلى دار الضيافة إلا والدكتور في حالة تبرم وضيق شديدين، ولم يستطع أن يكمل الغداء على سفرة «النائب» المعدّة لهذه المناسبة كأنّ «ضربة شمس» قد أصابته، فاختصرنا الأكل وعبارات الترحيب والمجاملة وذهبت معه إلى غرفته الخاصّة المطلة على وادي إب الأخضر الجميل، وكان يئن و يرتعش، وما إن استلقى على السرير واستعمل حبّتين «أسبرو» من «شنطة» العلاجات التي قد استعدبها من «مصر» حتى بدأ يهذرم و يهذي بلهجته المصرية، ولم أكن أعرف منها إلا اليسير، وكنت أسمع كلمات وعبارات اللوم يصبها على رأس هذا «الفُضَيْل» ـــ هكذا نطقها بصيغة التصغير ـــ الذي ما إن يرى «طرطورماء» حتى يخلق منه نيلا وفراتاً وسيحونا وجيحونا! وكان ضخم الجثّة، قوي العضلات، شديد البنية، فما إن تحرّك على السرير الخشبي القديم ـــ وأظنه من بقايا أسرّة الأتراك ـــ يتلوّى من ألم الحمّى حتى انهارت قوائم السرير وسقط الدكتور أرضاً وهو يقول: ياخبر اسود! ياخبر زيّ بعضه! وساعدته على النهوض، والقعود على الكرسي، الخشبي الذي بجانب السرير ـــ وأظنه من عهد الأتراك أيضا ـــ فما إن قعد عليه بجسمه الثقيل المتخاذل المحموم حتى تحطم وتكسّر أوصالا ـــ وضحكت وضحك الدكتور وهو يقول: «وشر المصائب ما يضحك» ثم أردف: كل شيء عندكم أثريّ عتيق يستحقّ خزنه في دار الآثار! وجاء الفرّاش فساعدته على ترتيب مرتبة للدكتور

على أرض الغرفة المفروشة بالسجّاد الثمين. وحاولت ـــ بعد أن سمعته يشكو من عظامه ـــ أن احدّثه مواسيا: فقلت بلهجتي الصنعانية التي كنت أظن أنه سيفهمها: هل تحسّ يا دكتور أن عظامك مُقَطْقَطِة؟ قال: مأطأطة إيه؟ قلت: يعني مُتَاصَلِة.. قال: ودي أحسّ ما تحكي عربي يا أخي؟ قلت: هل تشعر أنك مُهَضْهَضْ؟ فحملق فيّ قائلا: أرجوك بلا هزار.. كلمني بالفصحى! قلت: أعني هل تحسّ برضوض في عظامك وتقطيع في أوصالك ومفاصلك؟ قال: أيوه اهو كده.. نعم.. نعم أحسّ بها مرضوضة رضاً ومجشوشة جشاً، ومطحونة طحنا. وخلط الأنين بالضحك! وجاء طبيب «إب» بعثه نائبها السياغي ولا أذكر اسمه الآن لكنه من فضلاء من عرفتهم لطفاً وكرما، وفي جعبته حبوب «اسبرين» و«كنين» ودهانات وشكره الدكتور لأن ما في جعبته أنفع، وأكثر طراوة.

سهرة ممتعة مع فخري العالم:

ولمّا أقبل المساء كان الدكتور فخري قد تماثل للشفاء بل شفي تماماً فأمضينا سهرة لطيفة وكأنّ ذلك الحوار اللّغوي المضحك الذي دار بيني و بينه قد هتك الحواجز الرسمية، فعلّمته الكثير من الألفاظ العرفية اليمنية، وعلّمني بعض التعابير العامية المصرية ووجدته عالماً أديبياً حفاظة ألمعياً ساخراً مطلعاً على تواريخ الأمم وآدابها.. ومما قال لي تلك الليلة: لماذا لا تصلّحون الطرقات حتى يستطيع الناس المشي فيها بسلام لماذا على الأقل لا تزيلون منها الأحجار رحمة بأظلاف وحوافر الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم، إن لم يكن رحمة بأقدام الحفاة من البشر؟ قلت: إن شاء الله يصلّح كل شيء قال: ياسيد أحمد كل شيء عندكم يحتاج إلى الإصلاح؛ اليمن تعبانة.. اليمن تعبانة؛ إنها كما قال عبدالعزيز الثعالبي: «جوهرة في يد فحّام» وضحك ثم قال: هل سمعت بقصة.. «يخلق واحد جديد أسهل»؟ قلت: لا..لا! قال: سمع أحد الظرفاء شخصاً يدعو الله بعد أن فرغ من صلاته و يقول: رب عافني في جسمي وفي عقلي، رب اشف عيني وأنفي وحلقي وأذني، وعاف ظهري و بطني و يدي ورجلي، وأزل عني وجع الكبد والكلى، ونجّني من آلام «الدوسنتاريا» يا أرحم الراحمين. فقال له الرجل الظريف: وهل ربنا «فاضي» حتى يظلّ يرقّع فيك؟ «يخلق شخصاً جديداً أسهل»! فضحكت، وقال: طوال الطريق وأنت تحدث «الفُضَيّل» ونطق بها مصغّرة ـــ عن المشاريع الخيالية التي ستقوم بها الحكومة هنا وهناك، فعرقلتموا ركبنا، ثم زوّدها نائب إب بتلك «الزفة» التي لا يستحقّها غير «السلطان عبدالحميد»! فأصبت بضربة الشمس!

أحمد فخري مع يهود «إب»:

كنّا في سنة ١٩٤٧م/١٣٦٦هـ ولمّا يهاجر اليهود تلك الهجرة الجماعية إلى «فلسطين»؛ وقرّر الدكتور فخري البقاء في «إب» للاستجمام ومشاهدة معالمها، وطلب مني في اليوم التالي الذهاب إلى «كنيسة» اليهود، وكم كانت دهشتي حين كلم الحبر الذي وجده فيها باللغة «العبرية»، وطلب منه «التوراة» المخطوطة، فأحضرها وذهب يقرأ آياتها بصوت مرتفع ولم يمض وقت قصير إلاّ والكنيسة تغص بعشرات اليهود يصغون خاشعين وما إن وقف حتى تهافتوا عليه يحدثونه، ويحاورونه بالعبرية، وأنا لا أفهم ما يقولون وقد جلبوا من بيوتهم الزبيب واللوز والمأكولات الطيبة، ثم كلمهم بالعربيّة: سأراكم

أو وفدا منكم مساءً بدار الضيافة بعد صلاة العشاء، وعندما وصلنا الدار قال لي: لقد توهموا أنني من يهود فلسطين أو ظنوا أني مبعوث «بن غوريون» إليهـم، يريدون أنْ يعرفوا المزيد عن دولة «اسرائيل» المرتقبة، ولا يريدون أن تكون أو أحد رجال الدولة حاضراً معي عندما يأتون لزيارتي، فدعنا نطلع على ما لديهم، إنّ اليهود خطرون ومتعاونون ومتواصلون، والعرب نائمون وكأنّي بفلسطين وقد ضاعت، وملكها اليهود، وتوافدوا عليها من جميع أنحاء العالم وهاجر حتى يهود اليمن إليها! قلتُ: هذا خيال؛ كيف يتركون اليمن ولهم فيها ألفا عام؟ قال: سترى! وفي المساء وصل لزيارته أربعة من اليهود، وجلس معهم ساعة و بعد أن تركوه حكى لي ما دار بينهم، وأنهم على صلة بالمنظمة اليهودية العالمية، و يساهمون بما يقدرون في تمو ينها، لأن ذلك من واجباتهم المقدسة لكي يُنشئوا «دولة اسرائيل»، وأنهم ينتظرون الإشارة من «بن غوريون» ليهاجروا غير مبالين بأموالهم و بيوتهم، ولا يخافون من أيّ مصير هناك! ثم قال: على الإمام وعلى حكومة اليمن مثلما على كل زعماء وملوك العرب والمسلمين وحكامهم أن يستيقظوا لما يُحاك و يدبر ضد فلسطين وإذا كان وعيُ التضحية، والشعور بالمسؤولية قد بلغ إلى هذا الحدّ بين يهود اليمن الجهّال الفقراء؛ فكيف بيهود مصر والشام والعراق وإيران! وكيف بيهود أوربا وروسيا وأمريكا!؟

يتقن ثماني لغات:

وعرفت تلك اللّيلة أن الدكتور أحمد فخري الأستاذ بجامعة فؤاد «القاهرة فيما بعد» ومدير دار الآثار المصرية، يتقن من اللغات القديمة إلى جانب «العبرية» «الحبشية» و«الهيروغليفية» و«اللا تينية» وأنه يتقن معرفة «الانجليزية»، و«الألمانية»، و«الفرنسية» قراءةً وكتابة؛ وكأحد أبنائها العلماء، بل و يكتب بها و يؤلّف أحسن مما يكتب و يؤلف بلغته العربية التي هو من أدبائها وكتّابها وخطبائها.

مع الشاعر العماد:

وفي اليوم التالي واصلنا السير إلى «المخادر»؛ ثم صعدنا «سمارة» وهبطنا إلى «يريم» وكان «عاملها» السيد العالم الظريف علي أبوطالب ووجدنا لديه السيد الأديب الراو ية الشاعر محمد العماد، الذي أمضينا معه سهرة لطيفة وهو لا يكاد يكف عن إنشاد الشعر وسرد الأقاصيص وكانت سيارة خاصّة قد وصلت من «صنعاء» لتقلّنا إليها، وعدل الدكتور فخري عن فكرة زيارة منطقة الآثار في «ظفار» وأجّلها إلى العودة من صنعاء واستصحبنا السيد الأديب العماد الذي ما كاد يعتلي السيارة وانطلقت بنا، حتى «داخ» وأدركه «الدوار» والغثيان، واندفع بلا اختيار يتهوّع و يستفرغ، واستنشده الدكتور شعرا فلم يستجب، وكأنه لايحفظ شيئا فقال الدكتور: أغنى عن الشعر الشعور!

فقلت: بالقيء من فوق «الموتور».

وضحكنا وتعاونت معه في نظم الأ بيات التالية نرتجلها شطرا شطراً ولفظة لفظة ونحن نضحك:

أيـن الـقـوافي يـاعـمـاد؟ ... في أيّ داهـيـة تمـور؟

أيـن الـفـصـاحـة والخـطـابـــ ... ة في المـســاء وفي الـبـكـور؟
أيــن المـــعـري والحــريــري ... والــزُّبـــيـــري والـــزّبــور؟
ذهــب الجــمــيــع فـلا خـيــال ... ولا بـــيــــان ولا شـــعـــور

وذهبت مع الدكتور نمرح ونمزح حتى وصلنا «ذمار» والسيّد العماد منطو، متدثّر، وكفّه وحافه على فمه ومناخره؛ يسلّط علينا نظرات الحنق المحتجّة على هذين اللّذين قد ألِفا ركوب «السيّارة» فلا يحسّان بالغثيان!

وفي «ذمار» قابلنا «عاملها» السـيّد العالم عبدالله الديلمي وأنزلنا في دار الحكومة، وحاول استضافتنا لكنّي أشرت بأن نواصل السير لتناول الغداء في «معبر» عند عاملها السيد محمد بن أحمد الوزير زوج أختي لكي أتمكّن من زيارتها وأختها وأولادها، فواصلنا السير وتخلّف السيد العماد في «ذمار» لأنه كره الركوب على السيارة وفضّل أن يستأجر في اليوم التالي «حمارا»!

وأمضينا ساعات ممتعة في «معبر» ثم واصلنا السير إلى «صنعاء» وقد وصلناها قبيل المغرب، وكان في استقبالنا السيّد حسين الكبسي مرحّباً في دار اعدّت لاستضافة الدكتور فخري والسيد الفضيل الورتلاني. وبعد بضعة أيام سافر الدكتور أحمد فخري إلى «مأرب» و«الجوف» ورافقه في رحلته العلمية، الأستاذ زيد بن علي عنان، أمّا أنا فقد انتظرت عودته، ووصول السيد الفضيل في «صنعاء».

الورتلاني في صنعاء:

بعد حوالي أسبوعين، وصل الورتلاني إلى «صنعاء» عن طريق الحديدة؛ وقد قوبل بالحفاوة حكومياً وشعبيا؛ وظلّت داره كأنها «خليّة النحل» لكثرة الزوّار من قبل العلماء، والوزراء والشباب، وجاء لزيارته حتى رئيس الوزراء القاضي عبدالله العمري، ورئيس الاستئناف العلامة السيد زيد ابن علي الديلمي، والوالد العلامة عبدالرحمن بن حسين الشامي، ووزير الخارجية القاضي محمد راغب بك. وناظر الأوقاف السيد العلاّمة قاسم بن حسين العزي «أبوطالب» والسيد العلامة المؤرخ محمد بن محمد زباره، وأمثالهـم ممّن يُزارون، ولا يزورون في العادة.. وكانت تدور بينهم مناقشات علمية وأدبية رائعة؛ ولا ينسى أن يذكّرهم بواجبهم الديني ازاء ما يخافه من أخطار تحدق باليمن بعد وفاة الإمام يحيى إذا لم يتفقوا على خطّة جامعة حكيمة تدفع عن اليمن شرور الانقسامات والفتن، وكانوا يشاركونه هذه المخاوف، وخطب يوم «الجمعة» بعد صلاتها من على منبر الجامع الكبير، وبحضور الإمام يحيى، وكان من عادته أن يفسّر ما يتلوه إمام الصلاة من آيات، وكانت ذلك اليوم سورة «تبّت يدا أبي لهب وتب» فأبدع أيّما ابداع في تفسيرها، واستحضر من الآيات والأحاديث والأخبار المناسبة ما يدل على تبحّره، وسعة اطلاعه، وفنّد الحرص على المال، وبيّن سياسته في الإسلام، وسفّه التباهي بالأحساب والأنساب، وذكّر بقول الله سبحانه [إن أكرمكم عند الله أتقاكم]؛ وجلجل صوته بالحديث الشريف «يابني هاشم، يابني عبدالمطلب، يافاطمة بنت محمد: لا يأتيني الناسُ بأعمالهم وتأتوني بأحسابكم وأنسابكم، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» ـــ أو كما قال ـــ صلى الله عليه وسلم،

وأوضح كيف أن أبا لهب؛ وهو عمّ الرسول، حين ضلّ وزاغ عن طريق الحق استحق غضب الله، وتصويره مع زوجته وهي من سيّدات قريش بهذه الصورة البشعة..! وكانت خطبة مشقشقة تلقفها الجميع؛ وأوّلها كلُّ إنسان كما يهوى، وظلّت عدّة أسابيع حديث مجالس صنعاء، ومدارسها ومساجدها.

جلساته مع الإمام يحيى وتأسيس الشركة..

وجلس مع الإمام يحيى عدّة جلسات، واستمع إلى نصائحه، وطلب منه أن يكتب تقريراً يقترح فيه ما يراه ليكون دراسته وتنفيذه، وقد كتب تقريرين مسهَبَين نقلتهما بخطّي، أحدهما سياسي، والآخر زراعي، وقدمهما إلى الإمام، و بعثت بصورة منهما إلى «ولي العهد».. وأذن الإمام بتأسيس «الشركة اليمانية للتجارة والصناعة والزراعة والنقل»، وأصدر مرسوما حكوميا بتشكيلها، والموافقة على قانونها، ومنحها امتيازاً مؤقتاً في «الغاز» و«السكر» لمدة ثلاث سنوات، ومع أنّ الشركة يمنيّة محضة فقد استثنى المرسوم الحاج محمد سالم المصري ــ الذي انتدب الفضيل إلى اليمن ــ إذا ما رغب في أن يشارك فيها. وقد اشتغلتُ في فترة التأسيس سكرتيراً لهذه الشركة وحضرت الجلسات التي كان يُحاضر فيها الأستاذ الفضيل تجار صنعاء؛ أمثال آل السنيدار، وعسلان، وغمضان، واليماني، والثور، لاقناعهم بالمساهمة فيها، ولاقى من جراء ذلك عناءً وجهدا، ولولا قوّة منطقه، وسحر بيانه، وثقة الناس بعلمه ودينه وإخلاصه لما اقتنع أحد بتشكيلها ورافقته إلى «الحديدة» لمدّة اسبوع لاقناع تجارها بالمشاركة والمساهمة بأموالهم فيها.. وكان خلال هذا النشاط التجاري يتصل بالعلماء والوزراء والساسة والمثقفين، و يبحث معهم قضية اليمن ومستقبلها، ولن أنسى ما قاله مرّة بحضور عبدالله الوزير وحسين الكبسي، وأحمد الجرافي وآخرين وهو يحذّر و ينصح: اتّحدوا أيها العلماء وثوروا، قبل أن يتحد و يثور المنتقمون»! ومن لمحاته الغريبة، وشطحاته التي تحققت، وكأنّه كان ينظر إلى المستقبل بمنظار الغيب قوله لشخصيّة يمنيّة كبيرة زارها الفضيل؛ وكنتُ كالعادة رفيقه وصاحبه، وقد قابلنا ذلك الكبير في «مفرج الشاذروان» وكانت النوافير تتراقص أمواجها، وقد رصفت على جوانب البركة «أجوال» وأحواض الزهور الشتائية، التي لا توجد في اليمن بل تطلب من «فرنسا» وكنّا في فصل الشتاء، و بعد حديث طويل تطرّق الحديث إلى مستقبل اليمن؛ والفُضيل يحاول أن يقنعه بالموافقة على وضع ميثاق وطني يرتضيه الجميع أساسا لنظام الحكم، لانقاذ اليمن مما يخشاه من يحبّها من أبنائها واخوانهم أن تقع فيه من شرور وفتن؛ فتفقد استقلالها ودينها.. الخ فقال ذلك المسؤول الكبير: أنت يا أستاذ تبالغ في تخوّفاتك وتغرق في تصوّراتك، وتظن أن اليمن مثل الجزائر أو العراق أو تركيا.. وكأنك قد تأثرت بأقوال بعض الشباب، أو كلام من في «عدن» كالزّبيري ونعمان، ونشراتهم وجرائدهم.. وكل ذلك باطل؛ فاليمن طائعة خاضعة للإمام يحيى وإذا وقع شيء، أو مات ولا سمح الله، فلن يحدث شيء من تصوّراتك؛ سَيَطلعُ ولي العهد أحمد من «تعز» و يستلم الأمر بسلام! وهذا هو الكلام الواقعي، وكلّ ما تسمعه غير هذا باطل وخيال..

نظرة بمنظار الغيب:

وعندما أنهى كلامه متشاعماً! قال الأستاذ الفضيل: إنك مسكين يا أخي؛ أقسم أنني أخشى أن يهاجمك الثوّار المتمتمون إلى مفرجك هذا، ومحاسيبك وأولادك حتى على «زهور الشتاء هذه» التي تجلبها إلى صنعاء من «روما» أو من «باريس» اللهم عذراً اللهم قد بلغت! واستأذن وقمتُ معه.. و ياللقدر لقد دارت الأيام دورتها وسيق ذلك المسؤول الكبير ـــ رغم علمه وفضله وشيخوخته ـــ إلى السجن، ونُهبت داره، وصودرت أملاكه بعد أربعة عشر عاماً؛ كما أعدم أحد أبنائه و بعض أقاربه وأصدقائه، وغارَ «الشاذروان» وماتت زهور الشتاء والصيف!

اعجاب فخري بآثار اليمن:

وعاد الدكتور أحمد فخري من «مأرب» بانطباعات رائعة عما شاهده من حضارة اليمن وآثارها، ولاسيما في فنّ بناء السدود، وعلم تصريف المياه، وأعجب بالذكاء الفطري المنتشر بين سكان «مأرب» و«الجوف» وأخلاقهم العربيّة الأصيلة، وفصاحة ألسنتهم ورقّة أحاسيسهم؛ ولكنه كان شديد الاستياء من بعض الموظفين، والرسميين الذين يعبثون بالآثار، ويحطمون بعض الأعمدة والنقوش ليزّينوا بها بناياتهم الحديثة، وقال لي إنه حاول أن يلوم أحدهم، وأن يبصّره، و يلفت نظره، ولكنه أجاب عليه ساخراً: «الحيّ أفضلُ من الميت»! وأنه قد قال له: «لو كنت حيّا شريفا لما تزينت بأكفان الموتى»! ثم قال: «الحمد لله أن معظم آثار اليمن مدفونة تحت التراب وأطباق الثرى» وقد ألف كتاباً نفيسا في ثلاثة أسفار، و باللغة الانكليزية عن مأرب وسدها وآثارها و يعد من أفضل الكتب وأحسنها في بابه.

حفلة تكريم الورتلاني:

وأقامت «الشركة» في ساحة «المدرسة الثانوية» حفلة تكريم للأستاذ السيّد الفضيل الورتلاني، والدكتور أحمد فخري، حضرها بعض الأمراء والوزراء والعلماء والوجهاء والأدباء وخطب فيها القاضي الأديب عبدالله عبدالوهاب الشماحي، والرئيس جمال جميل العراقي والسيّد حسين الكبسي، والدكتور أحمد فخري وألقيتُ فيها قصيدة طويلة؛ ضاعت بين ما ضاع من أوراقي ومطلعها: «أفق يا فؤادي وانتعش بالبشائر»، ومنها:

بني وطني؛ هذا الفضيل أتت به	إلى سفح صنعاء معجزات المقادر
أتى؛ لا ليحظى بالمديح، وإنما	ليهدي أرباب النهى والبصائر

ولقد رأيت الفضيل يهتز و يطربُ عندما قلتُ:

ولو علموا ما يبتغي؛ وهو جلّ أن	يقال، و يسمى لاهتدى كلُّ حائر
ولانتعشت بشرا مُنىي كل ثائر	ولارتقبت نصرا جبال الجزائر؛
وصافح حُرٌ في «الرباط» شقيقه	«ببغداد»، أو في «مصر» أو في «المعافر»!

ومـا بـيـنـنـا مـن بـعـد أوشاج أصـلـنـا وإيـمـانـنـا ؛ إلاّ اتحـاد المـصـائـر

وفي تلك الأثناء وصلت بعثة امريكية ــ مرسلة من قبل الأمير سيف الإسلام عبدالله للتفاوض حول التنقيب عن البترول والكشف عن المعادن اليمنيّة، واستصحبت معها محطة إذاعة صغيرة، احتفلت الحكومة بافتتاحها رسمياً على أن تذيع في الأسبوع مرة ليلة كلّ جمعة، كما أنه كان انتخاب أربعين تلميذاً وارسلوا بعثة للدراسة في لبنان، وعُيّن لها مشرفان فاضلان؛ هما السيد يحيى المضواحي والأستاذ علي الآنسي، كما انتخبوا بعثة تذهب إلى مصر لتتمرن على الإدارة، وتدرس اللغة الانكليزية، وكانت مكونة من السادة أحمد بن علي زبارة، وعبدالرحمن عبدالصمد، واسماعيل الجرافي ومحمد علي ابراهيم ومحمد عبدالرحمن الشامي، على أن يكونوا نواة لجهاز وزارة الخارجية والسلك الديبلوماسي.

واغتنم الأستاذ الفضيل والدكتور فخري عودة الطائرة التي وصلت إلى صنعاء بالبعثة الأمريكية من القاهرة فعادا عليها، لكي يعرضا على الحاج محمد سالم المصري قانون «الشركة اليمانية للتجارة والصناعة والزراعة والنقل» ولاختيار خبراء ومستشارين، وموظفين فنيّين، ومحاسبين ماليين، وأقبل شهر رمضان سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م فركبت إحدى سيّارات «ولي العهد» ومضيت عن طريق حمام علي، وقابلت في «الحديدة» واليها القاضي حسين الحلالي واجتزت في اليوم التالي مدينة «زبيد» إلى «تعز» التي وصلتها ليلة عيد الفطر؛ ورحّب بي ولي العهد مسرورا.

١٧ ـ قصة الميثاق الوطني المقدس:

قلت إن الفضيل الورتلاني هو مهندس ثورة الدستور وأنه الذي استطاع أن يوحّد العناصر الوطنية والقوى اليمنيّة من علماء وأدباء وزعماء وعسكريين وتجّار ووزراء ومعارضين، وأن يجمع بينهم رغم اختلافاتهم في إطار الميثاق الوطنيّ المقدس وهنا قد يتساءل البعض: من هو مؤلف الميثاق؟ وكيف اطّلعت عليه ومتى؟ وهل حدثت عنه صاحبي ولي العهد أحمد بعد سفر الورتلاني والدكتور فخري إلى القاهرة؟

وهذه اسئلة وجيهة؛ ولا شك أن قفزات تذكّراتي وحرصي على أن أربط بين حلقات سلسلة الحدث الواحد وإن تباعدت فتراتها الزمنية قد شوش التنسيق التاريخي؛ وقد يسبّب إرباكا لمن لم يقرأ الكتاب كاملاً، وقد يزعج أولئك الذين لن يقرؤه إلاّ لتسقط بعض الأحداث أو العثرات أو ما يؤيّد وجهات نظر سبق أن أدلوا بها تخميناً ودون تمحيص! ولكنني قد كرّرت القول اني لن أكون في سرد هذه «الذكريات» مؤرخا بل قاصّاً، وها أنا اعترف بأن الكثير لن يجدوا فيها الفائدة التاريخيّة بالمفهوم المنهجيّ عند بعض خرّيجي الجامعات!

الدعوة على بصيرة:

ولكن؛ وللأسف؛ فإنّ «لكن» هذه المرّة، قد وردت من أجل «التاريخ»، وإثبات الحقيقة لأنني أريد أن أقول وبكلّ شجاعة وصدق اني لو كنتُ قد اطلعتُ على الميثاق، لرأيت من واجبي

التحدّث عنه مع ولي العهد، وأن ازيّنه له إن كنتُ قد رضيته لنفسي ولأ بناء وطني، أو أحذّره منه إن كنت قد أنكرته .! لأنّي قد آمنت وقبل وصول أستاذي الورتلاني بسياسة الصراحة والوضوح ــ ولاسيما مع الأصدقاء ــ واتخذت منها وسيلة للوصول إلى ما أريد مقتنعا بأن الخط المستقيم هو أقرب الطرق بين نقطتين .. وجاء أستاذي الورتلاني فرأيته قولاً وعملاً، ينتهج نفس السبيل، وكثيرا ما كان يتلو عليّ قول الله سبحانه : [قل هذه سبيلي؛ أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني من المؤمنين] ممجدا الصدق والصراحة وهذه «الأنانية» السامية؛ أنانية الدّعاة المجاهدين . «أنا ومن اتبعني» .

وإذاً فلم أتحدّث مع «ولي العهد» عن الميثاق الوطني المقدّس، ولا أستطيع الآن أن أجزم بأنه لم يكن قد كتب؛ بل لأنّني لم أكن قد اطلعت عليه، أو على الأصح قرأت مسوّدته لأنه لم يُطبع إلاّ بعد تحوير وتطوير وتبديل وتغيير؛ وأنا حين أثبت جهلي، لا أنفي علم غيري واطلاعه على مسوّدته الأولى قبلي؛ إذا كان «الورتلاني» لم يزر اليمن تحت ستار إنشاء شركة للتجارة والصناعة والزراعة والنقل إلاّ بعد أن اتفق سياسياً مع حسين الكبسي وعبدالله بن علي الوزير وبعض اخوانهم في مصر، ثم بعد ذلك مع الزبيري ونعمان في «عدن» على القيام بحركة أو انقلاب في اليمن وبمعرفة واطلاع ومباركة زعيم الاخوان المسلمين في مصر الشيخ حسن البنا وذلك مالا أستطيع أن أثبته ولا أنفيه في حدود معرفتي أثناء زيارة السيد الفضيل الورتلاني الأولى لليمن لأنّني لم أطلع عليه، ولا نقلتُه بخطي، ولا عرفت أن مجموعة من علماء وأدباء اليمن قد ارتضوه ووافقوا عليه وكوّنوا له حزباً إلا حين عاد السيد الفضيل من مصر والشام والعراق إلى اليمن في زيارته الثانية حيث لم يغادرها إلا بعد قيام ثورة الدستور وقبيل فشلها ببضعة أيام وبمعيّة السيد عبدالله بن علي الوزير والأستاذ القاضي محمد محمود الزبيري، في ربيع الآخر ١٣٦٧ هـ/مايو ١٩٤٨ م .

وإذاً فكيف عرفتُ الميثاق :

وقبل أن أذكر كيف عرفت الميثاق أودّ أن اسجّل ماذا دار بيني وبين ولي العهد أحمد ليلة وصولي إليه في آخر ليالي رمضان سنة ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧ م لقد أوضحت له تضعضع الأوضاع وسوءها في صنعاء، وأن من المستحسن تواجده بجانب الإمام الذي أصبح غير قادر على مزاولة الأعمال كما يجب؛ لشيخوخته وأمراضه ولأن ليس بين اخوته من له قدرته؛ أو على الأقل ذلك ما يقوله الناس؛ وذكّرته بقول الشريف الضمين فيه :

الله يحفظ علينا سيدنا	سيف السيوف الذي ما حّد كماه
«أحمد» إذا غابوا اخوانه كفى	وإن غاب ما حّد من اخوانه كفاه

قال : وكيف الأخ علي الوزير وماذا يعمل بصنعاء؟

ــ قلت : إنه بخير وقد زرتُه في أواخر شعبان وأخبرته أنّني سأتوجه إلى مقامكم فحمّلني التحية والسلام وقال لي أن أبلغكم سوء الأحوال وفساد الأوضاع، واستعداده للتعاون معكم فيما فيه صالح اليمن إلى أبعد الحدود؛ لأنّه يرى ذلك من واجباته الدينية والأخوية .

رغبة التفاهم بين علي الوزير وولي العهد:

وكان الأمير السيد علي بن عبدالله الوزير قد قال لي ذلك فعلا بل إنه قال: قل لسيف الإسلام أحمد ابن الإمام ـــولم ينطق بلفظة ولي العهدـــ ان الأوضاع مترديه إلى أبعد الحدود، ونخشى أن يحصل مالا يُحمد عقباه، وليس هناك من ينقذ الموقف غيره وغيري إذا تعاونّا باخلاص وصدق. وقل له اني مستعد لهذا التعاون إذا أراد، وكتبَ إليّ، والتقينا.. وبالطبع لم انقل كلّ ما قاله الأمير علي الوزير حرفيا، ولكني لم اقصر في نقل المعنى المرغّب والمحبّب والمشجّع على التقارب بين وجهات نظر تلك الشخصيتين البارزتين المحبّبتين إلى طبيعتي ومشاعري يومذاك.

وكنت قد تعرفت على الأمير علي الوزير عندما كان يزوره السيد الفضيل الورتلاني ومع اني كنت لا أزال في الرابعة والعشرين من عمري، ومع أن الأمير علي الوزير كان مشهوراً بأنفته وتشامخه، وكثرة صمته، مما يجعل بعض الناس يتهمونه بالكبرياء، فقد أولاني انتباها خاصّاً وكان يقوم لي إذا زرته، و يُقعدني بجانبه، ويحدثني بآرائه، ويحاورني في مسائل العلم والفقه والأدب والتاريخ، وكأنّي لست كأحد أبنائه، بل زميلاً من زملائه وقد اكتشفت ـــأو على الأصحّ عرفتُـــ أنه لم يكن متعالياً ولا متشامخاً ولا أنانياً، أو متكبراً، كما يتوهمون. بل كان روحانياً متصوّفاً؛ إذا لم يجد في مجلسه من لا يستحقّ الحضور معه بحسّه وشعوره وفكره، سبح بها في عوالم أخرى؛ مفكراً أو مسبحاً ومهللاً، أو مستغفراً، أو متذكراً.

مشايخ اليمن واغتيال علي الوزير:

هل تآمر مشايخ «تعز» على الأمير علي الوزير؟

وهنا لابد أن اسجّل للعبرة والتاريخ أيضاً ما حدث لي في صنعاء وفي رمضان قُبيل مغادرتي لها إلى «تعز» فقد كنت في مسجد «حنظل» مع بعض الأصدقاء، والشيخ الجليل عبدالوهاب نعمان، وكان الأمير علي الوزير يقرأ في مصحفه في الصف الأول من المسجد، وأنا والشيخ عبدالوهاب و بعض الأصدقاء في مؤخرة المسجد نتحدث، وننتظر إقامة صلاة العصر، وكنتُ قد عرفت رقّة حال الشيخ عبدالوهاب، وهو ابن العز والجاه، إثر نكبته مع بعض مشايخ لواء تعز أيام ولاية الأمير علي الوزير عليها، وقد خُرِّبت بعض دورهم، ونهبت بعض ممتلكاتهم وسيق الشيخ عبدالوهاب نعمان مع رفاقه من مشايخ لواء تعز إلى سجن صنعاء تحت حراسة جند يرأسهم القاضي محمود الزبيري والد الشاعر محمد ابن محمود الزبيري حيث أمضوا في سجن غمدان بضع سنين ثم أُخرجوا من السجن، وأُمر الشيخ عبدالوهاب بالبقاء في صنعاء وتقلّد عدة مناصب. وكانت التهمة التي وجّهت إليه وإلى زملائه المؤامرة على اغتيال أمير لواء تعز السيد علي بن عبدالله الوزير، والاتصال بالانكليز في عدن عن طريق سلطان «لحج» السلطان عبدالكريم لانضمام لواء تعز إلى «المحميات البريطانية» فقلت للشيخ عبدالوهاب: ها قد تعاقبت السنون وما فات مات، وأصبحت مع الأمير علي الوزير صديقين حميمين، وعُزل من الإمارة فأرجوك أن تحدثنا عن التهمة التي سمعناها من أنك مع بعض المشايخ تآمرتم على اغتياله وتسليم

لواء تعز أو ادخاله تحت الحماية البريطانية .

عبدالوهاب نعمان ينكر التآمر:

فأنكر الشيخ وادعى أن كل ذلك كان محض وشايات ، وأنه ما فكر ولا تآمر على اغتيال علي الوزير ولا كاتب ولا وافق على إدخال لواء تعز تحت حماية الانكليز!

وصلّينا العصر وذهب كلّ في سبيله وسافرتُ إلى «تعز» ولقيت ولي العهد ليلة العيد وحكيت له ما حكيت عن أحوال «صنعاء» ، وعن رسالة علي الوزير الشفوية ، ورأيته أريحيّ الطبع ؛ فأردت اغتنام الفرصة لكي أنفع صديقي الكريم الشيخ عبدالوهاب نعمان ، فحكيتُ لولي العهد ما دار بيني و بين الشيخ عبدالوهاب ، وأردفت: وكأنّ حالته رقيقة الآن؛ وأنتم تعلمون وتعرفون أريحيّته ، وتكاليفه ، فلو ساعدتموه لكانت مساعدتكم في مكانها . . وكنت أعلم ــ كما يعلم غيري ــ ما بين سيف الإسلام أحمد ابن الإمام يحيى و بين الأمير علي الوزير من منافسة وخصام . وأظنّ أن «ولي العهد» سيسرّ على الأقل حين يعيد «عبدالوهاب نعمان» تبعة ما حدث له ولزملائه على «علي الوزير» وأنه قد تعمّد ذلك ظلما وعدوانا ! ولكن ما حدث كان غير ما ظننتُ ؛ فقد قال : أو أقسم الشيخ انه لم يتآمر على الصنو علي الوزير ــ ولم يقل الأمير ــ ولا دبّر وخطط لقتله مع أصحابه ؟

ــ قلت : نعم لقد أقسم أنه لم يفكر ولم يتآمر على اغتيال علي الوزير.

ــ قال : عجيب ! كيف يجرؤ علي ذلك ؟ وهبّ واقفا إلى خزانةٍ ، وأخرج منها حقيبة سوداء أخرج منها أوراقاً قرأتُ في صحيفة من صحفها وثيقة قال إنها بخط الشيخ عبدلوهاب نعمان ، وتوقيعه المعروف و بجانبه توقيعات مشايخ آخرين يتفقون فيها على اغتيال الأمير علي الوزير، ومعها خطابات تدينهم أيضاً بالا تصال بسلطان لحج ليطلب لهم الحماية البريطانية .

و وجمت ؛ وابتسم ؛ وقال : بعض النّاس لا يُصدّقون ؛ إنهم يكذبون بسهولة كما يأكلون و يشربون بل كما يتنفّسون .

وحرّر برقية إلى وكيله بصنعاء بأن يسلم للشيخ عبدالوهاب خمسمائة ريال وأنا لا أذكر هذا منددًا بما عمله الشيخ عبدالوهاب نعمان وزملاؤه وأهل بيته ، ولا مبرراً لما نزل عليه وعلى زملائه من نهب وهتك وسجن ، ولا مُدينا لتلك الوثائق ، ولا مكذّباً لها ، فليس ذلك من شأني ولا يخصّني ، وقد ذهب الجميع ، واستُشهِد كل من الشيخ عبدالوهاب نعمان والأمير علي الوزير في ساحة «حورة» جوار جامع «حجة» بأمر «ولي العهد أحمد» بعد أن أصبح الإمام الناصر لدين الله أحمد سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤٨م وعند الله تجتمع الخصوم .

لكنّي قد أعجبت بصراحة ووضوح ولي العهد أحمد وثقته بنفسه ، وتمييزه وتقديره حتى لخصومه ومنافسيه .

وإذاً ؛ فلم أتحدث تلك الليلة مع ولي العهد عن الميثاق ؛ لأنني لم أطلع عليه بعدُ ؛ ولم يتحدث بتفاصيله السيد الورتلاني لا إليّ ولا إلى أحد بحضوري أثناء زيارته الأولى لليمن ؛ وكانت أحاديثه

ومحاضراته تقتصر على ضرورة التقاء اليمنيين المخلصين على فكرة وضع ميثاق وطني لا يبايعون أيّ إمام إلاّ إذا تعهد بالتقيّد به وتنفيذه، وذلك ماكنا نصبو إليه ونتمنّاه، قبل وصول الورتلاني؛ فلما جاء وناشد به، ودعا أهل الحل والعقد إليه وجدته يلتقي مع ما أتمناه واعتقده دينا، وما أتطلبه كإنسان يريد لنفسه ولمن يعيش معه، الأمن والسعادة والكرامة.

كيف عرفت الميثاق:

أما كيف عرفت «الميثاق» ومتى قرأته مكتوباً في مسوّدته الأولى بخط أحد المصريين فلذلك قصّة طريفة إذْ أنّه لما عاد الأستاذ الفضيل الورتلاني إلى «تعز» في زيارته الثانية لليمن، وأظن أن ذلك قد كان في شهر القعدة سنة ١٣٦٦ هـ/ سبتمبر سنة ١٩٤٧م أمرني ولي العهد بأن أذهب معه إلى صنعاء لمرافقته ومساعدته على تأسيس الشركة التجارية اليمنية؛ وكان قد أوصل معه بعض الخبراء والفنيين واستأجرت الشركة دارا في «الميدان» اتخذت منه مقرّاً، وكان افتتاح الشركة اليمانية رسمياً بحفلة كبيرة حضرها بعض الأمراء ورئيس الوزراء القاضي عبدالله العمري، ولازمت الفضيل ملازمة الظل، وكان يفسّر لي صباح كلّ يوم آية من القرآن، قبل أن نذهب للعمل في الشركة، أو «للدورة» أو لزيارة بعض المعاهد أو وجهاء صنعاء، ولا أفارقه إلاّ بعد صلاة العشاء. وذات يوم وكنتُ معه على انفراد قال: لو مات يحيى فجأة ماذا سيحدث؟ قلت: سيجتمع أهل الحلّ والعقد ويختارون إماما جديداً. قال: لاشك أنّ فتنة عارمة ستكتسح اليمن. قلت: لكن في إمكاننا تدارك الأمر. قال: وماذا ستعملون؟ قلت: أنا شخصيّاً سأتصّل بمن أعرف من العلماء والأدباء والضبّاط والأمراء، وإذا كان لنا قيمة عند الشعب ولدى الأمة فسنستطيع أن نسيطر على الموقف في اللحظات الأولى، ثم حاولتُ أن ألطف له ما سبق أن قالهُ لهُ ذلك المسؤول الكبير عندما قابله في مفرج «الشاذروان» وأردفت: ان الاخوان في «عدن» يهوّلون على أنفسهم و يتخوّفون أكثر من اللازم لأنهم لا يعرفون الشعب اليمني حقّ المعرفة! وجاء زائر فغيّرنا مجرى الحديث! و بعد يومين فتح عليّ الموضوع من جديد وقال: لو وجدت حركة سياسية داخل اليمن هل ستؤيّدها؟ قلت: تأييدي يتوقف على طبيعة هذه الحركة، وعلى نوعيّة الرجال الذين يريدون القيام بهذه الحركة. قال: ومن تقصد بالنوعية؟ قلت: إذا كانوا من رجال الحلّ والعقد المعروفين فسأؤيدها. قال: أمثال من؟ قلت: عبدالله بن أحمد الوزير وحسين الكبسي، وعلي بن حمود، وحسين عبدالقادر وأحمد الجرافي وحسين الحلالي، وعبدالله العمري، وعبدالرحمن الشامي وعلي الوزير وعبدالرحمن الارياني ومحيى الدين العنسي، وأحمد الحورش وأحمد المطاع وعبدالوهاب نعمان ومحمد أحمد باشا وزيد الموشكي وأمير الجيش وضباطه وغيرهم من أهل الحلّ والعقد الذين يمكن أن يأتمر الشعب بأمرهم، و يصغى مشايخ القبائل إلى ما يقولونه ويجمعون عليه!

فابتسم وقال: فإذا كان لهذه الحركة مؤسسة، وتضمّ معظم هؤلاء الرجال.. هل ستنضم إليهم، وتلتزم بما به يلتزمون؟

قلت: إن كنتَ قد عرفتني فلن تحتاج إلى جواب، وإن كنتَ متأثراً بما قد قال لك عنّي بعض الاخوان في عدن فلماذا تسألني؟ واندفعتُ قائلاً: قد أكون ضد هذه اللعبة التي يمارسها الاخوان في

عدن وتحت حماية الانكليز؛ و يغرّرون بها بعض الشباب، ولا عمل لهم إلاّ صياغة المنشورات و بثّها بين الناس فتسبّب البلبلة، وحبس الأ برياء، أما إذا كانت حركة هادفة قويّة تدعو إلى الاصلاح وجمع كلمة الأمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها من ذكرت وأضرابهم فسأو يّدها ولا يمكن أن أكون ضدها، ثم قلت بحدة الشباب: اضمن لي اتفاق هؤلاء واتحادهم في حزب وجمع كلمتهم على ميثاق وطني، وسأضمن لك إصلاح الوضع والاطمئنان إلى مستقبل البلاد وأمنها واستقرارها وازدهارها.

البنّا اطلع على الميثاق:

كان الوقت بعد الظهر، و بعد أن فرغنا من تناول الغداء في غرفته بدار الضيافة؛ وقام إلى الحمام.. ولتأثري بما قاله وبما أجبت عليه، وتقديري للموقف ورهبته، خشيت أن يكون هناك من يستمع أو يصغي للحديث، فما إن خرج الأستاذ من الغرفة حتى تلفتّ يمينا وشمالا، و بحركة لاشعورية قمتُ افتش وراء الستائر، وتحت السرير، خشية أن يكون أحدٌ هناك! ولما عاد الأستاذ أخرج من جيبه كرّاسا عنوانه «الميثاق الوطني المقدس» في مسوّدته الأ ولى قبل التعديلات التي أجريت عليه، والمواد التي اضيفت إليه، ولكنها تتضمن أهم المواد التي سيبايع بموجبها «الإمام الدستوري» الذي سيختاره أهل الحل والعقد بعد وفاة الإمام يحيى حميد الدين. وقال لي: قد أجمع على هذا الميثاق معظم رجال اليمن، ممن ذكرت أسماءهم ومّمن لم تذكر ولم يبق إلاّ أنت؛ وها هو اسمك ضمن أعضاء مجلس الشورى، و وظيفتك التي قلت لهم إنه لا يصلح لها سواك «سكرتير مجلس الوزراء».

دهشت واندهلت؛ وقلت: لا تهمّني «الوظيفة».. ولكن اعطني الميثاق أقرؤه وأتأمله، وإذا وافقتُ عليه فسآتيك به غداً مكتوباً بخطي، قال: كان الاخوان في «عدن» يقصد الز بيري ونعمان والبراق.. قد حذّروني منك ومن إخلاصك لولي العهد وأنك لا تكتم عنه شيئاً، ولكنّ قد أخبرتهم عند مروري من عدن هذه المرّة بأني لم أجد في اليمن من هو أكثر منك اخلاصاً ولا أتقن عملا؛ وقلت لهم إني سأطلعك على الميثاق تحت مسؤوليّتي، ثم أخبرني بأن الشيخ حسن البنا قد اطلع على الميثاق وكذلك بعض زعماء المسلمين في مصر والشام والعراق، وأنهم سيؤيدون هذه الدعوة و يساعدونها، وكان التعاهدُ على أساس أن لا يُعلن المؤتمرون عن أنفسهم، إلاّ بعد وفاة الإمام يحيى، وكان اسم الإمام الذي سيبايع غير مذكور ولا يعلم أحدٌ من سيكون، وسلمني الميثاق ودرسته وجئت به في اليوم التالي موافقا عليه ومكتوباً بخطّي، ومنذ ذلك الحين، ذي الحجة سنة ١٣٦٦ هـ/ اكتو بر سنة ١٩٤٧م بدأت أعمل ضمن تجمّع سياسي يضم عبدالله الوزير، وحسين الكبسي ومحمد بن حسين عبدالقادر والرئيس جمال العراقي وعزيز يعني وأحمد المطاع، وابراهيم الحضراني ومحمد الوريث، وزيد الموشكي، وعبدالرحمن الارياني، وكثيراً من العلماء والمشايخ والضباط؛ ضمن خلايا؛ ولكل خليّة ضابط اتصال. وقد نقلتُ الميثاق بخطي عدّة مرات، إذ قد كانت تعنّ لبعض العلماء الذين يقرؤنه، و يوافقون عليه بعض الآراء أو الاعتراضات فيضاف ما يحسن أن يضاف، أو يفسّر ما كان غامضاً، ولم يكمل على صورته التي نشر بها إلاّ في شهر محرّم سنة ١٣٦٧ هـ/ الموافق نوفمبر سنة ١٩٤٧؛ أي قبل ثورة الدستور

بشهرين أو ثلاثة أشهر، وكان بعض ما سأتعرض لذكره في الفصول القادمة حول الميثاق الوطني من التغيير والتبديل والحوار حول اختيار الإمام واختلاف وجهات النظر، وأن لا علاقة للميثاق باغتيال الإمام يحيى، وأن ليس كلّ من وافق عليه وسلّم بمبادئه كان يرى أن عبدالله الوزير هو الإمام المختار! ولكن الجميع قد اتفقوا على أن لا يبايعوا إماماً إلاّ إذا التزم بتنفيذ مافي ذلك الميثاق وعاهد الله عليه.

١٨- حزب الدستور:

أما وقد وصلتُ في «تذكراتي» إلى هذا الحدّ، ولم يبق إلاّ أن أتحدّث عن الثورة وأذكر دوافع الاستعجال بها، وارتطامها في هاوية الفشل؛ فلعله يجمل بي أن أذكر ما لم يُشر إليه أحد قبلي فيما أعلم لا في مقال ولا في كتاب! وإن كان معروفاً متداولاً، وأن أتحدّث بإيجاز عن حَدَث لم اسمع ولم أقرأ عنه بيانا مع كثرة المتحدّثين والكتّاب ــ هذه الأيام ــ عن ثورة سنة ١٩٤٨م ــ ١٣٦٧هـ مع أن هذا الحدث كان من حوافزها ودوافعها وحداتها، وكان له من الأثر في إشعال نارها، وفي الدفاع عنها أكثر مما لحزب الأحرار أو الجمعية اليمنية الكبرى و«صوت اليمن» في عدن؛ ولست أجد عذرا ولا سببا يبرر ذلك الصّمت، ولا أدري لماذا لا يتحدّث عنه الكتاب؛ الصّادقون منهم والمزايدون، والمتواضعون والمفاخرون، وهل لأنهم استصغروه فأهملوه وتركوه، أم تجاهلوه قصداً فنسوه، أم لأن الألى قاموا به وعملوه، كانوا من المتواضعين المخلصين ولم يؤدّوا ما أدّوه طلباً لمنصب أو جاه، أو لكي يتحدّثوا عنه في يوم من الأيّام مفاخرين متباهين، وفي مقدمتهم السادة الأدباء محمد ابن أحمد الشامي وعبدالوهاب بن محمد الشامي، وعبدالحميد الشوكاني، وحسن بن حسن العمري، وعبدالقادر بن محمد عبدالقادر، ويحيى بن محمد المجوة «الكبسي» هيئة «حزب الدستور» العليا؛ وزملاؤهم في المدرسة العلمية أمثال: حسين المقبلي، ويحيى المطاع، وعلى السمان، ويحيى فايع، ولطف التهامي، وعلي عبدالكريم الفَضيل، وعبدالوهاب العرشي وعبدالله محمد الوزير، وقد كانوا بخطبهم الحماسية، وأشعارهم الثورية، ومنشوراتهم التي تفننوا في أساليب نشرها مصدر قلق للدولة من جهة، وعامل دفع استغله الفضيل الورتلاني، وحسين الكبسي لاقناع من يريدون اقناعه من أهل الحلّ والعقد بضرورة اللقاء والموافقة على «الميثاق الوطني المقدس» والتنسيق مع دعاة الإصلاح في داخل اليمن وخارجها.

وكان «الستة» المذكورون (هيئة حزب الدستور) يمثلون طليعة شباب صنعاء، وتُخوّل لهم امكانياتهم الاجتماعية، مع تقاربهم الثقافي والبيئوي، النشاط الوطني المطمئن؛ محميّين بظروف أسرهم السياسية عن عيون الرقباء.. فكانوا هم صانعو «المنشورات» العنيفة التي ظهرت قبيل الثورة، وكانوا يوزّعونها بأنفسهم على بيوت الأمراء والوزراء وكبار الموظفين دون أن يثيروا ريباً أو شكّا حولهم. فلا يدري عامل «صنعاء» أن حفيده هو الذي وضع «المنشور» في غرفة نومه،! ولا يظن رئيس الوزراء أنّ ابن أخيه هو الذي سلم المنشور إلى حارس عمه متنكرا، وقد وجد الامام يحيى نفسه منشوراً في غرفة نومه وقيل ان حفيده الأمير يحيى بن سيف الإسلام الحسين هو الذي قام بهذا الواجب! لأنه من الشباب المتحمسين المطالبين بالإصلاح الراغبين في التغيير والتطوير مثل بقية شباب صنعاء في المدرسة العلمية



بعض أعضاء «حزب الدستور» : محمد أحمد الشامي وفي الوسط السيد عبدالفادر بن محمد عبدالقادر فالسيد عبدالوهاب الشامي و يظهر في الخلف السادة يحيى بن محمد الهجوه وأحمد يحيى الهجوه وشريف عبدالقادر سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .

وغيرها! وكانت تلك المنشورات تصاغ بلغة شاعريّة متأثرة بأسلوب «جبران خليل جبران» الذي كان السيد الشاعر محمد بن أحمد الشامي من المعجبين به المترسمين خطاه.

ولما عدت إلى صنعاء مع الأستاذ الورتلاني عند زيارته الثانية التي تحدثتُ عنها؛ وثقت صلتي بأولئك الشباب، ولا سيما الاخوان الستة، وعملت على تنظيمهم في «حزب سياسي» بعد أن عقدتُ معهم عدة جلسات، ونظمت لهم ــ ولغيرهم ــ مع الأستاذ الفضيل عدة مقابلات كان يحاضرهم فيها، و يرشدهم و يفتّح أذهانهم ــ وكانت معظم اجتماعاتنا إمّا في بيتي أو تحت شجرة خارج «باب الروم» شمال غربي صنعاء؛ سميناها فيما بعد «شجرة الدستور» لأننا اتفقنا تحتها على تأسيس حزب سميناه «حِزب الدستور»، وقد وضعنا له منهاجاً ونظاماً؛ صغتهُ ولخصتهُ واستمددتُ بعض مواده من «الميثاق الوطني المقدس» دون أن أخبرهم بفحواه الأصليّ وسميناه أيضا «ميثاق حزب الدستور»، وكان هدفي أن أعدّ من هذا التجمع والتحزّب كتلة سياسية وطنية داخل مجلس الشورى بعد أن تقوم حكومة الدستور، و يكون أعضاؤه من أهم رجال الحل والعقد علماً وكفاءة وثقلاً سياسياً واجتماعيا، وقد ابيت أن أترأس هذا الحزب رغم إلحاح الاخوان، ورجحنا بالاقتراع والتواطؤ؛ أن يكون رئيسه المنتخب لمدّة عام السيد عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر «حفيد عامل صنعاء السيد حسين ابن عبدالقادر»، ونائبه القاضي حسن بن حسن العمري «ابن أخي رئيس الوزراء القاضي عبدالله العمري»، واختير السيد محمد أحمد الشامي مديراً، والقاضي عبدالحميد الشوكاني أمينا للصندوق وانتخبوني «أمينا عاماً لحزب الدستور»، وقد كتبتُ قسمهُ وميثاقَه بخطي و وقعناه جميعاً، وعندما قامت الثورة، وحكومة الدستور التي لم تعش غير ثلاثة وعشرين يوماً واجتاحت القبائل صنعاء كان «ميثاق حزب الدستور» ضمن ما نهب من أشيائي وأوراقي على يد قبيلة «الحدا» وكنتُ قد وضعته مع المسوّدة الأولى للميثاق الوطني في مغلّف وخبّأته في بطن إحدى «المخدّات»؛ ولهول سقوط صنعاء لم أفكر في إتلافه؛ وظللت في قلق شديد خوفاً من أن يقع في يد «الإمام أحمد» أو أحد الأمراء وليس لما سيلحقني من الأذى فقط بل ولأنه سيضّر بأولئك الشباب، وكنت أدعو الله وأسأله ليلا ونهاراً الستر واللطف ولقد كانت فرحتي عظيمة عندما وصل إلينا إلى سجن نافع السيّد محمد بن حسين عبدالقادر، وعندما عانقته همس في أذني ــ وهو يرسف في قيوده ــ: أوراق «المخدة» أتلِفَتْ فلا تقلقوا؛ وكان ذلك بعد شهر من سقوط صنعاء ولم يفصّل السيد محمد الذي هو والد السيد عبدالقادر «رئيس حزب الدستور» الطريقة التي أتلفت بها تلك الأوراق، ولا سألته من شدة السرور والفرح وعندما التقيت بالشيخ علي بن ناجي القوسي كبير قبيلة «الحدا» في مؤتمر «اركويت» في «السودان»، وهو أول مؤتمر للمصالحة يُعقد بين الملكيّين والجمهوريين أثناء الحرب الأهلية، و بعد قيام ثورة ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ، وكنت أرأس الوفد الملكي، وكان الشيخ علي القوسي من أعضاء الوفد الجمهوري، الذي يرأسه القاضي محمد محمود الزبيري، أخبرني «القوسي» أن أصحابه كادوا أن يقتلوا بعضهم بعضا على تلك المخدّة عندما سمعوا «كشكشة» الأوراق داخلها، وظنّوا أنها أوراق مالية، وأراد كلّ شيخ أن يستبدّ بها، ثم احتكموا إليه؛ فقال يوزّع ما داخلها على القبيلة كلّها.! ووصف لي خيبتهم، عندما فتحوها فإذا هي وثائق

وخطابات! وكان في إمكانهم أن يقدموها إلى سيف الإسلام الحسن، أو الإمام، لكنهم وجدوا بين الأسماء والتوقيعات، اسم وتوقيع السيّد يحيى بن محمد المجوة «الكبسي»؛ وكان عامل «الحدا» السيد العالم الجليل أحمد بن حسين الكبسي.. عمّ السيد يحيى، فخافوا أن يلحق بالعامل وأولاد عمّه الأذى والضرّر وأرادوا أن يتقرّبوا إليه، فاحتفظوا بالأوراق وسلّموه إيّاها؛ وكان السيّد أحمد ابن حسين الكبسي كريماً شهماً؛ ولا يخشى الضرر على ابن أخيه فقط.. بل وعليّ وعلى الآخرين فكل أبائهم من أصدقائه، وأقربائه، فأمر المشايخ بكتمان الأمر، وبأن يحرقوها ففعلوا ذلك؛ ولقد وصف لي الحادثة السيّد أحمد الكبسي أيضاً عندما التقيت به إثر خروجي من السجن، ولو كشفت تلك الأوراق؛ لكانت بالنسبة إليّ كالقشة التي قصمت ظهر البعير؛ ولقد شعرت عندما بَشرني السيد محمد عبدالقادر بقوله: «أوراق المخدة اتلفت» بالفرج من غمّ وهمّ شديدين؛ وصمت ثلاثة أيام شكرا لله، ووفاءً بنذر كنت قد تعهدت به إن سَلِمَت تلك الأوراق ولم تصل إلى يد الإمام أحمد.

١٩ - الإشاعة بموت الإمام يحيى والاستعجال بالثورة والملاع ولي العهد احمد على الميثاق .

سبق أن قلتُ؛ إن الميثاق إنّما وُضع لفترة ما بعد وفاة الإمام يحيى على أن لا يبايع أيّ إمام إلاّ على أساسه، وكان على مسرح السياسة اليمنية عدّة أشخاص ترشحهم التكهنّات والأحاديث للخلافة وفي طليعتهم سيف الإسلام أحمد بن الإمام يحيى؛ وللعلم فإن الإمام يحيى لم يكن هو الذي رشح ابنه أحمد للإمامة، ولا اعترف بولاية العهد له، لأنها تتنافى مع «المذهب الزيدي» والإمامة لا تكون إلا بالانتخاب والشورى؛ لكن مجموعة من علماء اليمن أرتأوا أن من المصلحة مبايعة سيف الإسلام أحمد؛ بيعة مشروطة بوفاة والده الإمام، وفي مقدّمة هؤلاء العلماء السيد محمد بن محمد زبارة؛ و«ولي العهد» أحمد نفسه كان طموحاً، وكنت شخصياً معجباً به، وأفضّله على كل الشخصيات اليمنية الأخرى التي يرشحها الآخرون لما سبق أن ذكرته في عدّة مناسبات!

ولما انضممت إلى «كتلة الميثاق» ووقعته والتزمت به، ووجدت معظم رجالاته متخوّفين من «أحمد» حاولت إقناع البعض بوجهة نظري، وناقشت وحاورت الكبسي والورتلاني؛ وفي حديث لي مع الفضيل قال لي: إن رأي الرئيس جمال العراقي يتفق مع رأيك، وكذلك رأي الأستاذ نعمان الذي يعارض في اختيار عبدالله الوزير ويفضل عليه السيف أحمد؛ قلت له: وما هو رأيك الشخصي؟ قال: صاحبك أحمد فحلٌ، ولا عيب فيه إلاّ أنه «ابن الإمام يحيى» وأنّ بيده السلطة، ولو علم بهذا التكتل حول الميثاق لقمعه، وزجّ بكل من يوافق عليه في السجون، لأنه سيعتبرهم متآمرين عليه، وهو يعتقد أنّه صاحب الحق الشرعي بالمبايعة! والجميع —ومنهم أنت— يسمّونه «ولي العهد».

ولمّا أرسلت صورة الميثاق في صيغته النهائية إلى من في «عدن» في شهر المحرم سنة ١٣٦٧هـ/نوفمبر ١٩٤٧م؛ لم يمض شهرٌ وبضعة أيام حتى أذيعت الإشاعة الأولى بموت الإمام يحيى، وانّ أهل الحل والعقد بايعوا السيد عبدالله الوزير إماماً «دستوريا» ونشر الأستاذان الزبيري ونعمان

الميثاق واسماء الوزراء والوكلاء وأعضاء مجلس الشورى في جريدة «صوت اليمن» وفي كتيّب مُستقِل، وكذلك نشرت النبأ مع الميثاق جريدة «الاخوان المسلمون» في القاهرة وكان ذلك يوم ٥ ربيع الأوّل سنة ١٣٦٧ هـ/١٦ يناير سنة ١٩٤٨م

تكذيب الوزير للإشاعة:

وكانت إشاعة مدسوسة كاذبة؛ فانتشر الرعب وساد القلق في صفوف كتلة الميثاق، ومن نُشِرت أسماؤهم، وسرت الإشاعات بأن «ولي العهد» سيصل «صنعاء»، وسيُعدم فلان وفلان، و يُسجن علان وفلتان، ووقف عبدالله الوزير مع الإمام يحيى موقفاً صعباً حرجا، وأقسم الايمان المغلظة أن لا علم له بميثاق، ولا طمع له في الإمامة، وان ذلك من دس «نعمان» و«الزبيري» وحزبهما في «عدن» ونشرت له جريدة «الايمان» الرسمية مقالاً بهذا المعنى.

اطلاع ولي العهد على الميثاق ورفضه له:

وقلتُ للسيد حسين الكبسي والأستاذ الفضيل الورتلاني: يجب أن نغتنم هذه الفرصة؛ إذ ما دام سيف الإسلام أحمد «ولي العهد» قد اطلع على «الميثاق»، و بصورة تجعلنا جميعاً نعمل ضدّه ونتآمر عليه فعلينا أن نتدارك الأمر بعرض الميثاق عليه، وأن يُقال له بصراحة: إن معظم أهل الحل والعقد في اليمن قد أجمعوا على أن لا يبايعوا إماماً إلاّ على أساس موافقته على ما ورد في الميثاق، وأن اسم الإمام هذا ليس معلوماً، وهذا الميثاق نفسه الذي طُبع ليس فيه اسم إمام معيّن! وإذا كان نعمان والزبيري وسيف الحق ابراهيم وغيرهم قد ارتضوا أو سمّوا عبدالله الوزير فذلك تصّرف يخصّهم؛ وها هوعبدالله الوزير نفسه ينكر و يتنصّل؛ وأنّا إذا وافق على ما في الميثاق فسنبايعه ونختاره؛ و بذلك نزيل من فكرته أنّنا نتآمر عليه من جهة؛ ومن جِهة أخرى إذا ما رضي وخضع لرغبة أهل الحل والعقد وتبني فكرة «الميثاق» فقد حقّقنا ما نصبوا إليه، وتجنّبنا ما نخشاه من الفتن وإن لم يوافق فقد أعذرنا أنفسنا بانذاره واخباره، وقد راقت هذه الفكرة للأستاذ الفضيل والسيد الكبسي و بقيّة الاخوان؛ وانتُدب السيدان حسين الويسي وزيد الموشكي لعرض الميثاق على ولي العهد، وكأنّهما يقومان بذلك محبة له، ودون تكليف من أحد، وأنهما مستعدّان للعمل والسعي لدى جميع أهل الحل والعقد من أبناء اليمن في داخلها وفي خارجها، ولدى الموالين والمعارضين، أن يُبايعوه إماما بعد أبيه، إذا تعهّد بتنفيذ ما في الميثاق.

وصارح الاخوان الويسي والموشكي، ولي العهد أحمد بما كُلّفا به في مجلس عام؛ فرفض الفكرة جملة وتفصيلا بل قال: إن في أعناق الناس لي بيعة ومنهم عبدالله الوزير نفسه ودار بينه و بين زيد الموشكي نقاش حاد لم أحضره؛ ولكن نقله من كان حاضرا.. وقال: إن ولي العهد قال: لن أقبل أي شرط مسبّق؛ غير العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ولو طلعت الأرض إلى هنا «وأشار إلى لحيته» وهبطت السماء إلى هنا «وأشار إلى جبينه»، وأنا مستعد أن أدرس ما في الميثاق وأعمل بما أراه صالحاً، ولن أقبل فرض أي شخص أو اقتراح لا أرتضيه، ولا أجده صوابا. فقال له زيد: قد يفاجئكم الخطر وأنتم لا تشعرون، ومن صالحكم أن تتنازلوا «قبل أن يقرح المادي»! ومعنى «قبل أن يقرح المادي» أي قبل

أن يتفجّر الموقف! فقال ولي العهد: لم يتنازل عثمان بن عفّان يا زيد! فقال زيد: وهل ستصبرون على مواجهة نهاية عثمان بن عفّان!؟ قال راوي الحديث: إن ولي العهد قد نظر إلى زيد نظرة طويلة.. حتى ظن الحاضرون بأنه سيأمر بقتله فورا.. ولكنه ابتسم.. ولو أنّ جبينه كان قد تجهّم! ثم وقف، وغادر المجلس وهو يقول: «لبّث قليلاً، يتبع الهيجا حَمَلْ».

الإشاعة هي التي عجّلت بالثورة:

ولقد كانت هذه الاشاعة الكاذبة السبب الفعليّ للاستعجال بالثورة وربّما للمبادرة باغتيال الإمام يحيى؛ إذ لم يمض شهر حتى هبّت ثورة الدستور، وبويع الإمام عبدالله الوزير أميراً للمؤمنين يوم ٧ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ/ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٩٤٨م والتي لم تثبت أمام أحمد الذي تسلّل من «تعز» إلى «حجة» إلاّ خمسة وعشرين يوما، حين سقطت صنعاء في أيدي القبائل المطالبة بالانتقام من قتلة الإمام يحيى، والمؤيّدة لابنه الإمام الناصر أحمد بن يحيى حميد الدين يوم ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٤٨م وسيق الإمام عبدالله الوزير وأعضاء حكومته وجمهرة كبيرة من العلماء والأدباء والوجهاء في قافلة طويلة حزينة إلى «حجة» وكان ما كان.

٢٠ - أسباب فشل ثورة الدستور (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م):

من كان مصدر إشاعة موت الإمام يحيى؟ وهل كان الغرض منها التوريط؟

قلت: إن كتلة «الميثاق الوطني» كانت ذات خلايا متعددة؛ ولكلّ خليّة «ضابط اتصال»، هو الوحيد الذي له الحقّ في الاتصال المباشر بضباط اتصال الخلايا الأخرى وفي نظام «هرمي»؛ غير أنه كان يحقّ لبعض هؤلاء أن يكونوا أعضاءً في عدة خلايا حسب إمكاناتهم واستعداداتهم الذهنيّة والعملية؛ فكنت أنا مثلاً ضابط اتصال خلية من أعضائها؛ الاخوة أحمد المروني وحسن العمري، «وهيئة حزب الدستور». كما أني كنت عضواً في خلية أخرى «ضابط الاتصال بها» السيد حسين الكبسي، ومن أعضائها السيد عبدالله بن أحمد الوزير (إمام الدستور) والقاضي أحمد الجرافي والرئيس جمال العراقي الذي كان أيضاً ضابط اتصال «الخلية العسكرية» ولا أستبعد الآن أنه كان هناك خلايا سريّة لم أدربها..! وكان المفروض ألا يتصل أحد بخليّة «عدن»: الأمير ابراهيم وأحمد نعمان، ومحمد محمود الزبيري.. إلخ، إلا عن طريق الحاج الخادم غالب الوجيه ضابط اتصال خليّة «الحُديدة» والذي هو على صلة مباشرة بالأستاذ أحمد نعمان المسؤول عن خلية «عدن»، وبواسطته ــ أي الخادم غالب ــ تُرْسَل المعلومات والتوجيهات إلى مَن بعدن، وكان من المفروض لو أنَّ شيئاً حدث في «صنعاء» أن يتلقى خبره الحاج الخادم الوجيه عن طريق وكيله بصنعاء السيد أحمد المطاع الذي هو ضابط اتصال «خليّة التجار» بصنعاء، وعضو «الخليّة العليا» المسؤول عنها «الكبسي»، فيبلّغه «الخادم الوجيه» فوراً إلى «الأستاذ أحمد نعمان» برقيّاً بشيفرة تَسْتعمل الألفاظ التجارية العادية! أو شفوياً إن كان بعدن؛ لكنّنا في صنعاء وفي سائر مدن اليمن، بل وفي العالم بأسره فوجئنا ليلة ٥ ربيع

الأول سنة ١٣٦٧ هـ بسماع النبأ الخطير، وهو موت الإمام يحيى ملك اليمن، ومبايعة اليمنيّين للسيد عبدالله الوزير إماماً! وكنت أوّل من عرف؛ إذ طرق عليّ الباب قُبَيل أذان العِشاء الأخ حسن العمري [الفريق حاليا] وكان عضواً في خليّتي، و يعمل ضابطاً في محطة الإذاعة واللاّسلكي، ومكلّفاً بتبليغي ما يردُ من برقيّات أو أخبار تتعلّق بحركتنا الدستورية.. وكان شبْه قلق، و يقول: أعلنت الإذاعات موت الإمام، وهاتان برقيّتان من الأمير ابراهيم من عدن. وسألته: هل قد اطّلع عليهما أحد؟ قال:نعم؛ كان وزير المواصلات سيف الإسلام القاسم في المحطة، وقد أخذهما ومضى مسرعاً إلى أبيه الإمام يحيى، وأمرَنا ألا نخبر أحداً، فرأيت من واجبي إيصالهما إليك! وكان نص البرقية الأولى:

جلالة الإمام عبدالله بن أحمد الوزير حفظكم الله. ومخرجها «عدن»

نهنيكم؛ ونرجو أن تأمروا الأخ حسين الويسي بأن يعجل و يسهّل سفرنا على طائرة خاصة إلى صنعاء. والتوقيع: سيف الحق ابراهيم . والثانية كانت تعزية بوفاة «الإمام» أرسلها إلى إحدى أخواته وفيها يقول: ونحن إليكم غداً أو بعده على الطائرة والتوقيع: أخوكم ابراهيم.. وذهبت بالبرقيتين فوراً إلى السيد حسين الكبسي، فاندهش وقال: كيف هذا؟ ماذا جرى؟ قلت لا أدري.

ولم يدر أحد يومها من أين طلع خبر الإشاعة، ولا مَن اختلقه؟ ولا من أين مصدره، وفي موجة الرعب التي اكتسحت المجتمع اليمني راجت إشاعات كثيرة لم تتلاش إلا بعاصفة الثورة!

ولقد عرفنا فيما بعد أن مصدرها كان «الحديدة» وأن وكيل حكومة عدن التجاري «صالح جعفر» أبرق بها إلى «والي عدن» وأسندها إلى مصدر رسمي هو نائب الإمام بالحديدة القاضي حسين الحلالي، واتصل «والي عدن البريطاني» بالأستاذ أحمد نعمان! وهو بدوره أخبر الأمير ابراهيم والأستاذ الزبيري، ثم سمعوا الخبر من إذاعة «لندن» فلم ينتظروا ما قد يصلهم من الحاج الخادم الوجيه ـــ كما يُحتّم عليهم الواجبـــ بل اكتسحتهم الفرحة، ونشروا الخبر في صحيفة «صوت اليمن» مع الميثاق وتشكيل حكومة الدستور، ووزّعوا كتيّب «الميثاق» في الأسواق! وكان ما كان! ولقد أخبرني الأستاذ أحمد نعمان أنه نَصَحَ بالتأنّي، وألا ينشروا شيئاً حتى يتلقّوا الخبر من مصدرهم الرسمي؛ ولكن الأستاذ الزبيري لم يقبل؛ وقال: عامل الزمن مهمٌ جداً، وأيّده الجميع، وحكى لي الأستاذ محمدالفسيّل كيف كانت خيبتهم عندما عرفوا أن الإشاعة كاذبة، وأنهم وقفوا حائرين لا يدرون ماذا يقولون للقراء في صحيفة «صوت اليمن» في افتتاحية اليوم التالي، حتى جاء الأديب الشاعر محمد حسن عَوْبَلي فقال: لا تخاوفوا ولا تحزنوا؛ وجرّد قلمه وكتب الافتتاحية المشهورة «حُلم الأمس واقع الغد» فأنقذ رئاسة تحرير الجريدة، واخترع أسلوباً جديداً رائعاً في التهييج والتثوير، وحافظ على كرامة «صوت اليمن»! وإن كان قد ضاعف ارتباك من نُشِرَت أسماؤهم في قوائم الميثاق، وأوجد القلق والريبة والشك في صفوفهم، والتربّص بهم من قبل الحكومة، وكانت قد انتشرت شائعة تقول: «إنّ وليّ العهد أحمد» هو الذي دبّر تلك الإشاعة، وأوعز بها إلى نائبه القاضي حسين الحلالي بعد أن أفضى إليه الأخير بتفاصيل «الميثاق الوطني المقدس»؛ لأنه كان ممّن قد قرأه ووافق عليه، وأنّهما

أرادا بذلك كشف أوراق الجميع ، وإيقافهم أمام أمر واقع ، ولأن السيف أحمد كان واثقا من نفسه ، ومن انتصاره إذا نزل مع منافسيه في معركة شعبيّة إثر انقلاب على الإمام يحيى؛ ولا سيما إذا كانت الحركة دموية ؛ وكان ما يخشاه أن تسير الأمور سَيراً طبيعياً شرعياً ، أو أن يُغتال هو نفسُه ؛ ولذلك فقد دبّر كل الاحتياطيات للمحافظة على نفسه ، ولم يستجب لرغبة أبيه وبعض إخوته ، في أن يترك « تعز» ويتجه إلى « صنعاء » ! وماطل باسم ترتيب نقل « حاجياته » ؛ وكنت نفسي ممّن قد زيّن له سرعة الوصول ، وكذلك القاضي الأديب عبدالله الشماحي ، ولقد قال في جواب له على الشماحي: « وصل خطابكم » و« لَبّثْ قليلاً يَتبع الهيجا حَمَلْ » ، وأطلعني عليه ؛ كما أطلعته على جوابه عليّ بخطه ؛ في كتاب طويل لا أزال أذكر منه قوله : « ونحنُ في خلال تدبير وترتيب ما أشرتم إليه . « ووالله إنه لن يتمّ لأعداء الدين شيء » . .

إن لي من تمسّكي بكتاب الله ما أتّقي به الأحداثا » !

هكذا استشهد بالبيت ؛ وهو من قصيدة لأبي بكر بن شهاب ؛ ولا أدري لماذا عَدَلَ عن لفظة « الأخطار» وجعلها « أحداثاً » ؟ هل تعمّداً ، أم سَهْواً ؟ وقال أحد المقرّبين إليه ، إنه سمعه يقول : « لن أطلع صنعاء فأكون مع أبي في قفص واحد ، ودعْهُمْ يبدأوا الضربة لتنكشف مخططاتهم » ! وقيل : إنه ما اختار القاضي « الحلالي » نائباً وواليأ على « الحديدة » إلا ليؤمّن طريق نهوده إلى « حجّة » من « تعز» إذا ما حصل شيء في « صنعاء » ! وأنا لا أقرّ هذه الإشاعات والأقوال ولا أنكرها ؛ لكن الذي لا يختلف فيه اثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان — كما يقولون — أن « السيف أحمد » قد عالج الموقف بعد الإشاعة الكاذبة بدهاء ، فلم يقُمْ بأيّ ردّ فعل سريع ، وأوهم الجميع أنه يزمع الانتقال إلى « صنعاء » ليتسلّم أزمة الحكم ، وأن ذلك ما يطلبه منه الإمام ، وبث من يُطلق إشاعات الرعب والخوف هنا وهناك ، مما دفع منافسيه ، أو دعاة الإصلاح ، أو زعماء المعارضة ، إلى اتخاذ أعمال مبتسرة مستعجلة لم يحكموا ترتيبها ، وعندما يكون الخوف أو القلق من دوافع القيام بأيّ عمل خطير ، أو من أهمّ دوافعه فقلّما يرافقه النجاح ! كما أن العنزين لن تنتطحا — إن صحّ هذا التعبير — إذا ما قال قائل : إنّه قد خرج من « تعز» بمهارة وثبات ، وفوّت على معارضيه فيها القدرة على القيام بأي إجراء ضدّه ، وذلك لأنه كان أذكى وأحزم منهم جميعاً ! فقد غادرها خلال ساعات من إطّلاعه على اغتيال أبيه الإمام يحيى ، وفي موكب من السيّارات المحمّلة بالجند والحرس ؛ وقيل إن النقيب حسن الشايف مع كمين كان قد أعدّ له في الطريق ، ولكنه ما إن غادر «تعز» حتى تنكّر في ثياب الحرس وترك سيارته الخاصة المعروفة عند « الكمين » تمرّ أمامه مكشوفة لا أحد بها غير سائقها ، وركب في إحدى سيارات الجيش مع الخلّص من حرّاسه ، حتى وصل « زبيد » ثم « الحديدة » حيث اجتمع بالحلالي ، ثم نهد مُطمئناً إلى وكره العتيد « حجّة » فانقضّت جنوده منها على «صنعاء» كالصقور المفترسة والذّئاب الشرسة .

أمّا ما هي أسباب فشل الثورة ، وانتصار الإمام أحمد على الإمام عبدالله الوزير؟

فلقد أوضحت مراراً أنني لست مؤرخاً بالمعنى المنهجي الدقيق ولا سيما في مفهوم خريجي الجامعات

الأوربية، وأنني إنّما أتحدّث عن بعض «ماجريات» حياتي، وإذا كان ولابد أن أتحدّث عن أسباب فشل ثورة الدستور سنة ١٣٦٧ هـ أو حركة ١٩٤٨ كما يحلو للدكتور عبدالعزيز المقالح أن يسميها! وهزيمة حكومتها وإمامها وانتصار الإمام أحمد عليهم، فبشرط ألا يفهم القارىء أو السامع أنني أعتبر ما حدث نصراً حقيقياً، أو هزيمة واقعية بالمعنى المفهوم لديّ للهزيمة أو للنصر التاريخيين..! فربّ هزيمة قد تقمّصت ثوب نصر؛ وكم من نصر رفل في ثياب هزيمة..! كما أرجو ألا يفهم أحد أنني أندّد بالمنهزم أو أمجّد المنتصر، فأنا في «كتاب حياتي» إنما أحكي ما حدث كما وقع أو كما خيّل إليّ أو ظننته أنه قد وقع، دون تخطئة أو تصويب، أو قدح أو مدح، أو ندم أو تمجيد أو مباهاة أو تأنيب! وأسباب فشل تلك الثورة أو الحركة أو الإنقلاب قد أكثر عنها الحديث المؤرخون والكتّاب على اختلاف ميولهم وأهوائهم وثقافاتهم ومبادئهم ولم تطمئن نفسي ولا معرفتي إلى الكثير مما قالوه أو كتبوه! وهي ترجع في نظري إلى عوامل أهمّها:

١ ــ نشر الأحرار في «عدن» ــ[الأمير ابراهيم، وأحمد نعمان، ومحمد محمود الزبيري ومن إليهم]ــ للميثاق الوطني المقدس في ٥ ربيع الأول سنة ١٣٦٧ هـ / ١٣ يناير ١٩٤٨م عَقِب الإشاعة الكاذبة بأن الإمام يحيى قد مات وبايع النّاس عبدالله الوزير إماماً ــ كما ذكرت آنفاً ــ؛ إذ قد أُحرِجَ الوزير وأنصاره في الداخل إحراجاً شديداً، وأدرك الخوف والقلق كل من ورد اسمه في إحدى قوائم الميثاق، كوزير أو موظف، أو عضو في مجلس الشورى ــ وأنا أحدهم ــ؛ وكان العتاب المرير من قِبَلِ الإمام يحيى للسيد عبدالله الوزير، واضطر الوزير إلى أن ينشر تكذيباً مطوّلاً في جريدة «الإيمان» الرسمية، وقد قوّت هذه الغلطة الفظيعة موقف «وليّ العهد أحمد»؛ وجعلته يرتّب أموره، ويستعد ويتربص، كما أضعفت موقف الوزير وأصحابه، ودفعتهم إلى اتباع وسائل ما كانوا سيضطرّون إلى اتخاذها لولا تلك الإشاعة الكاذبة ومنها فيما أظن اغتيال الإمام يحيى، ورئيس وزرائه القاضي عبدالله العمري، وسيف الإسلام الحسين اللذين كانا من أصدقاء السيد عبدالله الوزير، ويميلان إليه أكثر مما يميلان إلى الإمام أحمد كما يُقال.

٢ ــ عملية الاغتيال نفسها: فقد استبشعها معظم اليمنيين حتى من كان منهم ينتقد تصرفات الإمام ويُخطئه، وينقم على أعمال موظفيه وحتى بعض أنصار وأشياع عبدالله الوزير والمعترفين بأهليته للإمامة وعلمه وفضله وزهده ونزاهته وكفاءته؛ فقد كانوا يفضلون أن يبايعوا عبدالله الوزير أو يدعوا إلى مبايعته، بعد أن يفرغوا من تشييع الإمام، ودفن جثمانه إذا ما مات على فراشه.

٣ ــ استغلال «ولي العهد أحمد» لمشاعر المتأثرين من علماء اليمن في الشمال وقبائلها وجنودها لقتل «الإمام العجوز» الذي جاوز الثمانين، وقتل حفيده الذي لم يتجاوز السابعة من عمره، وولديه الحسين والمحسن ــ وكانا من المشهورين بالعلم والفضل والأدب والنزاهة، ورئيس وزرائه عبدالله العمري وكان يتمتع بشعبية عظيمة؛ وقد اتخذ الإمام أحمد من ذلك «قميص عثمان» كما يقولون وأحسن تهييج القبائل وتثويرها برسائله، وأشعاره، وتحريضهم على نهب «صنعاء»؛ وهم طبعاً



القاضي عبدالله العمري رئيس وزراء الإمام يحيى والقاضي محمد راغب وزير الخارجية و بعض الأمراء وأركان دولة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م.

١ ــ الأميرعلي بن الإمام.
٢ ــ القاضي عبدالله العمري رئيس الوزراء.
٣ ــ القاضي محمد راغب وريرالخارجية.
٤ ــ السيد علي ابراهيم أميرالجيش.
٥ ــ العقيد اسماعيل صفوت.
٦ ــ الرئيس جمال جميل.
٧ ــ الرئيس عبدالقادر الناظمي.
٨ ــ محيي الدين العنسي.
٩ ــ عبدالله مطهر.
١٠ ــ حسن تحسين.
١١ ــ محمد عبدالقادر.
١٢ ــ معلم الحيش.
١٣ ــ
١٤ ــ عبدالله الشوكاني.
١٥ ــ عبدالله الشامي.
١٦ ــ حسين مطهر.
١٧ ــ ريد عقبات.
١٨ ــ
١٩ ــ

وجشعاً يتطلعون إلى مثل هذه الفرصة «الذهبية» فكيف وقد هيّجوا وحرّضوا رسمياً؛ ومن أحمد الذي يهابونه.

٤ ـ استياء حكام الدول العربية من عملية الاغتيال وقلقهم ولا سيما الملك عبدالله ملك شرق الأردن الذي أرسل ببرقيات استنكار ووعيد إلى الإمام عبدالله الوزير وكذلك الملك فاروق الذي عرقل اعتراف حكومة مصر بالحركة الدستورية، ولم يستسغ الملك عبدالعزيز آل سعود أن يصرع جاره الإمام المريض العجوز بالرغم من أنه كان صديقا حميماً للسيد عبدالله بن أحمد الوزير ولابن عمه الأمير علي الوزير، وكان في قرارة نفسه يفضّل أن يتربع أحدهما على العرش ولكن بطريقة بيعة شرعية دونما سفك دماء، بل وبعد وفاة الإمام يحيى وفاة طبيعية؛ وكان الملك عبدالعزيز يعرف الأمير أحمد وشدّة مراسه وعناده ويخشى منه لا على أصدقائه من آل الوزير ومشايخ اليمن فقط بل ومن نزق سيفه على الكثير من رجالات اليمن، ويخشى أن تثور فتن تضر باستقلال البلاد والانجليز على الأبواب، ولذلك فقد أوعز إلى «عزام باشا» أمين عام الجامعة العربية بالتدخل وحسّن ذلك لكل من الإمام عبدالله وإلى الإمام أحمد فحكما الجامعة العربية وعلى هذا الأساس سافر الورتلاني والوزير والزبيري من صنعاء، لملاقاة وفد الجامعة العربية بالمملكة العربية السعودية، وفي أثناء التفاوض والتشاور مع زعماء العرب لاتخاذ موقف موحّد إزاء مشكلة إنقاذ «صنعاء» المحاصرة من النهب والسلب والهتك، وقيام حرب أهلية كانوا يتوقّعونها تقضي على الأخضر واليابس، ولكن قطعت جهيزة قول كل خطيب بدخول القبائل صنعاء والقاء القبض على «الوزير» وحكومته وأنصاره؛ وتم بذلك انتصار أحمد انتصاراً ساحقاً دون أن يحتاج إلى عون أو وساطة؛ وأظنه إنما لجأ إلى الموافقة على تحكيم «الجامعة العربية» احتياطاً ومكراً واستعداداً لكل الاحتمالات فلما انتصر كتب إلى الملك عبدالعزيز «أن لا حاجة لوصول وفد الجامعة فقد تم النصر» وطالب بإرسال وتسليم الورتلاني والزبيري والوزير فأبت شهامة الملك عبدالعزيز أن تعمل ذلك بل سهل ترحيلهم إلى «عدن» ونصح الإمام أحمد بالرفق والعفو والصفح والإبقاء على رجالات اليمن وألا يؤاخذ إلا من تثبت إدانته بمباشرة قتل والده ورئيس وزرائه وأولاد الإمام يحيى ولقد خففت تلك النصائح من نزق ذلك السيف وإن لم تؤد كل ما كانت تصبو إليه فكان ما كان، وهذه هي حقيقة موقف الملك عبدالعزيز لا ما يزيّفه البيضاني وأضرابه من أكاذيب.

٥ ـ يقال إن الأستاذ الفضيل الورتلاني كان قد التقى في زيارته الأخيرة لبغداد ببعض زعماء العراق وكان يحمل معه رسائل من الرئيس جمال جميل العراقي إلى صديقه السيد جميل المدفعي، وصديقه الزعيم صفوت، وأنه أطلعهم على الميثاق، كما أطلع غيرهم، فوعدوه بتاييد اليمن ومساندة عبدالله الوزير إذا بويع بالإمامة؛ وأنه التقى أيضاً برئيس الوزراء حينذاك السيد «صالح جبر» فوعد بالمساعدة حتى عسكرياً، وان زعماء الإخوان المسلمين في العراق كانوا يعرفون ما يعرفه الشيخ حسن البنا زعيمهم في مصر عن الحركة الإسلامية الدستورية التي يعمل لها الفضيل الورتلاني في اليمن، وأنهم وعدوا بتأييدها ومساندتها... ولكن الذي حدث أن حكومة السيد «صالح جبر» سقطت، وخلفه على رئاسة الوزراء السيد محمد الصدر في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٤٨م أي قبل اغتيال الإمام يحيى بحوالي أسبوعين



(الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين)

فقط؛ و بذلك تلاشت آمال المساعدة العراقية، وما كان للسيد «محمد الصدر» وهو من زعماء الشيعة أن يتساهل في مثل اغتيال الإمام يحيى! هذا ما سمعته من عدة مصادر، ولست على يقين منه، ولا أثبته ولا أنفيه تاريخياً، كما أنني لا أصوّب ولا أخطىء شيئاً مما كان لكنّي أروي ما بلغني وعلى من يريد أن يتثبّت ــ تاريخياً ــ البحث والتنقيب عن الوثائق.

٦ ــ من الأسباب التي أدّت إلى سرعة سقوط «صنعاء» عدم مدافعة أهلها عنها فقد استاء معظم سكانها لعملية اغتيال الإمام والعمري، وأولاد الإمام، ولاسيما اليهود والنساء والعوام؛ فلم يساهموا في الدفاع عنها، ولو أنهم فعلوا لثبتت سنوات أو شهوراً.. ولذلك يقال إن تأخير الأستاذ أحمد نعمان لجيش النجدة الذي كان يقوده الشيخ علي محسن باشا و يتكوّن من حوالي ثلاثة آلاف مقاتل وكلهم شوافع لم يتأثروا لمقتل الإمام كما تأثّر واستاء الزيود ــ وعرقلته لهم بالمخادر عن مواصلة السير إلى صنعاء قد كان سبباً جوهرياً من أسباب سقوط صنعاء وسرعة انتصار الإمام أحمد.

وكان الإمام عبدالله الوزير وأعضاء حكومته قد لمسوا حاجة صنعاء إلى حُماة يدافعون عنها، فجنّدوا حرساً وطنياً من تلاميذ المدرسة العلمية، وطلبوا من السيد محمد أحمد باشا أمير لواء «تعز» أن يجنّد جيشاً من لوائي «تعز» و«إب» ويجهّزهم و يرسلهم فوراً إلى صنعاء، وعندما كانوا في «المخادر» لحق بهم الأستاذ أحمد نعمان، وأقنع قائد الحملة الشيخ علي محسن باشا بالتأخر، حتى يصل مع رفقائه الأحرار إلى «صنعاء» وكان قد أبى الذهاب إليها على الطائرة مع الأمير ابراهيم وزميله الأستاذ محمد محمود الزبيري، وفضّل الوصول إليها برّاً، وحكى لي الأستاذ محمد الفسيل الذي كان مرافقاً للأستاذ حتى ألقي عليهم القبض في «ذمار» أن الأستاذ نعمان قال للشيخ علي محسن باشا: دع الإمام الزيدي يأكل الإمام الزيدي... ثم سيأتي دورنا فننقذ اليمن من الجميع! هكذا قيل لي والله أعلم؛ غير أني على يقين من أن النجدة قد طُلِبَتْ، وأنها أُخِّرَت؛ فقد حضرت الجلسة التي تقرّر فيها طلب جيش النجدة، وأنا الذي حررت وأرسلت البرقية بالشيفرة مُوَقَّعَة من الإمام عبدالله الوزير إلى أمير لواء تعز؛ وقد علمنا بوصول النجدة إلى «المخادر» قبل سقوط صنعاء بخمسة عشر يوماً؛ وكان في إمكانها قطع المسافة في خمسة أيام، ولم يكن ينقص «العاصمة» إلا اليد التي تحمل البندقية وتدافع عنها، وفيها الإمام والحكومة، والسلاح، والذخائر، والأموال، ولو لفترة تتمكن حكومة الدستور خلالها من شرح أهدافها للناس، والتغلّب على الأزمة السياسية التي أثارها ملوك العرب، وتدخل معهم في تفاوض وحوار، ولا سيما وقد نشط الاخوان المسلمون في مصر وسوريا والعراق في تحريك عناصرهم يطالبون دول الجامعة العربية بالاعتراف بعبدالله الوزير وحكومته الدستورية اعترافاً شرعياً رسمياً.. ولكن أنا أريد وأنت تريد والله يحكم بما يريد.. ولست على يقين من أن الأستاذ نعمان هو الذي أخر «الحملة» ولكن هذا ما سمعته من الفسيّل.

٧ ــ السبب السابع «النابع من بين الأصابع» ما يسمّى «بالطابور الخامس»؛ فقد كان لسيف الإسلام أحمد «وليّ العهد» أعوان وأنصار وأتباع في داخل «صنعاء»، وقد استصحب معه عساكر وضباطاً وأشخاصاً عندما غادر «تعز» ولكنه حين نَهَدَ من «الحديدة» إلى «حجّة» أمر هؤلاء

الأشخاص بمواصلة السير إلى «صنعاء» و بعث معهم رسائل وتوجيهات إلى مؤيّديه وأعوانه وإخوانه، وأذكر أنه أشيع بأنّ القاضي محمد الخالدي ــ وكان قد رافق ولي العهد أحمد من تعز إلى «باجل» ثم واصل السير إلى صنعاء ــ وكان وقتها مثلما كنتُ من أصدقاء الإمام أحمد ــ قد أوصل معه رسائل ومنشورات؛ وكان محمد الخالدي من أعزّ أصدقائي، وهو جاري القريب، ولذلك دافعت عنه عند «الوزير»، عندما بلَغوا به أنه يؤلّب الناس ضدّه، و يدعوهم لمناصرة «أحمد»، وقد احتفظ لي بذلك الجميل، فعمل جهده على المدافعة عنّي عند «الإمام أحمد» وراجعه من أجل الابقاء عليّ، وأنا بهذا لا أقرّ تلك الإشاعات عن القاضي محمد الخالدي، غير أنها قد انتشرت وشاعت بين أنصار الإمام عبدالله الوزير، وقد وُزّعت فعلاً منشورات في صنعاء، وفيها الآية الكريمة: «ومَن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سُلطاناً فلا يُسْرِفْ في القتل. إنَّه كان منصوراً..» وقد كان لذلك المنشور أثره الكبير.

أسباب أخرى:

هذه هي أهم الأسباب التي ساعدت على سرعة سقوط «صنعاء» ففشلت ثورة أو حركة ١٩٤٨م وانتصر الإمام أحمد على الإمام عبدالله الوزير وهناك أسباب أخرى ومن أهمها في نظري:

١ ــ تهافت الأحرار على «صنعاء» وارباكهم للإمام «عبدالله الوزير» وحكومته بمطالبهم الإصلاحية والتنظيمية، واعتمادهم الساذج على عدالة قضيتهم المنطقية، وعدم معرفتهم بالشعب اليمني ورغائبه، واستهانتهم بشخصيةِ الإمام أحمد بعد أن نجا إلى حجّة وقد فصّل ذلك «الشماحي» في كتابه «اليمن؛ الحضارة والإنسان».

٢ ــ التنافس بين الأسر والشخصيات البارزة، والتعصّب الطائفي والمذهبي ورواسبه المتأصّلة في نفوس بعض الأحرار.

٣ ــ عدم خروج عبدالله الوزير من «صنعاء» إلى «ذمار» أو «البيضاء» مع ما يستطيع سحبه من مال وسلاح وذخائر وكان قد تقرّر ذلك.

٤ ــ تآمر أولاد الإمام مع حرس «القصر» وإلقاء القبض فيه على «الوزير» ومساعديه قبل أن تسقط صنعاء بساعات.

٥ ــ نجاة الإمام أحمد من المؤامرة على اغتياله وإحكامه لخطة انسحابه من تعز بحراسة «عكفته» وقوّة عسكرية ثم إيهامه للوزير وحكومته بأنه لن يقاوم بل ينوي اللجوء إلى المملكة العربية السعودية حتى تمكّن من الوصول إلى «حجّة» وكان ما كان.

٢١ ـ كيف تفادى «أحمد» الاغتيال ونفذ إلى «حجّة»؟

لا شك أن سيف الإسلام أحمد «وليّ العهد» كان بعد إشاعة موت والده الإمام يحيى ونشر الميثاق الوطني المقدس» قد اكتشف مخطط خصومه، وكان يعلم أنه المستهدف الأول والخطير من قبل لنافسين له على السلطة؛ والخائفين منه، وأولئك الذين لا يرونه أهلاً للقيام بالإمامة على شرط المذهب

الزيدي؛ ومن قبل «الأحرار» و«المثقفين» والمعارضين في «عدن» و«القاهرة»؛ ولاسيما بعد المشاذة العنيفة بينه و بين السيد زيد الموشكي حين عرض عليه «الميثاق» وطلب منه مع السيد حسين الو يسي الموافقة عليه كما أسلفنا.

إما الفوز أو خوض معركة طو يلة:

والذين يعرفون طبيعة ذلك الرجل وذكاءه النّادر وشجاعته واهتباله للفرص، وطموحه وثقته بنفسه، ومغامراته، ــ وقد كنت أحدهم ــ لا يفوتهم أن يتأكدّوا من أنه قد حسب لكل شيء حسابه، وأعدّ خطّة إن لم يتغلّب بها على خصومه، فإنه يقدّر النجاة بها ليخوض معهم معركة طو يلة، لا يبالي أن تتمزّق من جراء هولها اليمن شذر مذر، وأن يذهب ضحيتها الآلاف من البشر.

وقد رسم خطته فيما يخيّل لي وأتصوّره اعتماداً على معرفتي بنفسيّته وعقليّته ودهائه وجبروته ــ كما يلي:

١ ــ كيف ينجو بنفسه من أيّة محاولة أو ترتيب لاغتياله.

٢ ــ أن يسحب معه أكثر عدد ممكن من «الجيش النظامي» بتعز حتى لا يطارده أحد حين يغادرها.

٣ ــ أن يوهم من في «تعز» ومن «بصنعاء» أنه متجه إليها.

٤ ــ كيفَ يتمكن من الوصول إلى «حجّة» دون أن يتعرض لخطر القبض عليه أو اغتياله من قبل السيد هادي هَيْج في «الزيدية» وما وراءها من أراض حتى يصل إلى سوق الأمان، ثم حجّة؛ وكان يعلم ما بين «هادي هيج» والسيّد عبدالله الوزير من صداقة وعهود؟

٥ ــ كيف يكسب موقف الملك عبدالعزيز آل سعود بأن يظل على الأقل محايداً لأنه كان يظن ــ إن لم يكن متأكداً ــ أن الملك عبدالعزيز يجلّ ويحترم و يقدّر السيد عبدالله الوزير وكان له ولابن عمّه الأمير علي بن عبدالله الوزير صديقاً و يفضلهما عليه، ويخاف من اعترافه بالوزير إذا ادّعى الإمامة، ومن تأييده له، و وقوفه بجانبه إذا تنازعا.

كلّ ذلك قد حسب له أحمد حسابه الدقيق قبل إطلاق إشاعة موت أبيه ونشر الميثاق في «عدن» و«القاهرة» وكشف أوراق «الدستوريين» و«الأحرار» و«آل الوزير».

هل هو الذي أطلق الإشاعة؟

فلمّا كانت الإشاعة كما شرحت سابقاً زال عن قلبه همّ كبير، وعرف أن الإمام يحيى والده، واخوته في صنعاء، إما أن يبطشوا بآل الوزير و يعتقلوا كل من ورد اسمه في قوائم الميثاق، ثم يستدعونه لتسلّم أزمّة السلطة باعتباره رجل الموقف أو أن السيد عبدالله الوزير و«الدستوريين» والأحرار سيقومون بحركتهم فيدبرون اغتيال الإمام، أو يقومون بحركة تفجّر الموقف قبل أن يكملوا استعدادهم؛ وذلك ما كان يحسب له أحمد ألف حساب و يتمنّى حدوثه ولهذا فأنا أرجّح القول بأنه هو الذي أطلق الإشاعة وكشف أوراق المؤتمرين مقدّراً أنه بذلك سيربح نصف المعركة في داخل اليمن وفي العالم العربي.

ابطال قدرة الكمين وتكاسل المدرّبين:

وقد ذكرت ما قيل لنا في معتقل «حجّة» من أن النقيب حسن الشايف قد كلّف عندما وصل نبأ اغتيال الإمام يحيى إلى «تعز» ورأوا «أحمد» يعدّ نفسه لمغادرتها بأن يكمن مع بعض أصحابه في الطريق المؤدية إلى الحديدة بجانب «قبّة المَعْصَوَر» ، وأن «أحمد» بمجرّد ما غادر «تعز» بعد أن نصّب ابنه «البدر» نائباً عنه وعين السيّدين محمد أحمد باشا وحسين الحوثي مساعدين له ووضع «سبّابته في رقبة الباشا» قائلاً وهو يبتسم: «تعز في رقبتك» قد حسب للأمر حسابه فلبس زيَّ «عُكفَتِه» وحرسه الخاص، وركب في إحدى سيّاراتهم، وترك سيّارته المعروفة فارغة، وبذلك أبطل قدرة الكمين على عمل أيّ شيء ولم يعرف أيّ سيارة هو فيها ليهاجمه.

وقيل لنا أيضاً إن جماعة من شباب «الحجرية» كانوا قد درّبوا في «الحبشة» ، وكانوا قد استعدّوا بأسلحة فتّاكة منذ حوالي شهر أو شهرين قبل الثورة، وكانوا مختبئين في إحدى مزارع «القصيبات» خارج «تعز» ينتظرون وصول خبر مقتل الإمام يحيى، أو موته في صنعاء، ليفاجئوا «وليّ العهد أحمد» و ينقضّوا عليه فيغتالوه قبل أن يصله النبأ و يغادر «تعز» لكنّهم ناموا أو تكاسلوا؛ وقيل .. وقيل — عدة حكايات وشتّى روايات، يعرف تفاصيلها الأساتذة أحمد محمد نعمان وابراهيم الحضراني، وأحمد المعلمي وغيرهم ممن كانوا بتعز و«عدن» أكثر وأفضل مما أعرفها .. ولكن أحمد ببراعته وسرعة حركته، ولأن أجله لم يحن بعد؛ قد نجا ونجح في تنفيذ أول وأهم بند في خطّته «ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» !

التخلص من الجيش ومخادعة هادي هيج والوزير:

وأهم شيء بعد تفاديه كمين الاغتيال ونجاته، الخطة المحكمة التي دبّرها لاستصحاب بضع مئات من «الجيش النظامي» معه على السيّارات مع كامل أسلحتهم؛ أولا لكي يبعدهم من «تعز» إذ كان يخشى أن يكون الجيش متآمراً مع «الدستوريين» وإمامهم «عبدالله الوزير» ، وثانياً لكي لا يطارده أحد وهو في طريقه إلى الحديدة، وثالثاً ليوهم من بصنعاء وتعز أنه متوجه إلى «صنعاء» لمناجزة «الثوّار» ، وما إن اجتاز «زبيد» و«بيت الفقيه» عاصمة «الزرانيق» ووصل الحديدة حتى أمر بجمع من فيها من جنود «النظام» وتوجّه بهم وبمن معه إلى «باجل» ثم أصدر أمره بأن يسبقوه لترتيب طريق صنعاء — الحديدة، وليكونوا له طليعة على ألا يتجاوزوا «جبل الشرق» و بلاد آنس حتى يتبعهم في اليوم التالي، ولا يسمحوا لأحدٍ يصل من صنعاء بالمرور إلا بإذن منه، ومن عصى قاتلوه، وكان يخشى أن يصل نبأ نجاته ومغادرته تعز إلى صنعاء، فيأمر «الوزير» بقوّة تعترضه في الحديدة لتلقي القبض عليه أو لتصدّه عن التحرك إلى «حجّة» .

ضرب عصفورين بحجر:

ولما تم له ما أراد وتوهم الجميع أنه متجه إلى «صنعاء» لمناجزة من فيها بقي همّه الأكبر وهو كيف الوصول إلى وكره الحصين «حجّة» دون أن يعرقله أو يقضي عليه حليف الوزير ورجله في تهامة الشيخ السيد «هادي هيج» ، وهو صلب العود جبّار يملك معظم أراضي وقرى وسهول ووديان البلاد التي

تفصل بين الحديدة و«حجّة» وكان الإمام أحمد يحسب له ألف حساب وليس لصلته بالإمام عبدالله الوزير فقط بل ولأنه يعرف أنه على صلة وثيقة، وصداقة متينة بالملك عبدالعزيز آل سعود وابنه الأمير «الملك» فيصل؛ ولذلك فقد فكر في أن يضرب عصفورين بحجر فأرسل رسالة إلى السيد هادي هَيْج أنه يريد مقابلته في مكان ما يعيّنه ويختاره لأنه يريد «الهجرة» إلى حرم الله ولم يعد يستسيغ ولا يطيق البقاء في اليمن بعد قتل أبيه واخوته ولا يريد أن يثير فتنة لا تصيب فقط الذين ظلموا، وأنه يطلب منه التوسط عند الملك عبدالعزيز آل سعود وإشعار الوزير بهذا و بعث بواسطته رسالة إلى الملك عبدالعزيز يعزّيه في والده و يطلب منه السماح له باللجوء مع مرافقيه إلى المملكة؛ وقد صدّق السيد هادي هيج كل ذلك وفرح به وهرع لمقابلة السيف أحمد ولسان الحال يتلو «وكفى الله المؤمنين القتال» وانخدع مع الإمام «الوزير» بقول الإمام أحمد وانطلت عليهما الحيلة.



النهود إلى حجة وصدفة ابن الأحمر

التظاهر باللجوء إلى المملكة:

وما إن التقى «أحمد» بالسيد هادي هيج حتى أظهر له الأسى والحزن وأخبره بمصرع والده الإمام يحيى وأخويه الحسين والمحسن وابن أخيه الحسن ورئيس الوزراء عبدالله ثم قال له: لا يطيب لي العيش ولن يطيب بعد قتل أبي وأهلي؛ فإما أن أثأر لهم وأنتقم وأقلب عاليها سافلها، فأثير فتنة تقضي على الأخضر واليابس، وأسبّب ما قد يغضب الربّ من بلاء وشر سيلحق بالبلاد والناس، وإمّا أن أخضع وأستسلم ودون ذلك خرط القتاد؛ وقد استخرت الله وفوضت إليه أمري وأمر «ابن الوزير» وقرّرت اللجوء إلى بيت الله الحرام ثم جوار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنوّرة بقية العمر؛ وأريد أن تخبر «الوزير» إنّ دم الإمام وأولاده في ذمته، وعليه أن يبحث عن القتَلَة ويجري فيهم أمر الله؛ وإذا كان هو الذي دبّر الاغتيال فسينتقم الله منه، ولن يتم له شيء؛ وكذلك أريد أن تطلب لي الأذن من الملك عبدالعزيز آل سعود بدخول المملكة السعودية مع رفقائي فقال السيد هادي: كل شيء جاهز وأنا تحت أمركم، وقد بعثت رسالتكم إلى الملك بواسطة أمير جيزان مع برقية منّي كما أني قد أبرقت إلى السيد عبدالله الوزير بما تنوون عمله وعاد جوابه بأن أسهل لكم كل ماتطلبون، وهو يقسم الإيمان المغلّظة أن لا دخل له في اغتيال الإمام يحيى وأن العلماء وأهل الحل والعقد هم الذين حمّلوه حجّة الدعوة والقيام بالأمر وسيبحث عن الجناة و ينفذ فيهم حكم الله و يناشدكم الله والعقل ألا تثيروا فتنة فاطمأن الإمام أحمد إلى أنه قد أصاب هدفه الرابع فتظاهر بالارتياح وهب مع «عكفته» قائلاً سأنهد إلى حجّة لأحزم أشيائي الخاصة من أوراق ومال، وأستصحب أخواتي و بناتهن و بعض الأرحام وأتوجّه معهم نحو «جيزان» براً أو بحراً إذا هيأتم لنا سفينة خلال ثلاثة أو أربعة أيام حتى يأتيك السماح من الملك عبدالعزيز لنا بدخول المملكة ثم عانقه ومضى في سبيله مجتازاً «القناوص» فالطور فسوق «الأمان» وتسلّق عقبة الوكر العتيد «حجّة» ولسان حاله ينشد:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أوّلٌ وهي المحـــلّ الثاني

ومن غرائب الصدف وعجائب الأقدار أنه وهو في طريقه إلى «حجّة» رأي عصبة بأسلحتهم فسأل عنهم فقيل له: هذا حميد ابن الشيخ حسين بن ناصر مبخوت الأحمر يطوف أملاكهم وأموالهم وكان شاباً وسيم الطلعة، ذكي الفؤاد فاستدعاه وهش له و بش ولم يخبره بشيء سوى أن رحّب به وأركبه في سيارته وكأنما ساقه القدر ليتخذ منه «رهينة» يضمن بها ولاء أبيه شيخ مشايخ حاشد؛ وعندما وصل إلى «حجّة» وجدها قد رتّبت من قبل نائبه السيد عبدالملك المتوكل ووكيله يحيى العجّا وكان يعتمد

عليهما و يثق بهما ولا شك أنه كان قد أمرهما بما يصنعان إذا سمعا عن «صنعاء» أمراً مريباً؛ ثم كتب خطاباً إلى الشيخ حسين بن ناصر الأحمر جاء فيه ما معناه: «لقد بلغكم ما كان من البغاة من اغتيال الإمام وأولاده فالبدار البدار بجمع وتحشيد القوم لنصرة دين الله، وغزو صنعاء، وولدكم حميد عافاه الله في صحة معنا كأحد أولادنا؛ وانتظروا ما يصلكم منّا من أوامر فقد كتبنا إلى جميع مشايخ اليمن، وسمّى نفسه أمير المؤمنين الإمام الناصر لدين الله رب العالمين.

مع الأشباح:

لاشك أنه حين فلت من قبضة كل كمين ما بين تعز والحديدة وسوق «الامان» كان وهو يتسلّق عقبة غابته كالنمر الجريح حزيناً يتصوّر الأشباح الرهيبة تتواثب حوله؛ أشباح من قُتِلَ من أهله وذو يه، وأشباح منافسيه ومعارضيه من السادة والقضاة والمشايخ والأحرار والشعراء والأدباء والمثقفين والدستوريين وفيهم أخوه وابن أبيه سيف الحق ابراهيم، وأكبر شعرائه محمد محمود الزبيري وخطيب اليمن أحمد نعمان وكل كتّابه ومساعديه حتى كاتبه الخاص ومعتمده في «صنعاء» أحمد الشامي الذي ما كان يتصوّر أنه كان سيكون أوّل من يذيع نبأ انتخاب السيّد عبدالله الوزير إماماً دستورياً و يقرأ بصوته المعروف لديه الميثاق الوطني المقدس، ثم شبح معلّم الجيش العراقي الرئيس جمال جميل وأشباح من يظنهم معه في «بغداد» ثم.. ثم شبح ذلك الخطيب الهادر، والعبقري المغامر، الذي هبط إلى اليمن من الجزائر كالصقر الكاسر الفضيل الورتلاني ومن وراءه من الإخوان المسلمين.

تبليغ الملك بأنه سيناجز «الوزير»:

لم يضيّع «الإمام أحمد» فرصة ولا وقتاً بعد وصوله حجّة بالرغم من أنه كان وحيداً فبعد أن كتب الرسالة إلى الشيخ حسين الأحمر؛ كتب إلى السيد هادي هيج رسالة، وافتتحها بقوله: «من أمير المؤمنين الناصر لدين الله رب العالمين إلى الأخ الصديق السيد هادي» وشكره فيها على موقفه وأخبره أنه بعد وصوله حجة تواردت إليه برقيات الإنكار لما فعله الوزير وأصحابه ــ وسمّاهم البغاة ــ بصنعاء، وأنه قد استخار الله وقرّر القيام بالحُجّة والأخذ بثأر الإمام الشهيد وأنه قد حرّر رسائل و برقيات إلى كل مشايخ وعلماء وقبائل اليمن وسيغزو «صنعاء» بجحافل لا قبل لمن فيها بها ولذلك فلا لزوم للسفينة وحثّهُ على المحافظة على بلاده والاستعداد للجهاد، وطلب منه أن يبلّغ الملك عبدالعزيز أنه قد صرف نظره عن المهاجرة إلى الحرم الشريف إلى ما بعد النصر؛ ولم يكتف بذلك، بل وأرسل برقية إلى الملك عبدالعزيز ذكر له فيها ما كان من اغتيال والده الإمام يحيى ورئيس الوزراء عبدالله العمري وأخو يه الحسين والمحسن وابن أخيه الحسن وغيرهم، وأنه كان قد طلب اللجوء إلى بيت الله ولكنه الآن وقد استنكرت ما كان قبائل اليمن وحمّلته حجّة الدعوة والأخذ بثأر الإمام قد غير رأيه وقرّر مناجزة الوزير وأنه يأمل في أن نقف ملوك وزعماء المسلمين في صفّه ويحكّمهم وكتاب الله وشريعة الإسلام فيما بينه و بين من سمّاهم البغاة بصنعاء إذا لم يسلموا إليه قتلة الإمام يحيى والمتآمرين على اغتياله.

موقف الإمام عبدالله الوزير بصنعاء:

كان ذلك هو موقف الإمام أحمد الشارد من «تعز» بعد أن وصل «وَكْرَهُ»، وحصنه الحصين «حجّة» أما موقف إمام الدستور عبدالله بن أحمد الوزير فلقد كنت بجانبه بقصر «غمدان» ظهر يوم الأربعاء ٨ ربيع الآخر/١٨ فبراير ثاني أيام الثورة عندما وصلته برقيّة من «تعز» أن أحمد قد اتجه نحو صنعاء مع ثُلّة من الجيش و«عكفته» وحرسه الخاص، وأخرى من نائب الحديدة القاضي حسين الحلالي أن «أحمد» توجه نحو «باجل» في طريقه إلى «صنعاء»؛ وقد تأخر وصول هاتين «البرقيتين» إلى ظهر اليوم التالي مع أنهما تفيدان أنهما أرسلتا من نائبي تعز والحديدة مساء اليوم الأول! ولا يُدْرَى حتى اليوم ما سبب تأخيرهما في بيت «البرق والبريد»، وهل ثمة علاقة بتدبير مسبّق من قبل «الإمام أحمد» مع المسؤولين عن البرقيّات وسحبها في كلٍّ من «تَعِز» و«الحديدة»؟؟ سؤال كبير لا جواب عليه عندي!

لا نجوت إن نجا:

وعلى كلٍّ فما أن قرأ الوزير البرقيّتين حتى هبّ واقفاً هبّة الملدوغ وهو يقول: خدعهم «أحمد» وشرد وهو في طريقه إلى «صنعاء»، لا نجوت إن نجا؟! قلت: وما العمل؟ وبماذا تأمرون؟ قال: سأواجهه فوراً إلى «باجل»! ثم أردف: لماذا يا ترى أخّروا إشعارنا البارحة؟ لو أنهم أخبروني لما وصل الحديدة إلا وأنا أمامه.. لا شك أن ثمة خيانة!! ثم أمرني بأن أتوجه فوراً إلى الرئيس جمال جميل العراقي وأطلب منه تجهيز ضبّاط وطلبة المدرسة الحربية وإعدادهم مع سريّة أو سريّتين من خيرة الجيش النظامي والدفاعي مع الأسلحة اللازمة، والذخيرة الكافية ـ ويحشر كل السيارات الموجودة بصنعاء، و يعدّهم للعزم فوراً وهو بدوره سيُعدّ من لديه بالقصر وسيقود الحملة بنفسه.

وذهبت إلى الرئيس جمال وأطلعته على جلية الأمر وأن «أحمد» في «باجل» متجه بقوة صوب «صنعاء» فكان جوابه أن تساءل: لماذا تأخّر الاخوان في «تعز» عن أخبارنا البارحة؟ لقد ضيّعوا علينا فرصة عشرين ساعة ربما غيّرت مجرى التاريخ اليمني ولكن لا تبـك على اللبن المراق وخلال ثلاث ساعات كانت هناك قوة ضاربة بكامل عدّتها وعتادها، ورجعت إلى القصر مقر الإمام عبدالله الوزير لأجده بين أوراقه يضحك و يقول: لقد «كفى الله المؤمنين القتال»!. قلت: بماذا فإن كل شيء معدٌّ كما أمرتم؟ فأطلعني على برقية من السيد هادي هيج يخبره فيها بما سبق أن فصلته من أن سيف الإسلام الأمير «أحمد» يريد مغادرة اليمن والالتجاء إلى بيت الله الحرام مهاجراً، وأنه لا يريد أن يثير فتنة وكل ما يطلبه هو محاكمة الجناة، وقال قد أمرنا السيد هادي أن يسهّل سفره مكرّما وسنكتب أيضاً إلى الملك عبدالعزيز، فاذهب إلى الرئيس جمال لكي يلغي الحملة؛ وقد سررت نفسي بالخبر، وأصابني ما أصاب الإمام من خَدَر، وكذلك فعل جمال وهو يقول: «الحمد لله» وكان ما كان ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

٢٢ـ موقف الملك عبدالعزيز آل سعود :

كان بطل جزيرة العرب الملك عبدالعزيز يراقب الأحوال في اليمن بحذر وإشفاق منذ تدهورت صحة الإمام يحيى، وكثرت الانتقادات عليه وعلى تصرّفات بعض الكُتّاب، والعمّال والحكّام والقضاة، وزاد تبرّم الناس وتكرّرت الاعتقالات للأدباء والشعراء والمثقفين، وارتفعت أصوات تطالب بالتغيير وتناشد بالإصلاح، واشتدت حدّة تلك الأصوات في الداخل والخارج؛ وكان الملك عبدالعزيز على علم ومعرفة بما تعانيه وتقاسيه اليمن، إذ أنه كان ومنذ نشبت الحرب بينه و بين الإمام يحيى مَرْجعاً لشكاوى زعماء اليمن وعلمائها وأحرارها ومن ضاقت به قسوة العيش أو عنت المسؤولين والحكام. وإليه قد بث شكواه الأمير علي بن عبدالله الوزير عندما ذهب للحج وتأخر لديه مع ابنه عبدالله والشاعر محمد محمود الزبيري قبل حركة الدستور بعشر سنين، ومن قبله المؤرّخ المصلح السيد محمد بن محمد زبارة، وقد ذكر العلامة عبدالله الشماحي في كتابه «اليمن: الإنسان والحضارة» الرسائل التي بعث بها معه بعض علماء وزعماء اليمن إلى الملك عبدالعزيز.

كما أن «حزب الأحرار» عندما تكوّن في «عدن» عام ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤م قد بعث إليه بعدّة رسائل و بعضها بخطّي وتوقيعي وموقّعة أيضاً من قبل الزملاء الأساتذة أحمد محمد نعمان ومحمود محمود الزبيري وزيد بن علي الموشكي والشيخ مطيع دماج وغيرهم وفيها شكوى من تردّي الأوضاع، ومطالبة الملك عبدالعزيز بأن ينصح الإمام يحيى بالاستجابة إلى الذين يناشدونه بالإصلاح وتحسين الحال، وفتح المشاريع العمرانية والزراعية والصحية والثقافية، و بعض تلك الرسائل لدن الأستاذ أحمد نعمان، وإذا سمح لنا بصور منها فسنثبتها في ملحق الوثائق إن شاء الله. ولقد كانت تناشد الملك عبدالعزيز وسائر ملوك وزعماء العرب والمسلمين بأن يضغطوا بالنصح على الإمام يحيى وأولاده بتحسين أحوال اليمن إدارياً وألا تُترك فريسة للتخلف والجهل والفقر والأمراض ومطامع المتنافسين والمتربصين في داخل البلاد وخارجها.

كان الملك عبدالعزيز ينصح الإمام بالإصلاح:

وكان الملك لا يألو نصحاً ولا جهداً في توجيه الإمام، وتهدئة الثائرين، وإيواء الشاردين، ومواساة المعوزين، والتوسط بين الإمام و بين المعارضين والمناشدين بالإصلاح كما صنع مع السيد محمد زبارة والأمير علي الوزير و بعض مشايخ صعدة وتهامة، وليس مراعاة لروابط الصداقة أو السياسة فقط؛ بل ورغبة صادقة منه في أن يشمل الاستقرار وتسود الطمأنينة اليمن وأن تحافظ على استقلالها وعقائدها، إذ أن ذلك من الواجبات الدينية والقومية في نظره باعتباره حامي حمى الحرمين الشريفين وحامل راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ويخشى إذا جرى في اليمن اضطراب أو حدث شر أن يسري ذلك الشر و يستفحل، وتصعب معالجته أو مداراته.

وعندما رجعت مع الموشكي من «عدن» وطلبت مقابلة الإمام يحيى في رسالة أجاب عليها بخطه:

«لا نحبّ وصولك إلينا ولا سيما بعد أن قرأنا رسالتكم إلى الملك ابن سعود» .. فعرفت أن الملك لم يهمل رسالة الأحرار من «عدن» إليه وأنه قد نصح الإمام وأطلعه على الرسالة وما فيها من المطالب الإصلاحية ونصحه بما يراه خيراً له ولليمن.

وأعتقد أن الملك عبدالعزيز كان يخشى ما قد يحدث من فوضى بعد وفاة الإمام يحيى، وما قد ينشب من اختلاف بين الأمراء أولاده و بين بعض الزعماء الذين لا يرتضون بابنه الأكبر والأقوى سيف الإسلام أحمد خليفة له، وأنه قد بلغه الاجتماع الذي عقد بين بعض المرشّحين للإمامة من علماء اليمن كالسيد عبدالله الوزير والأمير علي الوزير والسيد علي بن حمود شرف الدين والسيد حسين الكبسي وغيرهم وأنهم قد اتّفقوا ومعهم أيضاً سيف الإسلام الحسين بن الإمام يحيى على معارضة الأمير أحمد إذا ادّعى الإمامة، وارتضوا اختيار عبدالله الوزير لأنه أرشد وأجمع لشروط «الإمامة الزيدية» في نظرهم.

وكان يخاف على استقلال اليمن واستقرارها:

ولا أستبعد أن الملك عبدالعزيز كان يودّ في قرارة نفسه أن تؤول السلطة إلى عبدالله الوزير بعد الإمام يحيى و يرجّحه على الأمير أحمد لمعرفته بعبدالله الوزير وحنكته وعلمه ونزاهته، ولأن أحمد كان يصغى في مجلسه لإشاعات وأفكار لا تلتئم مع الودّ والصداقة الخالصة التي يريدها الملك أن تدوم بين اليمن والمملكة العربية السعودية، ولكنه كان شديد الالتزام بسياسته الثابتة نحو اليمن وهي عدم التدخل في شؤونها الداخلية، ونصح حكّامها قدر الإمكان، ومساعدة وتدعيم كل ما يضمن لها الاستقرار والازدهار، والمحافظة على استقلالها.

وقد استبشع —ولا شك— قتل الإمام يحيى الشيخ المسن الذي تجاوز الثمانين وقتل أولاده ورئيس وزرائه؛ ومن قِبَلِ حركة يتزعمها ابن الإمام «سيف الحق ابراهيم» و يكون إمامها السيد عبدالله الوزير الذي كان يتمنّى لو أنه انتظر وترك الأمور تجري طبيعية، وخاف أن تسود الفتنة عموم اليمن وتعرض استقلالها وأمنها للخطر، ولذلك فأظنّ أنه قد ارتاح لما طلب منه الأمير أحمد السماح له بالهجرة إلى بيت الله الحرام، واللجوء إليه ورأى فيه الخلاص لليمن، واستتباب الأمر لصديقه عبدالله الوزير أكبر زعماء اليمن حينذاك في نظره بل وفي نظر الكثير من علماء وعقلاء اليمن.



رسول المملكة لاستقبال أحمد لاجئاً

ولقد حدثني الأخ السيد أحمد الحازمي أن الملك عبدالعزيز لما وصلته رسالة الإمام أحمد التي يطلب فيها منه السماح له مع رفقائه وحرسه باجتياز حدود المملكة أمر فوراً إلى أمير منطقة «جيزان» باستقباله الاستقبال اللائق والإذن بدخول حرسه بأسلحتهم الخفيفة فقط! وكان تكليف السيد أحمد الحازمي بمواجِهته إلى الحدود ليسهل له ما يطلب ولكن الحازمي لم يجد أحداً في الحدود فتجاوزها إلى «حرض» فلم يسمع عنه خبراً، فنهد إلى «عَبْس»، وهناك عرف أن الإمام أحمد قد تلقّب بالناصر لدين الله وأنه في «حجّة» يحشّد الحشود، ويجنّد الجنود، و يستعد لحرب ضروس، فلم يرَ بُدّاً من الذهاب إليه ليبلغه ترحيب الملك عبدالعزيز به و بحرسه، فقابل في طريقه إليها رُسَلَ الإمام أحمد إلى المشايخ وزعماء القبائل برسائل تهيّج الجميع، وتحرضهم على خوض معركة طاحنة ومناجزة البغاة قتلة الإمام يحيى وسحق «صنعاء»، الخ..

ولما وصل الحازمي إلى «حجّة» ودخل على الإمام أحمد وكان يعرفه معرفة شخصية منذ كان يدرس في صنعاء بالمدرسة العلمية قال لي إنه قد هشّ له و بش، وقال: أهلاً بولدنا صفي الإسلام لقد جئت على قَدَرٍ فها أنت تراني كما قال أبوالطيب المتنبي:

وحيد من الخلاّن في كلّ بلدة ... إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وأردف: لقد تحول ضدي وانقلب عليّ كل أصحابي من العلماء والشعراء والكتّاب ولم يبق معي إلاّ الله والقبائل، وذلك حسبي وها قد ساقتك الأقدار إليّ لمساعدتي خذ «الراديو» وعليك بتتبع والتقاط إذاعات «صنعاء» و«مكة» و«القاهرة» و«بغداد» و«لندن» وتلخيصها وموافاتي بأخبارها، ودعني أتفرّغ لمراسلة مشايخ وزعماء القبائل ومقابلة الناس وتحشيد الحشود، قال الحازمي: فأخبرته أني وصلت من المملكة لمقابلته في الحدود بأمر الملك عبدالعزيز وأنه يرحّب بمقدمه، فقال أحمد لقد شكرت الملك على نبل موقفه وأخبرته بأني قد غيّرت رأيي عندما وصلت حجة وتوافدت قبائل اليمن هائجة، تطالب بقتلة الإمام ومناجزة الباغين على إمام الحق ـ يقصد نفسه ـ وقلت له إني: لا أطلب منه إلا التأييد والعون الأدبي، والوقوف ضد أي تدخل أجنبي ولاسيما من قبل النصارى بعدن، وأنه وملوك العرب والمسلمين والجامعة العربية الحكم فيما بيني و بين قتلة الإمام والبغاة خشية شمول الفتنة والقضاء على الأخضر واليابس.



سياسة المملكة العربية السعودية الثابتة نحو اليمن

هذه هي حقيقة موقف الملك عبدالعزيز آل سعود والمملكة العربية السعودية من حركة الدستور سنة ١٣٦٧ هـ والتي يسمّونها: «ثورة سنة ٤٨» لم يكن هناك أي تدخل لجانب ضد آخر، وليس صحيحاً أن المملكة قد أمدت «الإمام أحمد» بالسلاح والمال؛ وليس صحيحاً أن الملك عبدالعزيز قد حرّض أحمد على الثبات ومنعه من الالتجاء إلى المملكة أو عارضه مهيّجاً ضد الثورة ووعده بالنصرة والعون والإمداد. وكل ما قيل حول ذلك إما أعذار من قبل الذين غلبوا على أمرهم؛ لأنهم لا يحبون الاعتراف بالواقع وهو أن قبائل اليمن كانت مع «أحمد الجني» إما جهلاً، أو خوفاً، أو طمعاً، في النهب أو كل ذلك وهو ما قد بينه وفصّله العقلاء والشجعان من رجال تلك الحركة أمثال الأستاذ محمد محمود الزبيري والقاضي عبدالله الشماحي والأستاذ أحمد نعمان والقاضي عبدالرحمن الارياني وغيرهم ممن لا ينكرون الحقائق.

وإما قالوا ذلك وزعموا مازعموه باطلاً وكيداً وافتراءً كما صنع الدكتور عبدالرحمن البيضاني عندما زعم أن المملكة أخرت الوفد اليمني وعرقلت وفد الجامعة العربية بقصد إفشال ثورة ١٩٤٨م وقد سبق تفنيد ذلك وتزييفه وبيّنا بطلانه.

وإمّا زعموه لبذر الفتنة والشقاق وخلق الكراهية بين البلدين نصباً وعداءً للعرب والمسلمين من قبل أعداء العروبة والإسلام.

فسياسة الملك عبدالعزيز وسياسة أبنائه من بعده كانت وظلّت وستظلّ متوارثة ثابتة إن شاء الله هي ما سبق أن قلناه سياسة عدم التدخل في شؤون اليمن، والنصح الصادق والمساعدة الخالصة وتدعيم كل ما يضمن لها الاستقرار والرخاء والازدهار؛ يسودها السلام ويوحّد بين أبنائها الإخاء والمساواة.

أمر الملك ابنه فيصل بالانسحاب:

وهذه السياسة الرشيدة الثابتة هي التي دفعت الملك عبدالعزيز بعد أن توغّل ابنه الأمير [الملك] فيصل إلى «الحديدة» وتسلم رسائل التأييد من زبيد واب وغيرهما؛ أن يأمره بالانسحاب والعودة إلى الحدود السعودية الرسمية، وحكم الإمام يحيى فيما شجر بينهما وأشهد على ذلك زعماء العرب وفي مقدمتهم الأمير شكيب أرسلان والسادة هاشم الأتاسي ومحمد علي علوبة والمفتي الحاج أمين الحسيني.

ولقد أخبرني الملك فيصل بن عبدالعزيز أنه لمّا تلقّى أمر أبيه الملك بأن ينسحب من الحديدة والأجزاء التي احتلها من أراضي تهامة وكان قد طلب منه الإذن له بالتحرك والتوغل نحو «زبيد» جنوباً و«باجل» شرقاً لأن الموقف في قبضته من الناحية العسكرية وبتأييد الأهالي أجاب الملك عليه

بلهجة جادة ألا يتأخر عن «الانسحاب» وقال إنه قال له عندما لقيه في حديث طويل: نحن لا نريد الحرب ولا نرضاها بين الإخوة المسلمين ولا نطمع في زيادة أرض؛ واليمن منذ خلقها الله يحبّ أهلها الاستقلال وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وقد كانت تسمّى «مقبرة الأتراك» ولا أريد أن أضيع رجالي في جبالها وأدغالها.

موقف الملك فيصل في الخرطوم:

وتلك السياسة الحكيمة الثابتة المتوارثة هي التي حَدَتْ بالملك فيصل إلى معارضة الرئيس جمال عبدالناصر عندما اجتمعا في بيت رئيس وزراء السودان محمد أحمد محجوب لوضع خطوط المصالحة والسلام بين اليمنيين لما اقترح الرئيس عبدالناصر بأن تتعاون مصر والسعودية على فرض حكومة تنتقى من الأكفاء الذين يختارونهم من بين رجال اليمن من أصدقاء الدولتين وعليهما أن يدعما تلك الحكومة وأولئك الأكفاء بالمال والسلاح ضدّ أي معارض أو منافس وعرض استعداده لإبقاء قوة ضاربة من الجيش المصري لذلك الغرض تحت أمر الملك فيصل وقال له: اختر من تريد من الملكيين والجمهوريين والقوة الثالثة والمنشقين وسمى أشخاصاً معينين ضرب بهم مثلاً! وليشكّلوا حكومة يمنية سمّها ما شئت وجنبني فقط أمراء آل حميد الدين أو الكبار منهم ـــ ولو مؤقتاً ـــ صيانةً لماء وجهي! فكان ردّ الملك فيصل: نحن لا نقبل أي حل لمشكلة اليمن لا يقوم على أساس مبدأين:

الأول: عدم تدخل أي دولة عربية أو غير عربية في شؤون اليمن وانسحاب القوّات المسلحة المصرية منها، ووقف الدعم المالي السعودي حين يتم ذلك الانسحاب.

والثاني: أن يترك لأبناء الشعب اليمني تقرير مصيرهم ومصير بلادهم بأنفسهم، وأن يختاروا نوع الحكم المقبول لديهم مهما كان اسمه والحكام الذين يرتضونهم و يريدونهم و ينتخبونهم.

ولقد روي لي ذلك السيد محمد أحمد محجوب و بحضور الأخ الأستاذ أحمد محمد نعمان عندما وصل محجوب لعلاج قلبه إلى لندن وذهبت لزيارته مع الأستاذ إلى المستشفى وكان ذلك قبل أن أنتخب معه عضوين في المجلس الجمهوري ونعود إلى صنعاء.

وقد تصرّفت «دار النهار» ـــ ذات الميول المعروفة ـــ عندما ترجمت كتابه «الديمقراطية في الميزان» وهو موجز مذكرات محجوب التي كتبها باللغة الإنجليزية فحذفت وغيّرت ونشرتها كما أرادت، ثم جاء الدكتور عبدالرحمن البيضاني وزعم أن «محجوب» قد روى له أحاديث مع أنه كان يحمّل «البيضاني» وزر التدخل المصري و يقول ذلك علناً وأشار إليه في كتابه وذكر محاولاته لعرقلة مساعيه واللجنة العربية من أجل إقرار السلام في اليمن بعد مؤتمر الخرطوم واتفاق الرئيس عبدالناس والملك فيصل على ذلك وقال «محجوب»:

«إن تأييد ناصر العسكري للجمهوريين ضد الملكيين في اليمن يجب أن يذهب في التاريخ كأخطر أخطائه».

ولولا تضليل البيضاني لما حصل ذلك الخطأ الكبير؛ ثم ها هو و بعد أن ساد السلام والوئام وتنقى الجوّ بين الإخوة أبناء اليمن من كل الفئات، وتوثقت عرى التعاون الصادق بين الدولتين الشقيقتين المملكة العربية السعودية وعلى رأسها جلالة الملك فهد وارث تلك السياسة الرشيدة الثابتة، والجمهورية العربية اليمنية وعلى رأسها فخامة الرئيس القائد القوي الأمين علي عبدالله صالح.. نعم ها هو البيضاني يدس أنفه من جديد ويحاول الكيد بين اليمنيّين، وإثارة الأحقاد والسخائم فيما بينهم، وتعكير صفو العلاقات الودّية بين الدولتين فيشوه الحقائق و يكذب على التاريخ ولكن الله والتاريخ والحق بالمرصاد.

٢٣ ـ رأي المفتي السيد أحمد زبارة:

ولكي تكون صورة الحالة في اليمن واضحة ولا سيما في العشر السنوات الأخيرة من حكم الإمام يحيى سأستشهد برأي شاهد عيان وهو أستاذي العلامة السيد أحمد بن محمد زبارة مفتي الجمهورية العربية اليمنية اقتطفتها من مذكراته التي أهدانيها بخطه يقول:

كان الملك يحاول الصداقة والتعاون وحسن الجوار مع الإمام فأرسل إلى صنعاء وفوداً بعضها برئاسة عبدالوهاب بن مشيط وبعضها برئاسة أبو لعثة ابن دليم ومع كل الوفود تركي بن ماضي الذكي المخلص.

وقبل ذلك أرسل ابنه الأمير محمد ومعه خالد القرقني. ومرة ابراهيم بن معمّر وكانت تبقى الوفود بصنعاء أكثر من شهر بدون ضابط ومع آخر وفد أرسل الإمام السيد قاسم العزي والسيد محمد زبارة والسيد عباس بن أحمد فقال زبارة للإمام ما نيتكم المصالحة أم لا فقال لا لا. فذهب الوفد للمغالطة فقط ثم أرسل الإمام ولي عهده إلى صعدة والحسن إلى نجران وعسكر الإمام تتقدم في نجران وفيفا و بني مالك والمفاوضة جارية واستدرج الإمام الأدارسة مع أن الملك هو الوصي عليهم وأمدّهم الإمام بسلاح ومال و وعدهم فخالفوا على الملك فعيل صبره بعد أن رفع له تركي بن ماضي تقريراً هاماً أن الإمام يغالط حتى تمكنه الفرصة للحرب وأن يزحف في البلاد في حال المفاوضة وأنه لا أمل في المصالحة معه فكتب الملك للإمام ولم يبق إلا امتشاق الحسام بعد أربعة أيام يوم الثلاثاء فضاقت الأرض بما رحبت على الإمام لأنه كان يظن أن المغالطة ستنفعه. وفعلاً تقدم الجيش السعودي بقيادة الأمير فيصل إلى الحديدة وكان الإمام أرسل عبدالله الوزير فتفاوض مع فؤاد حمزة وغيره بدون ضابط. وكان الملك قد حكم على نفسه سابقاً في جبل عَرْو للإمام رجاء المصالحة و بعد النصر السعودي الساحق رضخ الإمام لمعاهدة الطائف وجاء وفد السلام شكيب ارسلان وهاشم الاتاسي ومحمد أمين الحسيني ومحمد علي علوبة فأمر الملك ابنه فيصلاً بالانسحاب على كره من فيصل وعرف الإمام قدر الملك ومن طالع الكتاب الأخضر الذي أصدرته الخارجية السعودية سنة ١٣٥٢هـ عرف صدق الملك وإخلاصه وحسن نيّته ومحاولته للمصالحة بكل ممكن والعكس في الإمام والكتاب الأخضر وثيقة تاريخية هامة.

وللمقارنة كان الإمام يحيى إذا أرسل مندو با لا يعطيه صلاحية وإنما يستمع و يبلّغه . وقصّة حسين الكبسي العظيم مشهورة فإنه كان مندو به في أول تأسيس الجامعة العربية لكن يستمع فقط حتى إن أم كلثوم حضرت حفلة غناء وهي مزكومة لا تغني فقالت أنا اليوم كبسي أستمع فقط فضعف أمر الإمام لأن رجاله الكملا لا يقدرون أن يعملوا بصلاحيتهم ومواهبهم . والمواهب من الله يقسمها ولا يخص بها ملكا ولا رئيساً ولا إماماً فبعض المرؤوسين عباقرة أكمل من رؤسائهم بكثير يجب أن تُستعل مواهبهم. كان معتمد الملك بمصر فوزان السابق صديق والدي فلما تقاعد لِكِبَره بعد أكثر من عشرين سنة بمصر أحب أهله وأولاده البقاء بمصر فأبقى الملك له البيت والسيارات والمرتبات وعيّن لخلفه مرتبات و بيتاً وسيارات جديدة.

٢٤ـ أمي .. وقصّة الميثاق:

ربما تساءل القارىء مستغرباً حديثي بإعجاب عن والدتي «أمَة الله بنت أحمد الشامي» وهل كانت على قسط من العلم والدراية بالأمور، وعلى قسط من الحرّية في تصرّفاتها ؛ وهل كان هذا متوفراً في بقية نساء اليمن أثناء تلك المرحلة ؟ ولرَفع اللّبس أقول:

لم يكن هناك أيّ قانون، أو تشريع يمنع المرأة من مزاولة شؤون حياتها الاجتماعية، أو الدينيّة، أو العلميّة ؛ في إطار التعاليم الإسلامية، والتقاليد المتوارثة والتي قد تتباين وتختلف بين منطقة أو مدينة، ومنطقة أو مدينة أخرى من مناطق ومدن اليمن ؛ كما تختلف وتتباين بالنسبة للريف والمدن، وكانت المرأة حرة التصرف في اتصالاتها المعيشية، وتصرفاتها الشخصية ــ في تلك الحدود أيضاً ــ و يتوقف تفوّقها، وتوفّقُها، أو عجزها وفشلها، على مواهبها الذاتية كالرجل تماما .. وقد يكون من المستغرب عند البعض ــ إذا قلت إن أمي كانت «أميّة» لا تقرأ ولا تكتب! نعم لقد حفظت وهي صغيرة ــ بتلقين أبيها وعمّها محمد ــ الذي كانت تكثر من ذكره، ويجري اسمه على لسانها أكثر مما يجري اسم أبيها ــ كلّ ما يهمّ من أمور الدين، وأذكار الصلاة، وسوراً من جزء عمّ يتساءلون، وسورتي «يس» و«تبارك الذي»، وآيات «القنوت»، وكانت تحفظ بعض أحاديث الدعاء المأثورة، وأسماء غزوات «الرسول» (صلى الله عليه وسلم) وكثيراً من قصص الأنبياء عليهم السلام وسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبار أهل البيت، ولاسيما ما قاسوه من متاعب ومصائب، ومصارعهم على أيدي الأمويّين والعباسيين، وتحفظ الأمثال الشعبية ولاسيما ما ينسب إلى «علي بن زايد» فلا تكاد ترى أو تسمع عجباً إلا قالت: يقول علي بن زايد: كذا وكذا ؛ مما يناسب المقام!. وكلّ ذلك جعلني أعتقد أنها تقرأ وتكتب، ولم أكتشف أنها «أميّة» إلاّ وأنا في حوالي «التاسعة» ؛ وبملاحظة عابرة لم أتعمّدها .. إذ قد كانت تطلب منّي قبل أن آوي إلى فراش النوم أن أتلو عليها ما حفظته من السور القصار، وتمسك «جزء عمّ» بيدها تقلّب أوراقه، فإذا غلطت، أو تلعثمت، صحّحت خطأي، وذات ليلة لاحظت أنها تسايرني بالتلاوة، وقد أمسكت «الجزء» معكوساً!. فلفتّ نظرها ضاحكاً .. فرمقتني بنظرة فيها

استحياء وكأنما أدركت أن عَمْراً قد شبّ عن الطوق، فلم تمسك المصحف بعد ذلك أمامي.

كانت ذكيّة، وذات شخصيّة تُحترم، بيضاء البشرة، واسعة الجبين، ذات عينين نجلاوين، ومن أسرة علم ووجاهة، وكانت تواظب على أوقات الصلاة، ولا يكاد يؤذن «لِلْمَغرب» إلاّ وهي في دارها وإذا تأخرت، ولم تكن على سجّادة الصّلاة، حَوْقلَتْ، واستغفرت، ولعنت إبليس، وهذيان المجتمعات، التي تؤخر الإنسان عن أداء الصلاة في وقتها!. وقد كرّسَتْ كلّ حياتها لحماية أولادها ورعايتهم.. فلم تتزوّج بعد وفاة أبي، رغم أنها كانت لا تزال في الثلاثين عندما توفّي، ومولدها تقريباً سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠١م، وتزوّج بها والدي حوالي عام ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م؛ وكانت قد تزوّجت بابن عم لها من سادة «المسقاة» ولمّا تتجاوز السادسة عشرة، ولكنّها قلَتْه، وفارقته، بعد أن رُزقت منه ببنت كان اسمها «ريحانة»، ثم حوّلته إلى «مريم» وهي أمّ السيّد هاشم بن يحيى بن محمد الشامي الموجود حالياً في «صنعاء»، وقد طلّقها زوجها، ولمّا مرّ والدي من المسقاة تعرّف عليها فتزوّجها، وأخذها معه إلى «الضّالع»، حيث ولدتني وأخي عبدالوهاب كما ذكرتُ آنفاً.. وعندما توفي جاءها خُطّاب كثيرون إذ قد كانت على جانب عظيم من الجمال والكمال لكنّها كانت تردّهم ردّاً جميلاً.. وفضّلت أن تتعبّد لتربيتنا ورعايتنا، وكانت تطحن، وتنزع الماء من البئر وتنظّف البيت، وتغسل الثياب بنفسها، حتى اشْتدّ ساعدي وتمكنت من مساعدتها بعد مضي سنوات، وكنا نعيش على حسابها بعد وفاة والدي وقبل أن يُجري لنا الإمام يحيى المخصّص الشهري، من بيت مال المسلمين فباعتْ بعض حُليّها، وملابسها، وأشيائها الثمينة.. إذ قد كانت شديدة الحرص على ألا نحسّ بمرارة اليتم، وأن نظلّ في مظهر حسن، مثل أولاد أعمامنا وأقاربنا، وفي مستوى يليق بأولاد «عامل الضالع»! وكان عمّنا حسن شقيق والدي و«عامل الضّحي» يتعهّدنا بالمساعدات السخيّة، وكذلك يعمل الوالد عبدالرحمن الشامي وسيف الإسلام محمد، ثم أخوه ولي العهد أحمد كما ذكرتُ سابقاً.. لكن الفضل الأكبر في رعاية طفولتي يعود إلى أمّي أَمَة الله بنت أحمد الشامي عليها الرحمة والرضوان.

عنزة ودجاج:

ولقد اشترت لنا «عنزاً» ما إن مضى وقت قصير حتى ولدت أخرى احتفلنا بها احتفالاً لا أنساه، ودرّت وسخَت باللّبن؛ نرتوي منه صباحاً، ومساءً؛ كما أنها قد اقتنت دجاجاً وديكاً.. فامتلأ المخزن بالبيض نأكله مشوياً، ومغلياً، في الصباح، وفي المساء، وكانت «تُدجّج» و«تستفرخ» في كلّ عام مرتين أو ثلاثاً.. وتربّي «الصُّوصان» والأقراب اللاتي كنّا نلعب معهن، ونعجب من ألوانهن، وأشكالهن المتطورة يوماً يوماً؛ ألوانا وأشكالاً، ونتفرّس ونحدس من هو منهنّ الذكر، ومن هي الأنثى، فإذا كبرن أبقت الأم «الأناثي» وذبحت «الديكة» الأوّل تلو الآخر؛ وتقليهن أو تشويهنّ، وتتفنّن في طبخهنّ. وإذا كثرت «الدجاج» لا تحتفظ منهن إلاّ بعشر، وديك، وتذبح مازاد؛ فلم تخل وجباتنا من لحم «الفراخ»، وكل أنواع المأكولات الطيّبة التي يتوقف صنعها على «الحليب» و«البيض» و«البر» و«السمن» ولا يكلفها ذلك إلاّ العناية بالعنزة التي يأتي «راعي الحارة» لأخذها صباح كل

يوم مع «عنز» الجيران إلى سفوح جبل «نقم» و يعود بها قبل الغروب، مقابل أجر زهيد، ورعاية «الدجاج» وكنا نتبارى في إطعامهن، و يدها الصّناع التي أتقنت صنع كل أنواع المأكولات اللذيذة في بلاد «السبّية» المشهورة بـ«وادي بنا»، وكان خالي علي رحمه الله.. يبعث لنا، و يوصل معه إذا زارنا كميّات وافرة من السّمن والعسل و«وادي بنا» يُنتج الطيب الجيد منهما.

أختان رائعتان:

وكانت تحرص أيضاً على أن نظلّ شديدي الارتباط والصلة بذو ينا وأقار بنا، وتذكرنا بما ورد في فضيلة صِلة الأرحام من آيات وأحاديث تعلمتهُنّ من عمّها «محمد»، وأنّ من يقطع صلة الرحم، فكأنما قطع صلته بالرحمن الرحيم، ولا تمرّ فترة قصيرة حتى تأمرنا بالذهاب إلى أختيّ لأبي «شمس الضحى» و«أمَة الرزاق» المقيمتين عند جدّهن لأمهنّ الوالد عبدالرحمن الشامي في بيت «الخرّاز» وأن نعزم عليهنّ، ونستضيفهنّ، للبقاء معنا يوماً أو يومين، وكنّا نرتاح لرؤيتهما، ونسرّ بهما كثيراً؛ وكانت أختى أمة الرزاق تكبرني بحوالي ست أو سبع سنوات، وقد تزوجت بالسيد محمد بن أحمد الوزير حفيد الوالد عبدالرحمن وابن خالتها، وكانت لطيفة المعشر، مرحة الطبع، تحب النكت والنوادر، تقرأ وتكتب، وتقول الشعر الحُميني، وتجيد سرد الأقاصيص البديعة عن ملوك الزمان، واللصوص وقطاع الطرق، والمغامرات الغرامية، والبطولات الإنسانية، كما أن أختي شمس التي تكبرها ببضع سنوات والتي لا تقول الشعر الحميني ولكنها تقرأ وتكتب وتشارك أختها في لطف الطباع وحسن المعاشرة وتنفرد بحفظ الأقاصيص المرعبة والعجيبة من الجـنّ، والعفاريت، والسحـر، وعجائب المخلوقـات، والحيوانات، وكنت مع أخي نستمتع أيّما استمتاع، بما نسمع منهما من نوادر وأقاصيص وأخبار، وحكايات عن أبي، وإخوتي الذين تصرّعوا تباعـاً قبل و بعد وفاة والدي بالحُمّى، والجدري؛ وكانوا حوالي العشرين أو يزيدون، ونعجب حيث لم يعش منهم إلاّ بنتان من أم، و ولدان من أم أخرى.

انتحابها على البدر:

ولم تكن أمي تلقّننا الولاء للإمام يحيى، ولا تتهافت على المضي إلى النبّاك لرؤيته إذا مرّ بموكبه الفخم من شارعنا كما تفعل سائر نساء صنعاء، ولم أسمعها تدعو له وكأنّ ذلك تعصّباً منها لزوجها؛ لما جَرى بينه و بين الإمام من خصام.. ولكنها لم تكن تذكره بالسوء، أو تدعو عليه، وهي التي لا تكتم عنا شيئاً من مشاعرها؛ وإن أنس فلن أنس حين ضجّت «صنعاء» لنبأ غرق البدر الشهيد سيف الإسلام محمد بن الإمام يحيى أمير لواء الحديدة، وكيف أعولت مع المعولات، وناحت بين النوائح، وانتحبت وحيدة في بيتها انتحاباً أبكانا.. ولقد ذكرت أن الأمير محمداً كان يتعهّدنا في المناسبات، وكان قد أجرى لنا مخصّصاً شهرياً.. فلما غرق، أيقنت الوالدة أن تلك الصلة التي كنا ننتفع بها ستنقطع؛ وكان يوصّلها إلى بيتنا في مطلع كل شهر الحاج حمود عيسى مساعد السيد علي بن علي زبارة، وكيل الأمير محمد، ولما تصرّم ذلك الشهر واضمحلّ هلاله، وطلع هلال شهر جديد.. إذا بالباب يُطرَق، وهرولت إلى الباب أفتحه وأنظر من الطارق، فإذا بالحاج عيسى يدلف إلى الدهليز و يقول: أين

الشريفة والدتك؟.. وكانت كعادتها حين تسمع طارقاً، قد هبطت إلى منعطف من درجات الدار.. فأجابت أنا هنا؛ أهلاً وسهلاً، قال عيسى: هذا مرتّب الشهر، قد سلّمته لولدكم أحمد، وقولوا لِلْعزّي التهامي يُحرّر «السند» لسيّدي علي زبارة، كالعادة. قالت الوالدة: لكن البدر قد مات، قال عيسى: الله يحفظ أخاه، سيف الإسلام أحمد قد أمر زبارة، ألا يقطع شيئاً مما كان يصرفه أخوه البدر للفقراء والمساكين والمستحقين في صنعاء وغيرها..

مرة أخرى: الله يحفظك يا سيف الإسلام:

وسلّمت الرّيالات إلى يد أمّي وهي تنظر إلى السماء قائلةً: الله يرحمَك يا محمّد؛ الله يحفظك يا أحمد يا سيف الإسلام.

وغرست في قلبي بذرة من الحب لذلك الرجل الذي سيكون لي معه شأن، وأيّ شأن والذي سأخرج عليه ثم يغمرني بالعفووالإحسان.

وما أروع الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة؛ وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصرّانه»، ما أروع وما أصدق هذا الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وسائر رجال الأمهات، و بطرق وروايات ونصوص شتّى، يصحّ أن نقول معها، كما قال غيرنا من قبل؛ و يُمَسْلِمانه و يُمجّسانه، وأن نقول أيضا وإن لم يقله أحدٌ قبلنا و«يزيّدانه» و«يشفعانه»، و«يُحنْبلانه»، بل ونقول و«يبعْثثانه»، و«يشوّعانه»، و«يُأجْلِزانه»، و«يُأمْرِكانهِ»، إلى آخر ما يسود بلادنا و بلاد العالم من مذاهب وملل ونحل وقوميّات.

لم تكن مواقفها سياسية بل إنسانية:

ولذلك فلا أدعى، ولا أزعم أن لي أولأمي، مواقف وطنية أو سياسية اعتُبِطَت اعتباطاً، دونما سبب شخصي، وغاية ما أستطيع أن أزعمه، أو أدّعيه أن تلك «الأمية» كانت تتحلّى بأخلاق المرأة المسلمة؛ تحب الخير، وتتحرى الصواب لها ولأ ولادها، ولمن ينتمون إليهم، من أهل وقوم و وطن.. وكانت مدبّرة حصيفة، وكأنّ طفولتها التي شاهدت الصراع الدامي،وحروب الكرّ والفرّ بين اليمنيين والأ تراك، وكأنّ شبابها الذي لا شك قد طعن بزواجها الأ ول الذي لم تتوفق فيه، وكأنّ كثرة أسفارها ما بين الضالع والمسقاة، وصنعاء أيام حرب الطائرات ثم بعد وفاة والدي، إلى آلام الثكل وحزنه، ومعاناة الحياة والعوز والحاجة، و يتم أولادها.. كأن ذلك كله قد زوّدها بأصدق التجارب، وأعطاها قدرة فائقة على تحمل الصعاب، والشدائد بصبر وجلد، ومنحها الفدرة أيضاً على مساعدة الآخرين بالرأي والفول والعمل... فلها مواقف إنسانية شجاعة تستحق الذكر وأنا لا أسميها مواقف وطنية ولا أفاخر بها، أو أباهي سياسياً؛ لأنّها لم تصطنعها سياسة، ولا وطنيّة، ولا خذلاناً لقوم، ولا تأييداً لِقوم آخرين وسأضر بن لذلك مثلاً:

من هو واضع الميثاق:

لقد كنت كاتب «الميثاق الوطني المقدس»، وأحد المناقشين لمواده، والموقعين عليه، بعد أن

اقتنعت بكل ما فيه من مبادىء، و بعد أن انضممت إلى زمرة العلماء، والأعيان الذين اتفقوا على ما فيه، ووقّعوا على مواده، وأشهدوا على أنفسهم على أن لا يبايعوا إماماً ــ أي إمام ــ بعد الإمام يحيى إلا بعد أن يتعهّد بتنفيذه والالتزام بمواده، وإلا فلا طاعة له عليهم.

ولعلّ من واجبي أن أتحدث عن الميثاق حديثاً قد يكون غريباً وجديداً على الكثير من الذين لا يعلمون عن قصته، ومن وضعه، ولماذا وُضع شيئاً، وهم غالبية اليمنيّين.

أما واضع خطوطه العريضة الأولى فقد كان العلامة الجزائري السيد الفُضَيل الورتلاني، والأستاذ الإمام المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنّا، وكان هذان العبقريّان المصلحان يهتمان بالمسلمين وشؤونهم في العالم؛ بدافع قرآني خالص، لا يشوبه شعور وطني معيّن، ولا تعصب إقليميّ أو طائفيّ أو مذهبيّ محدود.

الحكم بما أنزل الله:

وكانا قد أيقنا أن اليمن، لبُعْدها عمّا لا يرضيانه للمسلمين مما قد عمّ وطمّ من مظاهر الفساد، والحضارة المادية أو المستهترة، سواء فيما يتمثل في عمران أو مؤسسات، أو وسائل عيش، أو صناعة، أو فلسفة، أو آداب أو فنون، أو في مؤهّلات السلطة، والحكم.. لا تزال أفضل من غيرها من البلدان العربية، ويمكن أن تكون منطلقاً لدعوة إسلامية صادقة صحيحة وذلك بإنشاء دولة تحكم بما أنزل الله، وتستقطب زعماء وعلماء وعباقرة المسلمين، الذين يحاربون، وتحاربهم الحضارة المادية والمستهترة، في الشرق والغرب.. وكان الأستاذ الفضيل الورتلاني عندما وصل إلى اليمن للمرة الأولى في مطلع سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م يأمل ــ ورغم ما كان قد سمعه من المعارضين للإمام يحيى وأسرته في «مصر» و«عدن» و«تعز» ــ أنه سيستطيع أن يقنع الإمام يحيى، ووليّ عهده أحمد، بفكرته التي يؤمن بها، و يدعو إليها، ولذلك جلس معهما ناصحاً، متحدثاً، وخطب في جوامع تعزْ وصنعاء، وحرّر الرسائل إليهما، وألّف تقريرين مُسهبين أحدهما سياسي، والآخر اقتصادي، وقدّمهما إلى الإمام يحيى، وقد كتبتهما بخطي نقلاً عن خطه المغربي، الذي تعوّدت تهجّيه بعد فترة طويلة من ملازمتي للأستاذ الفضيل.

وضع قاعدة لانتخاب الحاكم:

وكان الورتلاني والبنّا قد أدركا كما أدرك غيرهما من العلماء والمصلحين قبلهما و بعدهما، ولا يزالون يدركون، بأن من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى ضعف وانحطاط المسلمين؛ أن مفكرّيهم لم يضعوا قاعدة شرعية تحدّد كيفية انتخاب الحاكم، أو أمير المؤمنين، وإن كانت بعض الفرق ــ كالزيدية ــ قد حدّدت مواصفاته! ولولا غياب تلك القاعدة لما أمكن للفاروق عمر بن الخطاب أن يقول إن بيعة الصدّيق أبي بكر كانت فلتة؛ وهو من هو سابقةً وعلما وفضلاً، وقد بايعه المهاجرون والأنصار، و بالرغم من أن عمر رضي الله عنه الذي وصل إلى الإمارة باستخلاف أبي بكر رضي الله عنه وليس عن طريق انتخاب يستند إلى قاعدة شرعية قد حاول أن يجعل الأمر بعده شورى بين المسلمين؛

فإنه أيضا لم يضع نظرية سياسية مستنبطة من مبادىء إسلامية تحدّد قاعدة الانتخاب الشرعي للحاكم بل فوض الأمر إلى ستة لاشك أنهم كانوا أفضل الناس لكنّهم كانوا الناخبين والمرشّحين في نفس الوقت، بل إنّ النّاخب الحقيقي قد أصبح واحداً منهم؛ ولذلك فما إن اغتيل عثمان رحمه الله، ثم عليّ كرّم الله وجهه، وبويع معاوية بن أبي سفيان، حتى كان مبدأ التغلّب هو الذي يتحكم على نظام الحكم في الإسلام طوال العهدين الأموي والعباسي وهلم جرّا وجرجرة.. وما أظنّ الحسن بن علي رضي الله عنه قد تنازل لمعاوية مشترطاً أن يكون الأمر بعده شورى بين المسلمين إلا لأنه كان يهدف ويريد أن يضع هذه القاعدة الشرعية التي تُحدّد أصول اختيار الحاكم؛ في نظرية سياسية إسلامية. وكان الأستاذ الفضيل يقول: إن فقدان هذا المبدأ الشرعي كنظرية سياسية هو الذي مهّد لصيرورة نظام الحكم في الدول الإسلامية يقوم في الغالب على مبدأ «الغلبة» و«القهر»، منذ تولّى «معاوية» الذي انتخب ابنه يزيد وليّاً لعهده؛ وحتى اليوم! رغم مجانفة ذلك لِنصوص القرآن المجيد، وكان يقول بأنه من الضروري أن يفكر علماء الإسلام في وضع قاعدة شرعية، واستنباط نظريّة سياسية إسلامية، تحدّد بوضوح وجلاء ـ أصول اختيار الحاكم المسلم وضوح النظريّات الدستورية الحديثة؛ في أوروبا وروسيا وأمريكا. وكان يتحدث بذلك ويحاضر ويخطب، وقد لاقى قبولاً واستجابة، وتأييداً من علماء اليمن ولاسيما «الزيود» الذين يعتقدون وجوب الخروج على الظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولهم في انتخاب الحاكم بضعة عشر شرطاً.

ليس زيدياً بل حنيفاً مسلماً:

وقد يقول قائل: وما شأن الورتلاني والبنّا باليمن وإمامتها ونوع الحكم فيها، وهُما ليسا «زيديّيْن»، ولا يقولان بالإمامة؟ فأقول: لقد كان لدى الأستاذ الورتلاني من المعرفة بكتاب الله وسنة رسوله والفقه وأصوله، والفهم والعبقريّة، والفصاحة والتقوى، ما يخوّله أن يفهم ويعرف ما فهمه وعرفه الإمام زيد بن علي، وأن يُنكر ويثور على ما أنكره وثار من أجل إزالته الإمام زيد بن علي، الذي عندما ثار لم يكن «زيديّاً» بل كان حنيفا مسلما؛ كما كان جدّه الحسين من قبله، وكما كان الورتلاني والبنّا من بعده وكما سيكون من بعدهما فلان، وفلان، وفلان.

النظرية السياسية الإسلامية:

وذلك هو ما دفع الورتلاني والبنّا للاهتمام باليمن «الأرض الطيبة»، وبأهل اليمن أبناء الحكمة والإيمان، فوضعا أصول الميثاق؛ كنَوَاة لدولة الإسلام؛ إذا ما نشأت ونمتْ على مبادىء قرآنية سيتمكّن المختصّون من علماء المسلمين وعباقرتهم في ظلالها من استنباط نظريّة سياسية واضحة تحدّد قاعدة شرعية لا يُنْتَخب الحاكم المسلم كرئيس لدولتها إلاّ في نطاق مفهومها، وضمن دستور إسلامي دائم يستمدّ أحكامه من كتاب الله وسنة رسوله، وما يقضي به العقل الخالص، تضعه لجنة خاصّة يُعيّنها مجلس الشورى من أهل الكفاءة والصلاح علماً وعملاً، وقد نصت المادة الرابعة من الميثاق على ذلك وأنه يجب أن تستعين اللجنة المكلفة بوضع الدستور اليمني بالجامعة العربيّة وحكوماتها، والعبقريّين من

رجالها.. كما أنّ المادة الأولى من الميثاق نصت على أن المبايعين لهذا الشخص المنتخب إنما انتخبوه واختاروه لما اشتهر به من علم وفضل ومنزلة عالية في نفوس الناس فبايعوه إماماً شرعياً شورياً دستورياً على نحو ما تسير به أرقى الأمم اليوم في العالم المتحضر فيما لا يخالف أدنى مخالفة التعاليم الإسلامية السمحة الصحيحة. ثم أكد الميثاق هذا المعنى في القسم الثامن ــ ج ــ من المادة الثانية بقوله: «إن للحاكم المنتخب السمع والطاعة، مادام متمشياً على هذه البيعة، ملتزماً لهذا الميثاق، ساعياً إلى الغاية المقصودة من ذلك».

كما أن المادة الخامسة بعد العشرين والتي تنصّ على أن يكون للدولة مستشارون عموميّون وخصوصيّون؛ قد نصّت على أن يكون للمستشار العمومي درجة وزير ممتاز وله الحق في حضور جلسات مجلس الوزراء، و يكون عضواً في مجلس الشورى، ولا يزيد عدد المستشارين العموميين على خمسة، ولم تشترط أن يكونوا يمنيّين كالمستشارين الخصوصيين؛ وقد تعيّن أوّل مستشار عام للدولة الأستاذ الفضيل الورتلاني، وكان من المفروض ومما أجمع عليه مجلس الوزراء ووافق عليه وأقره الإمام عبدالله الوزير أن يُطلب من الأستاذ حسن البنا، والفريق عزيز المصري أن يكونا من المستشارين العموميين لهذه الحكومة الإسلامية الفتيّة؛ لونجحت ثورة الدستور، وقد ورد في المادة ــ ١ ــ من ملحق الميثاق «أن يكون الطلب بالحاح من الأستاذ الفُضَيْل الورتلاني أن يضيف إلى سلسلة أعماله المشكورة بأن يقبل أن يكون المستشار الأول للدولة»... ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن.

لا علاقة للميثاق باغتيال الإمام يحيى:

وحقيقة أخرى لا يجوز لي أن أهمل الإشارة إليها ولو كانت خارجة عن الموضوع، ولوأن الحديث عنها يفتقر إلى فصل مستقل لكني سألمح عنها تلميحاً، ما دمنا نتكلم عن قصة الميثاق.. وهذه الحقيقة، هي أنه لا علاقة ولا ارتباط لكلّ من أقر الميثاق، أو وقّعه، وآمن بمبادئه، سواء ممن عمل ذلك قبل قيام الثورة أو بعدها، بالأحداث التي كانت؛: من اغتيال الإمام يحيى و بعض أنجاله، ورئيس وزرائه القاضي عبدالله العمري، وانتخاب عبدالله الوزير إماماً، وانتصار الإمام أحمد، وقتل من قُتِل، وحبس من حُبسَ، وإن كانت السلطة المنتصرة ومن دار في فلكها، قد حاولت ترويج أفكار تربط بين الميثاق وتلك الأحداث! وكما فعل أيضاً عشاق التباهي والتفاخر بالمواقف الوطنية، والسياسية ممن يتحدثون عن ثورة ــ ٤٨ ــ وميثاقها الوطني المقدس، ويختلقون الأقاويل، و يتفننون في تصويرها أشكالاً وألواناً!

ولقد كنت كاتب الميثاق وأحد مناقشي خطوطه العريضة التي وضعها «الورتلاني»، وناقشها وأضاف إليها، وحذف منها، حسب اجتهاداتهم معظم رجالات اليمن، وفي مقدمتهم السادة عبدالله ابن أحمد الوزير، وعلي بن عبدالله الوزير، وحسين بن محمد الكبسي، وعلي بن حمود شرف الدين، وحسين ابن علي بن عبدالقادر، وابنه محمد، وأحمد المطاع، والقاضي أحمد الجرافي، ومحمد محمود الزبيري، وأحمد محمد نعمان، وعبدالوهاب نعمان، ومحيي الدين العنسي، وأحمد الحورش، والرئيس

جمال جميل العراقي، ومحمد أحمد باشا المتوكل،وابنه أحمد، وعبدالجليل باشا المتوكل، وعبدالله حسن السنيدار، والعزي صالح السنيدار، وعبدالله بن علي الوزير وعشرات من مشايخ وأعيان اليمن، وكان التوقيع على آخر نُسَخِهِ المنقحة التي ظهرت مطبوعة في أوائل شهر محرم سنة ١٣٦٧هـ / نوفمبر سنة ١٩٤٧م أي قبل اغتيال الإمام يحيى بحوالي شهرين ولم يكن ــ كما قلت ــ للموافقة على ما في الميثاق والتوقيع على مسودّته من قِبَل بعضٍ من ذكرت آنفاً، ومن غيرهم في النسخة التي ذهبت إلى تعز، والحديدة، وعدن، وغيرها لم يكن لذلك أيّ علاقة، أو صلة، أو ارتباط، بمؤامرة أو ثورة، أو انقلاب، بل النصّ على أنه بعد موت الإمام يحيى اختار أهل الحل والعقد فلاناً (وكان موضع الاسم مبيضاً في النسخة المطبوعة) على أساس ما ورد في هذا الميثاق، فليس كلّ من وافق عليه ووقّعه مسؤولاً عمّا جرى بعد ولكلّ حدث سببه المستقل.. ولذلك حار الإمام أحمد عندما وقعت في يده النسخة الأصلية بخطّي وتاريخها صفر سنة ١٣٦٧هـ وفيها توقيعات مَنْ لم يوقّعوها إلا بعد أن بويع لعبدالله الوزير بعد اليوم السابع من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٧هـ ١٧ فبراير سنة ١٩٤٨م ومنهم السيد عبدالرحمن الشامي والسيد أحمد الكحلاني والسيد يحيى النهاري، وجل علماء وفقهاء صنعاء وضباط الجيش، ولا يُتَصَوّر أنّ ذلك يكون، ويخفى عليه، حار ثم أدرك وعرف أن لا علاقة للميثاق بالمؤامرة على أبيه، وجاءني منه سؤال حول هذا الموضوع وكنت لا أزال موثقا بالأغلال في سجن «نافع» وأجبت عليه جوابا أظن أنه اقتنع بفحواه وأراحه، وقد نتطرّق إليه ونذكره في مكانه من هذه التذكّرات.

ولعلّ القليل هم الذينّ يعلمون أنه كان من رأيي أوّل ما تدارسنا الميثاق بأن نسعى لإقناع سيف الإسلام أحمد حميد الدين بقبول الميثاق لنبايعه إماماً شرعياً بعد وفاة أبيه على أساسه وقد جهرت بهذا الرأي في مجلس خاص كان فيه الأستاذ الفضيل والسيد حسين الكسي ومحمد حسين عبدالقادر والرئيس جمال وعبدالله بن علي الوزير وعزيز يعني، وعبدالله حسن السنيدار، وآخرون ودار نقاش طويل وأيّد رأيي الرئيس جمال وقال: سيسهّل علينا هذا الاتجاه نصف المرحلة؛ ومن جهة أخرى فالسيف أحمد أكثر تفتحاً، وأصفى عقلية، وأقوى شخصيّة، من السيد عبدالله بن أحمد الوزير وأمّنْتُ يومئذٍ على ما قاله جمال!

شهادة جمال من أسباب نجاتي:

ولعلّ القليل هم الذين يعرفون أن ذلك الموقف قد كان من أسباب نجاتي من الموت بسيف الإمام أحمد؛ ولقد حدّثني بذلك الأخ محمد بن عبدالرحمن الشامي أمين عام وزارة خارجية الإمام، عندما لقيته بالحديدة حيث أمر الإمام أن أهبط إليها للعلاج من حجّة بعد أن أمضيت فيها سجيناً خمس سنوات.

ــ قال لي: هل تدري سبب نجاتك من الإعدام؟

ــ قلت: إرادة الله، وعطف الإمام، ودعوات أمي.

ــ قال: لقد كانت كل الشواهد تدينك وكان كل الأمراء ضدّك، وكثير ممن حول الإمام يناشدون الإمام ويحرّضونه على قتلك؛ ولكن الرئيس جمال جميل العراقي ذكر في اعترافاته أنه كان رأيه مبايعة

الإمام أحمد بعد أبيه، وأنه كان يفضله على عبدالله الوزير و يعتقد أنه الأكمل والأقوى، واستشهد بك، وقال إنك كنت صاحب هذا الرأي وإنك أثنيت على الإمام أحمد، وعلمه وأدبه وكرمه وتفتّح عقله، إلى آخر ما قال. وقد كان لذلك أثره في نفس الإمام وأثار عطفه عليك، ثم جاءت قصائدك العصماء فقلّمت أظافر ضغنه وحنقه.

وأنا حين أقول هذا لا أقوله لأنه في صالحي أو مما يختلق لي عند الأحرار والثوار مواقف وطنية، ولا أتباهى، ولا أصوّب ولا أخطىء؛ ولو كنت أحاول أن أكتم شيئاً، لكتمت مثل هذا الحديث الذي لن يرضى عنه المتطرفون ولا الذين يتباهون بالمواقف الوطنية والسياسية؛ بل ويختلقونها اختلاقاً.. لو كنت خائفاً، أو نادماً، أو أحاول كتم أخطائي أو ما لا ترضى عنه فئة معيّنة، أو أصحاب ثقافة معيّنة ممن سيقرأون هذه الذكريات لكتمت مثل هذه الحادثة وقد مات كل شهودها بل واستولى على وثائقها وأوراقها من لا يحبّذون نشرها؛ ممن لا يقدسون صدق الحديث عندما يؤرخون، ويخافون حتى أشباح أباطيل «البيضاني».

ولم يكن هذا الذي استطردناه وأوغلنا في تذكّره، وأسهبنا في تفاصيله هوما كنت أبغي أن أتحدّث عنه، عندما بدأت الكلام عن «أمي» وقصتها مع ابنها «كاتب الميثاق»، وكيف كان موقفها معه ــ وهو اللّباب من موضوع حديثنا ــ ولابد من العودة إليه.. فبعد أن وقّع الموقّعون على الميثاق واقتنعت الأغلبية بانتخاب عبدالله الوزير إماماً بعد وفاة الإمام يحيى، واستبعدنا السيف أحمد كليّة، استلم إحدى النسخ منه السيد عبدالله الوزير ليحفظها لديه في بيته، واختاروني أميناً على النسخة الموقّعة الأخرى التي تُحفَظ في صنعاء لكي تضاف إليها توقيعات من يقتنع بها من الأعيان والعلماء، وأهل الحل والعقد، ولم يقع اختيارهم إكباراً أو تقديرا لمواقفي، ولكن لأن البعض قد تحاشا مسؤولية القيام بتلك المهمّة، ونظر إليّ أستاذي الورتلاني نظرة تشجيع قائلاً: «السيد أحمد هو سكرتير مجلس الوزراء، وعضو مجلس الشورى وعليه القيام بهذه المهمة».. وهنا يأتي لباب الموضوع الذي أريد التحدث عنه فقد أخذت «الميثاق» إلى «أمي»؛ وقلت لها: أريد الاحتفاظ بهذه الأوراق في مكان أمين، وأن أخبئها حيث لا يمكن أن تنالها يد إنسان حتى ولو نخلوا البيت نخلاً لأن فيها حياتي وحياة آخرين»، قالت: هاتِها.. ثم تناولت قِطْناً وضعت الميثاق فيه، وغلّفته بكيس، ولفّته في «عصابة» رأسها: وهي تقول: «هذه الأيام برد شديد [كُنّا في ديسمبر سنة ١٩٤٧م] فسيُدفّيني.. ثم، مَن الذي سيفتّش رأس أم أحمد»؟ ولم تسألني ماذا في الأوراق..

وعندما عدت إلى السيد الفضيل و وصفت له ما جرى ضَحِك وقال ليحفظ الله رأس أم أحمد! لا تكلّم أحداً بهذا كائناً من كان محافظة على رأس أم أحمد!

ولم تَعْبَلْ أمي ما عملت سياسةً، ولا وطنيّةً، ولا جهاداً، ولا تأييداً، لعبدالله الوزير والدستور، ولا خذلاناً لأحمد حميد الدين، ولم تكن تدري ما في تلك الأوراق؛ وقد فعلت ما فعلت لأنّني ابنها الذي تحبّه، فقط لأنني ابنها.

مساعدة السيد ابراهيم بن علي الوزير:

وهناك موَقف آخر من مواقف « أمّي » لا أقول السياسية ولا الوطنية لكنّه موقف يستحق الذكر؛ فقد صدر بعد وفاة الأخ عباس بن علي الوزير رحمه الله كتابٌ عن حياته؛ و يضمّ المراثي التي قيلت فيه، وقد كتبت مقدمته وشاركت في ترتيب مقالاته وقصائده، ومنها مرثاتي الشعرية التي مطلعها:

ريبَ الزّمان ترفّقاً وكفاف   دعْ لي بقايا السّرب من ألافي

ومن جملة ما فيه، مقالٌ مُسْهَب للسيد الأديب محمد بن علي الوزير، ذكر من جملة ما ذكر فيه قِصّة هرو به مع أخويه عباس وابراهيم من صنعاء، إلى عدن في أواخر سنة ١٩٥٣م ومطلع عام سنة [١٩٥٤م ١٣٧٢ هـ] وكنت حينذاك لا أزال تحت العلاج الطبي في الحديدة ــ وتحت الاقامة الجبريّة، وقد وصف السيد محمد الاحْراجات، والمعانات، وما كابدوه أثناء مغامرتهم تلك في الطريق، وهم على ظهر الإبل من « صنعاء » ، وعن طريق بني حشيش والجدعان حتى وصل إلى « عدن » ثم « القاهرة » . وقد تذكّرت وأنا أقرأ هذا المقال أن « أمّي » كانت قد آوت الأخ ابراهيم بن علي الوزير في بيتنا بصنعاء بضعة أيام، قبل أن يتم ترتيب فراره مع أخويه، وعندما كان يتردّد تحت الحراسة أو المراقبة ما بين بيته والسّجن والمستشفى.

وقد حدّثني الأخ ابراهيم عن ذلك؛ ووصف كيف عاش عند الوالدة، وهي تخدمه وتنقل عنه وإليه، إلى أمّه، ومنها .. ما يعنّ و يجدُّ من أحاديث، كما حدثني الأخ ابراهيم عن الجهود التي بذلها معه صديقه الأديب القاضي محمد بن عبدالواسع الواسعي من أجل ترتيب خلاصه وانجاح عملية فراره مع أخويه إلى « عدن » .

وكنت أتوقّع أن يشير السيد محمد إلى هذا الموقف البسيط، ولم أشأ أن أذكّره، وأنا أتحاور معه عن مقاله بحضور أخيه ابراهيم ــ ولو فعلت لما تحاشا الأخ محمد أن يشير إليه .. ولكن لأنّي أدري أن « أمّي » الأميّة، لم تعمل ما عملت تأييداً لبيت الوزير، ولا ضدّ الإمام، وأن ذلك لم يخطر ببالها .. ولو خطر .. لما أقدَمَتْ عليه؛ وكيف .. وأنا، ابنها « أحمد » لا أزال تحت الإقامة الجبرية، والعلاج الطّبي « بالحديدة » وأيّ غلطة، أو خطأ، قد يجرُّ عليّ الويل، ولو اكتشفت السُّلطة أنها خبّأت، وأخفت، « ابراهيم الوزير » لاعتقدوا أنها كانت تعلم بما يدبّر و يعمل، وربّما لمسني الأذى والضرّ ..! لكنّها قد عملت ما عملت، لأن أم ابراهيم الشهْمة الفاضلة، زميلتها، ورفيقة آلامها وآمالها، ولأنها تعرف ــ كامل المعرفة ــ أن « ابراهيم » صديق، وتلميذ ابنها « أحمد » وأنه يحبّه حُبّاً جمّاً، و يعزّه إعزازاً كبيراً ..

وبمناسبة الكلام عن « الهرّبات » فأمّي هي التي حرّضَتْ أخي عبدالوهاب، على « الهروب » من « صنعاء » إلى « عدن » عندما حاصرتها حشود قبائل حاشد و بكيل الثائرة الغاضبة لمقتل الإمام يحيى عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ضدّ الإمام عبدالله الوزير وحكومة الدستور؛ وكتمت عنّي ــ مثلما حاول

أخي ــ ذلك التّدبير؛ ولم أدرِ، أنها كانت تعلم بفراره، وأنّها التي زوّدته بالمال، إلا ليلة سقوط «صنعاء» في أيدي «القبائل» وأنصار «الإمام أحمد» عندما جاءتني، مُعزيةً مُسلّيةً مُطمئنةً، تريد أن تدبّر هروبي، وسلامتي ونجاتي، وأن تساهم في وضع خطة تجنبني الوقوع في قبضة جنود وأنصار الإمام، وقالت لي: ستسقط «صنعاء» الليلة، والحمد لله على نجاة أخيك عبدالوهاب، وقد كنت أعرف هروبه، ووافقت عليه ورضيت عنه، وأعطيته خمسة وعشرين ريالا.. وقد كنت أريد أن أطلب منك أن تفعل ذلك، ولكني كنت أرى حماسك للثورة والدستور فأتردّد عن فتح الحديث معك، أما الآن ــ وها قد سقطت صنعاء في أيدي القبائل وسيدخلها الأمير أحمد غداً، فعلينا أن نُدبّر خطّةً لنجاتك، حتّى لا تقع في أيديهم؛ فالعين عليك حمراء، وكل أقارب، وأعوان، وأنصار بيت حميد الدين يتحدّثون عن حماستك للثورة، والدستور، وما بقي أحدٌ يُشفق عليك غيري، وغير زوجتك أمة الله ثم سألتني:

ــ وأين تلك الأوراق التي كنت أخفيها تحت عصابة رأسي؟..

ــ قلت: عند الوالد حسين الكبسي.. وزير الخارجية!

ــ قالت: مسكين الأخ حسين؛ لاشك أنهم قد هجموا على بيته؛ لكن الله لطيف!

كانت تريد أن تدبر فراري:

ثم قالت: عندي رأي، قلت: وما هو؟ قالت: لي «صديقة» في صنعاء، وقد تكلّمت معها، ووافقت على أن تخفيك عندها شهراً حتى تهدأ الضوارب، ويظن الجميع أنك قد غادرت اليمن إلى «عدن» أو «مكة»، واختفيت هناك، وسندبر فرارك من «صنعاء» عن طريق «وادي بنا» حيث أبناء خالك.. الخ.

وكانت هذه الفكرة محكمة التدبير ممكنة التنفيذ؛ ولكنّها لم تتيسّر..

فقد أراد لي القدر قصةً أخرى، وحالت ظروف دون تنفيذ الخطة وهجمت صباح اليوم التالي قبيلة «الحدا» على بيتي ونهبوه نهباً ذريعاً.. وساقني جنود الإمام إلى حبس «الرّادع» حيث وجدت زملائي «العنسي» و«الحورش» و«الكبسي» و«الغفّاري» والمئات من أعيان وأدباء وعلماء اليمن... ثم ساقوني في القافلة الحزينة إلى «حجة» وكان ما كان.

وقاست الوالدة من فراق ولديها والخوف عليهما، وشماتة قساة القلوب العذاب الأليم طوال ست سنوات، وكانت قد وصلت لزيارتي إلى سجن حجة بعد مرور أربع سنوات، وكنت قد انتقلت من سجن «نافع» الرهيب إلى معتقل «القاهرة» بها: وقد أصدر الأمر بوصولها لزيارتي الأمير سيف الإسلام الحسن بن الإمام يحيى ــ طبعا بمؤاذنة الإمام أحمد ــ وكان الأمير الحسن رئيساً للوزراء وقد أمر بفكّ قيودي صباح كل يوم لأنزل من قلعة القاهرة لزيارتها لمدة ساعتين صحبة جندي، ثم أعود إلى السجن، ونزلت أمّي في بيت الأخ الكريم السيد علي حجر وزوجته السيدة الفاضلة أمّ هاني ابنة السيد علي بن حسين الشامي، وقد أكرموا نزُلَها، ورحّبوا بمقدمها وهيأوا لها في دارهم مكاناً.. كنت أمضي فيه

معها صباح كل يوم ساعتين، وقد رَعَت الأم، ورَعَيتُ ذلك الجميل والعمل الإنساني الكريم لسيف الإسلام الحسن.. أما كيف استقبلتني، وماذا دار بيني و بينها عند أول لقاء فقد وصفته في مقال كتبته لمجلّة «الندوة» الخطية التي كنا نصدرها شهرياً في «السجن» وكنت رئيس تحريرها؛ وهذا نصّها:

٢٥ - أنا وهي..(٩ رمضان ١٣٧٠هـ/١٣يونيو١٩٥١م .

ثلاثة أيام ما كان أطولها؛ لقد كنت أحسّ بساعاتها تمرّ ثقيلةً بطيئة، كأنّها ليست وقتا، ولا زمناً بل شوكاً وإبراً، يغرسها الهمّ بقلبي المضنى، و يطأ بها القلق أفكاري المرتبكة، وتكتنفني من كلّ وجه، وتتلقّفني في كلّ سبيل.

إذا دجا الليل خِلْتُ نجومه ثكالى، تبكي آمالها الضائعة، وخِلت ظلمته يأساً قاتلاً ينوءُ به قلبٌ كئيب، وتلاشى الزّمان والمكان ولم يبق إلاّ «هي» والظّلام، وأفكاري المعذّبة، وإن تجلّى النهار فشمسُه نارٌ تلظّى، وسماؤه بوتقةٌ تتسعّر على موقد الجحيم؛ وتراني وقد نسيتُ كل شيء حتّى نفسي و وقفت على نشزٍ واجماً ذاهلاً، أنظر إلى جهةٍ واحدة، وأحاول ـــ بلا منظار ـــ أن أخترق بنظري الجبال والسهول، وأن أفري بخيالي الآكام والوهاد علّي أراها أو أعلم من حالها شيئاً.. فإذا تصرّم الوقت دون أن أحظى بطائل، انحسر بصري، وتعثر خيالي وعدت أدراجي، مضطرب الجنان، منهوك الأعصاب خائر القوى... بعد أن ودّعتها وراء الجبال، وحيّيتُها بآهاتي ودموعي، و بعثت إليها مع الرّياح أشواقي وأشجاني ودعواتي.

وفي عصر اليوم الثالث رأيتها على مقربة من مرصدي تمتطي «قارشة» يسوقها صبيّ.. يا لله.. كما كنت أعمل عندما أرافقها إلى جحانة، أو قرية الفابل أو المسقاة، ورأيتها تخترق شوارع حجّة نحو «حَوْرَة» وقلت لنفسي لا شك أنها ستقصد بيت «حجر» حيث الكريمة «أم هاني»؛ وسرَتْ في كياني هزّة كهربائية ظننت أنني سأتحول بعدها رماداً، أو أطير دخانا، أو أعود جُثّة هامدة.. ولم أشعر في تلك الآونة بسجن ولا بقيد، ولا بسماء ولا بأرض، ولم يبق مني غير عين تنظر ذاهلة، وقلب يضطرب ونفس تتشوّق، ولسان يهذي بما لا أدري! وكأن الوجود قد زُوي فيما بيني و بينها، وكأنّ «قارشتها» لا تمشي على الأرض بل على عواطفي ومشاعري، فيا لها من ساعة رائعة، و يا له من موقف رهيب.

ومرّت ليلة؛ تنازعتني فيها عوامل السرور والألم، والسعادة والشقاء والاطمئنان والقلق.. حيناً أرفرف بآمالي العطشى على نهر الحنان المهجور، وآونة ارتطم بأفكاري الحبيسة في هاوية اليأس المبيد، وطوراً أغنّي كالهزار، وتارة أنوح كالثكلى.. وشوقي إليها.. شوق الظمآن إلى الماء، والسقيم إلى الصحّة، والمدنف إلى الحياة.. شوق أربعة أعوام كلّها ظلمات إلى فجر يوم مشرق وضّاء.

ترى هل أراها؟؟ أمنيّة؛ طالما غذيتها بأحلامي، وسقيتها بدموعي، وسبّحت بها في خلوتي، وناجيت بها النجوم في ظلمات الليل، وتمثّلتها في يقظتي ونومي ذكريات وأحلاما.. يدنيها الأمل،

و يُنئيها اليأس.. ولكن.. ولكن.. ها هو البشير يصرخ.. و يناديني بصوت مرتفع: أسرع.. أسرع.. يا أحمد.. فقد أُذِنَ لك بزيارتها.. وفكّت قيودي، وارتديت ثيابي، وانطلقت بحركة لا شعورية، تدفعني قوى غريبة لا أدرى كنهها، ولا أفهم مداها.. وكأني روحٌ مجسّدة تطير، أوجدها الله جلّت قدرته في هذا العصر برهاناً جديداً لمن ينكر المعجزات.

وفجأة دخلت عليها، وارتميت كالطفل بين أحضانها؛ وطوّقتني بذراعيها، ووجفت القلوب، وانعقدت الألسن، ولم تبق إلا لغة الدموع، والقُبل، ومرّت لحظات سماوية لا أدري طالت أم قصُرت، كل ماأذكر أن أوّل ما سمعته منها قولها:

ـــ لقد طالت غيبتك يا بني!

قالت ذلك بصوت أجش مبلّل بالدموع، ثم رفعت رأسي بكلتا يديها.. وأخذت تتحسّسه كأنها تريد أن تتأكد من وجوده، وتتفرّس في وجهي كأنها تتثبّت من أمرها، وتقول: أهذا أنت يا أحمد؟ ثم ذهبت تتحسّس كفيّ وقدميّ. كأنها تتحقّق من نفسها بأنها في يقظة لا في حلم.. ثم قالت: أرني ساقيك.. ألا تزالان سليمتين بعد أن وضعوا عليهما الحديد والأثقال؟ قلت: بلى يا أماه. إنّهما سليمتان؛ فتنفّست الصعداء، وضمّتني إليها ضمّة ما كان أحوجني إليها.. لقد مسحت بها أتعاب وآلام وتباريح أربع سنوات..

ثم ماذا؟ ثم ما شئت أن تتصوّره من روعة، وأن تتمثّله من جلال، وأن تتخيّله من روحانية، وحب، وشكوى، ودموع ومن لهفة وعاطفة بين أمّ حنون وابن سجين.. أم مزّقتها الخطوب والمخاوف، وابن أرهقته المصائب والأهوال، اجتمعا بعد طول فراق، و يأس مهلك، بعد أن قتلتهما الأنباء مراراً، وحطمتهما الأرزاء تكراراً.. بعد أن قاسيا ما تتفطر لهوله السماوات وتخرّ الجبال هدا:

فيا لـــه من موقـــف رائـــع	و يا لهـــا من ساعة خالـــده!
ابـن بـراه الهـــمّ في سجنــه	و«امّ» تـفـانـت في ابـنها شـارده
قُـــدّر أن يجتمعـــا لحظـة..	بعـــد ظنون في اللّقــا جاحـــده
رأتـــه.. فـارتـابـت باحساسهـــا	وصدّقـــت أوهامهـــا البائـــده
لـــم تـدر لـمّـــا أن رأت شخصه	أفي منـــام هي أم شاهـــدَه؟
وهـــو طريـــحٌ بين أحضانهـــا	كـالـطفـل، بل كالجثـة الهامده
تـــكـاد أن تخمـــد أنـفـاســـه	على جـــوى أنـفاسهـــا الخامـدَه
فيا لهـــا من صـــورة فـــذّة	للحـــبّ.. والعاطفـة الخالـــده

٢٦ ـ سقوط صنعاء واعتقال «الوزير» و«الدستوريين»

ما كادت شمس يوم الثلاثاء ٧ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ/ ١٧/ ٢/١٩٤٨م تغيب بعد أن شهدت

مصرع الإمام يحيى، واحتلال عبدالله الوزير لِقصر غمدان، واستيلاء الرئيس جمال على ثكنات الجيش «العرضي»، والسيطرة على محطة الإذاعة ـــ التي لم تنطق بعدـــ حتى خيّم الليل على «صنعاء»، ولفّها في وحشة صمت رهيب! و بات أهلها ـــ وهم المشهورون بالارجاف على أنفسهم ـــ في ترقّب قاتل لما ستطلع به شمس اليوم التّالي، الذي ما تلألأ فجره حتى بدأ النّاس يتهامسون في المساجد والشوارع والأسواق؛ وكلٌّ يسأل: أين وليّ العهد أحمد؟ وماذا سيفعل «أحمد الجنّي» ـــ كما كانوا يسمّونه ـــ إذا كان لا يزال على قيد الحياة؟

خطبة علي عقبات:

وفي منتصف النهار سرتْ إشاعة انتشرت انتشار النار في الهشيم تقول: قد قضِي على «أحمد» أيضا!! فتنفّس النّاس الصّعداء، وتبدّدت أشباح القلق والخوف التي كانت تتراقص في أعينهم.. وتقاطروا نحو «قصر غمدان» لمبايعة عبدالله الوزير إماماً ـــ وهم يعرفونه شجاعاً همّاماً عالماً كفؤاً لا يُخافُ عليه إلاّ من «أحمد الجنّي»، ولقد سمعت السيد الخطيب «علي عقبات» يسأل أحد البارزين: هل قُضِي على «أحمد» أم لا يزال حيّاً؟ وعندما قال له: لقد مات؛ كرّر السؤال: هل قد مات حقاً فأخطب وأنا آمن؟ فلما أكّد له موته؛ قال «عَقّبات»: الآن سينطلقُ لِساني؛ وسيكون أفصحَ منْ لسان صَعْصَعة بن صوحان! وانطلق يحرّض النّاس على بيعة الإمام عبدالله الوزير؛ إمام الحقّ والحريّة والدستور؛ وتوالت برقيّات التأييد والمبايعة من «تعز» و«إب» و«الحديدة» و«ذمار» و«البيضاء»

نجاة أحمد:

وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن نجاة «أحمد» كانت سبباً رئيسياً من أسباب فشل ثورة الدستور؛ فقد كانت شخصيّته تسيطر على مشاعر اليمنيين وتهيمن على أعصابهم، وقد دانت له ـــ إن لم يكن ولاءً ورغبة، فخوفاً ورعباً ورهبة؛ وَهَيمنة «الرّهبوت» في المجتمعات البدائية ـــ كالمجتمع اليمني حينذاك ـــ أشدّ وأقوى وأبلغ من هَيْمَنة «الرّغبوت» وقد كان «أحمد» مرهوبا؛ فهو «الباهوت» و«أحمد الجني» و«المُصَرَّف» الذي لا تخترق جسده الرّصاص!.

ولقد شاهدت كيف وقف «عبدالله الوزير» خلال اليوم الأول للثورة وصباح اليوم الثاني ثبتاً قويّاً يصول ويجول، ورأيت انفعاله وارتباكه وتردّده، عندما وصلته البرقيّة التي أشعرته بأن «أحمد» قد وصلها وغادرها إلى «باجل» في طريقه إلى «صنعاء» وكان ما سبق أن شرحته في فصل سابق.

وغفلت أن أذكر بأنه أسرّ إلى قائد القوّة التي قدمها إلى «آنس» للسيطرة على ممرات طريق «صنعاء» في جبل «الشرق» بأنه إذا لم يتبعه خلال ثلاثين ساعة لسبب ما فليأمـــر أفراد سريّته بأن يلتحق كلّ منهم بقبيلته، وأن يوزّعوا خطابات كان قد أعدّها إلى رؤساء قبائلهم وجلهم كانوا ينتمون إلى قبائل «الحواز» المحدقة بصنعاء وكان نصّ تلك الرسائل كما يلي تقريباً:

«من أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد بن أمير المؤمنين المتوكل على الله إلى الشيخ أو «النقيب» فلان ومن إليه.

هل يرضيكم قتل الإمام الشهيد يحيى وأولاده، وأن يحلّ محل شريعة الله حكم القانون و يستبدل القرآن كتاب الله بالدستور، وتباع اليمن للنصارى؟».

وقد فاز أحمد ونجح في تدبيراته و وصل إلى تحقيق أغراضه وتنفيذ خطته كما ذكرت آنفاً.

ما قاله الزبيري عن أحمد:

وأذكر أن صحفياً قد سأل الأستاذ محمد محمود الزبيري ـ الذي تعيّن في حكومة الوزير ـ وزيراً للمعارف، وذلك في اليوم الثالث لقيام الثورة، وكان «الزبيري» لا يزال في «عدن» أو «تعز»؛ سأله الصّحفي: «وأين السيف أحمد»؟ فقال «الزبيري»: لقد ابتلعته الرّمال!

وانبعث «أحمد الجني» من بين الرمال، ونسلت إليه القبائل، تملأ الآفاق «بزواملها»، ودمدمة طبولها، فجهّزها على «صنعاء»، واحدقت بها من كلّ جانب كما يُحدق السوار بالمعصم.

بعثة التحرّي المصرية:

واجتمع مجلس الجامعة العربية بالقاهرة وقرّر الانتقال إلى «صنعاء» ليتحرّى الحقيقة، و يفصل بين المتنازعين، و وصل إلى «جدة» فطلب الملك عبدالعزيز وصوله إليه إلى «الرياض» للتشاور فيما يكون به إنقاذ اليمن و وصلت من القاهرة إلى صنعاء بعثة تحرّ برئاسة السيد عبدالمنعم مصطفى أحد كبار موظفي وزارة الخارجية حينذاك؛ ثم الأمين العام المساعد للجامعة العربية فيما بعد، وكان يقود الطائرة التي أقلّته قائد الجناح عبداللطيف بغدادي، الذي تعاطف مع الثوار اليمنيين والذي كان فيما بعد أحد أعضاء مجلس الثورة المصرية، وقد طافت هذه البعثة حول المناطق المحدقة بصنعاء ما بين «حِزْيَز» و«الروضة» شمالاً وجنوباً، و«نقم» و«عصر» شرقاً وغرباً ليتأكدوا من أنّ «حكومة الدستور» تسيطر على «العاصمة» لكي يتم الاعتراف بها من قبل «مصر»، وقد قامت الطائرة المصرية بقيادة عبداللطيف بغدادي بإلقاء منشورات باسم الجامعة العربية تدعو اليمنيين إلى الهدوء والسكينة وتحكيم العقل؛ وأن القضيّة يدرسها مجلس الجامعة الذي سيحكم فيها بما فيه خير اليمن؛ وتعاطفاً من قبل عبداللطيف بغدادي مع الأحرار فقد وافق على أن يوزّع لحكومة الدستور منشورات دعائية تؤيد «الوزير»، وتندّد «بأحمد»، وتمجّد «الحرية» و«العدالة» و«الدستور»، وأن الثورة إنما قامت ضد الظلم والطغيان، ولانقاذ اليمن من براثن الاستبداد والجهل، والفقر والمرض، وقد ركب معه على الطائرة الشيخ علي ناصر القردعي، ليدلّه على مواقع المدن «اليمنية»، مثل «صعدة» و«حجّة»، و«عمران»، و«ذمار» الخ.

ومكثت هذه البعثة بضعة أيام ثم عادت إلى «مصر» وهواها مع «الثورة» و«إمامها» وأحرارها.

تسلل أفراد الجيش وقرارات مجلس الوزراء:

و بدأ أفراد الجيش «النظامي» و«الدفاعي» على السّواء يتسلّلون بأسلحتهم، و يلتحق كلّ منهم بقبيلته، وقد اجتمع مجلس الوزراء وعقد عدة جلسات وكان يحضر هذه الجلسات الفضيل الورتلاني، والرئيس جمال برئاسة الأمير علي الوزير، وكنت أحضرها بصفتي سكرتير مجلس الوزراء وكان أهم ما يبحث هو كيف ننجح في الدفاع عن صنعاء، وضواحيها، حتى يصل وفد الجامعة العربية برئاسة أمينها العام عبدالرحمن عزّام باشا، وحتى تصل الطائرات التي ستبيعها إحدى الشركات لليمن، ويمكن استخدامها لإرهاب المتمردين من القبائل؛ ومما تقرّر طلب جيش النجدة من لوائي «تعز» و«اب» والذي سبق أن ذكرت أنّ عرقلة وصوله إلى «صنعاء» كان سبباً من أسباب سقوطها وفشل ثورة الدستور، كما أن من القرارات التي اتخذت سفر رئيس الوزراء الأمير علي بن عبدالله الوزير إلى «تعز» لِما لَهُ من هيبةٍ ومعرفة وشهرة في تلك البلاد التي ظل أميراً عليها أكثر من عشرين عاماً. وتوجّه السيد محمد أحمد الوزير صنو الإمام عبدالله وأمير لواء عمران إلى مقر عمله في «عمران» ليواجه الحملة المرسلة من «حجة»؛ ولأنّ سوء الظن بموقف «الحلالي» قد حصل، فقد تقرّر أن يتوجّه إلى «الحديدة» عامل «صنعاء» السيد حسين بن عبدالقادر الذي هو وزير الدفاع في «حكومة الدستور» لكي يضبط أمورها، و يصلح ما يخشى أن يفسده «الحلالي»، وأن يزحف أمير لواء «حجة» السيد حسين الحوثي بجيش من تعز على حجّة لمحاصرة أحمد. وأن يتوجه القاضي محمد عبدالله الشامي إلى مقر عمله في «اب» كأمير للوائها، والشيخ علي محمد نعمان إلى «البيضاء»، و يقود السيد محمد بن علي الوزير الحملة المعدّة لمحاصرة حجة من ناحية «كحلان» والسيد محمد بن محمد الوزير الحملة المتجهة إلى «شبام» و«كوكبان»، وتتوجه بعثة من تعز إلى «الحديدة» من أعضائها «الخادم غالب الوجيه»، و«السيد زيد الموشكي» لمقابلة وفد الجامعة العربية الذي تقرّر وصوله على باخرة من جدة إلى الحديدة. وللتأكد من موقف «الحلالي»، إلى غير ذلك من القرارات التي لم ينفّذ بعضها، ولم يُحسَن تنفيذ بعضها.

القرارات والحملات العسكرية:

فجيش النجدة تعرقل تقدّمه نحو صنعاء في «المخادر» كما سبق.

والأمير علي الوزير لم يبادر بالعزم إلى تعز لأسباب أجهلها.

وأمير لواء عمران محمد بن أحمد الوزير لم يذهب إلى عمران.

ووزير الدفاع حسين عبدالقادر لم يتوجّه إلى الحديدة.

وإب لم يصل إليها القاضي محمد الشامي.

وأمير لواء البيضاء علي محمد نعمان لم يتجه نحو مقر عمله.

والحملة التي قادها السيد محمد بن علي الوزير عادت أدراجها لأن إعدادها لم يكن كافياً ــ كما

قيل— وما إن وصل إلى «ضَرَوَان» حتى كانت المعركة الحامية بينها و بين قبائل همدان والتي انتهت بهزيمتها وتراجعها إلى «صنعاء».

وأما حملة «شبام» فقد كان نصيبها أسوأ من أختها؛ فقد أطبقت عليها جيوش أحمد التي يقودها السيد علي بن حمود شرف الدين وألقى القبض على قائدها محمد بن محمد الوزير وعلى مساعده الشيخ عبدالله أبولحوم وسيقا إلى «حجّة» مقرّ الإمام أحمد.

وأما وفد تعز إلى «الحديدة» فقد كانت نهايته أن وقع في أسر «الحلالي» وسيقوا مغلّلين إلى «حجّة».

وأما الحملة التي قادها السيد حسين الحوثي ومساعده السيد عبدالقادر أبوطالب لغزو «حجّة» من جهة الطور فقد تخاذل جيشها وأجبر القائدين ومن يؤيّدهما على الاستسلام للإمام أحمد حيث أودعوا السجن وكان ما كان..

وكل ذلك قد قوّى مركز الإمام أحمد وأضعف مركز الإمام عبدالله الوزير وأضعف معنويّة الثوّار، وغذّى جشع وطمع القبائل في نهب صنعاء، ولقد حاولت حكومة الدستور اتخاذ إجراءات غيرما ذكرت للدفاع عن «صنعاء».. لكن لم ينفّذ أي شيء ذي بال.

٢٧ـ منهجي في كتابة ذكرياتي:

أراني قد تنكّبت النهج الذي قلت إنّي لن أحيد عنه؛ فأصبحت مؤرخاً، أذكر الأحداث والتواريخ والأشخاص وما لا علاقة له بي شخصياً.. ولا أدري كيف تورطت، وكان عليّ أن أحتاط وأقتصد وأعود إلى جادتي وأحاذر المروق منها، وكأني بالقارىء يسخر مما أقول، ولا سيما إذا صادف غيرما يهواه، وقرأ غيرما يرضاه، وما قد لُقِّنَهُ، أو درسه في النشرات والكتب خلال الثلاثين عاماً المنصرمة، أثناء حكم الإمام أحمد، وما كاله أدباؤه وشعراؤه وكتابه المؤرخون لثورة الدستور وإمامها عبدالله الوزير، وأنصاره الدستوريين الذين كانوا يريدون أن يغيّروا دين الإسلام و يبيعوا اليمن للنصارى! ولقد بلغ بأحدهم حين سأله جاهل ما معنى الدستور؟ فأجاب باختصار: «ألا يكون لك، ولا تملك، لا بيتاً ولا ديناً ولا زوجة»!! وقد نطق بها باللهجة العامية فقال: «بيتك مش لك، مَرَتَك مش لك، دينك مش لك»!! وظلت لفظة «دستوري» أو «مدستر» أفظع شتيمة يلصقها إنسان بخصمه أو عدوّه لعدة سنوات؛ وأما بعد وفاة الإمام أحمد وقيام الثورة والجمهورية، فقد ظلّ أدباء وشعراء عهودها المتتالية وكتابها المؤرخون يكيلون الشتائم، و يدمغون بها عهود ما قبل الجمهورية طوال ألف عام؛ وكأن ليس لليمن، لا آداب ولا فنون ولا علوم، وإنما خلقت ليلة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م وكلا القارئين من هذا النوع لن يجد في «كتاب حياتي» ما يرضاه و يهواه و يدين به، وهم للأسف كثير، لذلك فقد كان عليّ ألا أتورّط في سرد الحقائق التاريخية في «كتاب حياتي» وأن أدعها لكتاب آخر إن أردت أن أتحدث

عنها، ومع ذلك فقد التزمت ما أستطيعه من الصدق والإخلاص والإنصاف بل و«الحياد» جهدي، وأستغفر الله من زلة قلم ندّ بها طبعٌ حاد، أو نفثها شعورٌ غامض لايزال منفعلاً بما جرى لحامل هذا القلم من آلام وأتعاب مشرّداً وسجيناً. وأنصح من يريد أن يعرف الكثير عن حصار صنعاء، والمحاولات التي بذلت للدفاع عنها، وكيف تلاشت حكومة الدستور، وما كان يحدق بها ويحيط من عوامل أدّت إلى انهيارها، وضعف كيانها، وسقوط «صنعاء» في أيدي القبائل، وقوّاد الإمام «أحمد» خلال ثلاثة أسابيع، أن يقرأ ما كتبه الأديب الكاتب الشاعر المؤرخ عبدالله الشماحي الذي كان من أبرز رجال ثورة الدستور ومن خطبائها، وكان لي زميلاً في معرفة ارهاصاتها، ثم تأييدها، والدفاع عنها، وعن «صنعاء» ثم في الأغلال والقيود وسجون «الرادع» و«غمدان» و«نافع» و«قاهرة حجة» في كتابه «اليمن: الإنسان والحضارة» و بعض ما أفضيت به هنا ــ رغم أنفي ــ من أحداث تاريخية إنما يكمّل ما كتبه هناك، أو يصوّر ما أخالفه من تعليلاته، مذكرا له ببعض ما لم يصل إلى علمه، لأني كنت أحضر بعض جلسات الإمام عبدالله الوزير الخاصة، وكان يشاورني فيما لا يشاور به غيري، حسن ظن منه وتفضّلاً، كما كنت أحضر جلسات مجلس الوزراء التي لم يحضرها، بحكم أنّي «سكرتير مجلس الوزراء»، وكل ما أوردته من أسباب، وذكرته من أحداث استند فيها إلى ما سمعته وشاهدته وعملته، لا إلى ما ظننت أو تخيلت كما يفعل بعض المؤرخين، وعبدالله الشماحي من أكثرهم تحرّيا لتسجيل ما شاهده وما ظنه أو تخيّله، في أسلوب عربي مبين وسرد «جاحظي» ممتع، ولم يؤرخ لليمن أحد قبله في مثل نصاعة بيانه، وفخامة عباراته وهو يعلّم قارئه إلى جانب التاريخ الفنّ البياني، والإنشاء والبلاغة، وكيف لا.. ومؤلفه الشاعر العالم الراوية عبدالله بن شيخ الإسلام عبدالوهاب الشماحي..!

وحين أثني عليه هذا الثناء الصادق؛ لا أقرّ بعض ما ورد فيه من قدح أو تجريح لشخص أو فئة من الأقدمين أو من المحدثين، من الأولين أو من الآخرين، من أصحاب زيد أو عمرو، أو قحطان أو عدنان! فهو المسؤول وحده عن آرائه وتبعة ذلك عليه، وأما ما قاله، أو نوّه به، من فضائل ومواهب بعض الأفراد أو الفئات من الأولين والآخرين فأنا أقرّه عليه وأشاركه الرأي فيه وقد أنصف الكثير، والحق يقال.

٢٨ ـ فرار أخي إلى "عدن" وإلقاء القبض على "نعمان"

اشتدّ الحصار على صنعاء وكانت القبائل تزحف رويداً رويداً من كل الجهات؛ «خولان» و«سنحان» و«بني بهلول» و«بلاد الروس» والحشود التي توافدت من «آنس» و«عنس» و«الحدا» من الجنوب والشرق.. و«بني الحارث» و«بني حشيش» و«همدان» و«بني مطر» و«الحيمة» ومن زحف من «حاشد» و«حجور» و«الاهنوم» و«عيال يزيد» من الشمال والغرب؛ وكنّا ننتظر وصول الأستاذ أحمد نعمان، الذي فضّل مع رفقائه من زعماء الأحرار و بينهم أحمد قاسم

العنسي ومحمد صبرة وجازم الحروي، وناشر العريقي، وابراهيم الحضراني، ومحمد الربيع، ومحمد الفسيل، وأحمد عبدالوهاب نعمان قائد فرقة «الصاعقة» وفرقته أيضاً، أن يقطعوا الطريق ما بين تعز وصنعاء على الخيل والبغال والحمير مارين بـ«إب» و«المخادر» و«يريم» و«ذمار»؛ يبشرون بالثورة وخيراتها و ينذرون أعداءها بالويل والثبور، وكان يرافقهم أيضاً الأستاذ صالح محسن شرف الدين... كنا ننتظرهم بفارغ الصبر؛ لا شوقاً إليهم فحسب، ولا طمعاً فيما ستقدّمه «فرقة الصاعقة» من مساعدة في الدفاع عن «صنعاء»، التي تخلّى عن الدفاع عنها أهلها، ولم يبق لها من مدافع إلا تلاميذ وضباط المدرستين «الحربية» و«العلمية»، بل والأمل في أن «جيش النجدة» بقيادة الشيخ علي ابن محسن باشا سيصل معهم! ولكنهم ما تخطوا «يريم» وجاوزوها إلى «ذمار» حتى انقطعت أخبارهم لمدة بضعة أيام، فالمواصلات «السلكية» كانت قد توقّفت بين «صنعاء» و«ذمار» بقطع الأسلاك، ولم يكن هناك مواصلات «لاسلكية» وأصبحنا ممّا حدث لهم في قلق واضطراب وخوف شديد، وأمر مريج. حتى وصلتني رسالة من أخي عبدالوهاب الشامي ــ الذي كان قد نجا بنفسه وفرّ إلى «عدن» منذ يوم أو يومين؛ يخبرني فيها بأن الأستاذ نعمان مع موكبه، قد ألقي عليه القبض في «ذمار» وأودع وكلّ من معه بما فيهم الأستاذ اللبناني رشيد سنّوه، السّجن و ينذرو ينصح بألا نبقىَ في «صنعاء» ننتظر القبائل الذين سوف يدخلونها حتماً و يُجرجروننا كالنّعاج، وأن علينا رحمة بأنفسنا، بل و بقضيتنا أن ننجو بأنفسنا ونترك صنعاء للقبائل الثائرة الهائجة!

ولعلّه يحسن بي أن أروي قصة فرار أخي عبدالوهاب إلى عدن، ولماذا نزح إليها، وترك «صنعاء» في أحرج ظروفها، وأحلك ساعاتها، لأنه لم يعمل ذلك اعتباطا، ولا لكي ينجو بنفسه فحسب، بل كان قد حاول إقناعي و بقية الزملاء كالأمير ابراهيم والأمير البدر ــ الذي كان قد أيّد الثورة ــ وأعلن إنضمامه إليها، و بايع عبدالله الوزير، ووجّه رسالةً إلى أبيه بأن يدخل فيما دخل فيه الناس ــ والزبيري، والحورش، والعنسي وسائر الأحرار.. حاول إقناعنا بأن «صنعاء» لا محالة ستسقط في أيدي القبائل، ولذلك فعلينا أن نغادرها إلى «عدن» مع كمية كبيرة من مال بيت مال المسلمين.، وأن على الإمام عبدالله الوزير أن ينتقل إلى «ذمار» أو «رداع» مع ما يستطيع نقله من المال والسلاح والذخائر، وكذلك يعمل الأمير علي الوزير ويجعل قاعدته «تعز» فإذا ما دخلت القبائل «صنعاء» ولم يدافع عنها أهلها الذين لا يؤيّدون الثورة وإمامها وحكومتها فإنّهم بعد أن ينهبوها سيعودون بغنائمهم إلى بلدانهم، وهناك نعود إليها من جديد، أو على الأقلّ نكون قد أسّسنا معارضة قويّة في «عدن» وجبهة وطنية قوية في الجنوب، وفي إمكان «الجامعة العربية» ــ التي كان لا يزال لها قيمة كبيرة في النفوس ــ بعد ذلك أن تتدخل بالصلح بين المتنازعين، أما إذا احتل القبائل «صنعاء» وقبضوا على إمام الدستور وحكومته فسيسوقونهم إلى «الإمام أحمد» كالنّعاج، لأن ذلك هو المبرر الوحيد لما سيمارسونه من نهب وسلب واختلاس.

وقد طُرِحَتْ هذه الفكرة ودرست، واستصوبها الرئيس جمال، وأحمد المطاع وحسين الكبسي، بل

والسيد الفضيل الورتلاني.. ولكن ــ كما قلت سلبقاً ــ كان الشلل قد استحكم، فقد كنا نتخذ القرارات الحازمة على الورق ليلاً، ولا ننفّذ منها شيئاً صباحاً، مصداقاً للقول المشهور: «كلام الّليل يمحوه النهار».

طائرة الشحنة الفضية:

فلما تأزمّت الأمور، وكادت «صنعاء» أن تختنق، وكانت تصل إلى «صنعاء» صباح كلّ يوم من عدن، طائرة «داكوتا» وتعود إليها في نفس اليوم؛ تأتي محملة بأدوات غيارات وكهرباء وعلاجات وأثاث لدور الضيافة والوزارات المستحدثة، وتعود مثقلةً بريالات «المارياتريزا».. وكان المسؤول عن استئجار «الطائرة» وتحميلها بالمشتريات وكيل حكومة اليمن بعدن السيد حسين الويسي، وكنت المسؤول عن استلام الدراهم «ريالات المارياتريزاالفضية» من السيد علي بن علي زبارة أمين صندوق بيت المال وشحنها على «الطائرة» وإرسالها مع مرافق خاص «مستلم» إلى السيد حسين الويسي، وكان لا يركب أحدٌ على الطائرة أويسافرعليها إلى عدن إلا بتصريح من قبلي و بتوقيعي!.

حوار في مطار صنعاء:

وقبل سقوط صنعاء بأسبوع جاء إليّ أخي ونحن بمطار صنعاء الجنوبي نحمّل الطائرة الشحنة الفضية ــ كانت كل شحنة مئة وخمسين ألف ريال.

ــ وقال: أريد أن أسافر إلى «عدن».

ــ قلت: ولماذا؟

ــ قال: لا أريد أن أقع في أيدي القبائل.

ــ قلت: ولماذا هذا الخوف؟ ومن قال لك إن القبائل سيتمكنون من الدخول «صنعاء»؟

ــ قال: يا أخي كن واقعياً، جيوشنا تفرّقت، ولحق كلّ جندي بقبيلته، ونحن بسذاجة سلّحنا من كان بغير سلاح منهم! وأنت تعلم أن معظم الجنود من القبائل المحيطة بصنعاء، وهم الآن يزحفون نحوها، يسوقهم الطمع، ويحدوهم الحقد والجشع، وقد أباحها لهم قوّاد الإمام أحمد.

ــ قلت: سيدافع عن صنعاء أهلها، كما فعلوا في فترات التاريخ، ولو لفترة حتى يصل «جيش النجدة» من «تعز» و«فرقة الصاعقة» مع الأستاذ أحمد نعمان، و يوشك أن نرى طلائعهم وراياتهم اليوم أو غداً، وهنا وصل الأستاذان الفضيل الورتلاني ومحمد محمود الزبيري، والسيد عبدالله بن علي الوزير، وانضموا إلينا، فقلت للأستاذ الفضيل بما يطلب أخي، فاستغرب الفضيل، و بدأ يحاول أن يقنع أخي بالصبر والتريّث، وأن ذهاب مثله وفراره إلى «عدن» سيضعف روح ومعنوية «الحرس الوطني»، وأنه يضمن له بعد انتصار الثورة أن يطوف جميع أنحاء العالم! وأن النصر وشيك وستأتينا

المساعدات من «العراق» و«مصر» الخ.. وحاول أخي الشاب المتحمّس الغيور الّذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره أن يشرح وجهة نظره، وأن يجادل الأستاذ الفضيل؛ ولكن دون جدوى، ومن ذا يستطيع أن يجادل الفضيل الورتلاني؟

وتظاهر أخي بالاقتناع واشتغلت بتوقيع بعض «التصريحات» وتسليم الشحنة إلى «المرافق» وكان السيد الملازم الأديب الشاعر أحمد بن حسين المروني، وجاء أخي وقال لي: أريد أن أكلمك على انفراد، وانتحيت معه جانباً فقال —وقد أخرج مسدسه— لا تجادلني يا أخي ولست أصدّق كلمة واحدة مما قاله الورتلاني؛ وستذهبون جميعاً ضحيّة خيالاتكم وأحلام الورتلاني؛ وإذا لم تأذن لي، وتعطيني تصريحاً بالسفر فسأقتل نفسي، ولكنّي قد أقتل أيضاً الورتلاني، وبيدي لا بيد عمرو! ولن أنتظر حتى يقودوني إلى السجن كما يقودون الشاة للذبح؛ ولا حتى أراكم تسحلون في شوارع «صعناء»، وكان يقول هذا وهو يرتعش همّاً وكمداً وحنقاً وغيظاً.

— قلت: أنا لا يمكن أن أعطيك تصريحاً رسمياً، وهل ترضى لي أن أخون أمانتي؟

— قال: فإذا دبّرت هروبي وأنت لا تدري؟

— قلت: أنت حرّ.. ولكن متى؟

— قال: إذا قلت لك متى، فستدري! ولن أكون حرّاً.

— قلت: أنت وما تريد.

— قال: شكراً، ونظرني نظرة وداع؛ فلم أجرؤ أن أثبت عينيّ في عينيه لكي لا أبكي.

وقامت الطائرة بشحنتها الفضيّة، وعدت إلى البيت لتناول الغداء، ولم يحضره أخي وسألت أمي: أين أخي عبدالوهاب؟ فقالت: قال إنه سيتناول طعام الغداء عند أحد الأصدقاء، فعرفت أنه قد فعلها وخفت أن تعرف أمي فتقلق، ولم أكن أدري أنها هي التي دفعته إلى الفرار لينجو بنفسه، وأنها قد زوّدته أيضاً ببعض المال إلا بعد أن سقطت صنعاء كما رويت في فصل سابق، كما أن السيد أحمد المروني الذي رافق الشحنة الفضيّة، وسلّمها إلى السيد حسين الويسي، ثم عاد إلى «تعز» بجهاز لاسلكي صغير ليدافع عنها، حدثني في سجن «حجة»: كيف فاجأهم أخي عبدالوهاب بعد أن حلّقوا في الجوّ وجاوزوا مدينة «ذمار» خارجاً من حمّام الطائرة كأنه «أرسين لوبين» حسب تعبير السيد أحمد المروني.

نجاة أخي من أسباب نجاتي:

وكان لابد أن أذكر قصّة نزوح أخي إلى «عدن» لأنّه كان من أسباب تأخير إعدامي، مراعاة له، ومحاولة من الإمام أحمد في إقناعه بالعودة، وقد كانت؛ بعد أن قاسى في كل من «عدن» و«أسمرة» وقبل أن يهاجر من جديد.. وقال في ذلك أشعاراً بديعة، ولقد قال لي أخي في كتابه الذي بعثه من

«عدن» لي آخر طائرة وصلت إلى «صنعاء» من «عدن» والذي أخبرني فيه بالقاء القبض على «نعمان» وفرقة صاعقته في «ذمار»، قال لي ما نصّه، وأقول نصه وأنا على يقين من ذاكرتي، فمثل ذلك الكلام، ومن مثل أخي، في مثل تلك الظروف، لا يمكن أن ينساه مثلي:

قال: «يا أخي أحمد، لا أقول بحقّي عليك، وحقّ زوجتك، وأمّي فقط؛ بل و بحق الوطن وما تجاهد من أجله؛ أن تنجو بنفسك على هذه الطائرة التي ربّما كانت آخر طائرة! وأنها لفرصة وحيدة لن تكرّر!

انجُ بنفسك، وحاول إقناع الإخوان بأن يكونوا معك في الطائرة، فإن لم يوافقوا فدعهم وما يختارونه لأنفسهم؛ إنكم تحاولون محالاً، إن صنعاء ستسقط خلال أيّام، وسيجرجرونكم في الشوارع كالنعاج، أرجوك يا أخي، أرجوك، أرجوك، بحق أمّك عليك، لا تفجعها فيك، إن أهل صنعاء كلهم مع الإمام أحمد؛ ولن يدافعوا عن مدينتهم فانجُ بنفسك يا أخي» إلخ.

وكنت في المطار أشحن آخر حمولة فضّية، مئة وخمسين ألف ريال مارياتريزا.. إلى السيد حسين الويسي.

وأعترف أنّني ضعفت، وحدثت نفسي بالنجاة، ودخلت الطائرة أعدّ «خِشَل» الفلوس أمام «المستلم».. وأسلّمه الخطاب إلى «الويسي»، وقعدت لحظة على «كرسي الطائرة»، وتخيّلت ماذا سيقول الإمام عبدالله الوزير الذي أحسن فيّ الظنّ، ووثق ثقة عمياء! وسمعت صوته يقول وقد بلغه أن أحمد الشامي هرب على الطائرة مع «الفلوس»: آه.. لقد خذلني حتى «الولد» أحمد الشامي! ووقفت حائراً مضطرباً، ونظرت إلى «الفلوس» مئة وخمسين ألف ريال «مارياتريزا»، وقد سبق أن أرسلت منها إلى «الويسي» مئتي ألف ريال وخمسين ألفاً؛ وصرخ الوسواس: اهرب؛ اهربْ.. انجُ بنفسك، وستكوّن مع «الويسي» و«أخيك» و«الفضيل» و«الزبيري» و«عبدالله بن علي الوزير» ــ الذين سافروا البارحة إلى المملكة العربية السعودية لمقابلة وفد الجامعة العربية، وإقناعه بسرعة الوصول إلى «صنعاء» جوّاً ــ ستكوّنون «حزب الأحرار» من جديد، لأن صنعاء ستسقط حتماً ــ كما قال أخي ــ وكما يقول الواقع.. ولكن.. ولكن ماذا سيقول الإمام عبدالله الوزير عن «أحمد الشامي»؟ ثم.. ثم.. ماذا سيكون مصير «حسين الكبسي» وهو لي كالأب والمعلّم؟ وماذا سيكون مصير «أحمد الحورش» وهو أنبل وأخلص من عرفت من الزملاء؟ وماذا سيكون مصير «الرئيس جمال» وقد قال لي: لا تغبْ عن مجلسي بعد عشاء كل ليلة.. وماذا سيقول عندما يُقال له: لقد هرب أحمد الشامي.. وصَرَخَتْ في أعماقي أصواتهم: لا.. لا تهرب يا أحمد، وسمعت صوت ضميري يقول: لأن تموت مع هؤلاء في سبيل «الميثاق الوطني المقدس»، والذي أقسمت عليه وكتبته بقلمك خير لك من الحياة!! وأذنت للطائرة بالإقلاع وعدت إلى «صنعاء» مرتاح البال والضمير.. وسقطت صنعاء... وجرْجَرونا في شوارعها كالنعاج.. ثم ساقوني مع «الإمام الوزير» ووزير خارجيته «الكبسي» و«الرئيس جمال»، و«أحمد الحورش» الذين لم أنج بنفسي من أجلهم، وفضّلت الموت معهم على الحياة دونهم...

و يالحكمة القضاء والقدر... لقد كُتِبَت لهم الشهادة.. وأنظرني رب العزة، وأنسأ في أجلي، لحكمة يعلمها! ربّما لأكتب هذه السطور بعد ستة وثلاثين عاماً.

٢٩ ـ نجاة الورتلاني وعبدالله بن علي الوزير والزبيري:

من حسن الحظ أن أحدا لم يشعر بنزوح أخي إلى عدن، فقد كان كلٌّ مشغولاً بنفسه، وآداء واجباته، وكان قد وصل إلى صنعاء على طائرة خاصة صغيرة ذات محرّكين، ولا تحمل غير سبعة أو ثمانية أشخاص مع قائدها، الدكتور أحمد فخري، والأستاذ عبدالحكيم عابدين والأستاذ محمد صالح المسمري وكان الدكتور فخري يحمل معه مشروع شراء طائرات صغيرة من هذا النوع الذي وصل راكبا على إحداها، وهي تصلح لليمن التي لم تعبّد فيها المطارات، وقيل إن في الإمكان أن تُركّب فيها مدافع رشاشة لإرهاب حشود القبائل المحاصرة لصنعاء، وكنا قد عرفنا أن أمين الجامعة العربية الأستاذ عبدالرحمن عزام قد وصل إلى جدة مع ممثلي الدول العربية في طريقهم إلى «صنعاء» ولكن الملك عبدالعزيز طلبهم إليه إلى الرياض، فتقرر إرسال وفدٍ ليشرح الموقف لوفد الجامعة، و يستعجل وصوله، و يرافقه، ويحمل رسالة من الإمام عبدالله الوزير إلى الملك عبدالعزيز آل سعود.. وتكوّن الوفد من الأستاذ الفضيل الورتلاني، والقاضي محمد محمود الزبيري، والسيد عبدالله بن علي الوزير.. وسافروا إلى جدة ـــ ومعهم الدكتور أحمد فخري ـــ على نفس الطائرة المشار إليها ـــ ولقد كان لسفر الوفد هزّة نفسيّة عنيفة في كيان جهاز الثورة، وتهامس البعض بأن الفضيل قد افتعل هذا الوفد بقصد الخلاص والفرار! ولا أزال أذكر ما قاله «عامل صنعاء ـــ وزير الدفاع في حكومة ثورة الدستور ـــ السيد الظريف حسين بن علي عبدالقادر.. حين جاء إلى دار وزير الخارجية السيد حسين الكبسي ونحن نجهّز جوازات سفر للفضيل، والزبيري وعبدالله بن علي الوزير، فقال بحضورهم وهو يُقَهْقِه بضحكتِه المشهورة الساخرة: «يا ليتني كنت معكم» فأطير «طيراً عظيماً».. وضحك الجميع و بعد أن ودّعتُ «الوفد» وعدت إلى الرئيس جمال... قال وهو يضحك: «هرب السيد الفضيل؟» و وجمت ولم أجب، لأن الفضيل كان مَثَلي الأعلى.. وكان في نظري أسمى من أن يفكر في «الهروب»؟ ولكنني لم أستطع أن أقول شيئاً.

ولقد سقطت «صنعاء» بعد سفر «الفضيل» ورفيقيه بأسبوع، وسمح لهم الملك عبدالعزيز بمغادرة مملكته إلى حيث شاءوا.. فلجأوا أولاً إلى «عدن» حيث قابلهم أخي عبدالوهاب؛ ثم تفرّقوا فذهب الزبيري وعبدالله بن علي الوزير إلى الهند وذهب أخي وحسين المقبلي إلى أسمرة، ولم تقبل «الفضيل الورتلاني» أية دولة عربية أو إسلامية، وظل مشرداً في البحار؛ من باخرة إلى أخرى، بضعة أشهر، حتى تآمر بعض زعماء العرب على تهريبه إلى «بيروت»، في قصة مثيرة، سوف أتعرض لذكرها في القسم الثاني من «كتاب حياتي» عندما أحكي ما دار بيني و بين الأستاذ الفضيل الورتلاني.. لمّا التقينا لأول مرة بعد خروجي من سجن «حجّة» وسافرت من «القاهرة» إلى «بيروت»، في شهر ذي.

الحجة سنة ١٣٧٤ هـ / أغسطس سنة ١٩٥٥ م بعد فشل انقلاب المقدم أحمد الثلايا والأمير عبدالله ابن الإمام يحيى حميد الدين إن شاء الله.

٣٠- الليلة الأخيرة في «صنعاء».

لن أكون مُغْرِقاً أو مبالغاً إذا قلتُ: إنها كانت ليلة مخيفة مرعبة؛ ومن الليالي التاريخية التي لا تتكرر إلاّ في فترات قرون أو أجيال متباعدة، ولا تحدث إلاّ نادراً؛ وليس لفظاعة ما تزل فيها من و يل على أهالي «صنعاء»، أو لما أصابهم من مكروه فحسب، بل ولأنهم لم يكونوا يتوقّعون ما حدث، ولم يحسبوا له حساباً، وكانوا هم الذين ساعدوا على سقوط مدينتهم، وتآمروا على فتح أبوابها ولم يدافعوا عنها، لكي يحتلّها أنصار الإمام أحمد، وكانوا يتوهّمون بأن «القبائل» سيكتفون بالقاء القبض على «الوزير»، وأعضاء حكومته، ومن تبعه وأيّده من المثقفين «الدستوريين»! فإذا بالذي يحدث غير ما توهموه أو ظنوه أو تصوّروه.. لأن القبائل قد استباحوا كل شيء في «صنعاء» حتى بيوت الله، ولم يُسْلموا إلاّ قصور و بيوت الإمام يحيى وأولاده، ومن يعلمون أو قيل لهم إنهم من أنصار الإمام يحيى والإمام أحمد وإنهم ليسوا دستوريين، أو من استطاع الدفاع عن بيته من الأغنياء! وكذلك لم يمسّوا خزينة الدولة ولا ذخائرها، خوفاً من الإمام أحمد، وأنزلوا غضبهم على الضعفاء والعزل والتجار والموظفين، ولو أنهم قد دافعوا عن مدينتهم مع «الحرس الوطني» لما تمكن «القبائل» من دخولها، ولاسيما وفيها ما يكفيها محاصرة بضع سنين.

تحذير جمال:

كنا في يوم الجمعة؛ ٢ جمادي الأولى سنة ١٣٦٧ هـ / ١٢ مارس ١٩٤٨ م وكان يوماً مفعماً بالقلق والرعب والإشاعات وأنا أتنقّل ما بين القصر وغمدان ودار الضيافة ومركز الحرس الوطني في أسوار صنعاء لتزو يدهم بالزّاد والذخائر وذهبت بعد العصر إلى مقر مجلس القيادة لأتحدث إلى «الرئيس جمال» في أمر ما، فلما رآني طلب من كل من في الغرفة أن يغادروها، ثم سألني: هل زرت «قصر غمدان» اليوم؟ قلت: نعم. قال: وكيف الأمور هناك؟ قلت: عادية؛ و يضر بون بقنابل «الرش» على بعض الحشود في سفح جبل «نقم»، وكذلك قصفوا «بيت معياد».. قال: وكيف حال الإمام ومعنو يّته؟ قلت: كالعادة! وهل من جديد؟ قال: إذا سلمت «صنعاء» الليلة فنحن إلى عافية! ولقد تلقّيت أنباءً تؤكد أن القبائل سيهاجمون صنعاء هذه الليلة؛ وهناك تآمر بين أولاد الإمام يحيى المعتقلين في القصر ــ قصر غمدان ــ وهم الأمراء علي والقاسم واسماعيل ويحيى ــ و بين بعض الحرس والعساكر على القيام بحركة داخل القصر لإلقاء القبض على الإمام عبدالله الوزير وأصحابه أو قتلهم إذا لم يستسلموا، ثم يفتحون باب «سِتْران» للقبائل، وفي نفس الوقت سيُفتح «باب شعوب» و«باب السبح»، و يظهر أن «قشلة» نُقم» قد سقطت في أيدي «القبائل»، وقبضوا على السيد محمد بن علي الوزير والشيخ علي ناصر القردعي، وأصحابهم، أو قتلوهم، أو نجوا بأنفسهم، فمنذ الصّباح أحاول

الا تصال بهم «تليفونيا» ولا أحظى بجواب [وكنا قد حصلنا على بضعة أجهزة تليفونية لاسلكية صغيرة تعمل بتيارات «البطاريات» الجامدة، فوزعت على بعض المراكز المهمة كالقصر عند الإمام، وقشلة نقم، ودار الضيافة، ومجلس القيادة] .. ثم فتح «التليفون»، وطلب قصر غمدان، فأجابه ابن أخ الإمام السيد عبدالله بن محمد الوزير؛ فقال جمال: أريد أن أتكلم مع الإمام، قال عبدالله بن محمد: ماذا تريدون؟ قال: أريد أن أحدث الإمام بحديث هام جداً، ومستعجل جداً، قال عبدالله بن محمد: الإمام مشغولون بصلاة العصر فماذا تريدون؟ قال جمال: لديكم في «القصر» مؤامرة خطيرة، فشددوا الحراسة على «جِرْبة المدافع»، و«باب ستران»، وغيّروا الحرس المرتبين عند أولاد الإمام، وأبدلوهم بحرّاس تثقون بهم، وإذا كنتم تريدون أن أبعث لكم بعشرين من ضباط المدرسة الحربية فسأفعل، فقال السيد عبدالله: لا تصدّقوا الإشاعات، قد بلغتنا بعضها وتحقّقنا من كذبها، فلا تقلقوا وانتبهوا على ما لديكم، أمّا «القصر» فكل شيء فيه على ما يرام؛ قال الرئيس جمال: إن كل شيء عندكم ليس على ما يرام.. وأخشى أن «قشلة نقم» قد سقطت، هناك مؤامرة لقيام انقلاب في القصر، وإلقاء القبض على الإمام عبدالله، وأولاد الإمام يحيى هم المدبرون للمؤامرة، وقد اشتروا بعض العساكر والحرس، فراقبوهم، غيّروا الحرس عليهم وعلى «الجربة» و باب «ستران» فموعد تنفيذ المؤامرة وهجوم القبائل على صنعاء الليلة؛ فأجاب السيد عبدالله بن محمد الوزير: لا تقلقوا ولا تخافوا؛ وكل شيء عندنا كما يُرام.. فضجر الرئيس جمال وتغير لونه و وضع سماعة التليفون وهويقول: ليس كل شيء على ما يرام.. ولكن لعلّ القدر قد نزل، وإذا نزل القدر عمي البصر.. ثم قال: اطلع بنفسك يا أحمد و بلّغ الإمام، وغيّر على الأقل حرس أولاد الإمام، ثم عد إليّ فأنا أريدك أن تبقى هذه الليلة بجانبي؛ وإذا وصلت متأخراً فكلمة السر هذه الليلة «اليرموك»، و بينما نحن كذلك إذ أقبل رسول يلهث و يقول: أنا مرسل من مدير الإذاعة لأخبركم أن الأستاذ «الشكعة» وزملاءه المصريين قد اعتذروا عن الوصول إلى محطة الإذاعة، وأن نبحث عن مذيعين غيرهم هذه الليلة، فابتسم جمال وقال: وهذا فصلٌ من المؤامرة، لقد أرعبوهم وهدّدوهم، فدبّر أنت يا أحمد أمر الإذاعة، لا أريد أن تصمت الإذاعة هذه الليلة، وسأحاول الاتصال بالإمام وأحذره.. و بعد أن تنتهي من الإذاعة تعال إلى «القيادة».. وكان قد أزف الوقت، وكادت الشمس أن تغيب، فذهبت إلى دار الضيافة، فوجدت الأستاذ أحمد البرّاق، وأولاد الأستاذ أحمد نعمان محمداً وعبدالرحمن وطفلاً ثالثاً، فأخبرت «البرّاق» بأن الأساتذة المصريين قد اعتذروا عن الذهاب هذه الليلة إلى الإذاعة وقد كُلّفتُ معه بأن نقوم بالمهمة، وعليه أن يلفّق نشرة أخبار، قال ونقرأ مقال الأستاذ حبيب جاماتي، إنه رائع، وأخذنا معنا أولاد نعمان ورفيقهم، وكانوا لما يبلغوا الأحلام، وجاء وقت الإذاعة وافتتحها الأستاذ محمد أحمد نعمان بقراءة آيات من القرآن ثم أنشدنا خَمْسَتُنا:

بلاد العُرب أوطاني ... من الشام لبغدان
ومن نجدٍ إلى يمنٍ ... إلى مصر فتطوان

ثم أخذت «الميكرفون»، وارتجلت كلمة افتتحتها بأبيات أحمد شوقي:

ولــلأوطــان في دم كــل حــرّ　　يــدٌ ســلــفــت وديــن مــسـتـحـقّ
ولـلـحـريّـة الحـمـراء بـابٌ　　بــكــلّ يــد مــضــرجــة يُــدَقّ

آخر أصوات الحرية في صنعاء:

وتحدثت عن صنعاء الحرية والدستور والنور، وأنها لن ترجع إلى عهد الاستبداد والظلم والظلام، وقلت اننا سندافع عنها وسنقاتل في الشوارع، ومن منزل إلى منزل بل ومن غرفة إلى غرفة، واندفعت أقول ما لا أدري، وقد أخبرني من سمع كلمتي تلك في «صنعاء» و«تعز» و«إب» و«الحديدة»، عندما التقينا في السجن أنها كانت كلمة قوية وأنني لم أقل قبلها ما هو أحسن منها.. وحين فرغت، أملى الأستاذ البرّاق نشرة الأخبار ثم قرأ مقالاً للأستاذ حبيب جاماتي، كتبه في إحدى الصحف المصرية وعنوانه: «الجامعة العربية هي التي سفكت ذلك الدم» تحدّث فيه عن قضية اليمن، ومحاولات أحرارها نصح الإمام يحيى، ومطالباتهم لزعماء العرب ورؤساء وملوك دول الجامعة العربية بأن ينصحوا حكومة اليمــن بضرورة الإصلاح، ولكنهم تقاعسوا وأن ذلك الإهمال هو الذي سبب ما حدث وما سيحدث، وحمّل الجامعة العربية ودولها مسؤولية الدم الذي قد سفك والدماء التي ستسيل.

التناصير:

و بينما كان «البرّاق» يتلو المقال بصوته الرصين، إذا بالرصاص يتساقط على محطة الإذاعة، إذ قد بدأ الهجوم على «صنعاء»، فأشرتُ للبرّاق بأن يستعجل القراءة، وتطلّعتُ من النافذة نحو الشرق فرأيت «قشلة» جبل «نقم» قد أشعلت النيران و«نصّرتْ» فعرفت أن قبائل «خولان» قد احتلتها، وسألني أحد حرّاس الإذاعة لماذا ينصّرون في «نُقم»؟ فقلت: وصل أصحاب «القردعي» من «مراد» «فنصّر» فرحاً بهم، واحتفالاً بمقدمهم. ثم أوصلت «البرّاق» والأطفال إلى دار الضيافة، وعرجت على البيت لأخبر «أمّي» و«زوجتي»، بأني سأبيت في مجلس القيادة وقدّمت لى الوالدة عشاءً فما كدت أتناول لقمة حتى سمعت أصوات المدافع وَلَعْلَعَة الرشاشات من القصر ومن جوار مجلس القيادة، ودور الإمام في باب السبح فطلعت إلى السطح فإذا «صنعاء» تشتعل «بالتناصير» والنيران تتراقص في سطوح المنازل بما في ذلك قصر غمدان فتذكرت قول الرئيس جمال: ليس كل شيء على ما يرام.. ولكن: إذا نزل القدر عمي البصر.

يا متوكلاه ثم يا غارتاه:

وأردت الذهاب إلى مركز الفيادة فتعلقت بي أمي، ومسكتني زوجتي وقالتا: والله ما تركناك تذهب من البيت هذه الليلة، وصاحت أمي بالسائق الصديق المخلص «جيّاش» أن يذهب و يعود الصباح.. وكانت أصوات أهالي «صنعاء» تتعالى مع لهب «التناصير»، وأصوات البنادق والرشاشات ودويّ المدافع مجلجلةً في ظلمة الليل وهي تقول: «يا متوكلاه يا ناصراه» ثم رو يداً رو يداً بدأت تخفت مع اللهب وتمتزج بصرخات كأنّها أصوات نساء يستغثن و يقلن صائحات: يا غارتاه، يا

رجالاه.. فعرفت أن بعض رجال القبائل قد بدأوا في النهب والسلب والعبث والفساد، فألقيت سلاحي ودار بيني وبين أمّي ذلك الحديث الذي سبق أن رويته.

وقد تحدثت عن «الليلة الأخيرة» وسقوط «صنعاء» في بعض قصائدي، ودواوين شعري، ومما قلته أصوّر بعض ما فصلته هنا ولكن في شعر منثور أو نثر موزون:

«وشرد المهاجران(1) والفتى «الجزائري(2)..

«وقبلهم نجا أخي: الشاعر الهمام..

«بعد جدال طال في المطار.. عن الذي يراه..

«طار إلى «عدن» مُحذّراً ومنذراً..

«لكن كل شيء... قد كان في كف القدر..

«وكانت العقول... تهيم في وادي الخَدَرْ..

«وعندما يقضي القدر.. هيهات ينفع الحذرْ..

«إن أنسَ.. لن أنسى... الليلة الأخيرة..

«ليلة مكر «حمير».. بثورة «الوزير»..

«وكانت الحشودّ.. من «حاشد» ومن «بكيل»..

«قد حاصرت.. «صنعاء».. وكانت «الخيانات»..

«وكانت «المنافسات».. وكانت «الحزازات» قد مثّلت أدوارها..

«وكان ذلك «الشجاع»(3).. قد هيّج الأطماع..

«وحرك المشاعر.. ومثّل الدور الرهيب..

«وكان ذلك «الإمام»(4) بالثقة العمياء.. قد ساعد الجميع..

«وكانت السذاجة.. والصدق والخيال.. مشكلة الأحرار..

«إن أنسَ.. لن أنسى.. «الليلة الأخيرة» لثورة «الدستور»..

«حين أبى «الشكعة»(5) أن يُذيع..

---

(1) يقصد: «السيد عبدالله بن علي الوزير» و«الأستاذ محمد محمود الزبيري».

(2) يقصد: «الأستاذ الفُضيل الورتلاني».

(3) المراد: الإمام أحمد حميد الدين.

(4) المراد: الإمام عبدالله الوزير.

(5) الدكتور مصطفى الشكعة.

« كما أبى كلّ « المذيعين » بأن « يداوموا » . .

« خوفاً من الرصاص . . في « الليلة الأخيرة » . . .

« ولم أكن « مكلّفاً » بأن أذيع . .

« ولست مسؤولاً إذا . . ما خمَدَ الصوت . .

« قد كان كل النّاس في انتظارْ . . أن يهمدَ الصَّوت . .

« هَبِبْتُ واستصحبْتُ يافِعَيْن . . من آل « نعمان » الكرام(١) . .

« سرنا معاً . . و« أحمد البرّاق » فقرأ القرآن . .

« محمد النعمان » . . جوّده بصوته الحنون . .

« ثم تجاذبنا النشيد . . في نغم حزين . .

« بلاد العرب أوطاني . . من الشام لبغدان . .

« وثمّ . . لفّقنا من الأخبار . . ما يُضْحك الفهيم . .

« وقلت : للحرية الحمراء باب . . يُدَقّ باليد المضرّجة . .

« وقرأ « البرّاق » مقال « جاماتي » . .

« يحمّل الوِزْر الكبير « جامعة العرب » . .

« فهي التي قد سفكت دم الإمام . .

« وسوف تسفك الدماء من جديد . .

« وانهمل الرصاص كالمطر . . وسقط « القصر » العتيد . .

« وقبله « نُقُمْ » ونصّرتْ « صنعاء » . .

« وفتحت أبوابها . . ودخل « القبائل » . .

« من « حاشد » ومن « حجور » و« عنس » و« الحدا » . .

« من كلّ صوب أقبلوا . . ونهبوا . . وعبثوا . . جُهد البلا . .

« وجهد طاقة الخراب ، وشهوة الإتلاف والدمارْ . .

« وصرخَ الجميع . . . « فليسقط الدستور » . .

« يحيا الظلام و« يموت النّور » . .

---

(١) هما : محمد أحمد نعمان ، وعبدالرحمن أحمد نعمان .

« وسقط الأحرار، وعلماء الشعب والتجار..

« والأبرياء، والمذنبون، مستسلمين للمصير.. المظلم المجهول..

« وسيق من سيق من الثوار..

« إلى رُبا « حجّة » في.. قافلة خرساء..

« والغافلون يهتفون: يحيا الظلام ويموت النور..

« وليسقط الدستور..

وقلت أصوّر حالة الإمام عبدالله الوزير تلك الليلة في قصيدة طويلة:

« ليلة الدستور» حين طغت	ظلمٌ بالرغب تنفجرُ
همس المهزوم مرتعداً	لفحيح البطش يعتذر
وصلاة العزّ تحضنه	ودموع اليأس تنهمر
لا تلمه إنّه بشرٌ	عهده قد خانه البشر
غدروا عمداً، وقد حلفوا،	وعليهم تشهدُ السورُ
وصحا فجراً، وقد هربوا	وإلى أعدائه نفروا،
وأتوه ينشدون دماً	هم أباحوه، وهم هدروا
كيف خانوا العهد وانقلبوا	وهم بالأمس من ثأروا
ثم باعوه.. وما علموا	أنّهم بالبيع قد خسروا





الرئيس جميل جمال العراقي قبيل إعدامه في صنعاء في شهر رمضان سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.

٣١ - استسلام الرئيس جمال جميل ومأساة مصيرة :

كان من واجبي وأنا أتحدّث عن المؤثرات في حياتي، أو على الأصح في المجتمع اليمني أيام شبابي .. أن أشير إلى البعثة العراقية العسكرية التي انتدبها ملك العراق بطلب من الإمام يحيى لتدريب الجيش اليمني قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها، إذ قد كان لها أثر فعّال ولاسيّما بين شباب «صنعاء».

لقد كانت «بعثة» اختيرت من أفضل العناصر العراقية فتوّة ومعرفة وأخلاقاً؛ وكان يرأسها كهلٌ وقور هو العقيد اسماعيل صفوت الذي أصبح فيما بعد من أبرز قادة الجيوش العربية في حرب فلسطين ضد اليهود؛ وكان مشهوراً بقدراته وكفاءاته العسكرية وثقافته الواسعة، وشجاعته وإخلاصه وقد حاز بكل ذلك ثقة اليمنيين حكومةً وشعباً.

وكان الرئيس عبدالقادر الناظمي، والرئيس جمال جميل من أبرز أعضاء هذه البعثة كفاءة وعلماً ومظهراً.

وقد تعرفت على ثلاثتهم في مجلس السيد محمد بشير الحلبي عندما كنت أرافق أستاذي القاضي محمد الحجري لنلعب «الشطرنج» صباح كل جمعة أو في أيام عطل الأعياد.

وكان السيد عبدالقادر الناظمي طويل القامة، وجيه المنظر ولاعب «شطرنج» ماهراً، كما كان أديباً خطيباً، و يقول الشعر الجيّد و يروي منه البدائع، ومن خلال لعبة «الشطرنج» تعرّف على ابنة السيد بشير فطلب يدها إلى والدها وتزوّجها، وكانت أختها الكبرى قد خطبت ـ أو تزوّجت ـ بولي العهد «أحمد» فأصبحا عديلين.

وكان الرئيس جمال ربع القامة كبير الهامة، مهيب الشخصيّة، طلق المحيّا، فصيح اللسان، ويجيد لعبة «الشطرنج» أيضاً..

فوج النمونه:

ولقد بذلت هذه البعثة جهداً كبيراً في محاولة تكوين جيش يمني حديث، وأعجبت بروح الجندي اليمني ومواهبه الفطرية التي يمتاز بها عن سائر أبناء العرب ـ كما قالوا ـ ولكي يقتنع الإمام يحيى بإمكان تنظيم الجيش اليمني تنظيماً حديثاً شكّلوا «الفوج النموذجي» ـ فوج النمونه ـ وجلبوا له ملابس خاصة من العراق واهتموا بتدريبه وتعليمه وخلال بضعة أشهر لم يشعر الإمام يحيى أثناء استعراضه الأسبوعي للجيش إلاّ وهذا الفوج يهزّ أفراده صنعاء بضربات أعقاب «قناطرهم» وهم ينشدون:

نحن لا نخشى أزيز الطائرات لا ولا نرهب قصف المدفع

ولعل القارىء يذكر أن أحد أفراد هذا الفوج كان زميلي في «مكتب الأيتام» واسمه السيد

عبدالخالق السراجي وقد رافقني مع «بغلة بيت المال» من «تعز» إلى «صنعاء»..

وما وصفته به هناك من انضباط ووعي وتأثر بتعاليم الرئيس جمال العراقي يغنيني عن الإسهاب هنا في وصف بقية أفراد ذلك الفوج الذي مات معظم أفراده بحميّات تعز ما بين سنة ١٣٥٩ و١٣٦١هـ / ١٩٤١ و١٩٤٣م.

كما أن أعضاء البعثة العسكرية العراقية قد أحسنوا تنظيم المدرسة الحربية في صنعاء ووضعوا لها البرامج العسكرية الجيّدة والتي تكفل تخريج ضباط أكفاء، ساهموا في كل الحركات اليمنية ما بين سنة ١٩٤٨ـ ١٩٥٥م/ ١٣٦٧ـ ١٣٧٤هـ ،بل وكانوا هم أبطال ثورة سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ و يقول العارفون إن خريجي المدرسة الحربية في صنعاء أكثر كفاءة عسكرية، وثقافة وطنيّة من زملائهم الذين تخرّجوا من الكلية العسكرية المصرية قبل الثورة و بعدها..

لماذا تخلف جمال عن العودة إلى بغداد؟:

و بعد أن انتهت مدة البعثة العسكرية العراقية وتهيأت للعودة إلى «بغداد» سعى العقيد اسماعيل صفوت و بواسطة «ولي العهد أحمد» الذي كان قد فاز بصداقته وإعجابه في أن يتخلّف الرئيس جمال جميل في اليمن وقدّم طلباً خاصاً إلى الإمام يحيى فسمح له بالبقاء وعيّنه معلماً للجيش، وقيل وقتها إنه لم يجرؤ على العودة إلى العراق لأنه كان أحد الضباط المساهمين في إحدى الحركات التي ذهب ضحيتها السيد جعفر العسكري، وانه هو الذي رافقه في سيارة إلى مصيره المجهول في حادثة لا أتذكر تفاصيلها، ولا أسماء أبطالها بالضبط والزملاء عبدالله السلال وأحمد المروني، وحمود الجايفي أعرف مني بخبرها وأسماء رجالها.

و بصفته معلم الجيش اليمني فقد كان أستاذاً في المدرسة الحربية كما أنه كان يتبرّع بإعطاء بعض شباب المدرستين العلمية والثانوية دروساً في اللغة الإنجليزية والحساب والهندسة، و برز في المجتمع الصنعاني شخصيّة محبوبة محترمة، وتزوّج بسيّدة فاضلة من فتيات صنعاء.

شخصية جمال جميل:

كان لطيف المعشر باسم الثّغر، يتبادل الزيارات مع رجال الدولة والوجهاء والأدباء، يجيد الحديث ويحب النكتة ويحضر معظم الصلوات الخمس في المسجد كما يعمل سائر أبناء صنعاء يومئذ فكسب مودّة واحترام الجميع، وأصبح اسمه «الرئيس جمال» علماً من الأعلام عند الكبير والصغير.

وحين نزل «الورتلاني» بصنعاء ضيفاً على الحكومة، كان الرئيس جمال قد أصبح من شخصيات المدينة المرموقين، وكأنّه أحد زعماء اليمن.

وقد توثقت عرى الصداقة بيني و بينه بعد عودتي من «عدن» والتقينا فكرياً، وكان يؤيّد وجهة نظري و يقول إن المخلص الأمين لليمن من عقابيل التخلف إنما هو «التعليم»، والأخذ بأسباب المدنية، وتشجيع وتحسين الزراعة وتكوين جيش قويّ من أجل توحيد اليمن الكبرى؛ وتشجيع الحكّام

ــ ولاسيّما وليّ العهد أحمد ــ على الخروج باليمن من عزلتها بإنشاء الطرقات والمستشفيات، وفتح المدارس، وجلب الأساتذة والمعلّمين والخبراء وإرسال البعثات التعليمية إلى مصر والعراق والشام وغيرها .

كان يُفضِّل أحمد على الوزير:

وقد التقى بالأستاذ الفضيل الورتلاني في جلسات عامة وخاصّة، ولا شك أنهما قد تدارسا أوضاع اليمن حتى اتفقا على فكرة « الميثاق الوطني » ومنصبه فيه « مدير وزارة الدفاع » وعضو مجلس الشورى ، و بعد أن اطلعتُ على الميثاق وأصبحت له أميناً حضرت معه عدة جلسات في بيت السيد حسين الكبسي و بحضور الفضيل و بعض الشخصيّات كالقاضي أحمد الجرافي والسيد عبدالله بن علي الوزير والحاج عزيز يعنى، وكان يحثّ على التأني، وانتظار وفاة الإمام يحيى، وسمعته مرّات يقول: إن أهم الشخصيّات اليمنية هو أحمد بن الإمام يحيى، وإنه يخشى ألا يقوى أحدٌ على منازلته، وكنتُ ألتقي معه في وجهة نظره هذه، لكن صوته كان يضيع بين أصوات الأكثرية من العلماء ورجال الحل والعقد، ومعظمهم كانوا يخافون السيف أحمد و يرهبونه، و بعضهم كان يتافسه، ولأن الرئيس جمال كان لا يشاركهم الخوف والرهبة ولا يفكر تفكير الند المنافس الطموح، فقد كان ينظر ببصيرة وتفكير مجرّد فيعرف الحقيقة، ولا يخشى أن يجهر بما يراه و يقول إن السيف أحمد هو أقوى شخصيات المسرح السياسي في اليمن؛ ولقد كنت أشاركه نفس النظرة ربّما لأني كنت مثله لا أخاف السيف أحمد ولا أرهبه وطبعاً لا أنافسه وهيهات، وربما لأني كنت أودّه وأعجب به، ولأن الرئيس جمال كان واقعياً ومجرّباً، وخبيراً، وعسكرياً مرن على المعارك والمؤامرات فقد قال مرّة للفضيل الورتلاني وحسين الكبسي وأحمد المطاع: إذا كنتم ستتآمرون فتآمروا على التخلّص من « أحمد » لأنه الآن سرّ بقاء أبيه في السلطة، ولو قتل أو مات لتوفي والده الإمام يحيى بالسكتة القلبية، ولم يستطع أحد من إخوانه أن يعمل شيئاً.. وقد أورد ذلك على سبيل النكتة.. ولكني عرفت أنه كان يعني ما يقول..

ولقد كان يطمئن إلى مبادلتي الآراء وكان يفضي إليّ بما لا يستطيع التحدث به إلى غيري ربّما لأني ــ رغم صغر سني ــ كنت أشاركه وجهات نظره وأؤيّد اقتراحاته الحاسمة أكثر من غيري ولقد قال لي مرّة بعد أن خرجنا من جلسة عاصفة تحدث فيها الأستاذ الفضيل بحماس اكتسح به مشاعر المستمعين قال لي جمال: إن هذا الجزائري يسوقنا ببيانه وأحلامه إلى المقاصل والمشانق.. واستغربت أن يصدر منه مثل هذا القول، ولم أوافق عليه في قرارة نفسي، لأن الفضيل كان قد استحوذ على مشاعري أيضاً، ولكني ضحكت وقلت له: سيقدّر الله الخير.. ثم كان ما سبق أن فصلته وقُتِلَ الإمام يحيى، ونجا « وليّ العهد أحمد » الذي كان الرئيس جمال يحسب له ألف حساب وحوصرت صنعاء وكان جمال هو كل شيء فيها حتى الليلة الأخيرة، وكان يرغب أن أمضيها معه، ولكني بعد أن عدت من محطة الإذاعة لم أتمكّن من الوصول إليه..

ومن نافلة القول ــ عند من يعرفون حقائق ما كان ــ ورغم دعاوى البطولات من قبل الكثير ــ أن

أؤكد بأن الرئيس جمال كان هو الروح العسكرية لثورة الدستور، وأن أحداً ما كان ليستطيع القيام بما قام به من تكوين الخلايا السرية في الجيش، ولمّ شتات ضباطه، لأنه وحده، بكفاءته وإخلاصه، وصدقه، وسلوكه، كان قد ملك ثقة الجميع.

وربما كان من المستملح ــ قبل ان أتحدث عن مصير «الرئيس جمال» في تلك الليلة الموحشة الكئيبة ــ أن أذكر أنّه بعد أن حصل ما حصل، وعرف أن «أحمد» قد نَهَدَ إلى جبال «حجّة» يرعد و يبرق لم يتبرّم، ولم يعتب ولم يقل: «لقد قلت لكم أو قد حذرتكم ونصحتكم» بل نهض بواجبه وقام بتأديته كفارس شجاع متفائل مقــدام، وتحوّل ذلك الإنسان البشــوش، الباسم الثغــر، البهيّ الطلعة، الصبوح الوجه، إلى قائد عسكري حازم وقور يقظ صارم وعندما نبتت لحيته ــ لأنه لم يجد وقتاً للحلاقة ــ ظهرت بيضاء كثّة فعرفنا أنه ليس كما كان يوحي مظهره شاباً لم يتجاوز الخامسة والثلاثين بل كهلاً يحبو إلى الخمسين إن لم يكن قد تجاوزها.. ورغم كلّ مهمّاته التي نهض بها فلم يفقد المرح وإرسال النكات العميقة المغزى، والتي تسجّل الظواهر الإنسانية التي كان يسجّلها بحسه المسلم و يريد أن ينبّه إليها، أو يحذر منها، أو ينتقدها.

مهزلة الحارات:

دخلت عليه ذات ليلة وهو يشرب «الشاي»، فحيّا وهشّ وأمر لي بفنجان ثم قال: لا وقت للشطرنج، وكيف حال القاضي الحجري والسيد بشير و«تالُقة ماطري»؟ قلت لم أرهم منذ عشرة أيّام ــ أي منذ هبّت الثورة ــ وكانت مقاليد الأمور لا تزال بأيدينا، وآمالنا في التغلب على الصعاب تملأ جوانب صدورنا، ولم يكن معنا إلا تلميذه النجيب أحمد، أو محمد الحافي أحد خريجي المدرسة الحربية وأنجب ضابط يمنيّ عرفته من أبناء صنعاء وقال الرئيس جمال باسماً: وأنت، هل عندك «حارة» يا سيّد أحمد؟ قلت: نعم، عندي حارة في «صنعاء» وأخرى في «بير العزب»، قال: ولماذا لم تطلب «فلوساً» لتوزعها على سكان «حارتك»؟ فاستغربت وقلت: ولكني لست «شيخ الحارة». فقال ــ وهو يرتشف الشاي ــ وهل «فلان» و«فلان» ــ بعض رجال الثورة ــ مشايخ حارات في صنعاء؟ قلت: لا. قال: لقد طلبوا منّي «فلوساً» لتوزيعها على سكان «حاراتهم» كي يضمنوا بها تأييدهم وإخلاصهم للثورة.. ولم أبخل عليهم بها.. لأن «الفلوس» تخرس الألسنة على الأقل.. ثم ضحك وقال وهو يرمق بنظراته الحادة تلميذه النجيب وحارسه الأمين الضابط الشاب «الحافي» وكأنه يعطيه درساً ــ قال: يظهر أن «حارة» ــ فلان ــ أصغر من حارة ــ فلان ــ وأما حارة ــ علاّن ــ فكبيرة جداً وأما «أحمد المروني» و«عبدالله السلاّل» فهم مثلك ومثل محمد محمود الزبيري مساكين... وليس لكم حارات في «صنعاء»... وضحكنا ثم استأنف أعماله..

القاضي محمد التهامي:

وبمناسبة «الحارات» وتوزيع «الفلوس» لعلّ من المفيد أن أذكر أن صنعاء قد تلقّت أنباء قتل الإمام يحيى وأولاده ورئيس وزرائه، بوجوم وهلع، ولقد أخبرني زميلي وصديقي الأديب الظريف

لطف بن محمد التهامي أن والده وهو قيّم مسجد «ابن الحسين» وأحد المرموقين في حارة القزالي، قد بات تلك الليلة ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧ هـ ليلة مقتل الإمام يحيى قلقاً ساهراً وأصبح قلقاً حزيناً، وأنه قد وقف وهو يتناول طعام العشاء، وقال بصوت يتهدّج، لم أستطع أن أستسيغ العيش ولا أزدرد اللقمة يا لطف.. فقال ابنه: ولماذا؟ قال: ألماً وحزناً.. أما كان عليهم أن ينتظروا حتى يموت؟.. أيجوز أن يقتلوا الإمام العجوز الذي قد جاوز الثمانين؟ كيف يجرؤون؟ وشرقت عيناه بالدمع، وأخرج اللقمة من فيه.. وفعل نفس الشيء وهم يتناولون صباحا وجبة الفطور.. وكان لطف التهامي من طلبة المدرسة العلمية ومن زملاء أحرارها محمد بن أحمد الشامي وحسين المقبلي وعلي الفضيل وعلي السّمان ويحيى المطاع وأضرابهم، و بعد يومين أي بعد أن استدعى الرئيس جمال إليه مشايخ حارات «صنعاء» وأئمة مساجدها وفرّق عليهم أكياس الدراهم —ريالات ماريا تريزا الفضيّة— ليوزّعوها على سكّان الحارات الفقراء والمستحقين وكان قد نصحه بذلك القاضي عبدالسلام صبرة والعزي صالح السنيدار —يقول لطف التهامي— ولأوّل مرّة في حياة والدي يقبض خمسمائة ريال و يؤتمن عليها ليوزعها كيفما يشاء و يأخذ منها ما يريد، فما إن عاد إلى البيت ودخل إلى دهليزه حتى صرخ: يا لطف.. يا لطف.. أنزل عِدّ الفلوس، و يقتلونه سبعين قتلة.. وماذا علينا من ذلك.. انزل انزل عِدّ الفلوس..

قال لطف: وتناولنا طعام الغداء وأبي يزدرد اللقمات وهو يقول:

—الله يحفظ الدستور، الله يحفظ الشورى الله يحفظ الرئيس جمال.. ثم نظر إليّ باسماً وقال: هِيْ وهِيْ.. الفلوس تِدّي الجنّ مربّطين..

مأساة نهايته الحزينة:

أمّا كيف كانت نهاية الرئيس جمال؛ وكيف استسلم، وإلى من، وكيف عامله «اليمنيّون» فحديثها يستدرّ الشؤون وتصوّر قصّةً بل مأساة سيظل كل يمنيّ يحني رأسه خجلاً عند سماعها؛ وأنا لا أرويها الآن إلاّ وفاءً لذكراه، ولأسجّل بأنني والكثير من أبناء اليمن قد تقزّزت مشاعرنا حين بلغنا ماحدث له والطريقة التي عومل بها، والأسلوب الوحشي الذي واجهه به الجهلة من أبناء اليمن التي أحبها وأراد الخير لها.. ولم أستمع إلى كل ذلك منه ولا رأيته ولا شاهدته لأنني كما ذكرت سابقاً قد أخذت من بيتي في «صنعاء» إلى سجن «الرادع» واستسلم هو إلى سجن «غمدان»، ثم كان ضمن الدفعة الأولى من زعماء ثورة الدستور الذين سيقوا من «صنعاء» إلى «حجّة» مع «الإمام» عبدالله الوزير والأمير علي الوزير ومحمد بن أحمد الوزير وابنه عبدالله بن محمد ومحمد بن علي الوزير حيث أودع في سجن «المنصورة» وأما أنا فقد كنت مع الدفعة الثانية وكان زملائي في السيارة والمغالق والأغلال، حسين الكبسي، وعبدالله الشماحي، وأحمد الجرافي، وأحمد الحورش، ومحمد المسمري، ومحيي الدين العنسي، ومحمد المطاع، ومحمد حسن أبوراس، وعبدالوهاب نعمان، إلى إخوان آخرين ينوفون على الخمسين شحنوهم في سيارات أخرى مغلّلين بالمغالق موثقين بالقيود، وأودعت سجن «نافع» ولذلك فلم أحظ بالاجتماع به بعد تلك الجلسة التي رويتها وشرحت أحداث ليلتها في فصل سابق.. لكن

بعض من كانوا في سجن قلعة «غمدان» الذي استسلم إليه وشاهدوا ما حلّ به قد رووه لي عندما التقيت بهم في سجن «نافع» كما أن الأخوين الزميلين محمد بن أحمد الشامي وعلي الفضيل وقد سجنا معه في المنصورة قد أخبراني بما جرى له رواية عنه وأنّه عندما انصبّت على مركز قيادته النيران من قصر الإمام «دار الشكر» و«النوبة» المشرفة على «باب خزيمة» ومن أماكن أخرى في باب السبح وعرف أن «نقم» قد سقط وكذلك «قصر غمدان»، وأن المؤامرة التي توقعها، وحذّر الإمام عبدالله الوزير منها قد نفّذت، وأيقن أن لا جدوى من أي مقاومة قال لمن بقي معه من تلامذته ضباط المدرسة الحربية بأن لا معنى للاستبسال الأحمق، وأن على كلّ منهم أن يحاول النجاة بأسلوبه الخاص معزيا لهم بقوله: احتفظوا بأنفسكم لجولة أخرى وتسلّل هو من منفذ خلفيّ كان قد أعدّه لمثل هذا الظرف الحرج، وخرج إلى بساتين «الحرقان» و«الطبري» شمال صنعاء وقصد أماكن الحرس في «قلاع» السور فوجدها خالية والمدافع و«الرشاشات» مطروحة لا أحد عليها، ومضى إلى «باب شعوب» فوجده مفتوحاً والقبائل تتدفّق منه فمضى في طريقه على قدميه إلى «الميدان» ودخل قبّة «البكيرية» حيث صلّى العشاء الأخيرة وصلاة الوتر وعندما طلع الفجر أدّى صلاته ثم اتجه نحو قصر غمدان وطرق بابه قائلاً لحرّاسه:أنا جمال جميل العراقي.. وأطلّ الحرّاس عليه من «نَوْبة» السور وعندما عرفوه ولمّا يفهمُوا أنه جاء مستسلماً هابوه وخافوا أن يفتحوا له الباب وقالوا له مرجفين: لقد قبضنا على عبدالله الوزير وأصحابه واستلم القصر أولاد الإمام يحيى سيوف الإسلام فماذا تريد؟ قال: لقد جئت مستسلماً ففتحوا الباب وخذوني إلى سيوف الإسلام، فقالوا: اخلع أولاً ملابسك العسكرية وكانوا يظنون أنه يخفي تحتها أو في جيوبها قنابل يدويّة، وكانت قد سرت إشاعة أن جمال العراقي «مُصرّف» لا تخترق جسده الرّصاص.. فخلع معطفه، فقالوا: اخلع السروال، فضحك وقال:عيب عليكم يا أولاد، قالوا: لابد من ذلك، فخلعه فأمروه بأن يخلع كل ملابسه حتى لم يبق عليه إلا «فنيلة» و«شورت» قصير... وهنا فتحوا الباب وانهالوا عليه ضرباً وصفعاً وبصقاً وهو يقول: أبطالٌ يا أبناء تبّع وقحطان.. شجعان يا أبناء حاشد وبكيل.. ثم جرجروه إلى السجن وأثقلوه بالقيود وهو شبه عار.. يقول: لم أهن أحداً من أمرائكم أو رجالكم، وقد كنت أظنكم شجعاناً يا رجال اليمن.. وقد انفعل السجناء بما حدث وخلع عليه أحدهم قميصه، وآخر معطفه، وروى لي من روى لي هذه القصة وهو يبكي.. ولقد بكيت حين سمعتها ولا أزال في سجن نافع كما بكيت حين سمعتها بعد خروجي من السجن ولم يُعزّني إلاّ حين تذكرت ما جرى للإمام الحسين بن علي رضي الله عنه وليس على يد أجلاف جبناء من أحفاد عدنان أو قحطان، بل وبيد ابن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم وألحقنا بهم من الصالحين.

ولاشك أن المرارة قد كوت مشاعر الرئيس جمال، وأنه حين عومل هذه المعاملة اللّئيمة قد تذكر كيف قابل الأميرين سيف الإسلام علي بن الإمام يحيى وأخاه الأمير اسماعيل حين وصلا إليه بعد مقتل أبيهما، وكيف قام لهما وعانقهما وعزّاهما في أبيهما وقال لهما:أنتما من رجال اليمن الأخيار وسنتعاون معاً على كل ما فيه صالحها وتقدمها وعزتها واستقرارها، وكان يخاطب كلاً منهما بلقب سمّو

الأمير وودّع كلاً منهما عند انصرافه إلى باب غرفة القيادة، ولذلك فقد قال وهو يؤنب الجنود الجبناء الذين بعد أن جرّدوه من ملابسه أوسعوه ضرباً وشتماً وبصقاً: «إنني لم أهن أمراءكم».. ولاشك أن قيمة الإنسان اليمني قد انحطت في نظره، ولا أستغرب من يروي عنه أنه قال: «لم أر في حياتي أكثر انحطاطاً وجبناً من بعض اليمنيين وأن الاستبداد والجهل والفقر قد حوّل معظمهم إلى حيوانات حقيرة».. ولاشك أن هذا التصوّر قد تأكد لديه عندما حصل له ما حصل وهو في طريقه إلى «حجة» مع الدفعة الأولى من المساجين الدستوريين، فيقال إنهم عندما أناخوا في «عمران» أو كحلان للراحة والاستزواد كان أحد السادة الذين رافقهم جمال في المغالق والقيود قد أدركه الخوف، أو استحوذ عليه الجبن والخور فكتب إلى المسؤول الأول عن حراستهم وإيصالهم إلى «حجة» مقر الإمام أحمد رسالة يقول: لا أريد أن أجلس مع العلج العراقي ولا أواكله ولا أنظر إليه فتفضلوا بالفصل بيننا وبينه وألا يركب في سيارتنا.. ويقال أن الأمير أجاب على ذلك السيد الضعيف في ظاهر رسالته: «في مجالستكم ومواكلتكم ومرافقتكم للعراقي شرف عظيم لكم..» وأن الحارس الذي حمل الرسالة والجواب قد أطلع جمال عليها، وربما كان ذلك بإيعاز من الأمير..

ولا ريب أن جمال قد أحس بالمرارة والأسى وساء ظنّه ليس في الإنسان اليمني الجاهل بل وبالسيد العالم ذي المنصب الكبير ويقال إن الأمير علي بن عبدالله الوزير وكان ضمن تلك القافلة الحزينة قد أنّب ذلك السيد الضّعيف وحاول استرضاء جمال واعتقد أن كل ذلك قد دفعه إلى أن يفضي إلى الإمام أحمد بكل ما يعرفه، وأن يكتب اعترافاته بكل صراحة وصدق ولم يحاول التنصل من المسؤولية أو التستر على أحد وكانت هي المستند للإمام أحمد في بعض ما اتخذه من إجراءات بل وجعلته يفكر في العفو عن جمال لأنه شجاع، والشجاع يقدر ويحترم الشجاع حتى ولو كان من أعدائه، وقد أبقاه سجيناً حوالي عام رغم تحريض اخوته وغيرهم عليه وقيل إنه قال لأحدهم: أنا أحد ورثة الإمام يحيى وقد تنازلت عن المطالبة بالقصاص إذا كان سيقتل لأنه تآمر عليه، ولكنهم طالبوا بقتله لأنه ـــ كما ادعوا ـــ باشر قتل أخيهم سيف الإسلام الحسين وأخيهم سيف الإسلام المحسن وأحضروا شهوداً على ذلك فنقل جمال من «حجة» إلى «صنعاء» وأعدم بعد محاكمة طويلة مشهورة.

شجاع.. شجاع أيها البطل..

ولا أستطيع أن أتصوّر مرارة وأسى ذلك القائد الشجاع العربي المسلم عندما أحضروه عصر ذات يوم من أيام رمضان الكريم وهو صائم يرسف في قيوده إلى ساحة الإعدام في «قاع شراره» وقبل أن يضرب «السيّاف» عنقه أقبل أحد المسؤولين ممتطياً جواده وشتم جمال وضرب أنفه بعصاه. قالوا: إن جمال نظر إليه نظرة عتب وسخرية وقال: «شجاع شجاع أيها البطل».. وبادر «السيّاف» فاقتطف رأسه بالحسام البتّار وخرّ مضرجاً بدمه وحسرته ومرارة حزنه على «الإنسان اليمني» الذي أحبّه وصاهره، وحاول إنقاذه من عقابيل التخلف والجهل والشقاء.

وعندما بلغ الإمام أحمد هذه الحادثة أرسل برقية تأنيب شديدة اللهجة إلى ذلك المسؤول.

٣٢- (نص الميثاق الوطني المقدس لثورة اليمن) عام ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م

لما صارت أحوال اليمن منحطة إلى حد بعيد في أمور الدنيا والدين، بسبب الاستبداد والأنانية اللذين اشتهر بهما الإمام يحيى بن حميد الدين(١)، حتى صار الغرض المطلوب من الإمامة معدوماً في كل ناحية، ولم يبق غير مظاهر خادعة كاذبة، لا تتفق مع موجبات الشرع الشريف ولا تضمن شيئاً من الإصلاح الذي يوجبه الدين في الحال، ولا تصون اليمن من أسوأ العواقب في الاستقبال.

وقياماً بالواجب، لله تعالى، وللمسلمين، وطلباً للسلامة في الدين والدنيا من العقوبة من الله سبحانه وتعالى ولحفظ شرف الدين والاستقلال... اجتمع ممثلو الشعب اليمني على اختلاف طبقاتهم، في هيئة مؤتمر للنظر في وضع نظام شرعي صالح، وإقامة من ينفذه ويحفظ الأمن و يضبط مصالح الأمة، و يقوم بكل واجب ديني ودنيوي لليمن وأهله، عند وفاة الإمام الحالي فقرروا الآن بالإجماع ما يأتي:

المادة ١ ـ مبايعة سيادة السيد (عبدالله بن أحمد الوزير)(٢) لما اشتهر به من علم وفضل، ومنزلة عالية في نفوس الناس الآن. مبايعة دينية ناجزة، إماماً، شرعياً، شورياً، دستورياً، على نحو ما تسير به أرقى الأمم اليوم في العالم المتحضر، فيما لا يخالف أدنى مخالفة التعاليم الإسلامية السمحة الصحيحة.

المادة ٢ ـ كانت البيعة من ممثلي الشعب اليمني لحضرة صاحب السيادة المشار إليه، على الشروط المقدسة الآتية:

(أ) العمل في كل قول وفعل بما تضمنه القرآن الكريم، والسنة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والتسليم، وما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

(ب) يكون حضرته هو الإمام الشرعي ورئيس الدولة اليمانية، و يكون له الحق الكامل الذي يتمتع به الإمام الحق الملتزم تنفيذ هذا الميثاق والشخصية التي لسائر الملوك ورؤساء الدول الحرة المستقلة في العالم.

(جـ) لا تصدر جميع مراسيم الدولة، وجميع الأحكام في المحاكم الشرعية إلا باسمه.

(د) لا تتم أية معاهدة مع الحكومات الأخرى إلا بموافقته وتحت إمضائه.

(هـ) إليه وحده تقدم أوراق الاعتماد من الممثلين الدبلوماسيين الأجانب لدى الدولة اليمنية.

(و) له الحق في الإشراف على مجلس الشورى وعلى مجلس الوزراء، والاقتراح للنظر في كل ما يريد

---

(١) في الأصل: «بن محمد حميد الدين».

(٢) في الأصل: بياض، ولم يضف الاسم إلا بعد الاشاعة كما بينا.

من المشروعات على اختلاف أنواعها .

(ز) وله الحق في الإشراف على جميع أموال الدولة ومناقشة أعمال أي شخص ذي علاقة بها .

(ح) له السمع والطاعة في المنشط والمكره من كل فرد داخل نظام هذه البيعة الجارية على العمل بكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى ما كان عليه السلف الصالح ، وعلى العمل بكل تحسين يقبله الشرع الشريف.. له ذلك مادام متمشياً مع هذه البيعة ملتزماً لهذا الميثاق ساعياً إلى الغاية المقصودة من ذلك بكل سرعة ممكنة .

المادة ٣ــ يكون نظام الحكم شورياً دستورياً بما لا يخالف الشريعة السمحة الصحيحة من كتاب الله وسنة رسوله .

المادة ٤ــ يقوم على وضع الدستور اليمني لجنة خاصة يعينها مجلس للشورى من أهل الكفاءة والصلاح علماً وعملاً ، ويجب أن نستعين في ذلك بالجامعة العربية وحكوماتها والعبقريين من رجالها ، ثم يعرض على الإمام ما يقرونه ليحيله حالاً إلى الجمعية التأسيسية .

المادة ٥ــ بعدما تضع اللجنة هيكل الدستور بمواده المفصلة يجب أن يرفع إلى الإمام ليحيله على الجمعية التأسيسية لتنظر فيه وتناقشه مادة مادة. و يكون التصديق على كل مادة منه بعد المناقشة بالأكثرية ، وفي هذه الحالة يعرض مرة أخرى على الإمام ليطلع على ما فيه و يقرر ما اتضح له صلاحيته ، وله الحق أن يأمر بإعادة النظر فيما عدا ذلك مبيناً أوجه النقص فيه ، وعلى الجميعة أن توالي اهتمامها بدرس ذلك على ضوء التعاليم الإسلامية و بعد ذلك ترفعه إليه أخيراً مصحوباً بمستندات ما قررته الأكثرية و يصبح حينئذ واجب التنفيذ والتوقيع .

المادة ٦ــ يكون ضمن أعضاء الجمعية التأسيسية الأساسين أعضاء مجلس الشورى الذي سينص عليه فيما بعد.

المادة ٧ــ مجلس الشورى المشار إليه هو الذي يضع قانوناً لانتخابهم إذا قرروا طريقة الانتخاب ، أو يعينهم بالاشتراك مع حضرة الإمام إن رأى طريقة التعيين.. على أن يكون مفهوماً من الآن في حالة الانتخاب ما يأتي :

(أ) أن يكون لكل يماني ذكر بالغ من العمر ٣٠ سنة غير محكوم عليه شرعاً لإجرام حق الانتخاب .

(ب) ألا يقل عدد ممثلي المدن عن الثلثين .

(جـ) أن تكون القبائل والقضوات ممثلة .

(د) أن يكون للمهاجرين اليمانيين في أي بلد يوجدون فيها حق إرسال ممثلهم في المجلس إذا كان فيهم ثلاثة آلاف فأكثر تتوفر فيهم شروط الانتخاب وإذا كثروا يكون لهم على كل ثلاثة آلاف فأكثر تتوفر فيهم شروط الانتخاب ممثل واحد وعلى الكسور مهما قلت ممثل واحد .

المادة ٨ــ بما أن دعوة جمعية تأسيسية تتعذر الآن ، وأن وضع الدستور وتحديد المسؤوليات الدائمة إنما هو من اختصاصها.. فإلى أن يتيسر ذلك يجب أن يكون تعيين مجلس مؤقت يسمى «مجلس الشورى».

المادة ٩ــ تكون صلاحية المجلس المشار إليه المؤقتة ما يلي:

(أ) القيام بالمهمات المشار إليها في المواد السابقة.

(ب) القيام بوضع القوانين المؤقتة وضعاً لا يخالف النظم الشرعية، على أن يعمل بها حتى تصدق على الدستور وحينئذ تقر أو تلغى.

(جـ) يضع ميزانية الدولة للفترة المؤقتة.

(د) يصادق على المعاهدات و يرفضها، وعلى الإمام ألا يبرم أية معاهدة إلا إذا صادق عليها أكثرية هذا المجلس، وعليه ألا يعزل وزيراً أو مديراً، أو أمير لواء، أو موظفاً هو عضو في مجلس الشورى في المدة المؤقتة قبل وضع الدستور إلا بموجب عزله بحكم الشرع بعد تقرير وجوب ذلك من العلماء أهل الصلاح في مجلس الشورى أو لسبب آخر يتفق عليه أكثر هذا المجلس.

المادة ١٠ــ يتألف مجلس الشورى من سبعين عضواً منهم الذين سيذكرون إما بأوصافهم أو بأشخاصهم والباقي يتفق على تعيينهم مجلس الوزراء وحضرة الإمام، والأعضاء المعينون من الآن هم:

(أ) أعضاء مجلس الوزراء.

(ب) مديرو الوزارات.

(جـ) المستشارون العموميون.

(د) القائمة «٢» التي يصطلح على تسميتها «قائمة الموظفين الشوريين» المرفقة بهذا والتي ستتلى مع بقية القوائم. كل هؤلاء يكونون أعضاء في مجلس الشورى المؤقت بحكم وظائفهم.

المادة ١١ــ يتألف مجلس الوزراء على النحو الآتي في القائمة المرفقة (رقم ١).

المادة ١٢ــ تتألف هيئة مديري الوزارات على النحو الآتي في القائمة المرفقة رقم (٢).

المادة ١٣ــ تتألف هيئة الموطفين الشوريين على النحو الآتي في القائمة المرفقة رقم (٣).

المادة ١٤ــ تنتهي مهمة مجلس الشورى المؤقت بمجرد انتهائه من وضع الدستور ودعوة الجمعية التأسيسية للانعقاد وفي هذه الحالة يتحول أعضاؤه من غير أي إجراء جديد إلى أعضاء الجمعية التأسيسية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

المادة ١٥ــ بمجرد الانتهاء من إقرار الدستور يجب على الحكومة القائمة أن تقدم استقالتها لحضرة جلالة الإمام، وعليه هو أن يدعو من يشاء لتأليف حكومة جديدة حسب توصيات الدستور المشار إليه آنفاً.

المادة ١٦ ــ عند تأليف الحكومة الجديدة، يجب أن تجتمع الجمعية التأسيسية فوراً للغرض الآتي:

بما أن اليمن لم تتهيأ بعدُ طباعُها للمعارك الانتخابية وليس من مصلحتها ذلك في أول عهدها بالدستور فلأعضاء الجمعية التأسيسية أن يتحولوا من غير إجراء جديد إلى أعضاء في الهيئة الشرعية الجديدة التي سوف تسمى (مجلس النواب) أو غير ذلك من الأسماء وذلك لدورة واحدة فقط لعدد السنوات التي سيحددها الدستور وليكن ذلك بشرطين اثنين:

أ ــ ألا يرى أكثرية الأعضاء والإمام خلاف ذلك.

ب ــ ألا يكون من الشعب اعتراض ظاهر معتبر.

المادة ١٧ ــ بما أن اختصاصات المسؤولين للفترة المؤقتة لم تفصل في هذا الميثاق تفصيلاً كاملاً فيجب فيما عدا ما نص عليه فعلا أن تكون اختصاصات الجميع كما هو الحال في مصر، والعراق، بين الملك، والحكومة، والمجلس النيابي، على أنه يجب في الوقت نفسه المبادرة إلى وضع الدستور اليمني، في مدة لا تزيد عن سنة واحدة لتستقر الأمور نهائياً.

المادة ١٨ ــ يشرع في تأسيس حرس وطني في الحال من الشباب المثقف وغيرهم للاستعانة بهم على حفظ الأمن وتنوير الأفكار و يكون رئيسهم هو مدير وزارة الدفاع ووكيله مدير وزارة الداخلية و يتبعان معاً رئاسة مجلس الوزراء وتقدر له معاشات محترمة على أن يقطع بمجرد ما يسرحون عندما يتم الاستقرار.

المادة ١٩ ــ تبليغ الجامعة العربية ودولها حالاً بالعهد الجديد و يطلب إلى تلك الدول الشقيقة أن تبعث للحكومة اليمنية الجديدة كل منها (أولا) عدداً من الطائرات للاستعانة بها على حفظ الأمن وعلى سبيل الاستعارة أو الإيجار لمدة قصيرة و(ثانياً) يطلب منها حالاً و بإلحاح انتداب خبراء للاستعانة بهم على تنظيم جميع أنواع الإدارات الحكومية.

المادة ٢٠ ــ تؤلف حالاً لجنة تسمى اللجنة المالية لضبط مالية الدولة وحصرها و يكون من أعضائها رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية، ومدير المالية، ووزير العدل، ووزير الداخلية ورئيس مجلس الشورى ووكيله ومستشار الدولة العام، وأعضاء آخرون يجوز أن يكونوا من الوزراء وغيرهم تعينهم الحكومة وتكون اللجنة تحت إشراف حضرة الإمام و يكون الجميع مسؤولين بالتضامن عن مالية الدولة حتى تنظم الأحوال و يعين ديوان محاسبة على النحو الموجود بمصر وغيرها و يتخلى طرف أعضاء اللجنة وتحل نهائياً.

المادة ٢١ ــ إذا ثبت على شخص مهما علت منزلته اختلاس شيء من أموال الدولة أو محاولته ذلك، سواء كان بالانفراد أو بالاشتراك مع آخرين، فإنه يحاكم أمام مجلس الشورى ويجب أن تحدد عقوبته بمدد قاسية وعقوبات حاسمة مما يجيزه الشرع الشريف على درجة خيانته بأتم صورة رادعة

زاجرة.

المادة ٢٢ــ جميع وظائف الدولة الرئيسية وتعيين الموظفين فيها يكون باقتراح الوزير المختص و يقدمه إلى الإمام للنظر فيه والموافقة عليه أو الأمر بإعادة النظر فيه.

المادة ٢٣ــ حضرة الإمام.

يلقب بـ «صاحب الجلالة الإمام» و«الملك» باعتبار الأوضاع.

المادة ٢٤ــ و يلقب رئيس الوزراء بـ «حضرة صاحب الدولة» والوزراء ومستشارو الدولة بـ «حضرة صاحب المعالي».

المادة ٢٥ــ يكون (للدولة) مستشارون عموميون وخصوصيون أما الأولون فيكون لهم درجة (وزير ممتاز) و يكون لهم حضور جلسات (مجلس الوزراء) و يكونون أعضاء في (مجلس الشورى) ولا يزيد عددهم على خمسة وأما الآخرون فيكونون يمنيين و يكون عددهم حسب حاجة «الدولة» وتحدد الحكومة درجتهم وحقوقهم وواجباتهم و يلقب المستشار العام بـ «حضرة صاحب المعالي» المستشار العام للدولة اليمانية» و يعين أول مستشار عام للدولة حضرة صاحب المعالي «   » والباقون تعينهم الحكومة بموافقة الإمام فيما بعد وكلما دعت الحاجة إلى ذلك.

المادة ٢٦ــ يجب الإسراع إلى تحسين حالة الجيش الذي هو رمز الأمة وفخارها بأن تزاد مرتبات كل فرد منهم وضابط وآمر إلى الدرجة التي تضمن للجندي اليمني من الاعتبارات ما يعطى لسائر الجيوش الحديثة من الملابس والتجهيزات وغيرها.

المادة ٢٧ــ يجب الإسراع إلى إزالة الظلم والطغيان عن الرعايا في طريقة أخذ الواجبات وإسقاط البواقي الكاذبة.

المادة ٢٨ــ يجب القضاء على روح الرشوة والمحسوبية في الدولة وعدها من الخيانات الكبرى مع إقامة نظام حديث كامل في جميع دوائر الحكومة يطارد الفوضى ويمنع التلاعب بمصالح الأمة و يكفل راحة المواطنين.

المادة ٢٩ــ تصان أموال الناس جميعاً وأعراضهم وأرواحهم إلا في أمر شرعي و يصير أفراد الشعب اليمني في درجة واحدة من حيث المساواة المطلقة إلا ما كان للمواهب والأعمال و يكون الكل تحت حكم الشريعة السمحة الصحيحة وتجري أحكامها على الصغير والكبير بدون فارق.

المادة ٣٠ــ تكفل حرية الرأي والكلام والكتابة والاجتماع في حدود الأمن والقوانين.

المادة ٣١ــ يجب تأسيس مجالس للألوية والبلديات على نحو ما هو موجود في البلدان العربية.

المادة ٣٢ــ يجب العمل على محاربة الجهل والفقر والمرض في غير هوادة و بكل ما تسمح به وسائل الدولة، والعمل بأسرع ما يمكن على تيسير أسباب المواصلات وإنعاش الزراعة التي هي أساس

اقتصاديات اليمن.

المادة ٣٣ــ يجــب الاتصال بالعالم المتمدن بواسطة السلك الدبلوماسي والقنصلي لفائدة اليمن خاصة وللتعاون على إسعاد الجنس البشري عامة عملاً بتعاليم ديننا وتقاليدنا العربية.

المادة ٣٤ــ يكون تعيين الممثلين للدولة في الخارج باقتراح وزير الخارجية وتقديمه إلى الحكومة للنظر فيه والموافقة عليه.

المادة ٣٥ــ يجب المبادرة إلى تعيين ممثلين سياسيين بأسرع ما يمكن في البلاد العربية الشقيقة و ينبغي البرهان على التعاون مع الجامعة العربية إلى أقصى حد ممكن.

المادة ٣٦ــ يجب الضرب على يد كل من تحدثه نفسه بالتعرض لإرادة الأمة بإحداث أدنى سبب يخل بالأمن العام أو يسبب أدنى ضرر للدولة في الداخل والخارج.

المادة ٣٧ــ تجب العناية التامة بالمهاجرين اليمنيين خارج البلاد والعمل على إعادة من يمكن أن تنتفع به البلاد في الداخل.

المادة ٣٨ــ بما أن التركة التي خلفتها حكومة العهد الماضي ثقيلة ومعقدة تقتضي وقتاً، ومجهوداً جباراً فالحكومة تهيب بالشعب اليماني أن يلتزم الهدوء والسكينة، وأن يتذرع بالصبر والتضحية في سبيل المجد وإقامة عهد جديد وسعيد.

المادة ٣٩ــ يسمّى هذا النظام «الميثاق الوطني المقدس» و يوافق الجميع على أن من خان أو حاول أن يخون معنى من معانيه بنيّة سيّئة يكون خائناً لله والمسلمين وتجري عليه الأحكام اللائقة به.



ملحق الميثاق المقدس

المادة ١ ــ يكون الطلب بإلحاح من فضيلة الأستاذ السيد الفضيل الورتلاني المعروف عندنا جميعاً بفضائل يقدرها له الإمام والمأموم أن يضيف إلى سلسلة أعماله المشكورة قبوله لأن يكون مستشاراً عاماً للدولة من المستشارين العموميين المنصوص عليهم في المادة (٢٥) من هذا الميثاق.

المادة ٢ ــ من تبين عنه من أفراد أسرة الإمام يحيى قبول رغبة الأمة الممثلة في هذا الميثاق والتزم في كل ما جاء فيه فله ما لأمثاله من أبناء الأمة وعليه ما على مثله أيضاً.

المادة ٣ ــ يكون تعيين القاضي عبدالله بن حسين العمري وزير دولة.

المادة ٤ ــ ستعني حكومة العهد الوطني الجديد بمكافأة الأحرار والوطنيين الذين ضحوا بأموالهم وجهودهم في سبيل خدمة الشعب اليمني الذي يقدر لهم هذه التضحيات الكريمة و بهذا يتم الملحق وهو أربع مواد والله ولي الأمر كله و بيده التوفيق.

القائمة (١) مجلس الوزراء للحكومة اليمنية

السيد علي بن عبدالله الوزير	رئيس مجلس الوزراء
السيد حسين بن محمد الكبسي	نائب رئيس مجلس الوزراء و وزير الخارجية
الشيخ محمد نعمان	وزير الداخلية
السيد حسين بن علي عبدالقادر	وزير الدفاع
السيد عبدالرحمن حسين الشامي	وزير الشؤون الاجتماعية
القاضي محمد راغب بك	مستشار عام
الشيخ عبدالوهاب نعمان	وزير الصحة
السيد علي بن حمود	وزير العدل
القاضي أحمد بن أحمد الجرافي	وزير الاقتصاد والمناجم
الحاج الخادم بن أحمد غالب	وزير المالية
السيد عبدالقادر بن عبدالله	وزير الأوقاف
القاضي محمد محمود الزبيري	وزير المعارف
السيد أحمد بن أحمد المطاع	وزير التجارة والصناعة

الأستاذ أحمد محمد نعمان	وزير الزراعة
السيد حسين بن علي الويسي	وزير المواصلات
السيد علي بن ابراهيم	وزير الأشغال
الأمير علي بن يحيى	وزير دولة
القاضي عبدالله عبدالإله الأغبري	وزير دولة
الشيخ علي بن محسن	وزير دولة

القائمة (٢) مديرو الوزارات

السيد محمد بن حسين عبدالقادر	مدير وزارة العدل
السيد زيد بن علي الموشكي	مدير وزارة الداخلية
الأستاذ محيي الدين العنسي	مدير وزارة الخارجية
السيد أحمد بن محمد أحمد باشا	مدير وزارة الزراعة
الأستاذ أحمد بن حسن الحورش	مدير وزارة المعارف
الشيخ محمد صالح المسمري	مدير وزارة الشؤون الاجتماعية
الشيخ أحمد بن قاسم العنسي	مدير وزارة المالية
الشيخ ناشر عبدالرحمن	مدير وزارة الصحة
السيد يحيى أحمد زبارة	مدير وزارة المواصلات
الحاج عبدالله حسن السنيدار	مدير وزارة الأشغال
الشيخ عبدالعزيز بن منصور نصر	مدير وزارة الأوقاف
الشيخ محمد مكي بن يحيى زكريا	مدير وزارة الاقتصاد والمناجم
الرئيس جمال جميل	مدير وزارة الدفاع

القائمة (٣) الموظفون الشوريون

الأمير ابراهيم	رئيس مجلس الشورى
الشيخ حسن الدعيس	وكيل أول
القاضي عبدالرحمن الإرياني	سكرتير أول لمجلس الشورى
القاضي محمد أحمد الجرافي	سكرتير ثان لمجلس الشورى
الأستاذ أحمد البراق	مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء
السيد العلامة أحمد الكحلاني	رئيس هيئة كبار العلماء
السيد محمد بن محمد زباره	وكيل
السيد العلامة قاسم الوجيه	الحاكم الأول
السيد محمد يحيى الذاري	الحاكم الثاني

السيد يحيى محمد عباس	رئيس الاستئناف
القاضي محمد بن أحمد الحجري	رئيس ديوان المحاسبة
الشيخ عبدالله عثمان	مدير الأمن العام
عبدالله عبدالوهاب نعمان	سكرتير الأمن العام
القاضي أحمد بن علي العنسي	مدير دار الكتب
السيد عبدالله بن علي الوزير	مدير الدعاية والنشر
السيد محمد أحمد المطاع	وكيل الدعاية والنشر
السيد أحمد محمد الشامي	سكرتير مجلس الوزراء
السيد محمد بن محمد بن أسماعيل	سكرتير الشؤون الاجتماعية
السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي	مدير أملاك الحكومة
القاضي حسين بن أحمد السياغي	وكيل أملاك الحكومة
الصفي أحمد محبوب	رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكز
القاضي عبدالله الشماحي	وكيل
الحاج علي محمد السنيدار	مدير الجمارك
الشيخ جازم الشيخ	مدير جمارك تعز
عبدالسلام صبره	مدير بلدية صنعاء
الأستاذ زيد عنان	مدير إدارة المهاجرين
القاضي يحيى السياغي	مفتش وزارة العدل
السيد حسين الحبشي	مفتش التجارة والصناعة
الحاج عزيز يعني	رئيس الحرس الملكي

القائمة (٤) كبار الموظفين غير الشوريين

القاضي عبدالله حسين العمري	وزير دولة
السيد العلامة زيد عقبات	محافظ صنعاء وأمير لوائها
السيد محمد بن أحمد الوزير	أمير لواء عمران
السيد محمد بن حسين الوادعي	أمير لواء الشام (صعدة)
السيد حسين الحوثي	أمير لواء حجة
القاضي حسين بن علي الحلالي	أمير لواء الحديدة
السيد محمد بن أحمد باشا	أمير لواء تعز
الشيخ علي محمد نعمان	أمير لواء وادع والبيضاء
القاضي محمد عبدالله الشامي	أمير لواء إب

هذه هي صورة «الميثاق الوطني المقدس» الذي نشره الأحرار في عدن إثر إشاعة وفاة الإمام يحيى يوم الخميس ٤ ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٤٨م وهي الإشاعة الكاذبة التي سبق الكلام عنها والتي دفعت الدستوريين إلى الاستعجال؛ فلم يمض شهر حتى قتل الإمام يحيى وكان ما كان.. ولم ينشر اسم عبدالله الوزير في الأصل المطبوع بل كان مكان الإسم فارغاً ولذلك تمكن السيد زيد الموشكي وحسين الويسي من عرضه على ولي العهد أحمد والاقتراح بأن يوافق عليه و يُنتخب هو إماماً بعد أبيه، ورفض وحصل بينه و بين الموشكي الحوار الخطير كما بينا.

تغيير الميثاق في عدن:

كما أنّه قد حصل تصرّف استغربناه في صنعاء، وأنكر الأستاذ الفضيل والسيد حسين الكبسي بل والإمام عبدالله الوزير ذلك التصرف من قبل الأحرار في عدن وفي طليعتهم الأستاذان أحمد محمد نعمان ومحمد محمود الزبيري وسيف الحق ابراهيم؛ ففي نسخة الميثاق التي بخطّي، والتي كانت محفوظة لدى السيد حسين الكبسي كانت وظيفة الأمير ابراهيم رئاسة الوزراء ووظيفة الأمير السيد علي بن عبدالله الوزير رئاسة مجلس الشورى؛ ولا أزال أذكر تعليق الفضيل حين اطلع على ذلك التغيير فقد قال: «ألم يفهم النعمان والزبيري أننا لا نريد أن نجعل السلطة التشريعية، ـــ أي منصب الإمامة والسلطة التنفيذية ـــ رئاسة الوزراء في بيت (واحد)؟ أي آل الوزير! ولا أدري ما هو دافع ذلك التصرف أم أنه خطأ مطبعي؟ وقد ظل الأستاذ أحمد البرّاق مرافق الأمير ابراهيم في القائمة رقم (٣) في منصبه المعين له في النسخة الخطية مديراً لمكتب رئيس مجلس الوزراء؛ كما أني لا أذكر أن اسم عبدالله عبدالوهاب نعمان كان وارداً في «المخطوطة» وكذلك حوّلوا القاضي محمد عبدالله الشامي من امارة لواء رداع والبيضاء إلى امارة لواء إب وأدخلوا الشيخ علي محمد نعمان وعيّنوه أميراً للواء البيضاء ورداع؛ وأصبح لآل «نعمان» بهذه التغييرات من المناصب ما لفت نظر بعض الأحرار في صنعاء وغيرها؛ فلهم؛ وزارة الداخلية ووزارة الزراعة، وسكرتارية الأمن العام، وامارة لواء رداع والبيضاء، ووزارة الصحة.

أسماء المقتولين من رجال الميثاق وغيرهم:

وقد شملت القوائم الأربع أهم رجالات اليمن المشهورين عند قيام ثورة الدستور ووازنت موازاة دقيقة بين جميع الفئات والطوائف في تهامة وتعز والحديدة وصنعاء وصعدة والبيضاء وكان الانتقاء للأشخاص مبنياً على أساس دراية وخبرة وفهم، وبعد فشل الثورة سيق معظم أولئك الرجال إلى السجون، وقتل منهم من قتل ولم ينج منهم إلا من فرّ إلى خارج اليمن أو كان من رجال ولي العهد أحمد ومن المخلصين له، المتصلين به، والذين أمر الإمام أحمد باعدامهم ممن وردت أسماؤهم في قوائم الميثاق هم:

١ ـــ الإمام عبدالله بن أحمد الوزير.

٢ ـــ السيد الأمير علي بن عبدالله الوزير.

٣ ـــ الشيخ عبدالوهاب نعمان.

٤ ــ السيد حسين الكبسي.
٥ ــ الحاج الخادم بن أحمد غالب الوجيه.
٦ ــ السيد أحمد بن أحمد المطاع.
٧ ــ السيد زيد بن علي الموشكيَ.
٨ ــ الأستاذ محيي الدين العنسي
٩ ــ الأستاذ أحمد حسن الحورش.
١٠ ــ الشيخ محمد صالح المسمري.
١١ ــ الرئيس جمال جميل العراقي.
١٢ ــ الأمير سيف الحق ابراهيم بن الإمام يحيى.
١٣ ــ الأستاذ أحمد البراق.
١٤ ــ الحاج عزيز يعني.

وكل هؤلاء أعدموا بالسيف في مدينة حجّة ما عدا الرئيس جمال العراقي فإن رأسه قطع في «صنعاء» وأما الأمير ابراهيم فقد مات فجأة في «حجّة» وقيل يومها إنه قضى نحبه مسموماً.

كما أن آخرين من رجالات اليمن المهمّين لم ترد أسماؤهم في قوائم الميثاق ولكنهم أعدموا ومنهم:

١ ــ السيد العزي محمد الوزير.
٢ ــ السيد محمد بن علي الوزير.
٣ ــ السيد عبدالله بن محمد الوزير.
٤ ــ الشيخ محسن هارون.
٥ ــ النقيب حسن الشايف.
٦ ــ النقيب محمد أبوراس.
٧ ــ النقيب عبدالله حسن أبوراس.
٨ ــ اللواء محمد سرّي الشايغ.

وأما الذين أعدموا بتهمة مباشرة قتل الإمام يحيى ورفقائه فهم:

١ ــ عبدالله صالح الحسيني.
٢ ــ محمد عبدالله الحسيني.
٣ ــ محمد ريحان.
٤ ــ علي العتمي.
٥ ــ محمد قايد الحسيني.
٦ ــ مصلح بن محسن هارون.

٧ ــ أحمد حزام العنجبة .
٨ ــ سنهوب .
٩ ــ الذيب .

أما الشيخ علي ناصر القردعي فإنه استطاع الفرار مع ابن عمه محمد صالح لكن القردعي اغتيل في «خولان» وابن عمه قتل في «مراد» .

٢٣ـ مصير الوفد الدستوري إلى جدة .

ماذا كان مصير الوفد إلى الجامعة العربية ؟ وهل عاد إلى صنعاء وكيف استقبله زعماء العرب ؟

لقد ظل الوفد على صلة ــ لاسلكية ــ بالإمام عبدالله الوزير حتى الليلة قبل الأخيرة . . وكانت آخر برقية وصلت منه تقول : «حافظوا على مدينة صنعاء وضواحيها ومطارها ولا تهتموا بشيء بعد ذلك» ، وقد أوحت هذه البرقية بأن لدى الوفد أملاً بالحصول على عون عربيّ أو طائرات حربية وكنت أنا الذي حلّ شيفرة هذه البرقية ؛ و يظهر أن الوفد المكوّن كما ذكرت في فصل سابق من السادة الفضيل الورتلاني ، ومحمد محمود الزبيري ، وعبدالله بن علي الوزير كان يتمتّع بحسن ظن ومثاليّة لا يتحملها الواقع المرير الذي صُدم بمواجهته . . وكان أمين الجامعة العربية الأستاذ عبدالرحمن عزام قد وصل مع وفد جامعة الدول العربية إلى جدة في طريقه إلى صنعاء ، ولم يكن يزيد على أعضائها السبعة الموقعين على ميثاقها ، وهم مصر ، والعراق ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، والسعودية ، واليمن إلا دولة عموم فلسطين ، إذ لم تكن قد استقلّت دول المغرب العربي ولا امارات الخليج ولا السودان ولا الصومال ولا جيبوتي ، وكان الإمام أحمد قد أبرق أيضاً إلى الجامعة العربية يحكّمها في النزاع بينه و بين حكومة ثورة الدستور في صنعاء وانتدب لتمثيله السيد علي المؤيد مندوب اليمن لدى الجامعة والسيد حسن بن علي بن ابراهيم وعندما وصل الوفد إلى جدة قرّر الوصول إلى اليمن عن طريق البحر.

ولكنه أوّلا رجّح مع الوفدين اليمنيين الذهاب إلى الرياض للتفاهم مع الملك وسقطت صنعاء في براثن القبائل التي تناصر الإمام أحمد قبل أن يتحرك من الرياض ، وقطعت جهيزة قول كل خطيب وكان الملك عبدالعزيز يودّ قيام مصالحة لصون الدماء .

مذكرة الوفد

قلت إن الوفد الدستوري كان يتمتع بقسط وافر من سلامة النيّة وحسن الظن والمثالية ولعلي قد أشرت سابقاً إلى أن ذلك كان هو الطابع الغالب على رجال ثورة الدستور بصنعاء سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م وليس أدلّ على ذلك من نصّ المذكرة الإيضاحية التي قدّمها الوفد الدستوري إلى وفد الجامعة العربية والتي يصف فيها ما حدث في صنعاء و يشرح المشكلة و يقترح الحلول بسذاجة بالغة ، وقد طبعت هذه المذكرة في عدن بعد سقوط صنعاء بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ هـ الموافق ٤ ابريل سنة ١٩٤٨ م

و بتوقيع كل من محمد محمود الز بيري ، وعبدالله بن علي الوزير.

وسيدرك القرّاء أن العقلية التي تصف ما حدث وتصوّر المشكلة وتقترح تلك الحلول و بالأسلوب الوارد فيها لم تكن تتصوّر المأساة تصوّراً واقعياً ولم تكن تفهم جذورها وأبعادها السياسية والتاريخية والاجتماعية . . . وهذا نصّها :

الأخطار التي تهدد اليمن يعرضها وفد اليمن في جدة إلى وفد الجامعة العر بية

تقديم :

في هذه اللحظات التي يسقط فيها الشعب اليمني إلى هاو ية سحيقة . . وفي هذه الساعات التي تحولت فيها عاصمة اليمن إلى خرائب ومقابر. . . وفي هذه الأ يام التي دفن فيها دستور شعب ، وضاعت آمال أمة ، وتبددت ثروة أجيال واستعبد الأحرار، وتعثر الأ بطال .

في هذا الجو، و بين يدي هذه الظروف الحالكة . . . تتقدم (الجمعية اليمانية الكبري) إلى العالم العر بي فتنشر هاتين المذكرتين ، اللتين قدمهما الوفد اليمني في الرياض ، إلى وفد «الجامعة العر بية» ليعرف العرب في شتى أقطارهم ، إلى أي حد كانت حكومة ، ابن الوزير الدستورية تنصف من نفسها وتتنازل عن حقها ، وترغب إلى الجامعة العر بية في أن تتولى تقرير مصيرها والنهضة بشعبها .

وعلى الأمة العر بية أن تفتش عن حقيقة اليمن اليوم . . فإنها ستجد هذا القطر العر بي قد وقع في كثير من الأخطار التي نوهت عنها المذ كرة الآتية . . وربما وقع في بقية الأخطاء الأخرى .

وعلى أجيال الأمة العر بية كذلك ، أن تتذكر ذلك الثمن الرخيص الذي طلب من الجامعة العر بية أن تدفعه في سبيل إنقاذ شعب عر بي ، من الانحطاط ومن الدمار والانهيار.

وليعلم العرب . . أن اليمنيين كانوا يستهدفون من تأسيس حكومتهم الدستورية ، إلى إيجاد صورة مثالية ، لحكومة عر بية حرة ، تندمج في الجامعة العر بية اندماجاً أساسياً ، وتستعين برجال العرب و بالكفاءات العر بية ، بصورة لم يسبق لها نظير. . وتنهض نهضة عر بية إسلامية سريعة شاملة خالصة من كل الشوائب .

وهكذا كان أمل الشعب اليمني الذي تحرر بعد طول الاستعباد . . وهكذا كان يريد . . بيد أنه في هذا الأمل ، وفي هذا الاتجاه ، كان على خطأ كبير! لأن جو الجامعة العر بية لم يصف بعد لأن تكون فيه حكومة كهذه الحكومة العر بية المثالية . . !

الأخطار التي تهدد اليمن . . . وعلاجها نقدمها إلى وفد الجامعة العربية في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ اليمن

إن اليمن كلها تكاد تكون هي العاصمة لأن ثروة اليمن وأسلحتها ونفائسها ورجالها مجموعة مكدسة في العاصمة وهي خلاصة إنتاج ثلاثة أجيال أو تزيد فإذا أصيبت العاصمة بنكبة الفوضى

والسلب والنهب ضاعت جهود الأجيال الثلاثة وتعذر على الأجيال الآتية من بعدها أن تنهض وتستعيد قواها واستقرارها إلا بقوة خارجية تتحكم في البلاد وتتصرف بكنوزها الطبيعية إلى أمد بعيد.

هذا هو الخطر من الناحية العامة الإجمالية أما التعداد المفصل لأوجه الخطر الناشيء عن انهيار العاصمة فهو ما يأتي.

الانقسام:

لا شك أبدا في أن اليمن الأسفل الذي تسكنه الطائفة الشافعية سينفصل عن قسم اليمن الأعلى الذي يسكنه الزيود كما أنا نظن أن تهامة ستنفصل عن القسمين معا وإذا حدث هذا الانقسام فستنطلق الأحقاد الكامنة منذ قرون وتنمو وتستفحل تبعاً لتبادل حوادث الانتقام وظهور ما كان مكبوتا من الضغائن التي تجعل عودة الوحدة اليمنية إلى الوجود أمراً مستحيلاً وهذه أمور مؤكدة لا نشك فيها.

التمزّق:

وهناك في القسم الجبلي الزيدي طبقات متعادية متناحرة دفعها إلى هذا التعادي والتناحر عنف الحكم السابق، وأهم هذه الطبقات تنقسم إلى قسمين قسم السادة والعلماء والتجار والموظفين والأغنياء.. وقسم القبائل الفقيرة المحرومة التي لم تكن لها مهنة في الماضي البعيد غير النهب والسلب والتقاتل.. فقسم هذه القبائل الحانقة الموتورة سيقضي لا محالة على القسم الأول ذبحاً ونهباً وتقتيلاً.. وبذلك يقضي على أهم عنصر في الشعب اليمني و يتعذر على الزيود أنفسهم أن يجمعوا أمرهم و يوحدوا كلمتهم.

المال والسلاح في يد الوحوش:

القبائل اليمنية مشهورة منذ القديم بالتمرد والعصيان والتقاتل ولم يستطع جلالة الإمام الراحل أن يحكمهم إلا بعد أن أفقرهم وجردهم من السلاح إلا القليل فإذا هجموا على العاصمة فسيحصلون على الأموال والأسلحة ثم يتراجعون إلى قبائلهم وقراهم فتنفرد كل قبيلة بنفسها وتتمرد في الكهوف والجبال على كل من يريد أن يحكمها كما فعلت مع الأتراك ونحن نذكر بهذه المناسبة أن في جبل نقم اثني عشر ألف قنبلة غير الأسلحة العديدة من البنادق والرشاشات والرصاص وعدا ما في القصر من القنابل.

الاستعمار:

إذا عجزت الجامعة العربية عن حفظ العاصمة والحكومة التي فيها تدعوها للنجدة وتفوضها حتى في حكم البلاد وتطلب منها حتى طائرة حربية واحدة فنحن نعتقد أن الجامعة كذلك ستعجز عن دفع الأجانب إذا دخلوا بدعوة من المشيخات، والإمارات التي تريد أن تنفصل وتقرر مصيرها بنفسها كما انفصل غيرها في مناسبات أخرى في أيام الإمام الراحل رحمه الله.

السيف أحمد:

هذا مقام يجب أن نقول فيه الحقيقة بلا تحفظ.. إن السيف أحمد هو عدو الشعب بأسره بل عدو العروبة والإنسانية كلها وإذا لم تعترف الجامعة لنا بهذه الحقيقة فنحن نقول إن الأمر الذي لا نشك فيه هو أن السيف أحمد يستغل قميص (عثمان) لإثارة الأحقاد بين طبقات الشعب وإباحة الأموال والأعراض والأرواح وإبادة رجال اليمن... فهل يجوز للجامعة أن تقف مكتوفة اليدين أمام هذا الوضع الرهيب؟

الاغتيالات:

وإن ثلاثين ألف قنبلة يدوية وما لا يعد من البنادق والرشاشات إذا وقعت في يد شعب جاهل متوحش خليقة أن تثير القلق والرعب والاضطراب ليس في اليمن وحدها بل في البلاد العربية بأسرها! وقد رأينا أن الحكومة العدنية شعرت بهذه الحالة الشاذة فاتخذت التدابير العسكرية الاحتياطية في المحميات بينما لا نرى الحكومات العربية الشقيقة قد فعلت شيئاً.

خطة الإنقاذ:

وبعد فهذه الأخطار التي تواجه اليمن إذا أصيبت العاصمة بالفوضى والانهيار وأما كيف تنقذ العاصمة فإنّا نعتقد اعتقاداً راسخاً أن ذلك سهل ميسور وأن في استطاعة أصغر دولة في الدنيا أن تفعل ذلك، ويجب أن يكون مفهوما بصورة قاطعة أننا لا نطلب من الجامعة أن تحافظ على الحكومة الجديدة ولا أن تعترف بها بل إن غرضنا الآن هو حفظ العاصمة من الدمار وصيانة مصير البلاد ووحدتها ووقايتها من هذه الأخطار كلها وإذا كانت الجامعة لا تريد أن تقع في حرج نصرة فريق على فريق فإن الحكومة تفوض الجامعة في أن تحتل العاصمة احتلالاً عسكرياً وإدارياً وأن تتولى هي بنفسها محافظة الأمن ومتى استقر الأمن فلها أن تشرف على عملية تقرير المصير ولها أن تؤيد أي حكومة يختارها الشعب.

أما ما هي الطريقة العملية التي دول الجامعة تستطيع أن تقوم بها في أول لحظة وتحقق وقاية البلاد.. فهي كما يأتي:

(١) أقل عدد ممكن من الدبابات وأقل عدد ممكن من الطائرات الحربية القاذفة للقنابل وإذا كان في إيصال الدبابات إلى اليمن شيء من الصعوبة والبطء فيكفي واحدة أو اثنتان من قاذفات القنابل ونحن نضمن للجامعة أنها بهذه الوسيلة السهلة تستطيع أن تحكم البلاد اليمنية وتحفظها من الدمار والخراب بشرط واحد وهو أن يكون هذا على وجه السرعة.

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن قنبلة واحدة تطفىء الفتنة من أولها إلى آخرها فهل يعجز العالم العربي بأسره عن إنقاذ اليمن بطائرة واحدة وقنبلة واحدة إننا نناشد دول الجامعة أن تفكر في المسؤولية التاريخية

التي تترتب على التهاون بهذه الحقيقة .

(٢) إذا كان من المستحيل على العالم العربي إيجاد قنبلة واحدة لليمن فنحن نطلب ما هو أسهل من ذلك وهو ما يستطيعه الوفد الموجود في الرياض دون أن يرجع إلى أي جهة أخرى .. يقوم الوفد حالاً من الرياض و يبرق إلى السيف أحمد أن يبعث مندو بيه إلى العاصمة و يطبع منشوراً تنثره الطائرة على جميع أنحاء اليمن يقول فيه : «إنه لا يجوز لأي أمير أو قبيلة أو شيخ أن يثير أية فتنة أو يطلق أية رصاصة لأن وفد الجامعة العربية في صنعاء مسؤول عن حماية صنعاء حتى يحكم بين الفريقين بمقتضى شريعة البلاد ومن خالف هذا فستؤدبه دول الجامعة بأسرها وتحمله مسؤولية ما يقع على البلاد من خراب وتعتبره من قطاع الطرق.

إننا نطلب من وفد الجامعة باسم اليمن واسم العروبة واسم الإسلام والإنسانية أن ينقذ مصير الشعب اليمني بهذه الوسائل الميسورة التي تعتبر أرخص ثمن يقدم لإنقاذ شعب من الشعوب وإلا فليخبرنا أي قانون من قوانين الدنيا وأي اعتبار من الاعتبارات السياسية يمكن أن يحول دون اتخاذ هذه الإجراءات البريئة التي لا غبار عليها ؟ وختاماً تفضلوا بقبول أصدق التحيات ..

الرياض ٢٩ ربيع الآخر ١٣٦٧ هـ   وفد اليمن بالرياض
١٠ مـــارس ١٩٤٨ م   محمد محمود الزبيري ــ عبدالله علي الوزير

٣٤ - خضوع اليمن وتمزق الوفد الدستوري .

بهذا الأسلوب الذي لا أحب أن أعلّق عليه التزاماً بما رسمته لنفسي من نهج عندما أزمعت على التحدث عن ماجريات حياتي عالج الوفد الدستوري قضيته ومأساته ، ولا شك أنّ الصديقين الشهيدين محمد محمود الزبيري وعبدالله بن علي الوزير اللذين قدّما هذه المذكرة إلى وفد الجامعة العربية في يوم ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٦٧ هـ ١٠ مارس ١٩٤٨ م أي قبل سقوط صنعاء في أيدي القبائل الثائرة بثلاثة أيام قد دهشا عندما تغلّب الإمام أحمد على إمام الدستور، ونهبت القبائل صنعاء ، وسجن كلّ من أيّد الدستور من العلماء والمثقفين والضباط وطلبة المدارس ، ثم خضعت اليمن للإمام أحمد خضوعاً مخيفاً ، ولم يحدث ما كانا يتصورانه أو ظنّاه ، أو حاولا إقناع وفد الجامعة بخطورته ، فلم يحصل انقسام ولا تمزّق ولم ينفصل الجنوب الشافعي عن الشمال الزيدي ، ولا تهامة عنهما ، ولم تعتد القبائل على مخازن الذخيرة والسلاح والبنادق والرشاشات ، والقنابل اليدوية ، ولا ثار الاضطراب والقلق في البلاد العربية ولا تمرّدت القبائل في الكهوف والجبال كما فعلت مع الأتراك ، واكتفت القبائل بنهب التجار والمدنيين كما قالت المذكرة لكنها تركت الذبح والإعدام للإمام أحمد الذي ظلّ سيفه مشهوراً يشدخ به رؤوس المعارضين لسلطانه حتى مات على فراشه كما يموت البعير بعد أربعة عشر عاماً ، وهبّت الثورة من جديد ، و بطريقة جديدة وكان ما كان . وتمزّق الأحرار في الداخل والخارج وتفرّقوا أيدي سبا ، أما في الداخل فقد اكتظت بهم المعتقلات والسجون وأما في الخارج فلم ينبس لهم صوت لفترة طويلة .. وقد

نصحت حكومة عدن البريطانية من كان قد نجا إلى عدن بأن يغادروها إلى أي مكان بحجة الخوف عليهم من أنصار الإمام أحمد وسهلت لبعضهم السفر إلى حيث يريدون بجوازات زيّفوا أسماءهم فيها فهاجر السيدان عبدالوهاب الشامي وحسين المقبلي إلى الحبشة، وهاجر السيد محمد الوريث إلى كينيا، وهاجر محمد محمود الزبيري وعبدالله بن علي الوزير إلى الهند والباكستان وظل الورتلاني تائها في البحار تتقاذفه الشواطىء والموانيء ولا تقبله أية حكومة في الشرق أو الغرب حوالي ثلاثة أشهر ولا يهمني أن أذكر ما حدث لجميع الأحرار والدستوريين وأشرح أقاصيصهم الغريبة ولكن لأني أتحدث عن وفد حكومتنا الدستورية إلى وفد الجامعة العربية والذي كان من المفروض أن أكون أحد أعضائه، فلعل القرّاء ينتظرون أن أذكر نهاية ومصير السادة الثلاثة الزبيري والوزير والورتلاني.

مصير عبدالله بن علي الوزير:

قلت لا شك أن الصديقين الشهيدين قد دهشا وصدما بالواقع المرير وخابت آمالهما وآمال رفيقهما الورتلاني في الجامعة العربية والمبادىء والقيم السامية التي عاشوا لها ودعوا إليها، فبعد أن عادوا إلى «عدن» من جدّة، وكانت «صنعاء» قد سقطت؛ لم تقبل السلطات البريطانية بقاء الورتلاني في «عدن» ونصحت عبدالله بن علي الوزير ومحمد الزبيري بمغادرتها فغادراها أوّلاً إلى الهند ثم إلى الباكستان بعد أن نشرا المذكرة التي سبق إيراد نصّها؛ فأما السيد عبدالله بن علي الوزير، وهو ذو الهمة العالية، والروح المتمرّدة، والنفس الأبيّة فقد انطوى على نفسه يلعق جراح أساه وحزنه على العرب والمسلمين، واليمن واليمنيين، ويظهر أن بعضهم ـــ ومنهم من كان يحسن إليه عندما كان متربعا على كرسي الإمارة والجاه ـــ قد تنكروا له، وجحدوا إحسانه، بل وأنكروا بعض ما لديهم له من حقوق، وهو بطبعه الحاد، وأنفته الشديدة لا يستطيع المجاملة ولا المصانعة ولا المحاباة، وظلّت الأخبار والأنباء تتساقط عليه كالصواعق فآل الوزير ذووه يُقتَّلون ويصلّبون، وبينهم أبوه الأمير علي الوزير وعمه الإمام عبدالله الوزير وآخرون من أعمامه وأولاد أعمامه؛ وقد هدموا قصورهم ودورهم في «صنعاء» و«السر» ونهبوا كل ما فيها من أثاث وثياب وحلي وكتب، وأموال، وصادروا كل ممتلكاتهم في جميع أنحاء اليمن وأصبحت نساؤهم وبناتهم وأطفالهم بلا مأوى.

ولا شك أن أنباء هذه المآسي كانت تتساقط عليه كالصواعق، وأن وساوسها كانت تعذّبه وتؤذيه، عندما يأوى إلى فراشه وتحول بينه وبين النوم، وتتراقص أمام عينيه كالثعابين، وتتلوّى في أحشائه كالسكاكين وقد حاول أوّلاً مراسلة محمد علي الطاهر عندما كان لايزال مع الزبيري وكأنّهما قد افترقا وذهب كل في سبيل.. وكأن ذلك قد آذاه وآلمه وحزّ في نفسه، فانتهشه الحزن ونخر في رئته السلّ، وقيل إن هندياً مسلماً قد اهتم به، وحاول إسعافه إلى إحدى المصحات حيث لفظ نفسه الأخير وصعدت روحه إلى بارئها تشكو قسوة بعض الخلق ولؤم بعض البشر، وأظنه مات وهو يبتسم ربما ابتسامة السخريّة بالدنيا وما عليها.. و«كل من عليها فان» وربما تلك الابتسامة التي تعوّد أن يقابل بها كل وافد.. حتى ولو كان الموت.. وربما ابتسام الشجاع المؤمن، ولقد عرفته عن كثب شجاعاً مؤمناً، وكان كلّ

شيء عنده ــ غير الشجاعة والإيمان ــ تراباً على تراب .

وأظنّه قد توفّي في ذلك العام ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره الحافل بالعظيم من الأمور فليرحمه الله .

خطابه مع الزبيري إلى محمد علي الطاهر:

وقد أطلعني الأستاذ محمد علي الطاهر على رسالة بعثها إليه الصديقان محمد محمود الزبيري وعبدالله ابن علي الوزير من الباكستان بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٤٨ م / ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٦٧ هـ ولمّا يمض على سقوط صنعاء وفشل ثورة الدستور شهران كاملان وهي بخط الأستاذ الزبيري وهذا نصّها :

حضرة المجاهد العربي الكبير محمد علي الطاهر.

تحية الإجلال والإكبار لشخصيتك الفذّة المجاهدة ، ولنبلك الذي لا يختلف فيه اثنان ، ولعروبتك الوفيّة التي جعلت حياتك وقفاً ينتفع بها أصحابك وأحبابك كلّما طاردهم الزّمان وحاربتهم الأيام .

أكتب إليك هذا من مكان مجهول على ظهر الأرض لا يعرفه إلاّ من لا يعرفنا ولا نعرفه ، وأكتب هذا وأنا لا أعرف من أخبار الدنيا شيئاً إلاّ أنها تلك الغادرة الفاجرة الحمقاء ، وأفزع إليك أنا وصديقي الذي كنت أنا وإيّاه رفيقين في مصر وأظن أني لست في حاجة إلى أن أسمّيه لك؛ نفزع إليك في وسط هذا الظلام الذي نعيش فيه وحيدين في مجتمع منكر مستعار لتسرع إلى نجدتنا ورعايتنا .

وقصارى القول أننا نعيش في حياة شاذة غريبة اضطررنا بها أن نتكتم تكتماً شديداً عن كل مخلوق حذراً من الأخطار التي تلاحقنا أينما كنّا ، ولولا أننا نخشى البريد لأفضينا إليك بأسرارنا بالتفصيل ، ولكن يكفي أن نقول لك بأنا في جهة بالباكستان لم نستطع الظهور بها خشية المجاملة من محمد علي جناح للسيف أحمد بعد أن اعترف به ملكاً؛ وقد بلغنا أن جناح مسافر قريباً جداً إلى الأقطار الإسلامية وفي مقدمتها مصر فنرجو أن تهتموا كل الاهتمام بالاتصال به ، وأن تطلبوا منه أن يقبلنا لاجئين سياسيّين ، وأن تعرفوه حقيقة القضية اليمنية ورجالها ، ونحن إنما دخلنا باكستان بصورة سريّة أي أننا لم نجرؤ على إظهار الجوازات مخافة أن يعرفوا شخصيّاتنا ، فإن لم يصل جناح إلى مصر فتفضلوا واتصلوا بالبريد ، وإذا أمكن الاستعانة بعزّام فهو خيّر ، هذا وإنا ننتظر جوابكم بفارغ الصبر وسلام الله عليكم .

الزبيري والصديق

الرجا أن تخبرونا على الفور بنتائج مساعيكم سواء نجحت أو لم تنجح وليكن جوابكم إلينا بواسطة من سلّم هذا إليكم معنونا بالاسم المستعار الذي وضعناه لأنفسنا وهو «محمد عبدالله التهامي» .

بعد كتابة ما سلف عثرنا على عنوانكم بين أوراقنا فقررنا أن نبعث إليكم بهذا الخطاب رأساً ، وليكن جوابكم إلينا بواسطة عدن و بالعنوان التالي : (عدن التواهي الحاج محمد سلام حاجب ومنه إلى محمد عبدالله التهامي) وتاريخ هذا الخطاب كما قلت ٥ مايو سنة ١٩٤٨ م .

وكأن السيد عبدالله لم يبق في مخبئه بباكستان بل غادرها إلى الهند حيث انتقل إلى رحمة الله .

مصير الزبيري وخطابه إلى نعمان السجين :

وأما «الزبيري» فقد أصيب بخيبة أمل كبرى واجتاحته ردود فعل هائلة، وأعلن غضبه على العروبة وزعماء الإصلاح ويمثل ذلك ما ورد في قصائده ورسائله التي راسل بها صديقه الأستاذ أحمد محمد نعمان والإمام أحمد ملك اليمن؛ معلنا ندمه وتوبته، متشفعاً لصديقه نعمان ولسائر الأحرار في سجون اليمن ومما ورد في إحدى رسائله إلى «نعمان» وقد نشرها في جريدة النصر التي كانت تصدر في تعز في عددها رقم (٤) سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م أي بعد انتصار الإمام أحمد ووفاة عبدالله بن علي الوزير بثلاث سنوات ما يلي: «أخي لست أدري — والله ماذا أكتب إليك بعد أن وضعت الأقدار بيني وبينك هذا القدر الهائل الضخم من أهوالها ومحنها، ومبشراتها، لأن الأقدار في هذا الحدث الضخم صمّمت على أن تضعنا بحذافيرنا بين يدي إمامنا العظيم، وأن تجمع له عناصر الظفر من أشتاتها، وأن تتم له النعمة حتى لا يبقى له عندها أي طلب ولا اقتراح» إلى أن يقول:

«يا أخي تالله أني لم أنم بعدك على فراش وثير ولم أنل ذرة من الخير أنت منها محروم ولا كنت منطلقا وأنت سجين ولا ساليا وأنت حزين، ولم تكن نجاتي في الحقيقة إلا صورية كنت فيها كاللفظ بلا معنى وكالجسم بلا روح وكالجمجمة الفارغة من دماغها، وكانت نجاتي لا تختلف عن سيارة فقدت قائدها أثناء السير فهي معرضة لأن تصدم بصخرة أو تقع في هوة، غير أن أهون الخطوب عليها أن تقف وأن تتعطل وهذا هو الأمر الذي كان».

«إن سلامتي لم تكن في الخروج من اليمن والاحتفاظ بحياتي فهذا شيء لا قيمة له، وان الفوز الحقيقي هو في أن الله هداني إلى النهج الواضح والطريقة المثلى التي نستطيع أن نكسب بها عطف مولانا أمير المؤمنين أيدهم الله وأيقظني الله بمعجزة من خطر السير في الأحلام إلى ما لا يغني».

«لقد كتبت أول كتاب إلى مولانا صاحب الجلالة أيده الله أعلن فيه الولاء وأطلب منه الاستبقاء وأرجوه أن يعتبرني أسيراً معك وإلى جانبك، وكنت أفهم بطبيعة الحال أن القلب الذي يسترجع العطف عليّ وعليك لا يكون إلا قلباً كبيراً واسعاً، وقد حقق الله الأمل وكانت تلك النظرة مخلصة والحمد لله، فها نحن الآن وجميع اليمنيين في كل مكان ننعم بعيد البشرى الكبرى بعد أن علمنا بحلم مولانا الواسع إلى هذه الدرجة التي ما كانت تخطر على بال أحد. إنني وأنا من أشد الناس فرحاً لم يكن فرحي ناتجاً عن خلاصكم فقط بل لذلك ولأنا بهذا التسامح كأنما عثرنا على حكومة أخرى غير التي كانت في أوهامنا وقد جاء هذا الفوز على يد من نحبهم ونجلهم ولا نطلب سواهم».

«ولا تظن يا أخي أن لنا أو لأي مخلوق في هذا تأثيراً أو فضلاً ولكن أمير المؤمنين يعمل عمله لنفسه ويوزع من ضميره فيما بينه وبين الله لا ينظر إلى الناس ولا يخطرهم له على بال، وقد شاء أن يمسح الدموع وهي طرية ويعالج المحنة وهي في عنفوان شدّتها وحرارتها.، لأنه علم حفظه الله أن المحنة لو طالت لا تسعت جراح المنكوبين وتعاظمت خطوبهم وصعب علاجها واكتسابها».

«لقد بهرت الناس جميعا هذه المفاجأة الرائعة وأذهلت عقولهم وملكت عليهم أسماعهم وأبصارهم،

فهي تدل دلالة قاطعة على تطور هائل في عقل الدولة ، وكل من سمع بهذا النبأ العظيم وعنده ذرة من الإنصاف يؤمن إيماناً قطعياً بأن الحكومة الناصرية المظفرة ستقوم بأعمال عظيمة مجيدة بعد هذه الخطوة ، وأن النوايا الحقيقية لصاحب الجلالة التي حالت الأيام الماضية بينه وبين تحقيقها قد أعلنت عن ظهورها وبرهنت على نفسها بهذا المعجز المستهل البارع ».

«أما المزايا الذاتية الشخصية لصاحب الجلالة التي كشف عنها هذا التسامح فهي الشجاعة والجرأة وعدم المبالاة والقدرة العجيبة على كظم الغيظ وضبط النفس ، والحكمة ، والدهاء وبعد النظر ، وسلامة التفكير ، واغتنام الفرص ، ووضع الأمور في مواضعها ، وإبعاد أثر العاطفة عن المساس بوجه الرأي ، والتدبير ، والفقه الواعي العميق لنفسية اليمن السعيدة ، فهذه مفاهيم لمعنى هذا التسامح وهو شيء أبلغ من كل كلام ومن كل دعاية ، لأنه عمل ناطق بذاته وأن حقيقة الشمس جاءت من نورها وهو أكبر دليل على وجودها وعلى ما ينطوي عليه ظاهرها وباطنها .

وقد أقنع مولانا أيده الله كل ذي عقل بأنه يستطيع أن يعفو ويتسامح عن الماضي وينساه نسياناً تاماً مهما عظم وجل كما أنه يستطيع بعد اليوم أن يستميل إليه كل خصم أو شارد أو نافر ، لأنه قد برهن على أنه يملك قدرة العفو الكريم والصفح الجميل إلى حد مدهش ، وهذه العناصر التي صدر عنها هذا التسامح هي بعض الصفات وهي قدر كبير من الفضائل تجتمع في شخص عظيم من العظماء ومن هذه الصفات ما تكون بمفردها كافية لأن تكوّن شخصية العظيم فكيف بها مجتمعة» .

«إن علماء النفس والأخلاق يقررون أن فضيلة ضبط النفس ، هي رأس الفضائل كلها ، وإنها إذا وجدت في شخص صيرته عظيماً ، ولو لم يكن لجلالة الإمام الناصر دليل على وجود هذه الفضيلة فيه إلا العفو عني وعنك لكفاه ذلك دليلاً قاطعاً ، فكيف وقد صمم الآن على الإفراج عن جميع المعتقلين وكيف به وقد رضي عنا جميعاً ومسح بيده الكريمة على قلوبنا واستطاع أن يضبط نفسه وعواطفه ويعاملنا معاملة الأب الرحيم ، ويطرح كل أقوال العاذلين والمهجنين ، إنها لقوة هائلة ما كنا نتصورها أو نقدرها في جلالته ولو كنا نعرف منها الشيء القليل لآمنا بمستقبل البلاد على يده من زمن طويل ، ومن هذه النظرية المعجزة نفهم أن جلالته لم يخسر شيئاً في مقابل ما كسب من هذا الفضل بل على العكس ربح ربحاً عظيماً سريعاً قل أن يحرزه ملك من الملوك إلا في السنين الطوال ، ولقد انتصر على خصومه بهذا الفضل إن كان له خصوم حقيقيون وحولهم أنصاراً وأحباباً وسوف يعرف أنه لن يندم أبداً على هذا الغفران والتسامح . إن موقف جلالته هذا حول الخصوم أمام حقيقة عقلية لا ريب فيها وهي أن الحياة في حمى عفوه وتسامحه وشهامته أفضل ألف مرة من الخصومة معه ، ولا ريب أن الأغلبية الساحقة من بني آدم لهم عقول يفكرون بها قبل أن يعملوا شيئاً ، ويوازنون بين الضر والنفع كما أن الناس في كل زمان ومكان لا يفكرون في الخصومات الماضية إذا وجدوا حاضراً سليما ، وقد رأينا أثر هذه الحروب العالمية أن الأعداء صاروا أصدقاء وأن الأصدقاء صاروا أعداء ، لأنهم يسيرون في سياستهم على العقل والمصلحة لا على العاطفة » .

«إن اليابان تصير سلاحاً في يد الذين رموها بالقنبلة الذرية ، وزعماء أندونيسيا مدوا أيديهم لمصافحة عدوهم الأجنبي الغاصب الذي هاجمهم في منازلهم واعتدى على أشخاصهم وحار بهم وحار بوه زماناً طو يلاً ، ولكن الطرفين رأيا المصلحة في التفاهم ، فتفاهما وزال كل شيء . . يا أخي ثق أنه لم يكن أحد من الناس يعرف صدى حلم جلالة الإمام الناصر أيده الله إلى هذا الرقم وأن صنيعه معك حل عزائم الشاردين ، وأشفى صدورهم وسيجدهم قد تراجعوا واحداً واحداً» .

«وسيعرف الناس جميعاً ، أن هذا الإمام الذي أنفقنا شبابنا وجهودنا في خصومته وعقوقه سيصبح وما على ظهر الأرض ، أحب إلينا منه . إن الإنسان يقتله الإحسان حيثما كان وهل أبلغ من هذا الإحسان ، وهل يكون اليمنيون وهم أرق الناس أفئدة ، أغلظ الناس قلوباً ، وأكفرهم للصنيع والجميل ، كلا . . كلا ، لذلك أقول : إن جلالة مولانا الإمام أيده الله لم يخسر ولن يخسر بما صنعه معنا و يصنعه مع سائر المعتقلين بل كسب كسباً كبيراً وان يوم «النصر» الحقيقي لم يكتمل إلا بهذا الاتجاه الجديد الرائع» .

«أخي لست أدري ما أكتب وكيف أعبر عن نفسي في وسط هذه اللجة الغامرة من الخيالات والأحلام ، إن أعصابي منهارة متهالكة من الفرح والاغتباط بهذه البشرى» .

«فابتهل إلى الله أن يحفظ جلالة مولانا الإمام الناصر ، وأن يعز به اليمن وأهلها و يقر عينه بولي عهده وسائر إخوانه السيوف الأعلام» .

«ولكنني أرى لزاما علينا أن نعتذر إلى مولانا أيده الله وإن كان أعرف بحقيقة أمرنا ونوايانا ليتضح للناس وجه العذر فلا يبالغوا في اللوم والعتب ، وليؤمنوا أن مولانا عفا عمن يستحق العفوو يستوجب الصفح وانه وضع الجميل في محله» .

وإذا الصنيعة صادفت أهلاً لها ... دلت على توفيــق مصطنع اليــد

«لقد اتينا بما اتينا به في الماضي بحسن نية ، وسذاجة متناهية ، ولم يكن غرضنا إلا نزيهاً وطاهراً و بريئاً من كل ما انقلبت إليه عواقب الأمور ، ولكن الأخطاء التي يجب أن نعترف بها هي العقوق لولي النعمة والتجانف عن أدب التعبير والمعارضة العنيفة القاسية وقد أدى إلى ذلك أمران» .

«أحدهما ما ألقى في روعنا من شدة الخوف من غضب مولانا أيده الله علينا ، وأنه لن يقبل منا صرفا ولا عدلاً بعد فرارنا من جنة بره وإحسانه ، وأنه لا يمكن أن يغتفر لنا هذه الزلة ، ولا يعفوعنها بأي حال من الأحوال ، فكانت طبائع التعبير القاسي قائمة على أساس من هذه الأوهام والخواطر السوداء» .

«والثاني أن تفكيرنا من أساسه كان مجلوباً من السوق السياسية العربية بما فيها من جمعيات وأحزاب وصحف ومحاضرات وزعماء ودجالين ممن أفسدتهم ولوثت ضمائرهم الخصومات والأغراض والنزعة التجارية بمصائر الشعوب لقد تقبلنا منهم كل شيء وتحمسنا له وجعلنا لأنفسنا منهم مثلاً عالياً وحملنا أنفسنا وعائلاتنا ما لم يستطع أن يتحمله أحد سوانا ، وذلك بناء منا على أنهم أبرار أتقياء ، يقولون ا

يعتقدون ويرونه حقاً وصواباً، وقد تبين لنا بعد ذلك أن تلك السوق السياسية موبوءة، دنسة، خبيثة، ونحن يعلم الله كنا أبرياء من هذا الدنس بعيدين كل البعد عن تصور هذه الحقائق المرة».

«أخي إن هذه السوق هي التي أضاعت فلسطين، وجعلتها دولة يهودية خالصة بينما كانت الشعوب تتحمس في سبيلها حماساً جنونياً، ولما سكتت المعركة بين العرب واليهود انقلبت إلى حرب أعصاب بين العرب أنفسهم كل منهم يتهم الآخر ويخونه و يتربص به الدوائر، وكان من أثر ذلك أن حدثت في سوريا ثلاثة انقلابات في أقل من عام وكل انقلاب له أنصار ومؤيدون يزعمون الحق لهم والباطل على سواهم، حتى ضاع الصواب وحارت العقول وتقوض كثير من الأسس التي يقوم عليها العالم العربي فساد الشك في كل شيء وعم البلاد العربية ما يشبه الانحلال العقلي.. الخ».

أيبعث نعمان؟:

ولا أدري تاريخ أول كتاب من الزبيري إلى الإمام أحمد وهو الذي أعلن فيه الولاء له وطلب منه الاستبقاء، كما قال في رسالته هذه؛ ولا شك أنه لم يفعل ذلك إلاّ بعد أن فارق زميله السيد عبدالله ابن علي الوزير وأن ذلك كان في نفس عام فشل الثورة وانتصار الإمام أحمد؛ وقصيدة الزبيري التي مدح بها الإمام أحمد والتي مطلعها:

أيُبعث نعمان من قبره ... و ينحسر الهول عن نحره

مشهورة معروفة ومن أبدع ما فيها قوله يصف عفو الإمام أحمد عن «نعمان»:

مفاجأة تسترق الفؤا ... د ولو قُد تألّه في كبره
ومكرمة تخلق الحبّ في الـ ... ـجماد، وتعمل في صخره
ومجدٌ تأنّق في فنّه ... ونبعٌ تدفّق في نهره
ونبلٌ أفاء على خصمه ... وشاطره الفوز في نصره

وقوله يخاطب «نعمان» على لسان البشير:

و برّد غليلك في ظلّه، ... والق دموعك في حجره
ووار عيوبك في ستره ... واغرق ذنوبك في بحره
ولا تعط بالاً إلى ما مضى، ... ولا تتلفّت إلى ذكره
فقد مات ماضيك في حلمه ... وذاب عقوقك في بره
فطهر فؤادك من خوفه ... وروّح جنانك من حرّه
فإن «الإمام» مشوق إليك ... يدعوك ضيفاً إلى «بدره»

وقوله:

ألا أنه ملك طامحٌ ... أراد السموّ إلى قدره
ورام العلوّ على غيظه ... وشاء الترفع عن وتره

رآهــا ســبـيــلاً إلى شــأوه   قـويّـــاً فـصمّم في ســيــره
مُـواليـه يـعـجـب مـن خـلـقـه   وشـانـيـــه يدهش من فكــره

ولم ينشىء «الزبيري» هذه القصيدة إلا إثر مراسلات بينه وبين زميله أحمد نعمان الذي كان يكنّ له من الودّ مالا يكنه لأحد وقد أشار إلى ذلك عندما تكلّم عن «البدر» سيف الإسلام محمد ابن الإمام أحمد ولاشك أن الأستاذ نعمان كان قد وصف للزبيري في رسائله حفاوة «البدر» به وحسن رعايته له وكَرَمَهُ، ولطيف مُعَاشرتِهِ وأنّه يُقرئهُ السَّلام، وأنَّ شعر رأس «البَدر» قد بدأ يدبُّ فيه «شَيْبُ النّهى».. مع أنه لا يزال في عنفوان الشباب... وكل ذلك قد جعل «الزّبيري» يقول في قصيدتهِ:

«أنـعـمـــان» كَيْفَ سَماءٌ بها   تَـسِيــــرُ مَعَ البَدْرِ في سَيْرِهِ؟

إلى أن يقول:

وشـرّفــني بالسَّــلام الكريــم .... فضمَّــخَ قلـبي في نَشْرِهِ؛
ومـا كـنـتُ أطـمـــعُ أنّي أمــــرُّ باسـمِي مـــروراً على فِكـرِهِ!
فـقـبِّـــل يـدَيـــهِ، وقَـــدِّمْ إلَيـــهِ عُـذري لَعَجْزيَ عن شُكْـرِهِ

وأتمنّى لو أنّ «الأستاذ أحمد نعمان» يكون وفيّاً لِذكرى زميله شاعر اليمن، وللأدب والتاريخ في اليمن، وشجاعاً في نشر الحقائق حتى يخفّف من صولة «المزايدين» على حساب الوطنية والثورة! نعم يا ليت الأستاذ «نعمان» ينشر تلك الرسائل التي تبادلها مع «الزبيري» وأوحَت إليه بهذه القصيدة الرائعة..! ولا أستطيع إلاّ أن أذكر بأن الكثير من الزّملاء الذين كانوا لا يزالون معي ـــ أو كنت لا أزال معهم في سجون «حجّة»: «المنصورة»، و«القاهرة» و«نافع» حين أرسل «الزبيري» بهذه «القصيدة» «أيُبْعَثُ نُعمان».. ومنهم آل الوزير، ومحمد أحمد الشامي، ومحمد السيّاغي ومحمد الفسيّل وعبدالله الشّماحي، وعبدالرحمن الإرياني، وأحمد المعلمي، وعلي الغفري، وابراهيم الحضراني، ومحمد أحمد المطاع، ومحمد حسن غالب، وحمود الجايفي، وحسن العمري، وأحمد محبوب، ومحمد الغفّاري، ومحمد الأكوع، وعبدالله الأغبري، وعلي محسن باشا، والعزّي صالح السنيدار، وعبدالسلام صبرة، واسماعيل الأكوع، وعبدالقادر أبوطالب، وعلي عقبات، ومحمد عبدالقادر، وحسن الحوثي، ومحمد صبرة، وأمين نعمان، وأحمد العنسي، وعبدالله السّلال، وعبدالملك المطاع، وعشرات من الوجهاء والأدباء والمشايخ.. أقول إن بعض الشعراء والأدباء من هؤلاء ـــ ورغم إعجابهم بالقصيدة فنّاً، وبلاغة، وبياناً، قد استاءوا لمبالغة شاعِرنا «الزبيري» وقال بعضهم: أيجعل من «نعمان» وإطلاقه كل شيء!! ولماذا كل هذا الاستخذاء وهو بعيد عن الإيذاء؟

الاعتذار للزبيري:

وكنت ضمن المدافعين عن «الزبيري» وقتها! وكدت أن أنظر عبر الفيافي والبحار، والجبال والقفار إلى أعماق نفسه، ونيّته الطاهرة؛ وأنه يريد أن يجعل من الشعر والكلمة، وسيلة إلى قلب

«الإمام» أحمد؛ الذي لا يُنكر أحد أنه كان يحب «الكلمة» و يقدرها، و يرتاح إلى الإطراء، و يفهم الشِّعر الجيِّد؛ بل و يقوله؛ كما ذكرت في كتابي عنه، وهذا شيء... وساس و يسوس شيء آخر.

ولن يفوتني أن أذكر أني حين اطّلعتُ على القصيدة ـــ عندما وصلت إلينا ـــ إلى السجن؛ وسمعت من بعض الزملاء الاستنكارَ على «الزبيري».. قد قلت قصيدة أدافع بها عنه وهي من نفس «الروي» وأولها:

وكَّلتُ «الزبيري» إلى ظُهْرِهِ — وما يعرف الله مِن سِرِّه!
فليس «الزبيري» في شعره — كما قال، كلا ولا نَثْرِهِ..!
وما ذكر «نعمان» إلاّ صدًى — لِصَوت الفَضيلَةِ مِنْ برِّهِ:
بإخوانه مَن يعيشون في — قُصُور المودّة من ذِكْرِهِ..!
فلا تعذلُوه إذا نمَّقَ الْمـــــديحَ، و بالغ في عُذرِهِ؛
فإن «الزبيري» يرجوالحياة — لِمَن يتهادَى إلى قبرِهِ
وسيف الخطوب على عُنْقِهِ، — ورُمْحُ الْمنيَّة في نحْرِهِ!
يحاولُ كَسْبَ حنَان «الإمــــام» — لنا نحنُ، من نَحن في أسرِهِ؟

وهي نحو عشرين بيتاً لكنّي لا أتذكر منها إلاّ هذه الأبيات.

وعلى كل فقد تطوّرت أمور، وجدّت أحداث، وتزعّم الزبيري المعارضة من جديد بعد أن قامت ثورة مصر وأعلنت الجمهورية، ولجأ الزبيري إليها من الباكستان وكان له دور في محاربة حركة «سيف الإسلام عبدالله والمقدم الثلايا» وكل ذلك سأتحدث عنه في مكانه إن شاء الله:

٣٥- الورتلاني ورسائله إلى محمد علي الطاهر:

وأما السيد الفضيل الورتلاني فكما ذكرت سلفاً أنه ظلّ مشرداً تائهاً في البحار تتقاذفه الشواطىء بضعة أشهر ولم تقبل نزوله في أراضيها أية دولة عربية أو إسلامية أو شرقية أو غربية إلاّ لبضعة أيام وريثماتغادر «باخرته» الميناء إلى ميناء آخر. حتى عمل بعض شباب الإخوان المسلمين خطة لإنقاذه من الباخرة وهي واقفة في شاطىء بيروت وذلك بمساعدة مجموعة من زعماء وأدباء العرب والمسلمين.

وقد التقيت به بعد خروجي من السجن وانتقالي إلى مصر سنة ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ فقد قصدته إلى مخبأه في بيروت إثر انتجاعه اليها بعد اختلاف الرئيس عبدالناصر مع الإخوان المسلمين ومحاولة الاعتداء عليه في مدينة الاسكندرية، وقد وصف لي كل ما قاساه وعاناه في حديث طويل شيّق سوف آتي على تفاصيله في مكانه من هذه الذكريات إن شاء الله.

ولعل من واجبي أن أشير هنا إلى أنه قد ظل يراسل أثناء تهيامه في البحار صديقه المجاهد الفلسطيني محمد علي الطاهر وقد أعطاني الأستاذ الطاهر صوراً من هذه الرسائل ومنها هذا الخطاب.

«حضرة الأخ الوفي الأستاذ أبوالحسن حفظه الله وسلام عليكم ورحمة الله و بعد فإني أكتب إليك

هذا من ميناء مصوّع ، وقد أبلغت من البوليس رسمياً أن نزولي في عدن ممنوع ، ومعنى ذلك أنني أعود بالباخرة «الزمالك» مرة أخرى ، وإني آمل أن تكونوا بهمتكم العالية قد وصلتم إلى حل مرضٍ ؛ لقد علمت أن الجماعة الذين كانوا معي في الحجاز قد سافروا إلى «الهند» ـ يقصد الزبيري والوزير ـ وكنا سنسافر سواء لولا تغرير لبنان بي ؛ وآمل أنكم ـ إذا أحتم عليهم ـ أن يرجعوا عن هذه الغلطة الكبيرة .. فيصحّحوها ؛ على أنني لا أستطيع وأنا في البحر أن أحدّد لكم النواحي التي تطرقونها فأنتم أدرى ؛ وإنما أنا قد صرت الآن بين السماء والأرض وليس لي بعد الله إلا همم الأصدقاء الأوفياء الذين تعرفهم الشدّة ، وإلا ما أحمله في نفسي مما يعلمه الله من طهر وإخلاص ؛ فالرجاء أن يكون اتصالكم بجميع الأصدقاء متواصلاً لتحفزهم على العمل ، ولو كان الانسجام قليلاً لاختلاف البيئات والهمم ، و يرجى ـ أن يكون ـ أحدكم في انتظاري بالسويس يوم عودة الباخرة ، وإذا تعذر الحال في البلاد العربية لاستحكام حلقات المجاملة فاطرقوا أبواباً أخرى مثل الهند والباكستان و بورما وسيلان واندونيسيا ، والبانيا والبلاد الأوروبية كسويسرا أو أمريكا مطالبين لي «الالتجاء السياسي» الذي أصبح في القرن العشرين محل تقدير الدول المتحضرة ، وفي حال تحصيل ترخيص إلى أي بلد من هذه البلاد يمكن أن تحصلوا لي ترخيصاً بالانتقال إلى باخرة أخرى تسافر إلى تلك البلاد في أي ميناء من الموانىء التي يمكن أن تلتقي بها «الزمالك» ؛ وأرجو أن تتصل بالحاج محمد سالم والأمير عبدالكريم والإخوان المسلمين ، و بالدكتور محمد مختار عبداللطيف قريب ابراهيم باشا عبدالهادي وصديقه الحميم و برشاد بن المراغي شقيق مدير الأمن العام وصديق حميم و بعبد المجيد باشا ابراهيم ، وإذا لزم نفقات فاطلبوها من الحاج محمد سالم من أسهمي ، أو قرضاً ، ومن الحاج محمد الزيات والحاج أحمد بن قايد والحاج يونس طرابلسي بالاسكندرية وأحمد بك فخري والشيخ عبدالصمد والآخرين يمكن أن يدبّروا من عند آخرين من الأصدقاء ثم أنتم اقترضوا أو اقرضوا ، فإنني أستطيع أن أسدّد إن شاء الله فلي في بلدي أملاك تقوم بما يقرب من عشرة آلاف جنيه والحمد لله . والمهمة يا أبا الحسن تحتاج إلى همّة وسرعة ، وأنتم أهل إن شاء الله لكل خير ؛ و بعد فإنه لضيق وقت بقاء الباخرة بالميناء لا أستطيع أن أكثر من هذا الخطاب فالرجاء أن تطلع عليه جميع الإخوان وأن يعتبروه موجهاً إلى الجميع ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وتحياتي للجميع ، وأرجو من الجميع الدعوات الصالحة ، والأمر بعد ذلك كله بيد الله أسأله جلت قدرته أن يكتب لنا ما فيه رضاه وأن يختم لنا بالأجر والإسلام والسلام من أخيكم " خلص الفضيل الورتلاني ».

يوم الجمعة ٧/ ٥/ ١٩٤٨م

بميناء مصوع

وهذا التاريخ يوافق ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ وفي نفس الوقت الذي كان يستنجد الزبيري والوزير بالأستاذ محمد علي الطاهر أيضاً .

وله إلى أبي الحسن رسالة طويلة تاريخها ٥/ ٥/ ١٩٤٨م جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم   مستعجل ومهم جداً .

«حضرة المجاهد الوفي الأخ أبوالحسن حفظه الله والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته و بعد فقد أرسلت إليكم عدّة أجوبة ، و بريد أرجو أن يكون الجميع قد وصل ، وأنا أكتب إليك الآن من ميناء «بورت سودان» بعد ما بلغت أن حكومة عدن قررت عدم نزولي كما كان متوقعاً ، والآن إنني بين السماء والأرض ، والأخوّة والشهامة وكل معاني النبل لم تخلق إلاّ لمثل هذه الظروف ، يا أبا الحسن إني لا أعلم ماذا يقال عنّي لأنني في عرض البحر ، ولكنني أريد أن أشرح وجهة نظري وأنت خير محام ومدافع ؛ يعلم الله أولاً أنني لم أذنب ، ولم أنوشرّاً لا في اليمن ولا في مصر ولا في أي بلد عربي أوإسلامي .

ولكن الناس قد يقولون غير هذا ؛ فقد يقول بعض الناس مثلاً : إذا كان الفضيل بريئاً في حوادث اليمن فلم لا يسلّم نفسه لليمن لتحاكمه ؟ والجواب يا أبا الحسن الذي أنا مضطر إليه الآن لأنني صرت أنا نفسي هدفاً ـــ الجواب أنه ليس في اليمن عدالة كما يفهمها الناس ؛ فلا قضاء ولا قانون ، ولا حقّ دفاع ، ولا محاماة ، ولا شيء من هذا أبداً ؛ فالجاري في كل البلاد أن المرء يؤمر بقتله فيُقتل من غير أن يعلم أحدٌ لماذا ، ولا يملك أحد أن يسأل لماذا ، والمرء يؤمر به فيسجن السنين ، وربما عشرات السنين بالقيود والسلاسل ولا أحد يعلم لماذا ؛ فهذا أمر مشهور في اليمن حتى صار من الأمور العادية ؛ وهذا يصير حينما تكون الدوافع ذات علاقة بما هو أهون ألف مرّة من موضوعنا ، فكيف بموضوعنا نحن الذي يتعلّق بالعرش والملك ؛ فمجرّد الشعور البسيط بأن امرءاً يريد ذلك ولو بالنيّة يكفي أن يذهب إلى العذاب الأليم ، واليوم إذا أرادوا أن يستروا المسألة بالنسبة للخارج سيستطيعون أن يلفّقوا ألف تلفيق ، وسيستطيعون أن يأخذوا من الناس شهادات واعترافات ضد أنفسهم وضد الناس بما لا أصل له تحت سلطان العذاب الأليم الذي أباح الإسلام معه أن يقول الإنسان كلمة الكفر «إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ، ثم إنه مهما اختلف النّاس في شبهتي فهم لا يختلفون أن الموضوع سياسي لأنه يتعلّق بقلب نظام الحكم ، والسياسي كما تعلمون وحتى إذا صح أنه مجرم فيعتبر مجرماً سياسياً ، والمجرم السياسي ينظر إليه القانون الدولي نظرة خاصة . فالمسألة هي خصومة بين رأيين متحاربين ، فإذا انهزم أحد الرأيين في شخص فرد أو جماعة أو إذا وقعوا في يد خصمهم السياسي هلكوا ولا شك ولكنّهم إذا فلتوا ونجوا فإن الدول المتحضّرة وقوانينها الإنسانية تقضي بقبول الالتجاء السياسي وحمايته من عقاب خصمه المنتصر أو انتقامه [كلمة غير مفهومة] بريطانيا في أيام الحرب ضد أفراد وجماعات [كلمة غير مفهومة] ولنا أمثلة في محيطنا العربي رشيد عالي الكيلاني و يونس بحري إذ حُكم عليهما بالإعدام فعلاً ، ولكن لم يستطع أحد أن يعترض على التجائهما . وأريد أن أقول إذا كان ولابد أن تتشبث اليمن بالتهمة فلماذا لا أعامل على الأقل بمثل هذه المعاملةالتي رخصت بها جميع القوانين المتحضرة ؟ ولعل المجاملة كان لها أكبر الأثر في هذا الموضوع ، ولكنني أعتقد أن همة الإخوان والأصدقاء تصحح أثر هذه المجاملة خصوصاً وقد أقمت في مصر عدة سنين فما عرف عني في جميع الأوساط بحمد الله إلاّ كل خير . ومع ذلك فأنا مستعد أن أقدم نفسي للمحاكمة إلى القضاء المصري [كلمة غير مفهومة] المدة التي قضيتها في مصر فإذا وجدوا لي أي شبهة تتنافى

مع الوطنية العربية والإسلامية [كلمات غير مفهومة] العظيم فليكن دمي مباحاً أمام العرب أجمعين .
وأخيراً الآن قد تأكد أنني عائد لا محالة فالرجا أن تتعب وتتحمل يا أبا الحسن وأنت قد خلقك الله لهذا فاجتهد واستعن بجميع أصدقائنا ولو لم يكن إلا [كلمة لم تفهم] لاختلاق السيئات ولكن في سبيل الله يهون كل شيء أرجو أن تتصل بالأمير والإخوان الفاسي ، بورقيبة ، الشاذلي ، بن عبود ، والسيد الخضر ، الحاج محمد سالم ، الدكتور مختار عبداللطيف ، صالح باشا حرب وجميع إخوانك و بالصحافة أيضاً فلا بأس يا أبا الحسن أن تترك في هذه الأ يام كل شغل وأشغالك كلها أعرفها أنها كثيرة ولكن أعتقد أن هذا أهم وأسرع ، وأملي في الفاروق العظيم صاحب المكرمات الكثيرة كبير فأرجو أن [كلمة لم تفهم] الواقع لن يخيبكم إن شاء الله فإذا أفرغتم جهدكم والأخذ بالأسباب .

٥/ ٥/ ١٩٤٨م

من أخيكم الوفي

الفضيل الورتلاني

يطلب التطوع للجهاد في فلسطين :

وهناك رسالة أخرى كتبها الأستاذ الفضيل إلى الأستاذ الطاهر وهو لا يزال على باخرة « الزمالك » وتاريخها ١٧/ ٥/ ١٩٨٤م أي بعد تاريخ الرسالة السابقة بعشرة أيام وهذا نصها وهي بخط الأستاذ الجزائري الذي أعرفه والذي نقلت عنه النسخة الأولى للميثاق الوطني المقدس وهذا نص الخطاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم مستعجل جداً .

حضرة الأخ الوفي الأستاذ أبوالحسن حفظه الله .

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته ، و بعد فإني أكتب إليكم هذا من ميناء جدة في طريقنا إلى السو يس . مرة أخرى بعدما رفضت حكومة عدن نزولنا بسبب عدم وجود التأشيرة كما توقعنا وسنصل إلى السو يس بعد نحو خمسة أو ستة أيام من تاريخه ؛ والمركب في هذه المرة لا ينتظر في السو يس كثيراً فالرجاء يا أبا الحسن ألا تضيعوا شيئاً من الوقت أبدا حتى لا تضيع الفرصة ، وإني أعلم كثرة مشاغلك التي هي مشاغل الناس جميعاً ، ولكن هذا الشغل في هذه الأيام فوق كل شغل ؛ أخي آمل أنكم في هذه الفترة الطو يلة قد وفقتم مع بقية الأصدقاء إلى حل إن شاء الله وإن لم تكونوا قد وفقتم إلى شيء لا سمح الله فإني أرجو أن تتقدموا باسمي رسمياً إلى النواحي المختصة راجياً أن يسمحوا لي بالتطوّع للجهاد في « فلسطين » وإذا تم هذا يمكن أن أنزل في بورسعيد أو في السو يس أو في بيروت فألتحق بأي كتيبة من كتائب المجاهدين بالميدان. وهذا كما تعرفون مما كان المرء يتمناه دائماً ، وليس بنت الساعة وهو في الوقت نفسه نوع من الحلول لمشكلتي ؛ أرجو أن تتصلوا بسماحة المفتي ، و بعزّام باشا و بالحكومة المصرية وبمن ترون فأنتم أدرى بالأمور و بالأشخاص ، لقد كتبت بمثل هذا للدكتور محمد مختار عبداللطيف ، ولسمو الأمير عبدالكريم فالرجا الاتصال أيضاً ببقية الأصدقاء صالح باشا حرب ، الحاج محمد سالم ، رشاد بك المراغي ، والشيخ دراز وغيرهم ، يهمني جداً أن يزورني بعضكم بإذن من الحكومة في

السويس لأعرف ماذا كان؛ والراحمون يرحمهم الرحمن، والأخذ بجميع الأسباب من صميم تعاليم الإسلام و بعد ذلك فالله وحده هو الذي يفعل ما يشاء والسلام من أخيكم المخلص الوفي المظلوم الفضيل الورتلاني.

جدة ١٧/ ٥/ ١٩٤٨م   من الباخرة زمالك.

والذي يظهر أنه قد أمكن تهريب الفضيل من الباخرة في أوائل شهر يونيو سنة ١٩٤٨م فهناك رسالة أرسلها من عدن الأستاذ زكي محمد غانم ـ وكان أستاذاً منتدباً من مصر في إحدى مدارس عدن وكان يعمل أيضاً مراسلاً لجريدة الأهرام في عدن وهو الذي سلمته النسخة الأولى من ديواني النفس الأول سنة ١٩٤٧م/ ١٣٦٦هـ والذي أشرف على طبعه فيما بعد ـ إلى الأستاذ الطاهر هذا نصّها.:

حضرة الأستاذ محمد علي الطاهر.. عدن في ١٣/ ٥/ ١٩٤٨م

السلام عليكم ورحمة الله و بعد فقد وصلت إلى عدن الباخرة الزمالك تحمل السيد الفضيل الورتلاني وقد منعته حكومة عدن من النزول كما لم يسمح له بالنزول في أية ميناء وقد كلفني أن أكتب إليكم لتروا له مخرجاً من هذا الكرب. والسلام عليكم ورحمة الله

زكي محمد غانم

كما أن هناك برقية أرسلها الأستاذ حبيب جاماتي إلى رئيس وزراء لبنان بتاريخ ٢٥/ ٥/ ١٩٤٨ هذا نصّها:

دولة رياض بك الصلح   بيروت

عندي ما يحملني على الإلحاح بوجوب تسوية مسألة الورتلاني لسوء الأثر الذي تركه سحب «الفيزا» منه وهو بالبحر، وسيصل الورتلاني لبيروت بالباخرة الزمالك للمرّة التالتة، ولا تعوزكم الوسائل لحل مسألته.

حبيب جاماتي

مصر ٢٥/ ٥/ ١٩٤٨

ومن رسالة بلا تاريخ كتبها الفضيل إلى الطاهر أثر تخلّصه من كرب التيه على الباخرة الزمالك وأظنه كتبها في يونيو/ ١٩٤٨م نعرف بعض الأشخاص الذين عملوا على حلّ مشكلته وأنقذوه من الباخرة إلى بيروت وهذا هو نص الخطاب:

«إلى .. من لا أعرف كيف أصفه.. الوفي؟ الشهم؟ المخلص؟ النبيل؟ الأخ؟ الصديق؟ كل ذلك وأكثر من ذلك.. إلى.. الرجل.. أبوالحسن... لا عدمته العروبة..

السلام عليك بقدر همتك و وفائك..

ثم أبشرك أنني كما تحب إن شاء الله بخير وعافية، على أنني لا أزال دائما في حاجة ملحة إلى

عنايتك أنت بالذات، لأنها عناية القلب والعقيدة.. لقد كانت شهامة دولة رياض بك عند ظنّنا تماماً والحمد لله، والأخ الكريم تقي الدين بك يستحق أعظم الشكر والتقدير فلقد كان له أكبر الأثر وصديقك العظيم فخامة شكري بك جزاه الله أحسن الجزاء، وعزّام باشا لم يقصّر في حقّي أبدا، والدكتور عبدالوهاب بل كان له موقف عظيم في جدة، ومعالي السيد المجددي كان يقطر عطفاً وإخلاصا وعمل كلّ ما في إمكانه، ومعالي حيدر بك مردم كان الرسول النبيل الذي تمت على يده الفرجة».

«لقد وجدت رسولك عند دولة الرئيس ينتظرني، وأول كلمة سمعتها منه كانت مقرونة باسم «أبوالحسن»: كأنني عندما رأيت رشيد ابن الحاج ابراهيم ــ والله ــ كأنني رأيت أباالحسن ولم تدمع عيناي إلاّ في تلك الساعة، حينما سمعت «أبوالحسن»، فبقي الرجل يوصي و يؤكد على الرئيس كأنه «أبوالحسن» حتى طمأنه كل الاطمئنان، واتفقنا أن يبرق إلى «أبوالحسن» بالشفرة حالاً».

«أرجو منك يا أبا الحسن ــ من صمن العمل والجهاد ــ أن تبعثوا لأولئك الذين تفضلوا بالمساهمة في خدمتنا بالتشكر ودوام العطف فأنت أدرى بالطرق والأسلوب».

«ماذا عمل إخواننا؟ الأمير؟ الأستاذ الحبيب؛ والأستاذ الناسي؟ وغيرهم؛ أليس هذا يومهم؟ أقسم بالله لقد كنت أطمع أن يطوفوا البلاد العربية كلها من أجلي في هذه المحنة، التي غمرني الظلم بها حتى الذقن ــ قد يكون هذا الطمع مني إسرافاً، ولكن هذا ظني في اخوتهم.. ومراكز جهادهم، ولا أزال على ذلك ولن أزال إن شاء الله».

«وأصدقاؤنا صالح باشا حرب، الأستاذ أحمد حسين، الدكتور محمد صلاح الدين، الدكتور محمد مختار عبداللطيف، عبدالمجيد باشا، ابراهيم، رشاد بك المراغي، الشيخ دراز، نجيب بك براده، علوبه باشا، والحاج محمد سالم، الأستاذ عبدالمنعم خلاف، وأسعد بك ناغي.. أنا أعرف أن لكل واحد من الناس ظروفا.. ولكن الظروف لا يجوز أن تطغى على الواجبات الإنسانية المقدسة».

«سامحني يا أبا الحسن فأنا الآن بعيد عن دنيا الواقع، فأنت الذي وفقك الله وأعانك على مروءتك والسلام».

من أخيك المعترف بالجميل.. محمد حسن.. ف ــ ي.

تحياتي للصديق الحميم كامل بك كيلاني.

هذه الرسالة التي تطفح بالثناء الحسن والشكر للأستاذ المجاهد محمد علي الطاهر ولمن عمل معه على إنقاذ الفضيل والتي فيها شيء من العتب المرير على من كان يظن أنهم سيعملون الجائز والمستحيل من أجل إنقاذه من تلك المحنة التي ظل فيها حبيس الباخرة الزمالك أكثر من شهرين أظن أنه قد أرسلها إثر خلاصه والتجائه إلى مكان ما في بيروت وقد بدأ يصطنع الأسماء المستعارة وقد أعقبها برسالة أخرى تاريخها ٢٣/ ٦/ ٤٨ ١٩م أي في نفس الشهر الذي أنقذه الله فيه وفي هذه الرسالة يقول:

حضرة المجاهد الأستاذ أبوالحسن حفظه الله وأعانه في همته وشهامته..

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

و بعد فإني مؤقتاً بخير وعافية كما تحب إن شاء الله ولعل الأخ تقيّ الدين بك قد حدثكم؛ وهو كما تعلم له فضل كبير، وله مواقف في غاية الشهامة والرجولة وفهمت ذلك حتى من صديقك الرئيس، هذا وأن الرئيس يفضّل لنا الآن الصمت والسكوت؛ على أن موضوع طبع الكتاب بصفة رسمية يجب أن يكون محل البت ويجب أن يتم الاتفاق مع مدير المطبعة العام، إلى آخر ما جاء في الرسالة عن «الكتاب» الذي كان ينوي إصداره ولا أدري أي كتاب يقصد وهل كان ينوي إصدار كتاب يروي قصته وأحداث اليمن؟

على كلّ فإن هذه الرسالة لم يكتبها الأستاذ الفضيل بخط يده المعروف بل أملاها على كاتب له ثم أصلح بعض ألفاظها بقلمه وفي آخرها بعد كتابة عنوانه وهو «محل خليل وعفيف يموت مانيفاتورة شارع سعد زغلول بيروت ومنه إلى الأخ «حمدان الأحمد» كتب الأستاذ بخطه:

«ولا عدمتك المروءة يا أباالحسن والسلام من المعترف بالفضل أخوك: حمدان الأحمد».

وهو أحد أسمائه المستعارة؛ ولقد عثرت على خطاب آخر بخط الأستاذ الفضيل كتبه إلى الأستاذ الطاهر من بيروت بتاريخ ٣١/ ٣/ ١٩٥١م أي بعد ثلاث سنوات وفيه نجده لا يزال يحتفظ بنفس العنوان ولكنه قد غير اسمه فلم يعد «حمدان الأحمد» بل «ابراهيم مصطفى» وقد استهلّه بقوله:

«عزيزي أباالحسن تحية وأشواقاً و بعد: كتبت إليكم من غرناطة ومن طنجه ومن بيروت بعد عودتي مرتين إحداهما بالبريد والثانية مع الأستاذ عبدالحفيظ قائد من بيروت ولم يأتني أي جواب منكم أسأل الله أن يجعل المانع خيراً».. الخ.

و يظهر أن الأستاذ لم يستقر ولم يلق عصا الترحال بل ظل يضرب في الآفاق وقد أتعرض في السفر التالي لذكر بعض ما حدث له حتى توفي غريباً في تركيا رحمه الله رحمة الأ برار..

برقية الوزير والزبيري:

ولعلّ مما يكمل هذا الفصل الوثائقي أن أشير إلى برقية بعثها السيد عبدالله بن علي الوزير والأستاذ الزبيري من عدن بتاريخ ١٣ ابريل ١٩٤٨م قبيل مغادرتهما لها إلى الهند وهذا نصها:

المجاهد محمد علي الطاهر ١١٩ شارع الملكة نازلي القاهرة.

إن صديقيك النعمان والمسمري و باقي رجال اليمن الكبار معرضون لخطر الإعدام بدون محاكمة فنحن نفزع إليك لتعمل على إنقاذهم بما تراه.

الوزير　　　الزبيري　　　والأحرار اليمنيون

رسالة الأحرار من عدن:

على أن أغرب ما بين هذه الوثائق مما يخصني شخصياً هي رسالة تصوّر حالة الدستوريين الذين نجوا

من السجون وهلعهم وتخوفاتهم على أصدقائهم في المعتقلات وتعرب عن مدى حيرتهم وأنه لم يبق لهم أمل يفزعون إليه غير الأستاذ محمد على الطاهر وقد قلت إنها تخصّني لأنها قد اعتبرتني ضمن الأحرار الذين قد نفّذ فيهم حكم الإعدام وهذا نصّها :

٢٨ ابريل ١٩٤٨م / ١٨ جمادى الثانية ١٣٦٧ هـ

حضرة المجاهد العظيم الأستاذ محمد علي الطاهر حفظه الله والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

أما بعد فقد بلغنا ما يفيد عن وطننا اليمن أن الإمام أحمد قد أعدم ما يقرب من ١٨ نفراً من الزعماء وهم كما يلي :

السيد عبدالله بن أحمد الوزير
السيد محمد بن أحمد الوزير [لم يقتل وقد مات بعد أن أطلق] .
السيد محمد بن علي الوزير
السيد عبدالله بن محمد الوزير
السيد زيد بن علي الموشكي
السيد أحمد بن محمد الشامي [لم يقتل وهو كاتب المذكّرات] .
الأستاذ محيى الدين العنسي
الحاج أحمد العنسي
الحاج علي ناصر العنسي [لم يقتل ولا يزال حيّاً يُرزق] .
الأستاذ محمد صالح المسمري
الأستاذ أحمد البرّاق
الأستاذ أحمد الحورش
محمد حسن أبوراس
عبدالله حسن أبوراس
الشيخ عبدالوهاب نعمان
حسن بن صالح الشايف
زيد علي عقبات [لم يقتل إلاّ سنة ١٩٦٢م] .

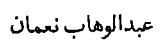
وهناك إشاعات أخرى لم تؤكد أنه يريد إعدام الأستاذ أحمد محمد نعمان وغيره من الأدباء والعلماء ولقد أبرقنا لكم سابقاً عن الزعيم أحمد محمد نعمان وخلاصة القول أن الإمام أحمد يعدم الأحرار بدون محاكمة ؛ القاضي الزبيري توجه إلى الهند ولم يبق في عدن أحد يقوم في مقام الزعماء ، وليس لدينا أيّ مفكر ، ونحن كما ترون لا نحسن الخط والإملاء فضلاً عن الأمور الأخرى وسنواصل جهادنا نحو هذا الوطن بمساندتكم لنا وأرجو أن يكلّل أعمالكم بالنجاح والسلام عليكم ورحمة الله . أخوكم عبدالله عثمان نعمان .

الجمعية اليمنية الكبرى عدن قسم ٦ شارع رقم ٤ .



أحمد البراق





عبدالوهاب نعمان



زيد الموشكي

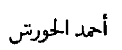


محمد صالح المسمري



محيى الدين العنسى





أحمد الحورش



الرعيم محمد سري



الرئيس جمال جميل

٣٦ - وجهات نظر زعماء أحرار اليمن .

كرّرت القول ضروباً ، وأعدته أشكالاً وألواناً ، أنني لا أعد نفسي حين أسجّل ماجريات حياتي مؤرخاً ، ولا حاكماً ، ولا ناقداً ، ولست إلا «حكواتي» كما يقولون في بعض البلدان العربيّة . أو «محَزوي» كما يقولون في «صنعاء» ، وهم يعنون «القاص» أو «راوي الحكايات» ، ولكنني ألزمت نفسي الصدق والأمانة في سرد ما شاهدته أو علمته ؛ وأمانة «الشاهد» ــ ديناً وعقلاً ــ قد لا يتحملها «المؤرخ» أو «الناقد» أحياناً إلاّ من عصم الله ووفقه باللطف الخفي ؛ والشهادة أمانة «ومن يكتمها فإنه آثم قلبُهُ» وكذلك من يحرّفها أو يزيّفها ، أو يضلّل بها .

وهناك حقائق تاريخية ، وأحداث هامة ، وقعت في الفترة الرّهيبة التي عشتها ما بين سنة ١٣٦٠ و١٣٦٧ﻫ [١٩٤٢ــ ١٩٤٨م] كان لي فيها شأن ورأي وعمل ، وقدذكرت ماأمكن لي تذكره ، وأعرضت عمّا لم أسجّله في وقته ، أو ما غاب عن الذّهن ، أو ما أشعر بإحراج إذا ذكرته لأني سأتحدّث عن أعمال لم يقم بها غيري ، وأنا لا أؤرّخ للفترة ، ولا لمواقفي الوطنية أو السياسية وما كان منها صواباً ، وما كان خطأ ، وكلّ ذلك قد كان ؛ وليس من اللآئق عند العقلاء ــ وأنا من المعجبين بهم ــ أن يتحدثوا عن أعمالهم ولا سيما إذا كانت مما يُرضي قوماً ويغضب آخرين بما هو أكثر مما قد تعرّضت له في الفصول السابقة ، ويفضّلون أن يتحدّث عنها غيرهم ، حتى ولو غُمِطُوا أو ظلموا !

وبناءً عليه ؛ ولكي لا أهمل أحداث التاريخ في هذه المذكرات إهمالاً كلياً في تلك الفترة الحاسمة فقد رأيت أن أقتبس مما كتبه عنها بعض زملائي الذين عايشوها وعاصروها وزاملوها ، وهم بمكان من العلم والمعرفة والأدب أمثال الأستاذ شاعر اليمن الزعيم المجاهد محمد محمود الزبيري ، والأستاذ خطيب اليمن الزعيم أحمد محمد نعمان ، والقاضي العلامة الأديب الرئيس عبدالرحمن الارياني والقاضي العالم الشاعر الراوية المؤرخ عبدالله الشماحي ، وبعض ما ورد من أقوال هؤلاء قد سجلّه كتاب «ثورة ١٩٤٨ الميلاد والمسيرة والمؤثرات» بإعداد «مركز الدراسات والبحوث اليمني» في الجمهورية العربية اليمنية وطبع سنة ١٩٨٢ ووزّع كتاريخ رسمي لتلك الفترة ، أقرّته وزارة إعلام الجمهورية ؛ وأنا حين أنقل كلام هؤلاء أو غيرهم لا أؤيّده ولا أنفيه ؛ فإن أحسنوا فأجرهم عند الله ، وإن فاتهم الصواب فأسأل الله لي ولهم العفو والغفران ، غير أنّي أعترف أنّه لولا تقديري لهؤلاء الزملاء الأكارم لما استأنست بكلامهم والله وليّ التوفيق .

حركة الأحرار وثورة الدستور سنة ١٩٤٨م [١٣٦٧ﻫ] :

يقول المؤرخ عبدالله الشماحي :

«كان ولي العهد أحمد جواداً سخيّاً أريحيّاً سريع الانفعال ، مغواراً فتّاكاً سفّاكاً تعجبه النكتة وتضحكه الفكاهة ، ويطربه الثناء ، ويهزّه الشعر عكس أبيه ، وهو مع ذلك عالم وشاعر وخطيب ، ومسعر حرب ، وقائد عسكري ، قريب وبعيد ؛ فإذا اقترب اختلط بالجماهير وتعرف مشاكلها ، وأدار

أمورها وصال وجال، وأقام مع خاصته أندية الفرح والأدب، وإن ابتعد احتجب وعلى نفسه انطوى يستعرض مهام دولته حيناً، وأحياناً يمرح في بساطة ودعابة مع من يحب من ذو يه وخدمه، ومثل هذه الشخصية تلتقي حولها المتناقضات، و ينبت في ظلها الشوك والورد، و يتحاك قر بها بالمنا كب دعاة الشر وأحلاس الشهوات والميوعة، ورواد الموائد وذو و المطامح والجد والسياسة، وهذا ما كان بتعز وقتئذ فإنك لا تكاد ترى [فلاناً.. وفلاناً من الجوالزة..] وأضرابهم إلا وأنت ترى حسين الأحمر ومحمد عثمان وعبدالرحمن الإرياني، ومحمد الزبيري، وأحمد الشامي، وزيد الموشكي، ومطيع دماج وأمين أبوراس وحسين الويسي، وعبدالله العزب وأضرابهم.

وقد استدعى ولي العهد إلى مقره هذا الزبيري والشامي والموشكي فاستجابوا لدعوته فاستقبلهم وليّ العهد بالحفاوة وأسبغ عليهم النعم وأدناهم منه وفتح أذنيه لنظرياتهم ونصائحهم ومقترحاتهم وشجعهم على إقامة ندوات العلم والأدب التي كان يشترك في حوارها و ينشرح إليها انشراح الأديب العاطفي والعالم الشاعر، فإذا بالأمل يداعب الزبيري والموشكي والشامي ويجتذب إلى ولي العهد الكثير من المتطلعين إلى المستقبل، فالأستاذ أحمد محمد نعمان ينيخ ركابه بتعز ولا يقل حظه عند ولي العهد عن الزبيري وغيره إن لم يكن أقرب الجميع زلفاً، فالأستاذ يتميز بأسلوبه الخطابي الهادىء الأخاذ ونعومة أحاديثه الجذابة وهذا الأسلوب زاد ولي العهد تفتحاً لهذه المجموعة وحركتها الأدبية والعلمية، فاستمرت في نموها، تمنح ولي العهد نصائحها وعصارة أفكارها، وهويمنحها المواهب والتقدير، وفي ظل هذا التبادل الوارف تنمو الآمال ومن على شرفات قصرها البلوري يقف كل بمجهر مزاجه ينظر إلى المستقبل الذي يحلو له أن يراه، فإن المجموعة هذه لم تكن قد اتفقت فيما بينها لا مع أحمد ولا مع من يتصل بها على هدف ولا على قاعدة موحدة للانطلاق حتى يكون هذا الأمل وقصره المحفوف بالمكاره بمنجاة من الأوهام والدسائس، فقد كان هذا القصر على رمل ما كان له أن يقاوم معاول الهدم المنصبة عليه من خارجه ولا انتشار السوس الذي ينخره من داخله ومن قواعده، فما لبث ذلك القصر أن نسفته الأوهام فحل محل الأمل التخوف الذي حد من الاتصالات بين ولي العهد والمجموعة ثم تحول إلى توتر جعل المجموعة تنتظر أن تكون فريسة مأمولها بالأمس وقد كان الأحرار حول ولي العهد يرجون منه خيراً فإذا بذلك الرجاء ينقلب إلى ذعر وخوف بلغا حدهما حين قال أحمد: إني أسأل الله ألا أموت إلا وقد خضبت سيفي هذا بدماء العصريين، مما أدى إلى استيحاش الأحرار فغادر الأستاذان الزبيري ونعمان تعز إلى عدن في جمادى الآخرة عام ١٣٦٣ هـ .

[ص ٣٣ــ ٣٤ ثورة ١٩٤٨ م] كتاب « ثورة ٤٨ » .

وقال تحت عنوان: « الموشكي والشامي »:

« وقد كان السيد زيد بن علي الموشكي، والسيد أحمد بن محمد الشامي قد فارقا تعز إلى عدن على أثر الزبيري والنعمان واجتمعا بهما، ثم بالنقيب مُطيع دمّاج أوّل مهاجر إلى عدن، إلاّ أن الظروف عاكستهما، والنقيب مُطيع فقرّر الثلاثة العودة إلى حجيم المعركة؛ فعاد الموشكي والشامي بعد أن مهّد

لهما الطريق الشيخ محمد علي عثمان، ثم تلاهما مطيع دماج وقد استقبلهم ولي العهد أحمد بالترحاب واستمر ثلاثتهم ملتزمين بمبدأ النضال الهادف إلى انهاء حكم الإمام يحيى وأبنائه، فعمل كلّ في حدود ظروفه وكثيراً ما كان الموشكي يتمرد على ظروفه فيقف مع ولي العهد مواقف نقد وتحذير لا يجرؤ عليها سواه فيتحملها له، وقد يشكوه إلى محمد عثمان أو الشامي فيلطفان الجو و يتعدى التلطيف إلى استعطاف ولي العهد على المسجونين بحجة فيطلق القاضي عبدالرحمن الإرياني ثم يضمه إليه بتعز، وتخف موجة الإرهاب والاعتقال نسبياً و يطلق ببطء بعض المعتقلين على فترات متقطعة تتناول القاضي محمد الأكوع والقاضي أحمد المعلمي والقاضي محمد السياغي وأخو يه القاضي يحيى والقاضي حمود والفاضي عبدالسلام صبره والنقيب عبداللطيف قائد والشيخ أمين نعمان والشيخ محمد أبوراس والقاضي محمد صبره. وكان آخر من أطلق سراحه الشيخ حسن الدعيس والقاضي عبدالكريم العنسي قبل ثورة ١٣٦٧ هـ التي مات قبلها بالسجن الشيخ حسن بن محمد البعداني والشيخ محمد حسان بحجة واستمر بقية المعتقلين إلى ما بعد الثورة بسجن حجة ومنهم الأستاذ غالب أحمد والشيخ صالح المقالح والشاعر محمد علي المطاع [ص ٣٩ــ ٤٠ نفس المصدر].

وقال أيضاً:

سنة ستة وستين وشبح الثورة:

استهل عام ١٣٦٦هـ بأحداث حولت سير النضال من التفكير إلى المغامرة، فحزب الأحرار بعدن قوي مركزه الدعائي بإبراهيم ابن الإمام كما حاول اسماعيل ابن الإمام أن يلتحق بأخيه وحزب الأحرار إلا أنه قبض عليه مع الشيخ صالح المقالح وغيره قبل اجتيازه الحدود.

و يأتي الأستاذ الجزائري الفضيل الورتلاني موفداً من الإمام حسن البنا وروح الثورة تتقدمه، فيمر بعدن و يضاعف حماس قادة حزب الأحرار وأعضائه، ذلك الحماس الزاحف مع الفضيل إلى كل مكان حل فيه، فهو معه بتعز يهز الملك المظفر، و بـ«إب» يحرك الملك المكرم والوالدة السيدة أروى، و بصنعاء يلهب شبابها وطلاب مدارسها وضباطها بسعير ثوري حول الجو بصنعاء وعدن إلى أتون من التفكير الموجه الصحيح وصار اليمن وكأنه قد ألغم بصواعق ستنقضّ على الإمام يحيى وحكومته، خيال نعم به أحرار اليمن زمناً أوقعهم بالغرور ومغبّاته فلم يسمعوا لصوت الحقيقة المنبعث من مواطن القبائل اليمنية التي لم تصل إليها الدعوة النضالية فضلاً عن الحماس لها ولروحها المستعرة التي كانت لا تتجاوز بعض المجموعات من الشباب والطلاب والضباط في صنعاء وذمار وإبّ وتعز، وهنا حماس زاد في إشعاله الفضيل، وقد تمكن من ذلك لاحتضان ولي العهد أحمد له، فقد وصل تعز فاستقبله أحمد وأعجب به و بدعوته الإصلاحية الإسلامية وأسلوبه في الخطابة والمحاضرة والمحادثة وفي تعز اتصل الفضيل بالقاضي عبدالرحمن الإرياني والسيد زيد الموشكي والسيد أحمد الشامي وأمثالهم وتبادلوا النظريات و به ارتبط السيد أحمد الشامي ولازمه في تجواله وتأثر كل منهما بالآخر وفي صنعاء قام الفضيل بنشاطه الثوري يرافقه المؤرخ المصري أحمد فخري و يساعده الشامي فيجتذبان إليهما السيد

العالم حسين بن محمد الكبسي و يتصل الثلاثة بالمطاع وغيره و يندفع الفضيل في إقامة الندوات وإلقاء المحاضرات في المدارس والمساجد والحفلات فتسري روحه إلى الشباب والضباط وطلاب المدارس ولقد بلغ الحماس بصنعاء ذروته أوائل العام السابع والستين وحوّل الجو بصنعاء إلى درجة من التوتر أصبح الإمام يحيى وأتباعه وهم يحسون بأن حولهم ثورة ستنفجر، فراحوا يتحسسون ليضعوا أيديهم على مواطنها، و بدأوا باعتقال بعض الشباب والضباط وطلاب المدارس وكلما 'ولوا إيقاف الفضيل وإخراجه من اليمن ومد أيديهم إلى الملتفين حوله أرجعهم القدر وتدخل ولي العهد وتوصياته بالفضيل ودفاع السيد حسين الكبسي عنه فقد كان الكبسي محل ثقة الإمام ونجليه الحسن والحسين وكانت الثورة تبدو كأنها تطرق الأبواب وهنا يتدارس الكبسي وأمثاله حول الوضع الحقيقي لليمن فيقررون افتقار الثورة إلى عناصر النجاح ما لم تدعمها القبائل، ولا سبيل إلى كسب القبائل عن طريق التوعية والمنظمات فالوقت أضيق من السير في هذا الطريق الطويل ومن هنا يأتي الأمير عبدالله الوزير إلى الإمامة مع رجالات الدستور المنصوص عليهم في الميثاق المقدس.

الإمام عبدالله بن أحمد الوزير:

كيف اختير عبدالله الوزير للإمامة؟

كانت أفكار رؤساء المنظمات بما فيها الجماعات العسكرية، تهدف إلى إقامة حكومة شعبية شوروية (أي ديمقراطية) ليس عليها ملك ولا إمام متحكم بل حكومة لها مجلس أعلى، (أو رئيس جمهورية). وكانت الطريق إلى إقامة هذه الحكومة في هذا النظام عن تهيئة الشمال بالتوعية لقبول هذا النظام غير المألوف، ولكن حدث ما أشرنا إليه من التوتر وإحساس الإمام بالخطر، وارتفعت درجة حرارة الثورة في شبابنا بصنعاء فراحوا يوزعون النشرات المطبوعة يتهددون كل من يقف بفكره أو بكلامه فضلاً عن عمله في طريق الثورة وإنهاء أسرة حميد الدين، وقد بلغ الحماس بهم و بنا إلى هذه الذروة، ولم يقف من هم دوننا شبابا معنا على هذه الذروة بل تجاوزها إلى تفجير القنابل والألغام والطلقات النارية هنا وهناك ويمثل هذه المجموعة من الشباب المتطرف حسن بن حسن العمري وعبدالقادر ابن محمد وحسين المقبلي والسيد محمد بن أحمد عبدالرحمن الشامي والسيد عبدالوهاب بن محمد الشامي وعلي العتمي وعلى البوني وعبد الملك الطيب ويحيى المطاع، ولعل أغرب ما كان في حركتهم وحمى ثورتهم أنهم أصبحوا يوزعون المنشورات التهديدية في غلافات تجمع بين المنشور ودستة من العيارات ومعابر الجرمل والمسدس، هذا الوضع أرغم المفكرين العالمين بالحقيقة وبأن هذا الحماس لا يتجاوز شباب المدن على اعتماد خطة علّها تمكنهم من أن يتغدوا بالإمام يحيى و ولي العهد أحمد قبل أن يتعشيا بهم.

و بعد دراسة سريعة متعمقة قرروا أنه لم يبق متسع لكسب قبائل الشمال بالتوعية فإن الإمام سيسبق الوقت بضربه رجال المنظمات فهو في طريق اكتشاف شخصياتهم المستترة داخل اليمن المتوكلية فلم يبق خيار للمفكرين إلا أحد أمرين الفرار إلى عدن والخارج قبل أن يطيروا إلى الرفيق الأعلى ولكن الفرار من الجحيم الذي أضرموه وإن كفل لهم السلامة فإنه يبقى خطة جبن وخيانة لشعب

وقضية ، فلنبق إذن في أتون الجحيم لعلنا نحوله لليمن برداً وسلاماً وإلى جلادي الشعب إعصاراً من نار لا تذر من طاغ وطغيان إلا جعلته كالرميم ، ولكن على أي جنب نضطجع في هذا التوتر الملتهب ، والقبائل اليمنية المسلحة ليست بأيدينا .

«وكل ما بأيدينا مجموعات من مفكري الشباب ومثقفي الشباب ومتطرفي الشباب المعدودين في المدن مع قلة من الطلاب يقودهم حسين المقبلي بالإضافة إلى مجموعة من المحرومين الذين لايظهرون إذا جد الجد وصياح في المنشورات والصحافة الخارجية ، إذاً لم يبق من مندوحة إلا اجتذاب القبائل عن طريق حكم إمامي يكون مؤقتا ، ويمثل دور انتقال من حكم الإمامة الزيدية ، إلى الحكم الشعبي ، و يشتد النقاش و ينتهي بالأخذ على مضض بهذا الدور الانتقالي» .

«هناك شخصيات من غير بيت حميد الدين لها مقامها بين القبائل وهذه الشخصيات هي الأمير عبدالله الوزير والأمير علي الوزير والأمير علي بن حمود شرف الدين وأقوى الثلاثة وأجمعهم لشروط الإمامة الزيدية التي من شروطها سلامة الحواس الظاهرة والباطنة هو عبدالله الوزير فليختر إماما ، ولتتخذ كل الحيطة منعاً لتحول حكمه إلى الاستبداد والطغيان الفردي» .

«وهكذا جاء الأمير عبدالله الوزير إلى قمة الحكم ، وجاءت الإمامة بدل الحكم الشعبي الذي كان هدف النضال وجاء معظم رجال الحكومة المنصوص عليهم من الميثاق المقدس ، ومع هذا فلم يكن إقناع عبدالله الوزير بقيادة الثورة وتفجيرها بالأمر السهل ، لايقنعه الترغيب في القيام بهذا الواجب مادام يشعر أنه في مأمن من الإمام يحيى وها هي الثورة تحثّ خطاها نحو خنق رجالها قبل مولدها أو نحو يوم اندلاعها قبل أن تُهيأ لها الظروف ، فلم يبق إلا أن يدفع عبدالله الوزير الذي قبل ترشيحه للإمامة إلى قيادة الثورة والتعجيل في ذلك تخوفاً من الإمام يحيى وأبنائه وتخوف الإمام وأبنائه من عبدالله الوزير» .

المخاوف تقنع الوزير:

« تمكن الفضيل والكبسي والمطاع ورفاقهم من إثارة التخوف إلى درجة دفعت كلا من الإمام يحيى وأولاده وعبدالله الوزير إلى أن يعد العدة ليتخلص من الآخر وكان للشهيدين السيد محمد بن حسين عبدالقادر والحاج عزيز المطري نصيب الأسد في تسليط المخاوف على عبدالله الوزير، كما كان للكبسي والشامي والشماحي الأثر الكبير في إثارة مخاوف الإمام يحيى و بعض بنيه فاقتنع الوزير بتوليه قيادة الثورة والاستعداد لتفجيرها فقوى علاقته بالفضيل ومن يتصل به وفتح لهم داره لعقد الاجتماعات ووضع المخططات واتصل بمن يثق به من أعيان القبائل الموالية له ليكونوا على استعداد للساعة المطلوبة ، وتمكن من استمالة القاضي عبدالله العمري والسيد حسين عبدالقادر إلى وجوب التخلص من أولاد الإمام وولي العهد أحمد وخطرهم الذي سحق معنويات العمري والوزير وحسين عبدالقادر وأعوانهم والذي سيسحق شخصياتهم في المستقبل العاجل ، إلى ما هناك مما جعل العمري يعمل في كتمان لصالح الوزير»

«وراح الإمام يحيى و بنوه يفكرون في توجيه ضربة يهوى معولها أولاً على عبدالله الوزير واعتقاله مع الأمير علي الوزير و بعض الشخصيات.

ولهذا راح الإمام يحيى يجمع الوثائق لإدانة عبدالله الوزير واعتقاله مع علي الوزير، وقد تم العثور على هذه الوثائق في صندوق اليد الفولاذي الذي كان الإمام يحيى لا يفارقه لاحتفاظه فيه بمفاتيح كنوز الإمام وخواتمه التي تحمل اسمه ويمهر بها القرارات والاتفاقيات والرسائل والأوامر، مع مذكراته المالية الدقيقة المبين فيها كل ما تحتويه خزائنه من ذهب وفضة وحبوب وأسلحة ومجوهرات ومقدار واردات كل لواء وقضاء وصادرات و بيان ما هو خاص به وما هو خاص ببيت المال. إن وضع الوثائق في هذا الصندوق الهام يدل على أنه كان في طريق تعجيل الضربة للوزير وأنه كان يحسب لاعتقال الوزير حسابه سيما من جهة الملك عبدالعزيز وخوف تدخله إلى جانب الوزير ولو بالضغط على الإمام لإطلاقه من الاعتقال، إلى هذه الدرجة بلغت الحالة بين الإمام والوزير وأوجبت أن تتخذ المنظمات معها خطوة يتطلبها الموقف فكان الاتصال بين قادة المنظمات والبنا لتوحيد العمل»

الاتصالات والميثاق المقدس:

«عندما بلغ الموقف هذه الدرجة راح الفضيل والمطاع والوزير والكبسي ورفاقهم يضعون الخطط و يتصلون في صنعاء بالرئيس العسكري العراقي جمال جميل وغيره، وذهبت رسلهم تحمل المعلومات من تعز إلى الزبيري ونعمان بعدن وإلى البنا بالقاهرة وانتهت الاتصالات بالموافقة على أن يكون الوزير إماماً دستورياً، على رأسَ حكومة دستورية وفعلاً شكلت الحكومة ونص على أعضائها و وضع لها دستور سمي الميثاق الوطني المقدس، اشترك في وضعه الفضيل والكبسي وغيرهما وكتبه السيد أحمد بن محمد الشامي وأرسلت منه نسخة بخط الشامي إلى الزبيري والنعمان ليطبع منه عدد كبير يحفظ هناك في سرية إلى الوقت المناسب لإعلان الثورة، وطبع الميثاق واحتفظ بكل الأعداد ولكن السرية لم يحتفظ بها».

[ص: ٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠ من كتاب «ثورة ١٩٤٨م»].

انتهى ما كتبه المؤرخ القاضي عبدالله الشماحي وقد أورده وفصله أيضاً في كتابه القيّم «اليمن» وقد سبق القول أنه قد ذكر فيه أموراً لا أقرها ولا أنفيها «وفوق كل ذي علم عليم».

وأما القاضي العلامة الرئيس عبدالرحمن الإرياني فقد نقل عنه كتاب «ثورة ١٩٤٨م» ما يلي:

القاضي عبدالرحمن الإرياني
يتحدث عن ثورة ١٩٤٨م:

(أجرى المقابلة صالح الدحان)..

فيما يلي مقابلة مع القاضي عبدالرحمن الإرياني، رئيس المجلس الجمهوري تحدث فيها عن ثورة ١٩٤٨م وعن تقييمه لها ولحدث ١٩٥٥م وأسباب فشلها وفيما يلي نص الأسئلة المقدمة من مجلة «الحكمة» والرد عليها:

س ـ ما هو تقييمكم للحدث اليمني في ١٧/ ٢/ ١٩٤٨م؟ هل كان ثورة أم إنقلاباً، وهلا تكرمتم ـ تفادياً للبلبلة الناجمة عن ضياع الوقائع التاريخية لهذه المناسبة وعدم إلمام الجيل الحالي بها ـ أن تعطوا قراء «الحكمة» صورة عنها؟

ج ـ تقييم حدث تاريخي كثورة ٤٨ لابد وأن يتسم بالموضوعية النزيهة والصدق الكامل، حيث لا يجوز أن تظل أحكامنا أسيرة للبطانة الوجدانية الزاخرة لدى الرعيل الأول، ولا للطموحات الجديدة لدى شباب الجيل المشفوعة بضآلة الإلمام المفصل بالظروف الموضوعية القائمة حينها، وبتفصيلات الحادث نفسه.

وأحب أن أشير إلى أن الدلائل الاصطلاحية لكلمتي (ثورة) و(انقلاب) قد ابتعدت كثيراً عن دلالتها الأساسية اللغوية فكلمة ثورة تشير إلى الممارسة الاستثنائية دون أن تشير ضرورة إلى النتائج المترتبة عليها ومدى جذريتها، بينما كلمة انقلاب تشير مباشرة إلى جذرية النتائج المترتبة دون أن توحي بالطابع الخاص للممارسة وإذا التزمنا الدلالة الاصطلاحية الراهنة للكلمة فإننا نستطيع أن نجزم بأن حادث ١٩٤٨ كان ثورة. وذلك للأسباب التالية:

أولاً ـ أنها وإن لم تغير نمط الحكم إذ استبدلت إماماً بإمام (وهذا ما يدفع البعض إلى اعتبارها مجرد انقلاب) إلا أنها ـ وهو الأهم ـ قد غيرت الأساس الايديولوجي للحكم من أساس فردي كهنوتي.. إلى أساس دستوري شوروي و بطبيعة الحال فإن الفارق الجوهري والهائل بين الأساسين يجعلنا ندرك أننا إزاء ثورة وليس مجرد انقلاب.

ثانياً ـ أن تركيب القوى التي قامت بالثورة وما كان يحتويه من متناقضات وتباين في المواقف كان يرمز إلى احتمالات واسعة لتطورات كثيرة من شأنها تعميق هوية الثورة لو قدر لها النجاح.

ثالثاً ـ إذا كان المقياس الأول لموضوعية التحليل التاريخي هو ربط الحدث بالظروف الموضوعية فإن الالتزام بمثل هذا المقياس يجعل الهوية الثورية لذلك الحدث أكثر وضوحاً على ضوء الظروف القائمة حينها.. وأعتقد أنه من الظلم وعدم الموضوعية أن ننظر إلى ذلك الحدث على ضوء الظروف القائمة اليوم.

أما بالنسبة للشق الثاني من السؤال فإنه من المؤسف حقاً أن تاريخنا الحديث لم يزل حتى اليوم دون تسجيل أمين.. وذلك يزيد من صعوبة إعطاء أية صورة سريعة عن تلك الأحداث لأنها لابد وأن تظل ناقصة ومشوهة وغير كافية.

لقد بدأت حركة الأحرار اليمنيين كمعارضة ذات طموحات تقدمية (بمفهوم ذلك العصر) آملة في البداية تصحيح مسارات الحكم ثم مارست تدريجياً وبمؤثرات مختلفة عملية الافتراق عن الحكم وذلك من خلال المزيد من التبلور لخطها السياسي وطموحاتها الوطنية، حتى وصل في النهاية إلى الإعداد والتنفيذ للثورة وقتل الإمام يحيى واستلام مقاليد الحكم.

س ــ ما هي الأسباب الرئيسية لذلك الفشل؟ هل كانت هذه الأسباب داخلية المصدر أم داخلية ــ خارجية معاً؟

جـ ــ لاشك أن الالتجاء إلى سبب وحيد لتفسير أي حدث كان فيه نوع من القسر وعدم الموضوعية ومع أن سبباً معيناً قد يكون له دور أبرز من غيره إلا أنه لا يكون كافيا ما لم ينخرط في شبكة كاملة من الأسباب المتعددة التي تتضافر تأثيراتها لصناعة الحدث وثورة ٤٨ قد فشلت نتيجة لتفاعل الكثير من الأسباب التي يمكن إيجازها فيما يلي:

أولاً ــ ذاتية: ونقصد بها تلك السلبيات في حركة الأحرار سواء من حيث نوعية انتشارها، أو من حيث درجة وضوح توجهها السياسي بالنسبة للجماهير فالقلة المثقفة والوطنية التي قامت بالثورة لم تكن تملك أي وضوح لدى الجماهير.. إضافة إلى العديد من أخطاء الممارسة.

ثانياً ــ داخلية: فالكثير من الاعتبارات الداخلية والظروف الموضوعية لم تستوعب جيداً من قبل الثوار مما جعل بيت حميد الدين أكثر قدرة على تجنيد الظرف الداخلي لصالحهم.

ثالثاً ــ خارجية: لم تكن الثورة حينها تملك أي سند خارجي في حين كانت الأوضاع المحيطة وعلى امتداد العالم العربي أيضاً ترفض فكرة الثورة من حيث الأساس مما جعل ثورة ٤٨ حدثاً مفاجئاً ومرفوضاً.. ولعلنا جميعاً نذكر الدور السلبي الذي لعبته الجامعة العربية حينذاك.

س ــ هل تعتقدون أن الظروف الموضوعية يومها (١٩٤٨) حتمت على حركة الأحرار اليمانيين اللجوء إلى أسلوب استبدال إمام بإمام وما هو تفسيركم لذلك؟

جـ ــ الإجابة على هذا السؤال تكمن إلى حد كبير في الإجابتين السابقتين.. ويمكن مجدداً طرح الاعتبارات التالية:

أولاً ــ أن النقطة الجوهرية في المعارضة كانت تكمن في أساس الحكم وجعله دستورياً شورياً.. وحينها لم يكن هناك أي تبشير بفكرة الجمهورية لا يمنياً ولا عربيا.

ثانياً ــ أن الممارسة السياسية للأحرار لم تكن تملك القدرة على التبشير الجماهيري بفكرة الجمهورية مما جعلها عاجزة عن التصادم مع القيمة الدينية لموضوع الإمامة، انظر كتاب «ثورة ١٩٤٨م ص: ٤٦٣ ــ ٤٦٥».

آراء الأستاذ الزبيري:

للأستاذ محمد محمود الزبيري من الهيمنة والتأثير على جماهير الأحرار ومؤيديهم وحركتهم في الداخل والخارج ما لم يكن لغيره من الزعماء والشعراء فقد كان صوته أجهر الأصوات وأبلغها، منذ اعتقل ونفي إلى الأهنوم أوائل سنة ١٣٦١هـ / يناير سنة ١٩٤٣م، وحتى هبّت ثورة الدستور.

وله مواقف وآراء شتى، وتتفاوت بتفاوت الظروف المختلفة المتباينة التي عاناها وعاشها، مسالماً



الأستاذ «شاعر اليمن» محمد محمود الزبيري مع سيف الإسلام الحسن ابن الإمام يحيى و يبدو خلف الأستاذ الزبيري الأستاذ علي الجناتي.

ومخاصماً ومهادناً ومحارباً ، وفي وطنه ومغترباً ، وطليقاً وسجيناً وعلى من يريد أن يتحدث عنه أو ينقده ، أن يقرأ كل آثاره لكي يكون حكمه عليه أو له منصفاً وعادلاً ، وأميناً . وعلى العموم فلا يستطيع أحد أن يشكك في نبوغه وعبقريته ، ولا في إخلاصه لله والوطن ، ولا في نزاهته وحيوية ضميره ، ومحاولته أن يجتهد في عمل ما يعتقده نافعاً لدينه وأمّته ، منذ غادر اليمن مع كافله الأمير علي بن عبدالله الوزير وابنه عبدالله بن علي لأداء فريضة الحج سنة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م ومدح الملك عبدالعزيز آل سعود بقصيدته القافية :

قلب الجزيرة في يمينك يخفق   وهـوى العروبة من جبينك يشـرق

وعرّض فيها بما أزعج الإمام يحيى حميد الدين وأبنه سيف الإسلام أحمد وغيرهما ، إلى أن ذهب إلى مصر للدراسة مع زميله عبدالله بن علي الوزير، وكان له فيها نشاط أدبي وسياسي وقوّى علاقته بالإمام حسن البنا والسيد الفضيل الورتلاني وأقطاب «الاخوان المسلمين» وحتى عاد إلى اليمن في منتصف سنة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٢ م وحاول تأليف « هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وانتهى الأمر إلى اعتقاله ونفيه مع زميله محمد أبوطالب إلى « جبل الاهنوم» في نفس العام حيث ظلّ حوالي عام يتضرع و يتشفع إلى الإمام يحيى وابنه و ولي عهده أحمد بقصائده المشهورة حتى أطلق سراحه ،وانضم إلى كتبة ديوان « ولي العهد» بتعز ومدحه وأطراه ، ولُقّب بشاعر اليمن وتوثّقت عرى الودّ والصداقة بيني و بينه والسيّد زيد الموشكي والأستاذ أحمد نعمان حتى هاجرنا إلى « عدن» وشكّلنا « حزب الأحرار» ، وكان ما كان مما سبق تفصيله ، وشرح وجهة نظري فيه ، ومن الإنصاف أن أذكر ما يخالف ، أو يوافق ، وجهة نظري من آراء الزميل الشهيد رحمه الله والزميل الأستاذ أحمد نعمان أطال الله عمره ، وأما الرفيق الشهيد زيد بن علي الموشكي فقد سبق الجميع إلى دار الخلود بهمومه وأسراره .

والذي يهمّني الآن أن أنقل أو أقتبس بعض ما كتبه أو قاله عن نفس الفترة التي تحدّثت عنها ، وعن حركة الأحرار وتكوينها وتقييمه لها .. وعن ثورة الدستور وأسباب فشلها مما ورد في كتاب معهد الدراسات والبحوث اليمني ، أو مِمّا في حوزتي من رسائله بخط يده؛ فهو يقول عن « حركة الأحرار» :

«وقد بقي سؤال آخر في الصميم هو:

هل الشعب كان يقبل من الشباب أن يتهوروا و يتطاولوا أو يتخذوا شعور الإمام يحيى من بداية التجربة .. ؟ أم كان الشعب يريد الإصرار على الترفق والتأدب مع السلطة الروحية والزمنية .. ؟

الذي أجزم به أن الشعب لم يكن يطيق أية قسوة على الإمام بقول أو عمل وكان يعتبرها طيشاً و ينفر منها أشد النفور بل ولم يكن يرى لها في حياته مبرراً ، في حين كان شعر المدائح والاستعطاف والتشجيع يلقى استحساناً عاماً من المواطنين .

أما نحن فلم نكن إلا جزءاً من الشعب وصدى من أصدائه ، ومحاولة من محاولاته البدائية في سبيل النمو والتطور» .

«وأنا أذكر أن قصيدتي في استعطاف الإمام والشكوى من أهوال السجن انتشرت في صفوف الشعب انتشاراً سريعاً، قبل أن تصل النسخة المرسلة إلى الإمام، وأنها أحدثت أثراً عاطفياً في صالح الأحرار المعتقلين، وحسنت نظرة الشعب إليهم وهيأت الشعب لنقد تصرفات الإمام، ورغم أنه كان فيها استعطاف ومدح للإمام يحيى فقد كانت تنطوي على وصف لآلام السجن قصدت به تسجيل هذه الحقيقة تاريخياً في صورة ضراعة واسترحام، على قدر ما كانت تلهمنا الظروف يومئذ.

وكنت أرى أني بذلك الوصف الرقيق الحزين، وان جعلته موجهاً إلى الإمام فهو يستدر عطف الشعب كنتيجة طبيعية للوصف الشاعري المؤثر، كما كنت أرى أن الشعب في هذه المرحلة من حياته يمكن التأثير عليه من الناحية العاطفية البسيطة دون الجانب العقلي الذي لم يبلغ فيه رشده يومئذ.

ومن جهة أخرى فإن المبالغات في المدح والشكوى والاستعطاف البسيطة تقدم إلى الأجيال صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين الذين أوقعتهم الأقدار تحت رحمته فاضطرهم بقسوته واستبداده ومنطقه المتأله إلى أن يمدحوه ذلك المدح الذي يتحول بطبيعته إلى لون رمزي من ألوان الهجاء. [ص: ٥٧ ثورة ٤٨]».

و يقول عن الإمام أحمد ولي العهد حينذاك:

«ولكننا في عام ١٣٦١هـ [١٩٤٣م] كنا نرى في هذا الرجل بطلاً، في وقت كنا نحن وشعبنا في أشد العجز عن خلق الأ بطال وصنع البطولات».

«كان ولي العهد أحمد رمز الأمل ومناط الرجاء في القضاء على أسباب الفساد المعروف عن حاشية الإمام يحيى. وكان رجال هذه الحاشية يرتعدون من المستقبل كلما تذكروا «أحمد» حتى لقد أرسل عصابة من رجاله وحرسه، فأحرقوا قصر أحد رجال الحاشية بعدما اشتد تذمر الناس منه وهو السيد «علي لطفي»».

«ومن جهة أخرى فهو البطل الأسطوري فيما كانت تزعم له البلاد كلها من مواقف بطولية خيالية في حروب عديدة، ومن ثم كانت الأنظار تتجه إلى بطولته كلما تذكر الناس الجنوب اليمني المحتل وحاجتهم إلى بطل يحرره من الاحتلال الإنجليزي»

«في هذا الجو بالذات، انتقلتُ، بعد خيبة الأمل من صنعاء الإمام يحيى إلى تعز ابنه أحمد ولي العهد البطل المؤمل المرموق».

«ولقد وجدنا في هذا الرجل العجيب فعلا ما يخدع وما يغش وما يذهل، وتعاظمت في أنظارنا ظواهر تصرفاته ومطامح شخصيته وألغاز تصريحاته الرمزية، التي توحي بالتذمر من رجعية أبيه، وفساد حكمه.

لقد استطاع هذا الرجل الممثل الداهية أن يجعل البلاد تعيش ـــ من ألاعيبه ـــ في مسرحية مبرمة فصولها، محكمة أدوارها، فهو يغضب من أبيه، و يثور، و يبكي أحياناً، و يتوعد أحياناً، وانه ليتأوه على السجناء الشباب حتى كأنه أخ لهم حميم! وكان يقوم بدور إطلاق سراحهم، وتأمين ساحتهم،

ومطارحتهم الأفكار والأشعار في مجالسه، في تواضع وانطلاق وتحرر» .

«وعلى هذا الأساس قدّمت إليه عصارة غالبية شعري، أنفخ فيه روح الطموح والبطولة، وأمنحه حماس الثقة، وأحركه بأحلام الشعر وأشواق المجد، بل وأحلم بأنه قد أصبح بطلاً في دنيا فني وعالم خيالي، ولم يكن ذلك لأني أطلب منصباً، أو مغنماً شخصياً، فلم أتقلد منصبا، ولم أقبل وظيفة، ولم أكسب منه مالاً، وإنما أتلمس لبلادي منطلقاً لمجد، وسبيلاً، لتطور وإصلاح [ص ٥٨ــ ٥٩ــ ٦٠]».

وقال عن ثورة ٤٨ ما يلي :

«وظهرت المرحلة الرابعة في أول حركة منظمة ثورية علنية في أخريات الحرب العالمية الثانية وكان أبرع ما في هذه الحركة جرأتها على مواجهة الطغيان المقدس وجها لوجه بإصرار وثبات ثم قدرتها على تجميع كل المستويات العالية من القوى الشعبية ذات الميول المختلفة بحيث أصبحت كلها ــ حتى شطر كبير من الأسرة الحاكمة ــ تعتبر حركة الأحرار في صالحها جميعاً، وقد أسفرت هذه المرحلة عن ثورة عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م».

«وسرعان ما انتكست هذه الثورة وكان السبب الرئيسي الضخم في هذه النكسة أنه رغم التفاهم بين المستويات القيادية فقد ظلت القاعدة الشعبية في القبائل ــ رغم تذمرها ــ جاهلة لأهداف هذه الحركة، وعاجزة عن فهمها والتفاعل معها، فاستطاعت فلول الرجعية الحاكمة أن تستغل القاعدة الشعبية بين القبائل وتثيرها ضد الثورة، غير أن هزيمة ثورة ٤٨ كانت هي الوسيلة العجيبة الفعالة التي نشرت فكرة الثورة على أوسع نطاق وهبطت بها من المستويات القيادية العالية إلى القاعدة الشعبية تماماً كما فعل الإسلام بالتتار الذين حطموا الإمبراطورية الإسلامية ثم انهزم طغيانهم روحياً فاعتنقوا الإسلام فأصبحوا هم قوته الكبرى [ص: ٦١ نفس المصدر] » .

واستطرد إلى ذكر بعض أخطاء الأحرار التي أدّت إلى فشل الثورة، بل وتمزّقهم في « عدن» مما أدى إلى عودة معظمهم كما شرحت سابقاً فقال :

الخطأ الأول

« كانت مهمة الأحرار الطبيعية ألا يأخذوا آراءهم من الكتب والصحف أخذاً مقلداً محاكياً وألا يواجهوا الشعب بالأفكار الحديثة بل يتناولوا فكرة الألم في نفوس الجماهير فينقذوها من الحيرة والغموض و يوجهوها إلى الطريق السوي و يعيشوا مجتمع القبائل والمزارعين و يلقحوا آلامهم بالمعتقدات الوراثية التي تنكر الظلم وتفرض على المرء أن يدافع عن نفسه وعن جماعته وأن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر مهما تحمل في ذلك من المشاق والمتاعب، وحينئذ سيلتقون مع الشعب لقاء سريعاً وسيضعون أيديهم على طاقاته الروحية الهائلة، كما فعل الإمام يحيى حينما حارب الأتراك واستعان بالنزعة الدينية والنخوة العربية، بل وكما فعل ابنه الإمام أحمد حينما أثار الجماهير القبلية ضد سكان المدن ونجح نجاحاً ساحقاً» .

«إن الآراء الحديثة إنما يكون لها سلطان على نفوس الشعوب الراقية التي أصبحت تلك الآراء في أعماقها مزاجاً عقلياً وراثياً، أما نحن الشرقيين فلازلنا في حاجة إلى الاستعانة بطاقاتنا الروحية الوراثية لتكون دافعة لنا إلى التضحية والتسامي ونكران الذات وخلق مجتمع أفضل. نعم، لقد كانت مهمة الأحرار أن ينتزعوا توجيههم ودعايتهم من روح الشعب غير أنهم لم يفعلوا ذلك فظهروا أول ما ظهروا على الناس بأفكار جديدة كل الجدة وفي الوقت نفسه معارضة للحكومة فمكنوا بذلك الإمام يحيى من أن يذيع على الشعب أن هؤلاء الشباب كفرة ملاحدة وأنهم يريدون أن يختصروا القرآن وأنهم وأنهم الخ».

«ولقد استطاع الإمام يحيى أن يعتقل الرعيل الأول من هؤلاء الأحرار وأن ينكل بهم تنكيلاً و بسهولة و يسر واستطاع أن يحمل الشعب على التحمس ضد أولئك الشبان والنفور منهم إلى حد كبير».

وهذا هو الخطأ الأول للرعيل الأول [ص: ٨٠ـ نفس المصدر].

وأسهب في شرح الخطأ الثاني وقال:

«إذا استعرضنا تاريخ الإمام يحيى والإمام أحمد وجدنا أن من أسرار قوتهما ونفوذهما و بقائهما في الحكم مقدرتهما الهائلة على التمثيل والخداع واللعب بعواطف اليمنيين والسخرية بعقولهم لا السجون ولا السيوف ولا الخناجر ومن قال غير ذلك فهولا يعرف هذه المملكة المتوكلية ولا يعرف تاريخها الحقيقي مع الشعب».

«وقد تفاهم مع والده الإمام يحيى أن يكون أحدهما للبأس والعنف والقسوة والقنوط على أن يمثل الآخر دور الشاب المضطرب المظلوم المكبوت، وأن يجعل من نفسه ملاذاً للأحرار ومناصراً لآمالهم، وظل (ولي العهد) الإمام أحمد يجمع حواليه الأدباء المتنورين و يوحي إليهم بأنه رجل المستقبل ونقطة التحول في حياة اليمن وكانت كلما تقدمت مقترحات لإصلاح الوضع وضع يده على صدره وقال: أنا لها ولكن.. بعد الخلاص من هذا العهد، بل لقد بلغ به الإغراق في التمثيل إلى حد أن يحرض الناقمين ضد أبيه ويحبذ كل عمل لمناوأته، و يقبل أن يبايعه الناس ملكاً وإماماً خليفة في منطقة اللواء التعزي حتى لكأنها دولة منفصلة».

«ولقد اندفع الشعراء في صياغة هذه الآمال الحلوة وتمجيد البطولة المنتظرة، وانبعاث الطموح الحق في (وليّ العهد) الإمام أحمد حتى يتعشق المجد و يثق بالمتنورين والمطالبين بالإصلاح [ص: ٨١].

ثم قال عن أسباب تمزّق حزب الأحرار:

«ولقد بلغ من جزع الإمام يحيى أن بعث رسالة شخصية إلى الملك جورج السادس في لندن يشكو إليه الأحرار اليمانيين في عدن ولما كانت الفترة فترة حرب فقد استطاعت السلطات العدنية أن تمنع الأحرار من كل نشاط، وأن تحل حزب الأحرار الذي تأسس بصورة غير قانونية أي بدون أخذ إذن من السلطات أو ترخيص بقيامه، وزاد من خطورة الموقف امتناع البلاد العربية عن قبول دخول الأحرار اليمانيين إليها، وظهور ميثاق الجامعة العربية الذي أعلن عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي حكومة عربية

فأوصد كل أبواب الأمل في وجه الأحرار، وانتهز السيف أحمد ووالده هذه الفرصة فقام بحملة واسعة من الاعتقالات وسيق الأحرار في الداخل مسافات شاسعة مغلولة أعناقهم يرجمون بالأحجار، و يركلون بالأقدام، ويجلدون بالسياط».

«تأثر الأحرار في عدن بهذه العوامل المجتمعة وتزعزعت معنو ياتهم وضعفت ثقتهم بأنفسهم، وفي مثل هذه الفترات التي تعرض للجماعات تسود الكآبة أفرادها، وتسوء العلاقات فيما بينهم، و يأخذ كل منهم في عتاب الآخر ولومه وسوء الظن به».

«والأمر الخطير في حياة اليمنيين أنهم ألفوا في الداخل أن يرتبطوا بالدولة ارتباطاً كلياً، و يعولوا عليها لأن الدولة نفسها تأخذ كل شيء بيدها، وتحول بين اليمنيين و بين فرص الحياة؛ فلما انتقل الأحرار إلى عدن بقي في النفوس شيء من هذه الرواسب فانتقل التعو يل والاتجاه من شخصية الدولة إلى شخصية الحزب واتجه الا تكال كله إلى الحزب مع العلم بضعف طاقات الحزب وإمكانياته، الأمر الذي لا يخوله تحقيق أي وسيلة من الوسائل التي يتطلبها الأحرار، وتقتضيها حركتهم لا سيما في بداية عهد الأحرار، وخطأ الأحرار هنا أنهم في فترة هذاالظلام أخذوا يتطاحنون فيما بينهم، وأصبحوا زو بعة في فنجان لأنهم لم يفهموا طبيعة موقفهم فهماً صحيحاً، ولم يدركوا ضحالة إمكانياتهم، و بدلا من أن يعالجوا هذه الإمكانيات اندفعوا يفسدون منها بالجدال والنقاش.. وفي هذا الوقت بالذات، و بعد أن حدد نشاط الأحرار بعث السيف أحمد مندو بين عنه يتوسطان بينه و بين الأحرار و يعرضان صلحاً، وقد انقسم الأحرار إلى فريقين».

«فريق يرى ضرورة التمسك بالموقف واليأس من الحكومة، واستمرار النضال، وإذاكان لابد من مفاوضة في شأن مطالب الأحرار فلتكن المفاوضة ولكن دون الرجوع إلى اليمن».

«وفريق يرى أن الأحوال سيئة في عدن، وأن الأ بواب موصدة في وجه الأحرار حتى في البلاد العربية فلا بأس من المفاوضة ولا بأس من الدخول إلى اليمن لتقديم المطالب إلى السيف أحمد بعد أخذ العهود والمواثيق على سلامة الأحرار المفاوضين وحريتهم في العودة، إلى عدن إذا لم يتم الا تفاق بينهم و بين السيف أحمد».

«وتمسك كل فريق برأيه: الفريق الأ ول صمم على البقاء في عدن؛ والفريق الثاني صمم على السفر إلى تعز ليقدم المطالب الوطنية للأحرار».

«وكانت النتيجة أن الذين سافروا إلى تعز وجدوا أنفسهم أسارى تحيط بهم الأغلال، وتبخرت المطالب الوطنية ورفض السيف أحمد عودتهم إلى عدن كما رفض أن يجيب مطالبهم، أو يفي بالعهود والمواثيق، وقد نجا هؤلاء الأحرار من البطش إلى حين وتولوا بعض المناصب.. فلما قامت الحركة الدستورية عام ١٩٤٨م قطعت رؤوس الكثيرين منهم».

«نستطيع بما أسلفنا من حديث عن الأحرار في عدن أن نتبين على ضوء التجارب الواضحة أن خطأ

«الأحرار في هذه الفترة يتلخص في أمرين :

الأول : خلق هوة بينهم و بين القاعدة الشعبية في عدن .

الثاني : أنهم لم يعتمدوا على الكفاح الشاق بل ظلوا ينتظرون عون الأحرار التجار قبل أن يؤمن هؤلاء التجار إيماناً قوياً بالقضية اليمنية » .

« نعم ، إنهم خلقوا هوة بينهم و بين القاعدة الشعبية في عدن وفي غيرها من المهاجر فقد بدأوا جهادهم بما كان ينبغي أن يكون النهاية فهاجوا أصناماً كانت لا تزال لها قدسيتها عند العامة ، فتحدوا بذلك شعورها وصعب عليهم بعد ذلك أن يحدثوا في عقليتها أثراً سريعاً ؛ بل صعب عليهم مجرد الاتصال بها » .

«لقد كانت الجماهير كما أسلفنا ، متألمة يعمها السخط والاستياء وكانت فاجعة الشعب عظيمة تصلح أن تكون وقوداً لأكثر من ثورة ، وأن تكون معولاً جباراً يهدم أكثر من دولة ؛ غير أن الأحرار أخطأوا في التدرج بعقلية الجماهير، ففقدوا بذلك قاعدتهم الشعبية »[ص ٩٤] «ثورة ٤٨ » .

«وكان هناك في الموظفين فريق ثالث يستريح إلى الحركة ويحرص عليها في السر كي يستفيد منها و يستغل قلق السلطات العليا على أنه لا يتردد في أن يحارب الحركة ويخونها و يغدر بأصحابها » .

«وأذكر على سبيل المثال أن الأحرار حينما قدموا لأول مرة إلى عدن وجدوا هناك مندوب السيف أحمد القاضي حسين الحلالي وأعلنوا إليه موقفهم كمعارضين ومناضلين فلم يستطع هذا الرجل الحكومي الكبير أن يخفي بهجته بهذا الحدث وأخذ صحيفة كانت في يده وبها خطاب حماسي رائع للزعيم الإيراني الطباطبائي وفي هذا الخطاب إثارة للأحقاد المقدسة ضد الطغيان الاستعماري وعلقت الصحيفة على الخطيب وأثنت عليه وقالت إنه رجل الساعة في إيران ، وأخذ الحلالي يشير إلى مواطن الإثارة في هذا الموضوع و يقول موجهاً خطابه إلى بعض الأحرار اليمانيين : «إن اليمن في حاجة إلى رجال من هذا الطراز فهل فيكم يا شباب من يحتل هذا المركز؟» ... هكذا كان ارتياح الحلالي وأمثاله للحركة ولكنهم من جهة أخرى كانوا يطعنونها في الصميم وسوف نذكر فيما بعد ما كان لهذا الحلالي من يد آثمة ضد الثورة اليمنية ؛ هذا بالنسبة إلى فريق الموظفين الانتهازيين أما بالنسبة إلى الموظفين المتفرجين والمحايدين فإنهم بالرغم من أنهم كانوا يكسبون الثروات الطائلة بسبب قلق الطغيان واضطراره لكسبهم ومداراتهم فإنه لم يخطر في بال أحد منهم أن يساعد الحركة الحرة بشيء من ماله رغم أن هؤلاء المحايدين كانوا يشعرون بفائدة قيام هذه الحركة وأهميتها بالنسبة إليهم وإلى الشعب كله مما يدل دلالة واضحة على أن فكرة الأحرار التي كانت ترمي إلى كسب هذه الطبقة كانت فكرة لم يكتب لها التوفيق » .

« أما الشق الثاني من الخطأ الذي وقع فيه الأحرار فهو أنهم لم يعتمدوا على النضال الشاق فقد كان فيهم من لا يعرف الحياة في الخارج ، وخرج من اليمن وهو يحلم بحياة سهلة هينة لينة أضف إلى ذلك ، أنه خرج من مناطق في اليمن باردة أو معتدلة الطقس وخرج وهو يملك بيتا وعائلة و وسائل كثيرة من وسائل الاستقرار فإذا به يفاجأ بحياة تشبه الجحيم في عدن حرارة شديدة قاتلة ، واستحالة في العثور على

مسكن وصعوبة شديدة في تأمين المعيشة ومجتمع جديد لم يعرفه ولم يألفه »[ص ٩٦ نفس المصدر] .

«وبعد، فلو استطاع الأحرار أن يتجنبوا هذا الخطأ وأن يكسبوا قاعدة شعبية في عدن لأصبحت هذه القاعدة قوة كبيرة في جانب الفكرة الوطنية، قوة مادية تمون الحركة بقوة بشرية مجندة لتدعيم الكفاح وقوة معنوية تدفع التجار وتسوقهم إلى التضحية بأموالهم سوقاً وإذاً لاستطاع مركز الأحرار في عدن أن يمتد بالدعوة الحرة إلى القاعدة الشعبية ومركز الثقل في الداخل وإذاً لسارت ثورة الأحرار في طريق آخر وانتصرت ما من ذلك بد»[ص: ٩٧ ــ ثورة ١٩٤٨م] .

تعليق المتذكّر:

ومن هذه الأقوال، ووجهات النظر للزملاء الكرام سيعرف القارىء ويسبر مدى التزامي بصدق تصوير الأحداث كما وقعت، وسيرى أني لم أبتعد عن تقديراتهم وتصوّراتهم لمّا تحدثت عن «حركة أحرار اليمن» وأسباب نزوحهم إلى «عدن» وتشكيلهم «حزب الأحرار»، ولماذا تمزّق واختلف مؤسّسوه وعدت مع الموشكي والحكيمي ودمّاج وأبوراس والقوسي والعنسي وبقية الإخوان إلى «تعز» وتخلّف الزبيري ونعمان.

ولابد أن يدرك أيضاً أنّه لولا «العمل الإيجابي» في داخل اليمن والذي بدأ مستقلاً ومنفصلاً عن «عدن» والأحرار اليمنيين فيها بعد أن عزم بعض علماء ومشايخ ودعاة الإصلاح من أبناء اليمن على التمهيد لحركة تغيير جذريةٍ تبرز وتظهر إثر وفاة الإمام يحيى حميد الدين ــ وكان في سن الثمانين ــ لما كان ما كان. لولا أن جاء السيد الفضيل الورتلاني أثناء ذلك التمهيد للتجمع اليمني البحث المستقل المزمع حلّ مشاكل قضيته بالطرق اليمنية التقليدية، فكان لوصوله الأثر الفعال، ودخل كعنصر جديد بقوة جارفة مكتسحة ووُضِع «الميثاق الوطني المقدس» ومن أهمّ ما التقى عليه المؤتمرون اليمنيون ألا يبايعوا أيّ إمام بعد الإمام يحيى إلاّ بعد أن يوافق ويتعهد بتنفيذ كل ما ورد في ذلك الميثاق، وأن يكون أساس الحكم شوريّاً دستورياً تحقّق دولته للشعب العدالة الإجتماعية الإسلامية سياسياً وإدارياً وثقافياً واقتصادياً. مع الأخذ بكل ما يتمتع به الإنسان الحضاري من حقوق الحريةوالمساواة وسعادة الحياة وكرامتها.

وسيدرك أيضاً أن «الورتلاني» هو الذي وحّد بين أحرار اليمن في الداخل والخارج من جديد بل ووحّد بين وجهات النظر المختلفة للفئات اليمنية وزعاماتها المختلفة على أساس «الميثاق الوطني» ولولاه ــ ولولا الإشاعة الكاذبة بموت الإمام في شهر يناير سنة ١٩٤٨م/ ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ لما كان ما كان أيضاً... بل لابد أن يدرك إذا كان منصفاً يطلب معرفة الحقيقة أن الأستاذ محمد الزبيري نفسه قد عرف ما عرفته مع السيد زيد الموشكي وبقية الزملاء، وأنه كان لا يخالفنا في قرارة نفسه ولا يقرّ استبداد الزعامة الحزبية وضيق أفقها وتقوقعها في مغارة الطائفية، وأنه قد تأثر كما تأثرنا لما سمع زيد الموشكي يصرخ: «إن الاستبداد لا يحارب بالاستبداد تماماً مثل النجاسة لا تطهر بالنجاسة»؛ ولكنه ظلّ صامتاً ومحايداً لأسباب كان يراها، ربّما كان منها أن مموّلي القضيّة معظمهم من أبناء القسم

الشافعي في «تعز» وهم لا يعرفون ولا يثقون بأحد غير «الأستاذ نعمان» وربما كان منها أنّه عنيد صبور أكثر من اللازم فلا يشكو بثه وحزنه إلاّ إلى الله، وربما أنّه كان كشاعر الرسول عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت رضي الله عنه، وربما لأنه كان صوفياً مثالياً لا يبادر لمواجهة الأحداث ومقارعتها بروح القائد الشجاع والزعيم القوي الطموح، وربما أن من طبيعته اللجوء إلى المبرّرات والأعذار وسياسة «النفس الطويل» وربما كل ذلك ونحوه ممّا يستطيع دارسه ومؤرخ حياته أن يستنتجه من مواقفه المتطوّرة ومقولته المشهورة «أريد أن أموت ورأسي على جسدي».. ولو أنّ الأستاذ الزبيري لم يقف ذلك الموقف مع نعمان لتغيّرت مسيرة القضية اليمنية وتغيّر تاريخ اليمن الحديث أيضاً ولله الأمر من قبل ومن بعد.

نعم إن القارىء المنصف أو العادي الذي لا يسيّره الهوى الخاص سيدرك كل ذلك وسيعلم أنّني وزيد الموشكي، ومطيع دمّاج، وعبدالله الحكيمي، وسائر الزملاء لم نكن متعنتين ولا مرتدّين عن مبادئنا حين قررنا العودة إلى «تعز» وكنّا مضطرّين إلى أن نختلف طريقة عمل ونهج سياسة مع الأخوين اللذين تخلّفا في «عدن» ولا سيما وقد ارتبنا ـ كما أوضحت في فصل سابق ـ في موقف بريطانيا وحكومتها في عدن ونواياها بالنسبة إلى «اليمن» واستقلالها؛ كما أننا كنا قد تضايقنا ـ نحن أبناء الشمال ـ من معاملة البعض لنا و وقد كنا كما قال الأستاذ الزبيري في مذكراته نعامل «كما يعامل الشحّاذون، وننبذ كما ينبذ المشبوهونُ والمتهمون».

ثم يقول الأستاذ الزبيري:

الخطأ الرابع

مركز الثقل الذي خسره الأحرار في الداخل

«الخطأ يجر إلى الخطأ، والنجاح يؤدي إلى النجاح، ولقد كان من الطبيعي ما دامت القوة المادية والشعبية في عدن ضعيفة أن يؤدي هذا الضعف إلى العجز عن القيام بكسب بعيد عن متناول أيدي الأحرار وهو كسب القاعدة الشعبية في الداخل أو بعبارة أدق مركز الثقل هناك.

لقد أسلفنا أن التذمر كان موجوداً في كافة الجماهير الشعبية في الداخل وأن هذا التذمر هو الذي أوحى إلى الأحرار القيام بحركتهم كما أسلفنا أن هذا التذمر كان في حاجة إلى توجيه وتنظيم واتصال.

وقبل أن نذكر كيف عجز الأحرار عن القيام بواجب التوجيه، ونبين سبب هذا العجز نود أن ندلل على حقيقة هذا التذمر بل على حقيقة الوعي والنضج الذي كان يسود مركز الثقل في الداخل.

وإنما آثرنا عبارة مركز الثقل لأنا نريد أن نحتاط في تعبيرنا وفي نظرتنا وتقديرنا لا نود أن نقول في هذا المكان إن أغلبية الشعب الساحقة كانت تؤيد الأحرار إذ كانت متجهة حيث يتجه الأحرار لأن هذا تعبير مطاط قد نحمل معه على أنّا نسوق الكلام البرّاق جزافاً لهذا جئنا بعبارة مركز الثقل لأننا متأكدون من هذا تمام التأكد فلقد إتصل بالأحرار لاسيما بعد انضمام الأمير إبراهيم إليهم عدد من القبائل

والرؤساء يكفي للقيام بحركة ناجحة ما يمكن أن نطلق عليه عبارة مركز الثقل وقدموا العهود والمواثيق بأن يقوموا بالثورة تحت قيادة الأحرار وما كانوا يشترطون إلا أن تتقدم قيادة الأحرار إلى حدود المحميات ومعهم بعض المال والذخيرة لتموين أسلحة الثوار.

ولقد منع الأحرار من القيام بهذه الخطوة أولاً: المال، فلم يكن في أيديهم ما يكفي للخطوة الأولى وكذلك الذخيرة فلم يكن بأيديهم منها شيء... وثانياً: الناحية السياسية فلم يكن الأحرار يستطيعون أن يقدموا على هذه الخطة إلا إذا أمنوا مركزاً لهم في المحميات كقاعدة للوثبة، وهذا ما لا يمكن إلا بالتعاون مع السلطات الإنجليزية، الأمر الذي لا تقدم عليه حركة شعبية تستهدف الخلاص والتحرر.

من هذا يتبين بجلاء أن مركز الثقل وهو القوة الكافية للقيام بثورة كان من الممكن كسبه إلى جانب الأحرار كسباً تاماً.. فلماذا فات الأحرار هذا الكسب؟»".

العجز المادي علة العلل

«بعد أن امتنع الأحرار عن القيام بالتحرك إلى الحدود انقمعت عزائم القبائل، وانصرفت عن الفكرة، وانقطع الأحرار عن الاتصال بهذه القوة الشعبية الخطيرة إلا عن طريق الصحف التي كان يصدرها الأحرار والنشرات القليلة بين الحين والحين وهذا أمر لا يكفي لأن القبائل لا تقرأ ولا تكتب ولا يمكن توجيهها عن طريق الصحف فضلاً عن أن هذه الصحف لم يكن الأحرار يستطيعون أن يبعثوها إلا إلى المدن».

«كان لابد للأحرار من مالية ضخمة يمونون بها حركة الاتصال بالقبائل وكان لابد لهم من مركز ثابت في عدن يؤوي كل من لجأ من المشائخ والرؤساء وكان لابد لهم من بعثات إلى البلاد العربية تشرح قضيتهم وإلى مهاجر اليمانيين لكن الأحرار لم يكونوا يملكون هذه القوة المادية ولعلنا نكشف سراً خطيراً الآن إذا قلنا إنها مرت بالحركة وهي في أوج شهرتها أزمات مادية خطيرة أوشك الأحرار بها أن يعجزوا عن تموين المتفرغين للعمل وعن الإنفاق على سيف الحق إبراهيم لولا بطل من الأحرار تكفل بنفقة الأمير بصورة ثابتة، بل وكاد الأمر يفضي إلى إيقاف «صوت اليمن» لولا أن قامت الثورة».

«ولعل اليمنيين في عدن يذكرون جيداً أن رؤساء القبائل لاسيما في بداية أيام الحركة كثيراً ما كانوا يشاهدون في شوارع عدن والتواهي يتسكعون حائرين متألمين لا يكادون يجدون ظلا يروح عليهم و يشفي ظمأهم، وكان من هؤلاء الرؤساء الشيخ القوسي وزملاؤه من مشائخ الحدا وما جاورها وسوف تثب إلى القراء اليمنيين ذكريات لاذعة عن الشيخ القوسي وقبيلة الحدا؛ هذا الرجل الذي كان يدور بحصانه في عدن والشيخ عثمان ذاهلاً مضيعاً يعرض نفسه وقبيلته لتحقيق خلاص اليمن... هذا الرجل نفسه كان له ولقبيلته دور حاسم في حصار صنعاء وإسقاط حكومة الأحرار وترجيح كفة على كفة لماذا؟ لأن الذين يقولون إنهم يؤمنون بالحرية لا يؤمنون بالحرية وإلا لحققوا وسائلها.. لقد ظلت القضية اليمنية برجالها ومبادئها وفروعها العظيمة موضوعة أمام سمع ستين ألف يمني في عدن فكانت هذه القضية تعامل كما يعامل الشحاذون وتنبذ كما ينبذ المشبوهون المتهمون [ص: ٩٧ــ ٩٩ نفس

المصدر]» .

هذه هي الحقيقة المذهلة كما صوّرها الزبيري وهي لا تشذّ عن تصوّراتي.

موقف الأستاذ أحمد نعمان وتصوّراته:

أمّا الأستاذ النعمان فقد حدّثني بأشياء كثيرة، وقرأ عليّ فصولاً من مذكّراته، و يوجد في حوزتي شريطان مما سجّله بصوته لمندوبي الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٦٩م حكى فيهما علاقته وأسرته بآل الوزير، والإمام أحمد، والزبيري، وحركة الأحرار، واختلافاتهم وانشقاقاتهم، وأسباب نزوحه إلى عدن؛ وثورة الدستور، والإخوان المسلمين، والفضيل الورتلاني، وفي أحد هذين الشّريطين وصف حالة الأحرار في عدن إثر تكوين «الجمعية اليمنيّة الكبرى» سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ثم بعد أن انضم إليهم وتزعم الحركة الأمير سيف الحق ابراهيم ابن الإمام يحيى حميد الدين، وهو في حديثه عن الخلافات التي دارت بينه و بين أعضاء «الجمعية» لم يبتعد عن ذكر نفس الخلافات التي نشأت بيننا و بينه والتي سببت تمزق «حزب الأحرار القديم» وعودتنا إلى «تعز» ممّا يؤكد تصوّرات «الزبيري» أنّه لولا قيام «الثورة» في «صنعاء» لأغلقت «الجمعية اليمنية الكبرى» وجريدتها «صوت اليمن» أبوابهما، وربما عاد الأمير ابراهيم وصحبه إلى اليمن. وربما قامت الثورة بشكل آخر.

وقد هاجم الأستاذ نعمان سكرتير الأمير الخاص الأستاذ الشهيد أحمد البراق وقال: إنه هو الذي كان يحرّض الأمير عليه و يقول: «هذا النعمان مستبدّ وكل شيء في قبضته ولو يموت أو يُغتال لما عرف أحد منا شيئاً عن «الجمعية» وأعضائها وميزانيتها»، وأنه هو الذي دفع الأمير إلى أن يطالب كزعيم للأحرار بالاطلاع على كلّ شيء، وقال إن الزبيري نفسه «المشبع بروح الديموقراطية» قد حمل إليه طلب الأمير و بقية أعضاء الجمعية، مؤيداً لها أيضاً كما وصف الأستاذ محمد الفسيّل بأنه كان ممن «يشبّ النار»، وروى نقاشاً مثيراً دار بينه و بين الأمير ابراهيم عندما طالبه بأنه، و بصفته زعيم الأحرار يودّ التعرف بأعضاء الجمعية ورجال الحركة في الداخل والخارج، و يطلع على ميزانية «الجمعية» وأسماء المساهمين والمتبرّعين... الخ وأنه قد اكتفى بأن سأل الأمير:

— هل تثق بي؟ ولما أجابه الأمير بالإيجاب؛ قال: وإذن فلماذا؟ حسبك أني وكيلك وأمثّلك؛ ولما قال: والإخوان يريدون أن يعرفوا؛ أجاب الأستاذ: إن المساهمين والمتطوعين لا يحبّون أن يشكفوا أسماءهم، وحسب الإخوان أنهم يقبضون رواتبهم الشهرية و يقرأون الجريدة، بل وقال: إنه يخشى على أصدقائه المساهمين ممن سمّاهم «المرتزقة» يقصد «الفسيّل» و«البرّاق» وأضرابهم، ولما سأله الأمير: والزبيري هل يعرف شيئاً؟ أجاب الأستاذ: «والزبيري لا يعرف ولن يعرف شيئاً».

هكذا قال للأمير ابراهيم، لكي يقنعه، و يسكت «البرّاق»، و«الفسيّل» وغيرهما واستدرك قائلاً: «إن الزبيري كان يعرف كلّ شيء، ولكنه كان يتظاهر أمام الاخوان بأنه لا يعرف شيئاً، مجاملة للأستاذ وحرصاً على بقاء واستمرار الحركة، وإن كان هواه ورأيه يؤيّد المطالبين بالنظام الذي لو كان قائما وموجوداً لما قضي على «الجمعية»، والحركة بمجرّد إلقاء القبض على «نعمان» في «ذمار»،

إثر فشل الثورة، ولم يستطع من نجا بما فيهم «الزبيري» و«الحكيمي» و«عبدالله بن علي الوزير» أن يحرّكوا ساكناً، و يا ليت شعري لماذا لم يخطر ببال الصديق الكريم وهو يدافع عن نفسه أن يتذكر هذا.. وقول زيد الموشكي: «إن الاستبداد لا يُزَال بالاستبداد»؟.

وقد قال الأستاذ نعمان: «إن المعارضة لحكم الإمام يحيى في الداخل كانت مستحيلة ديناً وعجزاً، هكذا قال مستدلاً بوجوب طاعة الحاكم شرعاً وقول الشاعر:

ولم يجز في غير محض الكفر خروجنـا عـلى وليّ الأمـر

ونسي أن «الزيود» وهم غالبية سكان اليمن، لا يقرّون هذا، ولولا ذلك لما قامت ثورة الدستور، وما تلاها من حركات حتى ثورة سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ التي أعلنت قيام «الجمهورية العربية اليمنية» والتي كان الأستاذ نعمان، أحد وزرائها، ثم أحد سجنائها، حتى تمت «المصالحة الوطنية» وانتخبتُ وإيّاه عضوين في المجلس الجمهوري.

وذكر أن أحداً من الداخل لم يقدّم أيّ عون مادي لحركة الأحرار ما عدا الشيخ جازم الحروي. وقال: إن الاشتراكات والتبرعات لم تكن تُدفع إلاّ بفضل جُهده وعلاقاته الشخصيّة بأهل الخير من التجار والعمال المهاجرين في بريطانيا، وفرنسا، وجيبوتي ومقديشو، والسودان، والحبشة، وأشاد بأسماء عبدالله الحكيمي، وعبده الدحان، وعبدالله عثمان، وأحمد عبده ناشر، وسلاّم حاجب، ومحمد الأسودي، وشاهر عبدالرحمن العريقي وأخوه ناشر، ومحمد أحمد شعلان، ودافع عن سياسته الإدارية والمالية دفاعاً مجيداً ووصم معارضيه بالتعصّب والمنافسة والعنصرية.

ولم ينس أن يذكر المساعدات المادية والأدبية من قبل «الإخوان المسلمين» ومحمد علي الطاهر، ومن كانوا ــ وبمساعدة الجمعية ــ يصدرون مجلّة «الصداقة» في مصر، وفي مقدّمتهم الأساتذة محمد صالح المسمري ويحيى بن أحمد زبارة، وسلاّم فارع. وقال إن همزة الوصل بين الأحرار والإخوان المسلمين كان السيد الفُضيل الورتلاني، وأنه هو الذي انتقل بحركة الأحرار من المعارضة الكلامية إلى الحركة الفعلية فوضع الميثاق الوطني وألّف بين الفئات المختلفة ورشّح للامامة عبدالله الوزير رغم معارضة الأستاذ «نعمان» الذي كان يفضّل ولأسباب شخصية سردها بصراحة آل حميد الدين عموماً على آل الوزير الذين كانوا كما قال أصدقاء لزميله «الزبيري» وكانت ثورة الدستور بصنعاء.

وتحدّث في الشريطين المذكورين عن أمور كثيرة مثيرة وخطيرة لعله لا يحقّ لي نشرها مما لا يتعلّق بالموضوع الذي أنا بصدد الحديث عنه، وإذا نشرها دون تعديل أو تنقيح و بعد أن مرّ على تسجيله لها بصوته حوالي أربعة عشر عاماً جدّت أثناءها أمور لم تكن في الحسبان، فستثير الجدل المرير ولي مع بعضها حديث طويل في القسم الثاني من هذه المذكرات، ولابد أن أذكر أنه قد اعترف بأن نزق ولي العهد أحمد على الأدباء و«العصريين» في «تعز» وتهديده بقطع رؤوسهم هو ما دفعه والزبيري إلى الفرار إلى «عدن» وأنّه قد ترك رسالة أودعها عند زوجته وأمرها بأن تبعثها مع ابنه «محمد» إلى «وليّ العهد» بعد يومين من سفره وقد قال فيها: «يعلم الله أننا ما خَرَجْنا سُخْطاً عليكم ولا غضباً؛ ولكنّا خفنا على

أنفسنا منكم .. ويستشهد بقول البحتري:

ولقد رابني نبوّ ابن عمّي بعد لين من جانبيه وأنس
وإذا ما جفيتُ كنتُ جديراً أن أرى غير مصبح حيث أمسي

كما أشار إلى الإشاعة التي أذاعت في شهر يناير سنة ١٩٤٨م ربيع الأول سنة ١٣٦٧ هـ نبأ وفاة الامام يحيى ومبايعة السيّد عبدالله الوزير إماماً دستورياً خلفاً له ونشرهم للميثاق الوطني في عدن وما سبّب ذلك من إحراج لمن في داخل اليمن أدى إلى قتل الإمام يحيى؛ وإعلان الثورة في صنعاء بعد شهر من تلك الإشاعة الكاذبة؛ ولكنه لم يذكر من هو مصدر الإشاعة ولا من يتحمل مسؤوليتها؛ وهو السؤال الخطير الذي لا يزال معلّقا، ولا أظن أحداً يستطيع أن يجيب عليه مثل الزميل أحمد نعمان وسيظل هو المسؤول الأوّل أمام التاريخ. [وانظر ص ٢٥٠ــ ٢٦٠ من كتاب ثورة ٤٨] .

هذا ما يهمّني الاستشهاد به من وجهات نظر الزميل الصديق الأستاذ نعمان الذي أكنّ له كلّ تقدير، وأنزّهه عن التحامل والتّهم التي يكيلها له بعض الزملاء، وأكبر شجاعته الأدبية، ومحاولاته الفعّالة في سبيل إصلاح أمته و بلاده ولقد اختلفنا واتفقنا، وكان الإخلاص دائماً هو رائدنا، و بعض ما استشهدت به يؤيّد ما ذهبتُ إليه في الفصول السابقة، وله رسالة تؤكّد ذلك بعثها إلى المهاجرين في بريطانيا جواباً على رسالة وردت إليه منهم؛ ينتقدونه على اتخاذ مدينة «عدن» المستعمرة مقرّاً لنشاط الأحرار بعد عودتي مع الموشكي والحكيمي ودمّاج و بقية الإخوان إلى تعز، و يستنكرون رفضه مع الزبيري مقابلة وليّ العهد أحمد عندما زار عدن عام ١٩٤٦م وتاريخها ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦م وهي في كتاب [ثورة ٤٨] ص: ٤٨٩ــ ٤٩٧ وقد وقعها معه الأستاذ الزبيري.



الفصل الثاني

وراء الأسوار

وراء الأسوار

١ـ من «غمدان» صنعاء إلى «نافع» حجّة

بعد مغرب نهار الجمعة ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧هـ / ١٢ مارس سنة ١٩٤٨م كان ما وصفته في فصل «الليلة الأخيرة»، وسقط قصر «غمدان» وألقى الأمراء أبناء الإمام يحيى القبض على من كانوا في سجنه إمام الدستور السيد عبدالله بن أحمد الوزير، وعلى سائر وزرائه، واستسلم «الرئيس جمال» وكان آخر صوت من أصوات إذاعة «الثورة» هو صوتي ينشد قول شوقي:

للحــرية الحمــراء بابٌ　　　بكل يــد مضرّجــة يدقّ

واحتلّت العاصمة «صنعاء» حشود القبائل تنهب وتسلب وتدمّر وتقتل، وهي تهتف بحياة الإمام أحمد، والموت للدستوريين وقتلة الإمام يحيى، ونادى المنادي: «اسجنوا كلّ معمّم والبريء سيخارجه الله»، وحاولت «أمّي» تنفيذ خطةٍ كانت دبّرتها لإنقاذي كما سبق لكن القدر كان قد حلّ ونزل! وألقي القبض عليّ نهار السبت ١٣٦٧/٥/٣هـ الموافق ١٩٤٨/٣/١٣م واقتادوني إلى سجن «الرادع» حيث وجدت من قد سبقني إليه من زملائي لنستقبل من تأخر منهم أفراداً وجماعات، و بعد حوالي أسبوع نقلونا إلى سجن «غمدان» حيث أمضينا يوماً وليلة ثم رتّبوا نقلنا على عربيّات مكشوفة في قافلة حزينة إلى «حجّة».

المغلقة والحريّة الحمراء:

وعندما كانوا ينادون بأسمائنا فرداً فرداً.. كانوا يتأكّدون من إحكام قيودنا و بأنّنا لا نحمل أي سلاح ثم يضعون «المغلقة» في كفّي من يريدون منّا وفق الأوامر المرسومة من أمير «الحملة» ويجرّونه إلى عربيّته المعدّة ولزملائه، وكانت حوالي عشر عربيّات كبيرة، ولما جاء دوري وهتف المنادي باسمي وكان ضمن المشرفين على عملية النقل الحاج أحمد قلاله، وقد قُتل ابنه الأكبر مع مَن قُتِلَ بمعية الإمام يحيى؛ وكان أحد أصدقائي؛ لكنه كان محترق الفؤاد مُلتاعاً على ابنه، وقد سمع صوتي من إذاعة الليلة الأخيرة؛ فقال باسماً وهم يدقون مسامير «المغلقة» و يطبقونها على يديّ: «هل هذه هي الحرية الحمراء؟؟» وأوجعتني النكتة الساخرة، فانفعلت وقلتُ وأنا لا أدري ماذا أقول من شدّة الغيظ: «قد يأتي يوم تندم فيه على هذه السخرية يا حاج أحمد»! وكأنّه أحسّ بخطأه، أو أشفق على صديقه وابن صديقه، أو تصوّر مجيء هذا اليوم الذي أهدّده به؛ فقال: «أما أنت فشابٌ مغرّرٌ به، والذنب ذنبُ السادة والقادة الكبار»؛ فقلتُ مكابراً أيضا: «ليست وظيفتك توزيع العقوبات والذنوب بل إحكام



المؤلف في الأغلال فى ساحة قصر سعدان بحجّة وعن شماله القاضي عبدالله الشماحي فالسيد حسين الكبسي وعن يمينه النقيب محمّد حسن أبوراس. حجّة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

دق القيود والمغالق» ! «وخصمنا الأول والأخير من تسوقوننا إليه» ؛ وأحكم السجّان دقّ مسامير «المغلقة» حتى أحسست بضغطها المؤلم على الرّسغين، وقذفوا بي إلى «العربية» وكانوا قد صنّفونا ووزعونا توزيعاً دقيقاً، فقد كنت ـــ ووظيفتي في الميثاق سكرتير مجلس الوزراء ـــ رفيقاً لكل من نائب رئيس الوزراء، ووزير الخارجية السيد حسين بن محمد الكبسي، ووزير الاقتصاد والمناجم القاضي أحمد الجرافي، ووزير الصحة الشيخ عبدالوهاب نعمان وأصدقائي الأساتذة محيي الدين العنسي مدير وزارة الخارجية، وأحمد الحورش مدير وزارة المعارف، وأحمد البرّاق مدير مكتب رئيس الوزراء، والشيخ محمد صالح المسمري مدير وزارة الشؤون الاجتماعية، والقاضي عبدالله الشماحي، وكيل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسيد محمد أحمد المطاع وكيل الدعاية والنشر، والشيخ حسن أبوراس وحشروا بيننا القاضي حسين مطهّر والسيد علي لطفي وكانا ـــ وإن قد قيّدا إلاّ أنهما غير مكبّلين بالمغالق ـــ وهما من أكابر كتّاب الإمام يحيى، وبعيدين كل البعد عن تدبير أو تأييد أو مناصرة الثورة، أو معارضة الحكم، بل من أنصاره المخلصين، ولا أدري لماذا حشرا بين المساجين وفي عربة خطيرة ينتظر جلّ ركابها الموت؟ وهو ما كان يدفع القاضي حسين مطهّر كلّما تلفّت يميناً وشمالاً ورأى نفسه بين إناس يعرف نشاط كل منهم وتاريخه السياسي وما يتوقعه له من عقوبة.. إلى أن يضرب بكفّيه على فخذيه ثم على خدّيه ويصيح: «وافعلتاه؛ وافعلتاه» ..

وشر المصائب ما يضحك:

ومرّوا بنا على العربات المكشوفة ورؤوسنا أيضاً مكشوفة، وكلّ سكان صنعاء، رجالاً ونساءً وأطفالاً يشيعوننا بالشتائم، ويبصقون علينا، ويقذفوننا بالأحذية الممزقة والنفايات، وأحسسنا بشيء يُلقى بجانب عبدالله الشماحي لم نميّز نوعية قذارته فصرخ القاضي عبدالله بلهجة سيبويه: خِراءَةٌ وربّ الكعبة.. ولم أستطع إلاّ أن أضحك، «وشر المصائب ما يضحك» وعلى رؤوسنا يقوم حرّاس ناشرون حرابهم على بنادقهم يُزَوملون، ويردّدون الأناشيد القبلية وما هدأت الضجّة إلاّ بعد أن تجاوزنا «الميدان»، واجتزنا «باب شعوب» شمال صنعاء، ووصلنا «عمران» فاستقبلنا أهلها بزفّة «جِرّعِقّ وَالِدَيْه، جِرعاصي والدَيْه»، وبمختلف الشتائم والبصاق؛ ولكن مشايخها وفي مقدمتهم آل «الصّعر» كانوا كراماً معنا فاستضافوا الحملة وقائدها، ولم يهملونا بل أوصلوا إلى سياراتنا الخبز واللحم والقهوة والماء فأكل من يستطيع ممن كان حُرَّ اليدين كالقاضي أحمد الجرافي، وحسين مطهّر، وعلي لطفي وساعدوا المكبّلين بالمغالق؛ وكان مجلسي بين «الشماحي والكبسي» فألقموني شيئاً من اللحم والخبز وسقوني ماءً وقهوة، ويا ليتني لم أقبل؛ إذا ما كدنا نغادر «عمران»، وتلسعنا أشعة الشمس المحرقة حتى شعرت بالغثيان والدّوار، ولم أستطع أن أتمالك أعصابي فهممت بالوقوف فدختُ واستفرغت على من بجانبي، وقد حاول رفيقاي مساعدتي ولم يستقذرا ما قذفتُ به على ثيابهما، ونظر إليّ أستاذي حسين الكبسي نظرة رحمة وعطف مصبوغة ببسمة إلهية تخيّلتها نفس البسمة التي كان أبوالشهداء الحسين بن علي عليهما السلام يوزّعها على إخوانه وأولاده وهم يتصرّعون حوله في «كربلاء»، واحتقرتُ نفسي فاستعدت قواي، وقلتُ: عفواً.. يا أخي، عفواً.. يا مولاي؛ وهما يقولان: لا عليك لا

عليك استفرغ حتى ترتاح ، والحرّاس لا يحرّكون ساكناً ، بل ينشدون و يزَوْمِلون .

أطهر صَلاة بلا طهور:

و وصلنا قمة «كحلان» بعد العِشاء وكنا قد أدينا صلاتها بعد المغرب إيماءً ،وقرّر أمير الحملة وقائد «القافلة الحزينة» أن يستريح فوقفنا وغادرَنا الحرّاس ، وتبادلنا بعض الأحاديث والحورش يرسل بعض النكات/ ومحمد المطاع يسبّ و يسخط و يقول : الموت أسهل من هذاالعذاب وحسين مطهر يصيح بين الفينة والأخرى «وافعلتاه؛ وافعلتاه»؛ وتذكرت أخي عبدالوهاب وأستاذي الفضيل الورتلاني وعبدالله ابن علي الوزير ومحمد محمود الزبيري وأحمد المطاع وأحمد المروني فحمدت الله على نجاتهم وفرارهم ولم أكن أدري أني سأجتمع بالأخيرين في سجن نافع الرهيب ، وغفا من غفا منا كل يتكىء على رفيقه ، وعند أن سمعنا أذان الفجر و بدأت تتصاعد تباشير الصباح ، أدّينا الصلاة بلا طهور ولا تيمّم ؛ وأعتقد أنها كانت أخشع وأطهر وأنقى صلاة أديتها في حياتي ؛ وجاء الحراس وأعطونا شيئاً من الأكل وقهوة «القشر» فاكتفيت بالقهوة خوفاً من الاستفراغ ، وهبطت «السيارات» بنا في «النقيل» تتراقصُ على الصخور والفجوات في طريق بدائية وعرة تطلّ على أودية سحيقة ، ومحمد المطاع يُوسوس في أذن حسن أبوراس «يَرّيَرّعسى أن نقلب السيّارة فنتخلّص من هذاالعذاب» و يزاحم بظهره خشب العربية يحاول أن يلقي بها في قرارإحدى المنحرفات السحيقة ، والشيخ عبدالوهاب نعمان يتمتم بأدعية وأوراد دينيّة رائعة حنونة لم أسمع قبل مثلها ، و بصوت شجيّ خاشع كأنّه من ألحان الملائكة ودموعه تتساقط على خدّيه كاللآلىء وتبلّل لحيته الناصعة البياض المستديرة المهيبة ، وشعرت بتلك الأوراد المفعمة بأسماء الله الحسنى تترششُ على روحي ، وتغمرها بالرضا والاطمئنان .

ماذا سيفعل أحمد بنا ؟

ومنذ غادرنا قصر «غمدان» حتى وصلنا مسجد «شرس» لم يكن أيّ منا قد تخلّص من فضلات طعامه أو شرابه ، وأمر قائد القافلة الحزينة بأن نتوقّف عند المسجد حيث التقينا بقافلة «الأحرار» و«فرقة الصاعقة» التي رافقت الزعيم الأستاذ أحمد نعمان من «تعز» إلى صنعاء» وألقي القبض عليه وعليها في «ذمار» كما سبق ، كأن «القائد» عمل ذلك ملاحظة لدخولنا «حجة» في وقت مناسب ، وسمح لنا بمغادرة السيارات للتخلص ممّا نعانيه ؛ وفجأة رأيت أحد أصدقائي والذي كان يتولّى شراء محتاجات بيتي في «صنعاء» وهو من فرّاشي دار ضيافة الإمام واسمه محمد الحرازي وكان شهماً غيوراً ، إذ قد أقبل نحوي وهو يقول بصوت حزين : ماذا تريد يا سيدي ؟ قلت : وماذا تعمل هنا يا أخي ؟ فقد خفتُ أن يكون من جملة المعتقلين لعلاقة الصداقة بيني و بينه قال : أنا من خدم القافلة وأميرها ، قلت : أرجوك أن تتنحّى بي جانباً لكي أبول ؛ وأمرته بأن يمزّق سروالي الداخلي و يربطه على فخذي الأيسر ، وتحت شجرة من تلك الأحراش تخلّصت مما كنت أعانيه ، وطلبت منه مساعدة الآخرين ففعل .. وكان كريماً ، أعاد إليّ بلطفه الثقة بالإنسان وخيريّته .

وعندما عدت إلى ظل جدران المسجد وجدت الشيخ عبدالوهاب نعمان والأساتذة محيي الدين

العنسي وأحمد الحورش ومحمد المسمري يتحاورون، وقال الشيخ عبدالوهاب: دعونا نسأل نفس السؤال السد أحمد فإنه صاحب الإمام وأدرى الناس به وقال: ما رأيك ماذا سيصنع «أحمد» بنا؟ قلت: وماذا تنتظرون من رجل يعتقد أننا قتلنا أباه وإخوته وحاولنا قتله واغتصاب سلطانه، وأننا لو ظفرنا به لأعدمناه؟ فإذا كان يفكر بعاطفة الرجل العادي الذي نعرفه في هذا الزمن فسينفعل بما في قلبه من غيظ وحقد ولاسيما والشعب كله يؤيّده وسيأمر بضرب أعناقنا فور رؤيته لنا. وابتسم الحورش، وحملق المسمري، وقال الشيخ نعمان: يا لطيف.. يا لطيف.. ما هذه النظرة المتشائمة البشعة؟ قلت: يا شيخ عبدالوهاب إنه أحمد الجنّي، وليس فاتح مكة الرسول الكريم ولا المنتصر يوم «الجمل» على بن أبي طالب؛ مع أني أعلم أنّه لو أعمل فكره، وفكر تفكير الإنسان الحكيم الذي يريد أن ينتصر لا على أعدائه بل على الزمن، و يثبت عرشه على أسس راسخة القوائم، أو لو وجد بجانبه من المشيرين من يريد له وللشعب اليمني الخير لقال لنا: ألم أقل لكم إنني رجل الموقف، وإنكم لن تستطيعوا أن تعملوا شيئاً، وإن اليمن لن تقبل حاكماً غيري فركبتم رؤوسكم وعملتم ما عملتم، وها قد وقعتم في يدي فهل ستعاهدونني على الطاعة والإخلاص، و يعفو الله عما سلف وندفن الماضي تحت أقدامنا؟ وتعالوا نتعاون على ما فيه خير اليمن وسعادتها، و يعلن موافقته على «الميثاق الوطني المقدس» و يطلق سراح من لم تثبت عليه تهم جنائية أو يحيلهم إلى القضاء ليقضي فيهم بما يتفق وأحكام الشريعة.

موقف الجرافي:

وجاء الحرّاس، وأعادونا إلى السيارات وتسلّقت بنا عقبة حجة الشرسة الكأداء، وكانت كل التلال مغطاة بعشرات الآلاف من البشر أقبلوا ليشاهدوا قافلة «الدستوريين» «عملاء النصارى» وقتلة «الإمام يحيى» و«سيوف الإسلام».

وأنزلونا في ساحة قصر «سعدان» وفوجئت بأن شيئاً لم يحدث مما تصوّرته أو تخيّلته فيما عساه أن يعمل بنا كملك منتقم جبّار، أو إمام عادل منتصر؛ وإنني لم أكن متشائما قنوطاً ولا متفائلاً واعياً؛ بل شخص لا أعرف عن أخلاق أحمد حميد الدين وطباعه وأفكاره نقيراً ولا قطميرا، إذ لم يواجهنا ولا حدّثنا، واكتفى بأن أوقفنا أمام الجماهير ساعة في ساحة «سعدان» والقيود في أقدامنا والمغالق في أكفّنا وأعناق «نعمان» وفرقته الصاعقة، وزملائه الأحرار مغلّلة بالسلاسل، والناس يشتموننا، والمصور يلتقط ما شاء لنا من الصور وكأننا قطيع من الحيوانات.

وفجأة ثارت النخوة والشجاعة في نفس عالم زيدي وقور هو القاضي أحمد الجرافي وقال مخاطباً القاضي عبدالله الشامي الذي كان يطوف علينا مؤنباً مقرّعاً ولم يكن يدري أن مصيره سيكون السّحل والإعدام و بأمر من إمامه أحمد في يوم من الأ يام؛ وقال القاضي الجرافي: «يا عبدالله الشامي إطلع إلى صاحبك، وقل له يتقي الله فينا؛ وإن لم؛ فلّيتق مسؤولية التاريخ، وليكن إنساناً، فإما وعاملنا معاملة الملوك الجبّارين وأمر بقطع رؤوسنا واستراح وأراح؛ وإلا عاملنا معاملة أئمة العدل وعفا وسامح، أو قاصى وحاكم؛ أما هذه المعاملة فليست معاملة ملوك ولا أئمة».

الرعد والقلم وغالب السري:

وكان الجرافي يلقي كلامه بصوت عال كأنه يتعمد أن يسمعه الإمام، وهرول عبدالله الشامي يعرُجُ إليه، ولم تمض بضع دقائق حتى عاد، وأمسك بيد الجرافي وبمعيته كلّ من محمد بن أحمد الشامي وحسين مطهّر، وعلي لطفي، وأركبهم على سيارة جيب إلى سجن «المنصورة» حيث أودع الرئيس جمال جميل العراقي وغيره ثم أقبل القاضي عبدالملك العمري وشلّته من حاشية الإمام وعبيده وساقونا إلى سجن «نافع» الذي ولحُسْن الحظ لم يكن بعيداً عن قصر «سعدان»، وجُرْجِرْنا بين البصاق والشتائم وكنت وأظن أن رفاقي مثلي ـ أتمنى الخلاص من «المغلقة» ولو بالموت ـ وقد أزالوا عنا «المغالق»، وزادوني على قيد «صنعاء» قيداً ثقيلاً، ومِرْوَداً عتيقاً صدئاً كبيراً يسمّونه «الرعد»، أما الأستاذ أحمد نعمان فقد وضعوا بين ساقيه «سكا» حديدياً بشعاً ربطوه بحلقة غليظة في ساقه الأيمن وأخرى في ساق رجله اليسرى، ثم جمعوا قدميه بقيد قصير يسمونه «القلم» ورموه كما يرمى بجيفة حيوان لا يستطيع حراكاً، وأما أثقل «المراود» التي لم أر مثلها ولن أرى إن شاء الله فقد كبّلوا به أحد القادة العسكريين اليمنيين واسمه «غالب بك السري» وكان من بقايا خرّيجي مدرسة الأتراك، وكان يهذي بلهجة صنعانية سوريّة تركيّة: اشهدوا يا مسلمين، قولوا للتاريخ: إن غالب بك السري تحمّل أثقل الأغلال والقيود.

سجن نافع:

لا أستطيع أن أوفّي سجن «نافع» حقّه من الوصف، ولا أن أعبّر عن كآبة و بشاعة مداخله وأبوابه وأماكنه المظلمة إلاّ إذا قلت: إن شراسة نظرات وملامح مديره وسجّانيه أكثر كآبة وأشد بشاعة، وكان عبارة عن ساحة صغيرة على شمال داخلها مكان يسمّونه «العشة»، وفيه يقابل من يأذنون له بمقابلة أهله وزوّاره، وفي الساحة «المدقّة» التي يقيدون عليها من يرد إليه من السجناء أو يفكون قيوده إذا أطلق أو مات، أو حكم عليه بالإعدام، وأمامها يقوم بناء يتكوّن من ثلاث أو أربع طبقات هو السجن الأصيل الذي لا نوافذ له، ولم أدخله ولم أر إلا باب دهليزه المظلم كأنه مغارة تسكنها الأشباح؛ وعلى يمين الداخل توجد بضعة درجات إلى مكان الحرس والدرج التي توصل إلى مكان «المدير الحاشدي» وعلى اليسار باب آخر يهبط منه الرهائن والمساجين سبع درجات إلى ساحة مستطيلة تطل عليها أمكنة مصمتة، وآخور مظلم، والنوبة التي يبول و يتغوط فيها المعتقلون، وكان البناء الأصلي قد امتلأ بالمساجين، ومن بينهم من قبضوا عليهم في «الحديدة» وضمنهم السيد زيد الموشكي والقاضي عبدالله عبدالإله الأغبري والخادم غالب الوجيه وزملاؤهم و بعض السجناء القدامى أمثال السيد الشاعر محمد ابن علي المطاع والشيخ صالح المقالح وكانوا قد أعدّوا لنا نحن أفراد القافلة الصنعانية، والقافلة العدنية «النعمانية» السجن الأسفل الذي ذكرته ولم يبق فيه إلا خمسة: «سالم الزّرنوقي» و«عبدالله المجنون» وصاحبه المجنون «شمسان» و«سالم عمران اليهودي» وفلان «الدوبي» وما منهم إلاّ وقد أمضى في نافع أكثر من خمسة عشر عاماً، وتحامل كل على قيوده وأثقاله يفتش عن مكان وقد ساعدنا الحرّاس وأعطوا كل واحد مسافة شبرين وتكدّسنا فرحين بأننا قد تخلّصنا من المغالق والشتائم،

ووجدتني أجاور صديقي الشاعر ابراهيم الحضراني فسررت سروراً عظيماً.

سالم عمران اليهودي:

كما أنّ ما كابدناه من جهدٍ وبلاء فوق وسْع البيان، وكان أرحم من قابلناه من نزلاء «نافع» هو «اليهودي» سالم عمران، وله في قيده وسجنه عشرون عاماً بتهمة قتل ابن عمّه وقد تعوّد أن يرى وجوه المساجين من السّرق، والقتلة وقطّاع الطرق، ومقترفي الفواحش أنواعا، ولذلك فما إن رأى وجوهنا ونحن ما بين عالم وفقيه وشاعر وقاض وتاجر وقائد؛ وسِمع أسماءنا وهم يتأكدون من أن أحداً لم يشرد، فسمع أسماء عوائل اليمن الكريمة ومشايخها وكبرائها وعلمائها وساداتها وقضاتها حتى أدركه شيء من الذهول والرهبة ووقف يهذرم بلغته العبرية متجها بعينيه إلى السماء ثم أقبل يساعد عاثرنا، وكأنه يتقرب بذلك إلى ربّ موسى وهارون؛ وكأنه قد تمثل أو تذكّر ما كان يعمله الطغاة والفراعنة بعلماء بني إسرائيل وأنصار موسى بن عمران مما قرأه في «التوراة» وبعد أن جالسناه عرفنا أنه من الأحبار وعلى اطلاع ومعرفة بالتاريخ، وكنا نضحك حين يصحّح أخطاء من يتلون القرآن من بعض زملائنا الأحرار الذين لم يتقنوا قراءة كتاب الله، ولم يجوّدوه إلاّ في نافع؛ وكان أعمش العينين وله «زنّاران» طويلان، وله مكان صغير لا يشاركه فيه أحد وقد اعتمدت «جِدرتنا» المكوّنة منّي والقاضي عبدالله الشماحي وابراهيم الحضراني في الأسبوعين الأولين عليه في طبخ اللحم والخضار، وأخبرني القاضي ابراهيم أنه كان يراه يقطع البصل والكرات قضماً بأسنانه ثم يلقيه في «البرمة» وأنه لم يخبرنا بذلك حتى لا تتقزّز أنفسنا فنأنف الأكل لأنّه يعتقد أن الغليان على النار يطهّر الادام، وله معنا أقاصيص لطيفة ما أحلاها عندما يتفنن في روايتها الشاعر ابراهيم؛ وقد بلغني أنه أسلم ولبس العمامة. حقاً لقد كان سالم عمران أكرم إنسان وأرحم شخص بنا ليلة هبوطنا على نافع الرهيب.

٢ـ الاتهامات والدفاع،

في اليوم التالي لإعدام الإمام عبدالله الوزير والسيّد زيد الموشكي وصل إلى سجن نافع خمسة عشر قاضياً وكاتباً من رجال الإمام أحمد الذي كان قد غادر حجة إلى «تعز».. واستدعوا إلى «العشة» والأماكن الخارجية في «نافع» بضعة عشر رجلاً منّا كنتُ أحدهم وبينهم الأساتذة أحمد نعمان والمسمري والعنسي والحورش وابراهيم الحضراني ومحمد الفسيل وعبدالله السلاّل ومحمد المطاوع ومحمد الغفّاري وحسن العمري، وغيرهم من الزملاء، ودفعوا إلى كل واحد منا ورقة فيها عدة أسئلة، ووقف على رأس كل واحدٍ جندي، لكي يجيب على الأسئلة دون أن يتحدّث إلى أحد من زملائه، أويشاوره، ولا يُسمح له حتى بالاستفسار عن السؤال إذا لم يفهمه! ولا أذكر الآن نصوص تلك الأسئلة لكني أظنّ أنها كانت بصيغة واحدة وكأنّها موجهة إلى شخص واحد، لا تمييز بين من كان في «صنعاء»، أو «تعز» أو «عدن» أو «مصر» مدنياً كان أو عسكرياً ولذلك فقد حصلت مفارقات غريبة وكان أهم هذه الأسئلة:

١ ـــ من هم الأحرار وما علاقتك بهم؟ وهل كنت عضواً في حزب الأحرار؟
٢ ـــ أين كنت يوم قُتِلَ الإمام الشهيد؟ ومن تعرف من القتلة والمتآمرين؟
٣ ـــ هل وقّعت الميثاق الوطني ومن الذي ألّفه؟
٤ ـــ ما علاقتك بالورتلاني و بجمال العراقي؟
٥ ـــ هل تعرف الز بيري ونعمان وما دورهما في المؤامرة؟
٦ ـــ من هم الذين كانوا يريدون قتل الإمام أحمد في تعز؟

إلى أسئلة أخرى تبلغ نحو العشرين تدور حول «المؤامرة» و«المتآمرين» والأحرار ومنشوراتهم.

وقد أجبت عليها جميعاً.. وأذكر أني بدأت الدفاع بخطاب وجهته إلى الإمام أقول فيه: إنني أعترف بذنبي وهو أنّني أنكرت إحسانكم، وجحدت فضلكم، وأيدت الوزير وحزبه وخطبت وشعرت، وأذعت، وكنتُ معتمد الوزير، وكاتب شيفره، و.. و.. و.. إلى آخره؛ مما قمت به من أعمال، وإني لا شكّ أستحق أي عقوبة تنزلونها بي، إذا لم يسعها عفوكم مَنّاً وإحساناً، والشيء الذي أناشدكم الله فيه الحكمة والإنصاف والعدل هو أن تؤاخذوني بتهمة مشاركتي في اغتيال الإمام الشهيد يحيى، أو قتل أحدٍ من أولاده أو المؤامرة عليه، فإن ذلك لم يكن؛ وأنا أطالب بمحاكمتي إذا اتّهمني أحد بذلك إلى أيّ شريعة سماوية أو أيّ قانون أرضي، وسأجاثيكم يوم القيامة إن لم تعملوا ذلك؛ وأمّا إذا كنتم ستأخذونني ـــ وقد فعلتم ـــ بذنوبي الأخرى وهي كثيرة.. فلن يلومكم أحد وأنا جدير بها؛ لأني لم أكن حصيفاً، ولا وفيّاً ولا عارفاً بطبيعة اليمنيين. هكذا قلت لأني أعرف الرجل الكبير.

ثم أجبت على الأسئلة بكل اطمئنان فقلت: لقد كنت أحد مؤسسي حزب الأحرار في عدن كما تعلمون وقد رجعت، وصفحتم عني، و يوم اغتيال الإمام يحيى كنت في صنعاء، وعملتُ ما تعرفون من تأييد للوزير وحكومته، وأما القتلة فلا أعرف أحداً منهم، وها هُم في قبضة يدكم، و بالرغم من أنّهم قتلة لا تُقبل شهاداتهم، فها أنا أصدّق أيّ كلمة تصدر من أحدهم؛ بأنّه يعرفني أو جلس معي، أو حرّضتُه أو شاركته، وأخشى ما أخشاه أن تصدّقوا في خصومي من إخوانكم سيوف الإسلام الكرام، فأنتم تعرفون المنافسات التي كانت بيننا وأسبابها، و يعلم الله أنّي ما اخترت أن أكون أنا الذي يتولّى اطلاعَهم من دورهم إلى «القصر» وحفظهم فيه إلاّ خشية أن يقوم بذلك غيري من العساكر والأجلاف، فيلحق بهم شيء من المكروه أو الإيذاء وهم أهلي ورحمي، والله العالم؛ وأما الميثاق فأنا كاتبه وقد وقّعته مع المئات من العلماء والأدباء، وأعترف أنّي قد عملت ذلك راضياً مختاراً، واعتقدت صحة كلّ ما ورد فيه، بل واقترحت أن تكونوا أنتم الإمام الذي تبايعكم الأمة على ما فيه، وقد يكون ذلك من أخطائي ولكنّي أعترف أن ذلك ما كان ولا أدري بالضبط من مؤلفه ولكن أول نسخة منه اطلعت عليها كانت بيد الفضيل الورتلاني فأظنه الذي ألّفه ثم حصلت فيه زيادات من قبل اليمنيين..
وأما علاقتي بالورتلاني فأنتم من أمرني بمرافقته ومُزاملته، وكنت أرفع إليكم كل ما يقوم به من نشاط ما عدا الميثاق فقد تكفّل الأخ حسين الو يسي ـــ وهو الآن في مقامكم يعيش ـــ بأنه سوف يطلعكم عليه

فاسألوه؛ وأما الزبيري ونعمان فقد كنت رفيقهما في الفرار إلى عدن، وكان ما تعلمونه ولا أعرف لهم علاقة بمؤامرة أو صلة باغتيال الإمام يحيى، وأنتم تعلمونَ ما كان بيني و بينهم من اختلاف وخصومة أدبية وسياسية، وأقسم بالله أنّي لا أدري عمّن كان يريد اغتيالكم شيئاً، فاسألوا من كانوا في «تعز» إلى آخر الأجوبة، وكنت أول من فرغ منها وسلّمها إلى رئيس لجنة التحقيق السيد عبدالله عبدالكريم صهر الإمام وكان من أعزّ أصدقائي.

ومن المفارقات الغريبة ما دار بين أحد الكتبة المحقّقين والشيخ محسن هارون شيخ بني الحارث؛ فإنه أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب فعندما سلّموا إليه ورقة الأسئلة لم يفهم ما فيها فقال لهم: ماذا تريدون؟ فأنا لا أعرف القراءة، ولا أحفظ إلاّ الفاتحة وثلاث أو أربع سور، وأذكار وأدعية الصلاة؟..

فقال الكاتب: من هم الأحرار.. الخ؟ و«الحَــرُّ» في اليمن هو المكان الأرضي في البيوت ويجمع على «أحرر» و«أحرار»، والأماكن السفلية تخصّص عادة للدواب والحيوانات والدواجن والحطب والحشائش، ولا تُسكن من قبل العوائل فظنّ الشيخ وكان قد جاوز الثمانين أنّهم يسألونه عنها فقال: عندنا في البيت الكبير أربعة؛ واحد للثور وآخر للدّجاج والثالث للحطب، والرابع للعلف.. وأما الحمير والبقرة، والحبوب فهنّ يحفظن في «أحرر» البيت الصغير؛ وضجّ الجميع ضاحكين، وقال الكاتب: نقصد الأحرار الذين حاربوا الإمام من عدن وكانوا يكتبون و يوزعون المنشورات والجرائد ضد الحكومة.

قال الشيخ: هذه أول مرة أسمع فيها بالأحرار، والنّاس كلهم أحرار مملوكون لله سبحانه؛ وعندما سألوه عن الورتلاني وجمال والزبيري ونعمان وأمثالهم قال: لا أعرفهم ولم أسمع بهم، قالوا: والشامي؟ قال: سيّدي عبدالرحمن الشامي نسيب الإمام الله يطوّل عمره فيه البركة والخير؛ قالوا: نقصد أحمد الشامي هذا الذي بجانبك؛ قال: والله ما رأيته ولا عرفته إلاّ في «نافع»، ثم قال: قولوا للإمام يخاف الله و يرحم أولادي.

ربّ ضارة نافعة:

هناك أمثال لم يختلقها المجتمع البشري اعتباطاً، بل هي وليدة تجربة قاسية، أو حصيلة معاناة مريرة ومنها المثلان: «اشتدي أزمة تنفرجي» وقولهم «رُبّ ضارة نافعة».

ففي صباح يوم كئيب بعد أن استنطقونا وأخذوا منا ما يريدون من اعترافات وكان قد مضى علينا في السجن حوالي عشرة أيام أو أسبوعين إذا بالحاشدي مدير السجن يقف في بابه و ينادي «أين أحمد الشامي»؟ فتحاملت على نفسي أجَرْجِرُ قيودي الثلاثة في هيئة رثة إذ لا أزال بنفس القميص الذي أخذوني فيه من صنعاء ولم يلمس جسدي الماء بَعْدُ، مثل معظم السجناء، المعسرين؛ وعندما حاذيته قال: هذا خطاب لك من صنعاء مع خمسة ريالات و بعض الثياب اقرأ المكتوب وأجب عليه فوراً وفي ظاهر الخطاب، وخذ الثياب، وأمّا الريالات فستبقى لديّ وإذا احتجت لشيء أخبرني، وما كدت أقرأ الرسالة وكانت من زوجتي؛ حتى قال الحاشدي: هل عبدالوهاب الشامي أخوك؟ قلت: نعم... قال: هيّا قد سبقك إلى جهنم، أمس؛ قتلوه في «عدن» وأوصلوا رأسه إلى مولانا الإمام، وحين سمعتُ

ذلك تخاذلت ركبتاي، وأحسست بالدوخة ولم أتمالك نفسي فجلست: فقال مقهقهاً: «ثبرت» يا شامي ما ينتظرك أشد وأدهى أنتم جميعاً تعرفون فعلتكم الشنعاء قتلتم الإمام.. ثم لم أسمع ما قال بعد ذلك.. وأخذ بضبُعي القاضي أحمد العنسي و بيدي أحد الاخوان وأرجعاني إلى «الآخُور»... فدخلتُ «كيس النوم» انتحب واثقاً أنّ ما قاله «الحاشدي» عين اليقين؛ ودعوني للغداء فلم أخرج من «الكيس» وجاء الاخوان معزّين ومسلّين وأنا أقول للجميع: من فضلكم اتركوني وشأني وكانت تلك الساعات أشقّ وأصعب وأقسى وأرهب ساعات مرّت عليّ طوال حياتي من قبلُ ومن بعد؛ وتصوّرت أخي وأعز من في الدنيا عندي، يفرّ بشبابه وشعره، وطُهره وإخلاصه من «الموت»، ثم يُقتل في «عدن» قبْلي!! وناديت في الظلمات: «أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين» وإذا بالمنادي يقول: أين «أحمد الشامي» وهُرِعت إلى «العشة» فإذا بي وجهاً لوجه أمام كاتب الإمام الخاص، مدجّجا بالسّلاح، وكان من زملائي وأصدقائي فحيّيته مبتسماً.. فلم يردّها بأحسن منها فقعدت، وظلّ واقفاً، فقلت بسذاجة من يجد صديقاً قديماً: يا أخي في مثل هذه الظروف يُرجى عون ومساعدة الصديق ومثلك من يعرف ذلك فأرجوك أن تغتنم الفرصة وتعمل ما تستطيعه من أجل التخفيف والترفيه عن أصدقائك في محنتهم لتنال المجد والثواب عند الله والناس، فالمعروف لا يضيع في الدنيا والآخرة، فأعرض بجانبه وقال: أنتم جنيتم على أنفسكم، وركبتم رؤوسكم، وأنت عملت وعملت يؤنّبني؛ فتألّمت وقلت بلهجة نزق وغضب و يأس لا يخشى: طيّب طيّب ماذا تريد؟ فأخرج من جيبه وريقة صغيرة فيها «تلغراف» يقول: «من الإمام إلى الولد سيف الإسلام البدر: اسألوا أحمد الشامي عن مفتاح «الشيفرة» التي وجدناها بخطه والسلام» وقال: أجب على هذا؛ ولما كنتُ قد انفعلت وأخذتني الحماقة من جميع جوانبي أردت أن أنتقم منه، وأن أعطيه وأنا السجين الذي ليس له حول ولا طول درساً لن ينساه، ونكبت عن ذكر العواقب جانباً، فقلت ساخراً: لا يمكن أن أجيب على هذا السؤال الآن؛ قال: ولماذا؟ قلت: لأنه سؤال خطير جدا، وسيكشف الجواب عليه أسراراً للدولة ولا أظن أن شخصاً تافهاً مثلك يجوز له الإطلاع عليها فقد تتسرّب إلى أعداء الإمام؛ ولكني سأجيب على السؤال وأفضي بكل شيء للإمام نفسه، أولأحد الأمراء أو لنائب الإمام في حجّة فمثلك لا يجوز أن يطلع على مثل هذه الأمور، قلت: كل ذلك وقد نسيت نفسي وقصّة أخي، ومدير السجن وناصر علي و بعض «الرّسم» يسمعون في شبه ذهول، فقال الكاتب: حرّر هذا الكلام خطيّاً فقلت: حاضر وتناولت قلمه وكتبت في ظاهر البرقية: «هذا السؤال مهم جداً ولا يمكن أن أفضي بالجواب عليه إلا إلى أمير المؤمنين أو أحد سيوف الإسلام».

وقمت واستأذنت «المدير الحاشدي» وليس كاتب الإمام في أن يسمح بعودتي إلى السجن فساعدني السجّان ناصر علي وهويقول: «كنت ستجيب على السؤال يا أحمق» وكنت علم الله أجلّ وأحترم ذلك الكاتب وأعدّه من أصدقائي ولا أتهم إخلاصه لإمامه ودولته، وقد توفّاه الله، ولكن الله رحيم وقد جعل لكل عسر يسرين «وربّ ضارة نافعة».

موقف البدر:

ونسيت ما كنت فيه و بدأت أفكّر في العواقب وماذا عسى أن أقول لو طُلِبت إلى الإمام أو نائبه ، أو إلى أحد سيوف الإسلام ، واطمأن خاطري وتمتمت : ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ولا تفكّر وفي السماء مدبر، وحكيت للزملاء ما كان فضحكوا وقال كبيرٌ منهم : يا ليتك لم تفعل ، قلت :

دعها سماو يّة تجري على قدر   ولا تبيتنّ إلاّ خالي البال .

وفي عصر اليوم التّالي إذا بصوت ينادي : أين أحمد الشامي ؟ ودخل حارسان مدجّجان بالسلاح من حرس الإمام الخاص ، والحاشدي و بسلاحه أيضاً واقف في الباب كما يفعلون عندما يكونُ هناك أمر بإعدام سجين ؛ وقال المدير: البس ثيابك فتأكدت أنّها النهاية وكذلك ظنّ بل أيقن الجميع فتشهّدت وهللت بصوت خافت ، ولبست جبّتي الخضراء التي وصلت من صنعاء منذ يومين ، وصعدت درجات السجن وكأني غير مكبّل بقيود ثقيلة ، لقد تلاشى ثقل الحديد بل وثقل جسدي ، وكأنّي أصبحت روحاً تطير، وقلت في نفسي إذا كان هذا هو الموت فإنه سهل ، بل إنه جميل مريح ، وانطلقت من باب السجن الخارجي فإذا هناك سيّارة تنتظرني أمرتُ بركوبها فقلت في نفسي لعلّهم سيقتلونني في مكان بعيد ، لارهاب مدينة من المدن ، ولكن سرعان ما اتجهوا بي صوب قصر مقام الإمام « سعدان » ولم يكن بعيداً عن « نافع » ، وأنزلوني من « السيارة » وقادوني إلى « المفرج » فإذا بي وجهاً لوجه أمام سيف الإسلام « البدر» محمد ابن الإمام أحمد ، ولما رآني وقف باسم الثغر وصافحني مصافحة الند والصّديق والزميل القديم وحين قبّلت يده قبّل يدي ، وهو يقول : أهلاً وسهلاً بأخي ، واستحيت أن يراني مكبّلاً بقيود ثقيلة ، وخفت أن أحرجه إذا أظهرتها فيتوهم أنني سأطلب منه التخفيف عني ، فجلست عليها وأخفيتها تحت ساقيّ وغطّيتها بقميصي وجبّتي ، وقلت : أنا خرجت من السجن للموت والإعدام . . قال : ألم يخبرك « الحاشدي » بأنك ستأتي إليّ ؟ قلت : كلاّ ؛ فناداه وأنّبه وقال : « ألم أقل لك أن تطمئن الأخ أحمد؟ فكيف تخرجونه دون أن تشعروه بأنّه سيصل إليّ ؟ » ثم أطلعني على ورقة فيها تلغراف هذا نصّه :

من الإمام إلى الولد سيف الإسلام البدر اطلبوا الولد أحمد بن محمد الشامي إليكم وخذوا منه المعلومات التي قال إنه لا يمكن أن يفضي بها إلاّ إلينا وارفعوا إلينا بالشيفرة أو في بريد خاص مستعجل كل ما يريد أن يقول والسلام» . وكان ذلك الكاتب الذي لأنني أعزّه وأجلّه أعرضت عن ذكر اسمه واقفاً فرفعت نظري إليه وقلت للأمير البدر: «وهذا يجب ألا يكون حاضراً» فأشار إليه الأمير بلطفه المعهود أن يخرج وتنفست الصعداء ؛ و بدأ الأمير يعرب عن أسفه وحزنه وأساه لكلّ ما كان ، وكأنّه أحد الأحرار و يسأل عن الأستاذ نعمان وفلان وفلان ، وأنا أطمئنه ثم تذكّرت ما أخبرني به « المدير الحاشدي» من أن أخي عبدالوهاب قد اغتيل مع السيد محمد الوريث في عدن وأوصلوا رأسيهما إلى «تعز» فسألته هل ذلك صحيح ؟ فقال : « كلاّ والله هذا كذب ، هذه إشاعة لا أساس لها ، لا تصدّق والإمام الآن يراسل كلّ من في الخارج وقد أرسل لهم أمانات » ، ثم أعطاني ورقاً وقلماً وقال لي : أكتب

ما تريد واستشرني فقد اطّلعتُ على كل «الاستنطاقات» والاعترافات وتأنَّ في بيانك، وكن شجاعاً فالإمام رغم كل ما صدر عنك لا يزال يكنّ لك ودّاً عميقاً.. وقد ورد أمره بإعدامك مع الموشكي والكبسي ولكنني أشرت على الإمام بتأخيرك مع الوالد حسين الكبسي حتى تفضيا بما لديكما من معلومات عملت ذلك حيلة لكي يؤخركما، فضحكت وقلت كما يقولون في المثل: «من مشناقة إلى مشناقة حلّه» فضحك؛ وقال: بلّغ الأستاذ نعمان سلامي وقل له يطمئن فإن الإمام رغم أن الجميع يحرضونه على إعدامه لكنه يودّه و يقول: «لم يكن نعمان من المتآمرين على قتل الإمام ولا راضياً باغتيالي»، و بدأت في كتابة رسالة طو يلة أظنها لا تزال بين أوراق الإمام والوثائق التي استولى عليها الثوّار في تعز حين هبّت ثورة ١٩٦٢م، وأعلنت الجمهورية العر بية اليمنية، وقد دافعت عن نفسي دفاعاً مجيداً والأمير البدر يوجّهني، و يقول في هذا الموضوع: قال فلان كذا وفي ذلك الشأن قال علاّن كذا.. وقد ساعدني بمعلوماته وتوجيهاته على الكتابة بصورة منطقية تؤدي إلى دحض تحريضات خصومي وسلامتي من «الإعدام» على الأقل، ومن الاعتراف بالواقع والفضل ومراعاة الشكر على الإحسان بل ومن واجبي الإنساني أن أقرّ ممتناً لذلك الإنسان «البدر» فلولا مساعدته وتوجيهاته ما كان التوفيق في الدفاع عن نفسي حليفي، والفضل من قبل ومن بعد لله العلي القدير، أما عن مفتاح الشيفرة التي وجدوها بخطي وسأل الإمام عنها في البرقية التي أوصلها إليّ كاتبه الخاص ودارما داربيني و بينه من نقاش، فأذكر أن جوابي كان كما يلي: «لقد كتبتُ عدة شفر باسم عبدالله الوزير بعضها أعرف ما فيها و بعضها لا أعرفه ودفتر شفر الوزير بين أوراقه التي لا شك أنها قد سلمت إلى جلالتكم فانظروا ما فيها وإذا وجدتم ما يدل على أنّي متآمر أَخذتموني بما ترون، ثم إني لم أكتب شيفراً إلاّ إلى نوّاب «الحديدة» أو «تعز» أو «إب» فياسبحان الله كيف يُسأل أحمد الشامي المنكوب المضروب المكبّل بأثقل القيود في أعماق سجن نافع عن مفتاح شيفرة كتبها إلى من يقعدون على الكراسي بجانبكم و بين أيديكم؛ أمثال نائبكم القاضي حسين الحلالي، ونائبكم عامل تعز السيد محمد أحمد باشا ثم لا يُسألون وهم أصحاب الشأن عنها؟ وهل يمكن أن يكتب الوزير شيفرة إلى من ليس لديه مفتاح لها؟ إذ كيف سيحلونها؟ وكيف سيفهمونها؟ فأرجوكم أن تطلبوا منهم مفاتيح كل شيفرة كتبتها بخطي إليهم وأنتمَ الحكم فيما إذا وجدتم فيها شيئاً من عنديّاتي أو يخصّني أو يتعلّق بتآمري، إن خصومي يا جلالة الإمام هم الذين يرجعون كل جرم إلى هذا المنكوب المسحوق أحمد الشامي بسبب إخلاصه لكم ولنجلكم البدر.. وما يشبه هذا الكلام الذي أرضى «البدر» وقال: هذا منطق معقول وسوف أؤيّده من عندي بما ينفع إن شاء الله ثم ودّعني وكان الوقت بعد صلاة العشاء وكان ساقي قد أدماه الحديد لطول جلوسي عليه، وعدت إلى «نافع» فوجدت الزملاء مجتمعين في «الآخور» يقرأون لروحي القرآن فقد أيقنوا أني أعدمت، وكان عناق حار؛ وحدّثت من حدثت منهم ببعض ما كان، وطمأنت الزميل الأستاذ نعمان وسائر الزملاء. وكان لموقف «البدر» معي أثره في وقوفي بجانبه ومحبّتي له بل وفي انحياز جميع الأحرار إلى جانبه عندما ثار موضوع «ولاية العهد» ونافسه عليها أولاد الإمام وأولاد أعمامه من الأمراء، ولذلك حديث طو يل ذو شجون في هذه الذكريات.

٣ - مصارع الدستوريين :

وزّعوا المساجين في ثلاثة أماكن؛ الأوّل حصن «قاهر حجّة» وهي قلعةٌ حصينةٌ فيها مخازن للأسلحة والذخائر والحبوب، وإلى جانب الدّار وتوابعها وأماكن الحرّاس يوجد فيها عدّة «برك» لحفظ مياه المطر، ومسجد صغير، وقد أودعوا في هذه «القلعة» الإمام عبدالله بن أحمد الوزير وابن عمه الأمير علي بن عبدالله الوزير، وسائر آل الوزير ما عدا محمد بن علي فقد كان من المغضوب عليهم، فأودعوه «نافع» حيث حشرونا فيه كما سبق، وهو المكان الثاني، أما السجن الثالث فهو «المنصورة» وهو في الأصل معد كدار للضّيافة، وفيه سجنوا الرئيس جمال جميل العراقي، والقضاة أحمد الجرافي، وحسين مطهر، والسيّد علي لطفي، ومحمد أحمد النامي، وسائر من لا يريدون تعذيبه أو بالأحرى ليس لهم رغبة في التشديد عليه.

وكان أشدّ هذه السجون وأرهبها هو «نافع» حيث يسجن القتلة واللّصوص وأصحاب الجرائم وليس فيه أيّ مرفق من مرافق الحياة العادية، ولقد كانت فترة الأربعة الأشهر الأولى من أصعب الفترات على السجناء فإلى جانب ما نكابده من أثقال القيود، وعدم الفرش، وقلّة الماء وهو لا يورّد إلاّ من «برك» حجّة في «حورة»، أو من «الزّعبلي» التي تستوعب سيول أمطار المدينة و يشرب منها الحيوانات، فقد كان الخوف من الإعدام أفظع ما نعانيه، وهم كل يوم يجرجرون من بيننا شهيداً، بل و ينتظر فيه كل سجين الموت حتى أولئك الذين يعلمون أنهم لم يتآمروا، بل لم يعارضوا الحكم في يوم من الأيام.

وكان أوّل من أُعدم الإمام عبدالله الوزير، والسيّد زيد الموشكي؛ ضربوا عنقيهما في يوم من أيام جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ هـ أواخر مارس/ أوائل أبريل سنة ١٩٤٨م لا أذكر تحديد اليوم وتاريخه اليوم، والذي أذكر أنّني في تلك الليلة الشنعاء، والتي ستسفر عن صباح يوم كئيب، سمعت وأنا في «كيس النوم» أتلمّس الكرى، صوت الشيخ عبدالوهاب نعمان يسأل في همس مرعوب، و بصوت باك حنون: أين السيد أحمد الشامي؟ قال له ابن عمه الشيخ أمين نعمان: إنه نائم؛ فقال: لا يخبره أحدٌ بأنهم أخرجوا الآن من «نافع» السيد حسين الكبسي، والسيد زيد الموشكي، إلى حيث لا ندري، وكان رحمه الله يعرف علاقة الودّ والأخوّة بيني و بين زيد، وعلاقة التلمذة والقُربى والأبوّة بيني و بين حسين الكبسي، ثم كان يرثي لشبابي، ولثقل الحديد الذي وضعوه على قدميّ، وخشعتُ، وتحرّكت كلّ ذرة في دمي تنوح؛ ثم لم أشعر بنفسي إلاّ والمؤذّن ينادي «الله أكبر.. الله أكبر» فقمت لكي أؤدّي الصلاة؛ صلاة الفجر بلا وضوء، ولا طهارة، إذ لا ماء ولا تراب، ونكتفي بأن نمسح أكفّنا بأحجار جدران السّجن ثم نمرّرها على وجوهنا ومرافقنا ونصلّي جميعاً قعوداً ننتظر الإعدام.

وأشرقت الشمس، وجاءت الأخبار تقول: لقد قطعوا رأسي عبدالله الوزير وزيد الموشكي في ساحة «القاهرة»، أما حسين الكبسي فقد ورد أمر من الإمام أحمد بتأخيره، وقالوا: إن الإمام عبدالله الوزير قد أوصى، وطلب أن يصلّي ركعتين قبل أن يُسَلّم عنقه الطويل لسيف عبدالإمام، أمّا السيد زيد

الموشكي فقد صرخ واحتج وقال: من حكم عليَّ بالإعدام؟ وحين قالوا له «الإمام»، قال: وأين الحكم؟ فأخرجوا له ورقة فيها «تلغراف» نصه: من الإمام، أو من أمير المؤمنين إلى الأخ النائب: «يكون قطع رأس زيد الموشكي والسلام» وقال المخبرون من الحراس: إن زيداً صاح فيهم هذا ليس بحكم شرعي، وداسه بقدمه، أومزّقه، فتناوشه السيّاف بحُسامه وهويقول: أين الحكم عليَّ بالإعدام؟ لا تفتحوا هذا الباب يا مغفّلون؛ ستندمون.

وأنا أعرف زيداً شجاعاً ثابتاً، وأعرف أنّه لم يحزن لفراق هذه الحياة، لكنه رأى ببصيرته الدّرَك السحيق للعبث وراءهُ مداه؛ وكيف أن وريقةً صغيرة صفراء في كف عسكري تكفي لإعدام حياة، و بلا قضاة، و بلا محاكمة، وخاف على مستقبل اليمن، وصرخ فيمن حوله: ستندمون إن أطعتم الإمام بقتل من يريد، ودون محاكمة؛ وستفتحون باب العبث والفوضى، ولم يُصغ الجهّال فضر بوه وشتموه، ولم يقطع رأسه السيّاف وكان من شهارة إلاّ بعد أن عذّبه.

وصلبوا الجسمين في «حورة»، وعلّقوا الرأسين قبل نقلهما إلى «صنعاء»، وحين ورد الخبر إلى «نافع» اقشعرّت الحياة في دمي، وجف ريقي في فمي، فقد كنت أجلّ الإمام عبدالله الوزير كما أجلّ والدي، وكان هونفسه يحبني كثيراً بل و يُجلّني أكثر مما أستحق، وقد قال ونحن لا نزال محاصرين في «صنعاء» وفي حفل حاشد يضمّ كبار القوم: «لو كان معنا أر بعة مثل أحمد الشامي لانتصرنا» رحمه الله فلقد كان حسن الظن بي إلى حدٍّ بعيد؛ وأما زيد الموشكي فكان أروع الصحاب، وأصدق الإخوان وكان رفيق هجرتي إلى «عدن»، وكان عالماً وشاعراً، وفي ريعان الشباب وقضى ولمّا يتجاوز الثلاثين وكلّه أمل؛ وقد رثيتُه و بكيته بأبلغ الأشعار والدموع.

وتتابعت تلك الوريقات الصفراء بأوامر الإعدام؛ وفي «تلغرافات»: من الإمام؛ أو من أمير المؤمنين إلى الأخ النائب: «يكون قطع رأس محمد الوزير ومحمد بن علي الوزير، وعبدالله بن محمد الوزير»، «يكون قطع رأس أحمد المطاع وأحمد البرّاق»، «يكون قطع رأس حسن أبوراس وعبدالله أبوراس»، وهكذا وهكذا في كل يوم يقطعون رأسا أو رأسين، وأخرجوا من بيننا عبدالوهاب نعمان، وهويقول «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي». كما ورد تلغراف بقطع رأس النقيب حسن التنايف وكان ضخم الجثّة بهيّ الطلعة وضرب المثل الأعلى في الشجاعة والصبر.

جمعة رجب والشهداء الأربعة:

ظل جناح الموت يظلّل سجن نافع طوال شهري جمادى الأولى والآخرة من سنة ١٣٦٧ هـ / مارس وأبريل عام ١٩٤٨م وكانت «التلغرافات»: «من الإمام» أو «أمير المؤمنين» إلى الأخ النائب: يكون قطع رأس فلان الفلاني تفزع الجميع، وكلّ ينتظر دوره، وفي يوم ٦ رجب الجمعة الموافق ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ م وهويوم عيد عند اليمنيين لأنه يوم ذكرى استجابة أهل اليمن لله ودخولهم في دين الإسلام في أول جمعة من شهر رجب؛ وكنّا على يقين بأن الإمام لن يجرؤ على أن يقطع رأساً في هذا اليوم المقدّس

عند اليمنيين ؛ لكنّا فوجئنا بعد صلاة الفجر بالأستاذ أحمد حسن الحورش يقول باسماً : لقد حلمت أنني قتلتُ وقطعوا رأسي في ساحة كبرى ، وقطعوا رؤوس ثلاثة من الرفاق عرفت منهم واحداً ، وقد طرتُ في الهواء ، ورأيت الرؤوس الأربعة في الأرض مفصولة عن أجسامنا ، وذهل الجميع وهُرِعوا يتطهّرون استعداداً للشهادة .

وكأن الأخوين محمد صالح المسمري ومحيي الدين العنسي رفيقي الأستاذ الحورش قد أيقنا أنّهما من جملة الأربعة وقد عمدا مع الحورش يخيطون الازارات على أقدامهم ، ويحكمون شدّها على بطونهم ، لكي لا تنكشف عوراتهم عندما يصلبونهم ، ولم نكن ندري من هو الرابع بل ونتساءل : ولماذا لا يكون هناك خامس وسادس إلى عاشر وعشرين ؟ وما إن انتشر الضحى حتّى سمعنا نفير الموت يعزف موسيقاه ، والجوقة العسكرية تنشد اللحن الجنائزي المعروف وتواثب الحراس يُحْكِمُون إغلاق أبواب السجن ، وتلك هي العادة عند وصول « تلغراف » يقضي بإعدام سجين .. و بعد حوالي ساعة ، رأيناهم يُدْخِلون إلى سطح السجن أستاذي حسين الكبسي وزير خارجية الثورة ، وهوبعمامته ويحمل كفنَهُ على عاتقه وكانوا قد أنزلوه من سجن قلعة « القاهرة » ، وأطلّ على حوش سجننا من حافة « النوبة » حيث أوقفوه ينتظر مجيء « الوقت المعلوم » وقت « صلاة الجمعة » ؛ ونظر إليّ بنظرات خاشعات فيها الحنان والابوة والفداء ، وأماني الأمة تبكي خيبة المناضلين ، وقال وكان زميلي ابراهيم الحضراني يقف بجانبي : « الثمن غال » ؛ « لا تقلقوا فإنه يوم لقاء الأحبة ، محمد وصحبه » ، وكنتُ لا أزال في عنفوان الشباب وكان حسين الكبسي أعظم من عرفت من رجالات اليمن إخلاصاً ومعرفة ولباقة .

وانتظر الجميع ساعة أو ساعتين في قلق شديد وعيوننا معلقةٌ بباب السجن نترقّب متى يفتحه السجّان و ينادي بأسماء من سيرافقون « الكبسي » إلى ساحة الإعدام .

وقلتُ للزميل ابراهيم الحضراني : أخشى أن الإمام أحمد قد التفت اللّفتة الرهيبة وجاء دور العلماء والأدباء وإذن فدورنا وشيك ؛ وأجاب محمد الفسيل : لاشك عندي في ذلك ، وكان الأستاذ الحورش قد وهب حذاءه لزميله ورفيق صباه ودراسته في « بغداد » عبدالله السلاّل قائلاً له : لست بين من رأيتهم في الحلم ؛ ولن يقتلوك ؛ ولبس السلاّل الحذاء بشيء من الاغتباط فقد كان في أمسّ الحاجة إليها ؛ وأما ابراهيم الحضراني فقد كان يملك مثلي « كيس نوم » يدخل فيه ليلاء هروباً من « القمل » و« البق » ، وكان من بين الشباب الذين رافقوا الأستاذ أحمد محمد نعمان من « عدن » شاب ظريف من الحجريّة ، وكان بلا كيس فرقّ له قلب ابراهيم ، ولما أيقن أنه سيكون ممّن سيعدمون ذلك اليوم قام وتطهّر و وهب الكيس لذلك الشاب ، وخلال ساعة سمعنا موكب « النائب » بالزوامل و« المرافع » والطبول ، فعرفنا أنه في اتجاهه إلى الجامع الكبير لأداء صلاة الجمعة ، وحضور حفلة الإعدام بعدها ، وفجأة سمعنا صرير مغالق باب السجن ومزاليجه ؛ وانشقّ عن وجه كبير الحرّاس « ناصر علي » بوجه أصفر ، ورأى الأخ عبدالله السلاّل واقفاً ، فأشار إليه بأصبعه : أن أقبلْ ؛ فقال السلاّل : أنا ؟ فأشار « ناصر علي » برأسه ـــ وكأن لسانه قد انعقد ـــ : نعم تعال ؛ فقال السلاّل مستغرباً ؛ تعني أنا أنا ؟ فقال ناصر علي : نعم أنت . فصرخ السلاّل ينادي أحمد الحورش : يا أحمد ها قد سبقتك إلى رحمة الله فخذ حذاءك .. وما إن

سمع «الحورش» ذلك حتى وتب كاللّبوة قائلاً: لا.. لا.. ليس أنت.. أنا أنا المقصود، وقال ناصر علي للسلاّل ما اسمك؟ فقال: اسمي عبدالله السلاّل، قال: أنا أطلب أحمد الحورش، وكان موقفاً مذهلاً رائعاً مبكياً مضحكاً يدلّ على رباطة جأش «السلاّل» إذ فكّر في «الحذاء» وهم يدعونه للإعدام.

ونادى باسم المسمري ثم العنسي وأغلقواالباب.

وقلت في نفسي: أربعة كبار يسجد التاريخ إجلالاً لهم وإكباراً، وقد اختار القدر لاستشهادهم أخلد يوم في اليمن «جمعة رجب» الذكرى المقدسة التي يحتفل فيها اليمنيّون بيوم إسلامهم، وقلت يا عجبا، في يوم «إسلام اليمن» كيف يُقْتَل أربعة يمثلّون كل إيمان اليمن؟ يا لعجائب القدر.

وقد بقي الشهداء الأربعة في «عشّة» الحرّاس ساعتين، قبل أن يساقوا إلى ساحة الإعدام لأن «السيّاف» كان ذلك اليوم مريضاً وامتنع الجميع خارج السجن من ضرب أعناق الزملاء الأربعة، وحاول الحراس إقناع بعض القتلة من المسجونين عندنا في «نافع» بأن يقوموا بالعملية فامتنعوا أيضاً، وبعد محاولات وإغراءات بالدراهم والوعود، وافق أربعة على القيام بها؛ والنائب وموكبه ينتظرون في ساحة «حورة» ونحن ندعو ونقرأ القرآن. وخرج الشهداء الأربعة بعد أن فكّوا قيودهم وربطوا أيديهم بالحبال وسمعنا من بُعْد أهازيج الموت من أبواق الموسيقى العسكرية ثم صرخة مدوية «الله يحفظ الإمام»، وعاد موكب النائب فعرفنا أن أرواح الشهداء قد لحقت بالرفيق الأعلى.

ومرت فترة لا أستطيع وصفها بالطول أو القصر، فلا مقاس للزمن في مثل ذلك الوقت اللّعين، وانهمر الدمع غزيراً، وعاد القتلة الذين استأجروهم ليقتلوا رفاقنا عادوا وقطرات الدم التي تطايرت إلى ثيابهم لا تزال تفور؛ عادوا إلى نافع ليسكنوا ويأكلوا وينامو معنا، نعم عادوا لكي يهلكوا بنظراتنا ووخزات تأنيب الضمائر... ومرت ساعة وإذا بالسماء تغبّر وتتململ في الآفاق زوابع كأنها أقبلت زاحفة من رمال تهامة، وأظلمت جوانب الأرض، وتغيّرت ألوان كل ما حولنا من الجبال والآكام والقصور، وبانت النجوم، والتأمت سحب، وهزمت رعود، ولمعت بروق وانفجرت صواعق؛ صواعق بلا مطر.. وهذا واقع لا خيال لقد حدث كل ذلك فجأة وقد كنت أعد الصواعق؛ وأحصيت منها عشرين صاعقة انفجرت ما بين قصر «سعدان» وفي رحاب «حورة» حيث الجثث مصلوبة معلقة، وفزع النائب والموظفون، وأمروا بإنزال الجثث ودفنها دون أن ينتظروا إذناً «تلغرافياً» من الإمام، وهذا والله ما حدث وليس من تزوير الخيال وقد ظن البعض أنه العقاب قد حلّ بحجّة وأهلها، وشهد قوم بأنهم من بعد إنزال الجثث قد شاهدوا فيضاً من النّور سرى وقبّل القبور التي واروهم فيها.

وأظلم الليل وهطل المطر ونحن خائفون خاشعون؛ وندم الزميل ابراهيم الحضراني على تفريطه بكيس النوم ولا أذكر هل استرجعه أم صبر واستبدله بكيس جديد؟ ولما أشرق صباح اليوم التالي كانت السماء صافية كأنما قد غسلتها في الليل أرواح الشهداء، ووقفت تلك «التلغرافات» حتى أتى «شعبان».

سيف الحق ابراهيم:

تطلّعت آمالنا لفرج قريب، لمّا سمعنا أخباراً تقول بأن جهوداً تبذل بواسطة «عبدالرحمن عزّام» و«محمد علي الطاهر» و«عبدالله الحكيمي» و«الشيخ حسن البنا» و«محمد الخضر حسين» وزعماء من المغرب والعراق ومصر والجزائر يتصلون بالإمام ليوقف القتل ويخفّف عن المساجين، و بدأنا نصلح ونحسّن أماكننا، واستحدثنا «مرحاضاً» و«مغسلاً» و بدأت رسائل الأهل والأصدقاء تصل إلى «المساجين» مع بعض الملابس والدراهم والمأكولات وكان يُجْرَى لكلّ شخص ربع ريَال يوميّاً، وكميّة من الحبوب. وفي يوم ٢٢ شعبان ١٣٦٧ هـ الموافق ٢٩ يونيو ١٩٤٨م وصل إلى السجن نبأ تهامس به أوّلاً الحراس، يقول إنهم وجدوا سيف الحق ابراهيم ميّتاً على فراشه، بعد أن تناول طعام الغداء ــ وكان مسجوناً في أحد البيوت التابعة لقصر الإمام «سعدان»، وكانت الغمزات واللّمزات حتى من الحراس تشير وتدّعي وتزعم.. أن السمّ قد دُسّ للأمير ضمن الغذاء..

وصرخت بلا وعي:

الله أكـبـر مـات ابـراهـيـمُ	فـانـهـدّ ركـن للـفـخـار عـظـيم
أتـراه حـزناً مات أم قهراً قضى؟	أم أتـه كـاس الـردى المسموم؟

وتذكّرت مواقفه الجليلة، وإخلاصه لوطنه وتضحيته، و بكيت وانتحبت فقد كان صديقاً وخليلاً وقلت لنفسي: هل يا ترى قد سئم الإمام قطع الرؤوس، وصلب الأجسام، فلجأ إلى وسيلة أخرى، ودافعتُ عنه علم الله في قرارة نفسي لأنه كان شجاعاً، ولا أتصوّره يركن إلى وسائل الجبناء. وقلت: من هي هذه الحيّة الرقطاء التي سوّلت له عمل مثل هذا: بأن يبيد خصومه بالسم الزعاف؟ إنه أمرٌ مفزع مخيف؛ كنّا نخاف نفخة النفير، والنشيد الجنائزي، وصرخة الجنود: «الله يحفظ الإمام» والقتل في حورة، والصلب والتعليق، واليوم سنخاف الطعام والشراب؟

و بعد صلاة العشاء سألت الله أن يعيد إلى قلب الإمام شجاعة الملوك إن كان لا مناص من القتل، وأن يحرضه على إصدار الأحكام بأوامر الإعدام حتى بالتلغرافات؛ فالقتل سرّا لا نريده، لأنه مخيف، والموت بالسيف وفي الميدان شهادة فيها مجدٌ وتكريم.

علي الوزير والخادم غالب الوجيه:

وفي اليوم التالي، أتى ما صدّق ظني، من أنّ الإمام لم يأمر بقتل أخيه ابراهيم بالسمّ.. وأنه قد مات قهراً و بالأجل المحتوم؛ أو أن الله قد استجاب دعوتي فقد أرسل الإمام تلغرافاً يقول: «إلى الأخ النائب يكون قطع رأس علي الوزير وغالب الوجيه والسلام».

لم يكن هناك أي إنسان في اليمن يظن أن الإمام أحمد سيقدم على إعدام علي بن عبدالله الوزير لأنه عندما قُتل الإمام يحيى لم يكن في «صنعاء» بل في المحويت والجميع يعرفون أيضاً المنافسة الشخصية بين الرجلين وكان وجهاء اليمن وفي مقدمتهم السيد عبدالرحمن الشامي والسيد قاسم العزي والسيد

محمد بن محمد زبارة والسيد علي بن حسين الشامي يراجعون جادّين و يلحّون على الإمام أحمد في استبقاء الأمير علي الوزير ولو سجيناً طوال حياته، ولكن؛ لهوى النفوس سريرة لا تعلم.. ففي نهار يوم ٢٣ شعبان أنزلوا الأمير علي الوزير ومعه التاجر الكبير الخادم غالب الوجيه من سجن قاهرة حجة إلى «حورة» وضرب السيّاف عنقيهما وصُلبا.. فارتعشت فرائص اليمن هيبة وإجلالاً وارتاع الناس وفزعوا كيف في يوم واحد يُعدم أكبر أمراء اليمن وزعمائها، وأكبر تجارها وأغنيائها وكانا معاً من رجال مكارم الأخلاق، ومن المحسنين الكرماء.

وقد قال الحرّاس الذين أخرجوهما للإعدام أن غالب الوجيه تساءل: ماذا صنعنا حتى يأمر الإمام بإعدامنا؟ وكيف يعدمنا دون محاكمة؟ فأجابه الأمير مبتسماً: إنها جهنم يا حاج غالب ليس من السهل دخولها، ومن أراد ذلك فعليه أن يرتكب الكبائر، ليستحقّ غضب الرحمان، وإنه بعد ذلك أخرج مصحفاً من جيبه ونادى وكيل الإمام الشيخ يحيى «العجّا» قائلاً؛ سلّم هذا المصحف إلى صاحبك أحمد، وقل له: هذاالحكم بيني و بينه يوم القيامة وعند الله تجتمع الخصوم.

وقد دهشت وفزعت ثم اندمجت في أحلامي وتصوّراتي وسمعت صوتا مفزعاً لا أدرى مصدره ينادي من الأعماق المجهولة و يقول: يوم انتقام مفجع في رحم الزّمن، يصنعه القدر للحاكمين في اليمن.

عزيزيعني ومحسن هارون:

ومرّ عام توقّفت فيه «التلغرافات»، وألفنا حياة السجن، وقامت صداقة بيننا و بين بعض «رسمه» وحراسه، وعملنا على إزالة «القيود» من أقدامنا بمساعدة المساجين من قطاع الطرق والقتلة واللصوص، و بدأنا نفقّههم في الدين، ونعلمّهم القراءة والكتابة، وكنا في الليل بعد أن يغلقوا الأ بواب نتخلّص من القيود، ونقيم ندوات أدب ومحاضرات، أو نلعب «الورق» أو «الشطرنج» الذي صنعنا قِطعه بأيدينا وكان الوالد عبدالرحمن الشامي قد أرسل لي بالهدى النبوي لابن القيّم، وسيرة ابن هشام، ومختار الصحاح، وأرسل القاضي حسن الشماحي لأخيه عبدالله بأجزاء من شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة، ووردت لآخرين كتب أخرى في التاريخ والتفسير والأدب، وبعض الدواو ين الشعرية، و بعد عصر ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ٥ فبراير ١٩٤٩ م وهو يوم ذكرى اغتيال الإمام يحيى الأ ولى، رأينا السّجان يغلق الباب الكبير وسمعنا «النفير» بضرب صوت «التجمّع»، ثم «الموسيقى العسكرية» تعزف اللحن الجنائزي، وكنت جالساً مع الزميل «عزيزيعني» وفي يده المصحف يقرأ «أتى أمر الله فلا تستعجلوه»، وإذا بالسجان «ناصر علي» يفتح باب السجن و يدعوالحاج عزيزيعني والشيخ محسن هارون فعرفنا أن تلغرافاً صغيراً في وريقة صفراء، قد ورد من الإمام...

وكان الشيخ محسن هارون والداً لأحد المباشرين لقتل الإمام يحيى وقد بلغ الثمانين من عمره، وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب، لكنّه في رصانة عقله ووجاهته يمثّل أحد الأقيال، أما الحاج عزيزيعني فكان لا يزال في حوالى الخامسة والثلاثين، وهو المرافق الخاص للإمام عبدالله الوزير وكان مثقفاً، قد سافر إلى بريطانيا بمعيّة الوفد الذي بعثه الإمام يحيى مع ابنه سيف الإسلام الحسين لحضور حفلة تتويج ملك

بريطانيا، وكان من المتنوّرين المتطلعين إلى الإصلاح، وعاد الرعب، وزحف الخوف، وتوقعنا عودة السيوف لتحصد الرؤوس من جديد.

الجلد والتفريق:

وفي صباح اليوم التالي رأينا الحراس في هرج ومرج، ولاحظنا بعض القضاة والسادة يتوافدون إلى مكان «الحاشدي» مدير سجن نافع ثم إذا بأربعة حراس مع «ناصر علي» يفتحون باب السجن، و ينادي كبيرهم: أين أحمد الشامي وأحمد المروني والعزي صالح السنيدار، ومحمد عكارس؟ فتحاملنا بأثقالنا إليهم، ففرّقونا في أماكن مختلفة كان نصيبي مرحاضاً قديماً، رجموني فيه بعد أن أحكموا دقّ قيودي وزادوني قيداً.. وكذلك فعلوا بالزملاء الثلاثة، وظننت وظن الجميع أنهم سيسوقوننا إلى «حورة» للإعدام، و بعد ساعة أقبلوا وفتحوا الباب، وأخذوني إلى مكان «المدير الحاشدي» وإذا بجانبه أحد الحكّام الشرعيين في حجّة من آل «جحّاف» نسيت اسمه الآن وهو أديب وفاضل يفيض وجهه بشراً، ووكيل الإمام المالي يحيى «العجّا» والأخ السيد عبدالله عبدالكريم صهر الإمام أحمد، وأحد زملائي القُدامى، فسلّمت وقعدت؛ وقال الأخ عبدالله عبدالكريم: وردت أسئلة من الإمام نريد منك أن تجيب عليها وقدأمر أن من يمتنع منكم الأ ربعة عن الجواب، أويحاول التملّص والإنكارفيجلد كل يوم ثلاثين جلدة، وأنا أنصح لك بالتزام الصدق وقول الحقيقة التي قد أصبحت واضحة عند الإمام ومن سيغالط إنّما سيضرّ نفسه، ثم أردف: وأنت تعرف ما بيني و بينك من صداقة وأنّي أحبّ لك النجاة والخير، وتكلّم «العجّا» منذراً مرغّباً وكذلك «المدير» الحاشدي متوعّداً مهدّداً وظل الحاكم «حجاف» صامتاً مُصغياً.

وفي سجل رهيب سريع استرجعت في عقلي الباطن تاريخ حياتي واستعرضت كل ما حدث منذ قامت الثورة وحتى البارحة حين أعدموا الزميل «عزيز يعني» الذي ربما لو سألوه وعذّبوه وضعف كبشر لوجدوا عنده أكثر مما سيجدونه عندي وعند المروني وعكارس والسنيدار؛ وقد كان عيبة سرّ الإمام عبدالله الوزير وضابط الاتصال بينه و بين الأحرار، وواضعي الميثاق الوطني المقدس، وقلت في نفسي و بسرعة روحية فكرية لقد ذهب كل من عملت معهم أو أنهم قد نجوا؛ ومن بقي منهم لم يكن بيني و بينهم ما أخافه عليّ أو عليهم ومهما قلت في من قد مات من الشهداء فلن أضيره، ومهما دافعت عنه فلن أنفعه بل سأضر نفسي ومن بقي من الزملاء واستعرضت أيضاً و بسرعة فكرية كل ما سبق أن قلته وقاله الزملاء مما عرفته خلال عام.

فقلت: لن أتملّص من الجواب على أي سؤال، ولن أنكر شيئاً أعرفه وكيف وقد اطّلع الإمام على كل شيء وقضى على من اغتالوا والده الإمام يحيى وأولاده وعلى من تآمروا، وسألت: وأين المروني والسنيدار وعكارس؟ لماذا لا تحضروهم معي وتكون أجوبتنا على أسئلة الإمام موحّدة؟ فأجاب يحيى العجّا: قد أمر مولانا بأن نفرّق بينكم في سجون انفرادية وألا يعرف أي منكم ما سيقوله الآخر، ثم إن سؤالات كل واحد منكم تختلف عن أسئلة الباقين وقد أمر الإمام بالتشديد على عبدالسلام صبره ومحمد المطاع وعبدالله السلال وحسن العمري وأحمد محبوب وتفريقهم ولكنه لم يأمر إلا بجلد الأ ربعة إذا لم يعترفوا

و يدلوا بالمعلومات .

وأثناء ما كان يتحدث كنت أيضاً أستعرض بقية الشريط الرهيب وأتذكّر ما كنت أبعثه إلى الإمام أحمد من رسائل ونصائح وأنا بصنعاء قبل الثورة بل واستحضرت روحيّاً كل الشهداء، عبدالله الوزير وحسين الكبسي وعلي الوزير والعنسي والحورش والموشكي وعزيز يعني وغيرهم وأستأذنتهم في أن يساعدوني في أن أقوى على أن ألجأ إلى أسمائهم لأفتدي بهم بعض الأحياء من الزملاء؛ وأيقنت أنّهم سيفرحون و يستبشرون بل وأيقنت بالفوز والتوفيق الرباني. ومع ذلك فلم أضطر إلى ما عزمت عليه.

وكان السؤال الأول: ماذا تعرف عن قتلة الإمام يحيى ومن الذي دبّر المؤامرة؟ قلت — وهم يكتبون ما أقول —: لاشك أن مولانا أمير المؤمنين قد اطلع على كل شيء؛ وعلى أساس ذلك أمر بقتل الفعلة وقد نشرت الجريدة أنهم أولاد الحسيني وابن هارون وعلي ناصر القردعي وآخرين لا أتذكر أسماءهم، وقدسبق أن أخبرت مولانا أمير المؤمنين في اعترافاتي التي تعرفونها واطلعتم عليها قبل عام بأني سأقبل شهادة أيّ واحد من أولئك الذين اعترفوا بقتل الإمام يحيى ورئيس وزرائه عبدالله العمري ومن معهم إذا قال، أو ادّعى أنّي كنت على صلة به أو أعرفه أو حرضته أو تآمرت معه، وله بعد ذلك كل الحق في إعدامي بتلك الجريرة.

قال أحدهم وأظنه الحاكم السيد «جحّاف»: ومن الذي استأجرهم وحرّضهم؟ قلت: أظن أن الإمام قد عرف أنه الذي ادّعى الإمامة ولذلك أمر بإعدامه! قال: وحسين الكبسي؟ قلت: عيّنه وزيراً للخارجية وكانا صديقين؛ قال؛ والورتلاني؟ قلت؛ هوواضع الميثاق وسبب كل ما جرى علينا من و يل ومصائب، قال: وأين هو الآن؟ قلت؛ لا أدري فيما إذا كان الإمام قد سجنه أو سلّمته إليه الدولة التي طار من صنعاء إليها «فضحك، وضحك الآخرون»... واغتنمت الفرصة وقلت؛ قولوا لمولانا أمير المؤمنين إنه يستطيع أن يعدمني وهو مطمئنّ؛ فقد أيّدت الدستور والوزير وحكومته وأنا الذي احتللت الإذاعة، وأطلعت أولاد الإمام إلى القصر، وفتحت الخزينة، وحرضت عليه من إذاعة صنعاء، وأنكرت جميله وإحسانه، بل وكتبت الميثاق بخطي، وكل جرم من هذه الجرائم يستطيع أن يحكم عليّ من أجله بالإعدام، وأما أن يؤاخذني بجريمة قتل الإمام فأنا أناشده الله — كما قلت قبل عام — أن يحاكمني إلى شريعة من شرائع السماء أو إلى أي قانون من قوانين الأرض؛ قال يحيى العجّا: ليس عندنا غير كتاب الله، قلت: به أريد أن يعاملني قال: هل تقصد أنه ظلمك؟ قلت كلا يا شيخ يحيى، ها قد اعترفت لكم كما اعترفت للإمام بأنّ كل ما عملته من تأييد للوزير وثورته، بل بعضه استحقّ به ما أنا فيه وما هو أعظم، ولكنّي أتبرأ فقط من التهمة التي يلصقها بي خصومي وهو علاقتي بمؤامرة اغتيال الإمام يحيى... قال الحاكم: قد اعترفت بأنك كتبت الميثاق الوطني الذي على أساسه قتل الإمام، و بويع الباغي الوزير، وهوموقّع في شهر صفر سنة ١٣٦٧ هـ قبل قتل الإمام يحيى بشهرين فما قولك؟ قلت: قد سبق أن أجبت على هذا وهو أنّه لا علاقة للميثاق بقتل الإمام وإذا رجعتم إلى التوقيعات فستجدون توقيعات الوالد عبدالرحمن الشامي ومحمد زبارة ومحمد الحجري وقاسم العزي وأحمد الكحلاني وغيرهم من العلماء والمشايخ الذين أقرّوا ما في الميثاق كنظام لا يُبايع أيّ إمام إلا عليه سواء

الإمام أحمد أو غيره، والأخ عبدالله عبدالكريم يعلم أن زيد الموشكي وحسين الويسي قد عرضاه على الإمام أحمد للموافقة عليه قبل قتل الإمام يحيى؛ وتمتم السيد عبدالله: نعم. نعم.

قال يحيى العجّا: ومن هم خصومك؟ قلت: بعض إخوة الإمام أحمد.

قال: لماذا؟ قلت: لأني كنت صديقاً له ولإبنه البدر، وأنت تعرف الحقائق يا شيخ يحيى. فابتسم وقال: وأنت هل أخبرت الإمام بالميثاق؟ وكان السؤال محرجاً لم أتوقع أن أحداً سيسألني عنه، قلت؛ هذه هي غلطتي الكبرى التي أستحق عليها ما أنا فيه، والتي أعذر الإمام حتى لو قتلني، بل وسيعذره الله والتاريخ— وارتاح العجّا بل وكل الهيئة بما فيهم مدير السجن الحاشدي لهذا الجواب— فاسترسلت: ولكنّي أخبرت الإمام أحمد بما هو أهم وأعظم من الميثاق، ثم سردتُ لهم بعبارات مؤثرة بعض ما كنت أكتبه إليه من صنعاء خلال الستة الأشهر التي سبقت الثورة من رسائل نصح وتحذير وتهويل لبشاعة الأحوال في صنعاء وتضايق الناس من الفوضى والفساد وحثّه على المبادرة بالانتقال من تعز إلى صنعاء قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه فتأثّر الجميع لكلامي وقال العجا: «تريدون الصدق يا إخوان؛ والله إن أحمد الشامي قد أدّى واجبه وما نقص إلا انه لم يركب مع الإمام يحيى إلى «حزيز» و يقتل معه»..

ووافق الجميع، وأجمعوا على أني قد أخبرتهم بما أدري واعترفت بأخطائي وأن لا لزوم لجلدي ذلك اليوم، وفكّوا عني القيد الإضافي، وأعادوني مكاني، ورفعوا برقية إلى الإمام بما كان، وجلدوا كلاًّ من الإخوان الثلاثة ثلاثين جلدة فقد قالوا إنهم كذبوا ولم يعترفوا بما يعلمونه، ولا أدري ماذا كانت الأسئلة التي طلبوا منهم الإجابة عليها، أو على الأصح لا أتذكرها الآن، وكانت المفاجأة في اليوم التالي أن طُلِبتُ إليهم من جديد، و بوجوه كالحة قالوا لي: لقد رجع جواب الإمام: «لا تصدّقوا أحمد الشامي واحذروا أن يغشّكم، و«يزيد» عليكم، فإنه منطيق شيطان ماهر، واجلدوه» وسألوني بقية الأسئلة ثم أمروا بجلدي كالاخوان ولمدة خمسة أيام ثم جاء الأمر بترك الجلد وإزالة القيود الإضافية واستأنفنا حياة سجن رهيب؛ إن كل أجوبة المساجين على الأسئلة كانت محفوظة بين أوراق الإمام أحمد في تعز ولو بحثوا عنها لوجدوها؛ إنها وثائق مهمة جدا.

السجّان ناصر علي وقصّة جلدي:

ناصر علي جرانع شخصيّة لا أظن أديباً أو عالماً أو شاعراً عاش في أواخر أيام الإمام يحيى وشهد ثورة الدستور وانتصار الإمام أحمد حميدالدين دون أن يتعرّف عليه، أو لم يكن قد اتصل به أو حادثه؛ إمّا سجيناً في نافع أو زائراً لسجين ما بين فترة ١٩٤٥ و١٩٦٢م وقد كان سجن «نافع» أثناءها مثوى الثوّار والأحرار والمنادين بالإصلاح من أبناء اليمن..

و«ناصر علي» كان كبير السجّانين فيه وهو أبيض الوجه خفيف شعر اللحية والرأس أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وقّاد العينين، رصين الكلام «دائم العبوس كثير الجلوس» كما اشترط الحجّاج أن يكون السجّان. وتراه حين يُساق إليه السّجين الجديد منتشياً فرحاً كأنما وفر ثروة إلى كنزه الثمين، وأظن الإمام أحمد قد اصطفاه من بين المئات من حرسه «العُكفة» بعد خبرة طويلة.. وهو حريص على إدارة

السجن بلطف السياسي المحنّك الذي يدير بلدة معظم سكانها من المتمرّدين فيُحكم كل ما يعرقل أي حركة لهم دون إيذاء أو استثارة، و يقضي معظم وقته رابضاً في باب السجن كأنّه بواب حديقة سباع، أو حيوانات ضارية.

وعندما يحين المساء ويخيم الليل يدخل بفانوسه ومعه أحد الحراس وهما مجرّدان من السلاح حتى «الجنبية» و«سكينها» اللهم إلا هراوة يسمّونها في اليمن «الصميل»، وذلك خشية من أن يفكر أحد «السجناء» بالاستيلاء على ذلك السلاح أو مهاجمة السجّان.. نعم يدخل «ناصر علي» بفانوسه ومع رفيقه ليقوم بعملية عدّ «المساجين» لكي يتأكّد أن الجميع موجودون، وقبل أن يدخل من الباب يصيح بصوت عال: «ألا كُلًا مكانه»؛ فيسرع كل واحد إلى محلّه الذي ينام فيه، وكان يحرص وهوينتقل من مكان إلى آخر على أداء التحيّة، ولا يمانع مع رفيقه إذا صادف وقت دخوله... البعض يتناول وجبة العشاء أن يُجامله بتناول لقمة أو رشف فنجان من قهوة «القِشر» ولاسيما إذا كانت من قهوة القاضي عبدالله الشماحي التي يعرف أنهم يوردونها إليه من بيت أخيه القاضي حسن الشماحي أحد حكام الإمام في «حجّة».

كما كان يعرف نفسية هؤلاء التعساء، و يعلم أن أعظم ما يطمحون إليه في مثل حالتهم، هو أن يخرجوا من السجن أو أن تخفّف عنهم الأغلال أو تفك القيود، أو يؤمر بمعالجة المريض، فكان يحرص كل ليلة على إطلاق إشاعة تطمئن السجناء نزلاء مملكته؛ فيقول مثلاً «أبشروا يا جماعة فقد سمعت أن أمراً ورد بإطلاق البعض منكم»؛ ومرة يقول: «يظهر أن هناك إطلاقات في طريقها إلى النائب: هكذا قال لي من أثق به». وأحياناً يقول: «سمعت أن جماعة من البلاد الداخلية (يقصد خارج اليمن) يراجعون الإمام و يتشفّعون لديه من أجل إطلاق المحابيس» وهكذا.. ومن العجيب أننا كنّا نرتاح لذلك ونستشرف الفرج، حتى وإن أشرق الصباح علينا بالإعدامات وأصوات النفير وألحان الموسيقى الجنائزية.

ومرة دخل علينا و بعد أن أحصانا عدّاً، قال: أبشروا بالفرج فسيطلقكم الإمام جميعاً لقد أُلقي القبضُ على «الدستور» وزوجته «الورتلّي» في «بيت الفقيه» وقصد بالورتلّي «الفضيل الورتلاني» وكأن «الدستور» الذي ثار الأحرار من أجله إنما هوحيوان ناطق، وله زوج هوالورتلاني!! ولم نستطع إلا أن نضحك فقال: لماذا تضحكون؟ فأجاب أحدنا بهجة وفرحاً وانشراحاً: بالقبض على الدستور وامرأته.

وكأنه كان يقدّر أن إشاعة الاطمئنان في نفوس المساجين ستصرف أذهانهم عن إثارة أي قلق وهو يرغب في أن يظلّ رعاياه في هدوء حتى يشرق الصباح.

وكان من حسن حظّنا أن أوامر الإمام بالتشديد علينا وجلد الأربعة الذين كنت أحدهم لم تصدر إلا بعد مرورعام من حادثة قتل الإمام يحيى؛ فخلال هذا العام كنّا قد كسبنا عطف النّاس الذين كانوا كثيرا ما يترددون على السجن بسبب المشاكل اليومية إذ لم يكن «نافع» سجناً خاصاً بالسياسيين؛ بل

سجناً عاماً يفد إليه يومياً الكثير من المواطنين «تجاراً» كانوا أو «عمالاً» أو «مشايخ» أو «موظفين» أو كانوا من «الفلاحين» المتخاصمين لدى القضاة، و يقضي البعض منهم اليوم والثلاثة والأسبوع والأسبوعين، ولا يخرجون إلا وقد عرفوا المساجين «الدستوريين» وآكلوهم وسامروهم وصلّوا معهم وتحدثوا إليهم في شتى شؤون الحياة وعرفوا أنهم ليسوا كما قالت الإشاعات «كفّارتأو يل» يريدون أن يبيعوا اليمن للنصارى، وأنهم لم يقتلوا الإمام يحيى بل ثاروا من أجل «الشورى» و«العدل» آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، و يرون بينهم المقرىء والعالم والأديب والشاعر والشيخ والوجيه فتتغير أفكارهم عنهم، و يعتقدون في بعضهم الفضل فيعتبرونهم «أولياء» دعواتهم مقبولة فيتبرّعون لهم بما يستطيعون من أجل كسب الدعوة للمتبرع بصلاح أهله وماله وولده؛ وليس ذلك فحسب بل وحين يخرجون يشيعون بين الناس: أيّ قوم صالحين تضمّهم جدران نافع الرهيب ــ وكنت ولا أقول هذا تباهياً ــ أحظى بنصيب وافر من ذلك العطف؛ ربّما لأني كنت من أصغر المساجين سنّاً، وربما لأني كنت ــ بحكم مكاني في الغرفة كما أشرت في فصل ما ــ أؤمّ من في مكاني في صلاتي المغرب والعشاء، وما بلغت الخامسة عشر إلاّ وقد حفظت القرآن، وأتقنت تجويده، وربما لأن قيودي كانت أتقل القيود، وربما لأن أسرتي مشهورة في تلك الأصقاع، ولنا أهل وأقارب في حجّة، وهم يسألون كل من دخل «نافع» أو خرج منه عنّي، وربما لأن الوالدة رضي الله عنها كانت تكثر الدعاء لي، وربما لكل ذلك كنت أنال عطفاً كبيراً ممن يعرفونني و يتحدثون إليّ ويجالسونني وكان البعض منهم عندما يطلق يظل يواصلني بالهدايا من دراهم وسمن وعسل وتمر وزبيب، وليس ذلك فحسب بل حتى «الرسم» والحراس والعساكر الموكلين بالسجن كانوا قد غيروا مفاهيمهم عنا وعرفوا أقدارنا وأصبح البعض منهم يقومون بمنافعنا السرية من إدخال رسائل أو إخراجها أو تهريب كتب وأقلام وورق، أو نقل أخبار شفوية أو صحف محلية أو أجنبية، ونحو ذلك.. ولذلك لم يتحمّس السجّانون لأوامر التشديد، وكما قلت فقد استطعت أن أقنع لجنة التحقيق ببراءتي وكتبوا مع نائب الإمام مراجعة بشأني فأجاب عليهم ذلك الجواب الساخر آمراً بأن أجلد كالآخرين، ونفّذ «ناصر علي» الأمر في اليوم الأول كما يريد الإمام فأوجعني، وفوجئت به في اليوم الثاني بعد أن جلد الإخوان الثلاثة يقول أما «ابن الشامي» فقد أمر مولانا بجلده عاري الظهر، وسأجلده في «العشة» [المكان الخارجي] وجرجرني وأنا في فزع ورعب أسأل الله الإعانة وأن يعجّل بالفرج، وعقوبة الظالمين، وما إن وصلت مكان «العشة» حتى أمسك بيدي متضرّعاً وهو يقول: سامح ناصر علي يا سيدي أحمد لقد أقسمت لهم يميناً بالطلاق أنني سأجلدك ثلاثين جلدة، قلت له مستغرباً موقفه: لا عليك افعل ما تؤمر، قال: سامحني، ثم نقر جسمي بعصاه ثلاثين نقرة لطيفة، وهو يرتعش و يقول: سامحني، قلت: سامحك الله، قال: وادع لابنتي بالشفاء، قلت: اسأله جل وعلا أن يعجّل لها بالعافية والشفاء، قال واقرأ لها الفاتحة فتلوتها، فقال: تظاهر بأني أوجعتك. قلت: لا تخف، وخرجتُ أتأوّه وأئنّ وأتوجّع، والإخوان مشفقون قد شرقت أجفانهم بالدمع، والعجيب أنه لم يرفق بالإخوان الثلاثة فجلدهم جلداً مبرّحاً وفي اليوم التالي مثّل معي، أو مثّلت معه نفس الدور، وسألته عن ابنته فقال: شفاها الله تعالى.

وقد قيل إنّ امرأته كانت صالحة ، وإن ابنتها الصغيرة مرضت ليلة جلدي ، وكانت قد سمعت بي ، وتعرف بعض أقاربي في حجّة ، فهدّدت زوجها « ناصر علي » وخوّفته وأفزعته وقالت له : ستهلك أهلك وولدك إذا استمررت في جلد « ابن الشامي » ، فكان ما كان ، ولم أذكر هذه الحادثة لأحد من زملائي في السجن محافظة على السرّ وشكراً لله وإكراما لذلك السجّان الشهم الذي كان ينفّذ أوامر الإمام عن عقيدة وبإخلاص ، وقد أشرت إلى الحادثة هذه إشارة عابرة في قصيدتي دامغة الدوامغ فقلت :

بني وطني ، سلام من محبّ	لكم ؛ لم يدّخر عنكم ضنينا
لأجلكم يُعادي من يُعادي ،	ولا يخشى المشانق والسجونا
سلوا سجّانه لِمَ كان يغضي	ويحني -وهو يجلده- الجبينا ؟

وقلت حين نشرت القصيدة وشرحها سنة ١٩٦٦م/ ١٣٨٦هـ : البيت « سلوا » يرمز إلى حادثة ليس مكان تفصيلها هنا .. وها قد آن أوان تفصيلها شاكراً لله أنعُمَه ، مقدّراً لتلك المرأة فضلها ، ولذلك السجّان إحسانه ، ودعواتي له بطول العمر إن كان لا يزال على قيد الحياة وبالرحمة والغفران إن كان سبقنا إلى دار الخلود .

السجّان « ناصر علي » ، لقد كان عجباً من الرجال ، لم أر في حياتي أصدق منه إخلاصاً لعمله ورئيسه وطبيعة وظيفته . ورغم كل ما كبّلني به من حديد فإنني لا أحمل له إلا المحبة ، لقد كان ينفّذ ما يقال له وهو لا يعلم ، وكان يعتقد أنه ينفّذ قانون الحقّ وبعد مضيّ عام ، وبعد حادثة الجلد ووجود « سرّ » بيني وبينه كان يكثر التحدّث إليّ حين أخرج إلى « العشة » يوم الإجابة على رسائل « البريد » إذ لم يكن من المسموح به أن ندخل الورق والأقلام إلى داخل السجن فكنا يوم وصول « البريد » نُستدعى إلى « العشة » لقراءته واستلامه ، وفي اليوم التالي نخرج إليها لنكتب الجوابات ، ولقد قلت له يوماً من الأيام : إنك تجني على نفسك وعلى أمّتك ودينك بتنفيذ الأوامر الظالمة فأجاب : بالعكس أنا أؤدي واجبي وأخدم ديني وبلادي بتنفيذ أوامر الإمام قلت : لو أمرك أن تقيّد أمّك أو أباك هل ستفعل ؟ قال : نعم ، وأتشفع إليه بإطلاقهما ، قلتُ : لو فرضنا وأمرك أحدهم بتقييد الإمام أحمد نفسه .. فماذا ستفعل ؟ فابتسم وقال : وهل سيوصّلونه إلى سجن نافع سجيناً ؟ قلتُ : افترض ذلك . ففكّر لحظة ثم قال : لن يرسله إلى « نافع » إلاّ « إمام » ، نعم سأقيّده .. قلت : كيف ستخاطبه ؟ قال : ضاحكاً : سأقول له : مدّوا أرجلكم يا مولانا .. والفرج قريب إن شاء الله ثم « ألكِد » القيد بالمطرقة ... ثم كأنه خاف ، فقال : دع عنك هذه الخيالات وهي التي « وهدرتكم » إلى نافع وسببت ما أنتم فيه ، لعن الله من أيقظ الفتنة ..

٤ - حياة السجن :

وتتابع تطاير الرؤوس كما وصفت في ديوان « إلياذه من صنعاء » ، وقد أمضيت في « نافع » عامين ونصف عام ، ولم يمض وقت إلاّ وقد تعوّدنا الحياة فيه والإنسان هذا المخلوق الضعيف يملك القدرة على

التكيّف، وقد اكتشفتُ أن الهمّ والحزن، أوالخوف والكراهية التي تحلّ بالإنسان إثر كارثة تنزل عليه أو مصيبة يقع فيها لا تدوم أكثر من أربعة أشهر ثم يتعوّد ما هوفيه، وعندما خطر في بالي هذا الخاطر، قلتُ لنفسي لو كان الإمام أحمد شرّيراً و يريد مؤاذاتنا وتجريعنا كؤوس العذاب الدائم، لأمر بإطلاق سراح كل سجين بعد أن يمضي فترة أربعة أشهر يمتّعه فيها بملذّات الحياة وطيّباتها ثم يعيده إلى السجن وهكذا.. وتذكّرت الآية الكريمة «كلّما نضجت جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرها»... وخفت أن يسري هذا الوسواس أو ينتقل بالعدوى الفكرية إلى رأس الإمام أحمد، فاستعذت بالله ورحمته، وكنّا نقضي معظم أوقاتنا في قراءة القرآن و بعض كتب الدين، ونرتب سهرات أدبيّة يحكي لنا أثناءها القصاصون بعض الأقاصيص، وكان بطل تلك السهرات أستاذنا العلامة الراو ية الخطيب السيد علي عقبات الذي كان يحفظ عن ظهر قلب «مقامات الحريري» و«مقامات بديع الزمان» و«نهج البلاغة» و«ديوان المتنبي» و«أطواق الذهب» والكثير الجم من القصائد والخطب والنوادر والأخبار، وفي نافع نظمتُ عدّة قصائد معظمها منشور في «ديوان الشامي» وقد وصفت ما كان يجري في «نافع» من نشاط أدبي في مقالة نشرتها مجلة الدراسات العربية العدد ١١ سنة ١٩٧٥م التي تصدرها دورياً جامعة كمبردج، وتحت عنوان «الأدب اليمني في سجون حجّة» وهي موجودة في كتابي «السوانح والبوارح».

محمد الفسيل، وفكرة الانتحار:

كما أني اشتركت مع صديقي محمد الفسيل في تأليف كتاب ظريف سميناه «لو» استوحيناه من كثرة ترداد هذا الحرف «لو» على ألسنة المساجين: «لولم يقتل الإمام يحيى»، «لولم يخرج الأحرار من عدن»، «لو قتل الإمام أحمد»، «لوخرج عبدالله الوزير من صنعاء» وكل يقول «لولم أسجن»، «لو نجوت»، «لولم أعمل كذا»، إلى أمان لا تحصى ولكلّ قصة، ولكلّ رواية، ولكلّ أمنيّة. وقد كتبناه بالأرقام خشية أن يقرأه أو يطلع عليه أحد، وقد ضاعت نسختي ولا أدري ما صنع الله بنسخة «الفسيل» وهل في إمكانه أن يترجم أرقامها إلى عبارات، «لو» كان لا يزال يحتفظ بها؛ وقد صيغت بأسلوب بياني متأثر بكتابة كتاب مجلة رسالة «الزيّات» وكنّا حديثي عهد بقراءتها والتخرج أو التأثر بأساليب كتّابها؛ وفيه من الحماس والنزق والانفعال والأوهام ما يغتفر له شبابنا وطموحاتنا وأحلامنا، «لو» لم ترض عنه كهولتنا اليوم..

كما شاركني «الفسيل» في تأليف كتاب خطير سميناه «كيف تفهم القضيّة اليمنيّة»، وكان الشباب وحماسه ولغته الجيّاشة الثائرة، وآلام السجن وأغلاله والأسى والحزن على الشهداء، ومشاعر الهزيمة والغيظ هوما يسيطر على عقولنا وألسنتنا وأقلامنا ونحن نكتب فصول ذلك السفر الخطير، وكل ما فيه من شعر فأنا الذي نظمته.

ولم نقتصر في ذلك السفر الخطير على صبّ جام غضب القول، وحمم النقد واللوم والتجريح على الطغاة من السياسيين والحكام والأئمة والسلاطين والاستعماريين بل وتناولنا أعوانهم من المشايخ والدجّالين والمضللين والمحتكرين وعبيد الطاغوت وأصنامه، بل والمخرفين والكذّابين تحت أي شعار من

دين أو وطنيّة، وكان الفسيل قد صنّفهم وحشر خصمه أحمد نعمان بينهم، وأستغفر الله، فقد كان له ظالماً..

وكنّا نصوغ العبارات ونكتبها بحرارة الشباب وأشباح الخوف من الموت تتراقص حولنا؛ وكأننا قبل أن نُقْتَل أو ننفى يجب أن نكتب كلمة التاريخ للتاريخ، كأننا نحن المسؤولان عن التاريخ..

ومن المفارقات الغريبة أننا كنا نكتب صورتين إحداهما ملطّفة لا تتضمن بعض التفاصيل التي تتعلّق بنقد موبقات طغاة المشايخ والقبوريين من الشوافع وعتاة أبناء الجنوب في «تعز» و«إب» ونقدمها إلى الزميل الصديق الكريم الشيخ أمين عبدالواسع نعمان لكي يُيسّر بها إلى خارج السجن للحفظ، وكان وحده المسؤول عن تهريب وتمرير الرسائل من السجن وإدخالها إليه و بالرغم من ذلك التلطيف وعدم تسجيل بعض التفاصيل مما نتفق عليه من حقائق ومآس عن بعض المشايخ أثناء الحكم العثماني، وفي أوائل حكم الإمام يحيى الذي وحّد الشمال وجنوبه الذي لم تسيطر عليه الحماية البريطانية فقد كان الشيخ أمين نعمان لا تعجبه تلك العبارات الملطّفة، وكثيراً ما يراجعنا في تغيير وتبديل بعض الفقرات التي نحتال فنيّاً و بلاغياً على أن ندس فيها ما يستطيع الحاذق الذكي أن يقرأه بين كلماتها ولقد قال لي مرة: من فضلكم لا تكونوا قساة على الأولياء والمشايخ ولاسيما الأستاذ وأسرته وسائر زعماء القسم الشافعي فلولاهم ما قامت الحركة الوطنية وهم الذين سيحفظون هذا الكتاب للتاريخ و ينشرونه في الوقت المناسب؛ وفي نفس الوقت كنت أحتفظ بنسخة كاملة أخرى نسجّلها بحروف دقيقة على أوراق أغلفة السجائر التي تلفّها تحت أقفصتها لتمنع عنها تسلّل الرطوبة، لأن الأقلام والأوراق كان يحرّم دخولها السجن ولا يستطيع الحصول على النزر اليسير من الورق إلا الشيخ أمين عبدالواسع نعمان.

وقد تفننت في تهذيب كتابنا «كيف تفهم القضية اليمنية»، وعندما انتقلنا من «نافع» إلى سجن «قاهرة حجة» والتقيت بزميلي القاضي عبدالرحمن الإرياني أطلعته عليه فأعجب بأسلوبه كما قرأته على الأخ ابراهيم بن علي الوزير وأخويه زيد وقاسم، ولما وصلت «أمي» لزيارتي إلى «حجّة» ــ كما ذكرت في فصل آخر ــ فضّلت إرسال الكتاب معها إلى «صنعاء» وطلبت منها أن تضعه في قفص، وتدفنه في مكان ما في بيتنا، وذات يوم جاء تحذير من السيد حمود ابن نائب حجة أو أخيه، إلى القاضي الإرياني يقول إن الإمام أمر بتفتيش السجن فلنكن حذرين إن كان ثمة أوراق أو مراسلات يُخْشَى عليها؛ وخلال ساعة وصل وكيل الإمام الشيخ يحيى العجّا واتجه رأسا نحو مكاني وفتش أشيائي وأخذ صندوق أوراقي ثم اتجه إلى مكان محمد الفسيل وفتش أشياءه ولم يكن يملك صندوق أوراق ولم يتعرّضوا لأحد غيري وغيره، ولم يكن أحد يعلم أني قد هرّبت الكتاب إلى «صنعاء»، و بعد وصول تحذير ابن نائب حجة كنت قد نظفتُ الصندوق وأفنيت بعض الأوراق ولم أبق غير مسودة كتابي «الإمام أحمد حميدالدين» و بعض القصائد في مدحه، وقد انتفعتُ بما صنعت وكما يقولون ربّ ضارة نافعة، و يومها ذهبت الظنون بالفسيل كل مذهب وقد زعم أن أحمد نعمان هو الذي وشى بنا إلى الإمام ــ وكان الإمام قد أخرجه من السجن وضم إليه زوجته وأولاده وعيّنه أستاذا في مدرسة حجة ــ وقد

جادلت الفسيل وقلت له: إن ابن النائب هو الذي حذرنا وهو تلميذ الأستاذ أحمد نعمان ورفيق ابنه محمد، ولاشك أنهما هما اللذان أوعزا إليه بتحذيرنا، فقال «الفسيل»: إنما أراد نعمان تحذير الإرياني وأصحابه داخل الدار، وقد كان من حسن الحظ أن جاء الرسول المنذر وأنا في مكان الإرياني فعلمت وبادرت فأنذرتك ولو لم أكن هناك لما أنذرونا؛ فقلت: وماذا سيجنون من وراء ذلك؟ قال: رأسي ورأسك؛ لو اطلع الإمام أحمد على الكتاب، فاسترجعت وحوقلت، ولم أورط نفسي في سوء الظن بالناس، وحمدت الله على ما حدث فقد كان ذلك من أسباب إطلاق سراحي لما اطلع الإمام على كتابي وقصائدي فيه:

تقفون والفلك المسخر دائرٌ وتقدّرون فتضحك الأقدار

وأما النسخة التي كنا نسلّم فصولها ونحن بنافع إلى الشيخ أمين عبدالواسع فهي محفوظة الآن عند الأستاذ أحمد نعمان بين الجمّ الكثير من الوثائق والأوراق وقد نشر منها فصولاً ابنه محمد عندما كان في عدن ما بين سنة ١٩٥٦ و١٩٥٩م في جريدة «الفجر»، وبلا توقيع معلوم وقد نقحها وهذبها وحذف منها كل ما لم يرض عنه من نقد قاس للطائفية والعنصرية وطغيان المشائخ على المواطنين، والأغنياء على الفقراء ونُصح الدجالين والمخرّفين ممن لا أزال حتى الآن أعتقده وأدين به ولا أدري كيف قد أصبح موقف زميلي الآن من تلك الأفكار بعد أن أصبح تاجراً كبيراً وسياسياً ذا جاه وكلمة مسموعة، ومع ذلك فحتى نسختي لا تزال تفتقر إلى الكثير من التهذيب بالنسبة للعبارات الشديدة اللهجة حتى تتفق وقوله تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة».

صديقان يختلفان:

ومحمد الفسيل ــ كما ذكرت في فصل سابق تربي وزميلي وملكته الكتابية قوية، ويقول الشعر ويتذوقه، ولو أخلص له لأجاده، ونحن وإن كنا نختلف أمزجة وسلوكاً، كل حسب فطرته وثقافته وبيئته.. لكنا، أبناء مدرسة أدبية واحدة، وقد كنت معه في هذا الكتاب جدّ صريحين لا نجامل ولا نرحم، وكان «الفسيل» شديد الكراهية للأستاذ أحمد نعمان وأسرته لما قاساه منه في «عدن»، ولاعتقاده أنه هو الذي أخبر الإمام أحمد بأنه مؤلف «الرجل الشاذ»، وكان يظن أني أشاركه نفس المشاعر، لأني قبله قد قاسيت ما هو أشد وأنكى، ولا أبرّئ نفسي لكنني كنت قد نسيت الماضي، وتأثرت بما نحن فيه من واقع مرير يعانيه أيضا زميلي وصديقي أحمد نعمان، أما «الفسيل» والناس يصفونه باللدد فقد كان يُغرق ويُبالغ في استعمال الألفاظ النابية إذا ما تحدثنا عن أعمال الظلمة من المشايخ من آل «نعمان» و«عثمان» و«الباشا» وسلاطين الجنوب اليمني، وكنت كثيراً ما ألطف تلك العبارات والألفاظ.

أول حيوان ناطق عرفته:

والفسيل كما قلت في فصل سابق أقدم أصدقائي، بل لا أبالغ إذ قلت إنه أول حيوان ناطق عرفته في حارة الفليحي بصنعاء عند وصولي إليها من «الضالع» وأنا لمّا أتجاوز السادسة من عمري، وقد

تحدثت عن صداقتنا الطاهرة تحت جناح اليتم، وزمالتنا الأدبية الرائعة، ولكننا قد اختلفنا حين واجهنا الحياة العملية ومارسناها واقعاً وسلوكاً لا نظريات في كتاب، ولا حكمة في بيت شعر، وكان الفسيل ــ ولايزال ــ سيىء الحظ، لا يوحي لأصدقائه ــ غيري ــ بالمودة والثقة، ولا يستطيع كسب الأصدقاء و يقف في الاتجاه المعاكس لزميلنا وثالث جوقتنا الشاعر ابراهيم الحضراني «الحبّوب» بكل ما في الكلمة من معنى كما يقولون... وكنت أعزّه وأودّه وأدافع عنه، ولقد وصفت في فصل سابق مواقفه المتعنتة في «تعز» قبل فراره إلى عدن.

ولقد ظللت أحمل المودّة والتقدير لصديق الصبا والشباب محمد الفسيل، وأعلم إخلاصه لوطنه وما عاناه وكابده، وكنت كما قلت أدافع عنه و يشهد الله ما تضايقت منه إلاّ في موقفه معي من «نشر» بعض فصول كتابنا، وفي محاولته أن يجعل من ذلك تهديداً لي و وسيلة للانتفاع، وأنا صديقه العتيق، أو في موقفه من صديقه الكريم صاحب الفضل عليه والذي عاش على حسابه زمناً طو يلاً وقد سجلت ذلك شعراً في اللزوميّات.

الرؤيا التي أنقذتني من النار:

والفسيل حلو الحديث، ماهر في الإقناع، لا يهاب الجدل، ولا إثارة المخاوف، وعندما كانت الرؤوس تتطاير، وكل منا ينتظر دوره وكنت أقيم مع محمد الفسيل في «طارود» واحد يضم أكثر من خمسة عشر سجيناً منهم: عبدالله الشماحي، وابراهيم الحضراني، وعزيز يعني و وغالب السّري، وعلي الغفري، وعلى تلها، ومحمد الحلبي، وكان مرقدي في الزاو ية «الشمالية» ــ أي القبلية ــ ولذلك و بحكم موقعي فقد كنت أؤم الاخوان في صلاتي «المغرب» و«العشاء».. وذات ليلة، والرعب يخيّم على السجن إثر إعدام «حسين الكبسي» و«أحمد الحورش» و«محيي الدين العنسي» و«محمد صالح المسمري» وكان ذلك يوم جمعة رجب سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م و بعد صلاة العشاء تسلّل إليّ محمد الفسيل بقيوده وقال: أريد أن أحدثك. فقلت: تفضّل.. قال: أنت تعلم أني فعلت وفعلت في عدن، ولو لم يكن إلاّ أني ألّفتُ «الرجل الشاذ» لكفى ذلك حجّة تقضي بإعدامي.. قلت له مطمئنا.. «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» قال: لقد التفت «أحمد» لفتته الرهيبة نحو الأدباء وحملة الأقلام، من دعاة الإصلاح، وأعتقد أن دورنا قد حان.. وأنا لا أخشى من الموت مثلما أخشى التعذيب، والصّلْب، وأنت تعرف أن اسمك في قائمة المحكوم عليهم بالإعدام، وأنك أتيت من الأعمال في صنعاء ما يكفي بعضه لتبرير إعدامك، وكل من حول أحمد يحرّضونه عليك ولا تنس إلى جانب كذا وكذا... أن صوتك كان آخر صوت يقاوم في صنعاء.

ــ قلت له: نسأل الله اللطف فيما قضاه.

ــ قال: لاشك عندي أن الحكم عليك بالإعدام قد صدر، وسينفّذ، وسيعذبونك و ينكّلون بك.. ولقد سمعت أمس «الحاشدي» يكلّم «ناصر علي»: «غداً دور الشامي وأصحابه، جهّزوا الحبال والسيّافين من «المقاطيع»، ولذلك فأنا أرى أن نفوّت عليهم فرصة تعذيبنا، وأن نتخلّص من الحياة

بطريقة لا تؤذينا .

ــ قلت : أتعني نقتل أنفسنا ؟

ــ قال : نعم . . ولكن بطريقة سهلة لن نحسّ معها بألم .

ــ قلت : وكيف ؟

ــ قال : عندي شفرتا حلاقة ، فإذا كان الثلث الأخير من الليل ، ملأنا « الدست » ــ وعاء من نحاس ــ ماءً ، وتركناه على نار الموقد حتى يسخن ، ثم يذبح كل منا رسغ يده حتى يجز العروق ، ثم نضعهما بين الماء الساخن ، وسيظل الدم يتسرّب ونحن نتحدث بما نريد إلى أن نتلاشى ، ونموت دون أن نحس أو نشعر بألم .

لاشك أن ما كان لديّ من خوف ورعب ، وترقب ووساوس ، قد جعلني أنفعل وأتأثر بذلك الحديث ، فجاريته ، وصدّقته ، وفقدت إيماني ، وقلت له : فليكن وعليك أن تحضّر « الدست » والماء من الآن لأن أثقالك أخف من أثقالي ، فأنت أقدر على الحركة وأقوى ، قال : اتفقنا وإلى اللقاء قبيل الفجر وذهب يُعدّ الموقد والنار والدست والماء كما يفعل عادة عندما يُعد نار الفجر للفطور واستغرقت في تأمل لا أستطيع وصفه الآن حتى غلبني النعاس ، ولمّا أصلّ « الوتر » ولا تلوت « الورد » المعتاد .

وإذا بي أرى فيما يرى النائم ؛ أنّي في ساحة قصر وصوت يناديني ، و يقول : « اقرأ الآيات المدنية في سورةالكهف » ، والتفت إلى صاحب الصوت وإذ هو شيخ وقور ، ذو هيبة ولحية كبيرة بيضاء وعليه عمامة خضراء و يشبه كثيراً سيّدي عبدالرحمن بن حسين الشامي والد زوجتي » فقلت له : ولكن سورة الكهف مكيّة . .

فقال : اقرأ الآيات المدنيّة في سورة الكهف .

فكرّرت ما قلت . . فكرّر نفس العبارة .

وهبَبْتُ مذعوراً ، وأشعلت المصباح ، وأخذت المصحف وفتحت سورة الكهف فإذا في ديباجتها : « سورة الكهف مكية إلا آيات ٢٨ وآيات أخرى » . . وأتلو الآية رقم ٢٨ وإذا هي كما يلي : « واصبرْ نفسَك مع الذينَ يدعون ربّهم بالغداوة والعَشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهُم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذِكرنا واتّبع هواه وكان أمرُه فُرطا » . وكرّرت تلاوتها ، وكأنما خُلقت من جديد ، وشعرت براحة سماو ية تغمرني ، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وذهبت فتوضأت وصلّيت الوتر حامداً شاكراً لله الذي هداني وأنقذني من الضلال . . وإذا بالأخ محمد الفسيل ــ وكان قد سمعني وظنّ أني أستعدّ للذّبح ــ فأقبل نحوي وفي يده الشفرتان وقال : سآتي بالماء الساخن فوراً ، فقلت له : اذهب عني بعيداً . . واتق الله في نفسك ؛ قال : أو قد غيّرت رأيك ؟ قلت : وهو ما أرجوه منك . أفما تدري أننا سننفّذ بأيدينا ما نخافه ونخشاه ؟ ونقتل النفس الحرام ونستحق اللّعنة في الدارين . قال : سيقتلوننا . قلت : فليكن وننال الشهادة . قال : والتعذيب ، والصلب ؟ قلت : وهل يضرّ الشاة سلخُها بعد الذبح ؟

ثم رويت له الرؤيا فأطرق ملياً ثم تنفس الصعداء..

وهذه «الرؤيا» الرائعة من المرائي التي انفعلت بها حياتي، وسوف أروي مرائي أخرى في فصولها المناسبة؛ ولقد تأثر بها محمد الفسيل أيضاً، وسعدنا بعدها، وأكثرنا من قراءة القرآن، وإقامة الشعائر، والتقرّب بالنوافل، واتفقنا على أن نخصّص أوقاتاً للكتابة عن «القضية اليمنية» وتطوّرها، وعن أحداث «ثورة الدستور وشهدائها»، وشاركته في تأليف كتيّب صغير فريد في بابه اسمه «لو» وآخر سميناه «كيف تفهم القضية اليمنية»، وقد تأنّق كل منّا جهده في صياغة عبارات الكتابين، وبأسلوب فنّي، موجز مركز مع مراعاة تحليل الأسباب الكامنة وراء الوقائع، وكنا أحياناً نشترك في صياغة العبارة أو الجملة تنقيحاً وتهذيباً، وأحياناً ينفرد كل منا بتحرير فصل ما، أو صفحات من فصل، ولكنّا نقرأ ما نكتب معاً، ثم نهذّبه حتى نقرّه معاً، وفي الكتابين شعر تفردت بأنشائه ولكن الفسيل رضي عنه وكأنّه من إبداعه.

موجز تاريخي:

وتطوّرت أحوالنا، وبعد عامين ونصف عام نقلونا من سجن «نافع» الرهيب إلى «معتقل القاهرة» الذي يحتل أعلى قمة من قِمم «حجة» وهناك التقينا بزملائنا: عبدالرحمن الإرياني، علي ناصر العنسي، أحمد المعلمي، ابراهيم بن علي الوزير وإخوانه عباس وزيد وقاسم، ومحمد أحمد الوزير وابنه ابراهيم ومحمد بن عبدالله الوزير وأحمد بن محمد وإخوانه عبدالصمد وعباس وحسن الحوثي وعبدالملك المطاع ومن طلع معنا من نافع من القادة والأدباء، واشتركنا في إقامة ندوات وحلقات ودراسات علمية وأدبية ـــ وبعد عامين ونصف عام أمر الإمام أحمد بإطلاق سراحي إلى «الحديدة» للاستشفاء.. ثم أفرج عنّي، وعيّنت مستشاراً لابنه سيف الإسلام البدر حتى قام انقلاب الأمير سيف الإسلام عبدالله ابن الإمام يحيى مع المقدم أحمد الثلايا ضد الإمام أحمد في شعبان سنة ١٣٧٤ هـ / أبريل سنة ١٩٥٥ م.. ونهضتُ عائداً إلى حجّة مع «وليّ العهد البدر» معارضين للانقلاب ومؤيّدين للإمام أحمد، وأطلق البدر سراح بعض المعتقلين في سجون «حجّة» ومنهم الأخ «محمد الفسيل»، وانتصر الإمام أحمد على أخيه عبدالله، وأعدمه مع أخيه العباس، والثلايا وآخرين، وسافرت إلى «مصر» في بعثة اقتصادية، واستمرّت المراسلة بيني وبين الفسيل، وحدثت تطوّرات ما كانت في الحسبان، وسوف أشير إليها في فصل قادم إن شاء الله.

٥ ـ رسالتي من سجن نافع إلى علماء اليمن:

في ٥ ربيع الأول سنة ١٣٦٨ هـ / ديسمبر ١٩٤٩ م كتبت رسالة طويلة إلى كبار علماء اليمن أحمّلهم مسؤولية المراجعة للمسجونين لدى الإمام، وأحذّرهم مغبّة السكوت، وأذكرهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سيّدي ومولاي العلاّمة وجيه الدين عبدالرحمن بن حسين الشامي حفظكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وأرجو أن تكونوا وكل من يلوذ بكم في عافية وخير وسعادة. وأسأله تعالى أن يُبارك في حياتكم، وأن يبلّغكم مرامكم، وأن يُبقيكم ذخراً للأمّة، وسنداً للمكارم، ومناراً للفضيلة، في هذا وقت العصيب، الذي انهار فيه ركن الخير، واندرست معالم الفضل، وتقوضت خيامُ المروءة وتزلزل بنيانُ اليقين، وضَعُفَ وازعُ الدين.

إنكم ــ يا مولاي ــ وزمرة قليلة من الشيوخ ــ أنتم في طليعتهم ــ البقية الباقية للأمة اليمنية الّتي طحنتها عوادي الزّمنْ، وأبادتها فواجع الفِتن، وإنني ــ كفرد من النّاس ــ عرفكُم فَعَرفَ المثلَ الأعلى للإنسانية، بقلبكم المملوء إيماناً ورحمةً، وفكركُم المفعَم نوراً وبصيرة، ونفسيكم الطّاهرة الأبيّة، لا يَسَعُني إلاّ أن أسجّل ذلك واثقاً مما أقول، متأكداً من أنكم ستقفون من مُذكّرتي هذه موقف المصلح الحكيم، الذي يسمع القول فيتبع أحسنه، إنها تنبيه وذكرى وقد قال الله: «وذكّر فإنّ الذِكري تَنفَعُ المؤمنين».

ها قد مرّت على ولدكم ورفقائه في السجن عشرة أشهر، طحنتنا فيها المصائب، واهتبلتنا الكوارث مع النّوائب، وتوالت علينا الخطوب من كل جانب، وقاسينا أثناءها من العذاب، والأهوال ما يعجز اللسان عن وصفه، ويضطرب الجنان لذكره، وما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخِرّ الجبال هداً، وليس الموقف موقف تحليل، أو نقد أو تاريخ، فنتتبع الأسباب بمسبباتها، والعِلل بمعلولاتها، ونقول ذلك حق، وذاك باطل، وها هُنا الصحّة، وهُناك الغلط، ولكنه موقف الاستعانة، والصحح أمام مأساة ماثلة للأعين، ترونها مجسّمة في البيوت المهدّمة، والأموال المنهوبة، والعائلات المشردة، والسجون المكتظة وتسمعونها صارخة في أنّات الثكالى، وعويل اليتامى، ودعوات الأمهات، وبكاء الأبناء والزوجات.

وإنَّ ما نعلمهُ ويعلمُهُ النّاس من أن أمير المؤمنين النّاصر للدين أحمد بن يحيى حميد الدين حفظه الله من أرقّ الناس عاطفة، وأرحمهم قلباً، وأكرمهم نفساً، وأنّه يتأثر بالخير إلى حد بعيد، ويُصغي إلى النّاصح الأمين، ويرق للأشقياء والمنكوبين ــ زد إلى ذلك أنه يتصف بأسمى صفة إنسانية وهي ما كان يتحلّى به الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم من الحياء... حتى لقد قيل إنّه عليه الصلاة والسّلام كان أشد حياءً من العذراء في خِدرها... كل ذلك يجعلنا متأكدين من أنه لو وُجِدَ من ذَوي الخير والفضل من يَغْتنم الفُرص بنُصح وإخلاص، لنفع البلاد والعباد، واندمَلَ الجُرحُ، وانجبر الصّدعُ، وعمَّ الخيرُ، وسادَ الصّلاح.

قد تقولون: إنكم ــ أو غيركم ــ قد راجع الإمام بما يُمكن وقدر استطاعته ــ وفي ذلك ولا شك خير كبير ــ ولكنني أذكركم بأن الجهود الفردية، والتناوش من مكان بعيد لا تُجدي ولا تفيد، كما لو تآلفت واتّحدت مجموعة جهود لمجموعة من الشخصيّات الفاضلة، المخلصة! فلو اجتمعتم أنتم مع

سيّدي المولى العلامة قاسم بن حسين أبوطالب، وحضرة المصلح الكبير وزير الخارجية القاضي محمد راغب، وسيّدي العلامة حسين بن عبدالقادر ــ عامل صنعاء ــ وسيّدي المولى العلامة محمد بن محمد زبارة وسيّدي القاضي العلامة المؤرخ محمد بن أحمد الحجري حفظهم الله... لو اجتمعتم على فكرة واحدة، هي المراجعة للمسجونين، ومعاونة المنكوبين، وذهبتم بأنفسكم لمقابلة جلالة الإمام ــ وذلك سهل و بسيط ومتيسر ــ لكان لذلك الأثر الطيّب الذي يُرضي الله والناس، وتكونون به قد أديتم واجبكم المحتّم عليكم عقلاً وشرعاً.

ما هو موقفكم ــ يا علماء الأمة وقادتها ــ لا أقول أمام التاريخ والأجيال القادمة، بل أمام الله في يوم مقداره ألف سنة مما تعدّون، «إذ القُلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع»، «يوم ترونها تَذْهَل كل مُرضِعَةٍ عَمَّا أرضعت وتَضَعُ كل ذاتِ حَمْل حملها وترى النَّاس سُكَارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد» حينئذ تسألون عمّا قدّمتم من خير، وما اكتسبتم من عمل، وما بذلتم من جهود في سبيل إصلاح البلاد، وإنقاذ العائلات، والأخذ بيد الضعفاء، ومساعدة المنكوبين، وإخراج المساجين، والنُّصح لأمير المؤمنين.

إن الله قد نصر الإمام أحمد نصراً عظيماً، وأنقذ مُلكَه بعد أن كاد ينهار، وليس في ذلك أي فضل لزيد ولا عمرو، ولا لأية قوة أرضية! وإنما الفضل لله وحده، أيّده ليشكر؛ ولا يكون الشكر إلا بالعفو والإحسان، ونصره لينظر كيف يعمل! اختباراً وابتلاءً «ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة»! وكما أنه أيده الله ووفقه مسؤول عن رعيته الصغير والكبير، والغني والفقير، والناهب والمنهوب، والهائم والمسجون، فأنتم ــ يا علماء الأمة ــ مسؤولون معه عن ذلك كله، ولن يقبل الله منكم صرفاً ولا عدلاً، ولا اعتقاداً ولا عملاً، ما لم تمحضوه النصح الكامل، وتصارحوه بالحق البيّن، وتعاونوه مخلصين على ترميم ما تهدّم، وإصلاح ما فسد، وجبر ما انكسر، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه! ووالله لو تعبّد أحدكم إلى أن تتناثر عظامه، وتتساقط لحمة وجهه، وتذوب أشفار عينيه، تاركاً واجبه أمام هذه المأساة والمحنة لما كان إلا مقصراً مفرّطاً زائغاً.

إنني لا أقول لكم ما قاله شاعر العراق لقومه:

بثوا بألسنة لكم من نار   ما في جماجمكم من الأفكار

ولكني أذكركم ــ وأنتم أعرف منّي وأعلم ــ بقول الله سبحانه «ادع إلى سبيل ربّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة».

وها هو الأستاذ العلامة الشيخ محمد سالم البيحاني حفظه الله قد وصل إلى الإمام أحمد بنفسه من «عدن» ــ وهو ضرير ــ «فراجع» ونصح، وأثّر آثاراً كبيرة لمسناها في إطلاق مجموعة كبيرة من مُعْتَقلي القسم الجنوبي «تعز» و«إب» الذين يخصّهم في مراجعته، وتشفّعه، لمعرفته بهم، ولصلة ذو يهم به، وليس الشيخ «البيحاني» بأعلم بكتاب الله، وسنة رسوله منكم، وليس ما يجب عليه بأعظم مما يجب عليكم، وليس من خرج من «عدن» أونهد من «تعز» مغروراً فالتهمته نار الفتنة بأحوج إلى تخصيص

المراجعة والشفاعة من أهالي وأبناء «صنعاء»، وهم المنهوبون المسلوبون الذين لاقوا من الأهوال مع عائلا تهم ما تدمى له العيون، وتنفطر القلوب، وتتمزّع الضمائر.

مولاي، ليس المؤمن حقاً، والعالم حقاً، ورجلُ الدين والدنيا، هو من يعيش لنفسه قابعاً في بيته، تاركاً واجبه الاجتماعي الذي يقوم به الدين الصحيح، وإنما هو من تتلاشى نفسه وتذوب في المجتمع، ومن يُحبّ للناس ما يحب لنفسه، و يكره لهم ما يكره لها، ومن ينظر إلى هذه الحياة الدنيا نظر المفكر المعتبر، عالماً بأنه إذا قصّر في واجبه، واستطاع أن يُغالط نفسه، وأن يوجد له عذراً أمام الناس.. فإنه لن يستطيع ــ مهما تلمّس ــ أن يلفّق له عذراً أمام الله: «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» ولقد شاهدنا من العبر ما فيه مُزدجر، وذكرى لمن أدّكر، فرأينا كيف تنهار دنيا من يعيش عبداً للحياة، شغوفاً بالجمع والمنع، متهرباً عن كل مسؤولية، جباناً أمام كل واجب إنساني... رأينا كيف انهار كل ما شيّدوه بين عشيّة وضحاها، ولم يبق لهم إلا ما قدّموه من عمل صالح أو طالح، وإنّا لنُجلّكُم أن تكونوا من هؤلاء وإني ــ وأنا ولدُكم ــ لأحقر من أن أخاطبكم بمثل هذا الخطاب... ولكن الله يشهد إن ما دفعني إلى تحرير هذا... إلاّ دافع التذكير بالخير والصلاح لأهل الخير والصلاح.

يا مولاي... أرجو أن تخصّصوا أنتم ومن ذكرتهم من السادة الكرام ساعة واحدة كل يوم للتفكير في نكبة الأمة اليمنية، ومأساة «صنعاء»!

تصوّروا آلاف الأسر الكريمة ضائعة مشردة.

تصوّروا آلاف الأطفال لا مأوى لهم ولا معين.

تصوّروا آلاف النساء عرايا طوايا لا يستطعن حيلةً في العيش، ولا يجدن سبيلاً إلى الرزق.

وتصوّروا مئات مِمّن عصفت بهم العواصف، وطوّحت بهم الأقدار، قابعين في زوايا السجون المظلمة، مُثْقَلين بالحديد، تحت سيطرة حُرّاس، قُساة لا يرحمون، غواة لا يَعْقِلون، جُهّال لا يفهمون، كأنما قُدّت قلوبهم، من الحجارة، وصيغت نفوسهم من نار الجحيم.

تصوّروا هؤلاء المساجين البُؤساء وفيهم الشيخ، والعالم، والشاب، والمريض، يصبّون العَبرات، و يُصعّدون الزّفرات، و يُتابعون الدّعوات:

إذا ذكــروا كــرائـمـهـم أذابُوا	لــذِكْراها قلوبـهُـمُ أنـيـنـا؛
وكـيـف ولـم تـدع لهمُ الليالي،	مُـغيثـاً، أومُـعـيـلاً، أو مـعيناً

إنكم لو تصوّرتم كل ذلك... لعلمتم متأكدين أن الواجب عليكم قبل قراءة العِلم، والصّلاة، وموالاة الذّكر، وقبل كل واجب إنما هو إنقاذ هؤلاء البُؤساء، وترميم ذلك الانهيار، واجب لا مندوحة للتخلص منه، ولا مبرر للنكُوص عنه.

يا مولاي؛ إنَّ القيام بهذا الواجب لا يُكلّفكُم شططاً، وليس بالمستحيل الذي يجهد النفوس، ولن يكلّفكم أكثر من أن تجتمعوا بمن ذكرتُهم آنفا، وتُجْمِعُوا أمركم على مراجعة الإمام مراجعةً جدّية،

و بإلحاح وعن مَرأى ومسمع منه... فإنَّ ألفَ كِتاب تُرسَلُ إليه منكم، لا تفيد كما لو جلستم معه جلسة واحدة، تعرضون عليه آلام الأمّة وآمالها، وتصوّرون له الحالة بصورتها الحقيقية.

واسمحوا لولدكم أن يُقدّم بين يديكم هذه الملاحظات... لا لأنكم تجهلونها، ولكن لأنَّ عنده بعض إلمام عن الحالة، ولأنه مِمَّن وطىء النّار فاحترق، وأُصيب بالداء فعرفه.

أولاً ــ حاولوا إثارة عاطفة الإمام بكل ما تستطيعون من قوّة، وتصوير الحالة بالطريقة التي تجلب عطفه، وتستمطر رحمته، وتوجب إشفاقه.

ثانياً ــ إقناعه بأن الأحداث الأخيرة كانت أكبر عامل في تحويل الآراء، وتصحيح الأفكار، وإقناع الناس أجمعين سواء منهم من كان مناوئاً أو من كان حائراً... بأنه وحده الرجل الذي لا يمكن أن تخضع الأمة إلا له، ولا يمكن أن يأتيها الخير والصلاح إلا على يده، ولقد أصبحت الأفكار مُقتنعة بأنه الشخصيّة الوحيدة التي تتركز عليها سعادة اليمن ومستقبلها.

ثالثاً ــ إيقافه أمام الأمر الواقع المحسوس، وهو أن هُناك انهياراً يحتاجُ إلى ترميم، وفساداً يفتقر إلى الإصلاح، وجروحاً دامية تتطلب البَلْسَم الشّافي؛ وأن العلاج الوحيد لكل ذلك إنَّما هو في أن يدفن الماضي بخيره وشرّه تحت قدميه، و يُسْدِل عليه ستاراً كثيفاً لا يرى من خلاله شيئاً... ولن يتم ذلك إلا بإعلان «العفو العام» الذي يهدّىء النفوس، و يطمئن القلوب، و يبرزُه أمام العالم مُصْلحاً عظيماً..

رابعاً ــ إن مشكلة المعتقلين السياسيين هي المشكلة المعقّدة في نظر الإمام، ولست بالطامع، ولا بالمتطرف، الذي لا يحسب للظروف والأسباب، وما حصل حساباً..! ولكني تبعا لمعرفتي بالمعتقلين فرداً فرداً، وتقديراً لكل ما حدث، أرى أن أكثرية هؤلاء المحابيس كانوا مِمَّن اجترفهم السّيل، وعصفت بهم الفتنة، وانخدعوا مغرورين بلا اختيار ولا تعمد، وأنتم تعرفون، و«الإمام» يعرف أن الفتنة برزت في ثوب خلاّب، لم تدع أمامها للفكر مجالاً، ولا للعقل بصيرة، وأنها طمّت كالسّيل الجارف في سرعة البرق الخاطف.

ثم ليكونوا هؤلاء مُذنبين..!! أليس أدنى ما أُصيبوا به من خراب بيوتهم، وسلب أموالهم، وضياع عائلاتهم، كان فيه أعظم تأديب، وأوفى جزاء.؟ فضلاً عن أنهم فوق ذلك قد نالوا من العذاب والإهانة، وأهوال السّجن، وأثقال الحديد، و.. و.. و.. ما يتلاشى إزاءَهُ كل جُرم، و يُغْتَفَر عنده كل ذنب، وما هؤلاء المعتقلون إلا أبناء الإمام ورعيّته الذين لو عطف عليهم لكانوا له جنوداً مخلصين وأولاداً طائعين! أما حَلُّ مُشْكِلَتِهم فَهي بسيطة جداً، لو نالت التفاتاً من «الإمام»... فمنهم ــ وهم الأكثرية ــ من لو رأى «الإمام» في ذنوبهم وما قد أصيبوا به لتكرّم بإطلاقهم فورا، وأمر بإكرامهم وترميمَ حالهم وهو الحل الذي فيه الخير كل الخير ولا شر منه! ومنهم لاشكّ أنّ الإمام لا يزال مُتردّداً في شأنهم، فإذا لم يتكرّم بإطلاقهم وحل مشكلتهم، فالواجب الدّيني، والإنساني اللازم عليكم شرحه للإمام هو أنْ يخفّف عنهم، و يُحسّن حالهم بإزالة الحديد والأغلال، وإنقاذهم من ظلمات «نافع» وأهواله، ووبائه، وسجّانيه، حتى تتجلى رحمته عليهم، و يَمُنَّ بإطلاقهم، وبذلك يكون قد كسب

قلوبهم ، وامتلك أرواحهم ، وعمل ما يُرضي الله ، و يُرضي ضميره ، فوالله انّه لمسؤول عنهم ، ومخاطب فيهم ، وما يغيب عنه مما يجري بهم ماتذوب له القلوب ، وتقشعر منه الجلود .

خامساً ــ إنّ الطريقة التي يجب أن تتبعوها في مراجعتكم مع جلالة «الإمام» هي النّاحية الدينية ، وتذكيره بالله ، وانقطاع اللذات ، و بقاء التبعات ، وأن كل شيء في هذه الحياة باطل في باطل ، مصيره إلى الزّوال ، وأن الإنسان مسؤول أمام الله عن كل عمل ، «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره» و يقول الله سبحانه : «اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مُصفراً ثم يكون حُطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

سادساً ــ يجب أن تلفتوا نظر الإمام إلى بشاعة ما يقترفه الوشاة والمغرضون ، إشباعاً لشهوات نفوسهم الخبيثة ، واقتفاءً لرغبات أغراضهم الدنيّة ، فقد اغتنموا الفرصة وجعلوا من الحوادث الأخيرة ، وسيلة لتنفيذ أهوائهم ، وسبيلاً يصلون بها إلى غاياتهم ، وليس لهم من غاية إلا تنمية الشر ، وتغذية الفتنة ، وإظهار الفساد ، وتهديم البلاد ، والإضرار بالناس ، لا يبالون أن يقتحموا كل مأثمة ، و يقترفوا كل جريمة ، يبنون لهم بذلك جاهاً كاذباً ، و يكسبون مالاً حراماً ، و يغضبون الرب و يُرضون الشّيطان ، ولقد اقترفوا من الجرائم والسيئات ، ما تنفطر له الصخور الصمّ ، وما تتحرّق منه الفضيلة غضبا وكمداً ! ووالله لو انتبه جلالة الإمام لسوء مقاصدهم ، وخبث نيّاتهم ، ووخامة عواقب مكرهم ، لمزّقهُم كل ممزّق ، ولأحرقهم إحراقاً ، وقطّعهم إرباً إرباً . . . ! هؤلاء المغرضون يفسدون بأعمالهم حياة الناس ، و يُقلقون راحة الإمام ، و يُعكرون الصفو بينه و بين رعيته ، ويجعلون العلاقة بينه و بين الأمة مُتوتّرة ، و يراكمون الأحقاد في قلوب الناس ، ومعلومكم ما في ذلك من فساد لا يمكن معه إصلاح ، وشرّ لا يستقيم معه خير ، وو بال ينتهي بما لا تحمد عُقباه ، ولا يرضاه مخلص أو حكيم ، ولا شك أن العلاج الوحيد لكل ما جرى إنما هو العفو ، والصفح والإحسان ، وتناسي الماضي بكل ما فيه ، والعمل لإسعاد الأمة . . ! وليعلم جلالة «الإمام» أن من يقف مُعارضاً لفكرته في «العفو العام» ، والإحسان إلى الناس ، والعمل في سبيل الإصلاح والتنظيم . . . فإنه ، إمّا أن يكون مُنطو ياً على الشرّ ، له أطماع خبيثة ، وأغراض سيئة ، يتحيّن الفرص لنيلها ، و يرى أن الإفساد والتحطيم ، هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع الوصول بها إلى تحقيق ما يريد . . .

وإما أن يكون مغفّلاً بليداً لا يعرف للدين معنى ، ولا يُقيم للإنسانية وزناً ، ولا يدري كيف تُساسُ الأمم ، ولا يُفرّق بين الخير والشر ، ولا يقدّر العواقب ، ولا يلتفت إلى متطلبات البشر؟ وكلاهما لا يؤمن ، ولا يصح أن يُسْتَمع إلى آرائهِ وأقواله .

سابعاً ــ من الإخلاص لجلالة «الإمام» أن تشيروا عليه بتوطيد دعائم عرشه ، وتركيز شخصية نجله «سيف الإسلام محمد البدر حفظه الله» ، وأحسن وسيلة لذلك هي أن يجعل كل ما يتفضّل به على المنكوبين عن طريقه وعلى يده ، وأن يكون أوّل عمل يلفت الأنظار ، ويجعله محبوباً قريباً إلى قلوب أبناء

اليمن هو إعلان «العفو العام» باسمه، عن أمر الإمام ـــ طبعاً ـــ و بذلك تكون قد تحققت رغبة الأمة، وانتعشت آمالها في المستقبل وتم ما يُرضي أمير المؤمنين وقد جُبلت القلوب على حُب مَنْ أحسنَ إليها، و«إن الله لمع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

خاتمة

مولاي أبقاكم الله، في نهاية رسالتي لابد أن أذكركم بما لا يعزبُ عن بالكم، ولا يغيب عن فكركم، من أنّ القضية ليست قضية أفراد فحسب، ولكنها قضيّة شعب يسير إلى الفناء، وأمة تزحف نحو الموت، وجيل كامل سيُباد، ولو كانت المشكلة إنَّما هي مشكلة «المعتقلين» فقط لكان الأمر هيّناً على هوله، والمُصاب مُحتملاً على فداحته، وأنتم تعلمون أن ضمن المعتقلين من تموت بموته أسر كبيرة، وتتعطّل أعمال عظيمة، ومن تحتاج إليه البلاد، وتفتقر إليه الحكومة من كل ناحية، اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، وعلمياً، ثم إن الممالك لا تُشيّدُ إلا على العدل والأمن والإحسان والثقة المتبادلة بين الحكومة والشعب، والإمام، والمأموم، والحاكم والمحكوم، أمّا مع الخوف، والشدّة وسوء الظن، فلن يكون إلا الخراب والدّمار، والقلق المستمر، والله سبحانه يقول لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: «ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعفُ عنهُم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر» وأسأل الله أن يُجري على أيديكم الخير للبلاد والعباد، وأن يجزيكم عن الإسلام والمسلمين خيراً.

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

ولدكم
أحمد بن محمد الشامي

سجن نافع
٥ ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ
الموافق ديسمـــبر ١٨٤٩م

٦ـ في سجن قاهرة حجة:

تحسّنت أحوال المعتقلين صحّياً واجتماعياً ونفسياً عندما انتقلوا من «نافع» إلى قلعة «قاهرة حجة» وهي حصن يطل على سفوح حجة وفيه دارٌ شامخة بجواره مسجد تحيط به عدة برك لخزن مياه الأمطار الموسمية، وفيها مخازن ومستودعات للأسلحة، والذخائر، وثلة من الجند النظاميّ رئيسهم «الشاوش» صالح النّهدي وثلة من الجيش الشعبي من قبيلة حجور كان يرأسهم محمد حزام أو ابنه أو.. وأخرى من الأهنوم رئيسهم الشيخ راجي جعمان، والتقينا نحن الوافدون من «نافع» بمن سبقونا إليها كالإرياني وعقبات والحضراني والمعلمي والشماحي والتقينا بسجناء «القاهرة» الأصليين وفي مقدمتهم السيد محمد بن أحمد الوزير صنو الإمام عبدالله والسيد حسن الحوثي القائد الذي زحف من تعز وبمعيته السيد عبدالقادر أبوطالب بقصد احتلال حجة وإلقاء القبض على الإمام أحمد؛ والسيد عبدالملك

المطاع والسيد الأديب أحمد بن محمد الوزير وأخوه عبدالصمد والسيدان أحمد بن محمد الوزير وعباس ابن علي الوزير وكوّنا مجموعة فريدة فيهم العالم والمؤرخ والفقيه والشاعر والضابط والمقرىء والفنان والمهرّج الظريف وجاء بعض أولاد المساجين من صنعاء وسكنوا مع آبائهم أمثال عبدالقادر بن محمد ابن عبدالقادر وأخيه يحيى بن محمد بن عبدالقادر وعلى عبدالله السلاّل وعبدالله عبدالسلام صبره... ومحمد ابن عبدالله الوزير وعباس بن محمد الوزير وابراهيم بن محمد الوزير ثم أذن الإمام بالإفراج عن السيد عباس الوزير على أن يحل محله رهينة عنه شقيقه السيد ابراهيم بن علي وما فتىء حتى انضمّ إليه أخوته الثلاثة زيد وقاسم ومحمد الذي لما يتجاوز الثانية عشرة وتحوّل السجن إلى مدرسة واشتغلت تلميذاً ومدرساً في وقت معاً؛ فأمليت مع القاضي الشماحي الروض النضير شرح مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام على العلامة حسن الحوثي وقرأت تفسير الأستاذ الإمام «المنار» على القاضي عبدالرحمن الإرياني وأملينا عشرات الكتب كالهدى النبوي لابن القيم وسيرة ابن هشام و بعض الأمهات وجزءاً من الكشاف وأمليت مغني اللبيب لابن هشام على القاضي العلامة محمد الأكوع ثم لخّصته لتلاميذي وقرأت مع السيد محمد الغفاري «نظام الغريب» للإمام الربعي نقابله على النسخة الأصلية ملك السيد حسن الحوثي ثم ضبطته وحققته وترجمت لبعض رجاله، وكنت أدرّس النحو الواضح والبلاغة الواضحة وتاريخ الأدب العربي للزيّات والنثر الفني لمجموعة من الزملاء والتلاميذ، ووجهت عنايتي وكل اهتمامي نحو الاخوة ابراهيم وزيد وقاسم ومحمد، أولاد الأمير علي بن ابراهيم الوزير أولاً للروابط التي كانت بيني و بين والدهم العظيم وأخيهم الأكبر عبدالله بن علي وثانيا لأني وجدت فيهم من الفطنة والنجابة وعزة النفس وحسن السلوك ما ملأ قلبي لهم حباً و بهم إعجاباً، وثالثاً لِمَا شعرت به نحو ابراهيم بن علي من ودّ في الله مازال ينمو و يكبر حتى الآن وحتى نجتمع عليه إن شاء الله في ظلال رحمته ورضوانه فقرأت معهم عشرات الكتب في الفقه والتفسير والنحو والأدب ولخّصت لهم و بأسلوب سهل وعبارات مفهومة مغني اللبيب والأ يساغوجي ورسالة التوحيد، وتاريخ آداب العرب للرافعي وقرأت عليهم غير ما كنت أدرّسهم إياه مع زملائهم في بنيّة المسجد صباحاً، قصة الفلسفة اليونانية والحديثة لأحمد أمين ووحي القلم للرافعي وأوراق ورده واستظهروا قطعاً منه كنت أختارها لهم وعشرات الدواو ين الشعرية لقدامى ومحدثين من الشعر الجاهلي إلى الأموي والعباسي وحتى علي محمود طه وحسن إسماعيل وأبي القاسم الشابي، وأملينا قراءة تحقيق معظم أجزاء الأغاني لأ بي الفرج الأصفهاني، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد والكثير من الروايات والقصص العالمي مما ترجمه الزيّات أو طه حسين في «ليالي باريس» أو «عنان» أو «عوض» أو «توفيق الحكيم» وقرأنا بعض كتب التاريخ اليمني لعمارة، والهمداني، والدّيبع، والخزرجي، وز بارة والجرافي؛ وضجّت القاهرة بالنقاش والجدل والحوار، ولما وصلت إلينا كتب الأستاذ خالد محمد خالد «من هنا نبدأ»، و«مواطنون لا رعايا»، اشتدت عرامة الجدل بين المختلفين رأياً وثقافة في حوار أدبي رائع وكونا «الندوة الأدبية» وانتخبوني رئيساً لها ولتحرير مجلّتها الخطية عامين كما كنت أرأس مجلة «السلوة» قبلها أوبعدها ــ نسيت الآن ــ وقد أشار إلى معظم ذلك السيد الأديب الشاعر قاسم بن علي الوزير في مقدمته لديوان شعري «ديوان

الشامي» الآثار الكاملة؛ كما تحدثت عما كان يجري من نشاط في فصل «الأدب اليمني في سجون حجة» بعد هذا وفي كتابي «السوانح والبوارح» أثبتُ بعض مقالاتي التي نشرتها في المجلتين الخطيتين. وأقمنا المباريات الشعرية في عدة مناسبات و بعضها أثبته في كتابي «مع الشعر المعاصر في اليمن» وفي قاهرة حجة ألّفت كتابي« الإمام أحمد حميدالدين» وهو مطبوع ونظمت عشرات القصائد المبثوثة في دواو ين شعري والتي ألفتها وجمعتها أخيراً في « ديوان الشامي» حسب تواريخ إنشائها.

٧ـ من وراء الأسوار:

لقد ساهمت في كل نشاط أدبي وثقافي وسياسي واجتماعي أثناء اعتقالي في «نافع» و«القاهرة» وكنت ممن يعتمد عليهم الزملاء فيما يحلّونه أو يبرمونه ولا يقطعون بشيء دون مشاورتي، وكنت لا أضن بجهد يواسي أو يُوسي أو يجلب نفعاً أو يدفع ضراً.

ولكي أكون دقيقاً مع الواقع صادقاً مع التاريخ إن أراد أحد من القراء أن يعتبر أو يحسب بعض ما أرو يه في «كتاب حياتي» تاريخاً.. فأقول إن هناك حادثتين خطيرتين عرفتُ أنهما حدثتا في سجن «قاهرة» حجة ولم أعلم عنهما شيئاً إلا بعد نزوحي من اليمن بل بعد قيام تورة سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ وإعلان الجمهورية العربية اليمنية وانشقاق المنشقين على زملائهم بصنعاء واختلاف وجهات النظر بين الفئات التي سمّاها الأستاذ محمد نعمان «الأطراف المعنيّة». وناديت بالسلام والمصالحة الوطنية وانتخبت عضواً في «المجلس الجمهوري».

أما الحادثة الأولى؛ فهي المراسلات التي دارت بين الأستاذ محمد نعمان وأبيه أحمد، و بين نزلاء معتقل «القاهرة» ثم نشرت في كتاب اسمه «من وراء الأسوار»، و يضم آراء القاضي عبدالرحمن الإرياني وأحمد المعلمي ومحمد الفسيل وأحمد المروني وعلي العنسي وعبدالله السّلال وعبدالسلام صبره وغيرهم عن مشاكل اليمن يومئذ و وجهات أنظارهم في طرق حلّها وتصوّراتهم عن مستقبلها وماذا يرونه الأنسب والأفضل لها إلى آخر ما ورد في تلك الرسائل التي أحسن الأستاذ محمد نعمان كل الإحسان بنشرها كوثائق تاريخية تصوّر وجهات نظر بعض «الأحرار» في فترة من فترات تاريخ اليمن الحديث والذي قد أصبح عتيقاً قديماً بالنسبة لما وقع وكان. هذه المراسلات لم أعلم عنها شيئا عند حدوثها، ولا أستطيع أن أجزم هل حدثت وأنا لا أزال في سجن «القاهرة» وأن الزملاء والإخوان قد أخفوها عني وكتموها لسبب من الأسباب، أم أنها لم تكن إلا بعد أن غادرت المعتقل من حجة إلى الحديدة في ٢ رجب سنة ١٣٧٢هـ الموافق ١٧ مارس ١٩٥٣م وإذن فيلزم مراجعة تواريخ تلك الرسائل التي أعدها من أهم الوثائق في تاريخ اليمن الحديث ولاسيما و بعضها يحدّد أسماء الشخصيات اليمنية التي يمكن أن تنقذ اليمن و بعضها يشير إلى نوعية الحكم الذي يصلح لها والبعض يدعو إلى الاستعانة بالقوى الخارجية ومنهم من قال إن الحل هو في تقسيم اليمن على أساس جنوب شافعي وشمال زيدي، إلى غير ذلك؛ ومن الغريب أن رسالة الأستاذ نعمان الكبير نفسه، لم تنشر كأن ابنه قد أخّرها لغرض وجيه.

وأما الحادثة الثانية التي لم أعرفها فهي ما حدثني بها الأخ العلامة السيد ابراهيم بن علي الوزير عندما زارني في «بروملي» سنة ١٩٨٠م/ ١٤٠٠هـ أي بعد مضي أكثر من ثمانية وعشرين عاماً على حدوثها..

مبايعة ابراهيم بن علي الوزير:

وقد أخبرني أنه حصل وأنا موجود في قاهرة حجة أدرّسه واخوانه علوم العربية والأصول والفلسفة والشعر والمنطق أن القاضي العلاّمة الرئيس عبدالرحمن بن يحيى الإرياني ومن كان في معتقل القاهرة من العلماء والأدباء كالقاضي محمد بن علي الأكوع، والسيد عبدالملك المطاع والقاضي عبدالله الشماحي والقاضي أحمد المعلمي وبقية زملائهم قد طلبوا منه قبول بيعتهم له إماماً على اليمن، وأنه بادىء بدء قد رفض عرضهم بحجة أنه لا يرغب وأن هناك من هو أقدر منه وأنهض، ولكنهم ألحّوا عليه إلحاحاً شديداً وعدّة مرات وحمّلوه الحجّة أمام الله والتاريخ إذا رفض هذا الواجب المحتم، وبصورة لم يستطع معها إلاّ النزول عند رغبتهم، وقد بايعوه بيعة شرعية على السمع والطاعة في المنشط والمكره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أنهم قد أقسموا على كتاب الله اليمين «الزبيرية».

٨ - الأدب اليمني في سجون حجة:

كان في طليعة رجال الثورة وقادتها: السيد الإمام عبدالله الوزير والسيد علي الوزير، والقاضي أحمد الجرافي، والسيد حسين الكبسي، والسيد حسين عبدالقادر، والسيد زيد الموشكي، والسيد محمد أحمد باشا، والسيد علي بن حمود، والقاضي حسين الحلالي «ولو أن الأخيرين لعبا دوراً آخر» وهم واجهة اليمن في تلك الآونة.. كما أن في مقدمة من تعاون معهم: السيد أحمد المطاع والشيخ عبدالوهاب نعمان والقاضي عبدالرحمن الإرياني، والشيخ حسن الدعيس، والقاضي محمد محمود الزبيري والأستاذ أحمد محمد نعمان تساندهم مجموعة كبيرة لها ثقلها الأدبي والثقافي والاجتماعي بين الشباب الواعي المتعلم أمثال السيد أحمد المروني والسيد عبدالوهاب الشامي والسيد أحمد محمد الوزير والسيد عبدالله علي الوزير والسيد محمد الوريث والسيد أحمد محمد باشا والقاضي ابراهيم الحضراني والصفي أحمد محبوب والقاضي عبدالله الشماحي والخادم غالب الوجية والعزي صالح السنيدار والأساتذة محيي الدين العنسي وأحمد الحورش ومحمد صالح المسمري ويحيى زبارة وأحمد البراق ومئات من الأدباء وحملة الأقلام ومن تأثر بهم من مشايخ وأفراد وطلاب علم.

وإذن فالثورة كانت «ثورة العلماء» ودوافعها الرئيسية دينية ووطنية بحتة، ولا أنكر أن بعض الزعماء السياسيين كانوا يخشون وصول الحكم إلى يد الأمير أحمد بعد أبيه الإمام يحيى، فقد كانوا ــ ومنهم بعض الأمراء ــ لا يطيقون أن يتصوروا «أحمد» إماماً وملكاً لأسباب أشرت إلى بعضها في كتابي «الإمام أحمد» وكانت أيضاً دافعاً من دوافع الاستعجال بالثورة.

وإذن فثورة سنة ١٩٤٨م كانت ثورة العلماء ورجال الفكر والقلم، والشعر، والبيان، فما إن

فشلت حتى سيق كل أولئك إلى السجون وكاد أن يحشر إلى السجن كل حامل «عمامة» التي هي لباس الأدباء والعلماء والفقهاء في اليمن بل إن ذلك قد كان، وأطلق بعض القادة شعار «احبسوا كل معمم وسيخارج الله البرىء» وضاقت كل سجون اليمن بالمعممين ولم يطلق الأ برياء إلا من بعد أن ميزوا من بينهم «المتهمين» والذين كانوا يقرؤون «الجرائد» والكتب الحديثة و ينبزونهم بالعصريين والدستوريين واخوان «النصارى».

وفي سجن «نافع» بحجة حيث جرجرت إليه من صنعاء ضمن قافلة المعممين الحزينة.. التقيت بزملائي الشعراء ابراهيم الحضراني، أحمد المروني، عبدالله الشماحي، عبدالرحمن الإرياني، أحمد المعلمي، زيد الموشكي، محمد بن علي المطاع، محمد صبرة، محمد السياغي، محمد المسمري، و بأصدقائي العلماء والأدباء علي عقبات، علي ناصر العنسي، أحمد المطاع، حسين الكبسي، محيي الدين العنسي، أحمد الحورش، اسماعيل الأكوع وأخيه، أحمد محمد نعمان وغيرهم.

واكتظ سجن «المنصورة» و«القاهرة» بمجموعة أخرى من العلماء والشعراء.

هذه المقدمة قد تعطي القارىء صورة حيّة للنشاط الأدبي في سجون حجة إذ كيف يمكن لمجموعة مثل هذه المجموعة... وقد سلبت الأقدار منها كل شيء إلا الأفكار والألسنة والخيال والبيان... تلتقي في مكان واحد.. ولا يكون لهم نشاط أدبي؛ ولكن كيف؟ و بأي أسلوب؟ ولأ ية هدف...

١ ــ سيوف المنتصر مصلته تتهاوى على الرقاب في جبروت.

٢ ــ الأغلال والقيود تثقل الأجسام وتهد القوى وتنغص الحياة.

٣ ــ ظروف المكان من أقذار، وحشرات، وازدحام، وفساد غذاء لا تختلف عن ظروف «بالوعة» للدود.

٤ ــ يأس مطبق يجعل المرء يفضل الموت على الحياة.

٥ ــ لا علم لأحد كيف حال من خلفهم في «صنعاء» أو «ذمار» أو «الحديدة» أو «تعز» أو «إب» أو «اريان» بعد أن هدمت المساكن ونهبت الممتلكات وتشرد الأ بناء والبنات والأمهات والزوجات.

لذلك فقد خيم على «نافع» الصمت الرهيب بادىء ذي بدء، الأفكار تجول، والنظرات زائغة، ولا يود أحد أن يتكلم مع أحد غير همهمة الدعوات والصلوات وآيات القرآن الكريم...

ولكن... لكن هذا الإنسان... هذا المخلوق الجبار القادر على التكيف.. المتصرف المحتال.. وخاصة إذا كان أديباً أو عالماً أو شاعراً.. قد استطاع أن يستمرىء الأهوال رو يداً رو يداً وأن يتغلب على الصعاب خطوة خطوة، وإذا بالبسمات تعلو الشفاه من جديد و بالنكات البيانية تلاشى الأتعاب و بالمحفوظات الشعرية والقصصية وعظات التاريخ يتهاداها «السجناء»... فترتفع بهم ولو لحظات إلى الآفاق السامية، وإذا بالحلقات والندوات تعقد و يتبادلون النكات والأشعار والحكايات، والمقامات، فيفتلون الوقت التعس فتلاً لذيذاً و يفكرون في وسائل تحسين معيشتهم، وما يستطيعون به

أن يخففوا بها مصائبهم، كإصلاح المراحيض وتنظيف الأماكن، والإذن بجلب المياه من بركة «حورة» وليس من بركة «الزعبلي» وتجديد ملابسهم، والكتابة إلى ذو يهم... ومراجعة «الإمام» أو «نائبه» من أجل الحصول على ذلك مستعملين البيان شعراً ونثراً في الرسائل والبرقيات.. وكانوا يهيئون رسائلهم وأشعارهم عن ظهر قلب ودون تسجيل إذ لا يسمح للأقلام والأوراق بدخولها إلى السجن بل يملون ما يريدون إملاءه على أحد الحراس أو يكتبونه وهو واقف يراقبهم.

«بالطبع تمكن السجناء من التغلب على هذه المعضلة بطرق لطيفة قد نشير إليها فيما بعد».

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد هلعت قلوب الشعراء حزناً على مصارع بعض رفقائهم فنظموا مراثي كانوا يرتلونها غمغمة على زملائهم بكاءً وعزاءً ومواساة ومن أبرز المراثي ما قاله الشاعر ابراهيم الحضراني في الشهيد عبدالله الوزير ومطلعها:

عليك والا فالبكاء حرام   وفيك والا فالرثاء أسام

وحين سيق إلى الموت الشهيد محيي الدين العنسي كان ينشد قول ابراهيم الحضراني:

كم تعذبت في سبيل بلادي   وتعرضت للمنون مرارا،
وأنا اليوم في سبيل بلادي   أبذل الروح راضياً مختارا

ومن بدائع شعر ابراهيم الحضراني في السجن قصيدته العينية ومنها:

و والله ما خفت المنايا وهذه   طلائعها مني بمرأى ومسمع
ولكن حقا في فؤادي لأمتي   أخاف إذا ما مت من موته معي

كما أني رثيت زيد الموشكي، واشتركت مع ابراهيم الحضراني في ترثية سيف الحق ابراهيم ابن الإمام يحيي وقال آخرون شعراً جيداً في بعض الشهداء وكل ذلك محفوظ ومسجل منه ما طبع ومنه ما لا يزال مخطوطاً... ولدى الشاعر أحمد المعلمي سفير اليمن في أثيوبيا مذكرات أدبية لطيفة عن تلك الفترة وأحداثها وحين كتبت إليه أسأله عن بعض قصائد قلتها وليست بحوزتي أجاب عليّ بكتاب مطول بتاريخ ١٤/ ٩/ ٧٣ ومما ورد فيه ما يلي:

«أيها الصديق؛ اسمح لي أن أجمع أوراقي المبعثرة وأتابع ما يمكن متابعته، سأتحدث إليك عن قصيدتيك اللتين سألتني عنهما، إني أغتفر لابراهيم الحضراني صديقنا وشاعرنا كل شيء... إلا إهماله لشنطة كبيرة حديد ــ فأنت لا تزال تذكر أنه أطلق قبلي ــ فبعثت إليه بشنطة فيها أعداد مجلة «السلوة» ومجلة «الندوة» التي كنا نصدرها بالخط وفيها ــ أي الشنطة ــ كثير من القصائد، و يقول ابراهيم إنه دفنها خوفاً في صنعاء وسافر إلى الحديدة، و يضيف أنه عندما عاد إلى صنعاء وجد المدينة قد تغيرت وقد أقيمت بنايات جديدة وأنه فقد المحل و يظهر أنه قد بلط» إلخ...

وذكر لي أحمد المعلمي أن في مذكراته (صفحة ٩٢ ــ ١٠٣) كلاماً كثيراً عن السيد الشاعر محمد ابن أحمد الشامي ونقل له قصيدتين إحداهما عنوانها «فوق العش المركوم» ومنها في وصف زملائه في

السجن:

يا ضارب الخيمة السوداء إن هنا رهطا يذو بوث أرواحا وأبدانا
قد فطر الحزن والتدليه أفئدة منهم، وقد قرّح التسهيد أجفانا

والأخرى عنوانها «من بين الجدران» وجهها إلى والده وفيها يقول:

خلنا للحديد والسجن والتشريد والسقم، والضنى، والبلاء
انني قد حملت للدهر قلبا جمعته مطارق الأرزاء

وفي فصل «ثورة الدستور وشهدائها» من ديواني «الياذة من صنعاء» قصائد رثاء من وحي سجن حجة يستطيع الرجوع إليها من يرغب في المزيد من الشواهد.

ومع المدى تطور الأمل عند الشعراء والأدباء إلى إمكانية التأثير على الإمام أحمد بوسائل البيان، فبدأ الأستاذ أحمد نعمان بمراسلته مستعملاً أسلوبه الخلاب، وانفعل بها الإمام واستمرت المراسلة حتى حنا عليه ونقله من نافع إلى القاهرة ثم إلى بيت مستقل مع أهله وأولاده، وألف رسالته الجيدة «شخصية الإمام الناصر» فطلبه الإمام أحمد إلى تعز واستطاع أن يكسب عطف الإمام على المساجين وعليّ بشكل خاص كما حدثني الأستاذ وغيره وكان الإمام أحمد أديباً بليغاً يحب الشعر وقوة البيان ولذلك فقد استغل شعراء سجون حجة هذه الناحية أبدع استغلال واستطاعوا أن يدخلوا إلى قلبه من أقرب الطرق وأن يقلموا أظفار الخوف ويخففوا من وطأة الرعب، ويخلقوا جواً من التفاؤل حولهم، وأن يدافعوا عن أنفسهم ويجابهوا ضراوة المؤلبين والمنافقين المطالبين بقطع الرقاب وتنفيذ أحكام الإعدام في الدستوريين.

تلك بعض وجوه نشاط أدب وشعر سجون حجة في الفترة الحرجة وفي الإمكان إيجازها كالتالي:

أ ــ تحبير الاستعطافات بلغة رقيقة نثراً وشعراً في مدح الإمام وإثارة شفقته ورحمته وحنانه.

ب ــ البكاء ــ مكتوما ــ على الزملاء المقتولين والحنين إلى الأهل، وتأبين مصارع الأحرار.

جـ ــ رافق ذلك أيضاً تحرير رسائل وقصائد إلى بعض علماء الدين والوجهاء ممن كانوا فوق شبهات الاشتراك في الثورة لمقاماتهم البعيدة عن أجواء المنافسات أو لشيخوختهم أو ممن كانوا في عدن. فكتب الأستاذ أحمد نعمان عدة رسائل تصف حالة السجناء ومآسيهم إلى الأستاذ محمد سالم البيحاني يصف له حالة السجن وأهواله، و يطلب منه الشفاعة للمنكوبين ويحمله المسؤولية الوطنية والدينية... وكتب إلى غير البيحاني وقد نفعت الشفاعة وأطلق الإمام سراح العشرات من سجناء تعز وعدن وإب الذين سيقوا إلى حجة بعد فشل الثورة ولم يطلق أحداً من «الزيود».

فكتبت رسالة مطولة إلى السادة الأجلاء عبدالرحمن الشامي وقاسم بن حسين أبوطالب ومحمد ابن محمد زبارة والقاضي محمد الحجري والقاضي محمد عبدالله الشامي إلى صنعاء أصف أهوال سجون حجة وأحلهم الحجة في الدنيا و يوم المعاد وهولت في البيان ما عنّ لي شعراً ونثراً وخوفتهم من المستقبل الرهيب

إذا استمرت الحال كما هي عليه وضربت لهم مثلاً بما صنع الشيخ البيحاني وكيف نفعت شفاعته في أصحابه.

د ـــ وهناك بعض الأدباء المتحمسين لثورتهم وقضيتهم ومبادئهم من أن تموت فتدفن معهم ـــحسب تعبير الحضراني ـــ قد خافوا على التاريخ فسجلوا أهم الأحداث وأرخوا لأسبابها ورجالاتها وبأسلوب بياني موجز ومن ذلك كتاب «لو لم تقم ثورة الدستور» وكتاب «كيف تفهم القضية اليمنية؟» وقد نشرت فصول من الكتاب الأخير باسم مستعار في جريدة «الفجر» بعدن عندما كانت تصدر سنة ١٩٥٧م بينما ألف في نافع سنة ١٩٤٨م واشترك في تأليفه سطراً سطراً وفصلاً فصلاً الأستاذ محمد عبدالله الفسيل سفير اليمن الحالي في برلين وكاتب هذا المقال... أما كيف كنا نتحصل على الورق والمواد وكيف نختار أوقات الكتابة فهو أغرب من الخيال. وللكتابين قيمتهما الفنية والتاريخية من جهة التأنق البياني وتحري الصدق في النقد والتحليل. وكان للشيخ أمين نعمان فضل حفظهما ونقلهما.

تلك كانت أوجه النشاط الأدبي في الفترة الأولى، إلى مساجلات، ومحاورات، ومناجاة خاصة، كانت تخفف عبء السجن ومرارة عذابه.

ولما تحسنت أحوال «السجن» وظروف السجناء وتلاشى شبح السيف المصلت، وأوقفت أوامر الإعدام وذلك بعد مضي عام، وأذن الإمام بدخول الكتب إلى السجون، وتوطدت المعرفة بين بعض «السجناء» وأفراد «الرسم» ـــالحراس ـــ فهربوا إليهم الأقلام والرسائل والجرائد والأوراق والمداد والكتب العصرية.. وأوصلوا لهم الجوابات ونقلوها عنهم.. توسع النشاط واتصل الأدباء بمقالاتهم وقصائدهم حتى بإخوانهم الذين نجوا من الموت، والاعتقال وفروا إلى باكستان وعدن ولبنان ولندن.

وفرض أدب «حجة» سلطانه حتى على عقول المبعدين الشاردين من أبناء اليمن فإذا بالشاعر محمد محمود الزبيري يدبج الرسائل البديعة مستعطفاً الإمام متشفعاً إليه في «نعمان» وصحبه ويرسل قصيدته الرائعة الطويلة:

«أيُبْعَثُ نعمان من قبره»!

ويمجد الإمام تمجيداً يستل من قلبه بقايا السخيمة... وحقاً لقد كان الإمام كريماً مع الشعر وسحر الكلمة ولم يخيب لهما أملا مثلما كان رهيب السيف جبار الهمة.

وانتقل الشعراء من سجن «نافع» الرهيب إلى معتقل «قاهرة حجة» وهناك في قمة ذلك الجبل وفي الجو المفعم بالنقاوة الصحية، والحرية السماوية، والانطلاق الشعري وتهاويل المناظر الطبيعية.. وخاصة وقت الغروب.. هناك نظم الشعراء أجمل قصائدهم وأروع ألحانهم، وفكروا بوضوح وعلموا شبابهم، وقووا روابطهم، وأغزروا ثقافاتهم، ووسعوا معلوماتهم، بالقراءة والدرس والحوار... وأصدروا مجلة «السلوة» الخطية وألفوا «ندوة أدبية» اختاروني لها رئيسا بالاقتراع وأصدرنا مجلة خطية أخرى أسميناها «الندوة» وكنا نتناوب نسخ مقالاتها وتنسيقها ومحاولة إخراجها إخراجاً فنياً، وقد

نوقش فيها أبحاث اجتماعية وأدبية وتاريخية وفلسفية ، ولكنها لم تتعرض للسياسة لا من قريب ولا من بعيد ولذلك أمكن تناقلها خارج السجن وكان لها أثر فكري على قرائها .

وشرعت في تأليف كتابي عن « الإمام أحمد » وأرسلت بعض فصوله إليه ... ثم ناجيته بقصائدي « التائيات » المنشورة في ديواني « النفس الأولى » فأطلق سراحي إلى « الحديدة » سنة ١٩٥٣م بعد خمس سنوات غير عجاف أدبياً وكان ما كان مما هو مفصل في مذكراتي .

وفي قاهرة حجّة تمكن القاضي العلامة الشاعر عبدالرحمن بن يحيى الإرياني (رئيس المجلس الجمهوري حالياً) مع زميله المرحوم العلامة عبدالله الأغبري من العناية بديوان عبدالرحمن الآنسي تصحيحاً وتنقيحاً وضبطاً وشرحاً وأرسلوه إلى الإمام أحمد فأمر بطبعه فوراً وكانت خدمة للشعر الحميني والأدب اليمني .

كما اعتنى بعد ذلك القاضي عبدالرحمن الإرياني والقاضي محمد بن علي الأكوع بديوان الشاعر عمارة اليمني وساهمت معهم في استجلاء بعض الغوامض ولا أدري ما صنع الله بالكتاب .

كما أن القاضي العلامة محمد علي الأكوع قد تمكن في نفس الوقت من العناية ببعض أجزاء الإكليل وفتح مبهماته وقد طبع البعض والبقية تحت الطبع ، وهو جهد مشكور .

وكانت تقام المسابقات الشعرية في المناسبات الحزينة والمفرحة ، والتاريخية ولنضرب لذلك مثلاً :

١ ـ تزوج أحد الشعراء من آل الإرياني ـ وكان لا يزال يافعاً يغرزم بالشعر و بصوت يبشر بمستقبل شعري بديع ـ فاقترح البعض أن ترسل له « باقة شعرية » واقترح الوزن والقافية وتحديد الوقت على أن تنال أحسن قصيدة الجائزة وكان يرأس لجنة التحكيم السيد الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني وكان الوزن المقترح في قافية الراء كما ورد في قصيدتي التي مطلعها :

نغمات أفراح ، ولحن سرور رقصت عليها مهجتي وشعوري

وكانت الحصيلة حوالي عشر قصائد .

٢ ـ ومناسبة أخرى موت من سميناه حينذاك « الجندي المجهول » وقد كان « معلوماً » فهو أحد « الرسم » ـ الحراس ـ ولكنه تأثر بأفكار الأحرار ورقّ قلبه لهم وساهم في خدمتهم ، وحمل رسائلهم ، ثم ساعد أحدهم على الهروب واكتشف أمره فسجنوه ونفوه إلى سجن « السودة » ولم يستطع مقاومة الأهوال فمات .

واقترح البعض أن يشترك جميع الشعراء في تأبينه والإشادة بموقفه وقالوا شعراً بديعاً وانفعلت يومئذ للمأساة انفعالاً شديداً وقلت أبلغ قصيدة أعتز بها وهي نحو ثمانين بيتاً ولكنها لا تزال مفقودة وقد وعدني القاضي اسماعيل الأكوع بالبحث عنها ... وكانت حصيلة الاقتراح أحد عشرة قصيدة من أروع ما نظمه شعراء اليمن .

٣ ـ وعندما هبت ثورة مصر سنة ١٩٥٢م امتلأت نفوس المساجين بالأمل والتطلع فتباروا في إنشاء

القصائد و يوجد بين مجموعتي الأدبية كراس بخط الشاعر أحمد المعلمي يحوي اثنتي عشرة قصيدة في الموضوع.. ضمنها قصيدتي «ثورة مصر» المنشورة أخيراً في ديوان «الموءودات».

٤ ــ وفي نفس الوقت تعمق تفكير السجناء في نقاش ما ينتظرونه أو ما يعده لهم المستقبل لو مات الإمام أحمد وهم لا يزالون في السجن فقرروا الانحياز إلى ابنه محمد البدر الذي كانوا على صلة معرفة ومودة به وكانوا ــ أو بعضهم على الأقل ــ بصدق وإخلاص يرون فيه الأمل والمخلص والمنقذ لهم من إخوة الإمام وأبنائهم الذين تعصبوا وكانوا ضد العفو عن المساجين وضد معاملتهم بالحُسْنى.

٥ ــ كما أن بعض الشباب قد حاول تسلق أسوار المستقبل فأرسل رسائل من خارج السجن إلى بعض المساجين وتلقى جواباتهم حسب قوله وقد جمع كل ذلك في كتاب «من وراء الأسوار».

وإذا كان لي أخيراً أن أستشهد بمثل من أمثلة الشعر اليمني في معتقل حجة، فهو في نفس الوقت احتفال بمبعث قصيدة من قصائدي «الموءودات» بعثها من رمسها الضائع القاضي إسماعيل الأكوع وأعادها إلى أبيها حيّة تسعى مشكوراً، وقد صورت بها مأساة القاضي محمد بن محمد الإرياني الذي مات بداء السل بعد عذاب طويل في قاهرة حجة سنة ١٩٥٣م (٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٧٢هـ):

مأساة شهيد

أمل تبدد كالسراب ... وطوته أحشاء التراب
وتخطفته مخالب الظلمـــــات في فجر الشباب
نزعته كف الموت وهو يئن في حضن العذاب
والحق يشهد فيه، كيف ... تمزق الخير الذئاب

* * *

قف يا يراعي خاشعاً ... في موكب النور الشهيد
وانضح بدمعك ضوءه ... المسفوك، كالشفق البديد
وانظم زهور أساك ... في نغم من الشكوى جديد
كفن به زور الحياة ... ولؤم سادتها العبيد

* * *

غص في ظلام السجـــــن وانبش قبر تاريخ رهيب
وابعث هياكل قصة ... خرساء تجهش بالنحيب
لم يروها قلم ولم ... يلهم مصارعها أديب
هي قصة الحق الصر ... يع، ونكبة الحر الغريب

* * *

جاؤوا بـه في القيد مظلـــــوم المشاعر، من «زبيـد» ...
وإلى متالف «نافع» قذفـــوه يعتنــق الحديد
فهوى وفي شفتيه بسمـــــــــــة مؤمن حر عنيـد
وكـأنمـا هـو زهـرة في كـف اعـصار مبيـد

* * *

كـم لـيلـة قـاسى بهـا الأهـوال، من وخز الجراح
وكـأن حـشـو فـراشـه نـــار تؤججها الريـــاح
والـنجم ضـل طريقه والليل مخنوق الصباح
والقيـد في رجليه ينهـــــش حـرمـة الحق المباح

* * *

كـم أنّة نـاجـي بهـا من سجنه قلب «الخليفه»
فـأهـانـهـا وازورّ عنهـا سمع حضرته «الشريفه» ..
وتهـالكـت في ركـن ســـــؤدده وعزتـه المنيفـه ...
وتعســـف الجبـــروت لا يحنو على المهج الضعيفه

* * *

لـمّـا تمرد عزمه العـاتي على الظـــلم الغضـوب
دبت إليـه عقارب الســــــل الأكولـــة للقلـــوب
وإذا بـقـوتـه تـهـي وإذا بـأعـظـمـه تـذوب
وإذا بـهـيـكـلـه يحطم ... تحت مطرقة الخطوب

* * *

ظلت قـــواه فريســـة للســل عـامـاً بعد عـام
يمتص مـاء حيـاتهـا و يذيقها جرع الحمـــام
وإذا اشتكى ألماً خوت شكواه في وحل الا ثام
لا الـقـيـد يـرحمه ولا الز من الكنود، ولا «الإمام»

* * *

و بسفح وادي الموت .. مج تـمـالـة النفس الأخير
ومضى ـــ وودع جسمه البا لي ـــ إلى الملأ النضير
حيث السعادة زهرها زاه، ومـنـبـعـهـا نمير
في عـالـم الرحمات تحت رعـايـة الـرب الـقـدير

* * *

لم يبق للمسكين من دنيــــاه إلا دمعتـــــان
حبتــا على خديــه تســــــــــتحيان من فقد الحنـــان
وتمثـــــلان الكبـت إذ يطغى، و ينعقــد اللســـان
يـا للجـــلال، هنا اليراع ... يخـــر مصعــوق البيـــان

* * *

طـف يـا بـيـاني مزنـة وطـفـاء على القبر الغريب
واسـكـب عـلـيـه حزنك المسفوح في الدمع السكيب
وانـقـل روايـتـه إلى التا ريـخ في شـعـر كـئـيـب
تـبـكـي لـه ظلـم الليـال و يـصـعـق الـزمن الرهيب

* * *

٩ ـ شهادة مؤرخ يمني :

بعد كتابة ما سبق عن حزب الأحرار، وثورة الدستور؛ و بأسلوب يخضع لتداعي الذكريات واصطراعها رضاً وسخطاً أكثر مما يراعى النهج التاريخي والسرد العلمي؛ و بعد أن عزمت على الانتقال من تلك الأجواء المفعمة بروائح المؤامرات والخوف والتمرّد، وعبق الشباب وأحلامه وأوهامه، ونفحات الصبر والمعانة.. إلى جوّ آخر سميته «فترة البرزخ» لأ روي قصة إقامتي الجبرية في «الحديدة» و«ولاية العهد» للبدر، وانقلاب الأمير عبدالله، والمقدم أحمد الثلايا متعرّضاً لمزاعم وافتراءات الدكتور المزيف عبدالرحمن البيضاني وتزو يره للوثائق الخطّية.. إذا بي اطلع على مقالة بعنوان «ثورة صنعاء» عام ١٩٤٨م وما رافقها من الخلاف بين الأحرار» بقلم الأديب المؤرخ الأستاذ علي محمد عبده.

ولأن في المقالة ما يؤيد بعض ما سردته، وأشياء سهوت عنها أو لم أعلمها مثل رسالة الأمير ابراهيم رأيت اثباتها كما نشرت دونما تعليق: [مجلة الإكليل العددان الثاني والثالث؛ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م].

ثورة صنعاء عام ١٩٤٨م وما رافقها من الخلاف بين الأحرار

بقلم علي محمد عبده

«منذ العام الذي تأسس فيه (حزب الأحرار اليمني) في التواهي عام ١٩٤٤م نشأ الخلاف بين رجاله الوافدين من الشمال من المشايخ والسيدين زيد الموشكي وأحمد الشامي من جهة والأستاذين أحمد محمد نعمان ومحمد محمود الزبيري من جهة ثانية.. وأسباب ذلك الخلاف الذي تمخض عن عودة المجموعة الأولى إلى الشمال قد تحدثنا عنه فيما سبق عند قراءتنا للرسائل المتبادلة بينهم والمتعلقة بتلك الفترة.. كما تحدث عنها الأستاذ محمد علي لقمان في كتابه عن ثورة (٤٨) متعلقة ومرتكزة على محاولة التعرف على مصادر أحوال أو تمو يل الحركة (حزب الأحرار اليمني) ومطالبتهم بوصف المالية وتكتم

الأستاذ أحمد محمد نعمان على مصادر التمويل ورفضه اطلاعهم عليها أوتلبية مطالبهم باستثناء الأستاذ محمد محمود الزبيري الشيء الذي أثار ثائرتهم ضد الأستاذ نعمان. وعادوا على إثر ذلك الخلاف إلى الداخل قبل تأسيس (الجمعية اليمنية الكبرى) وقبل وصول الأمير سيف الحق ابراهيم إلى عدن وانضمامه إلى حركة الأحرار كما أسلفنا، حقاً أن تنظيمات الأحرار السياسية حملت اسم ومعنى الحزب وكان لها هيئاتها الإدارية وأنصارها والمشتركون فيها لكن هؤلاء جميعاً كانوا من (المداكنة) و بسطاء العمال الذين يقتطعون من دخلهم الشحيح ومن رواتبهم الضئيلة ومصاريف ذو يهم في القرى (الربيه) و(الربيتين) والعشر الربيات ليقدموها اشتراكاً أو تبرعاً للحزب. وقد عملت مجموعة منهم كما تحدثنا عنها فيما سبق على تكوين لجنة مالية من بينهم تجمع الاشتراكات والتبرعات المطلوبة من المقيمين في عدن والمهاجر وتشرف على أوجه الصرف بطلب يتقدم به الأستاذان نعمان والزبيري (أمين عام ورئيس الحزب). وقد بقيت أسماء اللجنة المالية وأسماء المشتركين لإنفاق ذلك على الأحرار المقيمين في القاهرة وعدن وأجور العمال والبريد للمهاجر والداخل وعلى جريدتي (الصداقة) و(الرابطة العربية). وقد ذكرنا أسماء أعضاء هذه اللجنة مع نسخ من قوائم الدخل وأوجه الصرف.

و بعد وصول الأمير ابراهيم إلى عدن وانضمامه إلى الأحرار، حرّضه البعض على إثبات حقه كزعيم للأحرار في معرفة الأمور المالية للجمعية فراح يطالب بذلك وهولا يعرف أو لم يكن لديه علم بمن يدفع تكاليف معيشته وانهما اثنان من الأحرار المهاجرين في الحبشة أحمد عبده ناشر، وعبدالقوي مدهش الخرباشي كانا يتقاّسمان ذلك فيما بينهما. فلم يلب طلب الأمير حتى لمعرفة من يدفع تكاليف معيشته.. لأن العلاقة بين المشتركين وحركة الأحرار كانت علاقة شخصية بين المشتركين و بين الأستاذ أحمد محمد نعمان وحده، ونتيجة الثقة به وحده ولكونه الوحيد الذي يعرفونه تعاملوا معه شخصياً على أن تبقى أسماؤهم مكتومة خوفا على أنفسهم وعلى ذو يهم في الداخل من بطش الإمام و ولي عهده، لذلك أصر الأستاذ نعمان على تكتمه حول ذلك».

ولكن هذا الخلاف الذي نشأ بينهم منذ العام الأول لتأسيس حزب الأحرار بعدن وعودة من عاد منهم إلى الداخل لا يعني نهاية معارضتهم لحكم الإمام يحيى أوحدوث انشقاق في حركتهم أو انفصال عنها. فقد استمروا يعملون معا في صف واحد وجبهة واحدة و يتشاورون في كثير من المواقف. وقد كانت مسودة (الميثاق الوطني المقدس) المرسلة من صنعاء إلى عدن مكتوبة بخط السيد أحمد محمد الشامي أحد العائدين من عدن إلى صنعاء. لكنه نتيجة لذلك الخلاف ساد بينهم جو من عدم الثقة. واستمر قائماً حتى يوم قيام الثورة ومصرع الإمام يحيى في حزيز يوم ١٧ فبراير ١٩٤٨م. وعكس أثره على مواقفهم من بعض إذ برزت يومها بأبشع صورها وتحكمت في مواقفهم وتصرفاتهم وقراراتهم وكان لها نتائجها المأساوية. أما بالنسبة لما حدث بينهم قبل ذلك يوم انتشار الإشاعة الكاذبة عن موت الإمام يحيى وتوزيع نسخ من الميثاق فقد تحدثنا عنه في مكان آخر قبل هذا.

اجتمع الأحرار المتواجدون يومها في عدن بعد قيام الثورة في (دار الجمعية اليمنية الكبرى) وخيم عليهم جو من الشك والريبة وعدم الثقة ببعضهم.. وهم الحورش، والبراق، الفسيل، الموشكي،

نعمان، الزبيري، الأمير ابراهيم. إذ اجتمعوا للتشاور حول الخطوات التي يجب عليهم اتخاذها بعد أن آل الأمر إلى الأحرار واستلمت حكومة باسمهم السلطة في صنعاء وفقا لما جاء في الميثاق الوطني المقدس.

كان الموقف في الداخل غامضاً بالنسبة إليهم جميعا، لا يعرفون موقف الأمراء من الثورة و بالذات موقف ولي العهد السيف أحمد الذي استطاع الإفلات من الكمين المكلف باغتياله في تعز والحديدة لأن خبر مصرع والده وصله قبل أن يصلهم. فغادر تعزاً لتوه متخفياً ومتنكراً في اتجاه حجة.. ومن الطريق أرسل البرقية التالية لأخيه السيف عبدالله إلى لندن:

«الأخ سيف الإسلام الفخري/ لندن.

تلك الإشاعة الكاذبة السابقة تحققت الآن بالاغتيال.. وهذا من الطريق نحو العاصمة وما كان التأخير إلا بموجب أمر.. ليكن إكمال أعمالكم كما يلزم وتنفيذكم بعد هذا إن شاء الله. ٩ ربيع الثاني ٦٧».

إلى جانب ذلك كان الأحرار المتواجدون بعدن لا يعرفون مدى صدق حلفائهم المتواجدين في صنعاء من أبناء البيوت الكبيرة في تأييدهم للثورة ولا مدى التأييد الذي تتمتع به بين القبائل ولا ما هو موقفهم منها.. كانت كل هذه الأشياء والمواقف مجهولة لديهم جميعاً وإن بقيت غالبيتهم معتمدة على الثقل الروحي أو المكانة الدينية التي يتمتع بها الإمام الجديد عبدالله بن أحمد الوزير في المحيط القبلي المجاور صنعاء، أو متوهمين ذلك الثقل والتأييد، أثناء النقاش والمداولات طرح رأي يشير بطلوعهم جميعاً إلى صنعاء وقوبل بالاستحسان والموافقة، إلا أن الأستاذ أحمد محمد نعمان عارض ذلك وأشار عليهم بالتريث والبقاء في عدن ليتابعوا التطورات التي تحدث في صنعاء ريثما ينجلي الموقف وليكونوا قوة احتياطية تقدم المساعدة للثورة إذا اقتضى الأمر من المناطق الجنوبية.

قوبل رأي الأستاذ نعمان هذا بالمعارضة وراح بعضهم يفسره على عكس ما قصد الأستاذ، لأنهم نظروا إلى رأيه من زاوية الشك والريبة وسوء الظن فعملوا على تصعيد الموقف ضده واتهموه أنه لا يرمي من وراء البقاء في عدن إلا فصل المناطق السفلى عن المناطق العليا وحرّضوا الآخرين ضده، وقد استطاعوا أن يوهموا الأستاذ الزبيري والأمير ابراهيم أن الأستاذ نعمان يريد تمزيق البلاد بفصل المناطق الجنوبية.

ولأول مرة منذ ربط نعمان والزبيري مصيرهما ببعض يساور الأستاذ الزبيري بعض الوساوس ضد رأي الأستاذ نعمان في بقاء الأحرار في عدن، فأصر الأستاذ الزبيري مع من أصر من الأحرار على طلوعهم جميعاً إلى صنعاء معارضاً بقاء أي منهم خارجها إلا أن الأستاذ نعمان تمسك برأيه وأصر على موقفه وعندما لمس الأستاذ الزبيري إصرار الأستاذ نعمان على موقفه وتمسكه برأيه ازداد تصديقاً لأقوال المحرضين فبكى بحرقة وناشد الأستاذ نعمان الطلوع معهم إلى صنعاء. فصعب على الأستاذ نعمان موقف زميله وصديقه وأخيه الزبيري فأشار بتحكيم الشيخ محمد سالم البيحاني الذي كان يتمتع بثقة

الجميع، وقد تحدثنا عن دوره في حركة الأحرار قبل الثورة و بعدها في أماكن أخرى.

أوضح الأستاذ نعمان وجهة نظره وما يهدف إليه من بقائهم في عدن للشيخ البيحاني وللجميع أن ذلك بسبب الغموض السائد على الموقف في الداخل. أبدى رأيه ذاك الذي أحيط بالشوشرة والتشو يه وسوء التفسير عن قصد، وتحدث عن بقاء مركز ولي العهد السيف أحمد شاغراً في تعز. التي وطد مركزه فيها وزرع هيبته والرعب منه في نفوس المواطنين فكان رأي الشيخ البيحاني وفتواه أن يطلع كل الأحرار المتواجدين بعدن إلى تعز برئاسة الأمير ابراهيم ليثبتوا بوجوده و بوجود قادة الأحرار بتعز أن السيف أحمد انتهى شخصياً ومعنو ياً، وليطمئن بذلك كل من في تعز من مواطنين وجنود وموظفين وليثبتوا سلطة العهد الجديد.

وافق الجميع على هذا الرأي فطلعوا إلى تعز في ٢٤ فبراير ١٩٤٨ و برفقتهم مئة وتسعة وأربعون شخصاً من بينهم بعض الشخصيات العدنية المساندة لهم والمشاركة معهم في الحركة، أمثال محمد علي لقمان، ومحمد حسن خليفة، طلع الجميع في رتل من السيارات.. وفي تعز عاودوا نقاشهم من جديد حول بقائهم في تعز أو طلوعهم إلى صنعاء إذ كان رأي الأستاذ نعمان البقاء في تعز بدلا من عدن ريثما ينجلي الموقف في صنعاء.. ولكن الغالبية أصرت على طلوعهم جميعاً إلى صنعاء فوافق الأستاذ نعمان بعد أن هزم اقتراحه وأوكل أمر ترتيب سفرهم إلى صنعاء إلى كل من السيد محمد أحمد باشا والسيد زيد الموشكي وابراهيم الحضراني واتفقوا على توزيعهم إلى ثلاث فرق و يكون سفرهم من ثلاث جهات:

- الأمير ابراهيم والأستاذ الز بيري وجماعة من الأحرار يعودون إلى عدن بالسيارات ليستقلوا منها الطائرة إلى صنعاء.
- الأستاذ أحمد محمد نعمان مع جماعة من الأحرار يسافرون عن طريق إب ـــ ذمار إلى صنعاء.
- القاضي عبدالله عبدالإله مع جماعة من الأحرار يسافرون عن طريق الحديدة لملاقاة وفد الجامعة العربية الذي سيصل إلى هناك في طريقه إلى صنعاء حكماً بين الأحرار وولي العهد وللتعرف على الأوضاع حسب طلب الأحرار.

اتفق الجميع على هذا التوزيع على أن يلتقوا جميعا في صنعاء.

تحرك ركب سيف الحق ابراهيم من تعز إلى عدن في سيارتين ضم كلاً من الأستاذ الز بيري والبراق ومحيي الدين العنسي الذي استقلوا سيارة واحدة كان يسوقها الحاج عبدالله عثمان و بقية الوفد استقل السيارة الثانية.. وفي صبيحة اليوم التالي من وصولهم عدن استقلوا الطائرة إلى صنعاء وتخلف عنهم الحاج عبدالله عثمان تاركاً مقعده للأستاذ محمد علي لقمان رئيس تحرير جريدة (فتاة الجزيرة) لأن المقاعد المحجوزة كانت محدودة.

وما أن وصل الأمير ابراهيم والأستاذ الز بيري إلى صنعاء في ٢٨/ ٢/ ٤٨ حتى وجدا الموقف فيها على عكس ما كانا يتوقعان وأن الثورة مهددة بالخطر لأن السيف أحمد ولي العهد أخذ يجري اتصالا ته من حجّة بواسطة أخيه السيف عبدالله الذي انتقل من لندن إلى القاهرة مع ملوك الدول العربية يحرضهم

للوقوف ضد الثورة إذ جاء في برقية من هذه البرقيات مرسلة في ٢٥ ربيع الثاني ما يلي :

« يجب عليكم تأييد العرش بالاستعانة بالحكومات العربية .. فقد أيد ملك شرق الأردن .. يمكن من بقاء صنعاء محصورة جداً ابن سعود لا بأس » هذا إلى جانب اتصالاته الداخلية مع رؤساء القبائل الذين أباح لهم نهب صنعاء وما بداخلها فتحركوا حباً في المال لا في الآل .

وحين وجد الأستاذ الزبيري الموقف في صنعاء على عكس ما كانوا يتوقعون أرسل برقية شيفرة للأستاذ نعمان الذي كان قد وصل مع صحبه إلى يريم يطلب منه التوجه من هناك إلى الحديدة لملاقاة وفد الجامعة العربية مع القاضي عبدالله عبدالإله بدلا من مواصلة السفر إلى صنعاء .. إلا أن الأستاذ نعمان رفض الطلب في التوجه إلى الحديدة ، وأصر على مواصلة السفر إلى صنعاء حتى لا يستمر الإخوة الذين اختلف معهم في عدن وتعز في تفسير مواقفه بصورة عكسية ، وأن توجهه إلى الحديدة نوع من العدول عن الاتفاق في الوصول إلى صنعاء للقاء معهم هناك ، فواصل سفره إلى ذمار حيث اعتقل هناك .

بعد وصول الأستاذ الزبيري والأمير ابراهيم إلى صنعاء لحقهم في اليوم التالي كل من الحاج عبدالله عثمان والحاج محمد سلام حاجب والحاج محمد علي الأسودي ، والأستاذ سلام فارع ومحمد حسن عوبلي .. ومكثوا في صنعاء ليلة واحدة فقط التقوا خلالها بالشيخ عبدالوهاب نعمان والأستاذ الزبيري و يقول الحاج عبدالله عثمان في مذكراته المخطوطة : « كان الشيخ عبدالوهاب نعمان صريحاً معنا حيث قال إن القبائل تهاجم سور صنعاء ليلاً .. وتقرر رجوعنا ، عدت بأمر من القاضي محمد محمود الزبيري حالاً لإنقاذ الموقف .. وفي صبيحة اليوم التالي خرج الأستاذ الزبيري إلى المطار لوداعنا وسلمنا رسالة لنبعثها إلى مصر... ورسالة أخرى إلى السيد حسين الويسي لصرف ما نحتاج إليه من ملابس لأكبر مجموعة من الشباب الفدائي وإرسالهم إلى صنعاء » .

عادت المجموعة التي سافرت إلى صنعاء عقب سفر الأستاذ الزبيري والأمير ابراهيم إلى عدن ولم يتخلف عنها سوى الأستاذ سلام فارع الذي اعتقل بعد فشل الثورة مع من اعتقل من الأحرار... وقد صحبهم في رحلة العودة هذه السيد أحمد حسين المروني يحمل منشورات قام بتوزيعها ونشرها فوق المدن التي مرت الطائرة عليها : وهي ذمار ، يريم ، البيضاء ، لحج ، حتى وصولهم عدن .

وفي عدن فتحوا في دار « الجمعية اليمنية الكبرى » مكتباً للمتطوعين من الشباب وتجهيزهم بملابس الكاكي وإرسالهم في دفعات على طائرة خاصة إلى صنعاء وقد ساهم في تجهيز الشباب المتطوعين ودفع تكاليف سفرهم كل من : الحاج عبدالله عثمان ، الحاج محمد سلام حاجب ، الحاج محمد علي الأسودي عبدالرحمن عبدالرب ، الحاج عثمان قائد سلام ، وتبرع لهذا الغرض الأمير اللحجي عبدالقوي فضل بمبلغ أربعة آلاف رُبّيه . وقد عاد آخر فوج من الفدائيين والطائرة تهم بالهبوط في مطار صنعاء حيث أبلغت أن القبائل خربت المطار ولا يمكنها الهبوط فيه فعادت بالفدائيين إلى عدن . وقد وجهت جريدة (صوت اليمن) الناطقة باسم (الجمعية اليمنية الكبرى) حزب الأحرار ، وجهت إلى هؤلاء الشباب الفدائيين المتطوعين للدفاع عن الثورة والعاصمة كلمة في عددها ٦٩ الصادر في ١١ مارس ١٩٤٨ كلمة توجيه

واشادة كتبها عبدالله عبدالوهاب نعمان وإن لم تحمل توقيعه تحت عنوان:

إلى فريق الشباب المسلح في صنعاء

جاء فيها:

أنتم العدة والعمدة وإن هذه السواعد القوية الفتية هي التي ستسحق كل من يريد أن يصمد أمام الأمة و يعترض إرادتها.. إن التاريخ ليضع على عواتقكم اليوم مهمة الانتقام من طغاة أذلوها وقساة أهانوها وخونة استبدوا بها وانذال ساموها العذاب.

إن دماءً زكية في عروقكم لا بد أن يسيل منها على أرض الوطن شيء يشعر به الوطن بأن له شباباً يثأرون له من ظالميه وأذناب ظالميه أنشدوا الإخاء فمن أراد الانشقاق فدقوه وأيدوا الحرية فمن شاء إلا العبودية فاحرقوه وانصروا أمتكم على ظالميها فمن فكر في الحنين إليهم فاسحقوه.

يا شباب:

إن القاعدة المعتبرة في تاريخ الحريات هي أن يريق شباب كل أمة للحرية ما أراقته أمة هذا الشباب من دموع في العبودية وإن بناء الحرية لا يشيد إلا إذا تكون طوبه من شيئين: رميم عظام الظالمين ونطاف دم الشهداء ودون ذلك لا يستقيم بناء حرية في الوطن.

يا شباب:

إن أمتكم لتطمع أن ينصب في بلادها تمثال لشهداء تفاخر به بين الأمم وتقول:

(هذا تمثال شهيد من شبابي أراق دمه في سبيل حريتي) فمن ذا الذي لا يطمع منكم أن تنصب له أمته هذا التمثال أيها الشباب).

وفعلا أراق كثير من هؤلاء الشباب الفدائيين دماءهم واستشهدوا دفاعاً عن الثورة واستبسلوا في صمودهم دفاعاً عنها.

ومثلما انزعج الأستاذ الزبيري من الحالة والأوضاع التي لم يكن يتصورها في صنعاء وخاف على زميله وأخيه الأستاذ نعمان مواصلة السفر إلى صنعاء فأرسل له برقية الشيفرة التي أسلفنا ليتوجه إلى الحديدة، إلا أن الأستاذ نعمان أصر على مواصلة السفر حتى اعتقل في ذمار هوومن معه من الأحرار على يد عاملها (السيد علي بن أحمد أبوطالب) كذلك انزعج لنبأ هذا الاعتقال السيد محمد أحمد باشا عامل تعز يومها والمكلف مع ابراهيم الحضراني وزيد الموشكي بتسيير الأحرار من تعز في الاتجاهات الثلاثة التي أشرنا إليها فطلب من مشايخ ورؤساء النواحي والقضوات في لواءي تعز وإب حشد المواطنين وتجميعهم للتوجه إلى ذمار لإنقاذ الأحرار الذين اعتقلهم عاملها.. وقد تجمعت يومها جماعات كثيرة من صبر والعُدين، و بعدان لهذا الغرض وتولى قيادتهم علي بن محسن باشا في اتجاه ذمار وقبل تحركهم أرسل كل من الأستاذ ابراهيم الحضراني والقاضي محمد اسماعيل الربيع وانضم إليهم الأستاذ عبدالرحمن المعلمي أرسلوا إلى ذمار للتفاهم مع عاملها للإطلاق سراح الأحرار المعتقلين بالحسنى قبل أن تصل

القوات من إب لإنقاذهم إلا أن خبر سقوط صنعاء بيد القبائل والحسن والعابس اللذين أباحا نهبها وصل إلى كل من ذمار وإب قبل أن تتحرك قوات علي بن محسن من إب فتفرقت من هناك وعاد علي ابن محسن إلى منطقته ليتحصن فيها رافضاً الإذعان لسلطة الإمام أحمد والاستسلام له في باديء الأمر.

إلى جانب هذه المواقف التي اتخذها الأحرار في الدفاع عن الثورة وعن العاصمة صنعاء اتصل الأستاذ محمد محمود الزبيري بإمام العهد الجديد عبدالله الوزير وطلب منه أن يرسل كلا من السيد علي بن عبدالله الوزير والشيخ عبدالوهاب نعمان إلى تعز لحشد قوات من المنطقة لضمان صمودها فلم يوافق الإمام عبدالله الوزير على ذلك، وقد روى الأستاذ الزبيري بعد ذلك بسنوات ما حدث يومها قائلاً: إنني في فجر الثورة عام ٤٨ جئت إلى الشهيد عبدالله ابن أحمد الوزير واقترحت عليه إصدار الأمر السريع بانتقال الشهيدين علي بن عبدالله الوزير وعبدالوهاب نعمان إلى منطقة الجنوب ليضمنا صمود المنطقة ضماناً أكيداً فرأيت الشك في عيني الشهيد عبدالله الوزير وعرفت أنه يظننا متآمرين ضده وأننا نريد أن نركن في الجنوب قوة مناوئة له فتلكأ عن الموافقة وماطل حتى حلت الكارثة بالجميع(١) أي إن الأستاذ الزبيري بعد وصوله إلى صنعاء اقتنع بوجهة النظر التي طرحها الأستاذ نعمان في عدن وتعز الرامية إلى بقاء كل الأحرار أو بعضهم في عدن أو تعز التي عارضها مع المعارضين وأراد تلافي ذلك بإرسال البرقية للأستاذ نعمان إلى يريم للتوجه إلى الحديدة و بطلبه من عبدالله الوزير إرسال السيد علي الوزير والشيخ عبدالوهاب نعمان إلى تعز ولم يوافق على ذلك و يقول الأستاذ الزبيري على لسان عزيز يعني يصف موقف السيد عبدالله الوزير بعد الثورة بقوله: «كان قد تغير عند نجاح الثورة تغيّراً أدهشني وأفزعني وأنا ألصق الناس به فقد كان يصارحني بأنه سوف يتخلص من الأحرار وقد أفضيت بهذا السر للبعض منهم ولما أصبحت في السجن صارحتهم بالحقيقة كاملة وعزوت الفشل إلى ما عرفته من الشكوك والنوايا الخطرة المبيتة(٢).

أثناء ذلك كان قد وصل إلى صنعاء وفد من القاهرة يضم كلاً من عبدالحكيم عابدين وأمين عبدالمنعم بك وأحمد فخري عالم الآثار المعروف.

وفي يوم ٢٥ ربيع الثاني أي بعد ١٨ يوما من قيام الثورة اجتمع مجلس الشورى وقرر إرسال وفد إلى جدة مكون من الأستاذ محمد محمود الزبيري، والفضيل الورتلاني والسيد عبدالله ابن علي الوزير لملاقاة وفد الجامعة العربية أو لاستعجاله بعد أن استوقف هناك للتشاور مع الملك عبدالعزيز.. والذي كان الأحرار قد أرسلوا من تعز وفداً برئاسة القاضي عبدالله عبدالإله في ٢٥ فبراير ٤٨ أي بعد أسبوع من قيام الثورة لملاقاته في الحديدة.. وعند سفر الوفد إلى جدة أسندت وزارة المعارف بالوكالة أو النيابة (لمحمد البدر نجل ولي العهد السيف أحمد) لينوب عن الأستاذ الزبيري في غيابه بجدة، وقد بقي الوفد في جدة

• ملاحظة: أبقينا الأخطاء الإملائية واللغوية كما هي في أصل «الرسالة» حتى يتسنى تصور قدرات كاتبها.

(١) كنت قد نشرت جانباً من هذا الفصل ورسالة الأمير ابراهيم في مجلة الحكمة كلا على حده وقد أعدت نشرهما إلى جانب ما حصلت عليه من معلومات و برقيات وهو من كتاب (قراءة في رسائل الأحرار اليمنيين) الذي يعد للنشر.

(٢) سلمني الحاج عبدالله عثمان صورة من مذكراته المخطوطة استفدت منها كثيراً في رصد تحركات الأحرار أثناء ثورة ٤٨ وعقب فشلها فله خالص الشكر.

زهاء اثني عشر يوماً بدلاً من ٢٤ ساعة التي حددها مجلس الشورى لأسباب خارجة عن إرادته.

خلال هذه المدة أخذت القبائل تزحف على صنعاء والموقف فيها يتأزم يوما بعد يوم حتى سقطت بأيدي القبائل.

وتم خراب صنعاء ونهبها تحت إشراف الأميرين الحسن والعباس واعتقل كل من فيها من الأحرار، وبالتالي اعتقل الأحرار في كل من الحديدة وتعز وإب وأخذت العكفة في ملاحقتهم إلى خارج الحدود.

وما أن استتب الأمر للإمام أحمد حتى راح يرسل برقيات الشكر التالية للأمراء والملوك العرب الذين ساعدوه في إحباط الثورة وأعاقوا وفد الجامعة العربية من الوصول إلى صنعاء.

سقوط صنعاء وبرقيات الشكر من الإمام أحمد للملوك الذين أيّدوه

■ برقية من الإمام أحمد للملك عبدالله ملك شرق الأردن جاء فيها:

(لقد تأخر كتابنا هذا لجلالة الأخ المعظم حفظه الله وكان يجب المبادرة إلى تقديمه قبل أيام وشهور اعترافاً بالجميل الأخوي الذي كان من جلالتكم أيام المحنة مما خلد بكم أجمل الذكرى عندنا خاصة وعند اليمانيين عامة في صفحات المجد الهاشمي والنبل والوفاء والعواطف المتصلة بالسبب والنسب النبوي. وإنا إذ نقدم لجلالتكم شكرنا وثناءنا على ما لمسناه من أعمالكم الخالدة نستميح جلالتكم قبول عذرنا بالتأخر والتواني عن المبادرة إلى ذلك في حينه للأعمال التي أوجبتها تلك الحالة التي وقفتم على تفاصيلها في حينه فآزرتم أخاكم وقاومتم الاعلاج الأجلاف التي طوحت بهم خيالا تهم المقبوحة المفضوحة التي استنكرها العالم وكنتم في مقدمة من آزر ونصر وكان لكم الفضل الأكبر والأجر الأوفر...).

■ وإلى عبدالإله بن علي بن الحسن الوصي على عرش العراق:

(إن الباعث لهذا هو الشكر لموقف سموكم النبيل الأخوي في حادثة اليمن المشؤومة التي قضي عليها بعناية الله ومؤازرة الاخوان أمثال سموكم ولن ننسى لسموكم ما أبديتموه من عطف وعناية ولا يستغرب ذلك من مثل سموكم إذ هي عاطفة النسب التي تمت إلى أصل واحد و بيت واحد يجب عليهم دائما التكتل والاجتماع على ما فيه خيرهم وصالح بلادهم التي نعدها بلداً واحداً وإن نأت مسافاتها).

■ من سيف الإسلام عبدالله لأخيه الإمام أحمد:

(عدت من شرق الأردن وقد أبلغت الملك شكر ومحبة جلالتكم والترحيب بولي عهده وكان المراجعة لأشياء مهمة سأوضحها شفاهاً أو تحريراً وقد أوضحت له معاملة الإنجليز ووعد تحسين السعي..).



الإمام أحمد ابن الإمام يحيى حميد الدين مع الأمين المساعد للجامعة العربية الأستاذ أحمد الشقيري.

ما إن وصلت الأخبار إلى عدن بسقوط صنعاء بيد القبائل حتى هاجت الغوغاء في شوارعها وأخذوا يتجمعون في الشوارع المؤدية إلى (دار الجمعية اليمنية الكبرى) زحفوا بعدها على الدار لاقتحامها. وكانت عائلة الأمير ابراهيم تقيم في الطابق الأعلى منها فتصدى لهم خالد حارس الأمير ابراهيم في أعلى السلم المؤدي إلى الطابق الثاني وأطلق النار من مسدس على المقتحمين فقتل أحدهم وهرب الآخرون فاعتقلت السلطات البريطانية التي وقفت موقف المتفرج من كل ما يجري، اعتقلت خالداً لتقديمه للمحاكمة فتقدم الأستاذ محمد علي لقمان لضمانته فأطلق سراحه ولم يقدم للمحاكمة.

وفي اليوم الثالث من فشل الثورة وصل الأستاذ محمد محمود الزبيري والفضيل الورتلاني وعبدالله ابن علي الوزير إلى عدن من الرياض حيث كانوا في ملاقاة وفد الجامعة العربية واستصحابه إلى صنعاء. إلا أن الثورة فشلت أثناء إقامتهم الطويلة في الرياض وسقطت صنعاء بيد القبائل لذا وصلوا إلى عدن بدلاً من صنعاء، وقد طلبت السلطات البريطانية بعدن يومها مغادرة عدن خلال ثلاثة أيام لأن بريطانيا على وشك الاعتراف بحكومة الإمام أحمد. فاختفى الأستاذ الزبيري والوزير في منزل الحاج محمد سلام حاجب بالتواهي واختفى الفضيل الورتلاني في منزل الحاج عبده حسين الأدهل في الشيخ عثمان، وقدفجر بعض أعوان الإمام قنبلة أمام منزل الحاج الأدهل لإرهابه، وأثناء ذلك وصل إلى عدن السيد محمد الوزيث والسيد أحمد محمد باشا وعبدالوهاب الشامي، وكان السيد محمد الوريث قد اعتقل في الشيخ عثمان مع الحاج عبدالله عثمان الذي خرج إلى لحج لاستقبال السيد الوريث اعتقلا لمدة يومين توسط بعدها الأمير علي عبدالكريم لإطلاق سراحهما، فسافر الوريث والشامي والباشا إلى نيروبي، ومن عدن اتصل الأستاذ الزبيري بالشيخ عبدالله عثمان بصبر يطلب منه إعلان التمرد في لواء تعز تضامنا مع الشيخ علي بن محسن باشا المتمرد في العدين وقد حمل الرسالة الأخ عبدالكريم عبدالقادر وهو من الشباب الذين كانوا همزة وصل بين عدن وتعز قبل الثورة إلا أن الرسالة وصلت للشيخ عبدالله عثمان والإمام أحمد قد وصل إلى القاعدة واستقر فيها يتابع نتيجة الحملة والوساطة اللتين قام بهما معا لاستسلام علي بن محسن باشا، وتم استسلامه في ٢١ جمادى الأولى إذ أن الإمام أحمد أبرق يومها من القاعدة لأخيه السيف عبدالله في القاهرة يقول له:

(هدأت الأحوال كلها على ما نريد ولا بد لنا من أسلحة جديدة فاتصلوا ببعض الدول الصغرى).

سافر الأستاذ الزبيري والسيد عبدالله بن علي الوزير على ظهر باخرة إلى باكستان يعمل فيها بعض البحارة اليمنيين الذين راحوا يمطرونهما سباً وشتماً طوال الرحلة، وقبل سفرهما من عدن اتفق الأستاذ الزبيري مع الأحرار المقيمين في عدن على أن يعملوا قدر استطاعتهم لإنقاذ الأحرار الذين وقعوا في قبضة الإمام أحمد من الاعدام.. ووعد الأستاذ الزبيري الحاج عبدالله عثمان بأن يرسل له عنوانه فور وصوله إلى باكستان بالشيفرة واتفقا على أن أخباره لا يطلع أحد عليها سواه وعبدالله عبدالوهاب وعبده حسين الأدهل، والشيخ البيحاني ومحمد سلام حاجب، وما إن وصل الأستاذ الزبيري إلى باكستان حتى أرسل رسالة إلى عدن يطمئن فيها الأحرار بوصوله، وقد أخذ يتنقل بين المدن الباكستانية يغير عنوانه ما بين وقت وآخر حتى استقر في عاصمتها.

أما الفضيل الورتلاني فقد سافر من عدن على ظهر باخرة مصرية إلا أنه منع من النزول في كل البلاد العربية التي رست الباخرة في موانيئها . وعند رجوعها إلى عدن وهو على ظهرها طلع الحاج عبدالله عثمان والحاج عبده حسين الأدهل إلى الباخرة لمقابلته لأن السلطات البريطانية لم تسمح له بالنزول إلى عدن .. وفي تلك الأثناء أو في تلك الساعة وصل باسم الفضيل الورتلاني جواز سفر و بدلة عسكرية برتبة ضابط أرسلتا له من مصر.. فارتدى لساعته البدلة العسكرية وحمل الجواز الدبلوماسي المزيف وسافر تحت تلك الهوية العسكرية إلى بيروت حيث استقر هناك وهذا على عكس البرقيات والتقارير التي كانت تصل إلى الإمام أحمد بأن مجموعة من الجيش اللبناني ، أو مرتدية زي الجيش اللبناني طلعت إلى الباخرة وتسلمته حسب إفادة القبطان الذي يبدو أنه كان متعاوناً مع الفضيل الورتلاني .

الإمام أحمد يعدم الكثير ممن في سجونه من الأحرار و يطارد من فلت منهم من قبضته :

في غرة جمادى الثانية ١٣٦٧هـ أرسل الإمام أحمد لأخيه عبدالله برقية جاء فيها ما يلي : (قد كان تنفيذ حكم الإحكام على الوزير عبدالله وعلى الموشكي وغيرهم) وقد تلا اعدام هؤلاء إعدام آخرين ، وتلت تلك البرقية برقيات أخرى تحرض بالقضاء على الأحرار أو تطالب الحكومات المتواجدين فيها تسليمهم إلى الإمام بل كلف أخاه السيف عبدالله بتدبير أمر اغتيال الورتلاني إذ جاء في برقية إليه في ١٨ جمادى الثانية يقول له :

(يجب أن ننتهز فرصة أثر صدمة النصر فنقضي على حثالة الحزب بعدن ومصر تدبروا ذلك بكل رأي من عندكم واتصلوا بالدول العربية كلها وكذلك سفراء تركيا والهند و باكستان وفرنسا وغيرهم وأفهموهم بأن الزبيري والوزير والورتلاني من أعظم المجرمين الذين اغتالوا جلالة الإمام فإذا لم يسلموهم إلينا فلا يدخلون بلادهم والورتلاني يجب مطاردته في كل محل وإذا وجدتم اثنين من اليمنيين دبرتم . وقد بلغ سفره عذن) .

وأرسل الإمام أحمد برقية لأخيه عبدالله حول ترك السلطات البريطانية الزبيري والورتلاني مغادرة عدن قال فيها :

(يجب الاتصال بالملك عبدالله بواسطة الوزير المفوض في مصر أو غيره وأعرضوا عليه أن حكومة عدن أخرت برقية الاعتراف لديها عدة أيام حتى كان تسفير المجرمين الهاربين بعدن فإن عبدالله الوزير والزبيري سافرا إلى جنوب افريقيا وإنّا نحب توسطه للمراجعة مع لندن بتبادل المجرمين فإنه لولا تساهل عدن مع الأحرار وتشجيعهم بعد أن كتبنا مراراً متعددة بأن المجرمين بما نصت عليه المعاهدة ولم يصغ إلى ذلك حتى حصلت هذه الجريمة وإنّا لنعتقد أن جلالة الإمام الشهيد صار ضحية تساهل عدن) .

وفي برقية أرسلها الإمام أحمد لرئيس حكومة باكستان محمد علي جناح يطلب فيها تسليم الأستاذ محمد محمود الزبيري وعبدالله بن علي الوزير جاء فيها :

(بالنظر إلى ما علمتموه من الحوادث المؤسفة وحيث قد استتب الأمر وعادت الأمور إلى مجاريها فقد بدأنا في محاكمة المتهمين والمجرمين وقد فر من أيدي العدالة بضعة أشخاص من المجرمين وقد توجه إلى باكستان منهم السيد عبدالله علي الوزير ومحمد محمود الزبيري وفضيل الورتلاني وهم من أعظم المجرمين الذين اشتركوا



الإمام أحمد وعن يساره المؤلف وعن يمينه القاضي محمد الزهيري فالسيد علي عبدالقادر و يبدو الدكتور عبدالرحمن البيضاني مطرقا.

في اغتيال والدنا المغفور له صاحب الجلالة الإمام يحيى ومن مثل حكومتكم الصديقة نؤمل الإعانة في إلقاء القبض عليهم ..).

وقد أنكر رئيس باكستان في برقية جوابية للإمام وجود أي من الأحرار في بلاده وأرسلت الخارجية المتوكلية برقية إلى خارجية أثيوبيا في ١١ جمادى الآخر ١٣٦٧ هـ جاء فيها:

(نلفت نظر حكومتكم إلى أن ضمن رعاياها الذين نرجو تسريحهم إلى اليمن هؤلاء الأشخاص:

مطهر سعيد صالح العريقي.
عبدالقوي مدهش الأغبري.
محمد مهيوب.
عباس الزبيري.
أحمد عبده ناشر الأغبري.
عبدالله عبدالغني الشوافي.
الفقيه أحمد عبدالولي العبسي.
محمد علي الهريش.
عبداللطيف طارش.
سيف حمود الذبحاني.

فثم أسباب هامة تدعو إلى طلبهم لإجابة خصومهم ونحن إذ نشكركم سلفا نرجو التفضل بضبطهم. ومن المفهوم أن جماعات تنتمي إلى الحزب الذي قاد حركة الأحرار في اليمن تريد أن يكون لها في الإمبراطورية الحبشية مجال للعمل والإجرام من جديد ومن حق الصداقة أن نلفت نظركم مرة أخرى ..).

وقد أخبرني الوالد أحمد عبده ناشر عندما أخبرته بهذه البرقية. أخبروني أنهم يومها تعرضوا لمضايقات السلطات الأثيوبية وأثيرت قضيتهم في البرلمان الأثيوبي إلا أن وكيل وزارة الداخلية الأثيوبية لشؤون المسلمين أحمد اسماعيل هرري وقف إلى جانبهم ودافع عنهم وشهد بحسن سلوكهم وبرأهم من التهم الملفقة ضدهم.

أما الشيخ عبدالله علي الحكيمي المقيم في مدينة كارديف البريطانية فقد تفرغ الحسن بن ابراهيم لخلق المشاكل له والتآمر ضده بالاتفاق مع الإمام أحمد وفيما يلي البرقيات المتبادلة بينهما حول الحكيمي:

١١ سبتمبر ١٩٤٨م:

(الحكيمي خبيث شرى مطبعة سيصدر جريدة السلام يتصل بريلي الأغلب ضده إرسال الشميري إن رأيتم صواب).

الحسن بن علي بن ابراهيم

وجواب الإمام أحمد:

(أوضحوا لنا من هو الشميري الذي تريدون إرساله وهل ترسلوه إلينا أو نرسله من لدينا فلم يظهر بحسن

تقوية أيدي كل من هم ضد الحكيمي بكل صورة ولا تضر جريدته ، فقد عرف الناس الحقائق) .

وأفاده الحسن بن ابراهيم :

(حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك اليمن المعظم :

الشميري الشيخ اسماعيل شيخ الطريقة العلوية كان بكارديف وهو اليوم بشمير أو عدن و يريد الحج مرغوب فيه ضد الحكيمي سيما أن زودتموه نصح وعطف جلالتكم) .

جواب الإمام أحمد :

(الولد حسن بن علي بن ابراهيم حرسه الله . .

حسن اسماعيل عزمه بعد الحج إن شاء الله و يلزمه تعيين أعضاء حوله ضد الرجل حسبما أفدتم . . .) .

وفعلاً أرسل حسن اسماعيل إلى كارديف وأحدث انشقاقاً في (الجمعية العلوية) التي أسسها الحكيمي ، وكان حسن اسماعيل مساعده في كل نشاط يقوم به الحكيمي إلا أنه بعد ذلك تحالف مع الإمام أحمد ضده .

امتد بطش الإمام أحمد بعد فشل الثورة إلى أخيه الأمير ابراهيم الذي لم يكن متآمراً ضد والده وتحدثنا عن موقفه من الإشاعة الكاذبة التي سبقت مصرع والده تحدثنا عنه في مجلة « الكلمة » عدد ٥٨ / مارس ١٩٨١ م . والذي أثبتت رسالته الموجهة من سجنه إلى نائب حجة عبدالملك المتوكل أنه كان صادقاً في كل ما ورد فيها وكنت قد نشرتها في مجلة الحكمة لكني أعيد نشرها هنا لأهميتها ولارتباطها الوثيق بالحوادث التي تحدثنا عنها وفيما يلي نصها :

نص رسالة الأمير ابراهيم التي كتبها قبل موته بأيام

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله .

إلى والدي سيدي العلامة وجيه الإسلام أبقاكم الله وشرح صدركم وشريف السلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

و بعد فلقد دار حديثي مع الحاج أحمد بن حسن حتى ذكرناكم وطال الحديث فعرفني بكم وبما أنتم عليه من أخلاق شريفة وورع وقناعة وحذر من الوقوع في الشبهات حتى تاقت نفسي إلى ملازمتكم وليس ذلك على الله بعسير فأحببت أن أطلعكم على سيرتي قبل سفري إلى الخارج ولما لم أتمكن من الاتفاق بكم رغبت في تفصيلها لكم تحريرياً بإيجاز طالباً من حضرتكم التفضل بالدعاء لولدكم بالتوفيق والإعانة على الأعمال الصالحات و بتيسير المخرج إن علم الله بحسن النية من قبل و بعد هذا والله لا يضيع أجر المحسنين .

فاعلموا سيدي أنني كنت متساهلاً لعذاب الله متهاوناً لغضبه فعصيت الله بأن قصرت في الواجبات وتعديت المباحات إلى المحرمات وطاب لي العيش على ما ذكرت لكم زماناً طويلاً وأنا أسبح في الظلمات ولم أزل كذلك أسأل (كذا) الله أن يكره إلينا المعاصي ويحبب إلينا الطاعات . . ففي ذات يوم حاسبت نفسي

وعرفت أني بي .لخسران وأن المصير النار فانتبهت ورجوت الله أن يلهمني ما فيه الخير وأخيراً استقر رأيي على الهجرة وترك الأهل والمال والجاه والعزم على الوصول إلى المدينة المنورة واستيطانها إلى ما شاء الله فلما علم الله بحسن النية سهل لي التحيل على الخروج من اليمن بطريق حسنة و بإذن من والدي رحمه الله .

ومما حسن إليّ الهجرة ما كنت أراه في بعض الرعاة من عدم المبالاة بحفوق عباد الله واستباحة أعراضهم وأموالهم والتنافس في تلك الثروات الكبيرة مما يجمعونه من حرام بالفهر والاحتيال ، نعم فتوجهت وتوكلت على الله إلى أسمرا موافقة للحواز فلما وصلت وتنقلت بين اليمنيين وعرفت سوء حالتهم وتوجعهم من اغترابهم وحنينهم إلى أوطانهم ورغبتهم في الرجوع إليها لولا خشيتهم من الجور وما سيصيبهم من تعذيب وسلب وهتك واضطهاد ونحو ذلك فضاق صدري وأخذتني الغيرة وتغيرت فيه الهجرة وقلت الجهاد أفضل وقررت الوصول إلى عدن بعد زيارة الحبشة ومصوع وكرن وكلها ملآنة باليمنيين وكلهم متظلمون يشكون جور العمال والحكام والعسكر والمأمورين وقد كنت أسمع ذلك وأكاد أتقطع من الغيظ وأذوب حسرات و بعد وصولي عدن رفعت إلى جلالة الإمامين الراحل والحالي الحقائق وكلما رأيت وسمعت ورجوت تشكيل هيئة تطوف في البلاد وتعرف أحوال العباد وعرف الناس موقفي من الظلم فكانوا يعرفونني من الظلم ما لا يخطر ببال وأنا أبلغه إلى الإمام وكنت أحرر بعض الكتابات على صفحة جريدة «صوت اليمن» أذكر فيها الإمام وأنبهه بأنه المسؤول وأبين له أن الناس أصبحوا يبيتون لعائلة الإمام التىر وأنهم عازمون على الانتفام وحذرت من قيام ثورة صد العائلة و بأن ثم تآمر يدبر وناشدته الله أن يرحم وإن لم يرحم الأمة فيرحم العائلة وأن يرحم الأطفال والنساء كل ذلك أخذه فيما عرفت من نعض الناس والمراد اني ما كنت إلا المحذر والناصح والمذكر والآمر والناهي هذا ما كنت أعمله في عدن .

كل ذلك عملت ولي أمل في سماع نصحي واستجابة طلبي إلى أن وعد الإمام رحمهم الله بأنهم سينظرون في الأمر و بأنهم سيستعينون بذوي الخبرة ولولا حدوث ذلك الحادث الذي تنفطر له القلوب وتدمي العيون حادث اغتيال مولانا أمير المؤمنين رحمهم الله ورفع درجتهم في دار السلام ولا رحم الله «بني أميّتنا» ومن شاركهم وحسن لهم وجرأهم على قتل الإمام فلقد ارتكبوا حرماً عظيماً وجنوا على المسلمين قاتلهم الله طمعاً في الملك الذي لا يناله أحد إلا بإذن الله فنكثوا العهود ونكصوا عن الحق وغالبوا من بيده ملكوت السموات والأ رص فاستحفوا العذاب فى الدارين والعجب أنهم كانوا قد بايعوا لمولانا الإمام الحالي أيّده الله يا عجباه لقد انكشف أن صلا تهم وصيامهم وتسبيحهم كان بكاء وتصدية ورياء لا قوة إلا بالله وإنا إليه راجعون .

بقي أن أوضح لكم تلك النشرات والدعايات وما كان يحرر في جريدة صوت اليمن فيما يشين شرف العائلة و يشوه سمعتها ويخل بمروءتها تلك النشرات التي لا تدل إلا على ديانة ناشرها وكاتبها ونذالتهما وخسة أصلهما فلقد قالوا زوراً و بهتاناً ولقد افتروا على الله الكذب ، نعم من الناس من يتهم أنني كنت ممن يساعد على ذلك فوالله الذي لا إله إلا هو أن كل كلمة اسمعها تمس شرف أحد من العائلة أحسها صفعة في وجهي بنعال وفي الحقيقة هي كذلك وهل من يتهمني باستحسان خدش عرضي والحط من شرفي وإذلال عزي يعد عاقلاً . بالله هل يجّوز العاقل أن ذلك يكون من نصف عاقل لا أظن أما غير العاقل فقد يكون منه ذلك نادراً فإذا قيل فما لي ما أمنع نشر مثل تلك النشرات قلت لم أكن في عدن ذا سلطة وقوة حتى أستطيع ذلك ولست بصاحب الجريدة ولا أملكها ولا محررها ولا المسؤول عنها وإنما أنا فرد غريب في عدن لا حول له ولا قوة واعلموا

أنه لولا قتل الإمام ما كنت عدت إلى صنعاء إلا بعد أن أقضي وطري من الحج وزيارة مكة وهجرة بالمدينة المنورة لكن موت الإمام رحمه الله قتلاً هو الذي فرض عليّ الرجوع لأمر كان في نفسي يعلمه الله .

هذا ولا أنكر أني بعملي هذا كله أسأت وأخطأت وذللت وخرجت عن حدي فإني جدير بالعقاب والتأديب فأي العقوبات يراها مولانا جدير بها فليأمر بما يرون فسيجدني طائعاً راضياً صابراً مسلماً أمري إليه مملكاً نفسي وجسمي ودمي وأهلي وأولادي لهم وأعاهد الله له بالسمع والطاعة والله على ما أقول وكيل نعم المولى ونعم النصير اللهم اشهد أني لا أعصي لمولاي أمير المؤمنين أمراً ولا أخالف له رأياً ساموا سيدي فقد أطلت المدارَصلوات الله وسلامه عليكم ورحمته و بركاته ولدكم الراجي من الله الغفران . . ابراهيم .

لم تمض أيام على كتابة الأمير لهذه الرسالة حتى أرسل أخوه الإمام أحمد البرقية التالية لأخيه عبدالله :

الأخ سيف الإسلام الفخري حفظه الله .

جاء من حجة أن الأخ ابراهيم توفاه الله إليه أمس فجأة بسكتة قلبية عظم الله أجر الجميع وجبر المصاب .

فرد عليه عبدالله في ٣٠ يونيو بما يلي :

مولانا صاحب الجلالة ملك اليمن المعظم .

وصلت البرقية بوفاة الأخ ابراهيم فعظم الله الأجر ورحمه ولا قوة إلا بالله وهكذا الدنيا جبر الله المصاب المتتابع وأطال الله عمركم .

إلى جانب هذه البرقيات والرسائل هناك رسائل و برقيات تدافع عن الأحرار وتطلب من الإمام العفو عمّن نجا من الإعدام سنتحدث عنها فيما بعد .

١٠ ـ فترة البرزخ :

أمضيت خمس سنوات في السجن منها سنتان ونصف في «نافع» الرهيب وسنتان ونصف في معتقل «القاهرة» ؛ أي من بعد سقوط صنعاء في جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م إلى ٢ رجب سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣م .

و بالرغم من المساعي الحميدة لدى الإمام أحمد من قِبل الوالد عبدالرحمن الشامي و بعض الفضلاء أمثال القاضي محمد بن عبدالله الشامي والسيد أحمد بن محمد زبارة «المفتي» ومحمد بن محمد المنصور؛ أوّلاً للإبقاء عليّ وإنقاذي من الإعدام وثانياً من أجل إطلاق سراحي ، بالرغم من ذلك ومن الاعتبارات السياسية والعائلية فقد ظللت أشعر بأن الإمام أحمد ظل يحتفظ لي في قرارة نفسه بشعور الصداقة وعاطفة المودة ، وهذا الإحساس هو الذي دفعني في الأشهر الثلاثة من السنة الخامسة لاعتقالي إلى إثارة مشاعر الصداقة وعاطفة المودة في قلب الإمام ، و بوسيلة لطيفة أعرف مدى تأثيرها فيه وتقديره لها ، وهي «الشعر» وكان لذلك ـــ في نظري ـــ من الأثر ما كان لمساعي أولي الفضل ، والاعتبارات الأخرى عنده ليقرّر إطلاق سراحي ، وإن أغضب الكثير، وفي



صورة المؤلف عند خروجه من «معتقله السياسي» في «قاهرة حجة» سنة ١٩٥٣ م.

مقدمتهم بعض إخوته ورجال حاشيته .

وجاءت برقية إطلاق سراحي الأولى هكذا :

«من أمير المؤمنين الإمام أحمد إلى النائب بحجة :

لا بأس بسفر الولد أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الشامي إلى الحديدة صحبة مرافق و بتصدور منكم إلى نائب الحديدة للمعالجة ، وقد أمرنا نائب الحديدة بما يلزم» .

ولا يزال صوت الشاوش «النهدي» يرنّ في أذني حـين أقبل بالبرقية مبشراً وهويقول : «اقرأ اقرأ شجرة النسب التي صنعها لك الإمام .. مبروك ، مبروك» ، وفرحت وفرح الإخوان ، وأقاموا لي حفلة وداع وكل يوصي ، وكل يتمنى ، و بتّ أول ليلة خارج المعتقل في دارنائب حجّة الوالد عبدالملك المتوكل ، ولا أنسى قط فرحته و بشاشته واحتفاء أولاده الكرام وكلّ أهله وأقاربه بخروجي من السجن وليس للصلة الوثيقة التي تربط عائلتهم بعائلتي ، وصداقته لأبي وجدي فحسب بل ولأن سمعتي الأدبية ـ مثل سمعة زملائي ـ كانت قد أكسبت السجناء عطف الناس في حجّة ، واخترت سرعة السفر مع الرفيق الصديق الجندي الذي يحمل خطاباً من نائب حجّة إلى نائب الحديدة القاضي محمد بن حسين العمري يطلب فيه إرسال سند باستلامي ، وسافرت صباحاً على سيّارة تحمل بضاعة ، وكان يرافقني على السيارة الأستاذ محمد بن أحمد نعمان والسيد الشاعر محمد بن قاسم المتوكل ، وتحدثنا في الطريق شتى الأحاديث ، ولقد أفضيت إلى الأستاذ محمد عن تخوفاتي من العودة إلى حجّة ، إذا انقضت فترة العلاج كما عاد محمد ابن أحمد الشامي والقاضي محمد السياغي وطلبت منه أن يعمل جهده من أجل كسب صداقة النائب العمري لأنه كما علمت كان يستطيع أن يعرقل عودة الأخوين الشامي والسياغي إلى السجن من جديد لوأنه أبرق إليه بأنهما لا يزالان تحت «المعالجة» بل لقد اتهماه بأنه سمح لأحد الوشاة أن يكتب تقريرا إلى الإمام بأنهما يزاولان نشاطاً سياسياً مشبوهاً ،ويجتمعان بشعراء وأدباء الحديدة ، وطلبت من الأستاذ محمد نعمان أن يتعرّف على «الدكتور» الذي سيتولى معالجتي ، ولأني لا أعرف لغة أجنبية ، وهويفهم نوعاً ما الإنجليزية ، فسأترك له المحادثة مع الدكتور ، وكسب عطفه و يتوسط بمن يعرفهم من وجهاء الحديدة .وعندماوصلنا الحديدة اتجهت مع الجندي المرافق إلى «نُزُل» عادي و بعد أن تناولت طعام الغداء لبست أحسن ما عندي من ثياب وذهبت إلى مقر «النيابة» الرسمي حيث يواجه «النائب» الناس ويمارس أعماله وكان الوقت عصراً وهووكتابه يتناولون «القات» ، وقد واجهت وأنا في طريقي إليه مع العسكري المحافظ عليّ ، والمدجج بسلاحه بعض من كنت أعرفهم جيّدا .. فأعرضوا عنّي إعراضاً مشيناً ، ولسان حال كل منهم يصرخ : لا مساس .. لا حديث .. لا سلام .. وقد عذرتهم في قرارة نفسي ولكني أشفقت على الإنسان في بلدي ، وإن كانت التهم التي قد ألصقت بي كبيرة وكثيرة ، والخوف يخيّم على سماء اليمن؛ ودخلت على «النائب» والجندي ورائي ، وكنت شاحب الوجه من آثار المرض والسجن ولحيتي مسترسلة وسلمت ، فلم يتحرّك من مكانه بل ردّ التحية ، ومدّ كفّه فلمستها بأطراف أناملي ، واخترت مكاناً للجلوس على إحدى السرّر الخشبية المرصوفة ، وخيّم الصمت على المجلس لحظة ؛ والنائب مكبّ على مراجعة أوراقه و بين الحضور ممّن أعرفهم القاضي محمد بن حسين الزهيري والقاضي عبدالسلام الحداد كاتب النائب وقد قرأت في ملامحهما ونظراتهما مشاعر العطف والمودة والإشفاق الأخوي .
و بدّد الصمت صوت النائب قائلاً : أهلاً وسهلاً ..

ــ قلت: عافاكم الله.

ــ قال: متى وصلتم؟

ــ قلت: صباح اليوم.

ــ قال: وأين نزلتم؟

ــ قلت: في بيت «المقهوي». [أي الفندق الأهلي]، وعقّبت: وقد وصلت بتصدور إليكم من قبل نائب حجة حسب أمر جلالة الإمام لمعالجتي هنا تحت إشرافكم.

ــ قال: إن شاء الله يكمل علاجكم هنا كما يُرام، وانتقلوا من بيت «المقهوي» إلى دار الضيافة، ثم ابتسم وكأنّه أراد أن يداعبني وقال: وإن شاء الله يكون الفرج، فلا تعودون إلى «حجّة» كما عاد ابن عمكم، والقاضي السياغي، ولم يجنوا من الوصول إلى «الحديدة» إلا التعب. وعندما سمعت هذه المداعبة الكئيبة انفعلت، ولكني تغابيت وقلت: لم أفهم ما تقصدون؟ و بقدر ما عندي من خجل إذا أكرمني إنسان؛ فأنا شرس الطبع إذا حاول أحد أن يستثيرني ولا سيما إذا كان من ذوي النهي والأمر؛ واستمر النائب في مداعبته بشرحها بما زادني انفعالاً إذ قد قال: لقد وصل قبلكم ــ كما تعلمون ــ محمد أحمد الشامي ومحمد السيّاغي للمعالجة بأمر الإمام و يظهر أنّهما تدخّلا فيما لا يعنيهما، فغضب جلالة الإمام عليهما، وأمر بعودتهما إلى «حجّة»، وهنا لم أستطع أن أصابر نفسي وكانت مثقلة بمتاعب خمس سنوات، إلى إرهاق عصبي، وضعف دم، فوقفت وقلت: يا سيّدي القاضي حتى الآن لم يسلّم إليكم الجندي المحافظ تصدوري ولا أزال في استلامه، وتحت مسؤوليته، وأنا لم أختر هذا المكان للمعالجة، بل الذي اختاره لي جلالة الإمام ومادمت سأواجه مشاكل أخرى فأنا أفضّل العودة إلى سجن حجّة الآن فقد شبعت الخصام وأريد العيش بقية عمري في سلام، ولا أرضى لكم بتحمل تبعة ظلمي.

فاهتم النائب و وقف وقال: لا .. لا .. ليس قصدي إزعاجكم علم الله، وقد تحرّى فيكم جلالة الإمام، وأنا مسرور بوصولكم، وسوف أعمل واجبي وأكثر، وتعرفون محبّة وصداقة بيت العمري و بيت الشامي، فتطامنت ورجعت مكاني، وقلت: ذلك هو أملي الذي ظللت أحدث نفسي به ما بين حجة والحديدة وأنتم تعلمون أنكم شخصياً من أعزّ أصدقائي من آل العمري، ولمست تأثره من موقفي، وأنّه إنما أراد المداعبة ــ و بعض الناس لا يتقنونها ــ ثم دعاني إلى جانبه وقال لي هامساً: يوجد في الحديدة بعض «المشعّبين» كما يوجد بعض الجواسيس فاحفظوا لسانكم وقلمكم، ولا تصدّقوا أيّ واحد يتظاهر عندكم بنقد الإمام أو الحكومة..

ــ قلت: أرجو أن تفهموا جيّدا أنه لم يبق عندي غير الإخلاص لله وللإمام ولنفسي وأمي، وإذا ما بلغكم أني تخاصمت أو تشاجرت مع أحد فلأني سمعت عنه ما يشين في جانب الحكومة.

ــ قال: شكراً .. ولا تكثروا من مخالطة الناس الأشرار.

ــ قلت: يا سيّدي القاضي إنني في موقف لا أستطيع معه أن أمنع أحداً من زيارتي أو محادثتي ولا أعرف من هو الصادق ومن هو الكاذب فلي في السجن خمس سنوات فأرجوكم أن تساعدوني بأن تمنعوا من تريدون ألا



اول صورة للمؤلف أثر خروجه من معتقل «حجة» وانتماله إلى «الحديدة» عام ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م.

أحادثه أو أحالسه من محاثتي أو زيارتي وتكفوني السعة . .

فضحك ، وقال : اطمئنوا ، ولن يكون إلاّ الخير إن شاء الله . .

وأمر لي بغرفة خاصة في دار الضيافة وأن يُجري لي صرف يوميّ كلّ يوم « ريال فرانصي » وقال لي الأستاذ محمد نعمان : إنه قد عمل جهده لتفهيم الدكتور الذي سيتولى معالجتي ، وأنه قد كسب عطفه وكان إيطالي الجنسية واسمه « فلساني » غير أني لم ألمس أيّ أثر لذلك الجهد والسعي لا في معاملته لي ولا في زياراته الروتينية ، ولازمت الذهاب إلى ديوان النائب عصر كل يوم للمقيل لديه وتكسّرت صخور الأوهام والتوجس ، واستعدت ثقته وصداقته ، حتى أصبح يسأل عني إذا تأخرت وحاول أن يحسّن أحوالي المادية بأن يحوّل لي بضعة ريالات من « الحمرية » بين الفينة والأخرى . وفي فترة وجيزة كسبت ود كل من كان يحضر مجلسه من كتّاب وموظفين وخدم ومعظم تجار وأعيان وسكان الحديدة ، وهم قوم كرماء ، طباعهم سهلة وقلوبهم ليّنة ، ومشاعرهم معجونة بالرحمة والإخلاص والصدق ، لقد سحرني أهل الحديدة بمكارم أخلاقهم ، وأصبحت أحبّهم حبّاً جماً ، وأعتبر نفسي مواطناً حديدياً ، وقررت أن أعيش بينهم لو سمحت لي الظروف بذلك . .

وكنت أثير المسائل العلمية والأدبية مع من يحضر مجلس النائب من العلماء والفقهاء والأدباء ـ والنائب نفسه من أهل علم وأدب وفقه ـ ولم أحاول إحراج أحد ممن أعرف ، واقتصرت على مراسلة ومواصلة أقاربي الأدنين فقط وابتعدت عن أيّ نشاط سياسي أو اجتماعي .

وكان أخي عبدالوهاب قد انتقل من « مصر » إلى « إيطاليا » في نفس الأسبوع الذي انتقلت فيه من « حجّة » إلى « الحديدة » وكأن الأقدار تنسّق « سمفونية » حياتنا في ترتيب بديع وبأناة موقعة بالأحلام والآمال التي نتغنى بها وبالآلام والأتعاب التي نعانيها ، منذ افترقنا في مطار صنعاء حين فرّ إلى « عدن » إلى أن عاد إلى « الزيدية » حيث لا يبعد من « حجّة » إلاّ « مرحلتين » ثم نزوحه من جديد إلى « عدن » فقاهرة « مصر » وتنقلي في سجون اليمن من « الرادع » إلى « غمدان » إلى « نافع » إلى « القاهرة » ؛ وها هو الآن ينتقل إلى « روما » ليغترف ما يشاء من مناهل المعرفة ، وأنا أنتقل إلى « الحديدة » لأنتظر الفرج التام ، وأتطلّع إلى رؤية زوجي وأمي وأخي بعد الفراق الطويل . .

وشرعت في مراسلة « أخي » بخطابات أدبيّة أبث فيها أفكاري وهواجسي وأتحدث عن الشعر والشعراء وعن الحياة وفلسفتها وما تضج به من خير وشرّ وقبح وجمال ، ونظمت الكثير من الشعر والقصائد المثبتة في دواوين شعري وفي أثناء ذلك وصل الإمام أحمد إلى الحديدة بعد أن فتح مشروع مملحة « الصليف » وبعثت إليه قصيدتي : « دمعة وابتسامة » أحيّيه وأستزيد عطفه وقد أرسلتها إليه بواسطة نجله سيف الإسلام « البدر » الذي كان قد بعث إليّ بتحيّة خاصة مع أحد الأصدقاء ؛ وكان إرسال القصيدة في ٣ شعبان ١٣٧٢ هـ ولما يمض على وجودي في الحديدة غير شهر وبضعة أيام .

الناس على دين إمامهم حتى الطبيب الإيطالي :

وهنا حدثت حادثة طريفة يجدر بي أن أسجّلها لأنها تصوّر أخلاق اليمنيين وحياتهم الاجتماعية في تلك الظروف وقد كان لهذه الحادثة أكبر الأثر في تطوير حياتي وتحسّن حالي مع النائب والناس ، والدكتور الذي يعالجني .

وكنت كما قلت قد قدرت موقفي، ولازمت غرفتي، في دار الضيافة ودار النيابة، على ألا أغادر الدار إلى مجلس النائب إلا صُحبة حارس مسلح، وذلك يعنى أنني لا أزال «سجيناً» وعندما وصل الإمام أحمد ومعه ركبه الحاشد وفيه معظم رجالات اليمن و بينهم النائب الأول القاضي حسين الحلالي، وعامل تعز السيد محمد بن أحمد الباشــا، ونائب إب القاضي أحمد السيّاغي، و وكيل الخارجية القاضي محمد العمري وأمراء الجيوش وكبار التجار والأعيان من عموم اليمن كما وصل مع الركب أيضاً الأخ أحمد بن عبدالرحمن الشامي أخو زوجتي، والسيد محمد أحمد الوزير مدير الطيران وزوج أختي، والكثير ممن أعرفهم و يعرفونني قبل النكبة، وثورة الدستور وأنا أعمل سكرتيراً خاصاً للإمام أحمد قبل أن يصبح إماماً كما وصفت في فصل سابق.

ونزل معظم هؤلاء الأعيان ورجال الدولة، في نفس دار الضيافة التي أنزل بها، و يا لها من ليلة عربية فقد تحاشوا جميعاً محادثتي بل حتى مجرّد النظر إليّ، أو الإشارة بالتحية والسلام، وكأنني أجنبيّ هبط الأرض من نجم آخر، ولا أستثني حتى أقاربي وأصدقائي، اللهم إلاّ ذلك الرجل الطيّب الذي كان أقربهم إلى الإمام أحمد وأكثرهم صلة به الحاج محمد سعد الروضي الذي كان في منزلة الطبيب المحلّي للإمام وعائلته، والمترجم بينه و بين الأطباء الإيطاليين، وقد كان يجيد اللغة الإيطالية وحديث عهد بروما، فقد انتظر حتى نامت العيون وتسلّل إلى غرفتي وهو يتلفّت يميناً وشمالاً خائفاً يترقب، وقال بصوت خافت: أخوكم عبدالوهاب في خير، وهو يبلّغكم السلام، وقد فرح بخروجكم من السجن فحييته وشكرته..

ولم أستغرب موقف الناس مني كثيراً فقد كنت أعرف موقفي جيدا، وأعرف طبائع البشر، ولكن الذي استغربته أنني فوجئت ظهر اليوم التالي بهم يتزاحمون على غرفتي أفواجاً؛ مهنئين وسائلين عن حالي وصحّتي، وقد تلقيتهم بالترحاب وقلت في نفسي: لابد أن أمراً ذا بال قد كان؛ وقد عرفت أن الإمام أحمد عندما أستقبل الناس صباحاً كان من جملة الوافدين على مقامه للسلام عليه حكيم الحديدة الإيطالي الدكتور «فلساني» وعندما صافحه سأله: هل أنت الذي يعالج الولد أحمد الشامي؟ فارتبك الطبيب ولم يخطر بباله أن جلالة الإمام أحمد ملك اليمن سيسأل عن شخص بائس معتقل في مثل حالي ــ وكان لا يعرف عنّي شيئاً ــ فقال: لا.. فصاح الإمام: أين العمري؟ أين نائب الحديدة؟ فهرول النائب وسأله الإمام: من هو الطبيب الذي يتولّى معالجة الولد أحمد الشامي؟ فقال: الدكتور «فلساني» الذي لا يزال واقفاً بين يدي الإمام؛ ثم قال له: إنّهم يسألون عن مريض دار الضيافة الذي وصل من «حجة»، فانتبه «فلساني» وقال: نعم. نعم مولانا: أنا أشرف على علاجه؛ فسأله الإمام: وما مرضه؟ فقال: يشكو مرض «الكلى» و يعاني آلام «الأميبا» فقال الإمام: اعتن به، وارفع إلينا تقريراً عن حالته.

وكان هذا الحوار بحضور كل رجال الدولة فلم يخرجوا من مقامه إلاّ لزيارتي وحتى الطبيب الإيطالي زارني ذلك اليوم مرتين وأسعفني بأنواع متعددة من الحبوب ظل وقتاً يشرح لي فوائدها.

وكانت زوجتي في قصر الإمام:

وطبعاً كنت أدري أن شريكة حياتي أمَة الله عبدالرحمن الشامي قد وصلت ضمن العائلة المالكة الكبيرة، فلها مدّة طويلة في «تعز» عند خالها «الإمام أحمد»، وراسلتها، وكتبت لي لكن أحداً منا لم يجرؤ أن يطلب الإذن بمقابلة الآخر، وظللنا على هذه الحال بضعة أشهر ولسان الحال ينشد:

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريبٌ ولكن دون ذلك أهوال

وفي يوم ٦ ذي الحجة ١٣٧٢ هـ / ١٦ أغسطس ١٩٥٣ م وكنت مقيلا مع سكرتير عام وزارة الخارجية الأخ محمد بن عبدالرحمن الشامي شفيق زوجتي أمة الله وآخرين، إذا بي أفاجأ «بالدو يدار» ومعه جندي يقولون: أجب الإمام.. فانتفضت كل درة في دمي، وارتديت ثيابي ونزلت إلى باب دار الضيافة؛ فإذا بسيارة «جيب» تنتظرني، وأصر حارسي الخاص على أن يصطحبني لأنه المسؤول عني أمام الإمام، وظن أننا سنقابله في مقابلة عامة؛ وفُتِحَ لي باب القصر الداخلي في «بيت البوني» فدخلته مع «الدو يدار» فقط، وإذا بي في دهليزه وجهاً لوجه أمام شريكة حياتي أمة الله، وكانت ساعة لا أنساها اجتمعت فيها أشواق وأتعاب وآلام ست سنوات، وقد كان بلغ بي الضيق كل مبلغ كما عبّرت في قصائد تلك الفترة «صلاة» و«أمل» و«النور الشهيد»، وقالت لي أمة الله إن الإمام سيسافر غداً إلى «تعز»، وأنه سألها: هل تريدين أن تنتظري أحد؟ فقالت: نعم فأمر بهذا اللقاء الغريب، قلت لها: وأين الإمام؟ قالت: في الغرفة المجاورة؛ وعندما انتهت المقابلة الطويلة القصيرة التي لا أجد لها وصفاً بيانياً وعدت أدراجي إلى دار الضيافة كان الجميع يظنون أني قد أمضيت الوقت كله مع الإمام، وإني قد صفّيت معه الحساب، وكان لذلك أثره في معاملة الناس لي، وحتى حارسي الخاص لم يجرؤ حتى أن يرافقني على السيارة عندما خرجت من بيت «الإمام».. وتحررت من كل القيود والاعتبارات المفروضة عليّ كسجين، وأصبحت متأكدا من الفرج مترقّباً لطور آخر، وأكبرت مشاعر الإمام، وعبّرت عن كثير مما رأيته ولاقيته خلال هذه الفترة في رسائلي إلى أخي عبدالوهاب في يوميّاتي، وبدأت أزاول نشاطي الاجتماعي ولكن برفق وحذر، وقويت علاقتي بالأمير البدر وذات ليلة وكنا في مجلس سمر، إذا ببرقية اطلاقي النهائي تصل إليه من الإمام، وليس ذلك فقط؛ بل وتعييني مستشاراً لهُ.. وليس ذلك فحسب؛ بل والوعد بوصول زوجتي إلى الحديدة وتحرّرت من كل قيود السجن ولبست السلاح —وهو علامة الحرّ الطليق في اليمن— وتسوّقت إلى طور جديد.

ولم تمض فترة إلا وقد تمكنت من الحصول على مركز اجتماعي وسياسي وأدبي مرموق، وعُزِلَ النائب القاضي محمد بن حسين العمري وعيّن الإمام بدلاً عنه عامل «تعز» صديقي السيد محمد بن أحمد الباشا، وسكنت في نفس الدار التي كان يسكنها النائب العمري على شاطىء بحر الحديدة والتي تحوّلت فيما بعد إلى «دار النزهة»، وسكنها الإمام أحمد عندما سافر إلى «مصر»، ومارست أعمالي مع أمير الحديدة سيف الإسلام «البدر» ونائبه «الباشا» بكل إخلاص ورفق وحذر وثبات، وقد تعودت أن أحرّر «يوميات» مساء كل يوم أذكر فيها ما عملت وما شاهدت وبعض مشاعري، وهي تصوّر ما كنت أعانيه، وكنت ألجأ فيها أحياناً إلى «الرّمز» والعبارات المغلّفة، ولعله قد آن الأوان أن أتحدث عن أهم حدث في حياتي أثناء تلك الفترة الغريبة الظروف وهو «ولاية العهد» لسيف الإسلام «البدر»، وما طرأ بعده من أحداث كانقلاب «الأمير عبدالله» و«المقدم أحمد الثلايا» ولكن قبل ذلك قد يكون من المفيد أن أنقل بعض الرسائل إلى أخي عبدالوهاب و«اليوميات»(١) التي تتعلّق بأحداث الفصل القادم لأنها تشرحه وتوضح أحداثه، ولأنها تصوّر مخاطر من نشاطي وهمومي وظروفي قبل أن أبعد من اليمن إلى مصر أثر انقلاب المقدم أحمد الثلايا.

---

(١) رأيت تأجيل نشر «اليوميات» وإخراجها في كتاب مستقل اسمه: «يوميات منتظر».

١١ - ولاية العهد للبدر :

من المواضيع الشائكة المعقّدة والتي لا يُحبّ، بل و يكره الكثير من اليمنيين التفكير فيها ! بَلْهَ التحدّث عنها، «ولاية العهد للإمام «البدر» محمد ابن الإمام أحمد حميد الدين، وليس لأن الموضوع شائك، أو معقّد، أو لا يحبّ التفكير فيه أو التحدث عنه الكثير لأنه قديم ؛ قد تراكمت عليه أحداث ثلاثين عاماً ؛ ولا لأنّ عدّة أقلام قد تناولته بحثاً في كتيبات ومقالات وأثناء فصول بعض الكتب عن تاريخ اليمن الحديث... و بشتى الأساليب والتفسيرات والتأويلات وفيها القليل النزر من الصواب والكثير الجمّ من الخطأ تبعاً لأمزجة وظروف وأهواء الكثير من الشخصيات اليمنية التي كان لها علاقة قريبة أو بعيدة بذلك الموضوع، ولا لأن البعض قد استغل ظروفاً سياسيّة معيّنة فأبرز ذلك الحدث في شكل يبرز نفسه «وطنياً» أو «زعيماً» أو «داهية» عرف من أين تؤكل الكتف !! ليس لكل ذلك فحسب، بل ولأن البعض أصبح يتمنّى أن ما حدث لم يحدث، و يندم لأنه لم يقبل النصح، أو عاند، أو توهّم، والبعض قد عرف — وبعد عشرات السنين من تأويلاته للحدث وتفسيراته التي أراد بها استغلال ظروف سياسية معيّنة — أن الحقائق مهما حاول طمسها المهوّسون تظلّ منتظرة من يأتي فيزيّف تلك التأويلات والتفسيرات و يبرزها كما حصلت وكانت وذلك هو أروع دروس التاريخ، كما أن بعضاً آخر — وقد أدركته الشيخوخة ووهنها — قد أمسى و بات قلق الضمير لأنه جَبُنَ، أو استخذى، أو لم ينصر حقاً ولم يخذل باطلاً ؛ والحديث عن هذا الموضوع لا يروق لهؤلاء جميعاً.

أما أنا فأريد أن أتحدّث عنه بإسهاب والقارىء يعلم علم اليقين أني لا أريد المباهاة أو المفاخرة أو الاستغلال، وبماذا ؟ وممّن ؟ والكتّاب والساسة والطامحون إنما يتباهون و يتفاخرون بدعاوى البطولات واتخاذ المواقف الوطنية حين يتقرّبون بها إلى من بأيديهم السلطة والحكم، فيقولون إنهم فعلوا وتركوا، وناوروا وضحّوا، وجاهدوا وناضلوا، وكانت دواعي ذلك ومبرراته كثيرة قبل عشرين عاماً أما الآن وقد انتقلت اليمن من حال إلى حال، وأصبحت الأمة تعيش في عهد «التعاونيات» و«الميثاق» و«المؤسسات الدستورية»، و«المعاهد الثقافية» وعصر «جامعة صنعاء».. فلا مجال للتلفيق ولا للمغالطات... نعم ؛ أريد أن أتحدّث عن موضوع «ولاية العهد للبدر» بإسهاب لا لكيّ أردّ على كاتب ما، أو أفنّد مزاعم قوم أو أؤيّد دعاوى قوم آخرين ؛ ولكن لأن هذا الأمر قد أثر في حياتي السياسية والأدبية والاجتماعية، وأكثر ما جابهته من مشاكل خلال الثلاثين عاماً المنصرمة كانت ترتبط به إما بسبب ظاهر للعيان، أو بوشيجة متسترة خفيّة.

وسأتحدث بصراحة وإخلاص وأذكر أوّلاً حواراً مكتوباً دار بيني و بين الأستاذين الأديبين زميلي أحمد بن محمد نعمان وابنه المرحوم محمد بن أحمد نعمان في يناير سنة ١٩٥٥م الموافق جمادى الأولى سنة ١٣٧٤هـ أي قبل انقلاب الأمير عبدالله وأحمد الثلايا بحوالي ثلاثة أشهر — حول ولاية العهد للبدر كيف نشأت ومن تحمّل مسؤولية الدعوة إليها.

وذلك الحوار مكتوب ومسجّل بخطّي و بخط الأستاذين ومحفوظ ضمن الوثائق والأوراق



صورة للمؤلف بعد خروجه من «المعتقل» وتعيينه مستشاراً للإمام محمد البدر الذي يبدو بجانبه عندما كان أميراً للواء الحديدة سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

والسجلات التي في حوزة الأستاذ أحمد محمد نعمان والتي لسبب ما يمانع من نشرها ومن إعادة ما يخصّني منها ــ أو حتى تصويره ــ مثل هذا الحوار والميثاق الوطني المقدس ورسائل حزب الأحرار من عدن إلى ملوك ورؤساء وزعماء العرب عندما كنت سكرتيراً للحزب سنة ١٩٤٤م/ ١٣٦٣هـ رغم رجائي ومناشدتي بذلك.

لقد كتب عن موضوع ولاية العهد الأستاذ محمد أحمد نعمان رحمه الله ولكنه لم يشر إلى هذا الحوار، وأنا لا أتهرّب ولا أمانع أن أكون ضمن من تحمّل مسؤولية تلك الدعوة تاريخياً.. ولكن ليس بالتأويلات «الشماحية» أو «النعمانية» التي انتهى مفعول التباهي بها بقيام «الجمهورية».. بل كما حدثت وكما صوّرتها في حواري معَ الأستاذين الكريمين قبل ثلاثين عاما حين لم أعترض عليهما ولا على غيرهما عندما عاتبوني يومئذ وقالوا:

«لماذا قمت بهذا الأمر منفرداً، وأوقفتهم وكثيراً من رجالات اليمن أمام الأمر الواقع؟» وقالوا إنهم كانوا يريدون أن يسهموا بشكل أقوى وأكثر جدية وأحرى أن يؤدّي إلى النجاح، وإلى كسب رضى «البدر» ووالده، والقاضيان العالمان عبدالرحمن الإرياني وعبدالله الشماحي يعلمان تفاصيل مثيرة عن هذا الموضوع وقد لا يبخلان أن يُدليا بها لو سُئلا.

ولقد وجّه الأستاذ محمد أحمد نعمان ــ وبتوجيه من والده ــ خمسة أسئلة مع رسالة إلى كل من يهمهم الأمر أو يهتمون به يومئذ وكنت أحدهم.. وهي:

١ ــ كيف نشأت فكرة ولاية العهد للبدر؟

٢ ــ ما هو الغرض منها؟

٣ ــ هل عارضها أحد؟

٤ ــ ما هي وجهة نظر المعارضة؟

٥ ــ ما هو موقف الإمام أحمد منها؟

وقد أجبت على هذه الأسئلة بجواب طويل حاولت فيه أن أكون منصفاً صادقاً وكنت حينئذ في «الحديدة» وفي مقدمة المسؤولين عن إثارة «ولاية العهد للبدر» والمعارضة من قبل الأمراء كباراً وصغاراً ومن يدور في فلكهم تشتد وتتنمّر.

ولا أدري ما هي الدوافع وراء إثارة تلك الأسئلة؛ وفي مثل تلك الظروف الحرجة من قبل الأستاذ نعمان وكنت لا أزال أعتبره من أنصار البدر بالرغم مما كان يشاع من أن له ــ وبواسطة ابنه محمد ــ صلات بسيف الإسلام عبدالله وأنه كان قد وزّع بواسطته دراهم على المسجونين في «حجّة» وهو ما كشفه الأستاذ محمد فيما بعد في بعض منشوراته؛ ولذلك فقد احتطت في أجوبتي وافترضت أنها قد تعرض على الأمراء أو على الإمام أحمد نفسه وحاولت جهدي الدفاع عن نفسي وتبرير موقفي منطقياً ووطنياً، بل وتبرير موقف كل زملائي كالإخوان نعمان والإرياني والشماحي خوفاً من الإمام أحمد، بل وأبرزتها في صورة لا يستطيع من يطلع عليها من اليمنيين أن يضرّني بها لو فكر في عرضها على الإمام

أحمد وكنت أخاف منه خوفاً شديداً .

ولو كانت تلك الأجوبة في حوزتي الآن لنشرتها ولكنّها في «بئر الأستاذ نعمان» وكما لم أفهم دوافع أسئلته لا أدري أسباب بخله بها عليّ وتمنّعه من إسعافي بصور الوثائق التي تخصّني .

وأذكر أني أجبت على سؤاله الأول : كيف نشأت فكرة ولاية العهد؟ بأن الفكرة قديمة و بدأت تظهر منذ تربّع على العرش الإمام أحمد سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م فأنصاره والمخلصون له وفي مقدمتهم نائب حجة السيد عبدالملك بن عبدالكريم ، ورئيس الاستئناف يحيى محمد عباس وأضرابهما قدّروا أن إخلاصهم للإمام لن يكون كاملاً إلا إذا اتصل بإخلاصهم لخلفه ومن هنا ــ وفي ذلك الوقت ــ أشار من أشار منهم على الإمام بإعلان ولاية العهد للبدر.

وأذكر أنني أشرت في جوابي إلى زمرة المنكوبين الذين يسمونهم الأحرار أو «الدستوريين» الذين بدأوا و بعد معاناة مريرة طويلة يتنفسون من تحت الأنقاض [أقصد فشل ثورة الدستور] وقد أظلم في أعينهم كل أفق ، وأغلق دونهم كل قلب قد تبيّنوا أن الشخص الوحيد الذي لم يصدر منه نحوهم شرّ ولا أذى هو «البدر» فكان من الطبيعي أن يطمئنوا إليه ، وكان من المنطق أن يوثقوا روابطهم به وقد جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها ، وفطرت النفوس على النفور ممن تخافه وتخشاه؛ دع أنهم قد عرفوا وجرّبوا «فلاناً» و«فلانا» ولم يجرّبوا «البدر» بعد؛ وهم يتوسمون فيه الرحمة والحلم والأناة والتواضع والعدل وكل ما فقدوه في الآخرين؛ وإذن فإن «ولاية العهد» للبدر قد نشأت طبيعية ومنطقية لأنها وليدة إخلاص المخلصين للإمام أحمد ، وأمل المشفقين الراجين الواثقين في البدر نفسه ، وتخوف المتخوّفين على مستقبلهم ومستقبل اليمن .

وعن السؤال الثاني : «ما هو الغرض منها» ؟

أذكر أني قلت «إنه المحافظة على استقلال اليمن ووحدتها وتوقّي ما يتوجسه العقلاء إذا تمكّن أحدٌ من الأمراء غير البدر من السلطة والمعارضون لذلك كثير، وقد يحدث صراع مرير.

أما السؤال الثالث وهو «هل عارضها أحد» ؟

فقلت يومها و بشيء من الحذر إنني ما كنت أتصوّر أن يعارض فكرة ولاية العهد للبدر أحدٌ من أسرة «حميدالدين» لأنها طبيعية ومنطقية ونفعها يقيني لهم .. لكن الذي حدث هو العكس فقد عارضها جميع الأمراء وأبناؤهم بعنف وشدة و بجانب الأمراء آل حميدالدين عارضها أفراد إما متزمتون أو خائفون من بطش الأمراء ، أولهم أغراض شخصيّة وذكرت بعض الأسماء .

والسؤال الرابع : «ما هي وجهة نظر المعارضة» ؟ أذكر أني حاولت في جوابي عليه كسب عطف الإمام أحمد لو اطلع على «الحوار» ، بل وكسر شوكة المعارضة لو قرأه المعارضون .. فقلت : إن دوافع المعارضين الحقيقية ليست غير الأطماع الشخصية والحلم بالملك والسلطة غير أنهم يحاولون إبرازها في قالب منطقي فيقولون: إن الإمامة مسألة دينية لا تعقد إلا لجامع الشروط المعروفة في «المذهب

الزيدي » و يزعمون أن « البدر» لا تجتمع فيه تلك « الشروط » وحين قال المرشحون للبدر والمؤيدون له ؛ إن هذه الشروط لا يرجع إليكم أيها الأمراء تقديرها بل مرجعها إلى العلماء والزعماء وذوي الرأي فإذا أجمع أوفر عدد منهم على صلاحية البدر و بايعوه راضين مختارين فتلك بيعة صحيحة مقيّدة بوفاة والده الإمام أحمد . . حين قال المؤيدون للمعارضين ذلك وأطلعوهم على وثيقة « البيعة » قالوا محاولين التأثير على الإمام : إن فكرة « ولاية العهد » نبعت من رؤوس شيطانية ، وتسرّ بت من سجون « حجّة » تريد تفريق الأسرة ، وخدمة الأحرار و« الدستوريين » وغاب عن أنظارهم أن الفكرة قديمة وطبيعيّة وأن في طليعة الداعين لها أمثال « نائب حجّة » و« نائب تعز » و« رئيس الاستئناف » وحكام الشريعة ، وكبار العلماء ومشايخ القبائل . . إلخ .

وأما السؤال الخامس والأخير وهو: « ما هو موقف الإمام أحمد منها » ؟ فاذكر أني أطنبت في الشرح وقلت إن الآراء تتضارب وتتجادل وأن الأكثرية ممن بايعوا « البدر» يعتقدون أن الإمام أحمد لم يقف موقف المؤيد لهم أو الراضي عنهم ، وأن إغضاءه عن تهجمات المعارضين تعتبر وقوفاً ضدّ المبايعة ولاسيما وقد استخدموا السلطة ونشروا معارضتهم في الجريدة الرسمية « الإيمان » واستعملوا وسائل الترو يع والتهديد ومع ذلك ظل الامام صامتاً .

ومن جهة أخرى فإن صمت الإمام لم يرض « المعارضين » أيضاً فأولوه بصمت « الموافقة » بل توغّلوا في ظنونهم وزعموا أن كل ما جرى إنما كان بايعاز من جلالته ، وعن مشاروة بينه و بين ابنه وعقدوا بصنعاء عدّة جلسات وعلى أثرها أوعزوا إلى سيف الإسلام عبدالله ، وكان لا يزال في خارج اليمن ، بضرورة عودته إلى اليمن ليكون لهم ردئاً وسنداً ، و بثّوا أعواناً لهم في كل صقع يخذّلون النّاس ويخوّفونهم ، وأغرقوا في تشو يه سمعة « البدر» وأعوانه من الناحية السياسية والأخلاقية ، وحاولوا إقناع جلالة الإمام بكل صورة أن من يدعو للبدر و يؤيده إنما يريدون الكيد للأسرة ، وأرسلوا سيف الإسلام القاسم ابن الإمام يحيى إلى الحديدة ليتصل بأنصار « البدر» ويحوّل ـــ إن استطاع ـــ أفكارهم بالوعد تارة و بالوعيد أخرى ، ويحسّن سمعة سيف الإسلام عبدالله و يفضّله على أخيهم الأكبر والأرشد سيف الإسلام الحسن وأن عبدالله وحده الذي يمكن أن يرتفع بمستوى اليمن ويحضّرها .

هكذا عملوا بطيش ، ولم يفكّروا أن تحطيمهم للبدر سيجر عليهم أنفسهم الأخطار لأنه إذا تحطّم ، تحطّم آخر أمل للأمة في أسرة « حميدالدين » ، ولكن الأمة كانت قد استبصرت ، وأعلنت كلمتها ، ففشل كل مجهود بذلوه واضطرّوا أخيراً لإرسال دعاة لهم بين القبائل يجبرون المشايخ والعلماء الذين قد بايعوا « البدر» على النكوص عن « البيعة » ، وأن يسجّلوا بأنهم قد أجبروا على أدائها ، وأن يبايعوا لسيف الإسلام الحسن ولهم مقابل ذلك مال وسلاح .

وضجّ المشايخ والأعيان ، وتوالت البرقيات إلى الإمام تخبره بما يريده منهم دعاة البيعة الجديدة ، وكان جواب الإمام حازماً صارماً ، إذ قد حذّر الجميع من أخذ البيعة لأيّ إنسان ، بل وناهياً عن الخوض فيها ، والكلام عنها ، والدعوة إليها . . ولكن ذلك لم يرض المعارضين أيضاً ولقد قال بعض الأدباء

مصوراً الحالة النفسية للأمراء المعارضين:

أتدري ماذا يريدون من الإمام؟

إنهم لا يرضيهم إلاّ إذا اعتقل ابنه «البدر» وقطع رؤوس المبايعين بما فيهم أنا وأنت ورئيس الاستئناف ونائب حجة ونائب الحديدة ونائب تعز وعلماء البلاد وساداتها. ثم.. يتفضل جلالته فيموت ليستولوا على المال والسلطان وامارة المؤمنين ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون!!

الواقع أنه من الصعب فهم حقيقة موقف الإمام من مبايعة ابنه «البدر» ولكن المفكر بعمق وإنصاف يستطيع أن يفقه الحقيقة، وأظن أن الإمام أحمد لم يقف إزاء أي حادث في تاريخه الطويل المفعم بالجليل من الحوادث محتاراً مشفقاً كما وقف إزاء حادث المبايعة لإبنه «البدر».. لقد واجهته عدة تيارات، وجاشت في نفسه شتّى المشاعر، وتمثّلت أمام بصيرته شتّى العواقب والواجبات والغايات والشكوك والظنون.

فجلالته يعلم جيّدا أن فكرة «ولاية العهد» للبدر قديمة كما أوضحنا، وأن الاقتراحات التي قدّمت إليه خلال السبع السنوات الماضية ومن قبل إناس لا يتطرق الشك إلى إخلاصهم له ولأسرته كثيرة، و يعلم أيضا أن معظم الأدباء والعلماء الذين منّ عليهم بالعفو وأطلق سراحهم من سجن حجّة ليسوا بغاشين ولا بكاذبين في دعوتهم للبدر وتأييدهم له، لأنهم يرون فيه الخلاص لهم ولبلادهم من كل خطر داخلي وخارجي، وأن لا مفرّ لهم من حقد الحاقدين وجشع الطامعين، ورعونة الجهّال إلا بالالتفاف حول «البدر»، و يعلم أيضاً مقدار إذعان الأمة له وتعلقها به، ومعرفتها لسيرة نجله، وتاريخ المعارضين معها، وأنها حين بايعت ابنه لم تكن مغرّراً بها، ولا مغلوبة على أمرها و يعلم أيضا أن صيغة البيعة —[وقد اشترك في صياغتها علماء في مقدمتهم العلامة القاضي عبدالرحمن الإرياني]— كانت شرعية ومنطقية لا تصادم نصاً شرعياً، ولا مصلحة عقلية، ولا تثير فتنة وأن الشعب اليمني أحوج ما يكون إليها.

يعلم الإمام ذلك وماهو أكثر منه. وإذن.. وإذن فمعارضته لبيعة «البدر» وقوف في وجه رغبات الأمة وإرادتها.

وإذن.. وإذن فمحاولة المعارضين تشو يه وجهة نظر المبايعين للبدر والنّيل من سمعتهم السياسية لن تغيّر من علمه شيئاً.

وإذن.. فليُعلِنْها رسمية واضحة لا غبار عليها نزولاً عند رغبة أكثريّة الأمة، وتقديراً للصالح العام.. ولكن إخوته «سيوف الإسلام» وهو يحبّهم و يشفق عليهم، و يعرف ما يصيبهم إن فقدوه إذا اختلفوا وهم مختلفون ولا يريد أن يجرح لهم سمعاً ولا قلباً، ولا خاطراً، وإن جرحوا سمعه وقلبه وخاطره، وهو يعلم أن أكثر من واحد منهم يريد الملك و يطمع فيه لنفسه غير مقدّر لأعبائه، بل إن منهم من كان يريده و يطمع فيه بعد وفاة الإمام يحيى نفسه لولا الأحداث الرهيبة التي خوّلت لأحمد نفسه أن ينتزع العرش إنتزاعاً بعد أن مزّقوا كل ممزق، بل إنه يعلم أن هناك من «الأحفاد» من تداعبه أحلامه وتحدّثه

خيالاته بأن التّاج سيزهو على مفرقه . . . في يوم قريب ، وأنّه أحقّ به من « البدر » .

وفي الوقت نفسه يرى معارضة أفراد أسرته الشديدة لابنه فيشفق عليهم ويخشى أن يتمزّقوا ، و يعلم أن لا خير ولا مصلحة في تمزّقهم لا لمصلحتهم ولا لمصلحة البلاد ؛ وتبلغه الوشايات والمزاعم بأن الغرض من البيعة للبدر هو تفريق كلمة الأسرة ، وتمزيق شملها وأنها صادرة عن « الدستوريين » وخرجت من سجون حجّة ، وقد رأى الانشقاق سافراً . . وهو الخبير المحنّك والحكيم المجرّب ، يفهم خفايا النيّات ، وخبايا القلوب ، وأنّ الناس قد يظهرون ما لا يبطنون ، وقد يغشّون وقد يخدعون ، وإذن . . وإذن . . فلا يبعد أن هناك من يتربّص ، و يتأبّط شراً ، و يتخذ من « ولاية العهد » ستاراً لأغراضه ولاسيما والمناوئون موجودون والمتمردون كثيرون في داخل البلاد وخارجها وقد حبّذوا المشروع وأمّنوا عليه ، وإذن . . فليحسمها بالإعلان إن « البيعة » لأ ي إنسان كائن من كان غير رسمية ، وليمنع و يزجر كل من يخوض فيها . . ولكن . . ولكن البلاد والمستقبل ، والحجج العلمية والعقلية ونصائح المخلصين والمثقفين و« البدر » نفسه : وهو قوّة شعبية لها ثقلها . . . إنه لموقف محيّر جداً ، ومربك حقّاً ، يتصارع فيه العقل والعاطفة ، والواجب والإشفاق والحقائق والظنون ، ومع كل ذلك فقد تمكن الإمام أحمد من السيطرة على نفسه وضبط أعصابه وأن يقف موقفاً حازماً موفّقاً . . موقف الحياد والصمت لفترة طويلة فلم يرض ولا كره ولا نهى ولا أمر . . كي لا يتحملها حيّاً وميتاً ، ولتعبّر الأمة عن مشاعرها كما تريد بصدق وأمانة حتى تمّت « البيعة » لسيف الإسلام البدر في عموم القطر اليماني وفي المهاجر اليمنية . . وهنا أراد المعارضون أن يحوّلوها إلى فوضى عارمة فدعوا جهرة إلى أنفسهم ، و وزعوا الأموال والأسلحة فأيقظوا حزم الإمام أحمد فخرج من صمته وأعلن أنه لن يسمح بعد اليوم أن يُخاض في موضوع ولاية العهد لا لزيد ولا لعمرو وقطعت جهيزة قول كل خطيب . .

هذا هو خلاصة ما كتبته إلى الأستاذ محمد أحمد نعمان وأنا في الحديدة في شهر يناير سنة ١٩٥٥م جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ هـ وفي ظروف لا يمكن أن يقال فيها أكثر من ذلك وقد احتطت في كل لفظة رقمتها وافترضت أن الإمام أحمد بل و بعض الأمراء المعارضين سيطلعون عليها .

موقف الأحرار والدستوريين

لقد كثر الكلام عن الانقلاب العسكري الذي دبّره الجيش في تعز بقيادة المقدم أحمد الثلايا ، وقد أوردت مزاعم الدكتور عبدالرحمن البيضاني ونقلت ما قاله المؤرخ عبدالله الشماحي ، ثم ما دار بيني و بين الأستاذ محمد نعمان من حوار . . غير أن الصورة ستظل في نظري غير واضحة ، ولن تكمل قسماتها إلاّ إذا تحدّثت عما لا يعرفه البيضاني ولا تطرّق إلى ذكره وإن كان قد أشار إلى قصيدتي الميمية واستشهد ببيتين منها ،وكذلك لم يتعرض المؤرخ الشماحي لذكره ، ولم يتسنّ لي الإشارة إليه في أجوبتي على « الأسئلة النعمانية » كيف نفّذت ولاية العهد للبدر؟ من الذي عقد البيعة له ؟ ما هو نصّ وثيقة المبايعة ومن هو الذي صاغها ؟ ما أعقبها من أمور أدّت إلى الانقلاب العسكري ولماذا وقف منه الأحرار موقف المعارضة؟ هل كان « الدستوريون » مخلصين في الدعوة للبدر أم كانوا يناورون ؟ موقف مصر والمملكة

العربية السعودية من الانقلاب ، إلى غير ذلك مما لا يجوز إهماله من ذكرياتي .

رسم الخطة وصياغة البيعة

في منتصف شهر شعبان سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م دعاني « البدر» إليه أثر عودته من زيارة قصيرة إلى «تعز» وفاجأني بهذا السؤال :

ــ هل أنت مطمئن إلى المستقبل ؟

ــ قلت : عندي تخوّفات كثيرة ولكن الله رحيم .

ــ قال : الطامعون كثيرون وأخشى تمزق الأمة بعد وفاة الإمام .

ــ قلت : وأنا كذلك .

ــ قال : وما رأيك في القيام بعمل يجنّب البلاد ما نخشاه ؟

ــ قلت : ذلك في نظري من الواجبات الدينية والوطنية ، ولكن بأيّ كيفية يكون العمل ؟ هل بطريقة علنيّة ورسمية ؟ أم بطريقة سريّة ؟

ــ أجاب ــ بحذر ظاهر ــ : ما رأيك أنت ؟

ــ قلت : لقد جرّبت الجمعيات السريّة ، والمؤامرات أنواعاً ، وعرفت خطورة ذلك على المتآمرين وعلى البلاد نفسها ، ولاسيما «اليمن» المسيّرة بتقاليد ومعتقدات لا يتجاهلها ذوو الخبرة والمعرفة والإخلاص . ولذلك فمن الحكمة ولكي نضمن التوفيق ــ إن شاء الله ــ فيجب أن يكون عملنا علنيّا ، واضحاً وصريحاً ، مادمنا نريد الخير للبلاد ولا نتآمر ضد أحد ولن نعمل ضدّ إنسان .

ــ قال : ما رأيك في إعلان « ولاية العهد» ؟

ــ قلت : إنها هي الجواب والحلّ .. ولكن هل أنت مستعدّ لتحمّل معارضة أعمامك سيوف الإسلام وأولادهم وأتباعهم ؟

ــ قال : نعم ؛ وأرجو أن أوفّق وأنا أعلم أن الكثير يخافونهم وعندي رسائل العلماء والأدباء ، وسأحاول إقناع من يمكن إقناعه منهم .

ــ قلت : إذن وعليّ الباقي .. وحدّدنا الأهداف ورسمنا الخطوط العريضة وعلى من نعتمد وبمن نتصل ، و بدأت مراسلاتي إلى من بصنعاء وحجّة وتعز من الأصدقاء والعلماء والأدباء ، وأعترف أني قد أوهمت باديء ذي بدء كلاً من نائب الحديدة السيد محمد بن أحمد الباشا والسيد محمد بن حسين عبدالقادر والأستاذ أحمد محمد نعمان وابنه وأقاربه ، ونائب حجة السيد عبدالملك المتوكّل وأولاده وكثيراً من المشايخ والوجهاء أن جلالة الإمام أحمد يرغب في إعلان « ولاية العهد» رسمياً للبدر ولكنه يريد أن يعلنها الناس أوّلاً ، و بالطبع لم أصرّح بذلك بل عمدت إلى التلميح الذي يكون أحياناً أبلغ من التصريح ، ثم كنت أساير وأجاري أوهام وظنون من يتساءلون ، لا أعارضها ولا أنفيها وكان « البدر»

أيضاً يتّبع نفس الطريقة، وصادف خروج القاضي العلامة عبدالرحمن بن يحيى الإرياني من معتقل قاهرة «حجة» ومرّ من «الحديدة» ليسلّم على «البدر» في طريقه إلى «تعز» وكنت قد رسالته وراسلت الأستاذ نعمان وبعض الزملاء في «حجّة» فبحثت معه تفاصيل الموضوع فوافق عليه، بل وكتب صيغة العقد والبيعة ومسودّتها بخطه ولا أزال أحتفظ بها بين وثائقي التاريخية وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وآله وصحبه أجمعين وبعد فإن الله سبحانه وتعالى لما جعل بالأئمة نظام أمر هذه الأمة، أوجب سبحانه على عباده نصب إمام عادل يضمّ شتاتهم، ويقيم حدودهم، ويحفظ قاصيتهم، ويسدّ ثغورهم، ويأخذ لضعيفهم من قويهم، وينصف لمظلومهم من ظالمهم، ويرعاهم في ذات أنفسهم، ويخلفهم في كلهم وأيتامهم، ويحكمهم بشريعة كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويقوم عليهم بحجّته، ويقيم فيهم سلطانه، كما أوجب عليهم طاعته في المنشط والمكره، وفي المحبوب من الأمور والمكروه، وعلى كل حال من أحوالهم، وفي كل أمر من أمورهم، ما لم يأمرهم بما فيه معصية الله فلا طاعة له حينئذ عليهم، كل ذلك حفظاً منه تعالى ـ وهو العليم بمصالح معاشهم ومعادهم ـ لكيانهم، وجمعاً لكلمتهم، وحقناً لدمائهم، وضمّا لشتات دهمائهم، ووكل سبحانه النظر في ذلك إلى العلماء، الذين حملهم الأمانة العلمية، وأقام عليهم الحجّة الشرعية، وجعلهم أولي الحل والعقد في الأمة، فإليهم العمل بما فيه صالحها، ونصح ولاة الأمور بما يرونه الأسدّ الأوفق للمصلحة العامة التي تدور عليها الأحكام الشرعية فمن وقع عليه اختيارهم للإمامة حين تخلو البلاد من إمام قائم، تعيّن ووجب على الأمة طاعته وتنفيذ أوامره، ولأجل ذلك نقول نحن الواضعين أسماءنا أدنى هذا: إنه نظراً منا إلى ما لمسناه في هذه الفترة من تبلبل أفكار الأمة، وشيوع القلق في البلاد من جرّاء إثارة الكلام في بعض الأوساط حول ولاية عهد الخلافة الناصريّة المتوكلية الهاشمية أدام الله ظلالها، وما نجم عن ذلك من تخوّف على مصير البلاد فيما إذا استأثر الله ـ بعد عمر مديد ـ بخليفته مولانا أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد بن أمير المؤمنين الشهيد المتوكل على الله يحيى ابن المنصور بالله محمد بن يحيى حميدالدين أمدّ الله مدّته، وحرس مهجته، وما يبديه كثير من العقلاء المخلصين من الخشية من عواقب إهمال النظر في هذا الأمر من جانب مولانا صاحب الجلالة أمير المؤمنين أيدهم الله... ومما قد يخلف هذا الإهمال من دخول البلاد ـ والعياذ بالله ـ في فوضى حارمة قد تعرّض استقلالها ـ الذي حافظ عليه كل من مولانا الإمام الشهيد رضي الله عنه ونجله مولانا الإمام الناصر أيّده الله ـ لخطر الاستعمار الأجنبي ولاسيما العدو البعيد عنا في لدين واللغة والوطن والجنس حائم مع الأسف في أطراف البلاد، إلى ذلك أنّ ترك حبل هذه الأمة على غاربها، مدعاة إلى تعريض وحدتها التي حرص عليها مولانا أمير المؤمنين أيّده الله للانقسام على نفسها، وسفك دمائها بأيديها؛ فالبلاد مع ذلك في ظروفها الدقيقة المنتظرة ولو بعد زمن طويل تتطلب من أولي الشأن النظر البعيد في وضع ما يقرّ الأمن فيها في تلك الظروف، ويجنّبها مهاوي الفتن، والاضطرابات المتوقعة التي يعرفها كل من

يطلع على التاريخ الإسلامي العام و أو التاريخ اليمني على الخصوص؛ فنظراً منا إلى كل ذلك رأينا أن نساهم في وضع حدّ لهذا التبلبل وقطع دابر القلق الذي أشاعه في الأمة ذوو الأغراض السيئة، ونقرّ الطمأنينة في قلوب المؤمنين والمخلصين من إخواننا، وأن نقطع الطريق على ذوي الأغراض السيئة الذين اتخذوا من الموضوع حقلاً يزرعون فيه بذور الشقاق والانشقاق بين الأمة و يفرّقون كلمتها؛ فاستخرنا الله سبحانه في ذلك أسوة برأس السلف الصالح وأوّل الخلفاء الراشدين ــ فاختار لنا سبحانه اختيار مولانا سيف الإسلام البدر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله يحيى حفظه الله وليّاً لعهد والده صاحب الجلالة أيّده الله و بايعناه من الآن إماماً شرعيّاً يخلف والده على عرشه حين يستأثر الله به بيعة شرعية موقوتة تبتدىء حين ينتهي حكم البيعة التي في أعناقنا لوالده أطال الله عمره وأمتع به الإسلام والمسلمين وشرطنا عليه العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والعدل في حالي السخط والرضى، والأخذ للضعيف من القويّ، وللبعيد من القريبّ، وللمظلوم من الظالم، وأن يرفع من شأن الأمة، و يعمل كل ما فيه صالحها وخيرها، و يستشير صالحيها وعلماءها وذوي الرأي فيها، ويحرص على حفظ استقلالها و وحدتها ورفع مستواها، وتحقيق آمالها وأمانيها وتقدير ثقتها بسموّه، فيحنو على ضعيفها، و يأخذ بيد عاثرها، و يواسي فقيرها.

بايعناه على ذلك بيعة شرعيّة تُطَوَّقُ بها أعناقنا و يسألنا الله عنها، وعاهدنا الله سبحانه على السمع والطاعة له في المنشط والمكره والمحبوب والمكروه إلاّ فيما فيه معصية، ولم نقصد بهذا الاختيار إلا إنامة الفتنة، وجمع كلمة الأمة بعد طول نظر وتروّ ومراجعة أفضت إلى الاقتناع بأن مولانا سف الإسلام البدر حفظه الله هو الشخص الوحيد المحبوب الذي يمكن أن تجتمع عليه كلمة الأمة وتسكن إليه نفوسها نظراً إلى ماضيه-المشرق وصفحته الناصعة، ولم نأل جهداً علم الله في توخّي الإحسان في الاختيار لأمتنا ولأنفسنا ولحكومتنا، وأملنا بمولانا أمير المؤمنين أيّده الله وهو أحرص الناس على استقرار أمر الأمة، وأعلمهم بما على جلالته من المسؤولية إن تركهم هملاً، أملنا أن يتوّج هذه البيعة باقراره لها، وإعلانه عنها، وإلاّ فحسبنا أن قد أدّينا النصيحة لله ولرسوله ولإمام المسلمين وعامتهم وحمل جلالته دوننا الحجّة، وهو أعرف منّا بواجبه نحو بلاده ورعاياه وحكومته وفقه الله إلى ما فيه خير العباد والبلاد وأطال عمره.

حرر في ٧ رمضان سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

١٢- المزايدات التاريخية:

هذه البيعة التي أنشأها بقلمه البليغ وحصافته الفقهية الصديق والزميل والأستاذ القاضي عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، وأنا بجانبه يراجعني في صياغة بعض جملها بدار ضيافة «الحديدة» المطلّة على البحر الأحمر بعد عصر يوم الأحد السابع من شهر رمضان سنة ١٣٧٣هـ الموافق ٩ مايو سنة ١٩٥٤م ثم كتبها بخطه الجميل ونقلت عنها نسخة بخطي واحتفظت بالمسوّدة لحسن حظ التاريخ بخط القاضي

ثم حلمتها إلى «البدر» فقرأها وابتهج بها ووافق عليها، وجاء القاضي عبدالرحمن ووقّع على نسخته بجانب اسمي، ووقع أسماءهم آخرون، وحملها معه إلى ربيد وكان عاملها [المحافظ] الأخ العلامة أحمد بن محمد بن علي الشامي فعرضها عليه وعلى علماء زبيد وأعيانها فوافقوا عليها ووقعوا أسماءهم ثم سافر إلى «تعز» حيث الإمام، ولم يبت إلاّ وقد عرضها على النائب حمود الوشلي ومحمد الذاري وأحمد زبارة، وعبدالله عبدالكريم وعبدالله الأغبري وسائر أعضاء الديوان الملكي والكثير من العلماء والمشايخ والأعيان فبايع معظمهم ولم يتلكأ إلاّ القليل.

وحمل القاضي محمد بن أحمد الجرافي صورة منها إلى من يعرف من علماء صنعاء، وأرسلت بصور أخرى إلى الأستاذ أحمد نعمان إلى «حجّة» وإلى الإخوان بصنعاء عبدالله الشماحي ومحمد بن أحمد الشامي وعبدالقادر بن محمد شرف الدين، وشاع الخبر وذاع وتوافد العلماء والمشايخ على «الحديدة» مبايعين مؤيّدين وكنت قد أوجزت صيغة لا تتعدى عشرة أسطر يقرؤها «المبايع»، فيها العهد والشروط والموافقة وأذكر أن الأخ السيد أحمد بن محمد باشا وصل من «بغداد» إلى الحديدة في إحدى ليالي رمضان وكان مجلس «البدر» مكتظاً بفئات المبايعين، وكان يرافقه في مهمته التي بُعث من أجلها إلى «بغداد» السيد عبدالكريم عبدالقدوس الوزير فطلبت منهما توقيع وثيقة البيعة فلم يتردّد أحمد الباشا وهو نجل نائب الحديدة ومن ذوي الحل والعقد، لكن مساعده عبدالكريم الوزير ارتبك واصفرّ لونه واعتذر قائلاً: أرجو ألا تحرجني يا أخي أمام «أخوالي» سيوف الإسلام وأولادهم؛ فقلت له باسما: أنت حرّ ولا ضرر ولا إحراج ولم أكلّم «البدر» بموقفه وكان يمثّل نوعاً من «المعارضة» التي شرحتها في جوابي على الأستاذ «نعمان».

إنّني أكتب الآن عن ذلك الحدث الذي كان له أثره الفعّال فيما نتج عنه من أحداث، كانقلاب «الثلايا» والأمير عبدالله ابن الإمام يحيى في ٨ شعبان سنة ١٣٧٤هـ / ابريل سنة ١٩٥٥م ثم خروج الأحرار من السجن، وانتقالي إلى القاهرة، وقيام الاتحاد الفيدرالي بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة، وحتى ثورة ١٩٦٢م — ١٣٨٢هـ أكتب الآن عن ذلك الحدث بعد مرور ثلاثين عاماً ملتزماً الصدق والأمانة التاريخية، ولا أريد المزايدة، أو التباهي ولا التنصل عن المسؤولية، ولا إرضاء زيد أو إغضاب عمرو، وقد كتب الكتّاب عن ذلك الحدث الكبير بطرق مختلفة، وأساليب شتّى ومنهم من ادّعى عبقريّة افتعاله خدمةً للشعب اليمني، وأنّه كان عن مؤامرة بين الأحرار؛ وهم يقصدون «الزبيري» و«النعمان» و«الإرياني»، وقد يحشرون اسمي معهم، إلى آخرين، ومنهم من يستبدّ بالدعوة العريضة الطويلة، والله يشهد أن كل ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع، وأن ما رويته من أسباب ومسببات، وأحداث وتخوّفات، هو الذي حصل، ولا شيء سواه، وأن ليس لنعمان، ولا لابنه محمد أكثر ممّا للزبيري، والفسيّل، وإضرابهما من «الأحرار» الذين كانوا داخل سجون اليمن أو خارج حدود مملكتها حينذاك، ومع ذلك فقد انتشت أقلام، وشطحت تصوّرات يعللون بها أعمال قوم آخرين كأنهم يستكثرون على شباب جيل آخر جاء بعدهم وتثقّف بثقافة غير ثقافتهم، ومرن على ممارسة شؤون وتدريبات وأساليب حياة، لم يتمرّنوا على ممارستها ولا ألفوها، وخُلِقوا لِزَمن غير زمانهم..

أقول كأنهم يستكثرون على أبنائهم، أو من جاء بعدهم، أن يعملوا شيئاً هم صانعوه أو مبتكروه؛ فيلجأون إلى «المزايدات»، و يفتحون الباب أمام أمثال «البيضاني»، وهذا هو التعليل الوحيد الذي افسّر به دعاوى بعض الكتّاب ــ أو بعض من عارض الدعوة للأسباب التي شرحتها سابقا في أجوبتي على النعمان ــ بأن فكرة «ولاية العهد للبدر» إنما كانت «حيلة» من قِبل من يسمّونهم «الأحرار» لكي يمزّقوا «أسرة بيت حميدالدين» ويمهّدوا «للثورة» و«الجمهورية»، والوحيد الذي لم أسمع عنه هذه الدعوى ولا حاول «المزايدة» على «التاريخ» ولا التباهي بما لم يفعل، ولا تزو ير ولا تزييف الأحداث بالنسبة لهذا الحدث هو الأستاذ محمد محمود الز بيري فقد كان صريحاً واضحاً صادقاً مع نفسه عندما وقف مع «ولاية العهد للبدر» ثم عندما خذلها، ولم يدّع أنها كانت مؤامرة بل قال: (لقد ارتبطنا مع «البدر» بعهد وميثاق حضره السيد عبدالرحمن عبدالصمد وغيره عندما زار القاهرة ولمّا لم يَفِ به ونقضه نكثنا عهده ونقضناه)، وكذلك كان موقف تلاميذه المخلصين الذين تعاونوا مع «البدر» ثم ناوؤه أمثال محسن العيني ومحمد الرعدي ويحيى جغمان، وفلان وفلان فلم يزايدوا ولم يدّعوا ما لم يفعلوا بل استطاعوا أن يتعاونوا مع الموجة الجديدة وأن يؤثروا فيها و يتأثروا بها.

وأنا بهذا لا أحبّذ عمل قوم ولا أفند عمل قوم آخرين وإنما أسجل بإخلاص ما أدريه وما أعلمه بنيّة المؤرخ المنصف لحدث كان، شاهده وتأثر به وأثّر فيه ولو كنت من «المزايدين» و«المزيّفين» لتقرّبت إلى هذا العهد «الجمهوري» القائم بما حاول البعض أن يدّعيه بل ولما اعترفت بما لا يقرّبني إلى «التقدميين» و«الثوريين» وها أنا أقسم بالله الذي لا إله إلا هو أنني كنت في دعوتي إلى «ولاية العهد للبدر» مخلصاً صادقاً ولم آل جهدا في توخّي الإحسان في الاختيار لأمتي ولنفسي كما ورد في نصّ البيعة التي وقعّها الإرياني والز بيري ونعمان والشماحي والفسيّل والبيضاني أيضاً.

ولا أبالي بل وسأكون سعيداً مرتاحاً مطمئناً راضياً أمام ضميري والتاريخ أن يقول من يقرأ هذا بأنني «رجعي» «مغفّل» «مغلوب على أمره».. وأفضلّ هذه الصفات على أن يقال عنّي بأني كنت «ماكراً» «كذّابا» «متآمراً» «غاشاً» «مخادعاً» ومن أجل ماذا؟ من أجل أن أدّعي ما لم أعمل، وأتقرّب إلى عهد لم أصنعه ولا فكّرت فيه؛ عهد «الجمهورية» الذي صنعه «الضباط اليمنيّون» و بالطريقة التي شرحها «الضباط اليمنيّون» أمثال «المقدّمين» أو «المقادِمة»: أحمد الرحومي... وصالح الأشول وناجي الأشول ومحمد الخاوي وعبدالله صبرة، والمؤيد، في كتاب «أسرار ووثائق الثورة اليمنية» أو اللواء عبدالله جزيلان في مذكراته؛ أو المشير السلاّل في تصريحاته: أما ما كان بعد ذلك ومن ساهم في تصحيح الحدث أو سيرته أو تصرّف في توجيه تيّاراته ورياحه بلباقة، أو برعونة، بإخلاص، أو بمكر وخداع من نوع آخر، بنزاهة أو بجشع واستهتار، فلذلك حديث آخر، و يسعدني و يشرّفني أنني قد عملت جهدي للمصالحة الوطنية، وقدتُ معسكر السلام حتى انتخبت من قبل «المجلس الوطني» عضواً في المجلس الجمهوري الذي يرأسه كاتب عهد البيعة للبدر بولاية العهد، و بنفس القلب والصدق والإخلاص والروح التي لا تتأرجح بتغيّرات

الرياح، وأقسمت يمين الولاء للجمهورية صادقاً مخلصاً.

ولقد نشر الأستاذ محمد أحمد نعمان في كتابه «من وراء الأسوار» مقالات وآراء لكثير من زملائي في سجـــن «قاهر حجّة» وفي مقدمتهم «عبدالرحمن الإرياني» و«محمد السياغي» و«عبدالسلام صبره» و«محمد الفسيل» و«علي العنسي» و«عبدالله الســلاّل» وغيرهم؛ و يسعدني أن أعترف بأني لم أسأل لأن بين آراء بعض الزملاء في ذلك الكتاب ما لا ينسجم وتصرّفاتهم سواء بالنسبة إلى «ولاية العهد للبدر» واندفاعهم معي في تأييدها، أو في مواقفهم بعد قيام «الجمهورية» وعلى كلّ فقد كان الجميع يتلمسون المخلص غير أني أستغرب ما سمعته من أن بيعة دعا إليها القاضي عبدالرحمن الإرياني مع الزملاء القاضي محمد الأكوع وعبدالملك المطاع ومحمد حسن غالب ومحمد الفسيل وعبدالسلام صبرة وأحمد المعلمي وغيرهم وعقدوها للسيد ابراهيم بن علي الوزير، وقد شرطوا عليه أن يكتم خبر تلك البيعة عني ولا أدري لماذا؟ أم تراهم كانوا يعلمون أني لن أستجيب لا لأنهم غير صادقين في تلمسّاتهم، بل لأنني كنت مقتنعاً أولاً أن مشكلتنا هي كيف نتخلّص من السجن لا كيف نفتش عن إمام؛ وثانياً لأني سأذكّرهم بأنه لا يصح مبايعة إمام أسير أو سجين، ولا أدري إلى أيّ مدى من الجدية والإخلاص بلغ بهم التفكير ولا ما هي تعليقاتهم الآن فهل إلى معرفة من سبيل؟

١٣ - القصيدة المجلجلة :

لعلّ الذكرى قد شطحت، ولعلّ قوماً لن يرتاحوا بإثارتها، وربما استوحشت لصداها قلوب قوم آخرين؛ ولكن لابد مما ليس منه بد؛ وقد سمعنا أن الإنسان في كل زمان ومكان عرضة للتحوّل والتطوّر والتغيّر ولاسيما في الظروف الصعبة وتحت تأثير الحاجة والعوز، أو القلق والخوف، أو الوهم والطمع، وقد كانت تكتنف اليمن بعد فشل ثورة «الدستور»؛ فنابذ الأخ فيها أخاه، وتنكّر الحليف لصاحبه، وانقلبت الموازين الأدبية والاجتماعية والسياسية؛ وفيما بين عشيّة أو ضحاها أصبح العزيز ذليلاً، والذليل عزيزاً، والغنيّ فقيراً، والفقير غنيّاً، والصديق عدوّاً، والعدو صديقاً.

ولابد أن يلاحظ القارىء وقد يستغرب أو يعتبر، أو يأسى ويحزن لما قد يراه «تردّياً خُلُقِيّاً» أو «سلوكاً مشيناً» أو «آفة اجتماعية» أصيب بها الساسة اليمنيون في تلك الفترة إذ قد كثرت «المبايعات بالإمامة» وفي فترة لا تزيد على عشر سنوات من عبدالله الوزير إلى الإمام أحمد ثم عبدالله والحسن والبدر إلى آخرين داخل السجن، وهل يدلّ ذلك على هوان قيمة الكلمة بلْه العهد والقسم على الناس؛ و بذلك قد يستنتج حصافة «الضباط الأحرار» من شباب اليمن الذين اعتمدوا في «تنظيمهم الثوري» المخطط لثورة الجمهورية على السريّة المطلقة وابتعادهم الحذر على «الزعامات التقليديّة» التي كانت تتلمّس المخرج السهل، ولا تبالي أن تعطي العهد والميثاق وهي تنوي النكث والنكوص، بل وهي ترتبط في نفس الوقت بميثاق بيعة أخرى.



المؤلف بالحديدة يلقي قصيدته «المجلجلة» عام ١٤٧٣ هـ .

إني لأحمد الله الذي نجّاني من الاشتراك في تلك «المناورات» وهو «توفيق» لا اختيار لي فيه ولا شأن ولا تدبير؛ فكما أخلصت للميثاق الوطني المقدس وثورته سنة ١٩٤٨م حتى وقعت في السّجن، ولم أشترك داخل السجن في أيّ نشاط سياسي ولا بايعت بالإمامة أحداً كذلك أخلصت في دعوتي للبدر ولم أفكّر في مصانعة عبدالله أو الحسن؛ تم عارضت بوضوح وصراحة التدخل الخارجي في اليمن ولما تم جلاء القوّات المصرية انعزلت أدعو للمصالحة الوطنية حتى إذا تمّت أقسمت أمام المجلس الوطنيّ عهد الولاء والإخلاص للنظام الجمهوري الذي ترتكز دعائمه على الحق والحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.

نعم لقد جاء عيد الفطر سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م وقمت خطيباً في حفلة الجيش بالحديدة وأنشدت قصيدتي «المجلجلة»:

يحقّ لشعري اليوم أن يتحكّما فتصغي له الدنيا وتحتفل السما

ففجّرت الموقف بالدعوة العلنية للبدر بولاية العهد، وتطايرت أبياتها كألسنة اللهب في جميع أنحاء اليمن وكان «الأحرار الدستوريون» لا يزالون وراء قضبان السجون وبينهم «صبرة» و«السلال» و«المروني» و«الفسيّل» و«المعلمي» و«الأكـوع» و«العنسي» و«الجايفي» و«المطاع» و«الباشا» و«أبوطالب» و«آل الوزير» والعشرات غيرهم فتطلّعوا للفرج مشفقين وتواردت أصواتٌ بعضهم مؤيدين فرحين، ونشرت القصيدة في جرائد «عدن» وأذاعتها محطة «روما»، وقامت لها اليمن ولم تقعد. ولاسيما للبيتين التاليين اللذين لم يغفل حتى البيضاني عن الاستشهاد بهما في كتابه:

إذا لم تكن أنت «الخليفة» بعده وفاءً وشكراً؛ بل قضاءً محتّما
فلا نبضت للشعب روحٌ ولا علت له رايةٌ حتّى يكبّ «جهنّما»

والواقع أني فكّرت ليلة إنشائي للقصيدة وأنا على شاطىء بحر الحديدة أصغي إلى هدير أمواجه الصاخبة بل وإلى ضجيج أمواج الزّمن التي هي أشدّ صخباً وهديراً ــ أن أجمل ما أريد إيضاحه والدعوة إليه في بيتين يسهل حفظهما و يرعبان «المعارض» أو يقنعانه، و يسيران كالمثل السائر، وقد وافاني الحظ، فبلغت ما أريده وما يتطلّبه الفنّ وقد أقلقت المعارضين، وسارت على كل لسان وقلّ أن تجد أديباً يمنياً لا يحفظهما حتى الآن.

وانتشرت البيعة للبدر في عموم اليمن وعاد سيف الإسلام عبدالله من الخارج وكان ما سبق أن أشرت إليه في أجوبتي على «الأسئلة النعمانية»..

١٤ - انقلاب سيف الإسلام عبدالله والمقدم «الثلايا»:

لن يكون الحديث عن «ولاية العهد للبدر» كاملاً واضحاً مفيداً إلاّ إذا تعرضت لذكر



صورة للمقدم أحمد الثلايا بطل انقلاب سنة ١٩٥٥م وهو في ساحة الإعدام ينتظر الموت

«انقلاب تعز العسكري» الذي تزعمه المقدم أحمد الثلايا، والذي لخص مطالب «الجيش» في عدة نقاط أهمها «تنازل» الإمام أحمد عن العرش وتنصيب أخيه سيف الإسلام عبدالله إماماً وقد بادر الأمير عبدالله إلى الموافقة ــإن لم يكن من المدبّرين لها مع الثلاياــ لأنه وأخاه العباس وأبناء إخوتهم أمثال عبدالله ابن الحسن، والحسن بن علي، ويحيى بن الحسين، وبعض الفقهاء والأدباء والضباط ممن كانوا يناصرون عبدالله أو يعارضون «ولاية العهد» للبدر، كانوا يريدون إحباطها في مهدها، وقطع الطريق على «البدر» بطريقة شرعية، وهي تنازل «الإمام أحمد» لأخيه عبدالله تنازلاً شرعياً لا يبقى إزاءه «للبدر» بل ولا لسيف الإسلام الحسن، أي أمل أو مجال لمعارضة.. وقد اندفعوا فيما توهموه وتخيلوه سهلاً ميسوراً اعتماداً على أن الإمام قد أنهكه المرض وفتكت بأعصابه «المهدئات» و«العقاقير» فأصبح غير قادر على التفكير والحركة.. وعلى أن سيف الإسلام الحسن في «القاهرة»، وفي طريقه إلى «باندونج» ليرأس «الوفد اليمني» حسب أمر الإمام أحمد نفسه، وبأن البدر ــكما يظنونــ ضعيف وسيرتبك ولن يكون في مقدوره بعد تنازل أبيه غير الطاعة والاستسلام.. وعلى أن «صنعاء» وفيها المال، والسلاح في قبضة سيف الإسلام «العباس» ولم يحسبوا حساب الإمام أحمد وأنه ربما يتمارض ولسان حاله:

تعارجتُ لا رغبةً في العرج ... ولكن لأقرع باب الفرج

ولا فكروا في «البدر» وأنه قد يقاوم وعنده في «حجّة» مال ورجال وسلاح، بل ولا حسبوا حساب «مصر» وصداقة «البدر» حينذاك للرئيس عبدالناصر، وفي القاهرة حزب «الاتحاد اليمني» ومحمد محمود الزبيري، ويحيى زبارة، وزملاؤهم وكبار الطلبة وقد أعلنوا جميعاً تأييدهم «للبدر» وولاية عهده؛ بل ولا فكّروا في رجال «البدر» وأنّهم لن يستسلموا ويقدموا رقابهم كالنعاج، وفيهم من ينشد لسان حاله:

جاء شقيق عارضاً رمحه ... إنّ بني عمك فيهم رماح

وذات يوم من أيام شعبان سنة ١٣٧٤هـ ــ ٣١/ ٣/ ١٩٥٥م وكان ولي العهد «البدر» قد عاد إلى «الحديدة» وكان من عادته بعد أن يفرغ من أعمال الصباح الذهاب «دورة» إلى إحدى شواطىء «الحديدة» تلك المدينة الجميلة الرابضة منذ قرون تراقب أمواج البحر الأحمر الغنيّ بشتى أنواع الأسماك وكان في الغالب يستصحبني معه على سيارته التي يقودها بنفسه، وكان سبّاحاً ماهراً، وصيّاداً قديراً، وكنت في ذلك اليوم منفعلاً بإحساس داخلي غريب يفعم جوانب صدري بالضيق والقلق، ونزل «البدر» يسبح واعتذرت فقد كانت أفكاري وخواطري تسبح في بحر آخر، وكنت أرى «البدر» يُصَابرُ السّمك ويصطادها، وأنا أفكر في شباك من نوع آخر صيّاداً أو مصطاداً، ولم أصبر طويلاً.. واقترحت على الأمير سرعة العودة إلى «الحديدة» وأنه لا يحسن بنا التأخر عن «المقام» وقال مداعباً: ماذا أصابك اليوم؟ وما الذي يضايقك؟ قلت: لا أدري، ولكنّي قلق. وقال: «دع القلق وابدأ الحياة»، وارتدى ثيابه وامتطينا السيارة، وقبل أن نصل دار

الأمير رأيت مدير البرق والبريد «فيضي الجرموزي» واقفاً في الباب و يشير طالباً الوقوف، وكان «البدر» على عجلة القيادة وأنا إلى جانبه، ووقف «البدر» فدنا الجرموزي واقترب، وهمس في أذن الأمير، وعيناه في عينيّ، وملامح الاضطراب ظاهرة على وجهه قائلاً: «منذ أمس الليل وحتى الآن لم نستطع الاتصال بتعز لا بالسّلك ولا بواسطة «اللاسلكي» وقد حاولت «صنعاء» و«عدن» و«حجّة» فلا يجيب إلاّ «الصمت»، وقال البدر: ولماذا؟ قال الجرموزي: لا أدري فنظر إليّ البدر مبتسماً وقال: ماذا تقول أيّها القلق؟ قلت: ندخل نتحدّث في «المقام» وفي السلّم، سألني «البدر»: ماتظن؟ قلت: لنكمل الحديث مع «الجرموزي» وكرر الجرموزي نفس الكلام دون أية تفاصيل فقال «البدر»: لابد أن «انقلاباً» قد حصل، ولا ندري كيف الإمام؟ قلت: وأنا أعتقد ذلك ـــ وكانت الأخبار عندي قد تكرّرت من قبل القاضي عبدالرحمن الإرياني والأستاذ أحمد نعمان والسيد محمد بن حسين عبدالقادر وغيرهم عن نشاط الأمير عبدالله الكبير ضد «البدر» وولاية العهد وأنصارها وتوزيعه للأموال والهدايا، و بأن الإمام أحمد جد مريض، و يكثر من استعمال «العقاقير» المهدئة للأعصاب، وقد سلم أزمّة الأمور لأخيه عبدالله وزير الخارجية وأصبح هو الحاكم الحقيقي.

وكنت أترقب حدوث شيء بين ساعة وأخرى وإن كنت أكتم كل شيء في قرارة نفسي ولا أزعج بقلقي أحداً من الزملاء ولا حتى الأمير نفسه لكنّني أرتّب في ذهني ما يجب علينا أن نفعله، وأضع عدّة خطط لعدّة احتمالات، وكان السيد أنور السادات قد وصل على رأس بعثة مصرية إلى «تعز» منذ ثلاثة أسابيع مرسلة من قبل الرئيس عبدالناصر وقبل أن يغادرها إلى القاهرة عرّج بطائرته على «الحديدة» لزيارة الأمير «البدر» وجلس معه جلسة طويلة ثم غادر الحديدة في نفس اليوم وأخبرني «البدر» أن السادات كان متشائماً بالنسبة لصحة الإمام وبلّغه أشياء كثيرة وخطيرة عن نشاط الأمير «عبدالله» ضد «البدر» و«المصريين» وأنه على صلة بالفرنسيين وأنهم سيؤيدونه إذا قام بعمل ما وقد رتّبوا وأعدّوا قوة جوية وبحرية في «جيبوتي».

واقترحت على الأمير «ولي العهد» أن يأمر المدير فيضي الجرموزي بكتم الخبر، وأن يعود إلى إدارة البرق، ويمنع وصول أو ذهاب أي برقية إلى أي إنسان ومن أي إنسان في «الحديدة»، و يترقّب الأخبار ما بين «تعز» و«صنعاء» و«تعز» و«حجّة»، و«تعز» و«جيبوتي» و«عدن» و يوافيه بها تباعاً قبل أن يعلم أيّ إنسان فأمره «البدر» بذلك وقال: ستكون مسؤولاً أمام الأخ أحمد الشامي الذي سيكون مسؤولاً أمامي عن كل ذلك..

وكان أول ما اتخذناه تحرير برقيّتين بالشيفرة إلى «حجّة» وكْر الصقور عند الملمات، الأولى إلى نائب الإمام السيد عبدالملك المتوكل يقول البدر فيها: «انقطع الاتصال السلكي واللاسلكي منذ أمس بـ «تعز» وخشية من أن يكون قد حدث شيء فيلزم اتخاذ كل الاحتياطات، فرتّبوا طريق «حجّة ــ صنعاء» وامنعوا من يصل إلى «كحلان» من مغادرتها إلى «حجّة» كائناً من كان قبل الاستئذان منّا.. ورتّبوا القاهرة وسائر القلاع وإذا كان هناك ما يقلق أو حصل لمولانا الإمام شيء

فسأتجه إليكم فوراً وإذا تلقيتم أي خبر أفدتم وشكراً» وأمضاها البدر ومتلها إلى الشيخ يحيى العجّا وكيل السلاح وأمره بالتعاون الكامل مع النائب ثم أمرني بأن الحق بالجرموزي وأشرف على سحب البرقيتين وأظل في اللاسلكي حتى يعود الجواب من نائب حجّة وأن يكون كل شيء تحت إشرافي ومسؤوليتي واقترحت على «البدر» أن يأمر مدير السيارات السيد علي عبدالقادر بتجميع كل السيّارات الموجودة بالحديدة وتزو يدها بالوقود وأن تكون على أهبّة الاستعداد وأن يأمر حرسه الخاص بذلك وكانت الساعة الثامنة بعد الظهر بالتوقيت العربي الثانية مساء وذهبت إلى بيت البرق والبريد وتأكدت من سحب «البرقيتين» إلى حجة بل واستلمت جوابهما وظللت منتظراً وحوالي الساعة الخامسة قبيل المغرب إذا بصمت اللاسلكي يتبدّد وباشارة برقية تنادي: «الحديدة.. الحديدة»، ولم تكن من «تعز» بل من «طائرة» يمنية أقلعت منها في طريقها إلى «الحديدة» وهذا نصها:

مولاي النائب «وكان السيد محمد بن أحمد الباشا»..

سأصلكم مع الأستاذ أحمد نعمان والقاضي عبدالله عبدالإله الأعبري، والقاضي محمد الزهيري والسيد أحمد المهدي قابلونا الآن إلى المطار وشكراً. التوقيع «أحمد» وعرض «الجرموزي» عليّ البرقية فقلت له: اسأل من هو «أحمد» فأجاب المأمور: هو «أحمد محمد باشا» نجل نائب الحديدة، قلت: اسأل المأمور لماذا لا ترد «تعز»؟ فأجاب بعد بضع دقائق كأنه شاور خلالها من على الطائرة وقال: «الجو متغير» و«اللاسلكي معطّل» فعرفت بل تأكدت أن أمراً ما قد وقع، وأخذت «البرقية» وقلت للمدير: لا تبعث بها أو بصورة منها إلى «النائب» وإيّاك أن يعلم أحد بها، ولا تتقبل أي إشارة من أي مخلوق حتى تصلك أوامر جديدة من «وليّ العهد»، قال: وهو كذلك وكانت تربطني به صداقة وثيقة وكان صادق الهوى مع «البدر» وعدت إلى «المقام» وكان سروري بالغاً حين رأيت في ساحته أكثر من عشرين سيّارة نفل و«جيب» مستعدّة عليها سائقوها وحرس البدر بأسلحتهم منتظرين للأوامر، وأطلعته على «البرقية» فقال: وما العمل الآن؟ قلت: سآخذ معي عشرة من الحرس وسأذهب إلى المطار بنفسي فإن كان الإخوان رسل سلام فأهلاً وسهلاً وإلا فسأدبّر الأمر معهم بما يقتضيه الحال فضحك.. وقال: فليكن، وأنت مفوّض ووكّل بها عُمراً ثم نَمْ..

وطلب مدير الحرس وقال: اذهب مع الأخ أحمد إلى المطار واتبع أوامره، وانتق معك عشرة من خيرة الرجال وأظنه سمّى خمسة أو ستة ممن يعرفهم، واتجهت مع «الحرس» نحو المطار وقلت للمدير: ستصل الطائرة وعليها بعض الإخوان وفيهم ابن النائب والأستاذ نعمان فإن نزلوا كضيوف فخيراً وإلاّ يكون اعتقالهم.. ففال: «مرحبا». وكنت أتصرّف تلقائياً كأنني أنفّذ خطة وضعتها منذ وقت بعيد، وبعد عشر دقائق والشمس تدلف للمغيب كانت الطائرة التي تحمل الأسرار والأخبار تهبط في المطار، وانفتح بابها وإذا بوجد الأستاذ نعمان يحمل تلك الابتسامة الجذّابة، ووراءه السيد أحمد الباشا والآخرون، وقد ظهرت علامات الاستغراب على وجوههم وهم يتلفّتون،

لأنهم لم يجدوا «نائب الحديدة» في انتظارهم بل «أحمد الشامي» و«حرس البدر»، ووثب الأستاذ أحمد يعانقني عناقاً حاراً وهمس في أذني «الإمام مغلوب على أمره، انتبهوا»، فهمست في أذنه: «لا تقلق»، وصافحت الأخ أحمد الباشا وإذا به يخرج خطاباً من جيبه معنوناً إلى «البدر» وموقّعاً بإمضاء «أمير المؤمنين الإمام عبدالله» وآخر إلى نائب الحديدة يخبرهم فيها بتنازل الإمام أحمد له عن الخلافة و يأمرهما بالبيعة وأخذها من علماء ومشايخ ووجهاء الحديدة وسائر اللواء وأن يظلّ كل شيء كما هو حتى تعليمات أخرى، وأن كل الأمور طبيعية و يأمر بتسهيل سفر نعمان والمهدي والزهيري إلى «حجّة» لأخذ البيعة من رجال الحل والعقد في تلك الجهات، وقال السيد أحمد الباشا: ليس هنالك ما نخفيه عنك وأنت أول من يطلع على هذا والإمام يبلغك السلام. قلت: أهلاً وسهلاً و«وليّ العهد» ينتظركم، وسنبحث كل شيء مع سموه، قال: وأين «النائب»؟ قلت: سنراه هناك، وركبت السيارة مع الأستاذ وبقية الوفد وفي الطريق لقينا النائب الذي ما إن سمع أزيز الطائرة حتى هبّ إلى المطار وكأن بعض العساكر قد أخبروه بأني خرجت لاستقبالها، وربما أنه كان ينتظرها لكن البرقية المرسلة من ابنه لم تصل إليه كما شرحت، وترجّلنا للسلام عليه وتعانق مع ابنه والآخرين في قارعة الطريق وحرس البدر محدق بهم وأطلعوه على خطاب «الإمام الجديد» وسمعت همساً لا أدري مصدره يقول: «احذروا الشامي فلن يقاومكم أحد سواه»، وقلت: «ولي العهد» ينتظر في المقام وسنكمل الحديث هناك، وسار الركب إلى حيث أودعتهم في «ديوان» المواجهة وأمرت مدير الحرس ألا يسمح بخروج أحد منهم، ومن دخل إليهم فلا يخرج إلا بأمر «وليّ العهد» الذي طلعت إليه وأخبرته بما كان فقال بصوت حزين: وكيف صحة الإمام؟ قلت: يقول نعمان إنّه «معتقل» في قصره، قال: وماذا نعمل الآن؟ قلت: «الأمر إليك» وقد أردت أن أسبر غوره فقال: نجمع كل ما لدينا من قوة ونهاجم تعز الليلة، وقد سررت بهذا الجواب لأنه أشعرني بأنه سيقاوم، بل وسيهاجم، وارتحت أنه لم يفكر في الفرار أو الاستسلام بل في الحرب، فقلت: ليس هذا هو الرأي يا سيدي، فأعتقد أن «صنعاء» ستؤيد «تعز» فوراً ففيها الأمير «العباس» و«إب» ستؤيد أيضاً وفيها النائب «السيّاغي» وتعلمون صلة أخيه «عبدالرحمن» بالأمير «عبدالله» ولا ندري ما سيكون موقف «صعدة» ولا أستبعد أن هناك سابق اتفاق مع «الحديدة» ولا ندري ما قد تفاجئنا به الأحداث والأ يام ولا ماذا سيكون موقف «عـــدن» و«جيبوتي» ويجب أن نضمن «السعودية» قبل كل شيء ولذلك فأرى سرعة النهوض إلى «حجّة» فهي المأرز ومنها نتحرك أحراراً وعلى كل اطلبوا الآن الأستاذ نعمان ليشرح لنا تفاصيل ما كان ثم اطلبوا الآخرين.

وأمر «البدر» رفيقه «عبدالله طميم» بإحضار الأستاذ أحمد نعمان فجاء هاشاً باشاً وهو يبتسم و يقول: لقد كنت في قلق عليكم ولكن: «هذي العصا من تلكمو العصيّة هل تلد الحية إلاّ حيّة»، وتعانق عناقاً حاراً مع صديقــه وتلميذه القديم «البدر» ومرة ثانية معي ووصــف لنا مأساة «الحوبان» وعبث «العساكر» واختلافهم مع بعض المواطنين ثم كيف تطوّر الوضع إلى تمرّد

الجيش بقيادة معلّمه المقدم أحمد الثلايا ونشاط «الأمير الحسن بن علي» الذي قال إنه قد غادر «تعز» اليوم أيضاً إلى «صنعاء» في نفس المهمّة التي جاء الأستاذ مع الباشا من أجلها وربما أنه يحمل تعليمات أخرى وقال: أن الأمير الحسن بن علي يتحرّك وكأنه وراء عمليّة تمرّد الجيش باتفاق مع «الثلايا»، و«عبدالله»، وكأنّه يرشّح نفسه لولاية العهد بعد «عبدالله» قال البدر: وما هو موقف الإمام؟ فأجاب نعمان: يظهر أن الإمام مريض جدّا وقد دخل إليه العلماء القاضي محمد الشامي والسيد قاسم ابراهيم وغيرهم وأخيراً كتب لهم خطاباً يقول فيه: «إنه قد تنازل عن القيام بالأعمال لأخيه سيف الإسلام عبدالله» وأنه مسرور بذلك «وليست إلا اليد اليسرى تنوب عن اليد اليمنى» والبعض قد اكتفى منه بذلك و«الثلايا» و«المتحمّسون» يقولون إن التنازل غير صريح، وأنا عملت الجائز والمستحيل وتوسطت بأصدقائي عند الأمير عبدالله لكي يسمح بسفري إليكم بحُجَة أني صاحب البدر وأستاذه وصديق نائب حجّة وأولاده، وسأقنع الجميع بالطاعة والولاء للوضع الجديد ومبايعة «الإمام الجديد» والحمد لله ها قد تم الأمر وها أنا عند أهلي وأصحابي معكم وشاركنا الرأي بسرعة المضي إلى «حجّة» وإعلان المقاومة.

وطلب «البدر» نائب الحديدة وابنه وبقية الوفد وآخرين من رجال الدولة وقد أظهر الجميع استنكار ما حدث في «تعز» وسألهم «البدر»: وما هو الرأي؟ فقال النائب محمد أحمد الباشا: أنصح بالصبر والتريّث وننتظر يومين أو ثلاثة حتى نرى ما سيعمل الإمام أحمد، وأخشى إذا قمنا بأيّ تصرّف يغضب عبدالله على حياة الإمام؛ والمجانين كثير وأيّد هذا الرأي بعض الحاضرين والتفت «البدر» وكنت واقفاً على «الباب» وقال: وأنت.. ما هو رأيك يا أحمد؟ وقد كان يعرف أن رأيي هو رأيه ـ ولكنه يريدني أن أسمعهم إيّاه وكأنه وليد اللحظة والتشاور. فقلت: نحن بين أمرين لا ثالث لهما؛ إمّا أننا لا نزال ندين بالولاء للإمام أحمد ونستنكر ما قام به الأمير «عبدالله» في «تعز» وإذن فعلينا أن نعلن الاستنكار فوراً ونعمل كلّ ما نستطيع لإحباط هذه الحركة، ونقاوم القائمين بها ويجب أن نغادر «الحديدة» إلى «الجبال» ونثيرها حرباً شعواء كي يُطلق جلالة الإمام وتعود المياه إلى مجاريها، إذ ربما أن الأمير عبدالله نفسه مغلوب على أمره، وإما أن نصدق «التنازل» الذي ذكره السيف عبدالله ونقر ما حدث، وإذن فعلينا أن نتجه صوب «تعز» فوراً ونقدم فروض الولاء والطاعة للإمام الجديد ونقرأ الفاتحة على جثمان الإمام القديم، إذ أن أي تأخّر من قِبلنا سيُعدّ عداءً.

وقال «البدر» بلهجة السّاحر: إن ما عملوه في «تعز» ليس إلاّ لعبة أطفال، وسنقاوم، وسيرون جزاء أعمالهم، هيّا بنا إلى «حجّة» خذ يا أحمد «النائب» و«الأستاذ نعمان» في سيارتي ووزّع الآخرين في سياراتهم، قال «النائب»: و«الحديدة» و«العائلة»؟ قال «البدر»: سيتخلف الأخ أحمد ابنكم هنا بالحديدة، وقد أمرت أن يتولّى «العقيد» حمود الجايفي إدارة الأمن وخولته إعلان الأحكام العرفية إذا لزم الأمر وعيّنت السيد يحيى عبدالقادر نائباً عنكم ويقوم بأعمالكم حتى تعودوا والأمر لن يطول أسبوع أو عشرة أيام، وكان «البدر» أثناء ذهابي إلى المطار

قد أصدر كل تلك الأوامر بخط كاتبه الأول القاضي محمد بن أحمد الجرافي الذي رافقنا أيضاً إلى «حجّة». كما أنه كان قد حرّر برقية إلى نائب حجّة يخبره بأنه سيتجه إليه.. وحدث كل ذلك خلال أربع ساعات لم يُضَيّع منها ثانيةً واحدة.

وغادرنا «الحديدة» بعد «العشاء» وكان «البدر» على عجلة القيادة وأنا بجانبه وخلفنا «النائب» و«الأستاذ نعمان» وغصنا في ظلمات «تهامة» ثم تسلّقنا الجبال، والصمت مخيّم علينا، ووراءنا سرب من السيارات ولم نتحدث في شيء ذي بال اللهم إلاّ بعض نكات أو نوادر نخفّف بها متاعب الطريق... ولم يطلع الفجر إلاّ وقد وصلنا «حجّة» وكنت ـ علم الله ـ أخشى أن يكون «الأمير العباس» أو الأمير «الحسن بن علي» قد سبقنا إليها من «صنعاء» وبدأنا في تحرير «الرسائل» إلى «مشايخ» القبائل وعلماء اليمن نستنكر الحادث ونستنجدهم نصرة الإمام، وإخراجه من معتقل أخيه «عبدالله» ونحذّرهم من تصديق مزاعم التنازل وأراد «البدر» أن يحرّر برقية بالشيفرة إلى «الملك سعود» فاكتشف أنه نسي حقيبة شفره الخاصة «بالحديدة» فاستدعاني وأخبرني، وقال: عليك الآن أن تعزم فوراً إلى «جيزان» ثم إلى «الرياض» لإخبار الملك بما كان واكتب رسالة الآن لأوقّعها وأشرح له كل ما جرى، فاقترحت عليه أن يندب معي أيضا الأستاذ أحمد محمد نعمان وأن يحرّر أيضاً رسالة إلى الرئيس عبدالناصر ويذكّره بما قاله السيد أنور السادات منذ أسابيع عن نشاط الأمير عبدالله وأن ما حدث إنما هو فاتحة «المؤامرة»، ووجودي مع الأستاذ سيكسب تأييد كل اليمنيين في الخارج ولاسيما «الشوافع»، وحزب «الاتحاد» في القاهرة فاستصوب «البدر» الرأي، وطلب الأستاذ وأخبره بأني سأكون معه مندوبيه إلى الملك سعود وسيكون على صلة بنا يومياً بواسطة اللاسلكي وأمر إلى مندوب اليمن لدى المملكة بجدة وكان يومها القاضي حسين بن علي مرفق بأن ينفذ كل ما نطلبه منه وأن يسهل مهمتنا ويعطينا الجوازات إذا فكّرنا في الرحيل إلى «مصر» أو غيرها. كما أمر بإطلاق المعتقلين في «حجّة» ما عدا «آل الوزير».

كل هذا تم صباح الجمعة الموافق ٩ شعبان سنة ١٣٧٣هـ / ابريل سنة ١٩٥٥م وأقبل وقت صلاة الجمعة وخرج «الأمير» في موكبه الفخم وقد توافد الناس أفواجاً من القرى المجاورة، وقام الأستاذ نعمان خطيباً وهو «خطيب اليمن» «المفوه» فألقى كلمة رائعة صوّر فيها الحادث الذي كان له كلّ صفات «الإثم» و«الخيانة» و«البغي» و«النكث» وقال: إن القائمين به قد بغوا على «إمام الحق» وما إن ذكر الإمام أحمد واعتقاله وتعرضه لخطر الاغتيال حتى هطلت دموعه غزيرة تجري على خديه وتبلّل لحيته، وصوته أجشّ كأنه يبكي أيضاً وانفعل الناس وتأثروا وضجّ الجميع يؤيّدون «البدر» وينادون بالموت للخائنين.

١٥ ـ إلى «الرياض» مع نعمان :

واستلمنا الرسائل مع شيفرة خاصة بيننا وبين «البدر»، ومئة حبّة «ذهب»، ومضينا فجر يوم

السبت على سيارة «جيب» يقودها عتيــق الإمام أحمد «بشــير» إلى «حرض» حيث عاملها «المحافظ» شقيق الأستاذ «الشيخ علي محمد نعمان» فتناولنا عنده طعام الفطور.. تم واصلنا السير إلى «جيزان» وكان أميرها من خيرة الرجال وكأنّ أوامر قد جاءته من الملك سعود بأن يترقب الأحداث فأحسن استقبالنا ووصف له الأستاذ ما كان وأننا نحمل رسائل من «ولي العهد» إلى «الملك سعود» فأبرق فوراً إلى الرياض وعاد الجواب أن طائرة خاصة ستصل من «جدة» لتقلّنا إليها ثم إلى «الرياض»، وفعلاً ما إن فرغنا من طعام الغداء حتى كانت الطائرة قد وصلت وأركبونا عليها إلى «جدة» وكان «مطارها» لا يزال صغيراً واستقبلنا فيها المدير «الشيخ ابراهيم الطاسان» وقعدنا معه على أرض المطار وفوق «قعائد» خشبية، حتى وصلت طائرة من «الرياض» فامتطيناها بعد صلاة العشاء وكان الأستاذ نعمان قد روى للمدير «ابراهيم الطاسان» كلّ ما جرى من ألفِه إلى يائه، وعندما كنّا على الطائرة وقد أخذ التعب مني كل مأخذ قلت للأستاذ مازحاً: وماذا أبقيت للملك سعود لقد شرحت لرجاله كلّ ما جرى وإذا رفعوا إليه تفاصيل ما سمعوا منك فماذا بقي من فائدة يجنيها من مقابلتنا؟ فامتعض الأستاذ ثم قال باسماً: هذا والله صحيح أنا عجول كثير الكلام، وهل بقي عندك شيء يبرّر لقاءنا عند مقابلة الملك؟ قلت: خبر وصولكم إلى الحديدة لإلقاء القبض على «البدر» ورجاله واعتقالي لكم في مطار الحديدة فضحك وقال: أمّا عفريت!..

وعند منتصف الليل وصلنا مطار الرياض القديم وما إن انفتح باب الطائرة حتى رأينا الشيخ عبدالله بلخير ينتظرنا باسماً وهو من زملاء الأستاذ نعمان وخاصة أصدقائه فالتفت الأستاذ إليّ وقال: «أمّا هذا فوالله لأرو ينّ له القصّة بحذافيرها»، فضحكت وقلت: أنت وما تشاء وكان عناق حار بين الصديقين وقدّمني إليه وأحسست باطمئنان وود تشعّ بهما عيناه ورحب بنا أجمل ترحيب وأخذنا إلى دار الضيافة وكانت قلعة قديمة مبنيّة من الطوب، لكن غرفها وحماماتها بمراياها وبلاطها مما لا نعرفه في اليمن فانبهرنا بها وقبل أن نأوي إلى الفراش؛ وقد أعطوا كل واحد منا غرفة مونقة وثيرة الفراش ولها حمامها الخاص ونحن بأحذيتنا الممزّقة وغبار الطريق من الحديدة إلى «الرياض» يتراكم على ثيابنا وعمائمنا اليمنية ووعثاء السفر وأتعابه قد أخذت منا كل مأخذ، وكيف وقد واصلنا السفر ثلاثة أيام بلياليها لم نذق فيها طعم النّوم وبينما أنا أستعد للاستحمام وتغيير ثيابي إذ بالأستاذ يقبل عليّ باسماً ويقول: وأين الذهب؟ قلت: أيّ ذهب؟ قال: الذي سلّمه البدر إليك مئة حبة! قلت: تلك لحاجتنا إن أعوزتنا، وإلا أرجعنا الأمانة إلى صاحبها، قال: أقول لك أخرج الصــرّة الآن، واعطني نصيبي، وخــذ نصيبك وبالرغم أنّي رئيســك فسأرضى بالمناصفة، قلت: طيب دعنا الآن نأخذ نصيبنا من الراحة والنوم والصباح رباح، قال: لا. لا. لا... أريد نصيبي الآن، وضحك وهو يقول والله لن أغادر غرفتك حتى أستلم نصيبي من الذهب، قلت: ألا تثق بي إلى الغد؟ قال: لا، أنا لا أثق بأحد وخاصة فيما يتعلق بالفلوس، وفتحت حقيبتي وسلمت إليه الصرّة وقلت: ابقها لديك إلى الغد قال: لا؛ تعال نقتسمها ثم أخذ يفرزها

حبة حبة وهو يقول: هذه «عتمانلي» قديمة تقابلها أختها، واحدة لي وأخرى لك، وهذه «أبو ولد»، وهذه «أبوشيبة» وهذه «حميدية» وهذه «مجيدية» يوزّعها بدقة وإنصاف.

وكانت الصرة تضم كل أنواع العملات الذهبية، ووجدها ناقصة عشراً، فالتفت مستغرباً وقال: ألم تكن مئة حبة؟ قلت: نعم، قال: وماذا صنعت بالعشر؟ قلت أعطيتها لسائق السيارة «بنير»، فابتسم وقال: أحسنت، ولكن أما كان في خمس الكفاية؟ قلت: كلاّ ربما إنه أحوج منّي ومنك إليها، وأخذ نصيبه خمسة وأربعين حبة، وذهب إلى غرفته واستغربت أوّل وهلة ولكنّي تذكّرت «عدن» وحرص الأستاذ على المال وتمتمت أنه الطبع عميم لا تغيّره الأحداث، ولا تؤثر فيه السنون؛ اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل واستحميّت وغيّرت ثيابي واستسلمت للنوم العميق.

الاجتماع بالملك سعود:

وكالعادة —ورغم التعب وطول السهر— لم أنم غير أربع ساعات استيقظت بعدها جمّ النشاط، وبعد صلاة الصبح وكانت الشمس قد بسطت أشعتها على الوجود ذهبت إلى غرفة «الأستاذ نعمان» فلم أجده، وسألت، فقيل لي: لقد خرج مبكّراً على سيارة حكومية، وعدت أدراجي، وتناولت «الفطور» وقعدت أضرب الأخماس في الأسداس وأسائل نفسي إلي أين ترى ذهب «النعمان»؟ وإذا به يقبل معلّقا بسمته الجذّابة تحت أنفه ومعه الشيخ عبدالله بلخير وقال الأستاذ: عفواً يا أخي أحمد لقد أشفقت عليك ولم أر موجباً لإزعاجك حين اتصلت بالأخ عبدالله وطلبت رؤيته لأنّي لم أعد أتحمّل الصبر على الانتظار حتى يأتي إلينا وهو رفيق الشباب والدراسة، وقد طالت غيبتي عنه، ولم أره منذ أكثر من عشر سنوات فذهبت لزيارته إلى بيته منفرداً، وضحك الشيخ عبدالله بأدب جم وقهقه قهقهة وقورة ساخرة لم أفهم معناها إلا بعد خمسة عشر عاما، وسألني: هل ارتحتم؟ فقلت: نعم، قال: موعدكم مع جلالة الملك بعد ساعة من الآن، ثم أخذنا الرسائل وذهبنا إلى قصر الملك الذي استقبلنا بحفاوة ولطف، وبدأ الأستاذ بلباقته يتلو «الاسطوانة» ويكرّر «القصة» التي سمعتها حين حكاها للبدر ثم لأمير «جيزان» ورواها أيضا «للطّاسان» و«عبدالله بلخير»، ثم طلب مساعدة الأمير «البدر» والاتصال بالرئيس عبدالناصر وتحرير برقية إلى الأمير عبدالله يستفسر فيها عن صحة الإمام أحمد.. وأراد أن يطوي الحديث ونستأذن، لكنّي قلت: يا جلالة الملك لقد روى الأستاذ ما حدث في «تعز» وأود أن تسمحوا لي بشرح موقف «البدر» في «الحديدة» وما اتخذه من إجراءات، وما ينوي عمله، وما يريده، إذ لا يعرف الأستاذ عن ذلك شيئا، فأصغى إليّ باهتمام، وشرحت له قصة الخلاف بين الأمراء على «ولاية العهد» وما أخبرني به «البدر» عن محاولة جلالته الإصلاح بينهم والتدخل لتوحيد شملهم عندما زار صنعاء، ثم ما حدث بعد ذلك حين غادر اليمن من مضايقات للإمام أحمد نفسه، وأن معظم طبقات الشعب لا ترتضي بغير «البدر» وليّاً لعهد أبيه، ووصفت له انتباه «البدر»، وحزمه ويقظته، وما اتخذه من إجراءات حين بلغه نبأ الانقلاب بتعز حتى أرسلني إلى المطار لإلقاء القبض

على وفد الأمير عبدالله الذي كان الأستاذ أحد أفراده، وكيف نهدنا إلى «حجّة» ــ وهنا قاطعني الملك ضاحكا ــ وقال: ومنها كان انتصار الإمام أحمد على السيد عبدالله الوزير ــ قلت: وقد كنت مع الأستاذ من أنصار عبدالله الوزير، واعتقلنا الإمام أحمد ثم عفا عنّا، واسترسلت قائلاً: لقد كان وليّ العهد «البدر» يريد أن يبرق إليكم و يشرح كل ما وقع ولكنه تبيّن عند وصولنا «حجّة» بأنه نسي حقيبة شفره الخاصة في مكتبه بالحديدة، وهذا هو سبب إنتدابي بمعية الأستاذ أحمد نعمان إلى حلالتكم، وإلاّ فهو على يقين من تقديركم للموقف، وأنكم «الصديق الصدوق» للإمام واليمن، ولن ترضوا عمّا كان في «تعز» وتبلّج وجه الملك وقال: لقد استغربت حين لم يكتب لي «وليّ العهد» البدر، والآن عرفت السبب والحمدلله الذي وفّقه للحزم وسرعة السفر إلى «حجة» أبلغوه تحيّاتي وتأييد المملكة لجلالة الإمام أحمد وله وقد أجريت اللازم ورتبت الحدود واتصلت بالأخ الرئيس عبدالناصر واتفقنا على تأييد الإمام أحمد وابنه «البدر» وسيصل غداً وفد مصري برئاسة الوزير حسين الشافعي، وقد أمرت وزير الدفاع ووزير المالية والشيخ يوسف ياسين بأن يجلسوا معكم، وتتدارسون ما يلزم اتخاذه، وما تطلبونه و يطلب «البدر» من مساعدات عاجلة، وسرعة تنفيذ ما تقررونه. وانتهت المقابلة، وعندما خرجنا من مجلسه وذهبنا إلى دار الضيافة جاء وزير الدفاع الأمير محمد بن سعود ووزير المالية وكان الشيخ محمد سرور الصبان، وجاء الشيخ يوسف ياسين والسيد جمال الحسيني وغيرهم وتدارسنا ما يحتاج إليه «البدر» من مساعدات وحررنا برقية بالأرقام إلى «البدر» وصفنا له ما جرى وسألناه عمّا يطلبه مستعجلاً من مساعدات، وأن يواصلنا بأخباره وما يجري في «تعز» و«الحديدة» و«صنعاء» وكيف تجاوب القبائل، وفي المساء ذهبنا لتناول وجبة العشاء مع الملك وقد خطب الأستاذ «المفوّه» خطبة رائعة أثنى فيها على الملك سعود وأسرته وفضلها على العرب والمسلمين، وأثناء تناول العشاء استمعنا إلى محطة جديدة اسمها «هنا الحديدة» تحث الشعب اليمني على الالتفاف حول «البدر» وعدم تصديق الأمير «عبدالله» وأن يهبوا لنصرة للإمام أحمد وتجاذبنا أطراف الأحاديث عن اليمن وتاريخها وآدابها. وجاء لزيارتنا بعض المهاجرين اليمنيين وفي مقدمتهم «الاصبحي» وغمرونا بكرمهم؛ عطوراً وأحذية وثياباً، ومشاعر كريمة، وجلّهم من «الحجرية» بلدة الأستاذ نعمان.

تمرّد الصليف:

ووردت إلينا برقية من «البدر» تقول إنه يخشى على ميناء «الصليف» وإن السيد أحمد بن حسين حميدالدين أحد كبار الموظفين فيه قد أعلن تأييده لحركة الأمير عبدالله، وإنه إذا كان هناك أي تدخل أجنبي من قبل «جيبوتي» كما كان قد شاع فلن يكون إلا من «الصليف» ولذلك فهو يرى أن ترسل «مصر» قوارب بحريّة لمراقبة مداخل «الصليف» و«المخا» أيضاً وقال إن قبائل «حاشد» و«بكيل» يتوافدون على «حجّة» مؤيّدين؛ وأنه قد أمر الشيخين «علي محمد نعمان» و«علي محسن باشا» أن يزحفا بقوات على «تعز» وآخرين بالزحف على «صنعاء».

وصول الوفد المصري:

ووصل الوفد المصري برئاسة البكباشي الوزير حسين الشافعي وجلس مع الملك جلسة طويلة ثم عقد معنا جلسة ردّد فيها الأستاذ «الاسطوانة» ببراعة وتوسّع وتدارسنا الوضع وكان الرجل الثاني في الوفد شخصاً سبق أن وصل إلى الحديدة يحمل اسم «محمد مبروك» وقد حمل معه رسالة إلى الأستاذ نعمان من الأستاذ محمد محمود الزبيري وأثناء ما كان يقرأها الأستاذ سألني «محمد مبروك» بعفويّة وصماء وبلهجة مصرية لطيفة قائلاً: «ومن هو هذا الشّاطر الذي اخترع حيلة ولاية العهد للبدر»؟ وعندما سمع الأستاذ السؤال توقف عن مواصلة قراءة رسالة الزبيري وقال مشيراً إليّ: «هذا الشيطان»، فقلت: لا لا.. يا أستاذ لم تكن «حيلة» بل كانت رغبة الأمة، ومحاولة لإنقاذ اليمن من التمزق والضياع، فقال «مبروك» والذي لم يكن اسمه الحقيقي «مبروكاً» بل البكباشي «فتحي الديب»، ومن أهم رجال المخابرات المصرية والذي سيكون لي معه مواقف مثيرة مستقبلاً..

قال: «اليمنيون أذكياء ومحتالون»، وأردت أن أبيّن وجهة نظري وأن أشرح واقع الحال.. لكن رسول الملك سعود وصل يدعونا للذهاب إلى قصر الملك لتناول طعام العشاء على مائدته وقد جلس الأستاذ على المائدة ما بين «الشافعي» و«الديب» ولمحته يسارّ الأخير وقد عرفت أو تخيّلت ما قال له عندما عدنا إلى دار الضيافة وقد تغيّرت لهجة «المبروك» ولم تعد تلك التي تحمل نبرة الصفاء والعفوية والصراحة·ولم يعد يكلّمني إلاّ بحذر وحصافة فثارت شكوكي في الأستاذ ولاسيّما وهو لم يطلعني على رسالة الأستاذ الزبيري إليه، ولا حدّثني عنها وقد أطْلعنا الملك سعود على برقية «وليّ العهد الأمير البدر» وتدارسناها مع مستشاريه ومع الوزير الشافعي وأعضاء وفده واتفقنا على عقد جلسة مشتركه صباح اليوم التالي وبتّ ليلةً ليلاء أضرب الأخماس في الأسداس.. وفي ضحى ذلك اليوم وأظنه يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ١٣٧٤هـ ــ ٥ ابريل سنة ١٩٥٥م ونحن نتهيأ ونتأهب لحضور الجلسة واتحدّث مع زميلي فيما عسى أن نقول، إذ بالمنادي يقول: الملك يطلب «النعمان» على التليفون فهرع الأستاذ مرتبكاً وسمعت صوت الملك سعود يقول: الحمد لله انتصر الإمام أحمد وقضى على الانقلاب، تعال معْ الشامي فوراً، وأسرعنا على سيارة وكل منا واجم يسبح فكره في عالم لا أظنه يشاكل عالم رفيقه، وواجهنا الملك سعود متبلج الوجه مسروراً يقول: لقد فك الإمام أحمد عن نفسه الحصار وخرج على حصانه شاهراً سيفه وألقى القبض على أخيه عبدالله وعلى كل أعوانه والحمد لله رب العالمين وقد تكلّمت مع الأخ حسين الشافعي بأن يواصل رحلته مع الوفد إلى تعز لتهنئة الإمام بالنصر واتصلت تليفونياً بالرئيس جمال فوافق، وسأبعث وفداً يمثلني برئاسه أخي الأمير فهد بن عبدالعزيز وأنتم تكونون مع «الوفد» وستنزلون أوّلاً في «الحديدة» للسلام على «وليّ العهد البدر» وتهنئته؛ فقلت: ولكنه في «حجّة» قال الملك: لقد وصلتني منه برقية الآن أنه سيتوجه إليها وسيكون في انتظاركم هناك وتبدّدت كل مخاوفي وحدثت نفسي قائلاً: «لقد قطعت جهيزة قول كل خطيب» وعدت مع زميلي إلى دار الضيافة نستعد لمغادرة «الرياض» إلى «جدّة» ثم «الحديدة» وأنشدت الأستاذ قول الشاعر:

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغيّر الله من حال إلى حال

ورمقني الأستاذ بنظرات كان لها في نفسي حديث طويل.

١٦ - هدية الملك سعود وذهب الأستاذ للذهب،

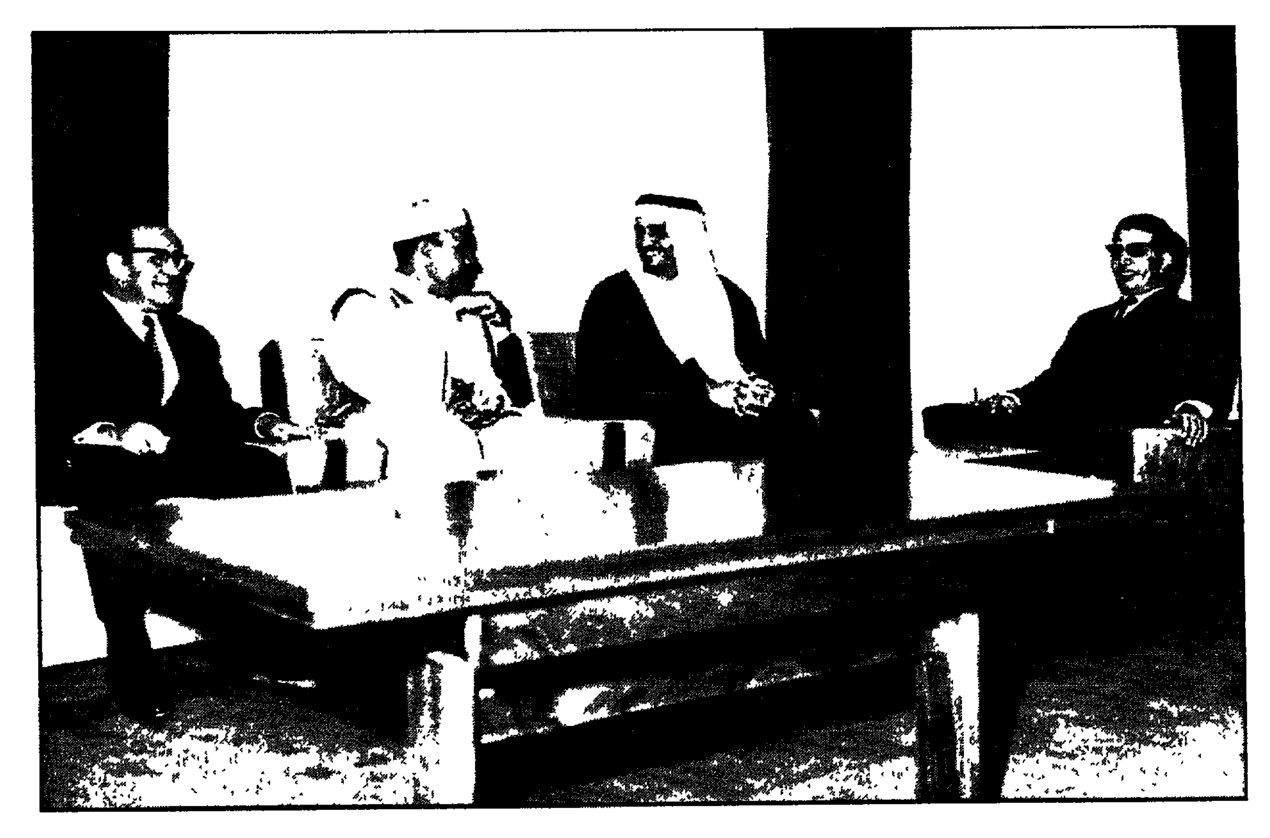
حزمنا حقائبنا استعداداً للسفر وأودع الأستاذ حقيبته لديّ وذهب لمقابلة «المبروك» «فتحي الديب» وما إن خرج حتى أقبل الشيخ عبدالله بلخير وبجانبه رفيق يحمل شيئاً؛ وسألني عن الأستاذ ففلت: ذهب إلى جناح الوفد المصري قال: هذه هدية جلالة الملك سعود لكما بلّغ الأستاذ سلامي وقل له سنلتقي بعد ساعة في «المطار».. وكانت الهدية الثمينة تحتوي على حُلّتين عربيتين وصرّتين في كل واحدة منهما مئتا جنيه ذهب «إنجليزي» إحداهما لي، والأخرى للأستاذ ووضعت الجميع في حقيبتي، وجاء «الفراش» فسلّمته الحقيبتين مع «العفش» الذي يحملونه إلى الطائرة، وجاء الأستاذ نعمان فأخبرته بوصول الشيخ عبدالله والهدية فقال هلِعاً: وأين صرتي؟ قلت: الجميع في حقيبتي، وقد حملوها إلى المطار، فطار صوابه، وقال: ولماذا لم تبقها حتى أعود؟ قلت: خفت أن تتأخر، وجاء «الفراش» يطلب «العفش» لشحنه، قال: «عفش».. «عفش»؟ هذا ذهب يا سيّد أحمد، وأراد أن يقول شيئا لكن مدير دار الضيافة أقبل يستعجل حركتنا وكانوا قد أعدّوا لكلّ منا سيارة، لكن الأستاذ رفض أن يركب على سيارة رئيس الوفد، وظلّ ماسكاً بيدي، وركب في سيارتي وهويتمتم: أين الذهب يا شامي؟ إذا وصلنا إلى المطار فاطلب حقيبتك كأنك نسيت رسالة تريد أن تعرضها علينا في الطريق.. وأخرج صرّتي، قلت: والحُلّة؟ قال: لا، ابقها معك حتى نصل «جدة»، قلت: وإذا كانوا قد أطلعوا «العفش» إلى «الطائرة»؟ قال: والله لن تبرح من جانبي، ولن أترك يدك حتى تسلّم ذهبي، وكم هو؟ قلت: مئتا حبّة ذهب لك، ومثلها لي، ووصلنا المطار ومعنا الوفد المصري وركبنا الطائرة وفي الطريق إلى جدة ظل الأستاذ بجانبي ولم يسمح لي بمغادرة الكرسي وعندما طلبت منه الإذن بالذهاب إلى الحمّام قام معي وظل ينتظرني على بابه، كأنما يخشى أن أتحول إلى أثير وأتسرّب إلى الأفق الأعلى مستبدأ بهدية «الذهب»، وقلت له يا أخي خف الله، الذهب في «الشنطة» وهي مع حقائب كل الركاب في مخزن الطائرة وعندما نصل «جدة» سأسلم إليك نصيبك، قال ضاحكاً: أخشى أن تمكر بي، ووصلنا إلى «جدة» وكان في استقبالنا الكثير من الأمراء وفي مقدمتهم الأمير فهد بن عبدالعزيز [جلالة الملك الآن] ووكيل الخارجية السفاف، وبعض سفراء العرب والمسلمين طبعاً، كان كل ذلك احتفاءً بالوزير حسين الشافعي والوفد المصري ليس بي ولا بالأستاذ أحمد نعمان، وأخذونا على سيارات إلى فندق «الكندرة» وكان لا يبعد عن المطار وكنت قد نويت مداعبة الأستاذ فاستطعت أثناء مراسم الاستقبال أن أتخلّص منه وركبت سيارتي فوصلت إلى «الفندق» قبله بدقائق ودلّوني على غرفتي فدخلتها وأحكمت إغلاقها من الداخل، وأخرجت حلة الأستاذ وصرّته ووضعتهما تحت «الوسادة» وأخفيت حقيبتي تحت السرير وما هي إلا برهة حتى سمعت «الطرقات» العنيفة على الباب فقلت باللغة العربية الفصحى: من بالباب من الشعراء؟ قال: افتح. قلت: من أنت وماذا

تريد؟ قال: أنا أحمد نعمان افتح بسرعة يا سيد أحمد؟ قلت إنني أغيّر تيابي وأريد أن أستحم وأصلّي؟ قال بصوت مرتفع: بلا ثقالة دم، افتح الباب، وإلاّ فوالله لأكسرنّه. وفتحت الباب ضاحكاً، وقلت: أهلاً وسهلاً بالرئيس الجليل، قال: بلاش كلام فارغ أين الصرّة؟ قلت: أي صرّة تعني؟ قال وقد امتقع لونه: «الذهب» «الذهب» ياشامي،أين ذهبي؟ قلت: لعلك جننت أو صدقت ما قلته لك في «الرياض» إنما مزحت عليك وفي وسعك إذا لم تصدقني الا تصال بالشيخ عبدالله بلخير والاستفسار، وإن كان ذلك لا يليق برجل في مثل مقامك، وما إن سمع هذا الكلام حتى انقضّ عليّ كالوحش مكشرا أنيابه، وأحكم قبضة كفيّه على رقبتي وقال: والله لئن لم تعطني «الذهب» الآن لأخنقنّك يا فاعل يا إبن الفاعل وكال لي الشتائم كيلاً فخففت وقلت: طيّب طيّب، اتركني وذهبك وحلّتك تحت الوسادة ولما رفعها ورأى «الصرّة» تنفّس الصعداء وقال: يا ماكريا خبيث يا لئيم.. وهذه أرق وألطف ما صبّه عليّ من الشتائم يومها ثم رمقني بنظرة رهيبة وقال: وما يدريني أنها لا تزال سليمة؟ ومن يقنعني أنهما لم تكونا صرّتين؟ قلت: حسبك الله يا صديقي، ولله درك من زعيم عظيم، وفتحت له حقيبتي وفتّشها فلم يجد فيها غير صرة واحدة بجانب الحلة والخمسة والأربعين «حبّة» التي فرزها لي ليلة وصولنا «الرياض» فاطمأن خاطره وعادت ملامح الرضا واللطافة إلى سحنته، ولكنه فتح صرته وبدأ يعدّ الدنانير ليتأكد من أني لم آخذ منها شيئاً ولُعاب الفرح يتساقط من بين أسنانه على لحيته وأنا أتفرج ضاحكاً.

وتأبّط «الصرّة» و«الحلة» وقال: تعال إلى «غرفتي» حين تستعد، فقلت: ومتى السفر؟ قال: بعد أن نتناول طعام الغداء ولن نبيت إلاّ في «الحديدة» أو في «تعز» هكذا قال لي المرافق. قلت مداعباً: أسأل الله السلامة للأمير عبدالله بن الإمام يحيى، فلولا فعلته التي فعل ما بعثت إلى «الرياض» ونلت ما بجعبتك من «الذهب»، والتفت وقد علّق بسمته الساحرة تحت أنفه وقال: «والله صحيح» نسأل الله السلامة للجميع.

١٧- نصائح الأمير فهد بن عبدالعزيز

وغادرنا «جدة» على طائرتين في إحداهما الوفد المصري برئاسة حسين الشافعي وفي الأخرى الوفد السعودي برئاسة الأمير فهد بن عبدالعزيز وضمن أعضائه الأمير محمد ابن الملك سعود والسيد جمال الحسيني مستشار الملك وركبت في طائرة الوفد السعودي، و بينما كنّا نحلّق في سماء شواطىء البحر الأحمر ونتملّى مناظرها الذهبية الساحرة استدعاني سمو الأمير فهد، وطلب مني الجلوس بجانبه وقال لي: لقد سمعنا بموقفك الحازم بجانب «وليّ العهد البدر»، وأنت تدري ما تعانيه اليمن من و يلات الفقر والتخلّف وأنّ ذلك سيظلّ مدعاة للقلاقل والفتن وقد قيل «كاد الفقر أن يكون كفراً» وأنت تعرف اهتمام المملكة باليمن، وأن يكون جاراً «سعيداً» يظلّل أبناءه الاستقرار والاطمئنان فأرجو أن تتضامن مع إخوانك المخلصين العارفين في تشجيع الإمام والبدر على العمل الدءوب من أجل النهوض بمستوى الشعب اليمني ولاسيما في مجالات التعليم والزراعة والمواصلات والاقتصاد، بإنشاء المدارس



حلالة الملك فهد بن عبدالعزيز وعن شماله الفريق حسن العمري وعن يمينه المؤلف فالأستاذ محسن العيني بجدة.

وابتعاث التلاميذ إلى مصر وغيرها وإقامة المشاريع، وتعبيد الطرقات، وأن يهتمّ ـ وليّ العهد البدر ـ نفسه بتبنّي ذلك وستكون خير دعاية له، ومن الحكمة أن يجري كل أعماله و يصدر كل تعليماته وأوامره باسم جلالة والده الإمام لكي يكسب رضاه ولا يثير في قلبه أيّ شك، ولا يترك لدعاة الإفساد مجالاً للدسّ عليه وعلى أصحابه وأنت في طليعتهم ثم قال: ولأنني أعرف قلّة إمكانيات اليمن فإنني شخصياً بل ورسمياً ـ وكان يشغل حينذاك منصب وزير المعارف ـ إلى أنه أبرز أمير نشاطاً وثقافة ومركزاً بعد ولي العهد يومئذ الأمير فيصل بن عبدالعزيز ـ أؤكّد لك أن المملكة لن تبخل بأية مساعدة مالية لليمن حكومة وشعباً أرجو أن تؤكد هذا لسمو الأمير البدر وألا يتلكأ عن طلب ما يريده من عون مادي إلى كلام كثير كلّه نصح وإرشاد للإمام والبدر واليمن واليمنيين وقد أكبرت ذلك فيه ووعدت سموه بأن أبلّغ «الرسالة» وأن أعمل جهدي وكان أول لقاء لي مع «الأمير فهد» وقد تطوّر إلى صداقة عريقة صادقة استمرّت حتى اليوم وقد أصبح «ملكاً».

وهبطت الطائرتان مطار «الحديدة» البدائي وكان غاصاً بالمستقبلين وكنت أتوقع أن أرى «البدر» غير أني لم أر من نافذة الطائرة إلا نائب الحديدة محمد أحمد باشا و بقية أعيان وتجار وكبار الموظفين من عسكريين ومدنيين وسألت النائب: وأين وليّ العهد؟ قال: وصل منذ ساعتين متعباً وهو ينتظركم في داره ثم ستواصلون السير إلى «تعز» حسب أمر الإمام، وفي «دار البدر» جلس الأمير فهد والوزير الشافعي ـ بعد السلام والعناق وتبادل التهاني ـ مع الأمير جلسة خاصة اغتنمت أثناءها الفرصة فذهبت لزيارة زوجتي وإخبارها بأننا سنواصل السير إلى «تعز» وقد سرّت بمقدمي، وعلمت أن ما حدث سيغيّر موقف الإمام مني، وسترتفع منزلتي لديه، وسأفتح صفحة جديدة في تاريخ حياتي، وغيّرت ثيابي وسلّمت إليها «هدية الملك سعود» ونصيبي من مصاريف الرحلة، وعدت إلى «دار وليّ العهد» وتحدثت معه حديثاً قصيراً ثم ودّعناه إلى «المطار» ومنه إلى «تعز» في رحلة استغرقت حوالي نصف ساعة وفي «مطارها» وجدنا كبار رجال الدولة من عسكريين ومدنيين ومن جملتهم أعضاء البعثة العسكرية المصرية.

واتجهنا إلى دار الضيافة وفي الطريق إليها حدثني الأصدقاء بأنباء نصر الإمام، وقصة خروجه من قصره، ومهاجمته لمقر أخيه «عبدالله» وأن اليومين السابقين كانا من أرهب الأيام رعباً، تطايرت فيها رؤوس كثيرة وأن الإمام أحمد نفسه يحضر حفلات الإعدام في ميدان الجيش الذي يطل عليه مبنى وزارة الخارجية حيث فيه المعتقلون من إخوانه وأولادهم وسائر من تعاون معهم في تدبير الانقلاب.

وسألت: وأين المقدم أحمد الثلايا؟ قالوا: قبضوا عليه بعد ظهر اليوم وهو يحاول مغادرة الحدود و يقال إن الإمام سيعدمه غداً الجمعة.

١٨ - مقابلتنا للإمام وخطبة الأستاذ:

ولما اطمأنيت على استقرار الضيوف في أماكنهم المعدّة وكان الوقت عصراً قلت للأستاذ نعمان:

لعل من أوّل واجباتنا الآن الذهاب فوراً إلى مقام الإمام لإخباره بما كان ولترتيب مقابلة الوفدين، واتجهنا إلى «العرضي» ودخلنا على «الإمام أحمد» ومجلسه غاص بالعلماء والكتّاب ووقف الأستاذ أحمد خطيباً وبعد التحيّة أنشد أبيات الزبيري المشهورة:

العرش عرشك لا سواك ولن ترى — أحدا إلى آفاق عرشك يرمق
وإذا استرى قوم به قلنا لهم — هذي السما فثبوا إليها وارتقوا

وكنت أتوقع أن يقف هنا وألا يطيل ولكنه واصل الإنشاد قائلاً:

ربّتْكَ أمتك التي ترجو بما — صنعته مجداً في يديك يحقّقُ
ونشأت في أجفانها وقلوبها — تخشى عليك من النسيم وتشفق
أفهل تراها بعد هذا كلّه — ترضى سواك لعرشها يتسلّق؟
هذا لعمركم المحال ولن ترى — شعباً على خيط المحال يُعلّق

فلما وصل إلى قوله:

طِر حيث شئت بنا فإنّا معشرٌ — سنطير إثرك في العلى ونحلّق

ضحك الإمام وقاطعه قائلاً: أمّا أنت فقد «طرت» إلى «هناك» وكأن الأستاذ «الخطيب المفوّه» عرف مغزى اعتراض الإمام فصمت وارتمى يقبّل يديه، وسلمت عليه أيضاً وجلسنا أمامه، فسألنا عن الحال والسفر وتركت الكلام للأستاذ فذكر له أسماء الوفد واستقبال «وليّ العهد البدر» لهم في الحديدة وكنت أنتظر أن يردّد «الاسطوانة» التي أسمعها «البدر» ثم «أمير جيزان» و«الطاسان» و«بلخير» و«الملك سعود» و«حسين الشافعي» وقد كدت أستظهرها من كثرة سماعي لها لكنه لم يفعل، فقلت: دعوا الأستاذ يا مولاي يخبركم بما كان من تمرّد العسكر في الحوبان حتى وصل «الحديدة» و«حجّة» و«جيزان» و«الرياض»، وتطلّع الإمام بعينيه المشعّتين ونظراته المؤثرة.. والأستاذ نعمان ذو بديهة ولباقة، فعرف ما أرمي إليه وأني أداعبه فالتفت إليّ وقال: لم يحصل شيء لا يعرفه مولانا وما وصلت مع وفد «تعز» إلى الحديدة إلاّ ورسول «البدر» «الشامي» في «المطار» مع ثلّة من «الحرس» كرسُونا في السيارات إلى «المقام الشريف» فقهقه الإمام أحمد قهقهة عالية.. وقال: «وكيف كان ذلك يا ولد «أحمد»؟ فوصفت له ما كان مما ذكرته سابقاً إلاّ أني أردت أن أنفع صاحبي «البدر» فجعلت كل ما عملته أو اقترحت عمله صادراً عن أوامره ورأيه، وأطنبت في وصف شجاعته ومحبته وإخلاصه للإمام وكيف أنه فكّر أوّل ما فكر في حياة الإمام وصحته وأن ذلك كان أول سؤال وجّهه إلى الأستاذ نعمان ـــ والأستاذ يقول: نعم. نعم ـــ ثم إن أول ما خطر له أن يعمل هو مهاجمة «تعز» في نفس الليلة لإنقاذ «الإمام» والقضاء على «الانقلاب» وقد أظهر ارتياحه وبهجته، وقال: الحمد لله رب العالمين. وعدنا إلى دار الضيافة وقد وعدنا الإمام بأنه سيرى الوفد أوّلاً بعد صلاة الجمعة ـــ اليوم التالي ـــ في جامع العرضي؛ ثم سيتم ترتيب مقابلة كلّ على انفراد إن شاء الله وأن أتفاهم مع مساعديه «الخصوصيين» والمسؤولين عن ترتيب استقبالاته وقال: عندنا أولاً حفلة قطع رؤوس في

الصباح ، فوجم الجميع لا يدري أحد من سيختار.

الأستاذ والذهب :

وعدت أدراجي إلى دار الضيافة مع زميلي الأستاذ وأردت الإمعان في مداعبته ، فسألته : وماذا نصنع بالذهب الآن؟ فاصفر وجهه وقال : أيّ ذهب؟ قلت : هدية الملك ومصاريف الرحلة ، فقال باسماً : أمّا إنك شيطان فأنت شيطان .. ولماذا هذا السؤال؟ وماذا تريدنا أن نصنع برزق ساقه الله إلينا ؟ قلت : الذهب الذي سلّمه إلينا « البدر» وهو تسعون ديناراً يخصّ بيت مال المسلمين وعلينا أن نعيده إليه .. وهديّة الملك سعود ... إذا كنت ترى أنها « غنيمة » فعلينا أن نخبر الإمام بها ونسلّم خمسها إليه ؛ قال : « بلاش كلام فارغ » وأنا أعرف أنك قد كنزت رزقك عند أهلك بالحديدة ، واكتم الخبر عن كل إنسان يا أحمد كن عاقلاً ، فأهل اليمن مشهورون بالحسد ، ودعنا نرتّب رحلة أخرى لنظفر من أولئك الكرماء آل سعود بهدايا ننفع بها ذو ينا وأهلنا ونعوض ما فاتنا من عمر في الغربة والسجون.

١٩ ـ خطبة نعمان في جامع العرضي وقصيدتي :

بقيت صباح الجمعة في دار الضيافة مع الوفدين وطفت معهم بعض ضواحي تعز « عصيفرة » وما صاقبها و بلغني عند العودة أن رؤوساً قد طارت ولا أذكر الآن من كان الأ ول ومن المتأخر غير أن ضمن الذين كانوا قد قتلوا إلى ذلك اليوم القاضيان يحيى السيّاغي وأخوه حمود ومحسن الصغر والحاج با كر والغولي والجدري والمطري والدفعي ومعصار والجناتي و بطل الانقلاب أحمد الثلايا وقالوا إن الإمام أحمد قد حضر حفلات إعدامهم وكان يقتلهم وزملاؤهم ـ و بينهم ـ القاضي عبدالرحمن الإرياني والسيد محمد بن حسين عبدالقادر وغيرهم يتفرجون وكل ينتظر دوره و يتوسل إلى الإمام ، وأنه كان يتحدّث مع بعضهم في شكل محاكمة وأنه عندما وصل دور أحمد الثلايا دار بينه و بين الإمام الحوار التالي :

ــ الإمام : ألم أحسن إليك و بعثتك إلى العراق للدراسة ؟

ــ الثلايا : نعم .

ــ الإمام : ألم أعمر لك داراً وأجعلك قائد حرسي ومعلّم الجيش ؟

ــ الثلايا : نعم .

ــ الإمام : ألم أضع فيك ثقتي ولم أردد لك طلباً ؟

ــ الثلايا : نعم .

ــ الإمام : ألم تكن رفيقي في السفر والإقامة ؟

ــ الثلايا : نعم .

ــ الإمام : ألم تجحد إحساني ، وتخن ثقتي وتغدر بي ؟

ــ الثلايا : صمت .

ــ الإمام مخاطباً الجماهير: هذا الثلايا ، أحسنت إليه وربّيته وعلمته وقرّبته ، ثم جازاني بما تعلمون فما هوجزاؤه يا ناس ؟

ــ أصوات : الإعدام . الإعدام . الإعدام . .

ــ الإمام : اضرب عنقه يا وشاح . .

ــ الثلايا : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله . . ثم مدّ عنقه وطار سيف « الوشاح » برأسه ، وهكذا كانت معظم حفلات الإعدام ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنّا إليه راجعون .

و بعد أن تناولنا طعام الغداء رافقت مع الأستاذ الوفدين على السيارات إلى جامع العرضي و بعد أن أدينا صلاة الجمعة بحضور الإمام أحمد قام الأستاذ أحمد نعمان وارتقى « المنبر » وأنا أتمتم في أعماق نفسي : يا ليته لم يفعل ، اللهم وفقه إلى قول الصواب ، وحمد الله وأثنى عليه ثم بدأ في كيل المديح والثناء على الإمام و يا ليته اكتفى بذلك . . لكنه بدأ يلوم الخونة والمجرمين ودعاة الشقاق والذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الأرض الفساد ، ثم بدأ يدعو الشعب إلى الطاعة والولاء في السرّ والعلن لأمير المؤمنين وإمام المتقين ، وعدم الإصغاء ، والاستماع إلى ما يقوله الجاحدون ، وعدّد نعم الإمام وحكومته على الشعب اليمني ثم أرسلها مدويّة مجلجلة يخاطب الإمام أحمد ــ و بحضور الوفدين ــ يحذّر خصومه أينما كانوا ، و بعضهم قد ضربت أعناقهم و بعضهم في السجون ينتظرون الموت و بعضهم مشردون في الآفاق بالآية الكريمة : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنُغرينَّكَ بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلاً ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » [الأحزاب/ ٦٠ ــ ٦١ ــ ٦٢] . وتوسّع ما شاء له بيانه وما أسعفته فصاحته وهو الخطيب المصقع ذو اللسان السليط الطويل ، و بعد أن نزل من المنبر سلّم على الإمام وهويقول له : « لا فض فوك » ، وتصافح مع الوفدين وركب في موكبه إلى دار العرضي ، ورافقت مع الأستاذ « الوفدين » وقلبي يقطر ألماً ،و يكاد أن ينفطر أسى وحزناً وتعمدت أن أركب في سيارة الوزير حسين الشافعي وأن يصاحب الأستاذ نعمان سمو الأميرين فهد ومحمد بن سعود ولم أستطع أن أصابر نفسي بل سألت الشافعي : وهل أعجبتكم خطبة الأستاذ ؟ وهل هذا التحريض على القتل وسفك الدم هو كل ما تفتقر إليه اليمن في هذا الظرف الرهيب ؟ وهل هذا هوما يحتاج إليه الإمام أحمد من النصح والإرشاد ؟ ونظر إليّ الوزير البكباشي حسين الشافعي ــ كأنه يواسيني ، وقال : إن الأستاذ يريد أن يكسب ثقة الإمام ، وأن يسدّ كلّ « الثقوب » فقلت : حتى ولو سدّ كل ثقب برأس شهيد يا معالي الوزير؟ فوجم ، وكنّا قد وصلنا دار الضيافة ، وعرفت أن القوم في واد وأنا في واد ، وصمّمت على أن أكون حذراً وألا أكرر ما قلته للشافعي على مسمع إنسان ، إلاّ أني قلت للأستاذ : لم تكن في حاجة إلى أن تقول ما قلته يا أستاذ ، فقال : إنما أحاول بذلك كسب ثقته ، فتأكدت أنه قد دبر الأمر مع الوزير الشافعي ، أو أنه قد أوهمهم أن ما سيفعله هو الخير والصواب له ولأصحابه وانطويت على نفسي حزيناً . ولكنني لا أستطيع أن

أنكر أني قد خفت وضَعُفَتْ أعصابي وتشككت في نفسي، وقلت ربما كان الشافعي ونعمان على شيء من الحق، وأنّ نعمان إذا كسب ثقة الإمام أحمد استطاع على الأقل أن ينقذ البقية الباقية، وأن يدفعه إلى تبنّي سياسة الإصلاح والنظام، وأن يشجعه على تشكيل حكومة مسؤولة تحت رئاسة وليّ العهد البدر، وتضم الأخيار والأبرار من العلماء والمثقفين، ثم توغّل بي الضعف البشري فقلت لنفسي الأمّارة: وماذا سيكون تأويل صمتك وأنت الشاعر؟ إن الإمام لن يرضى عنك، وقد يعيدك إلى السجن، يجب أن تقول قصيدة كما أنشأ «نعمان» خطبة واكتنفتني الخواطر والوساوس ولم أنم تلك الليلة إلاّ وقد نظّمت رائيّتي وأنشدتها الإمام في مجلسه عصر اليوم التالي والرؤوس ما تزال تطير، غير أني لم أحرّضه على القتل، ولا أفزعت خصومه، وإنما مدحته وأغرقت في المديح، ومجدت ابنه صديقي «البدر» ثم شكرته على العفو والإحسان إليّ وإلى غيري من المساجين معرّضاً بأن ذلك هو الذي سيقطف ثمرات خيره عند الله والتاريخ وكان مطلع القصيدة ما يلي:

قف خاشع الطرف إجلالاً وإكباراً ... واخفض جبينك إذعاناً وإقراراً
واغمس يراعك في قلب البيان وصُغ ... آيات إبداعه لحناً، وأشعاراً

ومنها في مدح «الإمام» ومواقفه البطولية:

يطوي و يفترش الغبراء مغتبطاً ... بها، و يقتحم الأشواك والنارا
والبيد كم خبر تروي زابعها ... عنه، وكم تنشد الكثبان أشعارا
وكم له ذكريات في مفاوزها ... تحكي صداها نجوم الليل أسمارا
إذا دجا الخطب شقّ الهول صاعقة، ... وصافح الموت والأرزاء بتّارا

ومنها في وصف موقف ابنه «البدر»:

ثبتّ وحدك في الميدان ممتطياً ... عزماً لو انهارت الأفلاك ما انهارا
وفزت وحدك لم تترك لمجتهد ... مجال عونٍ ولا استنجدت أنصارا
وكانت الأرض قد قامت قيامتها ... ودمدم الأفق أهوالاً وأخطارا
وأسرع «إلبدر» بالأجناد يحشدها ... و يبعث الأسد من قحطان ثوّارا
وصاح في القوم صوتاً ساقهم قدماً ... إليك يقتحمون الهول موّارا
«والبدر» ليث وغى إذ أنت والده ... وكنت أنت الذي ربّاه مغوارا

ثم ذكرته بعفوه عنّي وإطلاق سراحي رغم معارضة «إخوته» كما عفا أيضاً عن الأستاذ أحمد نعمان وغيره وكأنني أقول له إن إحسانه لم يُجْحَد وإنه كان سبب وقوفنا مع ابنه «البدر» وسعينا في سبيل إنقاذه، ومغزاي هو تحبيب العفو إلى نفسه وحثه عليه فقلت:

فدتك نفسي التي أحييتها كرماً ... وصُنْت عزتها بالجود مدرارا
تعفو وتصفح لا عجزاً، ولا حمقاً ... لكن حناناً وإكراماً، وإعذارا
وكم أحاطت بمغرور جرائره... ... فبات في لهوات اليأس محتارا

وذاب كـل رجـاء في خـواطـره وشـاهـد المـوت ألـوانـا وأطـوارا
وذاق كـل عـنـاء مـن مخـاوفـه وصـارع الـرعـب أسقاماً وأفكـارا
وكـاد يـلـقـي بـقـايـا روحـه مزقاً يـسـتـفـهـا الليـل أحزاناً وأكـدارا
كـشـفـت عـنـه ظـلام اليأس فانبثقت مـن حـولـه الأرض آمـالاً وأنـوارا
وراح يـقـطـف حـتـى مـن مـصـائـبـه وذكـريـات أسـاهـا الزهـر والـغـارا

وحين تقدمت أصافحه ضغط على كفّي وقال: أحسنت وأبلغت، وأخذ القصيدة وقرأها وحين فرغ من قراءتها رمقني وقال: « لا فضّ فوك ».

وأودّ أن أكرّر ما سبق أن أكدته مراراً، بأنني في تذكّراتي هذه لا أباهي بموقف ما، ولا أندّد بموقف ما، ولا أُخطّي أحداً، أو أمجّد أحداً، ولكني أذكر الأحداث كما وقعت وكما شاهدتها لأنها حدثت ولأني شاهدتها، وأما التخطيئة أو التصويب فليس من رغبتي ولا من واجبي.. ومرجع الجزاء والحساب لربّ البشر وخالقهم ومميتهم فهو وحده الذي يعلم النيات، وإنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرء ما نوى.

٩ ـ مقابلة الإمام لوفدي التهنئة وإعلان ولاية العهد رسمياً:

رافقت صباح اليوم التالي وفد المملكة العربية السعودية برئاسة الأمير فهد وقد رحب بهم الإمام وشكر موقف الملك سعود وحكومته وأمضى معه حوالي ساعة وصف فيها ما كان يعانيه من أمراض «الروماتيزم» ثم قال ضاحكاً: وقد اكتشفت لداء «الروماتيزم» علاجاً شافياً، فقال الأمير فهد: وما هو يا جلالة الإمام؟ قال الإمام: «الانقلاب العسكري» وضحك الجميع، وحضر المقابلة أيضاً الأستاذ نعمان وكانت خالية من التكلف والإمام يتدفّق حيوية ونشاطاً، وهمس السيد جمال الحسيني في أذني: نريد أن نجعل هذه المقابلة سلام وداع أيضاً قلت: لا أظن الإمام يمانع وعندما استأذنوا بالانصراف ووقف الإمام يودّعهم، قال الأمير فهد: نحن نعرف ونقدّر مشاغل جلالتكم ولهذا نريد أن نستأذنكم، وبأن تكون هذه التحية سلام الوداع، فابتسم الإمام وقال: كيف هذا؟ ما سلّم حتى ودّع، ولكن حسب راحتكم، والبلاد بلادكم، وأنتم بين أهليكم وأحب أن تمرّوا في طريق عودتكم على «الحديدة» وتستصحبوا أخاكم الولد «البدر» مع «الأستاذ» و«الولد أحمد» الشامي ليقوموا بواجب الشكر لأخي الصديق الصدوق جلالة الملك سعود حفظه الله، قال الأمير بأدب جم: نحن تحت أمركم وأهلاً وسهلاً، وعدنا إلى دار الضيافة والسيد جمال الحسيني ذلك الشيخ الوقور الحكيم الرصين يفيض بهجة وسرورا لأن الإمام قد أذن بالسفر، وقال لي في الطريق: أرجو ألا نتأخر غداً، وأن تطلب من جلالة الإمام أن يأمر «سمو وليّ العهد» البدر بأن يكون مستعداً، فلا نريد أن نبيت غداً إلا في «جدة» وكنت أقدّر مشاعره فدار الضيافة ليس فيها ما يليق بأمثالهم من وسائل الرفاه والعيش الهني إلى أن الجو متوتّر، والخوف يخيّم على ربوع البلاد، وحفلات الإعدام تعزف موسيقاها الموحشة صباح كل يوم، فقلت له: سوف أرتّب كل شيء إن شاء الله.. قال: بارك الله فيك..



صورة للإمام أحمد مع الملك سعود في صنعاء

وكان الوزير حسين الشافعي و«المبروك» فتحي الديب و بقية الوفد المصري مستعدين كي نرافقهم لمقابلة «الإمام» وقد تعمّد الإمام أن يقابلهم في غرفته الشرقية المطلّة على «ميدان الجيش» والتي كانت هدفاً للقذائف حين تبودل إطلاق النار بين الإمام و بين عساكر الانقلاب، وآثار الشظايا في سقفها وجدرانها، وعلى أرضها لا تزال مختلطة بالتراب، والمدخل إليها يجتاز درجاً ضيقاً لا يليق بأن يكون مجازاً لدار كاتب صغير فضلاً عن ساحة غرفة إمام أو ملك. و وقف لهم الإمام هاشاً باشاً و بعد التحيات والتهاني بالنصر والظفر التي نقلها «الشافعي» بالنيابة عن فخامة الرئيس جمال عبدالناصر أعاد وكرّر عليهم بأسلوب أكثر رصانة وأبلغ بيانا بعض ما كان قد حدّث به سمو الأمير فهد والوفد السعـودي ثم أورد نكتة داء «الروماتيزم» والعلاج الشافي وهو «الانقلاب العكسري» وضحك الشافعي طو يلا، ثم قال: أنت وعرٌ يا جلالة الإمام، ونطق لفظة «وعر» مفخّمة الواو والراء فلم يفهم الإمام معناها وأصغى قائلاً: أنا ماذا؟ فأعاد الشافعي القول فلم يفهم أيضاً، فاعترضت خوفاً من سوء التفاهم، وقلت: يقصد الوزير «وعر» باللهجة اليمنية المرقّقة» وزدت: يقصد «صعب المراس» فضحك الإمام وقال: «الشافعي» «إمامي»، وقد صلّيت وراءك يوماً صلاة الجمعة، فاستغرب الشافعي وقال: متى؟ قال الإمام: هنا في هذا المكان، كنت «مريضاً»، واعتذرت عن الخروج لأداء صلاة الجمعة في «المسجد الجامع» وفتحت «الراديو» فإذا بي أسمع التلاوة من «القاهرة» ينقلها عن مسجد «سيدنا الحسين» وعندما أذّن للصلاة أعلن المذيع أن الذي سيلقى خطبة الجمعة السيد حسين الشافعي، ثم بعد ذلك كنت «الإمام» للمصلين فأقمت الصلاة معكم أومىء بالركوع والسجود ولهذا قلت: إن «الشافعي» إمامي، وقد اجتزت بفكري المسافات، وكأنني كنت حاضراً في مسجد سيدنا الحسين»، قال «الشافعي»: لقد كان هذا منذ بضعة أشهر، قال الإمام: نعم، قال: «الشافعي»: وماذا كان موضوع الخطبة يا جلالة الإمام؟ ولمعت عينا الإمام وفكّر لحظة ثم قال: كان فيها ما يُشبه التعريض أو الهجوم على «الإخوان المسلمين» فقد كانت الأزمة بينكم و بينهم على أشدّها. ثم دارت بعض أحاديث المجاملة وشكر الإمام موقف الرئيس جمال وإذاعة صوت العرب من انقلاب أخيه عبدالله وأنه كان يغتبط بتعليقات أحمد سعيد، وتنديدات القاضي محمد محمود الزبيري بالانقلاب والقائمين به، وتأييدهم لابنه «البدر» وطلب منه أن يحمل شكره الجزيل للرئيس جمال وللحكومة المصرية واستأذن «الشافعي» وطلب أيضاً أن يكون سلام الوداع، وعدنا إلى دار الضيافة و بعد تناول طعام الغداء ذهبت مع الأستاذ إلى مقام الإمام لترتيب سفرنا إلى «الحديدة» وأخبرته بما طلبه السيد جمال الدين الحسيني وأنه يرجو الإمام الكتابة إلى «وليّ العهد» أن يكون جاهزاً للسفر معهم، ودارت أحاديث شتّى و وصف الإمام كيف اتصل بالجيش رغم محاصرة حرس الانقلاب له، وقال إنه كسر ماسورة الماء و بعث يطلب مهندس ـــ وهو يمني ـــ لإصلاحها فأذن الأمير عبدالله شريطة أن يدخل معه إلى الدار مراقب من الجند حتى لا يخلو بالإمام، وعندما كان المهندس مشغولاً بإصلاح الماسورة دار بين الإمام والجندي الحوار التالي كما رواه لنا الإمام أحمد:

ــ الإمام: من أين أنت؟

ــ الجندي: من بني مطر.

ــ الإمام: من أيها؟

فذكر له العزلة والقرية ــ ولا أذكرهما الآن ــ فذكر له الإمام اسم الشيخ والعاقل والعامل والحاكم ومأمور البرق كأنه أحد أفراد العزلة نفسها، وكان يتمتع بحافظة واعية لم أعرفها في سواه، ثم قال: الله المستعان، تغدرون بإمامكم، وتطلقون على بيته النار؟ وأين المروءة وأين الوفاء؟

ــ الجندي: لسنا كلّنا راضين ولكن ما نفعل؟ نحن ننفّذ أوامر.

ــ الإمام: الله سينصر الحقّ والباغي والناكث سيلاقي جزاءه.

ــ قال الإمام وهنا اصفرّ وجه المسكين وقال: والله يا مولانا إن الكثير غير راضين وإن التدبير تدبير الضباط والمعمّمين.

قال فقلت له: أخبر أصحابك يكونون مستعدّين وسيصلكم الخبر الشافي واحذر أن يعرف أحد من الأمراء ما دار بيننا من كلام، قال الجندي: مرحباً.. وعندما أكمل المهندس إصلاح الماسورة وذهب، كتبت رسالة إلى «المِحْجَاني» المسؤول عن قلعة «القاهرة» المطلّة على «تعز» و«العرضي» حيث «أخي عبدالله» وأصحابه وقلت له في «الرسالة»: إذا كنت «المِحجاني» صاحبي الذي أعرفه في «حاشد» و«برط» و«الزرانيق» فأجب على هذا، وإن كنت قد تغيّرت فاللقاء يوم النشور والسلام»، وفي اليوم التالي كسرت الحنفيّة، وطلبت المهندس فأرسلوا نفس المهندس اليمني، ولكن مع جندي آخر يراقبه، ودار بيني و بين الجندي نفس الحديث السابق إلا أن هذا كان من «الحيمة» وكان أكثر ذكاءً من أخيه وقال: والله إنّك في قلب كل واحد، وإني فرحت عندما أرسلوني مراقباً على «المهندس» لأجل اطمئن على صحة مولانا، قلت له: الفرج قريب وسأعتمد عليك على منفعة، قال: أنا تحت أمركم، قلت: خذ هذا الخطاب إلى «المحجاني» واستلم جوابه، قال: وإلى من أسلّم الجواب؟ فناديت المهندس «أحمد» وقلت: أحضر «المصحف»، فأحضره من «الصفيف» وهو يرتعش، قلت له: لا تقلق، أنا أعرف أنكم جميعاً مغلوبون على أمركم ثم وضعت كفّ كل واحد على كف صاحبه وحلّفتهم اليمين «الزبيرية» ألا يفشي أحدهما سرّ الآخر وأن يسلم «الحيمي» جواب «المحجاني» إلى «المهندس» و يكون بذلك أدّى واجبه ولا يخبر أحداً بل يخذّل العساكر و يبشرهم بالفرج القريب، وألا يعملوا شيئا إلاّ وقت «الصيحة» من «الدار» فأقسما اليمين وقال المهندس: والله إن الشعب كله معكم، قلت: أصلحك الله؛ و بعد إصلاح الحنفية ذهبا، ولم أعط أحداً منهما شيئاً لكي لا يظنان أني أشتريهما بالدراهم وكأنّهما يقومان بواجبهما، وفي اليوم الثاني ظهراً وقد قدّرت عودة الجندي بجواب «المحجاني» كسرت الماسورة وطلبت المهندس مع احتجاج مكتوب إلى أخي عبدالله أن يتحرّى المهندس في إتقان العمل، وأرسلوا نفس المهندس، و وصل متهلّلاً ومعه جواب «المحجاني» ومن الصدف العجيبة، وحسن الحظّ أن المراقب كان الجندي «الحيمي» حامل الرسالة وإذا بالمحجاني يقول: «أنا نفس المحجاني المخلص الذي تعرفونه تتزلزل الجبال ولا يتزلزل اليقين وأنا

وجميع أصحابي تحت أمركم» وأثناء إصلاح المهندس للماسورة ـــ وكان الإصلاح الأخير ـــ حرّرت كتاباً إلى «المحجاني» أقول فيه: عندما تسمع إطلاق الرصاص من الدّار على «العرضي» ومقر أخي عبدالله وجّه قذائف المدفع من القاهرة على «العرضي» ووزارة الخارجية، وواصل حتّى تراهم يرفعوا راية الاستسلام أو يأتيك الخبر من قبلي وسيكون ذلك غداً أو بعده وهكذا دبّرت الخلاص، وكان ما تعلمون من الظفر والتأييد وقد قلت لحامل الرسالة والمهندس عندما خرجا: لقد أدّيتما الواجب، والمكافأة إن شاء الله بعد النصر، فسلّما وخرجا داعين شاكرين وكان المجلس غاصاً بمن فيه، و بينهم من لم يسمع حديثي عن موقف «البدر» فاستدرجني الإمام وقال: صف للقاضي أحمد الحضراني موقف الولد «البدر» وكيف ألقيتم القبض على وفد عبدالله في مطار الحديدة، فوصفت ما سبق شرحه وأطنبت في تمجيد موقف البدر واهتمامه بحياة الإمام.. وقال الإمام: لقد قلت للبدر مرة ماذا ستصنع لو قُتِلَ أبوك، أو حدث انقلاب؟ هل ستلتجيء إلى الملك سعود؟ فامتعض البدر وقال: لكل حادث حديث، وأراد أن يتركني فقلت له: إذا جرى شيء فعليك بحجّة فلقد جمعت لك فيها من المال وقلوب الرجال والسّلاح ما يعينك ما لم تكن باغياً، وحين سمعت بنهوض البدر إلى «حجّة» عرفت أنه قد اتبع نصيحتي.

ثم أخذ ورقة وكتب فيها شيئاً ورماها مطويّة إليّ، وكنت قاعدا أمامه وقرأتها وإذا فيها برقية يكاد أن يكون نصّها ما يلي:

«من أمير المؤمنين إلى الولد سيف الإسلام البدر ولي عهد اليمن حفظه الله.. سيصلكم غداً الوفدان السعودي والمصري قابلوهما إلى المطار وقد أمرنا بذهابكم إلى «جدة» لتقديم شكرنا إلى جلالة الأخ الملك سعود حفظه الله وسحرّر اللازم صحبة الولدين الأستاذ أحمد نعمان وأحمد محمد الشامي، والجماعة يرغبون في السفر في نفس اليوم فاستعدوا والسلام». وما إن فرغت من قراءتها ورفعت عيني إليه حتى قال باسما: ما رأيك؟ أليس هذا هو الوقت لإعلانها؟ فقلت: رائع جداً.. قال: أرها الولد أحمد زبارة، وكانت أول مرة يعترف فيها الإمام أحمد بولاية العهد لابنه البدر و وضع بذلك حدّاً للظنون ولكن بعد أن اشتعلت الفتنة وتفاقم لهبها.

٢١ - الزبيري ورائحة الدم،

كان استقبالنا في «جدة» استقبالاً عظيماً بعد أن أمضينا رحلة ممتعة كان الأستاذ نعمان فيها مصدراً ثرّاً للمرح والنكات الظريفة، و بذل جهده في إدخال السرور على قلوب الأمراء وكان قد رافقنا من الحديدة بعض أصحاب وكتاب وأصدقاء «البدر» وفي مقدمتهم القاضي الأديب الشاعر ابراهيم ابن أحمد الحضراني الذي كان أيضاً محلّ إعجاب الجميع بأدبه وظرفه وقدرته الفائقة على إبداع وصياغة أجمل النكات، ورواية الرائع من الأحاديث والأشعار، وأنزلونا قصراً ضخماً فخماً لا يبعد عن المطار القديم كثيراً ـــ وهو الآن من القصور المهجورة ـــ وتوافد الأمراء والوزراء وكبار تجار الجالية اليمنية لزيارة الأمير، و بعد المغرب ذهبنا لتناول طعام العشاء على مائدة الملك سعود.. ثم جلس مع البدر

منفردين بعض الوقت، وحمدت الله أن الأستاذ لم يخطب.. أما الوفد المصري فأظنه قد واصل رحلته إلى القاهرة بعد أن استراح ساعة وأظن أن رئيسه «الشافعي» قابل أثناءها الملك سعود.

وفي صباح اليوم التالي بلغ الأمير «البدر» أن عمّه سيف الإسلام الحسن سيصل من «القاهرة»، وسيتوقف في مطار جدة نصف ساعة ثم يواصل رحلته إلى «باندونج» كرئيس للوفد اليمني و يصاحبه الأخ حسن ابراهيم، ومحمد الحيفي وأشرت على «وليّ العهد» أن يقابله في «المطار» لما سيكون لذلك في نفس عمّه من الأثر الحسن، فاعتذر بأنه مرتبط بموعد هام مع جلالة الملك، وطلب منّي أن أنوب عنه في استقباله وإبلاغه تحياته وتمنّياته القلبية، وفعلاً ذهبت مع موظف من «المراسيم» وأدخلني إلى باب الطائرة ثم جلست معه في ساحة الانتظار الملكية إلى أن ودّعته إلى باب الطائرة ولم يكن الحديث إلا عن الجو والصحة، وأبلغته تحيّات الأمير البدر «وليّ العهد»، وفوجئت عند العودة إلى القصر بوجود الأخوين القاضي محمد محمود الزبيري والسيد يحيى بن أحمد زبارة وهما من أقطاب «الاتحاد اليمني» بالقاهرة بل إن الزبيري رئيسه وزعيم المعارضين في خارج اليمن وقد سبق أن ذكرت أنه عارض أيضاً انقلاب عبدالله والثلايا وحاربه بلسانه عبر إذاعة «صوت العرب» وأن الإمام قد حمد له ذلك و يومها جاء الشاعر السيد عمر الأميري ـــ وكان سفيرا لسوريا لدى المملكة، وعرّفني به الأستاذ الزبيري صديقه عندما كانا معاً في الباكستان ــ إثر فشل ثورة الدستور ولجوء الزبيري إليها، وأمضينا جلسة شعرية ممتعة، ثم عقدنا نحن أبناء اليمن جلسة خاصة رأسها الأمير البدر وتحدثنا عن «الانقلاب» وكيف أحبطه الإمام أحمد ورتّل الأستاذ «اسطوانته» العتيقة على مسامع الأخوين زبارة والزبيري، ولكنه هذه المرة ـــ ولأن البدر كان حاضراً ـــ قد أعفاني عن تدوير «اسطوانتي» وعن ذكر دورنا في «الحديدة»، إذ قد تبرّع فحكاه بلباقة ولطف، وتمجيد للبدر، وأظهر تفاؤله الغامر، وأمله الواسع مؤكداً للزبيري وزبارة أن الماضي بأتراحه قد ولّى وإلى غير رجعة وأن المستقبل المشرق الزّاهر يطلّ على اليمن بأفراحه وأمجاده وأن الإمام أحمد سيشكل حكومة جديدة يرأسها وليّ العهد البدر وسيكون هو والزبيري وزبارة وفلان وفلان من أعضائها وعلى كل منّا أن يختار الوزارة التي يهواها، وأوّل شيء يجب على الأخوين اتخاذه هو مرافقة «البدر» إلى تعز للسلام على الإمام، وتضايق السيد يحيى زبارة وهو المجرّب الوقور ـــ فقال: ليس المهم أن نكون وزراء، إنما يهمنا سعادة اليمن وخروجها من عزلتها، واقرار العدل والأمان في ربوعها وأنه شخصياً لا يستطيع الذهاب إلى اليمن لأنه موظف في الجامعة العربية ولابد من استئذان أمينها العام وكان يومئذ عبدالخالق حسّونة فقال الأستاذ: سيبرق وليّ العهد إلى «حسونة»، ومن الذوق والمنطق ومصلحة اليمن أن ترافقا الوفد إلى اليمن، وتقديم فروض التهنئة والولاء لجلالة الإمام، وقال الأستاذ الزبيري: نحن نبارك كل ما قاله الأستاذ، ومغتبطون بهذا التفاؤل والأمل، ولكنا لم نعدد أنفسنا، ولا هيّأناها إلاّ للوصول إلى جدّة لرؤية وليّ العهد وتهنئته، ونقل مشاعرنا وتحياتنا وتأييدنا للإمام أحمد، وظل «البدر» و«نعمان» يحاورانهما، ويحاولان إقناعهما، والأستاذ بكلّ ما أوتي من بلاغة وذلاقة وقوّة طبع، يكيل المواعيد بسخاء، وكأنّ مقاليد الأمور قد أصبحت في قبضة يده، وشعرت بشيء من الضيق فتركت «الغرفة» وخرجت إلى «البلكونة» أتفرّج على حديقة القصر؛

وكنت أتمنى لو أننا تدارسنا بهدوء وتعقل أحوال اليمن في الماضي القريب، وما تعانيه حاضراً بأسلوب واقعي لا يغفل أن سيّد الموقف ومن بيده الحل والإبرام هو الإمام أحمد، وأنه بعد ثورة «الوزير» التي عرف بها كيف يتحوّل الصديق عدوّاً وكيف يصبح العدوّ صديقا، وبعد أن قتل من قتل وشرّد بمن شرّد، من رجالات اليمن قد ازداد بُعْداً عن الناس، وساءت ظنونه بهم، وها هو أيضاً يرى الضربات والطعنات القاتلة تُوجّه إليه من إخوانه وأولادهم ومن قائد حرسه، ومعلّم جيشه، ولا شك أنه قد انفعل وحزن وتألم وأصبح كما قال «الشافعي» وعرا، وأنه ليس من السهولة كسب ثقته بموقف تأييد، أو بخطبة تمجيد، أو قصيدة اطراء، أو عودة شريد، وإن علينا أن نكون حذرين نمشي الخطا هوناً، ونتلمّس مواقع أقدامنا في طريقنا الموحش المظلم الذي لا يضيئه إلاّ شعاع أمل باهت وهو صداقتنا للبدر السليم النيّة، الصادق الطوية، وما كان لي أن أحوّل الحديث إلى هذا المجرى، وأنا لا أستبعد أن هناك بيننا من قد يبلّغ الإمام بكل ما دار من حديث.

وأنا كما قلت سابقاً أخاف الإمام، وقريب عهد بسجون «حجّة» التي أمضيت فيها خمس سنوات قاب قوسين من الموت أو أدنى، وعليه فقد فضّلت الصمت، وكنت مسروراً في قرارة نفسي بموقف «زبارة» الصريح وتلكؤ الزبيري الحذر، ولم أرد أن أشجع موقفهما فأعتبر في نظر «البدر» و«نعمان» مخذّلاً، وأنا أرهب الإمام ولاسيما وقد قال لي عندما ودّعته: «لا تعودوا إلاّ والزبيري معكم، وكونوا رجالاً»، وخفت وارتعدت فرائصي حين تخيّلت رأس الزبيري يقطع لا سمح الله وأنني كنت ممن ساهم في إقناعه على العودة إلى وطنه، و«مسقط رأسه» ولي ضمير، وكنت أحبّه وأحترمه حتى وأنا أختلف معه رأياً وسلوكاً.. ففضلت «الانعزال» وخرجت إلى «البلكونة» لئلا أشارك في اتخاذ أي قرار، وبعد لحظة رأيت «الزبيري» يتبعني إلى «البلكونة» وكأنه قد لمس بإحساسه الشاعر ووجدانه الصوفي، أني غير راض عن كل ما يقوله زميله وصديقه وأحبّ الخلق إليه «نعمان»، أو أنه قد لاحظ أني لا أشارك في «الحوار» كثيرا وهو يعرفني، كثير الكلام أحب الجدل والنقاش ولا أملّهما، وسألني عن الحال وكأنه يقول: أصدقني الرأي؟ قلت: كل الأمور إن شاء الله طيبة وأرجو أن تسير من حسن إلى أحسن، وعلينا التزام الصبر والاناة والالتفاف حول «البدر» فهو الأمل الوحيد، ثم عقّبت: لقد طارت رؤوس، ولا يزال الكثير من الجماجم تحت طائلة سيف الإمام، وبين المعتقلين إخوان لنا وزملاء، وفي مقدمتهم القاضي عبدالرحمن الإرياني والسيد محمد بن حسين عبدالقادر وسأتعاون مع «البدر» على إنقاذهم، وكدت أن أكتفي بهذا التلميح لتشجيع تردده في العودة قبل أن تدور عجلة الإصلاح، وكنت على يقين في قرارة نفسي أن بقاءه وفي هذه الفترة بالذات في الخارج قد يكون من عوامل الضغط غير المباشر على الإمام أحمد في أن يعفو عن أصدقائنا لكي يطمئن من في خارج اليمن من المعارضين أمثال الزبيري وزبارة وعباس وأخيه ابراهيم بن علي الوزير، والمقبلي، والجناتي، والرباعي، وأضرابهم. وفكر «الزبيري» ملياً ثم قال: وكيف نفسيّة الإمام أحمد بعد النصر؟ فاغتنمت الفرصة وأنا أعرف الزبيري «الخوّاف» الكثير الأوهام الذي يصوّر بشاعريته الحبل حنشاً، ويقلب الحبّة قبة، فابتسمت ابتسامة سيعرف معناها، وقلت: سمعته البارحة يقول: «إنّ رائحة الدم تملأ خياشيمي»

فقهقه الزبيري، واحمرّ وجهه وقال: يا لطيف يا لطيف، ومع هذا يريد نعمان أن أعود، والله لن أعملها أبدا.. وأردت أن أبرر موقفي إذا عدت إلى تعز وسألني الإمام عن «الزبيري» ولماذا لم يعد، وألا أكون في موقف الكاذب، فقلت: لا. لا.. يا أخي، لا تخف، وتأكد أنه لن يمسّك الإمام بأذى، وقد قدّر موقفك من إنقلاب عبدالله كل التقدير وأكدت له ما قاله الاستاذ نعمان من أنه ينوي تشكيل وزارة جديدة أنت أحد أعضائها وربما وزير المعارف وأنت تعلم محبته للشعر وأنت شاعر اليمن، فقال: كلا كلا يا أحمد لن أعود الآن أريد أن يظل رأسي على كتفي ـــ وهي مقولة له قديمة تذكّرها الآن ضاحكاً ـــ ولكني لن أحرج موقفكم، وشكراً على صراحتك التي لن أنسى فضلها، وسأعلن موافقتي على العودة بعد أن أذهب إلى القاهرة لاستصحاب عائلتي، وكأن الأستاذ قد لاحظ تأخّرنا فأقبل، وقال: في ماذا تتحدثان؟ قلت: قد أقنعته برأيك وأن واجب جميع الأحرار في الخارج العودة إلى الوطن للعمل داخل اليمن.. ولم يترك له الزبيري فرصة الحديث أو مجالاً للنقاش بل أخذ يدي بيمناه ومسك بيساره كتف الأستاذ ودخل بنا على «البدر» وهو يقول: لقد أقنعني الأخ الشامي برأي سموّكم، وأكد كلام «النعمان» غير أني مضطر أولاً إلى العودة إلى القاهرة لاستصحاب عائلتي ثم اللحاق بكم بعد أسبوع وهذا وعد شرف تستطيعون جميعاً أن تضمنوه للإمام.. وقولوا لجلالته بأني لن أكون وحدي بل والأخ يحيى أحمدزبارة، وبقية أعضاء الاتحاد على أني آمل من جلالة الإمام أن يوافق على استمرار حزب الاتحاد اليمني وأن يقرّ برنامجه الإصلاحي، و يأذن بأن يكون مقرّه الرئيسي في «تعز» وهو بهذا سيدفن الماضي تحت قدمه، و يفتح صفحة جديدة في تاريخ اليمن، وأعجبت بلباقة الزبيري ففد فهم مغزاى ولكنه لم يُحْرجني بل جعل لي فضل اقتناعه، وعرفت أيضاً أنه يناور، وأنّه لا ينوي العودة إلى اليمن مادام الإمام أحمد حيّاً ليس بغضاً له ولا عنادا ولكن خوفاً من «رائحة الدم» التي «تملأ خيشومه».. وهو الذي قال بمدحه عندما كان في سجن أبيه الإمام يحيى:

الفارج الكربات عند طروقها..	والكاشف الغمرات إذ تستحكمُ
شمس الخلافة إن دجت، وحسامها	إن حاربت، وكميّها المستلئم
لولاه ما ثبتت قواعد عرشها،	ولأصبحت نهباً يُباع، و يُقسم
ولظلّ هذا الشعب أكلاً سائغاً	هذا يمزّقه، وهذا يقضم
كم حاول المتربّصون بشعبنا	سوءاً، وظنّوا فيه نعم المغنم
حتى إذا شعروا بعزمك زلزلت	أحلامهم، وانحلّ ما قد أبرموا
لك من «عليّ» وتبةٌ مرهوبة	ومن «النبيّ» تطوّل وتكرم
فإذا صدعت، فأنت من إخوانهم	وإذا استقمت، فأنت غصن منهم
«ياآل يحيى» أين يذهب شعبنا	عنكم؟ ومافي الأرض إلاّ أنتم
فيما العقوبة؟ لست من أعدائكم	الله يعلمني، ولا أنا مجرم
لو تعلم الأصفاد كنه «تشيّعي»	فيكم، لظلّ حديدها يتحطم
يا بدر، ملء الأرض أنت فما لنا	نبغيك تُجمل في الكلام، وتُنظم؟

يا بحر، إني لم أحط بك فاعتفر	عجزي، وكيف يحيط بالبحر الفم؟
يا غيث، لا تنزل عليّ صواعقاً	إني لظمآن إليك، متيّم
كم قد دعوت سواك دعوة مدنف	فيظن أني عابث أترنّم
أصبحت بينكما كركن قائم	هذا يشيّده، وهذا يهدم

٢٢ - جبن الشعراء وإعدام عبدالله والعبّاس ،

لعلّي قد أطلت وأسهبت، وتعرّضت في هذا الفصل الذي أتحدّث فيه عن ولاية العهد للبدر، لذكر أشياء قد يستغرب البعض تعرّضي لها، لكن أحداً لن يستطيع أن ينكر أنني أتحدّث عن نفسي أيضاً، وأنا إنما أسجّل «كتاب حياتي» ولي كامل الحرية في أن أتعرض لذكر ما أشاء، وأعرض عما أشاء، شأن أي كاتب يسجل كتاب حياته، أو يتحدّث عن ذكرياته، وعلى كل فقد كانت زيارة «البدر» ناجحة، وإن كان أمل «نعمان» في كسب المزيد من «الذهب» قد خاب.

وأثناء ما كنا نخترق الأجواء في الطريق إلى الحديدة ونحن نجتاز سماء شواطىء البحر الأحمر إذ بموظف «اللاسلكي» يُطلّ علينا من غرفة قيادة الطائرة و يسلّم برقية إلى الأمير «البدر» وكانت بالأرقام «شيفرة» وكنت أحتل مقعداً يوازي مقعد الأمير في الجانب المقابل وقد رأيته وهو يحلّ أرقامها يتصبّب جبينه عرقاً ففهمت أنها تحمل خبراً خطيراً، والبدر ضمن قلة من الناس عرفتهم يتمتّع بموهبة، أو «ملكة» لا يملكها إلاّ من لديهم عقليات حسابية ممتازة فإنه كان يحفظ عن ظهر قلب «شيفرته» مع أبيه الإمام وعدّة «شيفر» أخرى ممّن يهتم بهم من أعوانه، ولم أرفي هذا الباب مثل الأخ السيد أحمد شرف الدين مؤلف كتاب «اليمن عبر التاريخ» فقد حدّثني أنه يحفظ عن ظهر قلب أكثر من مئة شيفرة، وقد اشتغل لفترة طويلة كاتباً «للشفر» في ديوان الإمام أحمد.

وحين فرغ «البدر» من حلّ أرقام «البرقية» نظر إليّ نظرة قلق، طالبا انتقالي إلى الكرسي الذي بجانبه وقال: اقرأ، اقرأ، هل يمكن هذا؟ هل يُعقل هذا؟ وإذ البرقية من نائب حجة السيد عبدالملك المتوكل يقول فيها «يومنا هذا أمر الإمام بضرب عنقي الأميرين عبدالله والعباس وقد نُفّذ الحكم بساحة سجن «القاهرة»، وكرّر البدر سؤالاته: هل تصدّق هذا؟ هل يمكن للإنسان أن يقتل حتى اخوته؟ فقلت له: نعم، نعم يا سيّدي، وفي وسع «الإمام أحمد» وأمثاله أن يقتلوا حتى أبناءهم.، وهو لا يرى نفسه قائما بالعدل الذي يراه لنفسه إلاّ إذا فعل ذلك إذ كيف يبيح لنفسه قتل من يسمّيهم بغاة من الناس ولا يقتل مشاركيهم من إخوته؟

ثم استدعى الأستاذ «نعمان» وأطلعه على الخبر فاصفرّ لونه، واسترجع وحوقل، وسرى النبأ بين ركّاب الطائرة، فخيّم عليهم صمت رهيب، ونزلنا «الحديدة» ولم نمكث فيها غير ساعة ثم غادرناها إلى «تعز» وعندما قابلنا الإمام بعد الظهر في مجلسه العام وكان قد انتقل من «العرضي» إلى «صالة» سأل «نعمان»: وأين «الزبيري»؟ فقال: سيصل قريباً إن شاء الله مع جميع إخوانه ولعل مولانا وليّ العهد قد أوضحوا لجلالتكم قال الإمام: نعم.. نعم.. إنه لا يزال خائفاً وفيه جبن الشاعر حسان بن

ثابت، وجلّ الشعراء جبناء، ثم نظر إليّ، وقال: جلّهم.. لا كلّهم.. أوماذا يا شامي؟ قلت: نعم يا مولاي. قال: وماذا يخطر في بالك الآن؟ قلت: قول النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هومدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

فضحك، وقال: لقد كان النابغة أيضاً جباناً.

مما لا أشك فيه أن مبادرة قتل الإمام لأخو يه الأميرين عبدالله والعباس قبل عودة ابنه «البدر» من «جدّة» قد أراد بهما تبرئة ساحة «البدر» من أيّ مسؤولية أمام بقية الأسرة، من آل حميدالدين ولكي يتحمّل مسؤولية اتخاذ القرار — وحده — ومع ذلك فقد سمعت اللغط بين الأحفاد، و يدّعي بعضهم أن «البدر» يشارك أباه في تحمل المسؤولية بل قد غالى البعض منهم وأفرط وقال: إنه هو الذي حث وحرض والده على إعدامهم، وها أنا أتعمّد ذكر ما شاهدته لا لتبرير موقف البدر فأنا لا أدافع عنه، ولا لتجريم الإمام أحمد فلست مؤرخاً ولا قاضيا، ولا لإدانة الأميرين القتيلين أو تبرئتيهما، فشأنهما عندي وفي نظري شأن «الثلايا» و«السيّاغي» و«محمد عبدالقادر» و بقية من أعدمهم الإمام أحمد في ذلك الانقلاب، ولن يُعْلَن الحكم الحق إلا «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون» وإنما أذكر هذا لأُدلي بشهادة في الدنيا، «ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»، إن «البدر» لم يعلم بقتل عمّيه إلاّ وهو على الطائرة، عائداً من المملكة العربية السعودية، وانه لم يُستشر ولا علم بعزم والده على قتلهما، بل وإنه قد فزع واستنكر وكاد ألا يصدق النبأ ودار ما بيني و بينه الحوار الذي سجلته ولله عاقبة الأمور.

كذبة البيضاني:

وقد زعم عبدالرحمن البيضاني في كتابه «أزمة الأمة العربية» ص — ٦٨ — أن الإمام أسرع بإعدام أخو يه قبل وصول السيد حسين الشافعي «خشية أن ترجو مصر لهما الرحمة وتتشفع لهما»، وهو محض افتراء وكل ما ورد في الكتاب المذكور عن انقلاب سنة ١٩٥٥م خلط وخبط وكذب وتزو ير.

٢٣ - إعدام «السيد» ونجاة «القاضي»:

في صباح اليوم التالي — ولا نزال في شعبان سنة ١٣٧٤ هـ ابريل سنة ١٩٥٥م وكان الإمام قد هبط من قصر «صالة» إلى مقام «العرضي» لحضور حفلة «إعدام» وذهبت لزيارته وكان المدخل من باب ديوان «العكفة» «الحرس الخاص» فوجدت الكثير من المعتقلين ومعظمهم أصدقائي وزملائي وفي مقدمتهم السيد محمد بن حسين عبدالقادر والقاضي عبدالرحمن الإرياني والقاضي عبدالله الشماحي، وكلّهم مكبّلون بالقيود، ولم أسمح لنفسي بتجاهلهم أو التغاضي والتغافل كما فعل غيري — وهو معذور في مثل تلك الحال — بل حيّيتهم و بشّرتهم بالفرج وتحدثت مع السيد محمد عبدالقادر وقلت له مطمئناً بأني مع وليّ العهد سأبذل جهدي في سبيل سرعة إطلاق سراحه وكنت قد تحدثت في المساء مع «البدر» عن ضرورة إيقاف الإعدامات و بأن القاضي الإرياني هو كاتب بيعته ومحمد عبدالقادر

والشماحي من دعاته وأنصاره فقال «البدر»: عليك أن تراجع الإمام عن السيد محمد والقاضي الشماحي، وعليّ أن أعمل من أجل نجاة القاضي عبدالرحمن وكنت أعرف أن موقف «الإرياني» أشدّ حرجاً من موقف الآخرين لأنه قد كان ضمن وفد «عبدالله» إلى «الإمام» ليطلب منه التنازل عن الإمامة لأخيه، فسررت واعتبرت مهمتي سهلة، وقلت: وهو كذلك، وعند دخولي إلى مجلس الإمام لم أترك فرصة لواش ينقل إليه أني تحدثت مع «السجناء» الذين ينتظرون إخراجهم إلى ساحة الإعدام فأخبرته أني رأيت في طريقي الأخ محمد عبدالقادر وأنه من أنصار وليّ العهد وأنا أعرف إخلاصه وإذا كان قد انجرف مع التيّار فلا يسعه إلا حلم الإمام وعطفه وعفوه، وقد وقف مع والده وأولاده في صف وليّ العهد، وكان الإمام يصغي لما أقول والبدر بجانبه، ثم أسند ظهره إلى الوسادة وقال: أنت لا تعرف شيئاً يا أحمد. ونادى: يا ناصر هات «شنطة» الأوراق، فأقبل بها وفتحها الإمام وتناول منها ورقة وقال لي بصوت مخيف اقرأ، تناولتها بيد ترتجف و يا لهول ما قرأت، إنها رسالة بخط صديقي محمد عبدالقادر وتوقيعه الذي أعرفه إلى الإمام «المتوكل على الله» عبدالله تقول: ولعل النص قد علق بذهني كما هو:

«وصلنا إلى الباب فأرجعنا الحاجب ولم يأذن بدخولنا إليكم ولا استأذن لنا منكم، وأنتم تعلمون أننا ننتظر هذااليوم ونعمل له منذ زمان، وكنا نريد أن ننصحكم بأن تهتموا أولا بحجة، أما إذا قد صح ما بلغ بأن «البدر» قد احتلّها، فبادروا بالأمر إلى سيف الإسلام العباس أن ينتقل إلى «عمران»، وترتيب «جبل عيال يزيد» و«كحلان»، إن لم يكن للهجوم على «حجّة» فللدّفاع عن «صنعاء»، وإذا أردتم منا العزم إلى «كوكبان» و«شبام» فنحن مستعدّون.. والتساهل مع «الرجل» ــ يقصد الإمام ــ غلط فإنه خطير وجبّار واللازم التخلّص منه، أونفيه، وهل قد اتصلتم بالسعودية؟ وأيضاً غيّروا حُجّابكم فهم لا يعرفون أقدار الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله والسلام عليكم ورحمة الله». وما كدت أفرغ من قراءتها حتى دارت بي الدنيا ولم أكد أتماسك هلعاً وإشفاقاً، وتأكدت أن زميلي وصديقي هالك، وأني لن أستطيع أن أعمل من أجله شيئاً، وسمعت صوت الإمام وكأنه ينبعث من كهف قاتم الأعماق: وهل هذا هو المخلص الأمين؟ أطلع «البدر» عليها حتى لا يظل يشغلني كما يشغلني على صديقكم الثاني القاضي الإرياني، وأعترف بأن أعصابي قد خارت وأني سلمت الورقة إلى «البدر» دون أن أنبس ببنت شفة، وفتشت عن مكان في المجلس أندفن فيه بعيداً عن عيني الإمام، و بعد لحظة استأذن «البدر» في الذهاب إلى مقر عمله وتبعته وقال لي: مسكين الأخ محمد، فسألته: وماذا عن الإرياني؟ قال: قد طمأنني الإمام بأنه «سالم» لأنه لم يجد عليه شيئاً وها هي أوراق وتلغرافات الأمير عمي «عبدالله» معي، أمر الإمام أن أفتشها وإذا وجدنا بينها ما يدل على مؤامرة أو نحوها أفرزناها، وظللنا حوالي ساعتين نفتش تلك الأوراق وقد وجدنا ما لو اطلع عليه الإمام لأدان بعض العلماء والأمراء والأدباء والمشائخ، وكان البدر يقول: لا يجوز أن يطلع الإمام على هذا وإلا فسيعدم خلقاً كثيراً وجمعها وأحرقها، ولم يبق إلا ما هو عادي من إعراب عن تأييد أو تمجيد، وشجّعت البدر على ما يفعل وقلت له: عليك أيضاً أن تعمل جهدك لإنقاذ أخويك الأمير الحسن بن علي والأمير عبدالله بن الحسن

لتكسب مودتهم ومحبتهم فليس مثل الإحسان قيداً للأحرار.

وفي اليوم التالي كان إعدام الأخ محمد عبدالقادر ووجدوا في جيب قميصه خطابا بخطّي وتوقيع «البدر» جواباً على إحدى رسائله التي كان يواليها الينا من «تعز» ينقل فيها أخبارها وما يقوم به «الأمير عبدالله» من نشاط ضد «الإمام» وابنه «البدر» و«ولاية العهد» وقد سلموها إلى «الإمام» بعد إعدامه، وكنت قد قلت فيها أطمئنه: «ولا تقلقوا من نشاط المكابرين والمعارضين لأن الله سيحق الحق ويخذل الباطل» ونحو ذلك، وعندما حضرت قال لي: هذه رسالة بخطك وجدوها في جيب صديقك، وقد «نصر الله الحق وخذل الباطل» وهذه نهاية من يلعب على كل الحبال وقذف بالرسالة إليّ ولم أخف، بل اشتعذت بالله وحوله وقوته، ولم أفزع لأني كنت واثقاً بأنّي لا ألعب إلا على حبل الإخلاص.

وقد حدّثني القاضي عبدالرحمن الإرياني نفسه أنه قد أخرج إلى ساحة الإعدام وأنّه قد ذكّر الإمام بأنه قد أرسل إليه رسالة مع «الدو يدار» يُعرب فيها إن تأييده له وعدم رضاه عن «الانقلاب» وأن الإمام قال له ــوحسام السيّاف مصلت على رأسهــ: «والله ياأخي لم يصلني شيء»، قال: ولكنّه وضع كفّه على صدري فشعرت أنه يطمئنني ثم أمر بتأخيري عن صف المعدمين.

ولعلّ مما ساعد على نجاة «القاضي» أنه قد ألّف كتاباً سمّاه «انقلاب الثلايا» أو «خمسة أيام من تاريخ اليمن» وصف فيه أحداث الحركة العسكرية ساعة ساعة وشنّع بعبث الجنود وهتكهم لحرمات المواطنين في «الحوبان» وأشاد بثبات الإمام و بطولته في أسلوب بياني رائع وهو من أفضل ما قرأت للقاضي عبدالرحمن، وكان الإمام قد بعث بالكتابِ إليّ إلى «القاهرة» لطبعه وهو بخطّ مؤلفه وفيه إصلاحات لنصوص الرسائل التي تبادلها الإمام مع أخيه الأمير عبدالله ورسالة التنازل والمنشورات بخط الإمام أحمد ولكن لم يتيسّر لي طبعه لأن النفقات لم تحوّل، ثم إن رجاءً حاراً في خطاب خاص بعثه القاضي الإرياني إليه بأن أعيده إليه، وكان بعض الإخوان وفي مقدمتهم السيد ابراهيم بن علي الوزير قد طلب مني أن أصوّره لأهميته التاريخية والأدبية لكنني رفضت غير أني سمحت له بنقل صورة منه ولعلّها لا تزال لديه، و ياليته يطلب من القاضي الإرياني مقابلتها على الأصل وأن يضيف إليها مؤلفها ما يشاء فإنها أصبحت ملكاً للتاريخ، لا تخذل حقاً، ولا تنصر باطلاً، بل تصوّر أحداث أيام حاسمة من تاريخ اليمن و بأسلوب أدبيّ ساحر...

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن العلامة المؤرخ القاضي عبدالله الشماحي قد ذكر في كتابه «اليمن، الإنسان والحضارة» أن المقدم أحمد الثلايا كان على صلة بالقاضي عبدالرحمن الإرياني والأستاذ أحمد نعمان وأنهما ممّن وافق على خطة الثلايا الانقلابية بعد مناقشة وأخذ ورد وكانا مع الثلايا يهتمان بإتقان الخطة للانقلاب وأن يعجّل به مخافة أن يموت الإمام أحمد الذي كان يبدو وكأنه قد اقترب من الموت «ص ــ٤٨٦ــ».

وإذا صحّ ذلك فهو في منتهى الغرابة، و يصوّر كيف يستطيع السياسي أن يمثل عدّة أدوار في وقت

واحد فبيعة «البدر» قد صاغها الإرياني، وهو الذي أقنع بها علماء «زبيد» و«تعز» وأعضاء الديوان أمثال «أحمد زبارة» و«محمد الذاري» و«حمود الوشلي».. وغيرهم والأستاذ أحمد نعمان قد سبق شرح موقفه ومناصرته للبدر، وأنا على ضوء موقفي وإخلاصي لما كنت أدعو إليه يومها لا أستطيع أن أتصوّر أن ذلك مما يُسْتَطاع إلا بجهد جبّار.

وأنا بهذا لا أنتقد موقفهما السياسي، ولا ألومهما، وإنما أتحدّث عما رأيته أو عملته أو سمعت به وهمّي الأول الاعتراف بأني قد فشلت في محاولتي إنقاذ صديقي الألمعي السيد محمد عبدالقادر وكان حزني عليه يعادل سروري حين توفّق «البدر» فأنفذ القاضي عبدالرحمن الإرياني من القتل وقبل الإمام شفاعته فيه ولله الأمر وعنده تجتمع الخصوم

٢٤ - رحلة البدر والنعمان إلى مصر:

وأقبلت الوفود من كل أصقاع اليمن تهنىء الإمام بالنصر وتبايع البدر بولاية العهد وتفنّنت وأبدعت قصائد الشعراء والخطباء وأبرق سيف الإسلام الحسن يستأذن في العودة، فكلّفه الإمام بأن يترأس وفد اليمن في هيئة الأمم، وعاد من القاهرة وكيل الخارجية القاضي محمد بن عبدالله العمري وأمينها العام السيد محمد بن عبدالرحمن الشامي فلم يقابلا بالترحيب الذي تعوّداه، إذ أنهما ومعظم رجال وزارة الخارجية يحسبون في نظر الإمام من رجال أخيه الأمير عبدالله وأمر الإمام «البدر» بأن يتولى شؤون «الخارجية» وكلّفني مع الأستاذ نعمان بأن ننظم إدارتها ونكشف أحوالها ونرفع إليه تقريراً نقترح فيه ما نراه.

وأحسست بقلق لا أدري له سبباً معيّنا وكأنّه ذلك الحافز الخفيّ الذي يجتاح مشاعري عندما تكون الظروف تتمخّض بولادة شيء ليس من الخير لي أن أحضر ساعة ولادته، وهو أشبه بما يسمّونه الحاسة السادسة، فصممت على أن أستأذن الإمام بأن يسمح لي بالعودة إلى الحديدة بحجة أن زوجتي وحيدة، ورمضان الكريم على الأبواب وأودّ أن أمضيه معها، ولم يمانع الإمام بل كان لطيفاً، إذ قد سألني: وهل ستزور الوالدة والكرايم والوالد عبدالرحمن في صنعاء؟ فقلت: إذا أذنتم فسأقضي عيد الفطر معهم، فقال: إن شاء الله ثم كتب لي في ورقة حوالة بمئتين وخمسين ريالاً من صندوق مالية الحديدة، وكتب في الأخرى أمراً إلى مدير الطيران بإركابي على الطائرة إلى الحديدة ثم إلى «صنعاء» مع عائلتي، وأمضيت في الحديدة أياماً سعيدة بين أهلي وأضرب الأخماس في الأسداس، وأفكر في أن أنصح «البدر» ألا يغترّ ولا يُفرط في الخيالات والآمال، أو يتورّط في منازعة أبيه السلطة، وأن يركّز نفسه في الحديدة و ينظم شؤونها، وإداراتها حتى يجعل منها مثالاً فاضلاً للحكم الذي سينتهجه عندما تؤول إليه السلطة العامة، وعليه أن يجمّع حوله الكفاءات الإدارية والعلمية والأدبية والعسكرية و بين الذين أحسن إليهم وأطلق سراحهم، وعادوا أو سيعودون من القاهرة الكثير، وفجأة أسمع من الإذاعة أن وليّ العهد سيف الإسلام البدر قد توجّه على رأس وفد من أعضائه الأستاذ أحمد نعمان إلى القاهرة ليقدم شكر الإمام وحكومته لفخامة الرئيس جمال عبدالناصر على موقفه الكريم من انقلاب عبدالله الثلايا، وشعرت بادىء بدء



الإمام محمد البدر عندما كان ولياً للعهد و يظهر معه السيد علي المؤيد وخلفه القاضي اسماعيل الجرافي [ذو النظارة] ثم الأستاذ الشاعر أحمد المعلمي.

بالحسرة والندم، وقلت لنفسي: لو لم أستعجل بالرجوع إلى الحديدة لكنت ضمن الوفد، وأنا لم أعرف مصر بعد.. وكنت في شوق عظيم لزيارتها، ثم حدّثت نفسي بما أُقنِعُها به، إذا فاتني ما كنت أهوى، لعلّ الخير في الواقع، وفي كل تأخير خير.. وسمعت من القاهرة وصوت العرب أنباء استقبال الأمير البدر وأخبار الاحتفاء به، وفي اليوم التالي تلقّيت برقيّة من وليّ العهد يقول فيها: «وصل لزيارتنا من روما أخوكم عبد الوهاب الشامي وسيكون معنا إن شاء الله».

وشعرت بسعادة وغمرني الشوق إلى رؤية أخي وقد غفلت أن أذكر أننا عندما كنا في الرياض قد اتصلنا به وبابن الأستاذ أحمد نعمان عبدالرحمن الذي كان أيضاً يدرس في إيطاليا وحثثناهما وبقية الطلبة اليمنيين على إعلان تأييدهم «للبدر» وكان صوت أخي جهيراً من إذاعة «روما» وقد سمعه الإمام وامتدح موقفه جهاراً. وبعد يومين عصراً إذا بي أتلقّى برقية مصدرها سماء البحر الأحمر من طائرة «البدر» ووفد الشكر وهذا نصّها: «من محمد ابن أمير المؤمنين إلى الأخ أحمد محمد الشامي هذا من الطائرة في طريقنا إلى تعز ومعنا الأخ عبدالوهاب قابلونا هناك»، وما إن سمعت أزيز الطائرة وهي تخترق سماء الحديدة حتى هزّني الشوق لرؤية أخي والبدر وسماع ما جرى هناك. ولم أصبر إلى الصباح فأنتظر الطائرة بل ركبت على أوّل سيارة، ووصلت «تعز» قُبيل منتصف الليل، ونزلت دار الضيافة حيث نزل أخي ولقيت الأستاذ نعمان والسيد عبدالرحمن أبوطالب وزير اليمن المفوّض بالقاهرة وغيرهم، وحدثني أخي بما دار في القاهرة وما جرى وكيف احتفل «الطلبة» اليمنيون «بالبدر» وأن شعارات قد هدرت تندّد بالرجعية، والماضي الأسود وترحّب بالعهد الجديد وتشيد بالبدر «إمام الأحرار» وبالزبيري ونعمان زعماء الأحرار، وأدركت أن ذلك ولا شك سيبلغ الإمام أحمد وأنه لن يرتاح إليه، بل وسيغضب من حدوثه، وحمدت الله أني لم أكن من أعضاء الوفد، وعرفت سرّ ذلك الشعور الغامض الذي اجتاحني ودفعني إلى استئذان الإمام بالرجوع إلى «الحديدة» قُبيل سفر «البدر» و«نعمان» إلى «القاهرة» وقال لي أخي: «لقد حمدت الله أنك لم تكن موجوداً»، وأنا لا ألوم تلك الهتافات التي نادى بها الطلبة اليمنيون ولا أقول إنّها لم تعبّر عن رغباتهم فيما يطمحون إليه لوطنهم، ولكنّي أعلم أن قوماً سيستغلّونها في تشويه نوايا «الأحرار»، ويبذرون الفتنة بين «الإمام» و«البدر» وكنت أرى أن ليس في ذلك مصلحة لليمن، وأنا من الناس الذين يفضّلون العمل في وضح النهار ولا أستطيع أن ألعب على حبلين، ولا أن أصارع في جبهتين مختلفتين متحاربتين فأكون «جمهورياً» في النهار و«ملكيّاً» في الليل كما كان يصنع بعض الناس أثناء الحرب الأهلية.

أما ما جرى في القاهرة فقد وصفه الأستاذ محسن العيني في كتابه «معارك ومؤامرات ضد قضيّة اليمن» الذي نشره سنة ١٩٥٧م وقد تحدّث فيه عن انقلاب الثلايا والأمير عبدالله وقال: إن الطلاّب اليمنيين أقاموا حفلاً كبيراً بالجيزة «لتكريم البدر وصحبه» وإن شباب البعثة قد أعلنوا «تمنيّاتهم ورجاءهم أن يكون هذا الانقلاب هو نهاية الظلم والفساد، وبداية لعهد جديد تحل فيه الحرية والعدالة والمساواة محلّ الاستعباد والظلم» ص ــ٧٨ــ ثم قال العيني: «ووقف الشيخ أحمد محمد نعمان وكان مستشاراً للأمير آنذاك فألقى كلمة قال فيها إن ما يعانيه الشعب من ظلم واضطهاد وما يقاسيه من

مذهبيّة وفرقة وتمييز إنما هو نتيجة للحكم الفاسد، وقد انتهى الحكم الفاسد ونحن في بداية عهد جديد» ص —٧٩— هذا كلّ ما نقله العيني من كلمة «نعمان» التي بلغني وقتها أنها طويلة وأنه قد أشاد بالإمام وولي عهده البدر، ولكن العيني قد أفاض في اقتباس فقرات عديدة من خطبة «القاضي محمد محمود الزبيري» الذي «كانت كلمته بياناً هاماً عن موقف الأحرار وعن سياستهم وكان حديثه موجهاً إلى البدر، وإلى رجال الإمام وإلى الإمام في تعز» وقال «العيني»: قال الزبيري: «إننا قد أيدنا ولاية العهد لأن البدر قد وافق على أهداف الأحرار، وقد وعد بتحقيق مطالب الشعب كاملة»، «أيدناه لأنه اقتنع معنا بحق البلاد في الحرية والعدالة والحياة، أيّدناه لأنه يؤمن معنا بالأمة العربية، وبالسياسة العربية المتحررة، أيّدناه لأنه يشترك معنا في هذه الأفكار والآمال، ووقفنا نُعارض السيف عبدالله لأن ماضيه الطويل سواء في داخل البلاد أثناء حكم والده أو في الخارج بعد هذا كان كما يعرف الجميع ولأنّ ميوله واتجاهاته ومشروعاته للمستقبل كانت تحمل في طياتها كارثة محققة لا لليمن وحدها بل وللأمة العربية في مجموعها»..

وقال الزبيري: «إننا لسنا أعداء شخصيين للإمام أحمد وإننا نتمنى أن يقود هو حركة الإصلاح في اليمن، ولكنّنا نحتفظ بحقنا في معارضته فنحن لا نعارض إلاّ من أجل الشعب، ولا نؤيد إلا من أجل الشعب، وإن العقبات التي كانوا يحتجون بها قد زالت، والظروف التي كانوا يجعلونها المسؤولة عن الظلم والاضطهاد قد ولت لقد كان الشعب حائراً بين الإمام وبين الحسن وعبدالله والعباس، وها هو الإمام اليوم قد أصبح الوحيد في الميدان.. بل ها هو الشعب في الداخل والخارج ملتف حول الإمام والبدر فلم تعد هناك حجّة لبقاء الأوضاع الظالمة.. فلتظهر صفحة جديدة ناصعة ولينته الظلم، وليقض على الفرقة والمذهبية والامتيازات ولتمد اليمن يدها إلى العرب ولتخرج من هذه العزلة المضروبة حولها» ص —٨٠—.

هكذا قال «الزبيري» حسب رواية الأستاذ محسن العيني ومن المعلوم أنه لم ينشر كتابه المذكور إلا بعد سنتين من حفلة التكريم وبعد أن تمزّق «الاتحاد اليمني» واختلف رجاله وقامت الخصومة الشديدة بين نعمان والزبيري، وأتباعهما من الطلبة كالعيني وجغمان ومحمد أنعم والرعدي من جهة ومن جهة أخرى يحيى زبارة، والجنّاتي، والمقبلي، وعبدالرحمن أبوطالب وقد تعالت أصوات — ولاسيما بين الضباط الأحداث الذين كانوا النّواة العسكرية لثورة ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ والتي أعلنت الجمهورية — تستنكر موقف الاتحاد ورجاله من انقلاب الثلايا والأمير عبدالله وتتهم «نعمان» و«الزبيري» وأتباعهما بأنهم قد مكروا بالثلايا والانقلاب العسكري وأخطأوا بمناصرتهم للإمام وتأييدهم للبدر ولذلك فقد جاء كتاب الأستاذ محسن وكأنه يدافع عن الأحرار في موقفهم إزاء الانقلاب، ولذلك أيضاً فقد أشار إلى أن الزبيري ونعمان وسائر الأحرار لم يكونوا مخلصين في الدعوة إلى ولاية العهد للبدر، وإنما أرادوا بها الوقيعة بينه وبين أعمامه وأولادهم..

وهو ما صرّح به القاضي عبدالله الشماحي في كتابه «اليمن»، وزعم أن فكرة «ولاية العهد» خرجت من سجون حجّة، وقد أراد الأحرار بها خديعة الإمام وابنه وذر بذور الشقاق بين أسرة آل

حميدالدين وضرب بعضهم ببعض، وهو ما كان يزعمه خصوم «البدر» و«معارضوه» وأشرت إليه في أجوبتي على أسئلة محمد نعمان، ولم يزعم الشماحي ذلك إلاّ بقصد الدفاع عن نفسه، وعن الإرياني ونعمان، تقرّباً إلى زعماء ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م التي أعلنت الجمهورية، وليقول إنه، وأولئك هم الذين مهّدوا لهذه الثورة، وأنا لا أريد أن أدافع عن نفسي بما لم أعمله، ولكني أستطيع أن أدافع عن صديقي الذي مات شهيداً وهو يدعو إلى «حزب الله» في «برط» وأعني الشاعر محمد محمود الزبيري وأقول: إن الفقرات التي اقتبسها العيني في كتابه من خطاب الزبيري ليلة الاحتفال بتكريم البدر تُعرب بوضوح عن إخلاصه وصدقه، وإنه حين كان يقول «أيّدنا البدر من أجل الشعب، أيدناه لأنه يؤمن معنا بالأمة العربية، أيدناه لأنه اقتنع معنا بحق البلاد في الحرية والعدالة والحياة» إلى آخر ما قال لم يكن كاذباً ولا غاشاً ولا مخادعاً، كما أني أقسم بفالق الحبة و بارىء النسمة أنني كنت مخلصاً في دعوتي، وعلى يقين بأنني لا أعمل إلا ما يحتّمه عليّ واجبي الديني والوطني وما أرى فيه الخير والصلاح لبلادي لم أضمر خداعاً ولا انطويت على غش لا للأمة، ولا للإمام، وكان «البدر» هو الصديق والأمير الوحيد — في نظري — الذي يمكن أن تجتمع عليه كلمة اليمنيين في الداخل والخارج كما قال الزبيري، وكنت أرى فيه الخير لبلده، وأسرته إذا التفت حوله، وكنت أعتقد أنه سيرأب الصدع و يُبلسم الجراح، وأتخيّل أنه سيؤيد الميثاق الوطني المقدس، منهاج ثورة الدستور والإمام عبدالله بن أحمد الوزير، والذي أيّده ودعا والده إلى تأييده عبر إذاعة صنعاء حين وصل إليها مع عمه سيف الحق ابراهيم ابن الإمام يحيى سنة ١٩٤٨م/ ١٣٦٧م.

وأنا حين أعترف بهذا لا أقوله مُزايدة ولا متباهياً، ولو كنت أزايد لما اعترفت بهذا، ولقلت بأني كنت أغش وأخادع، وأتآمر على أسرة آل حميدالدين لكي أتقرّب من أولئك الذين فجّروا ثورة «الجمهورية»، وإن كنت أكذب على نفسي وعلى التاريخ، وإذا كان لي أن أباهي بموقف فهو موقف الصدق والإخلاص أوّلاً في عملي مع الإرياني ونعمان والشماحي والزبيري وسائر الذين أيّدوا ولاية العهد للبدر، ثم موقفي الصريح المغامر في محاربة التدخل العسكري في اليمن، والدعوة لمنع أي تدخل خارجي في شؤونها وإعطاء الإرادة الحرة للشعب اليمني أن يختار ما يريد، وهو ما دفعني إلى الاستقالة والانعزال في بيروت إثر انسحاب القوّات المصرية، والدعوة إلى السلام والمصالحة الوطنية وتأييد الجمهورية الفتيّة التي اختارها الشعب له منهج حياة، وأقسمت صادقاً مخلصاً بالولاء لها مطهّرة من الأحقاد والطائفية عندما انتخبني المجلس الوطني بالإجماع عضواً في المجلس الجمهوري، هذا ما به أباهي لو أردت المباهاة.

شهادة لوجه الحق:

وأكرّر القول من جديد وأؤكد ولاسيما لمن وردت أسماؤهم في حديثي كالإرياني ونعمان والشماحي والعيني وغيرهم أنني لا أخطىء أحداً ولا أحقّر عمل عامل منهم ولا أقلّل من إخلاص إنسان، وكيف أستطيع ونحن نعيش عصر «الميثاق الوطني» ومجلس الشعب المنتخب، وعهد «الجامعة» والتعاونيات والمؤسسات، وقد شب عمرو عن الطوق، وتلمظ وتذوق رحيق الحريّة

والمساواة والدستور، وأصبح الشعب بشبابه وكهوله رجالاً ونساءً يتطلّعون بشغف إلى معرفة الحقائق عن ماضيهم البعيد والقريب لا يغرّهم الزّيف ولا يتأثرون بالأ باطيل العنصرية أو الطائفية و يكرهون الأحقاد والترسبّات العرقيّة، ويحتقرون المزايدات ووسائل الغش والخداع والنفاق، ويحترمون الصراحة والصدق والأمانة، كيف أستطيع أن «أزايد» أو أقلّل من عمل عامل وعين الله بالمرصاد وأبناء اليمن واعون مدركون.

و بقيت شهادة في موضوع ولاية العهد للبدر ومن أيّدها ومن عارضها لا يسمح لي ضميري ألا أذكرها وأعتذر لمن سوف لا يعجبهم إدلائي بها، بأن الأمانة تقضي ألا أهملها، وأنا لا أتقرب بها لذي جاه أو قوّة، ولا أؤيد بها موقفي، فأقول: إن الذين لم يستفيدوا من «ولاية العهد للبدر» ولم يدخلوا معركتها، ولا خاضوها، لا تأييداً، ولا محاربة، ولم يرضوا بها، لا كرهاً للبدر، ولا حقداً على أبيه أو اخوته، ولا تزلّفاً أو مجاراة للأحرار في داخل اليمن أو خارجها في السجون أو أحراراً، هم آل الوزير وخصوصاً أبناء الأمير علي بن عبدالله، فلقد أطلق «البدر» كل من كان في سجون «حجّة» من آل نعمان، والسلال، والسنيدار، والمطاع، وأبوطالب، والعمري، والفسيّل، والسياغي، وغالب، والعشرات من إخوانهم، ولكنه لم يوافق على الإفراج عن قاسم بن علي الوزير وزيد بن علي الوزير ومن بقي من أولاد عمهم آل الوزير، وكان أخوهم «ابراهيم» بن علي قد نزح إلى القاهرة مع أخو يه عباس ومحمد... وعندما قام الانقلاب العسكري لم يؤيدوا الإمام ولا وليّ عهده ولا حضروا حفلة التكريم التي أشاد بها الأستاذ محسن العيني.

٢٥ - انقلاب الثلايا وتزويرات البيضاني :

تلك هي قصّة «ولاية العهد» للأمير «محمد البدر» و بعض ما أسفر عن الدعوة إليها، وموقف الإمام أحمد منها، وقصّة «انقلاب المقدم الثلايا» و«الأمير عبدالله بن يحيى»، وموقفي منهما، بل وموقف أحرار اليمن في داخلها وخارجها، وحكومتي «الجمهورية العربية المتحدة» «مصر» و«المملكة العربية السعودية»، رو يتها كما شاهدتها، وسردتها حسب معرفتي وممارستي، ولم أتعرّض لذكر بعض مواقف الأمراء من آل حميدالدين من «الحدثين» إلاّ لماما .. أما التفاصيل ـــ وهي مثيرة ـــ فسيجدها القارىء في كتاب «يوميّات منتظر» الذي هو أحد مصادر هذه الذكريات.

ولأني أشعر بأني قد خيّبت آمال بعض المنهجيّين من كتّابنا وكذلك آمال أولئك الذين يهتمون بالوقائع والأحداث وأخبار مآسيها وما هو غريب مثير منها فقد يكون من المفيد أن ألخص للقراء ما قاله كاتبان معاصران عن بعض ما تحدّثت عنه ورو يته، وليس لكي يقارن القرّاء بين الروايات، ولا لكي أؤيّد ما سردته أو لأني أقرّ ما قاله أحدهما وأنكر كل ما قاله الآخر.. ولكن لكي أضفي على هذه «الذكريات» جوّاً من «جديّة التاريخ» بل ومن المتعة والمرح لأن في استعراض ابداع الأدباء المجتهدين كالقاضي والمؤرخ الشاعر عبدالله الشماحي ما يجلب البهجة والإعجاب، كما أن في إبراز سقطات المضلّلين والمتطاولين كالدكتور المزيف عبدالرحمن البيضاني ما يثير السخرية والضحك «وشر

المصائب ما يضحك» .

ولنبدأ ـــ أولاً بالبيضاني وأكاذيبه وأباطيله وتزو يراته عن انقلاب سنة ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ .

ساق البيضاني قصة انقلاب سنة ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ في تعز بأسلوب يوحي أنه كان قد حظي بثقة الرئيس جمال عبدالناصر وأنه هو الذي كلّف السيد أنور السادات بالتفاهم معه لتنفيذ أفكاره الإصلاحية في اليمن ، وأنه كان على صلة وثيقة بالمعارضين السياسيين والعسكريين والطلبة اليمنيين وتعمّد بث لمزات السخرية والتجريح عند ذكر بعض رجالات اليمن والانقلاب إلى أقاصيص لا أساس لها من الصحّة وتناقض في سرد الأحداث ، ولعله من الأفضل ـــ وربما كان في ذلك بعض الترو يح على القرّاء ممن لم يطلعوا على كتاب الدكتور ـــ أن أنقل ما حكاه عن ذلك الانقلاب ثم أورد ما قاله أحد المؤرخين الثقاة الذين ساهموا في أحداثه خدمة للتاريخ .

يقول الدكتور البيضاني [ص ٦٣ ـــ ٧٤] :

في شتاء ١٩٥٤م كان نفوذ سيف الإسلام عبدالله قد أخذ في الازدياد ، حتى كان الإمام لا يرد له طلبا ولا يرفض منه نصيحة ، حيث كان أقل خطراً عليه من أخيه الحسن ، وأكثر إقناعاً له من ابنه البدر.

نصح الإمام بخطورة نشاطي بين الطلبة اليمنيين في مصر ، وكان قد عزل السيد علي اسماعيل المؤيد من منصبه في القاهرة وعين السيد عبدالرحمن عبدالصمد أبوطالب مكانه ، مع استمراري في العمل مستشاراً ، و بقاء السيد يحيى الوادعي مستشاراً ثانياً ، والقاضي إسماعيل الجرافي سكرتيراً أولاً .

أثناء عودتنا من قصر عابدين بعد تقديم أوراق اعتماد السفير الجديد إلى الرئيس محمد نجيب ، أبلغني السيد عبدالرحمن أبوطالب بأن الإمام يأمرني بأن أتوقف عن الإشراف على البعثة التعليمية .. وأن أكتفي بتمثيل اليمن لدى جامعة الدول العربية [٦٣] .

أغلب الظن أن سيف الإسلام عبدالله ، وكان كثير التردد على القاهرة ، قد عرف شيئا عن ولائي للبدر وسمع كثيراً عن نشاطي بين الطلبة اليمنيين مؤيداً البدر، الذي كان قبل ذلك قد اختار طالبين يمنيين متفوقين لمرافقته وإدارة مكتبه ، حتى يكسب ثقة الطلبة وغيرهم من رجال اليمن الذين كانوا يرجون الإصلاح .

هذان الطالبان اليمنيان هما محسن العيني ومحمد الرعدي . وأذكر أنني أشفقت عليهما عندما تركا الدراسة والتحقا بحاشية البدر وهيئة مكتبه ، فخشيت على مستقبلهما الدراسي الذي كان من اللازم أن يكون ركيزتهما الأساسية قبل تفرغهما للعمل السياسي . وأحمد الله أنهما أكملا دراستيهما فيما بعد عندما تركا العمل مع البدر.

في ٢٠ يناير ١٩٥٥ ذهبت بناء على توجيه الرئيس عبدالناصر لزيارة السيد محمد أنور السادات في مكتبه بالمؤتمر الإسلامي وكان قد تولى منصب سكرتيره العام في أول يناير ١٩٥٥م فأكد لي مدى تأييد الرئيس عبدالناصر لأفكاري الإصلاحية في اليمن وأنه قد كلفه بمتابعة الا تصال بي لهذا السبب . وكان

السادات واسع الاطلاع على الشؤون العربية الإسلامية [٦٤] .

عدت إلى بيتي فوجدت رسالة من السفير السيد عبدالرحمن أبوطالب يبلغني بأن الإمام أحمد قرر نقلي للعمل قائما بأعمال السفارة اليمنية في بون بألمانيا الغربية ، بدعوى أن الإمام قد أراد أن يتفرغ السيد حسن بن علي بن ابراهيم لأعماله كسفير في لندن وكان يجمع بين السفارتين اليمنيتين في لندن و بون .

سافرت إلى ألمانيا في ٣ فبراير ١٩٥٥ م وفي منتصف مارس ١٩٥٥ م وصل السيد محمد أنور السادات إلى مدينة فرانكفورت بألمانيا الغربية في طريق عودته إلى القاهرة بعد زيارات شملت العديد من الدول .

التقيت به في مقر القنصلية المصرية في فرانكفورت فقص عليّ قصة مثيرة :

ذلك أنه أثناء زيارته لليمن خلال شهر فبراير ١٩٥٥ م ، أي قبل حوالي شهر من تلك المقابلة ، و بعد أن زار الإمام أقام له سيف الإسلام عبدالله حفل تكريم بمناسبة زيارته لليمن ، وكانت في دار الضيافة في تعز، وحضر الحفل المقدم أحمد يحيى الثلايا والملازم محمد قائد سيف ، وجلس بجوار سيف الإسلام عبدالله ، الذي كان يجلس على يساره رئيس البعثة العسكرية المصرية الرائد كمال أبوالفتوح ، وكان الشيخ جازم الحروي مدير التشريفات يشرف على ترتيبات الحفل وراحة الضيوف .

عند انتهاء حفل العشاء توجه السيد محمد أنور السادات إلى غرفة نومه وإذا بمدير مكتبه النقيب حسن نائل الذي صاحبه في تلك الزيارة يقترب من سريره ومعه الملازم محمد قائد سيف الذي أصر على مقابلته ، وسلمه تقريراً خطياً عن أحوال اليمن والعذاب النفسي الذي تعانيه البعثة العسكرية المصرية وأنه لا فائدة من مجاملة الإمام ولا مستقبل لليمن في ظل البدر.

كان ذلك التقرير بخط محمد قائد سيف وتوقيعه ، و بعد أن قرأه السادات سلمه محمد قائد سيف تقريراً آخر منسوباً للأستاذ أحمد محمد نعمان ، الذي كان يقيم في نفس دار الضيافة في ذلك الوقت ، لكنه لم يكن بخط الأستاذ نعمان ولا بتوقيعه ، وهو تحفظ طبيعي من الأستاذ نعمان عندما خرج من سجن حجة بعد حبس مظلم استمر نحو سبع سنوات .

كانت رسالة الأستاذ نعمان تنحصر في شرح أحوال اليمن و بعض أمور أخرى لا تتعلق بمستقبلها .

سلمني السادات رسالة خطية من محمد قائد سيف يشرح فيها ما جرى بينه و بين السادات و يطلب مني الاطلاع على التقرير الشامل الذي سلمه إليه (الوثيقة رقم ٣) .

حكى لي السادات أن الإمام قد طلب منه إبلاغ الرئيس جمال عبدالناصر رغبته في سحب البعثة المصرية من اليمن زاعماً أنه حريص على راحة أعضائها الذين قد وصلوا إلى حالة نفسية مرهقة .

وأكمل السادات تلك القصة بقوله : إن سيف الإسلام عبدالله حاول أمامه و بكل جهده أن يقدم نفسه كداعية إصلاح يسعى إلى توطيد أقوى العلاقات مع مصر .

ثم علّق السادات على هذه القصة قائلاً إنه يشم رائحة انقلاب في اليمن .

قلت للسادات : إن المنطق الوطني والقومي يقتضي عدم تأييد أي انقلاب يستهدف الانقضاض

على الإمام في تلك الأ يام.

بعد هذا اللقاء بنحو أسبوعين وقع انقلاب المقدم أحمد يحيى الثلايا يوم الخميس ٣١ مارس سنة ١٩٥٥م، الذي اشترك فيه الملازم محمد قائد سيف، وأعلن رجال الانقلاب أن سيف الإسلام عبدالله قد تولّى الحكم خلفاً للإمام الذي تنازل لأخيه عبدالله عن منصب الإمامة. [٦٦ــ٦٧].

لم تؤيد مصر الانقلاب، وكذلك البعثة العسكرية المصرية التي كانت لا تزال في تعز لم تحرك ساكناً، والتزمت الصمت المطبق كما تقتضيه الحكمة في مثل تلك الظروف.

وفي مساء يوم الاثنين ٤ أبريل ١٩٥٥ أذاعت وكالات الأنباء خبر انتصار الإمام أحمد والقبض على أخيه سيف الإسلام عبدالله بعد أن عاش الانقلاب أربعة أيام فقط ثم سقط في اليوم الخامس.

وفي صباح يوم الخميس ٧ ابريل ١٩٥٥م وصلتني برقية من الإمام يطلب فيها وصولي إلى تعز، ولم يساورني أي قلق من مضمون البرقية، لأنه بالرغم من معرفة الإمام بمدى صداقتي بالمقدم أحمد يحيى الثلايا فإنه كان يعرف موقفي الثابت من سيف الإسلام عبدالله.

توجهت إلى تعز بعد أن التقيت بالسيد محمد أنور السادات في القاهرة، ودرسنا الموقف على ضوء هذه التطورات المرتجلة والحزينة.

استأنفت سفري إلى اليمن وكان السيد حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة المصرية قد سبقني إليها على رأس وفدٍ مصري لتهنئة الإمام أحمد، وربما كان وصوله إلى اليمن على نحو تلك السرعة سبباً في إقدام الإمام على الإسراع بإعدام أخويه سيف الإسلام عبدالله وسيف الإسلام العباس، خشية أن ترجو مصر لهما الرحمة فتتشفع لهما لدى الإمام الذي كان قد أعدم قبلهما معظم الذين اشتركوا في الانقلاب معهما [٦٨].

بعد وصولي إلى تعز ذهبت لمقابلة الإمام فوجدته وكأنه استرد شبابه ونشاطه، واستشهد بي أمام الحاضرين عن كيف كان كريما مع الثلايا وكيف أحضرته معي، ذات يوم، لمقابلته فأقسم الولاء له وللبدر.

انتهت المقابلة ولم أعرف لماذا طلب حضوري من ألمانيا، ثم علمت من البدر أن الإمام كان ينوي تشكيل محكمة لمحاكمة المتمردين ومن بينهم أخواه عبدالله والعباس، وأنه طلبني لأكون أحد أعضائها ثم صرف النظر عن هذه الفكرة وأمر بإعدامهم.

حمدت الله على نجاتي من ذلك الموقف الحرج.

أثناء وجودي في تعز عرفت حقيقة ما جرى، عرف كيف تطورت الأمور حتى قام الانقلاب وكيف تصرف القائمون عليه حتى فشل.

خرج بعض الجنود من تعز ليجمعوا الحطب من قرية الحوبان بالقرب من هذه المدينة، فقطعوا أشجار المواطنين من شدة حاجتهم إليها، ولم تكن حاجتهم تلك مبرراً لقطع أشجار المواطنين، فتصدى

لهم عدد من الزراع وتطور النزاع ، حتى تحول إلى قتال فيما بين الزراع والجنود ، احتاج الجنود إلى مزيد من السلاح فعادوا ثائرين إلى ثكناتهم في تعز وكان المقدم أحمد يحيى الثلايا ومعه عدد من الضباط يتأهبون لاستغلال أية فرصة لهم كي ينقضوا على الإمام فوجد الثلايا ومن كان معه من الضباط أن الفرصة قد لاحت لهم ، فأقنعوا الجنود الثائرين بأن شدة حاجتهم و بؤسهم ليس للزراع ذنب في خلقهما وإنما هما من نتائج فساد حكم الإمام أحمد الذي لابد أن يعاقبهم على ما فعلوه مع أولئك الزراع ، و بعد أن أقنعوهم أخذوهم إلى حيث حاصروا الإمام بعد أن زودوهم بالأسلحة من ثكنات الجيش .

وفي رسالة محمد قائد سيف ، الذي اشترك في ذلك الانقلاب ثم هرب إلى عدن عندما تأكد من فشله (الوثيقة رقم ٤) ، يقول إنه قبل قيام هذا الانقلاب بأسبوع التقى بالأستاذ أحمد محمد نعمان في دار الضيافة بتعز بتكليف من المقدم أحمد يحيى الثلايا ، لسؤال الأستاذ نعمان عما إذا كان الأحرار اليمنيون في داخل اليمن وخارجها مرتبطين بالبدر، أو أنهم غير مرتبطين به ، فأجاب الأستاذ نعمان بأنه تلقى أخيراً رسالة من عدن من الأستاذ عبدالله عبدالوهاب نعمان (المعروف بلقب الفضول) يقول فيه إن الأحرار في الخارج لا يراهنون على جواد خاسر، فاستوضحه محمد قائد سيف عن ذلك الجواد الخاسر فأجاب الأستاذ نعمان بأنه البدر، ثم وجه سؤالاً إلى محمد قائد سيف ليعرف ما إذا كان الجيش قد ارتبط بسيف الإسلام عبدالله أو لم يرتبط .

عاد محمد قائد سيف إلى المقدم أحمد يحيى الثلايا وأبلغه رأي نعمان ممثلاً للأحرار وهو أنهم غير مرتبطين بالبدر وأنهم يعتبرونه جواداً خاسراً ، كما أبلغ الثلايا بسؤال الأستاذ نعمان عن سيف الإسلام عبدالله فكلفه الثلايا بأن يعود إلى الأستاذ نعمان و يبلغه أن الجيش لم يرتبط بأحد .

ذهب محمد قائد سيف إلى الأستاذ نعمان وأبلغه رأي الثلايا الذي يفيد بأن الجيش لم يرتبط بأحد لا بالبدر ولا بعبدالله فإذا بالأستاذ نعمان يكاد يصرعه الخوف ، ولعله تأهب فوراً للهرب إلى عدن ، فلما استوضحه محمد قائد سيف عن سبب ذلك الذعر أخبره بأنه قد تورط صباح ذلك اليوم ، وأرسل رسالة ولاء لسيف الإسلام عبدالله ، الذي كان يزاول أعماله في ذلك الوقت في تعز ، وقد كتب الأستاذ نعمان تلك الرسالة معتقداً أن سؤال محمد قائد سيف عما إذا كان الأحرار مرتبطين بالبدر يعني أن الجيش لا يؤيد البدر، فكتب رسالة تأييده للأمير عبدالله .

يستطرد محمد قائد سيف وهو يصف أحداث الانقلاب قائلاً إنه وزملاءه قادوا الجيش إلى مقر الإمام وحاصروه وأطلقوا النار على بيته من عدة جوانب وأحكموا عزل الإمام داخل بيته بصفة تامة ، وقرر الضباط وعلى رأسهم المقدم يحيى الثلايا إحضار العلماء وأهل الحل والعقد الموجودين في تعز إلى ثكنات الجبش لمحاكمة الإمام وإصدار حكم شرعي بإعدامه ، ثم النظر فيما يحسن اتخاذه بعد ذلك .

أثناء المناقشات بين العلماء وأهل الحل والعقد تحدث القاضي يحيى السياغي حاكم تعز (وعضو اليمين في محكمة الأجانب التي كنت رئيساً لها) وأسهب في شرح مبررات إعدام الإمام واقترح حضور الأمير عبدالله إلى ثكنات الجيش ليحضر الاجتماع ، وافق المجتمعون وتوجه أمير الجيش السابق السيد

محمد الحوثي والأمير الحسن بن علي (ابن شقيق الإمام) والقاضي محمد عبدالله الشامي إلى القصر وأحضروا معهم الأمير سيف الإسلام عبدالله.

وعندما نوقشت مسألة تنازل الإمام أحمد عن العرش لأخيه الأمير عبدالله قال القاضي محمد عبدالله الشامي إن تنازل الإمام عن العرش أمر لا تقبله عقول القبائل، وإن الأفضل من ذلك أن ينوب الأمير عبدالله عن الإمام في أعماله.

أيد الأستاذ أحمد نعمان هذا الاقتراح وأضاف عليه أن يعلن الإمام حل الوزارة السابقة التي عجزت عن صنع أي شيء، وأن يسند رئاسة الوزارة الجديدة للأمير عبدالله الذي يتولى اختيار وزرائه، على أن يبقى الإمام أحمد رمزاً للإمامة، فوافق الأمير عبدالله على اقتراح الأستاذ أحمد نعمان وتساءل الأمير عن مصير ولاية العهد فأجاب الأستاذ نعمان بأنه يحسن تأجيل البت في هذه المسألة إلى حين الانتهاء من معالجة المشكلة العاجلة، وهنا صاح الملازم محمد قائد سيف في وجه الأستاذ نعمان طالبا منه السكوت حتى يترك غيره يتكلم إذا أن الجيش يعرف رأيه من قبل وصاح أيضاً المقدم الثلايا قائلاً: «ليس غير التنازل أو الرصاص».

عاد القاضي يحيى السياغي حاكم تعز الشرعي إلى الإسهاب في شرح مبررات إقصاء الإمام نهائياً وخلعه تماماً ومبايعة الأمير عبدالله كطلب الجيش وهذا ما يريده المقدم الثلايا، فوافق عليه كما رحب به ومن كان معه من الضباط وسأل عن كيفية إعلان ذلك شرعاً.

بعد مناقشة اتفق الحاضرون على إرسال وفد إلى الإمام يطلب منه التنازل لأخه عبدالله.

ذهب الوفد إلى الإمام وكان يتكون من القاضي يحيى السياغي والقاضي محمد عبدالله الشامي والأمير الحسن بن علي، و بعد حوار قصد منه الإمام أن يتعرف على حقيقة وقوة ما يدور حوله، وافق على التنازل فقام القاضي السياغي بكتابة وثيقة التنازل. ولعل الإمام هو الذي أملى على السياغي صيغة التنازل التي اختار ألفاظها لأنها استخدمت ألفاظ التنازل واحتوت في نفس الوقت على مضمون التوكيل.

وقع الإمام وثيقة التنازل لأخيه عبدالله وعاد الوفد إلى حيث اجتمع أهل الحل وأهل العقد، ثم عزفت الموسيقى السلام الملكي وتقدم الحاضرون لمبايعة الإمام الجديد أمير المؤمنين الإمام عبدالله.

كان سيف الإسلام الحسن في أمريكا فأظهر تأييده لأخيه عبدالله لأنه يعتقد أنه خير من البدر.

وكان البدر في الحديدة و بدأ يفكر في مستقبل ولاية عهده.

أراد الأمير عبدالله أن يتفادى الصدام مع الأمير البدر فقرر أن يرسل إليه وفداً يطلب منه البيعة أو إلقاء القبض عليه، فتطوع الأستاذ نعمان لرئاسة هذا الوفد وسافر إلى مدينة الحديدة والتقى بالبدر، و بدلا من أن يطلب منه البيعة لعبدالله اتفق معه على العمل ضده، ثم سافر مع البدر إلى مدينة حجة وهي المدينة الحصينة التي سبق أن توجه إليها والده الإمام أحمد عندما قام انقلاب ١٩٤٨م.

نصح الأستاذ نعمان الأمير البدر بأن يغدق على القبائل بالمال و يوزع عليهم السلاح الذي كان في متناول يده .

تعاقبت الساعات والإمام الجديد عبدالله ملتزم مقعده في وزارة الخارجية في تعز لا يحرك ساكناً ، بينما أخذ الإمام أحمد الماكر يواصل تحصين مقر إقامته في بيته (العرضي) وتخزين الطعام والماء وترحيل النساء إلى قصر صالة في تعز.

وقامت نساء الإمام بأحد الأدوار الحاسمة في إجهاض الانقلاب حيث قمن بقص شعورهن ، وإرساله في العديد من الرسائل إلى شيوخ القبائل ، لاسيما المجاورة لتعز، يستنجدن بهم لحماية شرف نساء الإمام بنات رسول الله .

فعلت هذه الرسائل فعل السحر لدى شيوخ القبائل ، حيث أثارت نخوتهم القبلية وهيجت حبهم لأهل البيت ، فاندفعوا بقبائلهم لنجدة الإمام وإنقاذ بنات رسول الله .

استطاع الإمام أحمد أن يشتري ولاء الشاويش المحجاني وحفنة الجنود الذين كان معهم المدفع العتيق الثقيل الوحيد في تعز، والذي كان منصوباً فوق جبل صبر المطل على المدينة والمشرف على بيت الإمام وثكنات الجيش ، كما استطاع أن يرسل من قام بتفجير ماسورة المياه التي تغذي منطقة بيت الإمام وثكنات الجيش بالماء ، ثم بدأ الإمام في توزيع الطعام والماء على الجنود الذين كانوا يحاصرونه ، ولم يبخل على من توسم فيهم قبول المال فأغدق عليهم بالذهب والفضة ، وهم يوجهون بنادقهم إلى صدره [٧٠ــ ٧١] .

ظل الإمام أحمد يعمل بكل طاقته على استرداد ثقة جنود الانقلاب وشراء ولائهم ، وعندما عرف عن وصول طلائع القبائل التي هبت لنصرته أصدر أمره إلى الشاويش المحجاني المرابط مع المدفع العتيق والوحيد في جبل صبر بأن يطلق قذائف مدفعه على ثكنات الجيش ، ولا جناح عليه إن هو أصاب الإمام أحمد نفسه ، حيث كانت ثكنات الجيش شديده القرب من بيت الإمام ، وكانت المسافة بينها و بين ذلك المدفع الثقيل تزيد على ثلاثة آلاف متر.

أذهلت مجازفةالإمام أحمد جنود الانقلاب عندما أصابت قذائف المدفع ثكنات الجيش وحدها ، دون غيرها ، فانضم معظمهم إليه ، وعندئذ خرج الإمام أحمد من فناء بيته راكباً فوق حصانه ، شاهراً سيفه واتجه إلى مبنى وزارة الخارجية وأمر بالقبض على الإمام الجديد عبدالله وجميع من كانوا معه في مبنى الوزارة .

تمكن الإمام أحمد من استخدام جنود الانقلاب في القبض على الإمام الجديد والضباط حسين الجناتي ومحسن الصعر وحسين الغفاري وعلى حمود السمه وقائد معصار وأحمد الدفعي وعبدالرحمن باكر والعلماء السيد محمد حسين عبدالقادر شرف الدين والقاضي يحيى السياغي والقاضي حمود السياغي والمشائخ علي حسن المطري والجدري وغيرهم .

ثم أرسل الإمام طائرة خاصة إلى صنعاء لإحضار أخيه العباس الذي كان قد تورط في تأييد أخيه

الأمير عبدالله، وعندما وصل إلى تعز دعاه الإمام مع أخيه عبدالله إلى تناول طعام الغداء معه، وبعد انتهاء حفل الغداء أمرهما الإمام بالسفر إلى مدينة حجة على أن يكون كل منهما في سيارة خاصة مع جنود الإمام.

وبمجرد وصولهما إلى مدينة حجة استقبلهما نائب حجة الذي نفذ فيهما أمر الإمام بقطع رأسيهما على الفور.

أعدم الإمام من قبض عليهم من الضباط والعلماء والمشائخ، وكان المقدم أحمد يحيى الثلايا والملازم محمد قائد سيف قد تمكنا من الهرب.

وكما اختلف الثلايا ومحمد قائد سيف في خطة الانقلاب اختلفا في خطة الهروب.

ففي مساء اليوم الخامس للانقلاب، عندما تأكد فشل الانقلاب، رأى محمد قائد سيف أن يهربا معاً إلى عدن عن طريق الحوبان لأنه طريق غير ممهد وغير مأهول بالسكان.

رفض الثلايا رأي محمد قائد سيف واختار الهروب إلى عدن عن طريق صالة (طريق السيارات بين تعز وعدن) وهو طريق مأهول بالسكان مزدحم بالسيارات.

تفرق كل منهما إلى طريق.

وكان ذلك مساء يوم الإثنين ٤ ابريل ١٩٥٥م.

شاءت الأقدار أن يقبض الأهالي على المقدم أحمد يحيى الثلايا صباح الأربعاء ٥ ابريل ١٩٥٥م وهو في طريق صالة متجهاً إلى عدن، وسلموه في نفس اليوم إلى الإمام الذي أخرجه على الفور لقطع رأسه في الميدان حيث وجه إليه الإمام كلاماً قاسياً معاتباً إياه أمام الناس لغدره بعد أن كان لا يرد له طلباً، وكان يعطيه المرتب الذي يفوق كل أمثاله، وكان لا يتوقف عن مساعدته كلما شعر بأنه في حاجة إلى أي غال أو رخيص. فرد عليه الثلايا قائلا إنه كان سعيداً حقاً في حياته الشخصية، ومرتبه الكبير، لكنه ثار من أجل الشعب البائس الذي غدر به الإمام وخدعه وهو يتظاهر بالعمل على إصلاحه.

خشي الإمام أن تتأثر الجموع البشرية التي احتشدت في ساحة الإعدام فأمر سيافه الذي كان يسمى بالوشاح بأن يقطع رأسه فلا يتم كلامه.

أما الملازم محمد قائد سيف فقد شاء القدر أن يحفظه فكتب نجاته وحرسه حتى وصل إلى عدن. [٧٢ — ٧٣].

سافر البدر ومعه الأستاذ نعمان إلى المملكة العربية السعودية ثم إلى مصر لشكر حكومتيهما على موقفهما النبيل عندما أرسلت كل منهما وفداً لتهنئة الإمام فور انتصاره على الانقلاب.

اتفق الإمام والبدر على مفاوضات مع المملكة العربية السعودية ومصر بقصد إبرام حلف عسكري معهما، فذلك مما لا يضير الإمام في شيء لكنه يخلق قاعدة سياسية لعلاقة خاصة تزيد من مكانة البدر في كل من المملكة ومصر، بعد أن تبين للإمام أن لهما تأثيراً خاصاً في مجرى الأحداث في اليمن.

سافر البدر ومعه الأستاذ نعمان إلى المملكة العربية السعودية وأثناء المفاوضات مع الملك سعود استغل الأستاذ نعمان الفرصة وسافر إلى القاهرة والتجأ إلى مصر.

عاد البدر إلى تعز دون الأستاذ نعمان وسقط الأمر في يد الإمام حيث انضم نعمان إلى الزبيري في عرين ثورة ٢٣ يولية، ولعل إحساس الإمام بالخطر من قيام معارضة في القاهرة تناهض حكمه في اليمن جعله يسرع إلى جدة و يوقع الحلف الثلاثي مع الملك سعود والرئيس جمال عبدالناصر في ١٨ ابريل سنة ١٩٥٦. [٧٤]. انتهى كلام البيضاني.

ولست في حاجة إلى التنبيه إلى أنه حتى ذلك الوقت لم يكن الرئيس جمال عبدالناصر قد سمع باسم عبدالرحمن البيضاني، وإلى أنه قد ورد إلى اليمن إثر سماعه بفشل الانقلاب مهنئاً كما ورد معظم الممثلين لليمن في الخارج، ولا إلى سخافة بروز الإمام على حصانه شاهراً سيفه، وقصة إجهاض الانقلاب بقص شعور بنات رسول الله واستطاعة الإمام أن يشتري ولاء الشاو يش المحجاني، فكل ذلك من صنع الخيال ولنستمع إلى المؤرخ الأديب القاضي عبدالله الشماح يروي أحداث ذلك الانقلاب في كتابه «اليمن: الإنسان والحضارة» قال: ص ـ ٢٨١ إلى ص ـ ٣٠٥ ـ:

٢٦ - انقلاب المقدم أحمد الثلايا والحاج مرشد السريحي وإمامة سيف الإسلام عبدالله.

يوم الخميس ٨ شعبان عام ١٣٧٤هـ / ٣١ مارس عام ١٩٥٥م.

تمهيداً للانقلاب

إن فكرة ولاية العهد المنطلقة من سجون حجة ها هي قد نضجت وراحت تأتي بثمارها المتوالية، فالمجزرة البشرية وقفت، والمسجونون السياسيون يفرج عن الكثير منهم، وتنشق الأسرة المتوكلية على نفسها، و يتصل المطلقون السياسيون بالإمام أحمد وابنه (البدر وليّ العهد) ويجبر الإمام أحمد أخاه سيف الإسلام الحسن على مغادرة اليمن، والحسن رغم بخله وجموده وقسوته سيما في جباية الأموال هو رجل الأسرة المالكة بعد الإمام أحمد في الإدارة والخبرة والعلم ودراسته النفسية اليمنية والشعب إلى جانب مقامه الروحي الديني المحترم في القبائل، لأنه لم يظهر على الشعب يوماً متلبساً برذائل الشهوات وسقط العادات وسفاسف الفسوق، وهو في نظر الأحرار دعاة الإصلاح عدو لدود وحجر عثرة، وقد أملت عليه خبرته ونظرته الملكية العميقة موقفه المتصلب ضد ترشيح البدر لولاية العهد إذ كان مقتنعاً أنها خدعة انطلقت من مساجين حجة ليتخذوا من البدر وسيلة إلى إنهاء حكم الأسرة المتوكلية.

وتوسعت شقة الخلاف فأصبح الإمام في قلق من إخوته لا على مستقبل ابنه البدر بل على حياة الإمام وسلطته، وهو يعرف الحسن وصرامته وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نظريته بالاستمالة، وما هناك إلا أن يتخلص منه بإخراجه من اليمن، فكلفه بأن يقوم بجولة في خارج اليمن، وفعلاً فارق الحسن اليمن، و بفراقه استدنى الإمام أحمد إليه أخاه سيف الإسلام عبدالله وفي تعز أقام عبدالله كرئيس وزراء ومستشار لأخيه الإمام أحمد.

«وترك أخاه عباس ابن الإمام يحيى في أعماله بصنعاء ولوائها وأبدى على أبناء اخوته عطفاً مادياً في حدود تأمين المعيشة المتوسطة .

و بدا الجو كأنه قد هدأ و بدأت على وليّ العهد عوارض التنكر لنا وللقضية وأسدل على ولاية العهد والتكلم لها أو عليها ستارة من الصمت ، إلا أن هذا الهدوء لم يتركه دعاة الثورة يستمر، إذ عمدوا إلى النقطة الحساسة ، فأثاروا تخوف البدر من عمه عبدالله و بقية الأسرة المتوكلية من أن يتمكنوا بلينهم للإمام وإحاطتهم به من إثناء الإمام عن فكرة ولاية العهد سيما والمذهب الزيدي لا يقر ولاية العهد ، وقد كانت تبدو من الإمام أحمد كلمات تزيد من مخاوف البدر،كما أثار دعاة الثورة مخاوف عبدالله ومن إليه على العرش وعلى الأسرة إذا ما تمكن البدر من السيطرة على اليمن بمساعدة أبيه ، وتولى الأحرار المتظاهرين بمناصرة للبدر.

وسارت حركة الإثارة في الاتجاهين تعمل عملها وتؤدي نتائجها »

(الاجتماعات)

لقد نجحت الإثارة وما بقي إلا دراسة الوضع والتخطيط للثورة من جديد فتعددت الاجتماعات بتعز، وصنعاء ، والحديدة بين دعاة الثورة والناقمين والمحرومين ، و يظهر على المسرح القيادي العسكري المؤمن الطيب النفس المقدم أحمد الثلايا المتشبع بحب الله واليمن ومحط احترام الجيش وضباطه وعارفيه و يظهر بجانبه شخصية عسكرية قوية الملازم الحاج مرشد السريحي ، وحول الثلايا التقى دعاة الثورة والناقمون فأضرموا عواطف الثلايا على الوضع القائم وكان الثلايا يلتهب غيظاً من تردي الوضع ، إلا أن مأساة فشل ثورة سبع وستين هجرية وتجاربها التي شرب الثلايا كأس مرارتها ، جعلته يفكر و يتلمس الطرق إلى ثورة وانقلاب يكفل مصلحة اليمن ، وكان يرى أن المصلحة لا تأتي عن طريق القتل وإراقة الدماء .

وقد كان الإمام أحمد يبدو وكأنه من التخدير والمرض اللذين كان يتظاهر بهما في شبه ميت مسلوب الإرادة ، وتفكير الثلايا هذا تركه لا ينزع إلى ثورة تقتلع من أول يومها حكم الأسرة المتوكلية ، بل ثورة تحجب الإمام أحمد عن مسرح الحكم وتنصب من الأسرة المتوكلية إماماً غير مستبد ، وعنده قابلية وتفتح للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ولا أمل في البدر أن يقوم ضد أبيه ، والحسن متحجر متزمت ولابد من انقلاب ونصب إمام وسيف الإسلام عبدالله هو الذي يمكن أن يرشح ، وتشاء المصادفات أن يزداد البدر ابتعاداً من الأحرار وتملصاً من اللقاء معهم ، وأن تزداد مخاوف عبدالله فيتصل عبدالله بالثلايا من دون أن يعلم ما لديه من تفكير وحيرة ، فيجتمع بالثلايا و يبدي له تذمره من الوضع فيصادف هذا التذمر هوى في نفس الثلايا إلا أن عقله سيطر على أعصابه فلم يزد على إبدائه مشاركته لعبدالله في إنكار الوضع مظهراً أن علاجه بيد الإمام ومساعدة ذوي الرأي الذين في طليعتهم عبدالله ، وإن كل ما بيد الثلايا وأمثاله القيام بالواجب العسكري في إجراء ما يأمر به القائد الأعلى الإمام .

« و يفترق عبدالله والثلايا ، وكلاهما يستعرض الآخر و يزداد سبحا في التفكير، وتتجدد الا تصالات مباشرة، و بواسطة السيد حسين الو يسي والأمير الحسن بن علي ابن الإمام يحيى وغيرهما من خاصة

سيف الإسلام عبدالله تجنباً أن تلفت الا تصالات المباشرة نظر الإمام أحمد» .

« وقد نجم من هذه الا تصالات تأكيد الثقة المتبادلة بين الثلايا وعبدالله فيصارح كلاهما الآخر فيقبل عبدالله خطة الثلايا التي لمحنـــا إليها و يتعهد بالتزامها وإنهاض اليمن نهضة شاملة .

و بإطلاق المسجونين و بالا تصال بالإرياني ورفاقه ذوي الرأي والوطنية ومعرفة رأيهم في الموضوع ودراسته . فيعرض الثلايا على الإرياني ونعمان خطته فيترددان في إمامة عبدالله أولاً ثم يوافقان على الخطة وراح الأستاذ نعمان يتصل بعبدالله ، و يشرع الثلايا في تهيئة الظروف للانقلاب فيواصل التردد بين صنعاء وتعز وكذا عبدالله للتعبئة والتمهيد ولم يحسبا لا هما ولا الإرياني للبدر ومن حوله بالحديدة ، ولا لمحمد الزبيري وحزبه بمصر ، ولا للحكومة السعودية والجمهورية العربية المتحدة الحساب الكامل .

فالزبيري لن يعارض في إزالة الإمام أحمد عن السلطة ، وكذا الجمهورية المصرية إنهما سيرحبان بتنحية الإمام أحمد ، والسعودية هي أميل إلى عبدالله من البدر وأما البدر فتافه النظر وقد بدأ يتنكر للأحرار وميئوس أن يقوم بعمل ضد أبيه .

ولم يحسب دعاة الانقلاب لمكر الإمام أحمد ومراوغته وشخصيته القوية الحساب اللازم فإن احتجابه وإغراقه في المرفين وتظاهره بالأمراض المنهكة لعقله وإرادته و بدنه أقنع دعاة الانقلاب وغيرهم أن الإمام أحمد أصبح في حكم الميت ولم تبق فيه بقية يتخوف منها ، وأنه لأدنى ضغط عسكري سيتنازل لأخيه عبدالله راضياً بأن يعيش محترماً في قصوره مع الحريم سليب التفكير والإرادة المركزتين و بتنازله لعبدالله تنقطع حجة البدر في ولاية العهد ، وتنقاد القبائل وقد يقتنع الحسن ولو على مضض ، لأن في قيام عبدالله إقصاء خطر تولي محمد البدر للإمامة وهو في نظر الحسن كما سبق .

وكان سيف الإسلام عبدالله قد ضم إليه أكثر أفراد الأسرة المالكة وأقنعهم بنظرته واعتمد في صنعاء على أخيه سيف الإسلام عباس وعلى الأمير الحسن بن سيف الإسلام علي وغيرهما ، وعلى هذا الحساب والتقدير والمظاهر بني عمل الانقلاب ، ولم تكن الخطة قد اكتملت بوضع قاعدة بالحديدة من رجالها حمود الجايفي وأحمد الشامي الموجودان بالحديدة وكان الثلايا في طريق الا تصال بهما واقترح على سيف الإسلام عبدالله أن يعين عملاً بالحديدة لمحمد بن عبدالقادر وعبدالله الشماحي ليتمكنا من إرساء القاعدة بالحديدة و يتصلا بالجايفي والشامي وغيرهما ومن مهمة هذه القاعدة هو القبض على محمد البدر يوم الانقلاب والسيطرة على الحديدة .

كما كان الثلايا يفكر في تبديل الجنود بقاهرة تعز ، ودار النصر بصبر ، إلى غير ذلك ، وقبل أن تستكمل عملية خطة الانقلاب يتدخل القدر لتعجيل الانقلاب إذ حصل احتكاك من بعض الجنود وأهالي حوبان تعز فتكون حادثة الحوبان » .

حادثة الحوبان المنحوسة

« كان شيخ الإسلام عبدالرحمن الإرياني ، والأستاذ أحمد نعمان وغيرهما ممن وافق على خطة الثلايا

الانقلابية بعد مناقشة وأخذ ورد، وكانوا مع الثلايا يهتمون بإتقان الخطة للانقلاب، وأن يعجل بالانقلاب مخافة أن يموت الإمام أحمد الذي كان يبدو وكأنه قد اقترب من الموت، وبموته سيعود سيف الإسلام الحسن و يستولى على الحكم حتماً فيطول شقاء اليمن، ولايصح من البدر شيء، كما أن عبدالله سيتلاشى في أخيه الحسن، وفي جو هذه المناقشات خرج بعض الجنود النظاميين من معسكرهم (عرضي تعز) إلى الحوبان صباح الأربعاء ٧ شعبان للاحتطاب والصيد فجرت بينهم و بين بعض أهالي الحوبان منازعة قُتِل بها أحد الجنود فعاد رفاقه مستصرخين الجيش، وكانت دعاية دعاة الانقلاب قد ذمرت الجيش ضد الإمام أحمد وجعلت الجيش يكاد يعتقد أن الإمام أحمد لم يعد ذلك الرهيب، فخرج الجيش من جميع ثكناته ينهب قرى الحوبان ويحرقها و يقتل من وجد ثم يعود إلى ثكناته بتعز بعد مغرب شمس الأربعاء.

« ولم يكد الجيش يستقر في ثكناته حتى عادت إلى أفراده المخاوف من الإمام، فيفكر أكثرية الجيش بالمفارقة بصفة جماعية إلى خارج حدود اليمن وفعلاً بدأت سرايا الجيش تحزم أمتعتها، وتأخذ أسلحتها، وتحرك بعضها للفرار، بينما اتصل الإمام أحمد سراً بمشائخ صبر وغيرهم و بالجيش البراني (القبلي) ليسحق الجيش النظامي.

وقد كان هذا الجيش النظامي هو المعول عليه للقيام بالانقلاب بتعز، وكان ضباطه المهمون معدين لذلك، ومنهم الملازم الحاج مرشد السريحي فإذا تفرق هذا الجيش أو كان سحقه أو جله فمعناه تجميد الانقلاب واكتشافه، فلم يبق بدّ من تعجيل الانقلاب. وراح الثلايا والحاج مرشد ومن معهما من الضباط ليلة الخميس يرجعون من غادر العرضي وتجميعهم، ودفع الجيش للقيام بالانقلاب فجر الخميس ٨ شعبان سنة أربع وسبعين قبل أن يسبقهم الإمام أحمد إلى سحق الجيش مهونين أمر الانقلاب، فالإمام قد أصبح كميت وأنه بمجرد مهاجمته إلى قصره يستسلم و يتنازل لأخيه سيف الإسلام عبدالله الذي يؤيد الجيش، فاقتنع الجيش بهذه التعليلات التي دفعته هي وتخوفه إلى تفجير الانقلاب فجر الخميس».

فجر الخميس ٨ شعبان سنة ٧٤

« صدق الجيش شيئاً ما «تهوين» جانب الإمام، مع الخوف العميق في قلوبهم منه الذي جعلهم يتصورون السحق والتعذيب، و يفكرون في الخلاص وها هو عبدالله سيكون إماماً، فلا داعي للفرار، ويمشي الجيش فجر الخميس الثامن من شعبان عام أربعة وسبعين وثلاثمائة وألف وراء الملازم الحاج مرشد السريحي المجحزي (بطل الموقف، ودغميت الانقلاب) فيحيطون بقصر الإمام أحمد القائم جنوب (المعسكر) عرضي تعز والملاصق له، ويحتلون من سور القصر مخافر حراسته وأبواب سوره، و يقبضون على ضباط الحرس وما هناك من سيارات ومعدات و يرسلونها إلى العرضي هاتفين بمطالبة الإمام أحمد بالتنازل عن الإمامة.

«ثم استدعى المقدم أحمد الثلايا إلى العرضي جميع ذوي الرأي والشخصيات من أعضاء الحكومة الأحمدية المتوكلية، منهم نعمان والإرياني، وأمير البيضاء محمد بن عبدالله الشامي، ومحمد الذاري، وحمود الوشلي، وزيد عقبات، وعبدالله الشماحي ويحيى السياغي، وأحمد زبارة، ويحيى الكبسي، ويحيى محمد باشا المتوكل، وأمير جيش تعز محمد الحوثي، ومحمد بن علي المجاهد، وعبدالله عبدالإله الأغبري، وأحمد بن محمد المهدي، وقاسم بن ابراهيم، ومحمد بن حسين عبدالقادر، ومحمدبن قاسم ابن الهادي، ومجموعة كبيرة من الشخصيات، ويحتدم النقاش فيستدعي الحاضرون سيف الإسلام عبدالله من غرفته بالقصر فيحضر، و يبدأ الا تصالات مع الإمام أحمد فتظاهر بأنه في حالة مستحضر ولم يجب إلى التنازل.

فيندفع الحاج مرشد و يهاجم القصر وراءه الجيش والذي استمر في إطلاق الرصاص على حجرة الإمام بالقصر نحو خمس دقائق كما ضربت المدفعية شرفات القصر صارخين بتنازل الإمام ومبايعة عبدالله مهددين أنه إذا لم يستجب الإمام و يبايع عبدالله فسينسفون الإمام مع قصره و يسحقون المجتمعين بالعرضي فيذهب أمير الجيش محمد الحوثي وأمير لواء البيضاء محمد الشامي فيوقفان إطلاق النار و يتصلان بالإمام أحمد فإذا هو متناوم وفي مظهر مستحضر فيعرضان عليه تأزم الموقف ومطلب الجيش فيجيبهما في هدوء واستكانة إلى أنه متنازل ويحرر ورقة فيها شيء من المواربة: إذ يقول إنه متنازل لأخيه عن الأعمال وإنه من قبيل انتقال الخاتم من اليمين إلى اليسار، و يتلقى المجتمعون هذه الورقة بالقبول متجاهلين أنها لم تصرح له بالتنازل عن الإمامة بل عن الأعمال: و بايع الأعيان عبدالله في الساعة الثانية من صباح الخميس».

الأستاذ أحمد نعمان

«سار الأستاذ النعمان والزعيم الإرياني مع مقدمات الانقلاب كما سلف، ويجيء الانقلاب مفاجأة قبل استكمال الاستعداد فإذا بالثلايا ورجال الانقلاب أمام الأمر الواقع الذي لم يبق معه خيار للإنسحاب ولا مبرر للانفلات عن مؤازرة الانقلاب مهما تكن النتيجة، وتجرى المبايعة لعبدالله ابن الإمام يحيى وتظهر على وجه النعمان وهو يبايع ملامح التخوف العام فإن النعمان قد ذاق بثورة سبعة وستين هجرية مرارة المغامرة التي قذفته في سجن ذمار ثم جرته في الأغلال إلى حجة وسجونها الرهيبة وإلى ما بعد السجون مما هو أشد منها كما جرت اليمن إلى تلك المآسي، فالأستاذ نعمان هو اليوم غير الثائر المغامر إنه الثائر السياسي المجرب الحذر الحريص على رقبته من الأغلال ومن السيف وعلى رجليه من القيد وعلى يديه من المغلقة التي ذاق مرارتها في ثورة سبعة وستين وأصبح يتخيل أشباحها الرهيبة صباح يوم الانقلاب فالإمام يوارب في كلمة تنازله، وعبدالله مدهوش، والبدر محمد بالحديدة وله خطره، ولم يكتم مشاعره سيما عن موقف البدر بالحديدة و ينعقد اجتماع من الثلايا والإمام عبدالله والنعمان والإرياني و يبدي فيه النعمان موقف البدر وأن إرجاء حل مشكلة البدر ساعة من نهار تكون الخطر، وفي سرعة من النقاش وافق الثلايا والإمام عبدالله على إرسال وفد برئاسة النعمان إلى الحديدة

لإقناع البدر أو القبض عليه قبل أن يتمكن من القيام بحركة معاكسة للانقلاب ، فيذهب النعمان على رأس وفد من أعضائه القاضي عبدالله عبدالإله الأغبري والسيد أحمد بن المهدي على طائرة الساعة الرابعة من صباح الخميس و يصل الحديدة ، فإذا به يعجز عن القبض على البدر و يقع في قبضة البدر فيقوى موقف البدر بالنعمان و بالسيد أحمد الشامي وحمود الجايفي ومحمد الرعيني وغيرهم فيضع البدر بالحديدة من يعتمد عليه مع القوة اللازمة و يرسل إلى الملك سعود وفداً من النعمان والشامي فيقيمان الدنيا و يقعدانها وإذا بالجمهورية العربية المتحدة والقاضي محمد الزبيري يوجهان دعاية إذاعية وصحافية ضد انقلاب الثلايا كان لها أثرها في جو الانقلاب فقد كان الأستاذان الزبيري والعيني والأحرار في الخارج يرون أن الأمير عبدالله ابن الإمام يحيى عميل أمريكا وأنه سيحول الانقلاب إلى أداة تجعل اليمن تحت النفوذ الأمريكي » .

« أضف إلى ذلك أن الأحرار بالخارج وفي مقدمتهم الزبيري والعيني وإن كانوا على صلة بالثلايا وأهدافه الثورية إلا أنهم لم يكونوا ولا نحن قد انتهينا إلى قرار نهائي منه تنطلق الخطوة الأخيرة إلى الثورة ونظامها ونظام حكومتها ، فإن حادثة الحوبان كما سبق أرغمت الأحرار في الداخل إلى تلك الخطوة الأخيرة قبل التزود لها عسكرياً ونظاماً مما جعلهم يرون الإبقاء على مظهر الإمامة ، فأعلنوا سيف الإسلام عبدالله إماماً ديمقراطياً عن طريق تنازل الإمام أحمد له .

و بلاشك ان الأحرار في الخارج فوجئوا بأمرين اثنين بالانقلاب أولاً قبل أوانه ، وثانياً بإبقاء نظام الإمامة وإعلان عبدالله إماماً مع الإبقاء على أحمد ، ولكن هذه المفاجأة مهما كانت ما كان لأحرارنا بالخارج أن يندفعوا بها إلى محاربة الانقلاب بالداخل وإن كانوا قد ذعروا من إمامة عبدالله و بقاء أحمد ، فتخيل إليهم أن الانقلاب قائم في غابة بين شدقي الهول ، يكتنفه أسد مفترس « هو أحمد » وذئب مخاتل « هو عبدالله » » .

« و يفسر هذا التخوف أن الزبيري أرسل إلى الثلايا رسالة شرح فيها هذا التخوف وطلب من الثلايا إعدام الإمام أحمد ، والخلاص من سيف الإسلام عبدالله ليستطيع الانقلاب السيطرة على الموقف و يلتف جميع الأحرار حول الانقلاب ، وقد حمل هذه الرسالة الأستاذان محسن العيني ويحيى جغمان إلى الثلايا وجرت بينهما محاورة انتهت بالتقاء التفكير حول ترسيخ الانقلاب في مراحل تنتهي بالتخلص من الإمامة وأحمد وعبدالله وعاد العيني وجغمان يحملان جواب الثلايا وأفكاره ليدرسها الزبيري ومن حوله و يوقفوا حملاتهم ضد الانقلاب ولكن الأستاذين العيني وجغمان لم يصلا إلى عدن إلا وقد تغلب الإمام أحمد على الانقلاب وعلى رجاله ،ونال أحرار الخارج والداخل ما كانوا منه يحذرون كما ستراه فيما بعد ، فإن البدر قوي موقفه بعد وصول النعمان إليه فثبت موقفه بالحديدة وصعد إلى حجة يصحبه النعمان والشامي اللذان بلسانيهما كهربا جو القبائل وشحناه بصواعق من نار يرسلانها من شوامخ حجة على الانقلاب ومقره ورجالاته ، ومن حجة هز البدر اليمن ببرقياته ورسائله يستصرخ القبائل والقادة لفك الحصار عن أبيه الإمام أحمد ، و يرسل إلى تعز برقيات التهديد ، و برقية يعلم أباه سراً بواسطة مدير اللاسلكي بتعز العسولي بموقفه ، فيشتد أحمد و يتصل من حاله في كتمان بصنائعه من الجيش البراني

بتعز وما حولها و بجبل صبر وغيرها يعلمهم بموقف ابنه البدر وأن يستعدوا لما يتلقونه منه ويحرر منشوراً بخطه ظاهره النصح للجماهير بالهدوء ولرجال الانقلاب بالحكمة في التصرف كان له أثره، وقد شعر الثلايا بحراجة الموقف، وإليهما وإلى رجال الانقلاب بتعز نقف، أما النعمان فقد نجا بنفسه، و بالبدر التحق وأعاره لسانه وقلمه هو والشامي».

رجال الانقلاب بتعز

«تم الانقلاب من دون أن يراق محجم دم، وتنازل الإمام أحمد لأخيه عبدالله و بو يع عبدالله إماماً، وتكنى بالمتوكل على الله وكان ما سلف، ونوقشت مع ذوي الرأي والأعيان أهم المشاكل وغادر نعمان تعز إلى الحديدة في ثقة بأنه سيتغلب بأسلوبه على البدر فيغلق باب الفتنة (وقد أغلقه علينا) وفي ظل هذا الظن والاطمئنان انصرف رجال الانقلاب إلى تدعيم حركة الانقلاب وما تطلبه من نظم جديدة، فأرسلت البرقيات إلى عموم اليمن معلنة إمامة عبدالله المبنية على تنازل الإمام أحمد نظراً إلى ما عليه الإمام أحمد من مرض أقعده عن القيام بأعباء الإمامة و واجباتها نحو الشعب، وقد قوبل هذا التنازل بارتياح وتأييد و يطير الأمير الحسن بن سيف الإسلام علي من تعز إلى صنعاء يشرح الموقف لعمه سيف الإسلام عباس والمسؤولين والأعيان و يعرض عليهم صورة فوتوغرافية لتنازل الإمام أحمد و يأخذ البيعة لعبدالله».

«ويحمل من عبدالله والثلايا توجيهات أولية لتنظيم الأعمال في صنعاء والشمال ومشاورة ذوي الرأي، و يعود الحسن بن علي آخر نهار الخميس إلى تعز بما لمسه من ترحاب عام، ويحمل معه رسائل التأييد من أعيان صنعاء وعلمائها. وفي الساعة الثانية من مساء الخميس ليلة الجمعة عقد اجتماع بمقر الثلايا بالعرضي حضره رجال الانقلاب وذو و الرأي».

«وكان الحسن بن علي بعد عودته من صنعاء قد زار الإمام أحمد بعد المغرب فلمحه من وراء باب غرفته قبل أن يشعر به فإذا بالإمام يتمشى بساحة غرفته كأصح ما يكون، ثم برك أحمد بركة الأسد وأخذ القلم يكتب والخداع والشر يتطاير من عينيه النجلاو ين الرهيبتين فتأخر الحسن بن علي من باب الغرفة خطوات ثم تحرك حركة تشعر أن هناك قادماً، وتقدم في بطء إلى غرفة الإمام ودخل فإذا بالإمام أحمد ملقى على سريره متظاهراً بأنه في حالة مستحضر فاقد الإحساس ولم يزد أن قلب عينيه إلى وجه الحسن الذي فارقه إلى المجلس المنعقد بالعرضي وشرح ما نظره مقترحاً اتخاذ خطة حازمة مع الإمام أحمد ولو بقتله، وقد أيده الحاج مرشداً مفيداً: انا إذا لم نسبق إلى قتل أحمد فسيقتل رجال الثورة، وشمر الحاج مرشد لينفذ القتل لأحمد فعورض فأوقف».

«واستمروا في دراسة الوضع على ضوء ما حمله الحسن بن علي عن صنعاء، فاطمأنوا على الوضع الداخلي، بأن أخطر المشاكل قد اختفت أكثرها بتنازل الإمام أحمد من دون أن يراق دم، ثم إن أكبر الشخصيات المسؤولة يميلون إلى عبدالله مثل أميري لوائي البيضاء وإب محمد الشامي وأحمد السياغي، ولم يكن هناك إلا البدر محمد، وقد ذهب الأستاذ نعمان المرجح أنه سينجح في التغلب على البدر. وفي

ظل هذا الاطمئنان والفرض تركز الاهتمام على موقف سيف الإسلام الحسن الموجود بالخارج ، وموقف الملك سعود والجمهورية العربية والجامعة العربية ، فشكل ثلاثة وفود ، ومن مهمة الوفد إلى الحسن إقناعه بمبايعة عبدالله وإيقافه بالخارج حتى تستقر الأوضاع ، وفعلا عين أفراد الوفود وتم إعداد كل ما يلزم لسفرهم بعد صلاة الجمعة ».

« و يسفر صباح الجمعة و يفرغ من صلاة الجمعة لا عن ذهاب الوفود بل عن موقف البدر وضمه النعمان إليه وسفره إلى حجة وما قام به من تعميم البرقيات يستصرخ القبائل إلى آخره .

وهنا تنقلب الخطط رأسا على عقب ، و يلوح في الأفق الخطر يبرق ، فتوقف الاهتمام بالخارج فتتوقف الوفود ، وتكشر النوائب عن أنياب الإمام أحمد ، فيصدر منشوراً بخطه وزعه ليلة السبت يعلم فيه الجمهور أن ابنه البدر قد صعد إلى حجة وأن القبائل تلتف حوله ، وأن الإمام قلق لهذه المباغتات وأنه قد أمر البدر بأن لا يعرض اليمن للفتنة والحرب الأهلية ، وناشد الإمام الجمهور أن يخلدوا إلى الهدوء والسكون ، وطالب أخاه والثلايا أن يكونا حكيمين في تصرفهما إلى ما هناك ، مما هز الشعور واستعاد إليه هيبة العملاق أحمد ، فها هو بفكره القوي ، وعزمه القوي ، وخطه القوي ، إذن هو غير مريض.. ، هو لم يتنازل ، هكذا تتجاوب الأوساط والأفكار في أي موضع ظهر فيه هذا المنشور الذي لم يكن في ظاهره أي غمز في الانقلاب ولا رجاله ولكن في باطنه السر والشر الخفيين ، فإنه لم يظهر في مدينة تعز إلا وحرك الأهالي بمظاهرة ضد الانقلاب يقودها الشيخ الغماري الأهنومي ، وحاول المتظاهرون أن يقتحموا مقر الانقلاب بالعرضي ، وفعلا دخل الغماري وأحد ذو يه و بعض المتظاهرين إلى مقر القيادة واشتبكوا مع جنود الانقلاب الشيخ محسن الصعر ، وقد ترك المنشور البلبلة الكلامية والفكرية تسود المجتمعات ، ولكل هذه المباغتات عقد رجال الانقلاب جلسة مستعجلة فيها بحث الموقف» .

بحث الموقف على إثر فشل النعمان

«ها هو البدر احتفظ بسلطته بلواء الحديدة ، فأطلق من مستشفى الحديدة حمود الجايفي الذي كان قد نقل إليه من حجة ، و بالجايفي ربط القيادة العسكرية وحفظ الأمن .

والتف حول الجايفي محمد الرعيني ، ومجموعة من الضباط ، وأقام البدر بالحديدة للإدارة المدنية السيد يحيى عبدالقادر ، واحتجز كل مشتبه به .

وتغلب على النعمان ورفاقه وضمهم إلى أنصاره وأرسل إلى الملك سعود وفداً مكوناً من الشامي والنعمان فأقاما الدنيا وأقعداها وتركا في مسامع الجزيرة طنيناً ، و بعد أن ثبت البدر موقفه بالحديدة فارقها إلى حجة يصحبه أمير لواء الحديدة السيد محمد بن أحمد باشا المتوكل . إذ كان غير مطمئن إليه ، وتلتف حوله القبائل و يصل حجة فيطلق بقية المسجونين السياسيين منهم حسن العمري وعبدالله السلال والقاضي محمد بن علي الأكوع والشيخ علي محسن باشا والسيد عبدالقادر وأبوطالب ، و يضمهم إليه فأخلصوا له في المعركة ، ومن حجة يستصرخ القبائل والأعيان والعلماء ، و يتصل بأبيه برقياً فيعلمه

بموقفه، فيشتد الإمام أحمد فيرسل منشوره السياسي السالف الذكر فيحدث تلك البلبلة، و يدوي صوت القاضي محمد الزبيري من مذياع صوت العرب ضد الانقلاب وسيف الإسلام عبدالله، فتجمعت السحب المنذرة بالخطر، فقلبت خطط الانقلاب على رأسها، دعت قادة الانقلاب لدراسة الموقف من جديد ووضع تخطيط جديد، فينعقد اجتماع طارىء صباح السبت بمقر القيادة العرضي، و يشتد فيه النقاش فيرى العسكريون الذين منهم حسين الجناتي والجدري وأحمد الدفعي ومحسن الصعر وفي مقدمتهم الحاج مرشد، يرون و يصرون على المسارعة إلى قتل الإمام أحمد ثم يفعل الله ما يشاء، أو على الأقل إخراجه من قصره الملاصق للعرضي واحتجازه في مقر القيادة بالعرضي ليؤمن من مكايده ومؤامراته سيما بعد عملية المنشور، وكان في هذا الرأي الحزم والصواب إلا أنه عورض بشدة من عبدالله والثلايا وغيرهما بحجة أن الحكومة الانقلابية بنيت على تنازل الإمام أحمد، وفي قتله أو احتجازه إثارة يستغلها البدر، ورأوا أن يضغط عليه ليعلن تنازله بصراحة لا غموض فيها في محرر يصدره بخطه الذي كتب به المنشور ويحرر رسالة إلى ابنه البدر يوقفه عن أية حركة، و يلزمه بمساندة عمه عبدالله ومبايعته، و يستقدمه للمفاوضة إلى تعز أو صنعاء ورسالة ثالثة إلى الجمهور والأعيان بصفة منشور يعلن لهم فيه موجبات تنازله و يطلب منهم الإطاعة لأخيه عبدالله، فإن أبى الإمام أحمد احتجز أو قتل».

«ولذلك ذهب إليه وفد منهم القاضي عبدالرحمن الإرياني وأمير جيش تعز السيد محمد الحوثي ومجموعة يتقدمها الإمام المتوكل على الله عبدالله ابن الإمام يحيى فيدخلون عليه وقد ظهر في جلد النمر كامل الصحة فيعرضون عليه الموقف وتشكك الناس وحراجة الوضع الذي قد يدفع الجيش إلى إقامة مذبحة فاجعة، و يتبعون ذلك بعرض مطالبهم فيجيبهم إلى ذلك، و يفيدهم أنها لم تبق عنده أية رغبة في الإمامة والقيام بأعبائها وأن كل ما يهمه استقرار اليمن واستقلاله، وأن كل ما يطلبه و يشترطه هو الإبقاء على كرامته واحترامه، و يتمنى لأخيه عبدالله النجاح والفوز و يعده أنه سيسانده في كل أعماله لصالح الشعب. وحرر ثلاث وثائق أحدها عن تنازله لعبدالله عن الأعمال والثانية إلى الشعب والجيش والثالثة لابنه البدر».

«فيعود الوفد من أحمد وهم مثلوجو الصدر مقتنعون بصدق ما قاله أحمد وأبداه، و يأمر الإمام المتوكل عبدالله الثلايا برسم آلاف الصور للثلاثة المحررات وتوزيعها في أنحاء اليمن بالطائرة وغيرها وإذاعتها، ويحدث نشرها نوعا من اقتناع الجمهور بتنازل أحمد لأخيه وتسود الطمأنينة والتفاؤل، وخفيت بل اختفت المراقبة من قبل القيادة الانقلابية على أحمد عملاً بالشرط الذي طلبه وعليه أصدر محرراته الثلاثة، فتمكن أحمد من إبرام مؤامراته بتعز في سرعة كما ستمر بك، وتبين أن كل ما عمله أحمد وأبداه مع الوفد لم يكن إلا مكيدة خدر بها قادة الانقلاب فقد انصرفوا عن المراقبة على أحمد إلى تدعيم النظام الجديد في الداخل ومواجهة ما يتمخض عنه موقف البدر إن هو أصر على العناد، فيلزم الإمام المتوكل عبدالله أخاه العباس بنشر محررات أحمد وإرسال صور منها إلى البدر وأخذ إفادته، وأن يجند من القبائل المحيطة بصنعاء ليحركهم إلى حجة إذا لم يستجب البدر إلى دعوة أبيه كما أن إمامنا المتوكل على الله عبدالله استدعى الأمير لواء إب القاضي أحمد السياغي فيصل إليه يوم الأحد و يعقد معه جلسة خاصة نحو

ثلاث ساعات لم يحضرها حتى الثلايا، مما أوجب قلق قادة الانقلاب واتهام إمامهم عبدالله بأنه يدبر مع السياغي خطة ضد العسكريين ورجال الانقلاب مما يجعل بعضهم يبرر موقف النعمان، و يعود السياغي فور انتهاء اجتماعه بالإمام عبدالله من دون أن يقف مع أحد فيترك وراءه قادة الانقلاب في اضطراب فكري اجتمعوا له و بعد مشاورة قرروا الاناة إلى أن يتبين موقف البدر وتنتهي مشكلته ثم لهم الرأي مع الإمام عبدالله إذا بدأ ينحرف».

« وتغيب شمس الأحد و يأتي مساؤه بسكون ليلة الإثنين وكأن كل شيء هادىء كل ما يهزه صوت الزبيري ضد حكومة الإمام عبدالله وإذاعة جدة ضد الانقلاب، وأنه لهدوء كان أحمد يعمل طيه ليحوله إلى جحيم و يسفر صباح الإثنين ثامن عشر شعبان خامس يوم من عمر الانقلاب الثلاثي في وكره بعرضي تعز ولم يأت عصر الإثنين إلا وشرع في تنفيذ مخططه فتغلب على المحافظين عليه وأرسل النساء والأطفال من قصره بعرضي تعز إلى قصر صالة ثم شرع في الهجوم على مقر القيادة الانقلابية بالعرضي الذي بدأ على النحو التالي: ».

معركة عرضي تعز

« أبرم أحمد المؤامرة في سرية وسرعة خارقتين أعانه عليهامهارته الحربية وقدرته في المداورة والمواربة، إلى جانب سذاجة رجال الانقلاب وطيبة الثلايا وحنان الإمام عبدالله على أخيه أحمد من القتل، فلم يسفر صباح الإثنين إلا وقد فرغ من خطته، ففي غفلة رجال الانقلاب اجتذب أحمد معظم المرتب بكل القلاع العسكرية بجبل صبر وصالة والجحملية وتعز واستوثق منهم بأنهم إلى جانبه في أول حركة يقوم بها من قصره بالعرضي الذي كان قد ملأه بالزاد والماء والحطب والذخيرة، كما استمال بعض مشائخ لواء تعز منهم ابراهيم حاميم و بعض الكتيبة العسكرية المحافظة عليه في قصره بقيادة الضابط اسماعيل الأكوع واتصل بمعظم الجيش البراني (القبلي) و بعض مشائخ الشمال الذين كانوابتعز ولم يبق بمدينة تعز وما جاورها من المواقع الجبلية وغيرها إلا بعض المراكز العسكرية النظامية وإلا مقر القيادة الانقلابية بعرضي تعز لم تُتسرب إلى المرابطين بها خيوط المؤامرة».

« ولم يكن مقر القيادة الانقلابية هذا بالموقع العسكري الحربي فهوعبارة عن مقر إدارة وتجمع يستقر به الجيش و ينام و يتعلم التمرينات العسكرية الجسمية، غير حصين ولا صالح للدفاع والإشراف، تشرف عليه القلاع من صبر وغيره و يتحكم عليه قصر الإمام اللاصق به، ولا بئر فيه ولا مستودع واسع للماء، و بأدنى مضايقة على من فيه يقضى عليهم، وإلى جانب هذا أنّا لم ندخر فيه أية كمية من الماء والزاد و يأتي ظهر الا ثنين وجانب المؤامرة الأحمدية بتعز أرجح من موقف الانقلاب ولا يتوقف نجاح المؤامرة إلا على ضرب من المغامرة يحرك بها أحمد لغم المؤامرة لتفجره الفرصة التي إن تأخر اغتنامها فلربما فاتت على أحمد.

« ومن الاعتراف بالحقيقة أن أحمد هو من أولئك القلة الذين لا يدعون الفرصة الحربية تمر من بين

أيديهم بل يأخذونها ولو من بين لهوات الأخطار ولم يكن أحمد رعديداً ولا متردداً عند أن يطلبه النجاح أن يغامر ليموت أو ينجح ».

« فقد كان معظم الكتيبة المحافظة عليه من الخروج متشددين لم يجد عندهم ليناً معه، ومن المحتم تغلبه عليهم، فإن مساعدة المرتبطين بأحمد في خارج قصره متوقفة على أن تبدأ من أحمد بحركة وفكه هو الحصار المضروب على قصره، وإذا هو لم يعجل بحركة فإن المؤامرة ستنكشف و يسحقه في قصره الجيش، ولذلك ــ وقد مهد أحمد لمبادئته ــ أخذ لأمته وسيفه في يده وتقدم إلى باب قصره ففتح الباب بشدة كان لها دوي أخرج المحافظين من غرفتهم متجهين نحو الباب فإذا بهم مع أحمد وجهاً لوجه وسيفه مصلت بيده فصرخ فيهم ها هو إمامكم بينكم ما تريدون منه تريدون أن تقتلوا إمامكم أمير المؤمنين إنكم لا تقدرون فإمامكم محروس بالله، من يريد منكم المبارزة أو منع الإمام من الخروج فليتقدم، فتأثر المحافظون و وقف كل واحد مكانه كأنه مسمور وتقدم الضابط اسماعيل الأكوع نحو أحمد فهجم عليه أحمد وأخذ بتلابيبه فخارت قوى الأكوع ولم يبد حراكاً فنادى أحمد الجند: خذوا هذا العاق أمامكم واطرحوا بنادق الإمام فيلقون البنادق ويحتجزون الأكوع فيأمرهم أحمد أن يتركوا الأكوع فقد تاب وعفا عنه، ثم أخرج أحمد النساء والأطفال من قصر العرضي وأمر الأكوع و بعض العبيد باطلاعهم إلى قصر صالة، وأمر الجنود الذين كانوا محافظين عليه بعدة أوامر فينفذونها كالآلات وفتحوا عن أمره مستودع النقود ونقلوا منه إلى داخل قصره القدر الذي طلبه ثم أغلق باب المستودع ولم يقفله إلا بحبل و وكل حفظه إلى جنديين من المحافظين محذرا إن فتح ليفعلن و يفعلن، ثم أذن لأولئك الجنود بأن يأخذوا بنادقهم التي ألفوها بين يديه و وجه ثلة منهم ومن الجنود الذين كان قد أدخلهم في سرية قصره وجه الجميع إلى احتجاز السيارات الواقفة بالساحة حول العرضي مقر القيادة وقبض كل سيارة تمر فينفذ الأمر، بينما شرع من على قصره المشرف على مقر القيادة بضرب المقر والمراكز الانقلابية المتناثرة هنا وهناك بالبنادق والرشاشات، و بدأت المعركة التي لم يكن رجال الانقلاب ينتظرونها، فلم يعدوا لها أية عدة ».

«وفي بداية المعركة قام أحمد بجولة في مصفحة إلى بعض المراكز الحربية والحكومية كدار الضيافة يطمئن النازلين بها من أجانب وغيرهم و يعود إلى قصره يواصل قذف مقر القيادة الانقلابية، وما أن نظر المتآمرون إلى ذلك وعرفوا جولة أحمد إلا وهبّ الجمع يتسابقون إلى أحمد.

وأسعدهم من كان الأسبق، وما هي إلا ساعة من نهار إلا وقد ضرب على مقر القيادة الانقلابية الحصار وقد اشتعلت المعركة، وعاد الضابط اسماعيل الأكوع من صالة على السيارة ماراً بباب مقر القيادة فيخرج إليها الحاج مرشد ورفاق معه بين وابل من رصاص أحمد وتمكن الحاج مرشد من القبض على السيارة بعدأن قتل الضابط الأكوع وعبدالله العبد على السيارة التي اقتادها إلى المقر مع سائقها كامل خادم أحمد الذي أصيب بجراح مات منها.

واشتدت المعركة وطلب الثلايا من مدفعية قاهرة تعز وغيرها الضرب على قصر الإمام بالعرضي فلم ترض بل ذهبت أولا تضرب على غير الهدف حتى أثناء ليلة الثلا ثاء وإذا بالمدفعية تصب قنابلها على مقر

قيادة الانقلاب إلى جانب ماطر من رصاص الرشاشات والبنادق من كل جهة، حوّل قيادتنا إلى أتون ونحن إلى ليوث تحترق في غابها مما اضطر رجال الانقلاب والجنود إلى مفارقة الطابق العلوي وانقطع الماء والزاد والنور، وكانت ليلة من ليالي الهرير أظهرنا فيها من البسالة والمقاومة فوق ما تعبر عنه كلمة البطولة، وتبين فيها أمامنا المتوكل على الله عبدالله رابط الجأش قو يا.

فقد أرسل إليه أحمد إنذاراً بخطه: أنه سيسحقه ومن معه إذا لم يستسلموا وقد استهل أحمد إنذاره بالأ بيات المشهورة مع تبديل بعض الكلمات.

أرى خـلل (الجـبـال) ومـيـض جمـر
و يـوشـك أن يـكـون لـه ضـرام
إذا لـم يـطـفـهـا عـقـلاء قـوم
يـكـون وقـودهـا جـثـث وهـام

فأجاب عليه الإمام المتوكل عبدالله جواباً كله حجة وقوة يذكره بغضبة الجيش وتنازله ووعده وعهده، وكيف أنه حمى أحمد من الموت الذي يهدده به أحمد ثم قال: وما أنا وأنت إلا كما قيل: أريد حياته و يريد موتي.

ثم ناشده الوفاء بعهده وبما فيه صلاح الشعب الذي يجب أن يكون فوق كل اعتبار ومصلحة ذاتية إلى آخر تلك الرسالة الجوابية.

ولكن تلك الرسالة لم تغن، فقد كان جواب أحمد أن ضاعف من إمطار المقر بالقذائف المدفعية وغيرها، و يصبح صباح الثلاثاء والمقر قد تحول إلى أتون من نيران القنابل التي تصب عليه من كل جهة، واشتد بالمحصورين فيه العطش والجوع».

«و بدأ الجيش الانقلابي ينقسم، فمنهم وهم الأكثرية من يطالب بالتسليم وطلب الأمان من أحمد، ومنهم من أصر على القتال وفي مقدمتهم الثلايا والحاج مرشد فقد دعوا إلى أن تضرب مدفعية المقر قصر أحمد حتى تنسف جانبه المتصل بالمقر ثم يقوم الجيش بالهجوم على القصر من جانبه المنسوف بينما يلتف نصف الجيش بقيادة الحاج مرشد على القصر من جوانبه الآخرة و يقتحمون أبوابه وسينضم إليهم فوج (لواء) القناصة المرابط خارج المقر بعدد من المراكز والبيوت، وهي خطة مغامرة، الموت فيها هو الراجح، أما النجاح بعد التضحية فهو بيد الله، وعلى هذه المغامرة أصر الثلايا والحاج مرشد ومن انحاز إليهما وحاولا الاتصال بالقناصة».

«ولكن أكثرية الجيش المحصور بالمقر كان الهلع قد استولى عليهم فرفضوا الخطة وأثاروا في المقر الشغب فاشتد النزاع وحاولت تلك الأكثرية أن تفتح باب المقر وتخرج منه معلنة استسلامها، فتدخل الإمام عبدالله والمطري والوشلي وعقبات والشماحي فهدأوا الشغب وطلبوا من الجيش الثبات والمقاومة على أن يكون الاتصال بأحمد لإبرام صلح مشرف يتقدمه عقد هدنة وفي هذه الحالة صادف أن أرسل أحمد

إنذاراً واتصل تليفونياً بأخيه عبدالله، و بعد أخذ ورد وافق أحمد على الهدنة خلالها يخرج إليه من المقر مندوب ».

الهدنة ومحمد الذاري سامحه الله

«تمت الهدنة في عصر الثلاثاء فتوقف إطلاق النار من الجانبين، وانتدب السيد محمد بن يحيى الذاري أحد المحصورين بالمقر، فخرج الذاري عصر الثلاثاء من المقر على أن يذهب إلى أحمد لعقد صلح يضمن سلامة رجال الانقلاب وحياتهم وكرامتهم والتسليم لأحمد، وكان أحمد مستعداً إذ ذاك لقبول تلك الشروط إذ كان يعرف أن في المحصورين مجموعة مستميتين لا يستهان بهم من الأشداء يتجاوب معهم لواء القناصة النظامي ولا يقل عددهم عن ستمائة شاب، فإذا قرر المحصورون المهاجمة له فقد يكون لها أثرها.

ولكن الذاري خرج من المقر منهوك الأعصاب فنسي رجال الانقلاب فلم يتجه إلى أحمد بل طار من خارج المقر إلى بيته، وساد الهدوء فغلب علينا نحن والإمام عبدالله النوم.

ولكن الثلايا والحاج مرشداً وعدداً قليلاً من الضباط لم يناموا ولم يبق لديهم أمل في المقاومة، فالجيش لم تبق لهما عليه سيطرة، ولا أمل في السلامة ولا في وفاء أحمد، فانتظرا مع رفاقهما أول الليل ففتحوا من مطبخ المقر فجوة وخرجوا منها ومن تعز آمّين الجنوب المحتل.

وعلى أثرهم خرج الجيش لا ليفروا بل لينضموا إلى أحمد بطريقة تجعله لا يعتقد أنهم من أتباع الثلايا والجيش الانقلابي.

أما نحن وإمامنا فقد أرخينا أعصابنا المتعبة لنومة عميقة لم توقظنا منها إلا تفجر قنابل المدفعية ورذاذ البنادق والرشاشات المتجدد إطلاقها في الساعة السابعة من ليلة الأربعاء، لما استيقظ النائمون مذعورين فيتلمس إمامنا ومن حوله وهم لا يتجاوزون العشرة الحاج مرشد والثلايا وضباط المدفعية والرشاشات فلا نجد إلا أنفسنا وثلاثة جنود أقعدتهم الشيخوخة يحرسون باب المقر، ومن هؤلاء الثلاثة عرفنا كيف فارق الجيش المقر، فاستولت علينا الدهشة التي في سرعة تحولت ضربتها المذهلة إلى مهزلة بالحياة تركتنا نقهقه هازلين بالحياة، وفي هذا الجو المذهل الساخر والمدفعية والرشاشات والبنادق تدك مقرنا بقذائفها وترقص شظاياها بيننا، اتصل الإمام عبدالله بأخيه أحمد تليفونياً على ضوء شمعة، يعاتبه على نقض الهدنة الذي بموجبها أرسل منا المندوب الذاري لعقد صلح مع أحمد فأجاب أحمد أنه لم يصل الذاري ولا غيره ولذلك فالهدنة تعد ملغاة ولم يبق مجال لصلح ولا مراجعة وما لعبدالله ومن معه لديه إلا أن يستسلموا بلا قيد ولا شرط وإلا فسيأمر الجيوش باقتحام المقر وقتل كل من فيه، وأعطانا مهلة نصف ساعة للتفكير تم إعلامه بما نقرره في الساعة التاسعة التي فيها سيتصل بنا تليفونياً، وأغلق التليفون، وتوقف إطلاق النار، و بالطبع قررنا الاستسلام الذي جرنا إليه مع رجالات الانقلاب موقف الذاري الذي فوت فرصة الاستسلام المشروطة».

الاستسلام، ورجال الانقلاب

«كان الانقلاب قد لفظ أنفاسه ظهر الاثنين، وأبقى إمامه وبعض رجالاته في المقر، وبعضهم خارج المقر ومن المقر بالساعة العاشرة من ليلة الأربعاء لفظت إمامة المتوكل على الله عبدالله أنفاسها، فلحقت الإمامة الانقلابية الديمقراطية بإمامة الوزير الدستورية في الرفيق الأعلى.

وبقي رجال الانقلاب في المقر وغيره، وكان يرجى لهم الحياة وعدم السجن لو تمت المصالحة مع أحمد خلال المدنة إلا أن خروج الذاري وموقفه كان كارثة على رجال الانقلاب، فقد خرجت حقيقة الوضع بالمقر من انهيار معنوية الجيش واختلافه ثم فراره، خرجت تلك الحقيقة بخروج مغوارنا الذاري مما جعلت أحمد يلغي الهدنة ويرفض المصالحة وينذرنا كما سبق ثم يتصل بنا في الساعة التاسعة للإجابة على طلبه، فيجيبه أخوه المتوكل عبدالله بالاستسلام المطلق وبذلك انتهت الإمامة الانقلابية الديمقراطية وما بقي إلا رجال الانقلاب».

رجال الانقلاب

«وفي مقدمتهم الزعيم أحمد الثلايا، قبض عليه وهو في طريق فراره فجر يوم الأربعاء.

وسيف الإسلام عبدالله ورفاقه المحصورون بالمقر وهم:

١ ـ حمود الوشلي.
٢ ـ عبدالله الشماحي.
٣ ـ علي المطري.
٤ ـ زيد عقبات.
٥ ـ يحيى الكبسي.
٦ ـ يحيى محمد باشا المتوكل.
٧ ـ علي حجر.

قبض على ثمانيتهم وغلت أيديهم بعمائمهم واعتقلوا في مبنى وزارة الخارجية، وسرعان ما أطلق البعض.

كما قبض في ليلة الأربعاء على بقية رجال الانقلاب خارج المقر بتعز وإب وصنعاء، وفي مقدمتهم القاضي عبدالرحمن الإرياني، ولم يفلت من القبض إلا بطل الانقلاب الحاج مرشد، فقد أعانته عضلاته، وقدماه الحافيتان وحياته الخشنة وإيمانه بعدالة الانقلاب إيمان العامة، أعانته هذه الخلال على التسلق واختراق الصعاب والجبال إلى الجنوب اليمني المحتل، وما أحوج اليمن إلى مثل هذا الشاب وخلاله، إلى جانب قيادة حكيمة قديرة مهابة مخلصة، فإنّا واليمن لن نصل إلى أهدافنا وتطلع اليمن الشخصية اليمنية المنتظرة ونتجنب العثرات والمجازر إلا إذا تحققت تلك القيادة الخالصة اليمنية المخلصة لها حماة ومنفذون شباب مخشوشنون متمعددون، وبيمنهم ودينهم مؤمنون وعلى كرامة واستقلال يمنهم حريصون، فالشباب هم القوة لرسوخ المبادىء، ونهضة الشعوب، ولن يكون الشباب

قادرين على أداء هذا الواجب إلا إذا استمدوا قوتهم من أنفسهم ومن واقع بلدهم، فلا يقعوا فريسة للمطامع الأجنبيه والأفكار المستوردة المردية، ولا ألعوبة بيد أدعياء الثورات والوطنية والدين، فإن هؤلاء الأدعياء هم أعداء الأوطان والأديان والسرطان المؤذي القاتل لقادات الإصلاح والثورات والانتفاضات والانقلابات، فكما قضوا على ثورة عام سبعة وستين هجرياً وساقوا أبطالها إلى بطون السباع ومخالب الطيور فهم هم الذين قبروا الانقلاب في مقره)).

وساقوا معظم رجالاته إلى الإعدام

((وفي صباح الأربعاء ٢١ شعبان بدأ إعدام رجال الانقلاب فأعدم بتعز:

١ ــ الزعيم المؤمن طيب النفس المقدم أحمد الثلايا.

٢ ــ الشيخ علي الغولي.

٣ ــ الشيخ على المطري.

٤ ــ الشيخ محسن الصعر.

٥ ــ الأمير السيد محمد بن حسين عبدالقادر، ولما مثل في ساحة الإعدام قال كلمته المأثورة: اللهم إن أحمد قد أسرف في قتل الأبرار فلا تسلط سيفه على أحد بعدنا.

٦ ــ القاضي يحيى السياغي.

٧ ــ القاضي حمود السياغي.

٨ ــ الضابط أحمد الجدري.

٩ ــ الضابط أحمد الدفعي.

١٠ ــ الضابط أحمد معصار.

١١ ــ الضابط عبدالرحمن باكر.

١٢ ــ الضابط حسين الجناتي.

١٣ ــ الضابط على السمه.

وأرسل سيف الإسلام عبدالله ابن الإمام يحيى مع أخيه سيف الإسلام العباس من مبنى وزارة الخارجية إلى حجة وكان إعدامهما هناك بقاهرة حجة، كما أعدم في صنعاء عبدالله الشامي صهر العباس)).

القاضي عبدالرحمن الإرياني ونجاته والسيف مصلت على عنقه

((وأخرج القاضي عبدالرحمن الإرياني من معتقله بتعز وسيق مخفوراً مغلولاً إلى ساحة الإعدام ميدان عرضي تعز وهناك يجرى الإعدام فأوقف الإرياني ينتظر دور إعدامه ولما فرغ السياف من الإطاحة ببعض رؤوس رجالات الانقلاب دعى الإرياني والسيف مصلت بيد الجلاد ليلحق رأس الإرياني بمن سبقه في تلك الساحة وتلك اللحظة وبذلك الصارم المصلت الذي يسيل الدم عليه، وفي رباطة يتقدم القاضي الإرياني إلى النطع وذلك السيف وعلى مشهد من الناس وتحت نظرات أحمد الرهيبة وإن قاضينا شيخ

الإسلام بين النطع والسيف إذا بالقدر يتدخل فيأمر الإمام أحمد بتأخير إعدام الإرياني، وأن يرجع إلى معتقله، ثم كان إطلاقه.

وقد كان في مقدور الإرياني أن يفر يوم الإثنين إلى عدن إذ كان في بيته بصالة لا رقيب عليه، ولكنه كما سبق من أولئك القادة القلائل الذين لا يستجيزون أن يقودوا أمتهم حتى إذا فشلوا و وقعت الأمة في محنة ورفاق النضال في كارثة تخلوا عن الأمة وعن الرفاق ونسوا الدعوة وفروا لينعموا بعيدين عن أمتهم ومصير رفاقهم.

ولقد تمسك الإرياني بفكرته في ثورة سبع وستين هجرية وفي انقلاب عام ٧٤ أربع وسعين هجرية، فأنجاه الله كما أنجانا من الغم ليؤدي ونؤدي الرسالة، فإن الانقلاب وإن فشل وأفقد اليمن مجموعة من الأ بطال فقد ترك آثاره».

آثار الانقلاب

«يعد الانقلاب امتداداً لثورة سبعة وستين هجرية ومن صنع رجال تلك الثورة وقد كان له آثاره، فقد بلغت رهبة الإمام أحمد الذروة، و بلغ سوء ظنه بإخوته وأبنائهم النهاية، ولم يبق من أعيان إخوته إلا سيف الإسلام الحسن المنفي خارج اليمن.

وزادت ثقته بابنه محمد البدر، وأعلن ولاية عهده رسمياً، وكان من ولي العهد أن أخرج من السجون بقية رجال ثورة سبعة وستين هجرية وضمهم ومن كان قد أطلق منهم إليه، وعليهم وعلى مجموعة من المستنيرين شبابا وضباطا وعلماء وشخصيات، كان جل اعتماد ولي العهد في استعداده لمقاومة عمه الحسن وأتباعه الذين منهم أبناء أعمامه، ويجنح في سياسته الخارجية عن الكتلة الغربية إلى الحكومة السوفيتية والصين الشعبية ومن يصادقهما من الدول العربية، وفي مقدمتها الجمهورية المصرية وقد نجم من ذلك و بإيحاء من المتصلين به إقامة ميناء الحديدة، وشق الطريق من الميناء إلى صنعاء وتسليح اليمن بالطائرات والدبابات وسائر الأسلحة المقدمة من الاتحاد السوفيتي، وتدريب مجموعة من الشباب على تلك الأسلحة إلى غيرذلك مما لولاه لما نجحت ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢م». انتهى.

***

هذا ما قاله العلامة المؤرخ القاضي عبدالله الشماحي في كتابه «اليمن» من صفحة ٢٨١ إلى صفحة ٣٠٥ نقلته برمته دون تغيير أو اختصار لأنّه يصوّر فترة تاريخية خطيرة في حياة اليمن وقد كثرت التقوّلات واختلفت وجهات النظر في أحداثها وتشعّبت الدعاوي قبل أن يجيء البيضاني بأباطيله واختلاقاته التي ظن أنها ستجوز على اليمنيين، و بزواية ما قاله الشماحي يتجلّى أن رواية البيضاني بعيدة عن واقع ذلك الانقلاب، وأنه لم يكن للضابط محمد قايد سيف أي دور قيادي فيه، وأما البيضاني فلا ناقة له فيه ولا جمل والرسالتان من محمد سيف إليه مزوّرتان كتبتا بعد ثورة سنة ١٩٦٢م للغرض الذي ذكرناه آنفاً، ولا أدري هل تواطأ الرجلان على التزو ير أم أن البيضاني قد تولاه منفرداً وذلك هو الأقرب إلى طبيعة الأمور فالضابط محمد قايد سيف في حدود معرفتي نزيه ومستقيم.

هذا وقد ألّف الشماحي كتابه أيّام رئاسة القاضي عبدالرحمن الإرياني للمجلس الجمهوري وكان الأستاذ محسن العيني رئيساً للوزراء وقد أثنيا على الكتاب ومؤلّفه، وكذلك عمل الأستاذ القاضي عبدالسلام صبره ولم ينتقد أيّ منهم ما ورد فيه فقال القاضي الإرياني عندما أمر بطبعه:

كلمة فخامة رئيس المجلس الجمهوري القاضي العلامة عبدالرحمن الإرياني تعليقاً على هذا المؤلف:

الحمد لله

الأخ رئيس الوزراء حيّاكم الله:

للأخ الفخري الشماحي مؤلف تاريخي هام كان منا نحن والولد مطهر مطالعته بدقة، وقد تناول فقرات ومواضيع لم تطرق سيما الفترة الممتدة من أول القرن الرابع عشر الهجري إلى عام ٨٣ الهجري، فقد طرقها من جميع نواحيها إلى جانب دراسة ناقدة نافذة للمذهب الإسماعيلي والزيدي، وكنا أمرنا بطبعه هنا وأمرتم بذلك قبل نصف عام ثم ترجح أن يطبع بالخارج، ومن الرأي أن يكون بلبنان تحت إشراف الفخري والسفير هناك فتراجعوا مع الفخري في الطريق المحققة لتنفيذ الفكرة في الوقت المناسب.

عبدالرحمـــن الإرياني

رئيس المجلس الجمهوري

وقال الأستاذ محسن العيني:

كلمة دولة رئيس الوزراء الأستاذ محسن العيني ٢٥/ ٥/ ٧٢:

الأخ العلامة القاضي عبدالرحمن الشماحي مستشار وزارة العدل الأكرم حفظه الله.

تحية وتقديراً:

تصفحت مؤلفكم الفريد، وقد أمضيت معه أمتع الساعات، وعاد بي إلى المراحل التي مر بها شعبنا وخاصة في ربع القرن الأخير، وهو أروع ما سطر عن الحركة الوطنية قبل ١٩٤٨ و بعدها.

وإني لأشارككم الرأي في ضرورة الإسراع بطبعه، لتتمكنوا من مواصلة الكتابة، وخاصة في أحداث الثورة وحتى يومنا، ليكون ذلك سجلاً لأبنائنا الذين لا يعرفون كيف سارت الأمور، وكيف تعاقبت الأحداث.

لكم تهنئتي وتقديري وصادق التحية والسلام عليكم.

أخوكم/ محسن العيني

ملاحظة رئيس الوزراء الأستاذ محسن العيني على انقلاب المقدم أحمد الثلايا، الظاهر صفحة ٣٦٧.

للحقيقة والتاريخ:

عندما فوجئنا بحركة ١٩٥٥م أقلقنا الإبقاء على حياة الإمام أحمد وتأكدنا من الفشل، كما

استغربنا ظهور سيف الإسلام عبدالله، ليس فقط لارتباطاته الغربية وإنما لاحتمالات الغدر من جانبه، ولهذا فقد كتب المرحوم الأستاذ محمد محمود الزبيري رسالة إلى الشهيد العقيد الثلايا يشرح فيها هذا، و ينصح بإعدام الإمام أحمد، والخلاص من السيف عبدالله ليستطيع الانقلاب السيطرة على الموقف و يلتف الجميع حول الحركة . وقد حملت الرسالة مع الأخ يحيى جغمان، ولكننا لم نكد نصل عدن حتى كان الانقلاب قد فشل وقد استعاد أحمد السيطرة على الموقف.

١٥/ ٢/ ١٩٧٢ — محسن العيـــني

وقال الأستاذ عبدالسلام صبره:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على محمد وآله وصحبه ..

تصفحت هذا المؤلف وشكرت الله الذي أعان و وفق الأخ القاضي عبدالله بن عبدالوهاب المجاهد الشماحي على إخراج هذا الكتاب المتضمن لمحات من تأريخ اليمن ثم شرح الظروف والأفكار التي أثرت في حياة هذا البلد وتولدت منها تلك الأحداث التي من فصولها ما تضمنه واشتمل عليه قرننا الرابع عشر الهجري الذي شاهدنا جانباً من أحداثه نحن والمؤلف والمجاهد الكبير الأخ أحمد بن أحمد المطاع.

ومن الحق أن المطاع هو أبو الثورة كما لقبه الأخ المجاهد الشماحي فرحم الله المطاع ورضي عنه وعن جميع المجاهدين والشهداء الذين سبقوا المطاع وعاصروه ولحقوه. و يتحتم على أخينا الشماحي أن يتبع هذا المؤلف بعدة مؤلفات وألا يدع معلوماته وقدراته محجوبة فيسأل عن حجبها وكتمها ثم عن ضياعها والله الموفق بتاريخ الحجة سنة ١٣٨٦ هـ.

عبدالسلام صبره

هذه أقوال الشماحي والإرياني والعيني وهي تفنّد رواية البيضاني على أن هناك ما يجب شرحه وتبيينه قياماً بالواجب الوطني والتاريخي وخدمة للحقيقة والتاريخ ولاسيما وقد كنت من صانعي تلك الأحداث التي كثرت فيها الأقاو يل والأ باطيل. ولا أريد من إيضاحي الردّ على أحد، بل وصف ما شاهدت وعاينت وصنعت، وما أعرفه عن قصّة ولاية العهد للبدر، وانقلاب الثلايا والأمير عبدالله ولكل ذلك في كتاب حياتي حديث مثير.

نص رسالة الإمام أحمد إلى ابنه البدر

بسم الله الرحمن الرحيم ... أحمد الله تعالى

الولد البدر حرسه الله وأعانه والسلام.

ما بلغ عزمك إلى عمران إلا من أخبار الناس فالتلغراف مقطوع والشفرة وصلت وفيها أغلاط خطية فلم أتمكن من حل شيء منها وقد حصل الظن أنها لم تكن التي تعمل بها، أو هي القديمة ولا والله أعلم أين هي الآن، والمراد أن هذا بواسطة الأخ سيف الإسلام الفخري حرسه الله، فقد كان التنازل له

لقيامه بالأعمال على كتاب الله وسنة رسوله، والشريعة المطهرة، فعند وصول هذا أنا أحجرك بحجر الله سبحانه وألزمك بالتوقف الآن بعمران أو حيث يصلك هذا، وسلم للمشائخ والعقال مصروفاً كل واحد بقدره، وألزمهم بالعود محلاتهم، وفي عزمي الوصول إلى عمران فألزم بافتقاد المطار، والأخ الفخري حرسه الله قد كلفته بتدبير إرسال نظام إلى صنعاء ويجمع المواتر الموجودة و يكونوا عليها إلى صنعاء فالخشية هنالك، كم ضعفاء ومساكين ونساء وأطفال، فلا تترك مجهوداً في التوفيق، وصدر كتب للمصلي وغيره عجلها إليهم الله الله والانتظار للإفادة، والله المعين، اجتهد في تسكين الناس ومنع الفتنة ولو تضحي بدمك، فابذل الجهد، هذا فإني والله أحب أن ألقاك عند الله وأنت شهيد، ولا وأنت قائد فتنة وأنت بمحل من الكمال والله المعين.

٨ شعبان ١٣٧٤ هـ إذا وصل هذا وأنت بحجة فتوقف مكانك.

نصّ رسالته إلى الجيش

بسم الله ... أحمد الله تعالى

إلى المحبين الكرام النظام سلمهم الله، لقد كان ما سبق في علم الله سبحانه، والآن لعل الله سبحانه قد وفق الجميع إلى ما فيه الخير والصلاح فإنّا حملنا الأخ سيف الإسلام عبدالله حفظه الله الحجة وكان التنازل على أن يقوم بالأمور ويجريها على شريعة الله سبحانه، ولم يبق ما يوجب الأخذ والرد، وقد كان هذا بحضور جماعة من العلماء، فليعد كل واحد محله، والأخ سيف الإسلام حفظه الله يخرج إلى محله ـ بالعرضي للقيام بأعمال الناس، وعليكم جميعاً اعتماد أوامره، ومن خالف هذا فعليه حجة الله والله المعين والسلام عليكم.

٩ شعبان ١٣٧٤ هـ وقد كان منا التحرير إلى الملحقات بوقوف كل أحد بمحله وعود من قد خرج بيته وسيرسلها الأخ الفخري حفظه الله.

٢٧ ـ صورة البيضاني الحقيقية:

ومما سبق سواء في فصول «ذكرياتي» أو في ما سرده العلامة الشماحي من وحي مشاهدته يظهر بطلان مزاعم الدكتور المزيف بل وتبرز صورته الحقيقية كمهرج كبير ومزور رهيب وفي كتابي «يوميّات منتظر» وصف لانطباعي عنه في أوّل مقابلة بالحديدة، وتعليقات على خزعبلاته التي أفسد بها بعثة إصلاح النقد التي كنت أحد أعضائها معه و برئاسة القاضي محمد الحجري.

وقد سبق تفنيد أكاذيب البيضاني ولن أحاول التنديد بكل أباطيله، ولا الإشارة إلى كل تفاهاته وخزعبلاته فإنها فوق قدرة العدّ والحصر ولو ألزمت نفسي الاستقصاء لوقفت عند كل سطر، وأطلت فيما لا طائل تحته، وحسبي التنبيه أوّلاً إلى أن بعض الوثائق التي استشهد بها وألحق صورها في آخر كتابه من تزو يراته وتلفيقاته، ولن أغرق أو أبالغ فأجاري من يقول بأن صورة والده الشيخ عبدربه البيضاني التي زيّن بها مقدمة كتابه ليست سوى صورة لعبدالرحمن نفسه بلباس أزهري.. لن أجاري من يزعم ذلك

لأني لم أعرف والده والصورة لا تختلف عن صورة الابن في شبابه ومن يشابه أباه فما ظلم، ولكنني لا أستبعد منه التزو ير، ولا أصدّق ولا أكذب ما يقوله البعض.. ولا سيما وقد ترجم لوالده ترجمة لا تتفق مع ما نعرفه ونسمعه عنه ممّن عاصروه وعايشوه وعن ظروفه العلمية والمعاشية التي اكتنفته فقد أغرق الولد في إضفاء الكثير من الهيبة والجلال على بيئته ونشأته العلمية والدينية وثقافته الأدبية والتاريخية والأخلاقية وهو ما لا يقرّه من عاش تلك الظروف وعرف عبدالرحمن البيضاني تلميذاً ثم خريجاً في تعز سنة ١٩٥٠م [١٣٦٩هـ].

ولننظر أوّلاً إلى الصورة التي أبرز نفسه فيها إذ يقول:

«أكملتُ دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع في الجامعة الأمريكية ثم حصلت سنة ١٩٥٠م على ليسانس كلية الحقوق بدرجة شرف فأقام السيد علي المؤيد مأدبة عشاء في مقرّه الرسمي احتفالاً بأوّل خريج يمني يتخرج من الجامعة علاوة على حصوله على مرتبة «الشرف» وكان السيّد المؤيد قد أبرق إلى الإمام أحمد بأنني قد أتممت دراستي في كلية الحقوق، وكان الإمام أحمد يتابع نشاطي الذي كان راضياً عنه كل الرضا مطمئناً إليه كل الاطمئنان» ص — ٤٣.

ثم يسترسل فيقول: «وصلتني برقية من الإمام أحمد تأمر بوصولي إلى اليمن لمقابلته فوصلت في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٥٠م إلى مدينة تعز وعندما وصلت قبّلت ترابها الغالي، وكانت قد تحركت أشجاني والتهبت مشاعري نحو الوطن الخالد الذي أراه لأ ول مرّة في حياتي وكان عمري عندئذ أر بعة وعشرين عاما هالني ما رأيت في وطني الحبيب، رأيت التخلّف الرهيب في أبشع صوره، وعندما التقيت بالإمام أحمد هممت بفتح حقيبة أوراقي لألتقط منها التقرير الذي سهرت على مراجعته فإذا بالامام يقف فجأة و ينهي المقابلة و يدخل الغرفة المجاورة، وعلمت فيما بعد أنني عندما بدأت أفتح حقيبتي ظن الإمام أنني سأخرج منها سلاحاً فندمت على ما فعلت». ص — ٤٧.

وهذا محض اختلاق يعرفه كل من عرف الإمام أحمد ولو خطر في باله وسواس لمزق البيضاني إر باً.

فهذه الصورة للخرّيج الذي أكمل دراسة الفلسفة وعلم الاجتماع وأخذ الليسانس بدرجة شرف من كلية الحقوق وذلك يعني أنه أصبح عالماً منطقياً خطيباً أديباً يستحق أن يقيم له ممثل الإمام حفلة تكريم ورضا الإمام عنه والاطمئنان إليه وهذا الشاب الذي قد جاوز الرابعة والعشرين والذي هاله ما رأى في وطنه الحبيب من تخلّف بشع رهيب لا تنسجم مع صورة أخرى لعبدالرحمن البيضاني تبرزها وثيقة خطية كتبها في يوم ١٣ صفر سنة ١٣٧٠هـ أي يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٠م بعد وصوله إلى تعز إلى الإمام أحمد هذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

مولانا حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين الملك الناصر لدين الله الإمام الأعظم أيدكم الله

بعد لثم أقدام جلالتكم الطاهرة أرجو التكرم والتعطف بالسماح لي بممارسة طيبة للرياضة الصباحية حيث اني متعود على رياضة الخيل

واني انتهز هذه الفرصة لأقدم لجلالتكم تأكيد عزمي على تقديم روحي رهنا لإشاراتكم وعبداً لمولانا صاحب السمو الملكي سيف الإسلام البدر ولي عهد وطننا المحبوب أعزه الله بلطف جلالتكم

أدامكم الله يا مولانا رمزاً للبطولة والرجولة والعدل والإسلام وأعاد الله بكم مجد المسلمين الغابرين.

واني يا حفيد رسول الله وخليفته أرجو أن أكون عند حسن ظن جلالتكم دائماً والى الأبد وبذلك أكون قد خدمت وطني المشرف بإمامتكم.

وتفضلوا يا حفيد الرسول بتقبل فائق الولاء وأسمى آيات الإخلاص.

عبدكم الحقير

عبد الرحمن عبد ربه البيضاني

١٢ صفر سنة ١٣٧٠

الموافق

٢٣/[illegible]/١٩٥٠

إذ من المستبعد أن يكون خريج الحقوق الفيلسوف الاجتماعي في هذا المستوى من الضعف الخلقي واللغوي والبياني و يقدم روحه رهنا لإشارة الإمام حفيد رسول الله وخليفته وعبداً لمولاه ولي عهده و يسمي نفسه العبد الحقير.

وأما الوثيقة الثانية فقد كتبها البيضاني نفسه في نفس الفترة وهي قصيدة تافهة غير موزونة، ركيكة التعابير، تدل على تفاهة قائلها وحقارته، وعلى أنه قد كان محلّ سخرية الإمام و ولي عهده ومن يحفل به المقام من علماء وأدباء وشعراء وهذا نصها وصورتها بخط البيضاني المعروف:

قصيدة الخادم الحقير بخطه:

بسم الله الرحمن الرحيم

سَيِّدِي حَضْرَة صَاحِب السّمو الملكي مَوْلَانَا وَلِيّ العَهْدِ سَيْف الإسْلام البَدر المعظم

رَمَانِي الدَّهْرُ فِي خَلْفِ السُّدُودِ   فَلَا أَدْرِي أَأَمْضِي أَمْ أَعُودُ

فَهَنَّئْتُ الزَّمَانَ فَهَيَّجَنِي   سَوَانِحُ فِي الضَّمِيرِ لَهَا نَشِيدُ

فَقُبْحًا لِلزَّمَانِ وَمُحْدِثَاتٍ   تَغَلْغَلَ فِي جَوَانِبِهَا كَنُودُ

هي الدنيا فإن أعطت فقل ... وإن أخذت فما أخذها سديد

تمضي بالقبر عائلنا فأبقى ... صغارا لا تصول ولا تذود

وأما أيما لا حول فيها ... سوى عين بها دمع يجود

فغدوتها مع الأيام حزن ... وروحتها مع الشكوى تبيد

ولكن الذي يكفل اليتامى ... ولا أب يحول ولا عميد

تكفل باليتامى منه فضلا ... تبارك ربنا البر المجيد

فساق إليهم البدر عمادا ... فكان لهم سند سنيد

ولي العهد يا مولاي حقا ... كثير الخير معطاء ودود

إذا ما قيس الرجال رجحت قدرا ... وإن عدوا تخلفك العديد

فدم للخير والحسنى دواما ... لتبلغ في حياتك ما تريد

خادمكم الحقير

عبدالرحمن عبدربه البيضاني

إنّ تلميذاً لم يبلغ الحلم ليستحي أن يتقدم بمثل هذه الأبيات الركيكة و يقول: «ونهنهت الزّمان فهيّجتني» و يقول عن والدته: «وأمّا أيّما لا حول فيها» و يضبط ياء الأيم بالفتح وهي مكسورة. و يضبط قوله: «سوى عين بها دمع يجود» بفتح سين سوى وضم نون العين وهي مجرورة بسوى، و يقول: «ولا أبّ» بتشديد الباء، ثم يهرف بمثل قوله:

فساق إليهم «البدر» عمادا ... فكان لهم سند سنيد

ولي العهد يا مولاي حقاً.. ... كثير الخير؛ معطاءٌ ودودْ

إلى غير ذلك، فكيف يتقدّم بها رجل في الخامسة والعشرين يزعم أنه ما بلغ العاشرة إلاّ وقد حفظ القرآن وتفقه وقرأ السيرة على يد والده القاضي الأزهري، بل وتخرّج من كلية الحقوق وكلية الفلسفة والعلوم الاجتماعية بدرجة شرف وأصبح يفكر في إصلاح بلاده وقد نال مركزاً مرموقاً بين رجال العلم والأدب والسياسة؟

وإذا كان الكلام ـ شعراً أو نثراً ـ يبرز الصورة الحقيقية لقائله فعبدالرحمن البيضاني في تعز سنة

١٩٥٠م ليس داعية الإصلاح الصابر المصابر المحامي الأديب خريج الحقوق والفلسفة كما تحدث عنه الدكتور البيضاني في كتابه وصوّره بأباطيله. بل هو مملّق يلثم الأقدام الطاهرة. و يرجو التكرّم والتعطف بالسماح له بقارشة، أي أن يأذن له الإمام بركوب حمار أو بغلة للرياضة الصباحية. وهو «العبد الحقير لحفيد رسول الله وخليفته» وهو ألمه الذي لا يجيد بياناً. ولا يعمن الأوزان. ولا يرفع كخادم حقير حسب وصفه لنفسه من الاستجداء الرخيص وكل ما أضفاه على نفسه من صفات في تلك الفترة هراء واختلاق وكذب.

ولكن ما لنا ولهذا؟ إنني أودّ أن أشير إلى الوثيقتين رقم ـــ٣ـــ ورقم ـــ٤ـــ وهما رسالتان لفقهما «البيضاني» بعد قيام الثورة وإعلان «الجمهوريه» بسنوات، إما بالتواطؤ مع الضابط نفسه، أو تفرّد بتزويرهما، وله خبرة فائقة تشهد ببراعته في مجال التزوير والحيل والجاسوسة.

٢٨ـ الوثيقتان المزورتان،

الوثيقتان المزورتان هما رسالتان خطيتان يزعم الدكتور البيضاني أنهما بخط الضابط اليمني محمد قايد سيف وقد تحدث عنهما في كتابه ص ـــ٦٦ـــ ـــ٦٧ـــ ـــ٦٩ـــ وألحقهما بكتابه برقم ـــ٣ـــ وـــ٤ـــ والأولى بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٥٥م والثانية بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٥٥م وهو يزعم أن الأولى رقم ـــ٣ـــ قد أرسلها إليه الضابط محمد قايد سيف بواسطة السيد محمد أنور السادات وهذا نصها:

٢٤/٢/١٩٥٥ بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الأستاذ عبد الرحمن البيضاني حياكم الله

وبعد التحية

أرجو أن تكونوا وجميع الإخوان بخير، أحب أن أفيدكم بأن الأخ أنور السادات، زار تعز وكان في انتظاره سكرتير المؤتمر الأخ النقيب حسن شائف وكنت ضمن الوفد الذي أرسله الإمام لاستقباله في مطار تعز، ولقد كان لزيارة الأخ السادات تأثير كبير في الأوساط الشعبية لا سيما وهم يعتبرونه أحد أقطاب الثورة المصرية والذين سمعوا صوته وهو يعلن قيام ثورة ٢٣ يوليو المباركة على العموم، لقد وطدت علاقتي به وشرحت له عن كل ما يقاسيه شعبنا المظلوم من الإمام ومن أعوانه الفاسدين، كما قمت بكتابة تقرير شامل عن الوضع في اليمن، وكيف أن الحكام يريدون إبادة هذا الشعب المسكين وتشريده من وطنه بكل وسيلة، وقد قدمت له التقرير بخطي وتحت توقيعي، كما قدمت له بجانب تقريري، تقريراً آخر سلمه لي الأستاذ نعمان بدون توقيع، وطلب مني بأن أقدمه للأخ أنور السادات وقد طلبت من الأخ السادات بأن يطلعكم على التقريرين.

أما بالنسبة للأخ النقيب حسين ثابت فقد أخذته إلى سطح دار الضيافة وشرحت له كل ما تراه العين من بؤس وشقاء ودمار، ولقد شعرت بأنه تأثر كثيراً، ووعد بأنه سيقدم تقريراً شاملاً للأخ السادات عن كل ما رآه في المدينة وعن كل ما سمعه مني وشرحته له. أخي عبد الرحمن، لا زلت عند رأيي السابق، والذي سبق وأن شرحته لكم عدة مرات، وهو بأنه لا جدوى من الاستمرار في تأييد الإمام أو البدر أو عبد الله، ولابد من قيام ثورة جذرية بقيادة الجيش، لذلك أرجو أن تقرأ التقرير الذي سلمته للأخ السادات وتحاول تقنعه بما جاء فيه وتقابلان سيادة الرئيس جمال عبد الناصر لكي نكسب تأييده والوقوف معنا عند قيام الثورة إن شاء الله.

ختاماً أرجو أن تتقبل تحياتي وتحيات الأخ المقدم أحمد الثلايا وجميع الأخوة والله يرعاكم ويوفقكم.

أخوكم
محمد ثابت سيف

والثانية رقم ــ٤ــ يزعم أن الضابط نفسه قد بعثها إليه من «عدن» إثر فشل انقلاب «الثلايا» سنة ١٩٥٥م وقد جعل تاريخها ١٢ ابريل سنة ١٩٥٥ وهذا نصها:

هذه الوثيقة مزورة كتبها محررها بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢م.

١٢/٤/١٩٥٥ بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الأستاذ عبد الرحمن البيضاني المحترم

تحية طيبة وبعد

أحب أن أخبركم بأني وصلت عدن يوم ٩ أبريل بعد أن فشلت الثورة وبعد استشهاد المقدم الثلايا بسبب عدم قتل الإمام أحمد. ولقد سبق أن بعثت لك برسالة مع الأخ أنور السادات أرجو أن تكون قد استلمت ذلك، كما أرجو بأنك قد اطلعت على التقرير. أما بالنسبة للاستعجال لقيام الثورة، فلم يكن هناك خيار إما قيام الثورة أو سيقضي علينا الإمام أحمد جميعاً، ولذلك لم نستطع الانتظار حتى نستكمل بقية النظام والظروف المناسبة للثورة، ولكننا على أي حال وضعنا بذرة الأساس، ورحم الله الشهداء المقدم أحمد يحيى الثلايا ومن كانوا معه من الثوار، وعلى العموم فأنا أعتبر هذه الثورة هي القنبلة الزمنية التي ستدمر الإمام وأحمد، بما يسهل على الأحرار مواصلة مسيرة الثورة ولو بعد حين. أخي عبد الرحمن ربما تقول كيف لم يكن هناك تنسيق بين الأحرار في الداخل والخارج وكيف لم نشعرك بقيام الثورة عن طريق الأخ حسين شعيب القائم بأعمال المفوضية المصرية في صنعاء، والذي سبق وأن أرسلت لي رسالة بواسطته، ولكني أخي لم أتمكن من إرسال الرد على رسالتك في حينه ولكن الحقيقة أني فقد كان هناك تنسيق بين الأحرار في عدن والضباط في صنعاء، فقد أخبرنا الأخ الثلايا بأن الأستاذ نعمان والذي كان يقيم في قصر من الناحية دار الضيافة بعد خروجه من سجن حجة فيما إذا كان الأحرار في الخارج يؤيدون البدر ـ فقال الأستاذ نعمان بأنه استلم رسالة من الأخ عبد الله عبد الوهاب صاحب جريدة الفضول بعدن يقول فيها بأنه لا يمكن الاستمرار بالمراهنة على جواد خاسر ويقول بأنه يقصد البدر، ثم سأل الأستاذ نعمان فيما إذا كان الجيش يؤيد عبد الله

فقلت له بأن سبب وأن هذا هو ... وبين المقدم الثلايا وأخبرتنا بأن جميع
ضباط الجيش لا يأبهون بالبدر ولا بعبدالله ولا الحسن، وعلى العموم إننا نعلم كم
أن المستقبل سيكشف عن عناصر جديدة، انقلاب الشرطة الذي بدأناه باسمنا ولا
سوف ينفرج منا بعد ثلاث سنوات سيكونون ضباطاً وسوف يكونون مادة للثورة
القادمة إن شاء الله، وقد حاولت أن أبعدهم صباح يوم الثورة من الاشتراك حرصاً
حرصاً على مستقبلهم، وطلبت لهم عودوا إلى ثكناتكم حتى صدور أوامر أخرى، وكنت أعلم
إذا نجحت الثورة فهم مادتها، وإذا لم تنجح فهم مادة المستقبل، ... أرجو
بالاتصال بالأخ السادات وسيادة الرئيس جمال حتى تحققوا الآمال،
وتقبل تحياتي ... اللقاء قريباً إن شاء الله

المخلص
محمد قائد سيف

إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً:

والرسالتان ولا شك مزوّرتان، ولم تكتب أيّ منهما بالتاريخ المرقوم فيها بل كتبتا بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م بسنوات إما بالتواطؤ مع الضابط محمد قايد سيف إن كان لا يزال على قيد الحياة أو أن الدكتور البيضاني نفسه قد لفّقهما وهو ذو خبرة فائقة في مجال ترو ير الصكوك والوثائق حتى شهادات الميلاد والمدارس والجامعات.

وقد أراد بهداالتزو ير أن يثبت عراقته في «الوطنية» وأصالته في العمل والمعارضة «الثورية»، فهو يعرف أنه لا صلة له من قريب أوبعيد بحركة ورجال تورة الدستورسنة ١٩٤٨م/ ١٣٦٧هـ ، وأنه وحتى سنة ١٩٥٠م و١٩٥٣م كان لا يزال كما تصوّره الرسالة بخطه إلى الإمام أحمد والقصيدة الركيكة التي رفعها إلى «وليّ العهد البدر».. وأنه ظلّ إلى أواخر عام ١٩٦١م من موظّفي الإمام أحمد أوّلاً في «بون»، ولما كثرت فضائحه نقل إلى «السودان» فلما كثرت التشكاوى من اختلاساته طلبه الإمام إلى اليمن وعيّنه، «مكافحاً» للجراد في تهامة وكان من أمره ما كان.

ولا نستطيع أن نفترض أن السذاجة بل ـــ المبالة ـــ قد بلغت بضابط مسؤول مثل محمد قائد سيف إلى الحدّ الذي يكتب فيه إلى ممثل الإمام في «بون» خطاباً بخطه وامضائه يعلن فيه الاستعداد للقيام بثورة في اليمن قبل أن تقوم بحوالي شهر و بضعة أيام و يصرح في خطابه باسم قائد الثورة المقدم أحمد الثلايا و باسم الأستاذ أحمد محمد نعمان وغيرهما ممن تورطوا في ذلك الانقلاب كما تحكي الرسالة الأ ولى، الوثيقة رقم ـــ٣ـــ.

وأما الرسالة الثانية ـــ الوثيقة رقم ٤ ـــ فالتلفيق فيها واضح بيّن إذ أن المزوّر قد غلط أولاً في تاريخها فجعله في شهر ٢ سنة ١٩٥٥م كما هوفي الرسالة الأ ولى ثم انتبه إلى أن الانقلاب لم يحدث و يفشل إلا في شهر ٤ سنة ١٩٥٥م الذي هو شهر ابريل فأصلح الرقم دون أن يغير الرسالة وكان الدكتور قد قال إنه في نفس التاريخ كان قد طلب من قبل الإمام إلى تعز ليحاكم المتآمرين على الإمام والذين تزعموه من إخوته وغيرهم.. وأنه قد لبّى الطلب ومرّ بالقاهرة وقابل أنور السادات فإلى أين ترى بعث الضابط محمد قايد سيف بالرسالة من عدن؟ هل إلى «بون» أم إلى «القاهرة» أم إلى «تَعز» مقرّ الانقلاب والإمام؟

لقد وقع الدكتور في هوّة التناقض، ورحم الله القائل: «إذا كنت كذو باً.. فكن ذكوراً»..

٢٩ ـ خاتمة المطاف وإبعادي من اليمن :

قبل أن أنتهي من حديث «ولاية العهد للبدر» وأتحدث عن خروجي من «اليمن» لابد أن أشير إلى أن دور «الملك سعود» و«الرئيس جمال عبدالناصر» في محاربة «الانقلاب العسكري» ومقالات وخطب «الزبيري» من «صوت العرب» قد كان له ولا شك أثره في تثبيت موقف «البدر» وفي تحريض «الإمام أحمد» على أن يضرب «الانقلاب» و يقضي عليه في مهده، و بالطريقة المذهلة التي تفنّن في وصفها القاضي عبدالرحمن الإرياني في كتابه المشار إليه والقاضي عبدالله الشماحي في كتابه «اليمن» من ص ـ ٢٨١ ـ إلى ص ـ ٣٠٥ ـ.

وقد قيل أخيراً إن وصول الأستاذين محسن العيني ويحيى جغمان إلى «تعز» من «القاهرة» عن طريق «عدن» كان عن «مؤامرة»، وأنهما كان يحملان رسالة من «الزبيري» إلى «الثلايا»، وإنهم كانوا يظنون أنه مع «الأمير عبدالله»، وأنصارهم سيتمكنون من الصمود مدة طويلة، وقد تقوم حرب أهلية بينهم و بين «البدر» فيتطور الأمر إلى قتل «الإمام أحمد»، ثم يوعزون إلى «الثلايا» بالتخلّص من «السيف عبدالله»، ولن يكون بعد ذلك من الصعب عليهم القضاء على «البدر»، هكذا قيل وأشار إليه الشماحي في كتابه، بل صرّح به الأستاذ محسن العيني في تقريضه لكتاب الشماحي والملاحظة التي أبداها عليه ص ـ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ـ ولا أدري إلى أيّ مدى مضى «النعمان» في هذا المضمار مع المصريين؟ ولا أحب أن أقول إنه لو صحّ ذلك لكان من الخيالات التي تورّط فيها رجال الانقلاب دون أن يحسبوا للقوى المعارضة حساباً، ولا أريد أيضاً أن أكرّر القول بأن بعض ما نشر قبل عشرين عاماً وقبل أن تتوطّد أسس الجمهورية اليمنية و يتطوّر شكلها السياسي إلى ما هي عليه الآن، و يصبح الحل والإبرام في أيدي شباب لا تسيّرهم العقد التاريخية، ولا يخضعون للعنعنات العنصرية أو الطائفية ولا تتحكم فيهم الأحقاد أو تيارات التباهي بأنهم وضعوا رؤوسهم على أكفّهم حين خلقوا اليمن خلقاً جديداً، وأن ما نشره البعض أثناء تلك الظروف الصعبة كان يتحاشى ذكر الحقائق ويحاول التقرّب إلى «الثورة» باغفال ما يظنونه هفوات من مدح للإمام أحمد أو ابنه «البدر» و يؤوّلون مواقفهم السياسية والأدبية والتاريخية تأويلات لا يبالون أن يوصفوا معها بالخداع، والغش والكذب، إذا أثبتوا أنهم كانوا «أحراراً» يمهدون للثورة و يعملون لها، والواقع يؤكد أنه لولا اعتماد «ضبّاط الثورة» على أنفسهم، وعلى السريّة التامة، وعلى المساعدات التي أبرزوا وثائقها فيما كتبوه في منشوراتهم الرسمية مثل «مذكرات عبدالله جزيلان»، وكتاب «أسرار ووثائق الثورة اليمنية» تأليف وإعداد لجنة من تنظيم الأحرار الذين فجّروا الثورة لولا ذلك لما قامت الثورة ولا الجمهورية، ولظل «نعمان» و«الزبيري» و«العيني» وإخوانهم في القاهرة، والإرياني والشماحي والشامي و بقية العلماء والشعراء والكتاب يحاولون الإصلاح والخير في مقام «الإمام» وابن الإمام وابن ابن الإمام.. هذه هي الحقيقة.. والذين كانوا بكتاباتهم قد حاولوا ـ لا أقول تزييف الحقائق ـ بل كتم البعض، وتأويل البعض تأويلاً يتقربون به إلى «الثورة» التي رحّبوا بها وأيّدوها بكل إخلاص، يُرجى منهم الآن أن يتجرّدوا للحقيقة، وأن يكونوا صرحاء صادقين لا يزايدون ولا يتباهون بما لم يعملوه



صورة المؤلف عندما كان وزيراً معوضاً لليمن في لندن عام ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م و يبدو معه [إلى الخلف] الأستاذ محمد الجنيد الذي كان يعمل في المفوصية أثناء دراسته في حامعة «لندن» حينذاك.

ولا علموه، ولا فكروا فيه، ولاسيما وعلى رأس الجمهورية شاب مخلص من أبناء الشعب، لا يزايد، ولا يتباهى بأنه خالق الثورة ومفجّرها، وصاحب الفضل عليها، بل يؤمن بمبادئها و يريد أن ينفّذها، ولا يهمه إلا إخلاص العاملين لها بصدق وإيمان، ولاسيما أيضاً وقد توطّدت أركان الجمهورية وآمن بها جميع اليمنيين، وأصبحت مصيرهم وحياتهم لا يطمع الخلص فيهم إلا أن يظلّ دستورها الحرية والعدالة والمساواة والعمران والعلم تحت راية القرآن، أقول يُرجى منهم الآن أن يتجرّدوا للحقيقة، ولا سيما وهم أيضاً من الجاه وحسن الحال، وعمق المعرفة بمحل لا يحتاجون معه إلى غير الصدق مع أنفسهم والتاريخ.

وكل ذلك لا يهمني لا حالاً ولا مستقبلاً ولا معاداً، وحسبي أني قد أفرغت بعض ما في جعبتي ملتزماً الإخلاص والصراحة والصدق جهدي وحسبي أيضاً أني قد أصحرت للدكتور الزائف عبدالرحمن البيضاني وأبرزته على صورته الحقيقة.

نعم لقد حدث بعد أن عدت مع البدر ونعمان من «السعودية» و بعد أن رجع «البدر» و«نعمان» من القاهرة ما لم أتوقّعه ولا أتصوّر حدوثه..

كنا ذات ليلة من ليالي «رمضان» في مجلس الإمام أحمد، وكان وجهه عبوساً والشرر يكاد أن يتطاير من عينيه ولمّا يمض على قتله لأخو يه عبدالله والعباس إلاّ بضعة أيام، و بصوت عال دعا الحاضرين، وأذكر أن منهم القاضي محمد الشامي والقاضي أحمد السياغي والقاضي محمد العمري والسيد عبدالله عبدالكريم ووليّ العهد البدر وأحمد نعمان ومحمد علي عثمان قائلاً: تعالوا أيّها الأقطاب، وحين أحدقوا به التفت إليّ وقال: وأنت تعال، فانضممت إليهم وإذا به يقول بصوت يقطر منه الألم:

ــ كلّ هذا... كلّ الذي حدث.. سببه «ولاية العهد».

ــ لو سَلِمْنا منها، ولم يخُضْ فيها أحد، لما حدث شيء مما حدث، أليس كذلك؟ وصمت الجميع، و وجم المكان، وتمثّل لي الشر أنواعاً وألواناً في عينيه، وقد سلطها عليّ وكأنه يقول: أنت الذي كنت أكبر أصواتها فلا تصمت الآن.

فبادرت وقلت: «هذا صحيح يا مولاي، ولكن والله ما قصدنا إلاّ الخير، و والله لو كنّا نظنّ أن بعض إخوانكم وأولادكم يحملون لكم إحنة أو حقداً، أو أنهم سيجرؤون على عمل شيء ضدكم لما خضنا فيما خضنا فيه، ولاسيما وأنتم كنتم غير راضين عن إثارتها، ومنعتمونا عن الخوض فيها.

وكأني بهذا القول قد فتحت مجرى لتيار غيظه المكظوم.. ونفّست عليه، ولحبتُ له سبيل المبرّرات.. فقال: نعم.. نعم، لقد كانوا يكرهونني، ويحار بونني، و يعملون ضدّي حتى في حياة والدي «الإمام الشهيد» واندفع يقصّ علينا الأدلة والشواهد التي تؤكد برّه بهم وعنايته وإكرامه وإشفاقه وما كان يقاسي و يعاني منهم، وقال: لقد قال لي مرة الإمام الشهيد أوصيك في إخوانك خيراً يا أحمد، فقلت له: يا مولاي أرجو أن توصوهم هم خيراً فيّ، وأظنه فعل، ولكنهم فعلوا وفعلوا، وكأنه

بهذه الشكوى قد فرّج على نفسه ثم خرج بنا البحث إلى مواضيع شتّى، وعندما خرجنا من مقام الإمام قال لي الأستاذ أحمد نعمان: لقد نفعتنا سرعة بديهتك يا سيّد أحمد، وأنقذتنا من حرج شديد.

وفي جلسة أخرى مع الإمام بحثنا فيها قضية علاقتنا بالانجليز و«الجنوب» و«عدن» وكان لي رأي خاص لا يوافق السياسة التي يتخذها الإمام وحكومته، وكان ينسجم مع ما أعرفه عن موقف والدي الذي تحدثت عنه سابقاً وكان من أسباب سوء التفاهم بينه و بين الإمام يحيى و يتلخص في أننا ضعاف متخلّفون فقراء، وأن من الأفضل لنا ـــ أي حكومة الإمام المستقلة ـــ الاهتمام بشؤون اليمن المستقلّة وتحسين أحوالنا اقتصادياً، وعمرانياً وتجارياً وعلمياً، حتى نبرزها في صورة تحبّب إلى قلوب إخواننا في الجنوب الانضمام إليها عن رغبة وولاء، وأن نُحسّن صلاتنا برجالات الجنوب أنفسهم، ونوضّح لهم أننا لا نريد أن نحكمهم أو نتسلّط عليهم بل نريد تخليصهم من الاستعمار، والارتفاع بمستواهم الثقافي والمعيشي والعمراني، ونحن لا نستطيع دعوى ذلك في مثل ظروفنا، وفي نفس الوقت نحسّن علاقاتنا مع بريطانيا ونفتح باب المفاوضات والحوار معهم حول مستقبل «عدن» وسائر الجنوب وارتباطها بالوطن الأم وعاصمتها صنعاء، وكان من رأيي أن المناوشات التافهة التي يتولّى تدبيرها واصطناع أحداثها القاضي أحمد السياغي من «قطعبة»، والقاضي محمد الشامي من «البيضاء» و يدير سياستها القاضي محمد عبدالله العمري في وزارة الخارجية لن تؤدّي إلى نتيجة حسنة، ولن تثمر إلا تبديد الأموال دون فائدة، وتعميق الخلف بيننا و بين المواطنين في الجنوب أنفسهم وتحمل بريطانيا على تقو يتهم وعلى إثارة وتشجيع المؤامرات ضد اليمن، و بالطبع كانت هذه الآراء قبل أن يتكوّن الاتحاد الفيدرالي بين «المحميات»، وقبل أن تنشأ المنظمات الوطنية، والجبهات الشعبية التي تولت فيما بعد محاربة الإنجليز حتى استقلّ الجنوب، وقد أفضيت بآرائي برفق صريح إلى الإمام، فلم تعجبه، ولم يؤيدها أحد من أعوانه بل إن القاضي محمد العمري قد قال لي بعد أن انفضّت الجلسة: لم تكن حكيما حين تصارح الإمام بمثل ما قلت، بل وكنت مغامراً، وأنت تعلم كراهيته للإنجليز ولا يهمّه في أن ينجح في ضم الجنوب أو تحريره، أكثر مما يهمه إقلاق راحة الإنجليز ومؤاذاتهم، و بثّ الدعاية، إنه يحارب الاستعمار، قلت: وهل في ذلك مصلحة له أو لليمن؟ قال: لا.. قلت: إذن فقد أديت واجبي، والمستشار مؤتمن.

وكنا لا نزال في شهر رمضان سنة ١٣٧٤ هـ / مايو سنة ١٩٥٥ م وفي ليلة من ليالي العشر الأواخر، ونحن في مجلس الإمام لاحظت أنه يرمقني بين الفينة والأخرى بنظرات غريبة وتضايقتُ وقلقتُ وتوهمت أن وشايةً قد نُقِلَت إليه عنّي، وتذكّرت حديثي مع القاضي العمري وأن صراحتي ربما قد أغضبت الإمام وهو لم يتعوّد من وزرائه ومستشاريه إلا تلبية أوامره وتحبيذ آرائه. وإذا به يدعو ابنه «البدر» ويحدّثه حديثاً هامساً شعرت أنه يدور حولي فغادرت المكان إلى ساحة «البركة»، وإذا بالأمير وليّ العهد يتبعني و يفاجئني بقوله: ما رأيك في الذهاب إلى «القاهرة»؟ فقلت بصوت لا شك أن البدر قد لاحظ ارتجافه: وأي «قاهرة»؟ فضحك ـــ وعلم أنه قد خطر ببالي سجن «قاهرة» حجة الذي أمضيت فيه عدة أعوام ـــ وقال: لا. لا تخف إنما أعني «قاهرة» مصر تذهب إليها كممثل لليمن،

قلت: حسناً، ولكن ما هو رأي جلالة الإمام؟ قال: هو نفسه الذي اقترح هذا الاقتراح وطلب منّي أخذ رأيك وقال إنه يريد إرسال شخص يعتمد عليه إلى القاهرة وإنه لا يرى أفضل منك؛ قلت: شكراً وأنا موافق بشرط التعجيل.. قال: إن شاء الله.

وفعلاً تم سفري إلى القاهرة بعد أن عينت في منصب مدير مكتب الشؤون الاقتصادية في وزارة الخارجية وهو مركز كبير، لكنّ وظيفته لا أعرف عنها شيئاً، وأنا أجهل خلق الله لا بشؤون الاقتصاد فحسب، بل وأصعب درس كنت أكرهه وأسقط في اختباراته هو درس الحساب، ولكن هكذا أراد الإمام، لأن المهمة التي سيبعثني من أجلها إلى مصر مهمة اقتصادية في بعثة يرأسها مدير المحاسبة العامة القاضي محمد الحجري، ومستشاراها، العالم الاقتصادي الحاج راسم الخالدي مدير دار السك السعودية، ومبعوث هيئة الأمم الخبير «سمينيسكي»، ومن أعضائها ـ غيري ـ الدكتور عبدالرحمن البيضاني خريج جامعة القاهرة والقاضي اسماعيل الجرافي السكرتير الأول في مفوضية اليمن بمصر، ومهمتها دراسة مشروع سكّ عملة يمنية جديدة فضيّة وورقية، ولها قصة طويلة في «كتاب حياتي»..

ولم أطلب زيارة زوجتي إلى «الحديدة» بل كتبت إليها أن تهتم بأوراقي وأن تحضرها معها إلى القاهرة لأني سأطلب من الإمام إرسالها وأن تبعث بكل أشيائنا من أثاث وكتب إلى «صنعاء»، وأعتقد أن الإمام أحمد أراد أن يتخلّص مني، وأن يخلّصني من أي إشكال أو إحراج بإبعادي عنه، وعن البدر وأن يضرب الستار على معركة «ولاية العهد»، ولقد أحسن إليّ بذلك.. وسافرت مع البعثة إلى القاهرة عن طريق «جدة» في شوال سنة ١٣٧٤هـ / مايو سنة ١٩٥٥م ولم تمض بضعة أشهر حتى تعيّنتُ قائماً بأعمال المفوضية وممثلاً لليمن بالجامعة العربية، ولحقت بي زوجتي مع أوراقي التي لولاها لما استطعت كتابة هذه الفصول من «كتاب حياتي».

٣٠ـ اعتذار:

والآن.. وبعد ما فرغتُ من كتابة الفصلين: الأول والثاني، من كتاب حياتي: «رياح التغيير في اليمن»، منذ خلقت سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م وحتى عام ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ وهي فترة ثلث قرن، وآن الأوان للانتقال إلى الفصل الثالث ثم الأخير.. أودّ أن أعتذر إلى أولئك الأصدقاء الذين لمّا سمعوا تنديدي بأكاذيب عبدالرحمن البيضاني عن اليمن وتاريخها ورجالاتها، وعرفوا أني أنوي تزييف دعاويه وأباطيله.. قد رأوا ألا أتعب نفسي فيما لا طائل تحته، ولأنه أقلّ شأناً من أن يهتمّ به رجل مثلي، هكذا قالوا، ونصحوني ألا أفعل، وها أنا وقد خالفتهم أعتذر، وعذري هو ما فصّلته في المقدمة.

٣١ـ تنبيه:

ولن يفوتني أن أنبّه وأشير إلى لؤم التشكيك البيضاني الذي دسّه بمكر أثناء كلام ظاهره الثّناء، على



أحدث صورة للمؤلف في مقره بمدينة «بروملي» «كنت» وبجانبه السيد ابراهيم بن علي الورير.

طريقة دسّ السم في العَسَل، فبعد أن تحدّث عن جهاده، وصارع طاحونات الهواء على حصان الباطل، و بسيف المراء.. وعرّض بفشل فلان ومصرع علاّن انتقل بمكر ودهاء إلى «أهم إنجاز حقّقه الرئيس علي عبدالله صالح» وهو «الميثاق الوطني» الذي سمّاه «قومياً» ثم قال في ص ٨١٦: «ولا شك عندي [هكذا] في أن الرئيس علي عبدالله صالح سوف يتعرّض للكثير من العقبات الكأداء، والعصبيّات العمياء، وأنّه قد لا يستطيع تنفيذ الكثير مما جاء في هذا «الميثاق». هكذا قال البيضاني، وهو تشكيك لئيم يُراد به الشر والكيد لأ بناء الشعب اليمني الذي التف بكل فئاته حول رئيسه الشاب القويّ الأمين، وسيخيّب الله ظن البيضاني، و ينفّذ الشعب ميثاقه الوطنيّ، لأن أبناءه جميعاً قد شاركوا في صياغته..

وسيرغم أنف «البيضاني»، ومن وراء البيضاني، و بجدّ أكرّرُ ما قلته في المقدمة: «إنه لمن المنكر بعد أن دخل اليمنيون في حظيرة الاخاء والوئام والسلام أفواجاً تحت راية «الميثاق الوطني»، والتعاون على البرّ والتقوى، وحكم الشورى والدستور، أن ينعب «البيضاني» بصوت الحقد الأسود، والتشكيك اللئيم، لينكأ الجراح، و يثير الفتنة و يفتري الكذب».

ولا شك أنّه لم يقدم على ما أقدم إلا مدفوعاً من قِبَل نفس القوى الشرّيرة التي حركته سابقاً، وعن تخطيط مدبّر يُراد به الكيد لا لِليمن وحدَها بل للأمة العربية جمعاء.. وفيما سلف من تحذيرات شاعر اليمن الزبيري، وفيما سيأتي من تفاصيل كيده ومكره، ما ينفع ذوي الألباب... وإنني إذ أتصدّى لتفنيد أباطيله وإبطال سحره، أحذّر أولئك المواطنين الأخيار الذين تزلّف إليهم بما يشبه الإطراء، فما هو إلاّ السمّ في العسل، و«ظاهره فيه الرحمة، و باطنه من قبله العذاب».

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهو نعم المولى ونعم النصير. وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلّى الله وسلم على محمد وآله.

بروملي ــ الجمعة: ٢٢/ رمضان/ ١٤٠٤ هـ
الموافق: ٢٢/ يونيــو/ ١٩٨٤م



الوثائق

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] نصيحة للإمام يحيى وجوابه [illegible] رحمهم الله بخطه [illegible]

[illegible] يتكلمون في التعليق عليها [illegible] أحمد بن محمد زبارة

مفتي الجمهورية العربية اليمنية أهداها لي [illegible] زارني [illegible] في شهر رمضان سنة ١٤٠٢ وكتب [illegible] تأتي واحدة الرسائل [illegible]

في يوم الأحد ٢ شعبان سنة ١٣٤١ أوصل الي إلى بيتنا بصنعاء أحد عسكر مقام الإمام حفظه الله مغلقاً [illegible] عنوانه إلي ففتحته كغيره من مكاتيب الأوامر المعتادة فإذا هو بخط الإمام وفيه بعد البسملة وعلامة الإمام ما نصه

الولد أحمد بن محمد زبارة حماه الله وصل الكتاب والنصيحة وقد علمتم أن كل المؤمنين ينقمون علينا وما علمنا المؤمنين إلا يثنون علينا غاية الثنا ويشكرون النعمة التي لم يعرف آباؤهم مثلها [illegible] الله لإقامة الشريعة ودفع الطاغوت وعز المؤمنين وذل الظالمين وارتفاع المنكرات وكل الرعية يحمدون الله على ما هم فيه ولا نعلم من ينقم على الإمام غيركم وإلا من يشغفهم فأوضحوا لنا من هم المؤمنون الذين نقموا علينا وليعلوا إلينا ولهم الفضل والمنة. ونصيحتكم تخشى على الإسلام أن يتنصل ما ندري من يريد التنصير من المسلمين ومن الفرار من الشر إلى [illegible] ومن الإيمان إلى الحنيفة ومن الشريعة إلى الكفر ومن الجنة إلى النار والسلام ٢ شعبان سنة ١٣٤١

فجاءني هذا المحرر بخط الإمام وأعرضته على الولد أحمد بن محمد حفظه الله واستفسرته هل كتب إلى الإمام أي شيء فأنكر هذا [illegible] مع تجويز [illegible] اختلاق العنوان وما [illegible] فقال بل حرر أرسل إلى الإمام قبل يومين نصيحة دينية رأى وجوب نصح الإمام بها وليست كما توهم هذا المحرر فما لغت في الإغلاظ عليه كيف يكتب ما يسميه نصيحة للإمام ويرسلها قبل استشارتك وشددت عليه في عرض صورة ما كتبه لتدارك ما عساه قد أخطأ بكتابته وإرساله لأن هذا المحرر الإمامي ليقتضي طلب الإيضاح منه للإمام ولا قوة إلا بالله فأعرض علي صورة بخطه نقلتها

مولانا أمير المؤمنين وسيد المسلمين أيدكم الله هذه النصيحة لها أيام أتردد في تقديمها لما بلغني من عدم الإصغاء والقبول والاشتغال بمطالب الدنيا الفانية والآن بلغني أن الله سبحانه وتعالى قد لطف بكم فغضبتم لله وغضبتم بعد واقعة بيت السلطان فسقيتم المؤمنين كأساً عذبة باردة [illegible] أحييتم بها أرواحهم بعد أن كادت تموت ظمأ وشاع أنكم قد عزمتم على وقف جميع كتبكم لينتفع بها المسلمون وإنها لقد انكشف [illegible] سبب [illegible] ولا تقولوا إذا [illegible] للناس [illegible] نصائح وهذا أول [illegible] خطاء وغلط عظيم وأعظم الجهاد جهاد النفس ولا تشمروا عن النصيحة ولا تقولوا [illegible] من جاهل [illegible] تعلم [illegible] وأما الكبار فقد ماتت قلوبهم بحب الدنيا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في [illegible] شعبان سنة ١٣٤١ أحمد بن محمد زبارة

وما قد تمكن في البلاد وكيف كان الفشل العظيم في اسرع وقت الذي سارت بجميع الركبان
وسار مسير الشمس وسببه في اعتقادي تفرق القلوب وذلك جميع المال
ولو كانت القلوب كما كانت مع ذهاب كم قريب الآن في اليمن والتمكن العظيم الذي
يتلاشى بنفهقه آه آه ثم آه آه يا للاسف ثم يا للاسف لغلبنا جميع الاجانب
ولو اجتمعوا ولنا فوكم كلهم
ولا ارى الآن شيئا اصلح للقلوب من استشارة غالب اليمنيين في كل شيء كما كان رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم يستشير حتى المرأة فيعمل بقولها اما اذا تم المجلس على احسن نظام
ونتفق للناس مع النتيجة الحسنة فشيء عظيم جدا وما شاء الله كان
اما انا ما قلت بيتا ولا اقل ولا اكثر في جانب حكومتنا الاسلامية شيد الله اركانها
ولا في جانب امامنا المعظم ايده الله تعالى وبقية السادة ولا اتصور ما بقيت ولا اتكلم
ولا اساجل احدا الكلام فيه حظ او انتقاص وما ذا يجدي وما يقطعنا حسرات
غير ما نسمع غيرة ومحبة لحكومتنا ولقد ارفعت التي عن موامل الوظيفة والمنصب
ولا اكبر واحد فانه يكفيني من الدنيا وما فيها بنفس تقشة وقوتي الى راس سنة
(ادنى ما فيها يكفيك وكلها لا تكفيك) وستعلمون وترون هذا ان طال بنا العمر
واعانني الله سبحانه بتوفيقه فمنه تعالى اطلب المعونة والتوفيق
وما بينت هذا الا لتعلموا اني مخلص في نفسي عسى ان يؤثر . ولا اعلم فرد اعا
اكتب الا اشارة خالتي سبحانه وان كانت قد ظهرت الكتابة الاولى لسيدي الوالد
حفظه الله وغيرهم من مقامكم وما شاء الله كان
وما احاط بالي الامر فلبي لقد ضللت اذا تكلمت بكلمة او كتبتها كلها او لغيرهم مخالفة
لاعتقادي ابدا ما حييت ان شاء الله تعالى بمعونته وتوفيقه
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في ليلة ١٠ رمضان سنة ٥٤ احمد بن [illegible]

فاجاب مولانا الامام ايده الله بخط يده بما نصه
بسم الله الرحمن الرحيم
لو كنت تدري ما اقول عذرتني ... او كنت أدري ما تقول عذلتكا
قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة
الدنيا خالصة يوم القيامة . وفي الحديث طلب الحلال فريضة ع
الولد الحسن احمد بن [illegible] حفظه الله لو كنت تعرف الحقائق لعرفت خطار في كلما كتبت
والشيبة ستعبة من كينونت . لقد قاتلنا الاتراك والنصارى ناجمعه والدنا
رضي الله عنه من المال والمؤنة وكلفه حتى فتح الله لنا الفتح وافضل علينا وعلى المسلمين والاسلام

بالنصر وغنمنا جميع ما مع الاتراك من المدافع والبنادق والمؤونات ثم قاتلنا الاتراك والسيد بن
بتلك المؤنة وذلك السلاح ولولا الله سبحانه وما كان معنا من الاسلحة التركية والمدافع
في جهة شهارة لما تم لنا عمل عند ان لم يبق من الناس معنا غير من في شهارة او عذر
وعصيمي ونحوهم وكان اكثر السلاح من الحرب والسكك واستمر الجهاد والقتال في شام
وعمن حتى نفدت المؤونات واضطررنا للمؤنة المعترضة حتى بالبارود الكرك وكانت
ذلك متمكنة عند الاشخاص نقابل بالعوض ولم يقبلها احد من الذين الا عند
الضرورة ويعتذرون بالمعترضة ثم بطل السلاح الحرب الى آخر درجة ثم تفضل الله
على الاسلام والمسلمين بالمعاهدة الطليانية فحصل بها المدافع الباهرة والسلاح
النافع والمؤونات النافعة تملأ الله بها كل المخازن واجوف ذلك من فضل الله
علينا وعلى الناس ولولا ذلك لجعل الله لما تم امر فقد سقط السلاح الحرب
والسكك الى الغاية ونهاية يدري بذلك اولو الالباب فكان ولله الحمد اتخاذ النظام

والاسلحة النافعة ويتم للاسلام والمسلمين بذلك بعض قوة ضرب الله بها على
ايدي الاشرار واهل الطاغوت وعرف الفضل لنا بذلك اولوا الديانة والعقول
وكذب من يقول ان المدخرات الملايين او عشرها او لا عقل لمن يقول ذلك
لانه لا يدري ما يقول وان ادخار ما في اليد انما هو للاسلام والمسلمين والمدافعة عن
ذلك لا لنا ولا لاهلنا ولا لاولادنا فاموالنا بحمد الله محصورة معلومة موضحة
في دفاتر يقرر ذلك الناس وبقية ما لنا وما علينا في اكثر اليوم بالكمال
ولله الحمد والمنة
وليت انا نجد مثل من قال الله فيهم ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد
ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون
ومع ذلك ننفق لهم ما في اليد ولكن اين واين لم يرض احد يحمل العلوة
الا بشروطه ومطالب عظيمة . واما الخروج للجهاد فمن الحجاز خمول رجل واحد
من دون مال ومراشاة يعرف ذلك اولوا العقول
اما الصدقات ومواساة الفقراء فذلك مستمر دائما في جميع اليمن ولا ينكر ذلك الا
جاحد على ان في الكثير وجده اكثر مصارف الزكوة
اما العمارة فالظاهر ان ما عمر الولد علي من عمارة تلك الدار العظيمة الا من حلال ولا
اثم في ذلك عند المسلمين وقد ادخر رسول الله صلعم قوت اهله للعام اما
انواع الملاذ فما ندري ما هي فما ناكل الا كما تاكلون ولا ناكل نحن في اليوم والليلة
الا مونة واحدة ومع ذلك فانا ممنوعون عن افضل طعام الدنيا والاخرة
واما لبسنا واولادنا واهلنا فهو اضعف من لباس غيرنا اكثره قطن والصوف
ولم نلبس ولله الحمد شيئا من الذهب والحرير الخالص
ولم نرد ولله الحمد فقيرا نعلم ضرورته وصدقه المكوس اخذناها عند الحاجة
ثم رفعناها عند اول غنية وابقينا ما هو من المراسي على الاجانب وعلى من يقطعها
وكسبها من زكوته من اهل اليمن ولذلك نقبل اماناتهم ولم نلح عليهم فيها
يعرف ذلك اهل الديانة والعقول
على ان الضرورة الآن حاصلة لاعداد المعدات اللازمة لدفاع الضاري عن
العباد والبلاد والطلب الآن منا لذلك من كثير من الجهات وقد صارت الآن
القوة المامور باعدادها هي المدافع والبنادق ومتراليوز ومكوناتها والنقود
لا القوس والنشاب والارماح والدروع والخيل بالاصل
ولا نعلم من قبلك لتبديل للاخلال بالصلوة ونقصها ولا من امر بتغيير على ان
انقاص الصلوة كتركها وحدة قاطع الصلوة القتل في شريعة الاسلام لا التقييد بالاحد
ولم نؤيد حبس عظيم من يدي زوجته فهو على المسلمين والاسلام بفساد او شق
عصى الاسلام او من هو قاتل او قاطع طريق او نحوهما ولم نطعم اهلنا واولادنا
شيئا من الزكوة الا ما شرطناه باكثر الاثمان من جلالنا بدفاتر عظيمة مع زيادة
عظيمة ولله الحمد ولم ننكر اخراج التمرة من فم الحسن وكلم تاكلون
انتم عين الزكوة من خزائن القصر ولله الحمد جنودنا المنصورة حيث توجه
ومكانات تكاد تهامة الا من اعداء آل محمد الذين لا يرون طاعة ائمة الهدى
واما اصحاب الديانة والشيعة فهم يتهالكون في حبنا ونصرتنا ويتبركون بنا

ويجاهدون بأنفسهم وأهليهم وأموالهم وفراشهم بأنفس طيبة ولله الحمد
وكل أهل اليمن المسلمون بل واليهود يعرفون نعمة الله ويحمدون الله لما هم فيه من النعمة
الشاملة التي ما عرفها أسلافهم ويعترفون بما يسر الله تعالى من الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر وإقامة الشريعة ومنع الطاغوت وإعزاز المؤمنين وإهانة الظالمين
وإرشاد الناس إلى معالم دينهم وتعليم الصلوات وفتح المدارس العلمية ونشر
المكاتب الابتدائية في كل بلاد حتى في بلاد دهمه ومأرب وحريب وإقامة الأوقاف

والمساجد والمناهل ولا ينعم علينا الأمريكي فلس أو حبة طوية في شيء
ولولا ما يسر الله على أيدينا لما أمكن لك فتح عمل في جهة [illegible] ولا لك ولا لآبائك
قدر ولا مدخل ولا أمان وسل والدك من هو المقتول من بني زبارة من العلماء
العاملين وماذا فعلوا بعده
أما الاستشارة فأنا ولله المنة نستشير أولوا العلم والمجربين العارفين بما في
العالم من حركات لا الجهال أمراض القلوب الذين لا يعرفون ما في العالم
وكل الآراء ولله الحمد سديدة لا ينكر ذلك إلا خبيث طوية يعرف الناس جميعا
بسداد رأينا ويرجعون إليه ولله الحمد
أما لبس القناطر فذلكم مثل لباس مئات الملايين حقيقة لا الكوكل مئات
ملايين النقود فالمسلمون في الهند والصين والروس والأتراك ومصر والعراق
والمغرب وسوريا وكل بلاد لبسهم كذلك والأفضل مساواة لبس المسلمين للبس
الكافرين فلم يأمر رسول الله صلعم المسلمين بتغيير لباسهم لمخالفة لبس المشركين يا احمد
أما إعلام ابنك بما تبلغك إلينا فهو منك لا منا كما أفاده أبوك
وسل والدك عما وعدنا [illegible] ما لم تستطع عليه صبرا
واللازم حمل المؤمنين على السلامة والهنا وكل أمرهم فيما لم يعرف الإنسان وجهه
وقد حررنا هذا على استعجال واختصار وسيوضحه لك والدك وإذا
بلغ إلينا بعد هذا عنك أدنى كلام في مثل ذلك فلا تلم إلا نفسك يا احمد
والسلام عليكم ح

الإمام يتمنى لي حواباته بقصيدة علقت بباب بيت العربي ومنها: في دولة أو في الزمان مليكها المتسيطرا
رشوة كل منهم، ثوب الشقاء تأزرا، هذا بغاية بهيم، وذا يسوق موترا، فنهى ونصحكم بخشى على الإسلام أن يتنصرا،
وقد صحت للقاضي علي بن عبد الوهاب الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

من وفد اليمن بالرياض الى وفد جامعة الدول العربية

بواسطة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا الامين العام لجامعة الدول العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولقد سبق ان اوصلنا لكم الحالة في اليمن اولاً فاولاً بواسطة البرقيات المتكررة بما كنا نعتقد انه كان كافياً لقيام الجامعة بمبادرتكم الى القيام بما يجب عليكم نحو هذا الشعب الشقيق من الاسعاف في محنته الحاضرة التي لابد ان تزول [illegible] ولما تستجيبوا لدعوتنا بواسطة البرقيات ظننا انها قد تكون قاصرة عن التوضيح فحضرنا بانفسنا الى الرياض وتراجعنا معكم الساعات الطوال من الايام الطوال مالم يدع مجالاً للاحتمال بانكم قد فهمتم الوضع في اليمن تمام الفهم ثم لخصنا لكم الحقيقة والاغراض في مذكرتنا الاخيرة التي كان مختصرها انه ليس في اليمن تنازع على الملك ولا [illegible] من الاعتراف باي منازع تنازعا وتشريعا [illegible] وان كان هنالك منازع ومع ذلك فلقد صرحنا لكم تفويضاً مطلقاً في الاعتراف باي منازع تشاؤون وتختارون [illegible] الا انه وان كان هنالك منازع ومع ذلك فلقد صرحنا لكم في صحوح وتأكيدنا الحاح ان الخطر الداهم الذي يهدد اليمن وحريتها ودمارها [illegible] تقصد الشعب اليمني كما تريدون وانا قد ذكرنا لكم من اشرار القبائل قطاع الطرق الذين ملؤوا عشرات السنين يعتقدون واعتقادهم على راجح؟ باستعمارها سراً استعماراً عما هم من [illegible] بالذهب والفضة ولما تنسخ في عقولهم من جنون نهبها عند وفاة الامام فذلكم اليوم صحيح انا الماضي [illegible] صنعاء سلبية بالذهب والفضة [illegible] كانت محصورة في تحصن الاسلام وهذه لا تغير [illegible] لاعتقادهم واعتقادهم ايضاً صحيح انه ليس في اليمن دولة لان الدولة السابقة كانت [illegible] ولا يستطيعوا [illegible] لهم [illegible] واذا مات الامام ماتت الدولة في شخصه والحاجات [illegible] المرتقبة من اولئك الاشرار [illegible] دون تزويدة الشعب لاثام وحصول غلطة تسليمهم [illegible] يقطعون الطرق على الابرياء ويعيثون في الارض [illegible] العين التي تحت [illegible] في ضلال [illegible] والمجتمع الاول في صنعاء بل مما لا [illegible] لا باسم الملك ولا باسم الحكم [illegible] الذين يحيطهم الان [illegible] صنعاء تم انا قد اوضحنا [illegible] الجامعة وطلبنا اليه [illegible]

[illegible] نقطة ان نقتحم دولهم او بعضها ادى سوءه [illegible] الفتنة [illegible] العروبة والاسلام والانسانية [illegible] ان ذلك يحتم عليكم [illegible] مما لم تقم حالا الى [illegible] اليمن [illegible] استعمار [illegible] تفويضاً مطلقاً في [illegible] ان تختلفوا [illegible] عسكرياً وادارياً وموضناكم تفويضاً مطلقاً [illegible]

[illegible] اكثر من [illegible] الوفد يبعث على الاحتجاج [illegible] سوء [illegible] على الاحتمال [illegible] الى [illegible] المغربية [illegible]

[illegible] حتى [illegible] الاجتماع [illegible] العرب [illegible] الجامعة العربية [illegible] فاذا البيت [illegible] اليمن [illegible] استعمار [illegible] ولا [illegible] العرب [illegible] العباد [illegible] ان الاذى [illegible] الاجدر [illegible] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وفد اليمن بالرياض

[illegible] عبد الله بن علي الوزير

[illegible] ١٩٤٨م

مذكرة من الوفد الدستوري الى امين عام الجامعة العربية
وقعها السيد عبدالله بن علي الوزير بتاريخ ١٠/ربيع الثاني/١٣٦٧هـ
وفي اليوم التالي كان سقوط صنعاء والقبض على امام الدستور.

٥ مايو [illegible]

رسالة الزبيري كتبها المرحوم
الى محمد علي الطاهر:

حضرة المجاهد العربي الأكبر محمد علي الطاهر

تحية الاجلال والاكبار لشخصيتك الفذة المكافحة [illegible] النضال

يختلف فيه الزمان [illegible] تلك الوجهة التي خصصت حياتك [illegible] فما تنفع بما أصاب

وأصابك كما طاردهم الزمان حياتهم [illegible]

اكتب اليك هذا من مكان يجلس على ظهر هذه الأرض لا يعرفه الانسان الا [illegible]

واكتب هذا وأنا لا أعرف من أخبار الدنيا شيئا الا ما تلك [illegible] العاجزة

[illegible] صديقي الذي كنت ما زالت [illegible] رفيقين لي من [illegible]

الكفاح وأفزع [illegible] [illegible] هذا الظلام

[illegible] حاجة الى أن [illegible] نفزع [illegible] الى الجد [illegible]

الذي نعيش فيه وحيدين لا يجتمع منكم [illegible] لتشيع [illegible] تكلمنا [illegible]

[illegible] القول اننا نعيش في حياة شاذة غريبة [illegible] اننا نخشى [illegible]

من كل مخلوف حذرا من الاخطار التي [illegible] [illegible] ولكن يمكن ان نقول لك بانا [illegible] مجهولة [illegible]

[illegible] بأسرارنا بالتفصيل ولكن يمكن ان نقول لك [illegible]

لم نستطع الظهور [illegible] الجاهلة من [illegible] على جناح [illegible]

وقد بلغنا ان جناح [illegible] مسافر قريبا جدا الى الاقطار [illegible]

ان تهتموا [illegible] الاهتمام بالاتصال [illegible] [illegible] ان تنالم [illegible]

[illegible] القضية اليمنية [illegible] [illegible] جناح [illegible]

[illegible] ان يعرفوا شخصياتنا فانا [illegible] [illegible] [illegible] الصدر [illegible] الصديق

الرجاء ان تخبرونا على الفور بنتائج مساعيكم سواء نجحت أو لم تنجح

ولكن جوابكم الينا بواسطة من يسلم هذه اليكم مصنوعا بالاسم المستعار

الذي وضعناه لأنفسنا وهو (محمد عبد الله [illegible])

بعد كتابة ما سلف عثرنا على عنوانكم بين أوراقنا فقررنا ان نبعث اليكم [illegible]

رأسا ولكن جوابكم الينا بواسطة عدن [illegible] بعنوان التالي :

(عدن - [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الى محمد عبد الله [illegible])

خطاب من عبدالله عثمان
الى محمد علي الطاهر.

٢٨ ابريل ١٩٤٨ ١٨ جماد الثاني/ ١٣٦٧هـ

حضرة المجاهد العظيم الأستاذ محمد علي
الطاهر حفظه الله وعليكم سلام ورحمة الله
وبركاته

اما بعد فقد بلغنا ما يفيد عن وطننا اليمن
ان الإمام احمد قد اعدم ما يقرب من ١٨ نفر من
الرجال وهم كما يلي

السيد عبدالله ابن احمد الوزير
السيد محمد ابن احمد الوزير
السيد محمد ابن علي الوزير
السيد عبدالله ابن محمد الوزير
والسيد عبدالله ابن محمد الوزير
السيد زيد الموشكي
السيد احمد محمد الشامي
الأستاذ محيي الدين العنسي
الحاج احمد العنسي
الحاج علي ناصر العنسي
الأستاذ محمد صالح المسمري
الأستاذ احمد البراق
الأستاذ احمد الحورش
محمد حسن ابو راس
عبدالله حسن ابو راس

الشيخ عبدالوهاب نعمان
حسين بن صالح الشايف
زيد علي عقبات

وهناك اشاعات اخرا لم تاكد بعد انه يريد اعدام
الاستاذ احمد محمد نعمان وغيره من الأدباء والعلماء
ولقد ابرقنا لكم سابقاً عن الزعيم احمد محمد نعمان

وخلاصة القول انا الامام احمد يعدم الاحرار بدون محاكمة.

القاضي الزبيري توجه الى الهند ولم يبق في عدن احد يقوم مقام الزعماء وليس لدينا اي مشكلة وتحت كما ترون لا نخلو من الخط والاملاء فضلاً عن الامور الاخرى وسنواصل جهدنا نحو هذا الوطن بمساعدتكم لنا وارجو ان يكلل اعمالكم بنجاح والسلام عليكم ورحمة الله

اخوكم عبدالله عثمان

الجمعية اليمانية الكبرى

عدن قسم ٤ شارع رقم ٤

[illegible]

MADR...

خطاب من الورتلاني
إلى الطاهر وهو ثانيه
من البحر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مستعجل ومهم جدًا

حضرة الأخ العزيز [illegible]

وبعد فإني أكتب إليك الآن من ميناء مصوع وقد بلغت منه [illegible]

[illegible] ثم نعود بالباخرة [illegible]

أخرى وإني آمل أن تكونوا بمساعيكم الغالية قد وصلتم إلى حل مرضي

لقد علمت أن الجماعة الذين كانوا معي من الحجاز قد سافروا إلى الهند

وكنا سنسافر سواء لولا تفريط لبنان [illegible] وآمل أن [illegible] علينا

أن [illegible] هذه الغلطة الكبيرة فتصححوها على أني لا

أستطيع [illegible] التي تطرقونها فأنتم

أدرى [illegible] وليس لي [illegible]

[illegible] الشفقة والإخلاص

في نفسي [illegible] فإن جاد [illegible] بإمكانكم

جميع الأصدقاء [illegible] على العمل [illegible] من الانسجام

فلعلكم لا [illegible]

بالسويس [illegible]

لا [illegible] مثل الهند

[illegible] وسوريا [illegible] البلاد.

[illegible] أو أمريكا [illegible]

الذين [illegible] الدول المتحضرة

[illegible] هذه البلاد [illegible]

[illegible] بالانتقال إلى [illegible] البلاد

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أخي الحبيب ومربينا [illegible] الرافعي [illegible] وجهه [illegible]

ومعه الحبيب بابا إبراهيم وإذا لم نخفقات فيا طالعها من الحاج

من أسيوطي أو غيرها ومن الحاج محمد بابا والحاج أحمد بن قايد [illegible]

بيوش طرابلس بالأستاذ [illegible] والحاج [illegible] والشيخ [illegible]

[illegible] الحبيب [illegible] من شعبان [illegible]

[illegible] فرصة [illegible] فإننا نستطيع [illegible]

[illegible] في بنغازي [illegible] جنب والمرحوم [illegible]

بابا الحسن يحتاج إلى همة [illegible] وأتمنى الهلال [illegible]

[illegible] وبعد فإن الحبيب [illegible] بقاء [illegible] بالمينا [illegible] نستطيع

أكثر من هذا الخطاب [illegible]

[illegible]

للحبيب وأرجو منها الحبيب الدعوات الصالحة [illegible]

شأنه [illegible] قدرته أن نكتب لنا ما فيه رضاه [illegible]

[illegible] السلام والسلام [illegible] الفضيل الورتلاني

يوم الجمعة ٧/٥/١٩٤٨

ليبيا د مصري

خطاب آخر من مجاهد
أرسله [illegible] إلى الظاهر
وصورته في البحر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مستعجل جدا

حضرة الأخ الوفي الأستاذ [illegible] حفظه الله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فإني أكتب

إليكم هذا من ميناء جدة في طريقنا إلى السويس

مرة أخرى بعد ما رفضت الحكومة [illegible] لنا بسبب

عدم وجود التأشيرة كما توقعنا [illegible]

السويس بعد نحو [illegible] أو ستة أيام من تاريخه

والمركب في هذه المرة [illegible] السويس [illegible]

[illegible] ولا تضيعوا شيئا من الوقت أبدا حتى

لا تضيع الفرصة وإني أعلم كثرة مشاغلك التي

هي مشاغل الناس جميعا ولكن هذا الشغل

من هذه [illegible] شغل [illegible] في

هذه الفترة الطويلة قد وفقتم [illegible] الأصدقاء

[illegible] قد وفقتم [illegible]

فإني أرجو أن [illegible] إلى [illegible]

المتطوعين [illegible] بالتطوع للجهاد

في فلسطين وإذا تم هذا [illegible]

[illegible] السويس [illegible]

كتيبة [illegible]

وهذا مما نعرفه من كل الحكم بينهما دائماً
وليس بنت الساعة وهو في الوقت نفسه شروع
من الحلول المشكلة أرجو أن تتفضلوا بما هو
المفيد وتبلغوا يا سادة بالحكومة المصرية وكمية
دون أن نتهادى في الأمور ويا ليتنا حتى
لقد كنت قبل هذا لله كنت أريد قبل عمله للشعوب
والسعداء لا يرضيها لكريم فالحال الاتصال الأربع
بقية الأصدقاء على باتا حرب الأخ محمد سالم
رشاد بين المغرب والسيد [illegible] بصحبتي.
حتى أن [illegible] بحكمة [illegible] الحكومة السودانية
لا أعرف ماذا لديه وإلا حضر بجمعها لأجمعه
وإن قد حضر [illegible] الأسباب [illegible] الإسلام
ويتدخل في العالم وهو هو الذي يفعل ما يشاء
وأسعدنا [illegible] المطلوب
[illegible]

جدة ١٧/٥/٤٢
[illegible]

خطاب من الفضيل آل محمد علي الطاهر
يشكره على مساعيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

- ... ... وماذا عرف لهذا الصنف ... الوفي؟ الشهم؟
المخلص؟ والنبيل؟ والأخ؟ والصديق؟ .. هل ذلك أكثر.
حين ذلك أنه .. إن الرجل .. أبو أحمد لا تعرفه الأوبئة
.. السعودي الذي يقدر التعامل ووفاءه ... ..
ثم إن شريك عمري كما تعبر ريتا وأبو نجيب وعائلته على
أنني لا أزال دائماً في حاجة ملحة إلى عنايتك أنت بالذات
لأنها تمتاز بالتقلب والعفوية .. لقد كانت بشرى تمر
دونية وبأعصاب ... ظننا تماماً أن الحمل . والدكتور الكريم
تقي الدين ... يستطيع الشكل والتشخيص
فقط. كما أن الكبرى لأن ... وصنف ... تنظيم ...
مشكوك ... المجاور ... بأنهم
يتيسر في ... أيضاً والدكتور عبد الوهاب من كان
موقف تنظيم في جهده وسائل ... كان ...
عطفنا ... وعلى كل ما ... ومراجعة ... مرة
كما أن ... السبيل الذي ... على يده ... الفرج
لقد وجدت رسولك عند ... الرئيس ... في
أول كلمة سمعتها منه كانت معروفة باسم أبو الحسن
... عنه ما ... رشيد ... ما لم يكن
... أبا الحسن ... ... الله ...

حينما سمعت ((أبو القاسم)) فبقي الى الآن بوصفه في [illegible]

على أثر [illegible] شاعرنا أبو القاسم حتى [illegible] الاطياف

وتفقنا أنه يريد أن ((أبو القاسم)) بالشقيقة هالك [illegible]

أرجو منك يا أبا الحسن [illegible]

[illegible] ليتفضلوا بالمساهمة في خدمتنا بالشكل

[illegible] فأنت أدرى بالطريق والأسلوب

ماذا عملتم أنتم أيها الأدباء في تونس في الجزائر [illegible]

وغيرهم [illegible] هنا أبو سعيد [illegible] أقسم بالله لقد كنت [illegible]

[illegible] البلاد العربية [illegible] في هذه المكتبة

التي [illegible] قد يكون هنا

[illegible] هنا [illegible]

[illegible] والدليل [illegible]

[illegible] صدقا [illegible] الأستاذ [illegible]

محمد [illegible] محمد مختار عبد اللطيف [illegible]

[illegible] رشاد عبد المنعم [illegible]

[illegible] باشا [illegible] الأستاذ عبد المنعم خلاف

[illegible]

[illegible]

[illegible] الواقع

[illegible] والسلام

[illegible] المخلص [illegible]

تحياتي للصديق الحبيب كامل بك كيلاني

الفضيل الورتلاني

خطاب من الورتلاني الى الطاهر
بعد تخلصه الى بيروت

بيروت ٢٤ / ٦ / ٤٨

حضرة الحاج عبد المولى نعمان.. ابو الحسن حفظه الله واعانه في محنته
وشجاعته السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ......
وبعد فان عرفتنا بخير وعافية كما تحب ان شاء الله ولعل الولد
نجل الرئيس قد حدثكم؟ وهو كما نعلم له فضل كبير وله مواقف
في غاية الشجاعة والرجولة وفهمت ذلك [illegible] من صديقك
الرئيس هذا وان الرئيس يفضل لنا الآن الصمت والسكوت
على ان موضوع طبع الكتاب بصفة رسمية يجب ان يكونا بالحزم
البت ويجب ان يتم الاتفاق مع مدير المطبعة العام ولحد
اليوم من حسن الحظ في يد صديقك الرئيس الرخصة كما شئنا
ولكن لا ندري بما تأتي به الايام من خير او شر بل لا بد له
من اجل ذلك نريد ان نغتنم الرخصة فنأخذ تصريحا من المدير
العام بالتزام طبع الكتاب ولو بيننا وبينه فقط هذا ولعل الفصل
في تاليف الكتاب لعبد الله [illegible] من غير نزاع وهو [illegible]
ولو ما هو اكثر منه ولكن يجب ان تعرف جيدا يا ابا الحسن
ان قضية الطبع هي متعينة حتما عليك ايضا متوكلا على الله
ولا تحتاج الى ترجيح لا مني ولا من غيري فالله يوفقكم كما
عودكم دائما بعض نعم الله عليك اذا حملتك (?) [illegible]
النهاية رغم قسوة الظروف عليك وفي ذلك الروعة
كل الروعة لقد حضر رسولك [illegible] وقابل
صديقك الرئيس بحضوري وافهمته انه [illegible]
موضوع الكتاب وكان خير رسول حقا فلقد بلغ الرسالة
كما تحب ووجدت منه صورة من فن وشجاعة ابي الحسن
وقد طلبته مرة ثانية فحضر الي بسرعة البرق وتحدثنا
طويلا في تفاصيل الكتاب وطبعه ولعله ستراه قريبا

ونعلم منه كل شيء. فحيلتي لجميع الاخوان والاصدقاء واحبائنا الذين يحرموننا بفضل حضرتكم. من اشتراكاتهم في الكتاب وتشكراتهم ولد أخص منهم الاستاذ بالذكر. فانهم جميعاً في متناول اليد المحسنة حفظه الله واعانه. هذا وان بعض الاخوان يرى انه لو كان طبع الكتاب بالشام او جزء منه بالشام والجزء الثاني في بيروت لكان الانجاز. لاسيما والطابع عندنا بسوق ومن فضل الله ان أرباب المطابع الكبرى هناك كلهم اصدقاء لنا لاسيما مدير المطبعة الوطنية البيرعي وحضرة كما انه الى حضرتكم ان لي اشتغالاً لنتائج على احسن الجهد .... والجواب لكيلا بالعنوان الآتي :

محل السيد خليل وعقيف بيروت. ما يقابله شارع [illegible] زغلول بيروت ومنه الى الاخ الاستاذ الواحد ((قرب بناية دعبول))

لاعدمتكم المودة يا اخا الحسن ولسعدكم المعترف بالفضل

الاخوان جدا [illegible]

محمد الفضيل الورتلاني

المدرسة الكتانية الإخوانية المركزية [illegible]

[illegible] الحاج [illegible]

عندي ما يحملني على الالحاح بوجوب تسوية
مسألة الورتلاني بسبب الوضع الذي تركه تحت القرار
منه وهو بالبحر وسيصل الورتلاني لبيروت بالاحترام
الزمالك للمرة الثالثة ولا تعوزكم الوسائل لحل
مسألته

حبيب جاماتي

[illegible]

G. 15.
للبرقيات
الحكومة المصرية
E. STATE
TELEGRAPHS
S
RECEIPT
25 MAY 1948

NO. رقم	٥ [illegible]
ACCT. حل حساب	
FROM من	بيروت
TO الى	
O/D الجهة	٢٧
WORDS كلمات	
RE. ملاحظات	[illegible]

CHARGE الاجرة	[illegible]
STAMP دمغة	[illegible]
TOTAL الجملة	[illegible]
AMOUNT IN WORDS المبلغ كتابة	
TIME وقت	[illegible]

برقيه حبيب جاماتي بخصوص الفضيل الورتلاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة صاحب السمو الملكي مولانا ولي العهد سيف الإسلام البدر المعظم

رماني الدهر في خلف السدود ... فلا أدري أأمضي أم أعود

فهمت الزمان فهيجني ... سواجع في الضمير لها نشيد

فقفنا للزمان ومحدثات ... تغلغل في جوانبها كنود

هي الدنيا فإن أعطت فقل ... وإن أخذت فمأخذها شديد

مضى للقبر عائلنا فأبقى ... صغارا لا تصول ولا تذود

وأما أمنا لا حول فيها ... سوى عين بها دمع يجود

ومجد في يديها مع الأيام حزن ... وروحها مع الشكوى تبيد

ولكن الذي جعل اليتامى ... ولا أب يعول ولا عميد

أتكفل باليتامى منه فضلا ... تبارك ربنا البر المجيد

فساق إليهم البدر عمادا ... فكان لهم سند سنيد

ولي العهد يا مولاي حقا ... كثير الخير معطاء ودود

إذا قيس الرجال فجئت قدرا ... وإن عدوا تخلفك العديد

فدم للخير والحسنى دواما ... لتبلغ في حياتك ما تريد

خادمكم الحقير
عبدالرحمن عبدالله البيضاني

مسودة بيعة الامير البدر
بخط القاضي عبد الرحمن الارياني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فإن من سنة الله [illegible] بالأئمة نظام
أمر هذه الأمة وجعل [illegible] على [illegible] منصب إمام عادل يلم شعثهم ويقيم حدودهم ويحفظ [illegible]
ثغورهم ويأخذ للضعيف من قويهم وينصف المظلوم من ظالمهم ويقاتل في ذات الله معهم ويخلفهم في أهلهم وأبنائهم
ويحكم بشريعة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويقوم عليهم بالحجة ويقيم فيهم سلطانه [illegible] أوجب عليهم طاعته في المنشط
والمكره وفي المحبوب [illegible] والمكروه وعلى كل حال من أحوالهم وفي كل أمر من أمورهم [illegible] بأمره بما فيه مصلحة الإسلام
[illegible] عليهم [illegible] - [illegible] بمصالح معاشهم ومعادهم - لكيانهم [illegible]
وحفظا لدمائهم وصيانة [illegible] . وقد [illegible] النظر في ذلك إلى العلماء الذين حملهم الله أمانة العلم
وأقام عليهم الحجة الشرعية وجعلهم أهل الحل والعقد في الأمر فإليهم العمل بما فيه صالحها [illegible] الأمور
[illegible] الأوفق للمسلمين [illegible] التي تدور عليها الأحكام الشرعية [illegible] اختيارهم
للإمامة [illegible] البلاد [illegible] قائم [illegible] طاعته [illegible]
ونحن الواضعين أسماءنا [illegible] أسماءنا [illegible] في [illegible] من [illegible] الأمة
[illegible] في البلاد [illegible] الكلام [illegible]
[illegible]
بخليفة مولانا أمير المؤمنين الناصر لدين الله [illegible] المنصور بالله [illegible]
[illegible] وما يبدو [illegible] المخلصين [illegible] النظر
في هذا الأمر [illegible] صاحب [illegible] ربما [illegible] الأعمال من [illegible] البلاد
والعباد [illegible] الذي [illegible] عليه كل [illegible] الإمام الشهيد [illegible] مولانا
والإمام [illegible] الأجنبي [illegible] الدين [illegible] الوطن [illegible]
[illegible] أطراف البلاد [illegible] هذه الأمة على [illegible] إلى [illegible]
مولانا [illegible] للاستقلال [illegible] على [illegible] فالبلاد [illegible]

مولانا السلطان [illegible] للانتقام [illegible] على [illegible] [illegible] فالحمد مع ذلك [illegible]

[illegible] المنظر البعيد [illegible] ما يثير الرعب [illegible]

[illegible] المتوقعة التي [illegible] من خلع [illegible] الشارع [illegible] السلطان على [illegible]

[illegible] في [illegible] البلبلة وقطع دابر القلق الذي اشاعه في [illegible]

السيئة ونشر الطمانينة في قلوب المؤمنين المخلصين [illegible] فاستقر [illegible] في ذلك اسوة بالسلف

الصالح وفي الخلفاء الراشدين . فاختارنا [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] المسلمين [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] وبايعناه [illegible]

[illegible] [illegible] حسن [illegible] بيعة [illegible] [illegible] البيعة

التي [illegible] [illegible] وسلمنا [illegible] [illegible]

[illegible] والعدل في حال [illegible] للضعيف [illegible] [illegible]

وان يرفع [illegible] كل [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وتقديم [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

على [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

الا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ان مولانا [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ما [illegible] [illegible] [illegible] الاحسان [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] على استقرار [illegible] [illegible]

على [illegible] [illegible] [illegible] ان [illegible] البيعة [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

مسودة خطاب وجهه الاستاذ محمد محمود الزبيري الى
الاحرار في صنعاء قبيل قيام الثورة بثلاثة اشهر
وفيه تحليل لموقف البيضاني وكشف لنواياه
والكتاب من اوراق الزبيري في مركز الدراسات اليمني

[illegible]

من ضيق ... عدم الميل الى المراسلة الا عند الضرورة القصوى وعندما تحدث مشاكل كبيرة يجب

التفاهم عليها ~~[illegible]~~ ولست من اهل الهمة في المراسلة والاتصال

ولكني رجل ... شديد الحذر شديد الاحتياط واخشى دائما عليكم انتم من المراسلات

البطالات التي ليس من ورائها طائل . وان طول هذه المدة لم اكتب اليكم شيئا

لسببين اولهما لانني كنت اتمتع ... [illegible] ... ولست

مطمئنا الى الطرق التي توجد في اسلوب الاتصال وثانيا لانه لم يحدث تطور هام يستلزم المراسلة

الخاصة وكل الرسائل التي وصلت اليكم كنت اعمل جاهدا عرفيا واقدرها تقديرا واحاول

ان احقق رغبتكم واجابتكم واحصل على كل مطالبكم ولكني لا انجح ولا اعدو الامر حد بدء

والموقف منذ كان السفر الى هنا حتى اليوم هو نفس الموقف وكل الذي عدناه [illegible]

وكل المحاولات التي حاولها هو ... [illegible] ... كنت ارى

انه لا لزوم للمخاطرة برسائل تعرضكم للفزع ... [illegible]

... الا انني كنت اعرف مطالبكم وما تريدونه عند حدوث التطورات المتعددة وكنت دائما اعاود المحاولات

والمطالبات باسمكم ولا اجد ... [illegible] ... الكلام الذي [illegible]

~~ذلك هو ما حصل في الماضي ثم تطور الامر تطورا خطيرا~~

~~جاء البيضاني الذي عرفناه ... [illegible]~~

~~الصحفية بعد عام ٤٨ ... [illegible] ... الامام في ذبح الاحرار~~

ذلك هو ما حصل في الماضي ثم تطور الامر تطورا خطيرا .

جاء عبد الرحمن البيضاني : الذي عرفناه ذاتا من الاذناب الاذلاء

اول ما عرفته بعد عام ٤٨ وسمعت عنه وانا في باكستان وهو يعقد المؤتمرات الصحفية

ضد الامام ويبرر ذبح الاحرار ويرميهم بالخيانة ويمن الاحرار في الداخل والخارج

فكان بيننا الاتصال والالتزام وظل كذلك ذئباً مخادعاً عشر سنوات تقريباً

جاء هذا الرجل من الانجليز فجأة وقد اصبح من الاحرار الكبار ومن الابطال وجاهر
بتجرده من سلطاته المزعومة الخيالية وكانت الفكرة الوحيدة التي ينادي بها هي
ثورة القحطانية ضد الهاشمية لانه يعرف ان الضمائر تتحمس لكي يخدعهم
وقد غامرنا بالشك في موقفه لاننا عرفناه مراوغاً ومخادعاً ولا يمكننا الثقة به
وكل منا يعرف ان كل منكم احبكم من اهل القضية اما نحن في الخارج فلن نعرف شيئاً حتى
ولو تعاونا مع الاجانب

اذ ان الناس يعرفون عنه انه عميل وطيب القلب وعرضة للانخداع والتحقير الى
اشد الناس عداوة وقد رفضت التعاون مع البيضاني الا في حدود المجاملات والاعمال
العامة واخيراً رأيت الجميع وقد وافقوني على رأيي وقرروا عدم التعاون مع
هذا الرجل الخطير وقررنا بالاجماع ابعاده عن جامعتنا وحاول مراراً ان
يقنعنا بالتعاون فكررنا الرفض لاصرارنا عليه والقطيعة بيننا وبينه طويلة
جداً

عندما تعاونا معه في البداية تعاونا سطحياً كان من شرطنا الوحيد ان يكون
الموقف بالداخل من حقوق اختصاصنا وحدنا ولا حق تقرير الخطط السرية
للمراسلة والتخطيط وكان غرضنا من ذلك هو صيانة اسماء الاحرار واسرارهم
وابعادها عن مخاطر السخف الصبياني وكشفها لعدد كبير من الاشخاص دون
ولكن البيضاني راح من وراء ظهرنا وتفاهم مع بعض الاخوان [illegible]
على ان يتصلوا بالاحرار بالداخل دون علمنا ثم اختلفوا بعد ذلك وخادعوا البيضاني
بكتابة كلامه في نشرة من نشره كل ذلك كان دون علمنا ثم عرفت الحكاية بعد ذلك
وما ثبت الجميع واتفق الجميع بعد الغاء الاتحاد الفيدرالي وانبعاث الامل في قيام الجمهورية
اتفقنا جميعاً على التخلص من البيضاني نهائياً

ولكن البيضاني بمظاهر الضخمة الفارغة والابهة ولقدرته على التظاهر والخداع استطاع
ان يخدع بعض المسؤولين الكبار في الجمهورية العربية وهم لا يعرفون عن قضية اليمن شيئاً
ثم اعلن ثورة القحطانية ضد الهاشمية ليخدع الشعب ويخدعكم انتم ويتصل بكم
منفرداً ثم يخدع المسؤولين في القاهرة ويوهمهم انه اصبح هو قائد الحركة وان رجال اليمن
يتصلون به وحده ويثقون به ولا يثقون بنا وهكذا سلسلة من الخداع

والحيل والمناورة حتى اصبح بالفعل ماسكاً بازمة القضية مطلعاً على اخطر

الاسرار والاسماء وصار هو المرجع الاول والاخير

فهل يجوز ان يتحول مجاهدو الاحرار منذ اكثر من عشرين عاماً نهباً

مباحاً لهذا الذئب الآثم ... ؟

وهل يجوز ان يصبح مثل هذا الشخص قائماً متحكماً على الرقاب والدماء

والتخطيط وتراث الاحرار ورصيد الاحرار وشرف الاحرار بينما نكون نحن مبعدين

عن ذلك متشوقين ... بينما يتحول جاسوس الامام

الى قائد للحركة الثورية ... ؟

لقد اصبح البيضاني هو الزعيم الاوحد حتى ان بعض الرسائل التي ترسلونها الينا

الى واحد منا التي الينا بواسطة بعض الموظفين المصريين لا تسلم

الينا بل تسلم اليه الى الزعيم البيضاني الاوحد

ان البيضاني اغراكم بفكرة الشيطانية وانتم لا تتصورون ما وراءها

ان الاحرار سيدفعون ثمنها غالياً فان البيضاني لا يقصد بها الا تمزيق

القوة الوطنية في الشمال اولاً ثم يعتمد بعد ذلك على اثارة العصبية

بين الشافعية والزيدية وباعتباره من الشمال الشافعي ولانه لا يملك

رصيداً في الحركة الوطنية فسيكتل حوله قوة شافعية يعتمد عليها للقضاء

على كبار الاحرار في الشمال الاعلى بصورة خاصة لان اكثرية الاحرار البارزين من

هناك ومن السهل عليه التخلص منهم وبذلك يصبح هو الزعيم الاوحد بحق

ونحن والعلم لا ننافسه في زعامة ولا في منصب ولا جاه ولكننا نعرف

ان الرجل يشعر بالنقص عندما يقارن بين نفسه وبين قادة الاحرار

الذين لهم رصيد وطني عظيم ولهم شعبية عند الجماهير وبسبب ذلك

وبما ان له نفوذه الكبير عند بعض المسؤولين المصريين فسيكون همه الاول

التخلص من الاحرار الكبار جميعاً حتى يخلو له الجو وحده فهل تقبلون

ان يصبح مصيرنا جميعاً مع كل الفساد العذاب والتشرد هو

ان نتشرد من بلادنا من جديد او نصبح تحت رحمة هذا الرجل

عبثاً؟ أولاً أن هذا هو المصير الذي نخشى؟ فنحن نعرف ما لا تعرفون

انه يقول للمسؤولين بان الاحرار جميعاً يؤيدونه في الداخل وحده ولا نعرف ماذا
حصل هل انفصل بكم فعلاً وهل اختصصتموه بالتأييد وهل اعتبرتموه ممثلكم
الأوحد بعد الجمهورية وهل قد رشحتموه من اطلاعنا على اي شيء

انما لا ندري ما هي الحقيقة ولكن الذي نعرفه وندريه هو انه اصبح المسيطر على
حركة الاتصال بالداخل وعلى كل شيء

فاذا كنتم انتم قد رضيتم لهذا الرجل بان يصنع كل الذي صنع وتغاضيتم عنه حقاً من وراء ظهرنا
فانا يعلم الله ما قاطعته ولا عذرت الآخرين منه الا خوفاً عليكم وحرصاً على اسراركم
ولانني اعرف الرجل معرفة حقيقية ولم اشأ ان اتحمل مسؤولية تقديم
رجل لأمانة القضية وانا لا انتي ؟

ولكن اذا كنتم قد فعلتموها ولم تحسبوا لكرامتي حسابكم وانا هنا منذ عشر
سنوات امرغ وجهي في التراب من اجل مساعدتكم على القيام بالحركة
فانا لا اعتب عليكم ولا الومكم فانتم احرار تستطيعون ان تعملوا ما بدا لكم
وكل ما اريده منكم ان تصارحوني بالحقيقة سريعاً

وان كنتم لم تعرفوا ما حصل فكل رجائي بحق الاخوة المقدسة بيننا ان تستردوا
اعتباري وتبيضوا وجهي وتحتجوا لدى المسؤولين العربيين على وضعهم مصير
القضية بيد رجل دخيل على القضية وتكلمتم عنا بصورة تجرح كرامتنا وتظلم
تاريخنا وتجحد حقنا ومركزنا في قضية بلادنا

انني اعتبر نفسي واحداً منكم فلا اظنني لا اتحمل ان استبدل عنكم محمد علي زبارة او الجبل
فكيف وانا لا اعتقد انكم تستبدلون بنا شخصاً لا يعرفنا في غرابة
وهل تقبلون مثلاً اهمال سناه ومحسن وامثالهما من المخلصين الصادقين وتمكين النكرات
النكرات من مصير القضية ...؟

لقد طالبنا سنتان بالحضور الى اليمن بعدن وظل هنا مدة طويلة ولم يحصل على نتيجة ثم
سافر لبنان بخيبة الأمل وكنت انا اعتذر للجمهورية لانها حرة في اختيارها الشرعي
ولكنه لما تبين لي ان الامور كما اصبحت في يد البيحاني وانه يقوم بنشاط
مجيبه اندهشت جداً وتألمت لان معنى ذلك هو الغاء كل ثقة بنا جميعاً
واهدار لكرامتنا بل ان المعنى قد يكون اخطر من ذلك كله وهو العبث بالاحرار

العابرين وتدعيم الشخصيات الشابة البكرة ولن يقف الامر عند

هذا الحد بل انه سيتطور الى حد ان نتعرض في المستقبل للاضمحلال جميعا

وهذا نذير خطير لنا اذا لم نثبت وجودنا منذ الآن

وكل ما نحتاج اليه هو الاحتجاج والاصرار على حقكم في اختيار من يمثلكم في الخارج

بدون تهاون . تصوروا ان ابوزيد لا يقبل ان نتصل بنا ولا ان يجتمع بنا.

وانه كلما كان يهرب من الشيخ سنان في ذلك الوقت نفسه لا يمل من زيارة البيضاني

ولا يقطع امرا دونه : ان الظهور بالاشكال لا ينفع

بقيت مسألة اخرى لعلها في نفوسكم وهي ما تسمعونه من تشكيك فيما للاستاذ نعمان

وقد يقال لكم اننا واياه جبهة متزعزعة والحقيقة ان الاستاذ نعمان هذه الايام لم

يعد له نشاط في القضية اصلاً وانه مشغول بشئونه الطبية وكليته بالتقسيط [illegible]

[illegible] في لبس البيني وهذه غير الصداقة الشخصية والحفاظ على تراث الحركة

من الالوان ولكننا فيما عدا ذلك كل منا اصبح فردا مختلف وقد اصبح هذا الواقع

مفهوما بيننا وكل منا راض بموقفه ومع ذلك فالبيضاني والاسبادي ثلاثة [illegible] نعمان

من حيث [illegible] رغبه واهميته فالعجب كل العجب لمن ينكرون الشعار [illegible]

الجمهورية العربية اليمنية

القيادة العليا

التاريخ ____________
الرقم ____________
الموضوع ____________
المرفقات ____________

بالشفرة من المفوضية للجمهورية اليمنية [illegible]

سيادة الأخ الرئيس جمال عبد الناصر

تحية طيبة وبعد علمت من المخابرات العربية بصنعاء
معلومات خطيرة [illegible]
ان البيضاني يتصل [illegible] أيام البيضاني
ويدفع للانفصال بالسلطات الأجنبية ويحفزه
على الانفصال ويمنيه بأنه سيكون كما في
سلاطين الجنوب حتى أصبح الرجل [illegible]
كثير من أبناء الجمهورية الحنيفة والشعب الى
[illegible] وقد ثبت لدي بما أن البيضاني
يتصل ببعض الزعماء ويحاول بذلك التآمر
[illegible] ولكني لم أصدق حتى تلقيت تقريرا من المخابرات
العربية بصنعاء وهذا [illegible]
لتكونوا على علم [illegible] هذا الخائن [illegible]
[illegible] وطنه — أخوكم

[illegible] ٢٢٢

رئيس الجمهورية اليمنية

عبدالله السلال



[رياح التغيير في اليمن] هو السفر الأول من ذكريات «أحمد الشامي» وانتظروا :

السفر الثاني منها واسمه : [يوميات منتظر]

والسفر الثالث والأخير وعنوانه : [حرب السلام في اليمن]

فهرس الموضوعات

